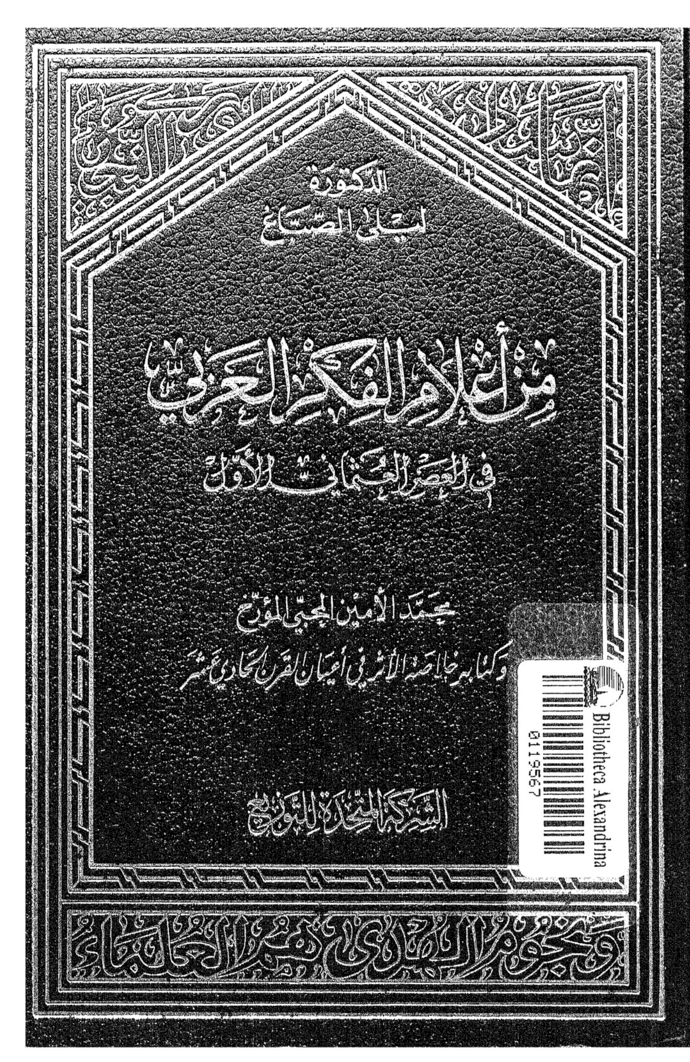
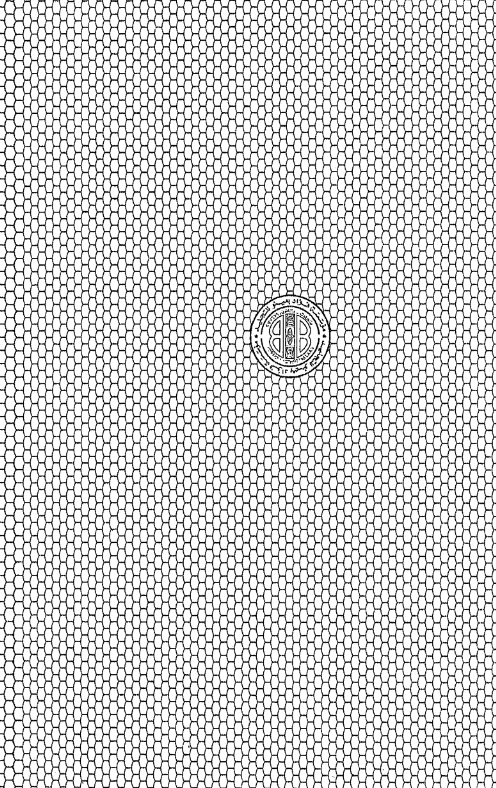


Bibliotheca Alexandrina
0119567





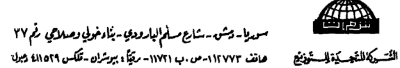

من أعلام الفكر العربي
في العصر العثماني الأول

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م





الشركة المتحدة للتوزيع

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي رقم ٣٧

هاتف ١١٢٧٧٣ - ص.ب ١١٧٢١ - برقياً: بيروشران - تلكس ٤١١٥٢٩

الدكتورة ليلى الصبّاغ



١ - تراجم

محمّد الأمين المحبّي المؤرّخ

وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر

(١٠٦١ - ١١١١هـ - ١٦٥١ - ١٦٩٩م)





المقدمة

لقد وسم كثرة من مؤرخي تاريخ العرب الحديث، وعديد من الباحثين في تطور الفكر العربي، الحياة الفكرية في المجتمع العربي، خلال المرحلة الأولى من الحكم العثماني، أي خلال القرون الثلاثة الأولى منه (العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر للميلاد)، بسمات التدهور، والانحطاط، والجمود، مندفعين وراء الفكرة الشائعة، بأن الحضارة العربية الإسلامية، التى تأصلت جذورها، وأينع ثمرها، إبان حقبة القوة السياسية العربية من حياة الخلافة العباسية، قد أصابها الحكم التركي العثماني إلى جانب عوامل أخرى، بالوهن والذبول. بل شد كثرة من أولئك المؤرخين ذلك الزمن تراجعاً، فمدّ مرحلة الانحطاط إلى فترة أبعد في القدم، حتى غطى حقبة السيادة السياسية للعناصر الأعجمية على الحكم العباسي العربي كلها، ولا سيما التركية منها. وكانت هذه الأقوام التركية قد فرضت وجودها وسيطرتها الفعليين على أجزاء من الوطن العربي المشرقي، من منتصف القرن الخامس للهجرة وحتى النصف الأول من القرن الرابع عشر / منتصف الحادي عشر للميلاد وحتى الربع الأول من القرن العشرين (٤٤٧ ـ ١٣٣٨هـ / ١٠٥٥ ـ ١٩١٨ م). وبذلك ربطوا انحطاط الأحوال الحضارية للمجتمع العربي، بتدهور الأوضاع السياسية للخلافة العربية العباسية، وبتحكم الأتراك في سياسة البلاد. فالحكم التركي بمجموعه، بقي ـ في رأيهم ـ بعيداً عن العطاء الحضاري، وغريباً عن الأصالة الإسلامية العربية، هذا على الرغم من

اعتناق الأتراك للإسلام، وتبنيهم الدفاع عن سنيته، بل عن وجوده السياسي والحضاري تجاه أعدائه، وانصهارهم إلى حد كبير في بوتقة المدنية العربية الإسلامية. وهكذا تولد في الأذهان، بل وثبت فيها، بأن الحضارة العربية قد انقطع معينها، أو جفت عروقها، أو على الأقل تجمدت، منذ أن خرج مقود السياسة في الوطن العربي والعالم الإسلامي من أيدي العرب.

إن الدراسات الأولية التي لامست مؤخراً تلك المرحلة التاريخية الطويلة من الحضارة العربية، الموسومة بالتدهور، والإفلاس، والجمود، وبصفة خاصة «المرحلة السلجوقية» منها، أظهرت أن الحضارة العربية في المشرق، لم تشلّ وتخب جذوتها، بل ظلت فاعلة وسخيّة العطاء، وان داخلتها لوينات جديدة، لم تسيء اليها، وإنما أغنتها [1]، هذا على الرغم من الاجتياحات المدمرة التي تعرضت لها من الشعوب المغولية، والاوروبية على السواء. فقد استطاعت هذه الحضارة الأصيلة، والمكينة، أن تطبع الدول الحاكمة غير العربية، التي قامت على أرض المشرق العربي، بطابعها العربي الإسلامي، وان تحوّلها إلى دول حضارية تهتم بالعلم ونشره، والعمران وازدهاره، بعد أن كانت شعوب تلك الدول الحاكمة، تعيش مستوى حضارياً متدنياً، وَدَيْدَنُها الحرب والطعان. بل استطاعت تلك الحضارة أن تمنح أوروبا الغازية للأرض العربية، دفقة الحياة المتمدنة، بما بثته من نسغ انتاجها الحيّ، في البنية الحضارية الاوروبية المعروقة.

إن تلك الدراسات الأولية أثبتت أيضاً، ولا تزال تثبت يوماً بعد يوم، أن الحضارة العربية لم تمت بدخول الأتراك السلاجقة وحكمهم للعالم الإسلامي المشرقي ومناطق من الوطن العربي، ولا بهجوم الصليبيين وتوضعهم على أجزاء من التراب العربي، ولا بحملات المغول المتتالية وتخريبها لعاصمة الخلافة

---

(١) ك. كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. المجلد الأول. تعريب بدر الدين قاسم بيروت، ١٩٧٢. ص٣٤١ - ٣٨٠، وبصفة خاصة ص ٣٤١ و٣٥٠.

العربية في بغداد، ولكثير من مظاهر الحياة الحضارية فيها، بل إن حيويتها، وحركيتها، كانتا أقوى من جميع تلك النوائب التي لحقت بها، فعادت الحياة المدنية تتفتق ثانية، وتملأ حنايا البلاد العربية، والعالم الإسلامي من جديد. كما أن الحضارة لم تتقهقر بتفجر الحضارة الأوروبية الخصيب في القرن العاشر / السادس عشر، إذ كان ذلك التفجر ذاته، وفي جذوره قد استقى من عطائها. وظل الأوروبيون، حتى وهم في عصر نهضتهم المتألقة، يرون في تلك الحضارة، عبر سياحهم وجالياتهم، وحتى منتصف القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، نبعاً حضارياً يمكن أن يرشفوا منه ما فاتهم، ويأخذوا من واقعها في البلاد العربية والإسلامية، ما يرونه مساعداً على تكامل حضارتهم[1]. ولذلك سعوا سعياً حثيثاً لجمع أكبر قسط من المخطوطات العربية المختلفة، وفي شتى العلوم والمعارف، وعملوا على ترجمة بعضها، مما يمكن أن يفيدهم[2]. وكان ذلك جزءاً من « حركة الاستشراق » التي نمت في

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر، ما كتبه « الفارس دارفيو » في مذكراته:

Mémoires du Chevalier d'Arvieux. 6 tomes. Paris M.DCC.XXV.

والفارس دارفيو وفد إلى بلاد الشام متاجراً عام ١٦٥٨م، وزار كل مدنها، كما زار بعض مدن مصر، وأرسل مبعوثاً رسمياً إلى تونس والجزائر. ثم عين قنصلاً لبلاده (فرنسا) في حلب. وقد سجل مختلف انطباعاته الحسنة والسيئة، وتحدث في الجزء الثالث (ص ١٧٠ - ٣٣٢) عن بعض مظاهر الحضارة العربية بإعجاب. وقد أكد مثلاً بأن الزراعة في حلب آنذاك مشابهة لما هي عليه في أوروبا (الجزء ٦ ص٤٦٠).

- وانظر كذلك « الرحلات الرئيسية للأمة الانكليزية وكشوفها » لـ« ريتشار هكليوت »، الجزءان الثاني والثالث بصفة خاصة، حيث يتضح اهتمام الانكليز في القرن السادس عشر بالصناعة النسيجية والصباغية المتفوقة في البلاد العربية والدولة العثمانية.

R. Hakluyt, The Principal Navigations, Voyages, and Traffiques and Discover-ies of the English Nation, by sea or overland, to the Remote and Farthest Distant Quarters of The Earth at any time within the compasse of these 1600 Years. London, S.D. t. 11. p. 89—96.

وغيرها من الرحلات الأوروبية، ووثائق الجاليات الأوروبية في البلاد العربية، الكثيرة والمتنوعة في عديد من دور المحفوظات الأوربية كفرنسا وانكلتره والبندقية وغيرها.

(٢) من هذه المخطوطات التي أبدى الأوربيون اهتماماً كبيراً بها في القرنين السادس عشر والسابع=

هذه المرحلة، لا لأهداف علمية بحتة فحسب، وإنما لأغراض نفعية مادية أيضاً [١].

وإذا ما سلطت أضواء البحث على « المرحلة العثمانية » من الحضارة العربية الإسلامية، بموضوعية وتجرد - وهذا النمط من الدراسة لم يأخذ حيّزه المناسب والمرغوب به بعد - تبدّى لأول وهلة واضحاً للعيان، أن تلك الحضارة العربية الإسلامية قد تبناها الأتراك العثمانيون كما تبناها الأتراك السلاجقة قبلهم: فقد اعتنقوا الدين الإسلامي، وجعلوا الجهاد في سبيل إعلاء كلمته، الركيزة الكبرى لوجودهم، والمنطلق الأول في بناء إمارتهم وامبراطوريتهم [٢] وأقاموا دولتهم على الدعامات التشريعية للحضارة العربية الإسلامية، وعاشوا ضمن نظمها الاجتماعية، وكثير من أعرافها، واقتبسوا نظمها الإدارية. أما ما يقال عن أنهم قد تأثروا تأثراً كبيراً، في تنظيمهم السياسي والإداري بصفة خاصة، بالحضارات الفارسية، والبيزنطية، وسلاجقة الروم، فإنه من المعروف أن حضارة سلاجقة الروم، ما كانت عندما ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح التاريخ، سوى غصن من دوحة الحضارة العربية الإسلامية، بينما كان

= عشر، كتاب « تقويم البلدان» لأبي الفداء، لما كان يمكن أن يقدمه لهم من معلومات جغرافية عن مناطق يجهلونها في عالم ذلك الوقت، ومن ثم بحثوا عنه بلهفة وترجموه.. انظر حول هذا الأمر رسالة العميل التجاري الانكليزي « نيوبري » إلى صديقه « ريتشار هكليوت » المؤرخة في ٢٨ أيار ١٥٨٣ م في كتاب:

Voyages and Travels mainly during the 16th and 17th centuries with an introduction by C. Raymond Beazley. 2 vols., F.R.G.S. Westminster 1903. Vol. 1, p. 306.

وانظر أيضاً: D'Arvieux, op. cit., t. IV, p. 103.

(١) أنظر حول حركة الاستشراق، ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. رسالة دكتوراه (لما تنشر بعد). جامعة القاهرة ١٩٦٦. ص٤٨٦ - ٤٩٢.

(٢) انظر حول نشأة الدولة العثمانية وامبراطوريتها:

Langer and Blake, The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background, American Historical Review, XXXVII, 1941, pp. 468—505; P. Wittek, The Rise of Ottoman Empire, London, 1938.

كثير من المقومات الإدارية للحضارتين الفارسية والبيزنطية، قد تفاعل في صلب الحضارة العربية الإسلامية، منذ عهد الخلافة الراشدة، فالأموية، فالعباسية.

وفي الواقع، لم يكن تأثر الأتراك العثمانيين بالحضارة العربية الإسلامية، في البنية الإدارية لدولتهم فحسب، وإنما تغلغل ذلك الأثر إلى البنية الثقافية. فاللغة التركية التي أثبتت وجودها المدوّن منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، كانت زاخرة بالمفردات العربية، واقتبست بعض قواعدها من العربية، كما اقتبست أخرى من الفارسية [1]، وتبنت الخط العربي. بل إن الفكر التركي العثماني، كان حتى قبل ضم الدولة العثمانية البلاد العربية اليها، قد انطبع بالفكر العربي الإسلامي، وذلك عبر الدراسة المباشرة للقرآن الكريم وعلوم الدين، من حديث وتفسير، وعبر ترجمة أمهات الكتب العربية الإسلامية إلى اللغة التركية، في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ككتب السيرة، والتاريخ والحديث، والتصوف، والطب وغيرها [2]. وعن طريق وفود بعض العلماء العرب إلى مدن الدولة العثمانية، وانتقال بعض العلماء الأتراك إلى البلاد العربية، للحج أو طلب العلم، ومناظرتهم واحتكاكهم مع العلماء العرب[3].

فالحضارة العربية الإسلامية كانت إذاً حجر الزاوية في بنية الحضارة

---

(١) Köprülü Zade Mehmed Füad, Turks, dans Encyclopédie de l'islam, I ed., t. IV, p. 970, 994.

(٢) ibid., p. 992.

(٣) انظر عديداً من أسماء أولئك العلماء في:
طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٨ وعلى سبيل المثال، ترجمة «شمس الدين محمد الفناري» (ص ١٧)، و«محمد الجزري» (ص ٢٥)، والشيخ «بدر الدين محمد بن اسرائيل الشهير بابن قاضي سماونة» (ص٣٣)، «والكافيجي» (ص٤٠).

التركية العثمانية، حتى قبل أن تدخل البلاد العربية في محتوى الإمبراطورية العثمانية. ومن **البدهي** أن يستعمق ذلك الأثر العربي مع توسع الدولة في الوطن العربي، في القرن العاشر / السادس عشر: فقد انضوت العواصم الأربع للخلافة العربية الإسلامية (المدينة، دمشق، بغداد، والقاهرة)، ومدن حضارية أخرى في المغرب والمشرق، تحت الحكم العثماني، بكل اشعاعاتها الثقافية العربية ومدنيتها. ويقال إن السلطان «سليم الأول» (٩١٨-٩٢٦ هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠ م) نفسه فكر بجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية [١]، وكان هو ذاته يتقن العربية حتى قال بها شعراً [٢]. وقد يكون من الطبعي أن تكون «اللغة العربية» ذات قوام في الدولة العثمانية: فالقرآن الكريم كان يقرأ ويدرس بها، بل يستذكر ويحفظ، وتقام به الصلوات [٣]، وأحاديث الرسول الكريم تتداول بها أيضاً. وكانت المدارس العليا التي أنشأها السلطان سليمان القانوني في استامبول تعلّمها. ومن ثم يمكن القول، إن اللغة العربية، والعلوم العربية الإسلامية، كانتا من المقومات الأساسية في ثقافة الفرد التركي في ذلك العصر، ولا سيما في أوساط الفئة الحاكمة العليا من المجتمع، أكانت دينية أو سياسية. ولا أدل على ذلك من أن عديداً من القضاة والمفتين، ورجال الإدارة الأتراك، الذين عينوا في البلاد العربية، كانوا يتقنون اللغة العربية وكان لبعضهم ثقافة عربية متينة في ميادين الأدب العربي ولا سيما الشعر، مما كان يثير اعجاب الأدباء العرب المعاصرين لهم. والمتتبع لكتب التراجم العربية في القرون الثلاثة الآنفة الذكر، يجد الكثير

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام. ٦ أجزاء بيروت ١٣٨٩ - ١٣٩١ / ١٩٦٩-١٩٧١. ج٢ ص٢٢١.

(٢) محمد نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ٣ أجزاء، بيروت ١٩٤٥-١٩٥٨ ج ١ ص٢٠٨-٢٠٩. ومحمد بن أبي السرور البكري الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر تحت الرقم (١٦٥١) (وقمت بتحقيقها وهي على أبواب النشر). ورقة ١٦ ب.

(٣) Gibb, H. and Bowen, H., Islamic Society and the West, Oxford Univ. Press, London, 1957, part II, p. 141.

من تلك الشخصيات [1]، وبعضاً من السلاطين أيضاً، الذين كانوا يجيدون العربية إلى جانب التركية والفارسية، حتى قالوا بها شعراً؛ من أمثال السلطان «سليمان القانوني» [2] (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) والسلطان

---

(١) انظر على سبيل المثال فقط: **الغزي: الكواكب السائرة.** تراجم «محمد التكساري» (ج ١ ص ٢٣) - «محمد البردعي» (ج١ص١٨) «حسام الدين بن الدلاك» (ج١ ص١٧٤) - «حيدر الخيالي» (ج١ ص١٨٧) - «محمد القرماني» (ج ٣ ص ٧٠) - «أحمد بن حمزة عرب جلبي» (ج٢ ص١٠٥) - «مصطفى الرومي» (ج٢ ص٢٥٢) - «محمد السعودي الشريف» (ج٣ ص ٥٥) - **المؤلف نفسه: لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر.** تحقيق «محمود الشيخ» جزءان - دمشق - ١٩٨٠ - ١٩٨١. أنظر تراجم: «أحمد بن شيخ زاده» (ج١/ ٢٩٦ - ٣٠٠ رقم الترجمة ١٠٧) - و«مصطفى بن بستان» (ج٢/ ٦٥٩ - ٦٦٠ رقم الترجمة ٢٦١) - «كمال أفندي طاشكبري زاده» (ج٢، ص ٦٠٧ - ٦١٠، ترجمة رقم ٢٤٨).
الحنبلي (رضي الدين): در الحبب في تاريخ أعيان حلب. ٤ مجلدات بجزئين دمشق ١٩٧٢ - ١٩٧٤. على سبيل المثال التراجم الآتية:
«القاضي فضيل علي بن أحمد» (ج٢ قسم ١ ص ١٧) - «محمد بن عبد الأول» (المصدر نفسه. ص٢٢١) - «محمد بن عبد الوهاب الشهير بعبد الكريم زاده» (ص٣٦٨). ومن الولاة «فرهاد باشا» (ج٢ قسم ١ ص١٤).
البوريني (الحسن بن محمد): تراجم الأعيان من أبناء الزمان. المطبوع منه جزءان، تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٣. تراجم «أحمد أفندي قاضي دمشق» (ج ١ ص ٦٦) و«أحمد الشهير بطاش كبرى زاده» (ص ٧٣) - و«أحمد جلبي بن اسكندر الرومي» (ص٧٧) - و«المولى أبو السعود أفندي» (ص ٢٣٩).
المحبي (محمد الأمين): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ٤ أجزاء القاهرة ١٢٨٤هـ، على سبيل المثال تراجم: «أسعد بن سعد الدين» (ج١/ ٣٩٦) «وعبد الرحمن حسام زاده» (ج٢/ ٣٥١) - «محمد بن مصطفى المعروف أبوه ببستان» (ج٤ ص٢٢٣) - و«محمد بن فضل بن محمد المعروف بعصمتي» (ج ٤ ص ١١١) - و«محمد بن حسن جان» (ج٤ ص١٦٨) وغيرهم.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء القاهرة ١٣٥٠ هـ. ترجمة «عبد الكريم زاده محمد بن عبد الوهاب» (ج٨/ ٣٧٩)، وترجمة «محمد البردعي» (ج٨/ ١٥٦) (على سبيل المثال فقط).

(٢) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي: المصدر نفسه. ورقة ٣١ آ. والشعر الذي نسب إليه بيتان يمجدان اللغات الثلاث التي كانت لغات الثقافة في ذلك العصر، وهي العربية، والفارسية، والتركية:

لسانُ الفرس أسْكَرَنا بجامي   لسانُ التركِ طُرِّز بالخيالِ =

«مراد الثالث»(٩٨٢ - ١٠٠٤ هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م) والسلطان « أحمد الأول بن محمد »[(١)] (١٠١٢-١٠٢٦ هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧ م). وقد تأصلت اللغة العربية عند بعض العلماء الأتراك حتى ألف بها وأغنى بذلك التراث العربي الإسلامي. وقد نظم عدد منهم الشعر في المستوى الذي كتب به العرب أمثالهم، أو في مستوى يقاربه [(٢)]. ومن أبرز الأسماء المعروفة والمتداولة « أحمد ابن سنان الرومي » [(٣)]، و« طاشكبري زاده »، [(٤)] و« حاجي خليفة» [(٥)]،

= لسانُ العُرْبِ حُلِيٌّ بالبيانِ وذلك شأنُ أربابِ الكمالِ

(١) المحبي: المصدر نفسه. ج٤ ص٣٤١. ترجمة السلطان مراد الأقدم.
المصدر نفسه. ج١. ص ٢٨٤. ترجمة السلطان أحمد.

(٢) نعيم الحمصي: نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه. جزءان مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية. جامعة تشرين ١٩٧٨-١٩٧٩. ج٢ ص١٧٦.

(٣) عاش (٩٣٩-١٠١٩ هـ / ١٥٣٢-١٦١٠م). كان كاتباً منشئاً، وصار كاتب وقف الحرمين ثم ناظره بدمشق. كتب بالعربية تاريخ « أخبار الدول وآثار الأول ». أنظر ترجمته في الغزي: لطف السمر (ج ١ ص٢٩٥ - ترجمة رقم ١٠٦)، وفي المحبي: المصدر نفسه. ج١ ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤) أحمد بن مصطفى بن خليل. ولد عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م في بروصة، ونشأ في أنقرة، ودرس العربية والأدب والفقه. وتنقل في البلاد التركية مدرساً للحديث، وعلوم اللغة العربية والفقه. وولي القضاء في القسطنطينية، ثم كف بصره، وتوفي عام ٩٦٨ هـ/١٥٦١ م. له مجموعة من المؤلفات بالعربية، أهمها «الشقائق النعمانية»، و«مفتاح السعادة». وقد ترجم له المؤرخ الشامي البوريني في كتابه السالف الذكر، وقال عنه (ج ١ ص ٧٥): «وكان له في العربية الباع الطويل، والمعرفة التي أذعن لها الخليل، وكان مع ذلك كله ينظم الشعر العربي المليح، وينشىء الإنشاء البديع الفصيح».
أنظر حوله الزركلي: الأعلام ٩ مجلدات وأربعة مستدركات. الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦٩. ج١/ ٢٤١.

(٥) مصطفى بن عبد الله، ويلقب بـ« كاتب جلبي ». ولد في استامبول عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م، وعمل في الجيش، ثم عين مساعداً ثانياً في ديوان المحاسبة، ولقب بـ«حاجي خليفة». كانت له ميول علمية واسعة، وقد زار دور الكتب الكبرى في الشام والحجاز واغترف منها، وانقطع بعد ذلك للتدريس والتأليف، وله مؤلفات عديدة بالعربية والتركية، أهم مؤلفاته بالعربية سفره « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ». توفي عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م.
انظر الأعلام ج٨ / ١٣٨-١٣٩.

و« منجم باشي »[1] وغيرهم كثير. وقد نسب إلى « طاشكبري زاده » قوله: « إن كل نبي من الأنبياء إنما يوحى إليه بالعربية، ويعود بعد ذلك النبي فيترجمه لقومه بلسانهم الذي به يفهمون وله يفقهون »[2].

وبالمقابل، فإن الأتراك العثمانيين عندما سادوا البلاد العربية سياسياً في القرن العاشر / السادس عشر، تركوا لها خلال القرون الأولى من حكمهم، تقاليدها العلمية السابقة، ومدارسها، وحلقات مساجدها، ومدرسيها بل زادوا في بعضها وفي أوقافها، وأهم من ذلك كله حفظوا لها لغتها العربية. فلم يفرضوا التركية عليها، على الرغم من أن هذه اللغة كانت هي اللغة الرسمية للدولة. بل إن وثائق المحاكم الشرعية المحلية فيها كانت تدون على الأغلب بالعربية[3]. وهناك فرمانات سلطانية عديدة إلى بعض الحكام العرب باللغة العربية، وهي بالذات، تلك الموجهة إلى شريف مكة[4]. فاللغة العربية بقيت إذاً في أذهان الأتراك العثمانيين هي اللغة المقدسة، لأنها لغة الوحي والقرآن، وظلت في البلاد العربية، وإلى حد ما في المدن العلمية العثمانية، هي لغة الثقافة الإسلامية.

---

(١) أحمد بن عيسى لطف الله، ولد في سالونيك في النصف الأول من القرن الحادي عشر / السابع عشر، وتلقى تعليمه فيها، ودرس الفلك وروابطه بالتنجيم على عادة ذلك العصر، ووصل إلى منصب كبير منجمي البلاط السلطاني في عهد محمد الرابع، ومن هنا جاء لقبه الذي عرف به. إلا أن السلطة غضبت عليه، فنفي إلى مصر، ومنها إلى مكة، حيث تولى مشيخة زاوية المولوية فيها. وتوفي عام ١١١٣هـ / ١٧٠٢ م. من كتبه بالعربية « صحائف الأخبار ».

أنظر الأعلام ج ١/١٨٢ - ١٨٣.

(٢) البوريني. المصدر نفسه. ج١ ص٧٤.

(٣) إن وثائق المحاكم الشرعية في دمشق، وحماه، وحلب، وحمص المحفوظة بمديرية الوثائق التاريخية في دمشق، مدونة في غالبيتها باللغة العربية، وكذلك وثائق القاهرة.

(٤) أنظر تقليد شريف مكة «أبي طالب بن حسن بن أبي نمي» الشرافة من السلطان «محمد ابن مراد» في المحبي: المصدر نفسه. ج ١ ص ١٣٢-١٣٣. وكذلك كتاب السلطان إلى شريف مكة « غالب بن مساعد » بمناسبة هجوم نابليون على مصر في الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. مجلدان. مصر ١٣٤٨ هـ ج ٢ ص٩-١٥.

وإذا كان ذاك هو بعض الأثر الثقافي للحضارة العربية في الحضارة العثمانية، فإن الحضارة العربية الإسلامية قد تأثرت هي الأخرى بدورها بالأتراك العثمانيين، وما يحملون من عادات، ونظم تعليم جديدة عليهم، وطرائق دراسة وتفكير، بل وباللغة التركية نفسها. فقد سعى المثقفون من العرب لدراسة هذه اللغة مع اللغة الفارسية، فاطلعوا بذلك على الانتاج الفكري في الآداب والعلوم المختلفة لدى الأتراك والفرس معاً، وبذلك دخل جديد إلى الثقافة العربية الإسلامية، لم يُقوَّم بعد أثره الإيجابي والسلبي التقويم العلمي الصحيح، وإن كان قد أكد بصفة عامة، وفي أكثر من مناسبة، أثره السلبي في إضعاف اللغة العربية. إلا أنه يمكن القول إن ذلك الأثر، بسلبياته التي حفزت بعض الأدباء والعلماء العرب على إنتاج ما يحفظ أصالة اللغة العربية والتراث العربي، أو بإيجابياته في تلقيح الفكر العربي الإسلامي بثقافة فيها بعض جدة، كان في حاصله أثراً مخصباً للفكر العربي.

وهكذا فإن الباحث في الأحوال الفكرية في البلاد العربية، خلال المرحلة الأولى من الحكم العثماني، وعبر كتب التاريخ العربي المدونة في تلك الحقبة، ولا سيما منها كتب التراجم، يمكنه أن يتبين فيها إلى جانب ما ذكر آنفاً من تأثير متبادل، بأن المجتمع العربي لم يعدم حركيته الفكرية، وإنما كان يعيش فعاليات متنوعة، أقل ما يقال فيها بأنها ليست أدنى مستوى من فعالياته خلال الحكم المملوكي السابق، الذي توصف مرحلته من الناحية الفكرية بالخصب مع عدم التجديد والإبداع، وعلى الرغم من أنه كان يغطي ذلك النشاط الفكري موجة من «التصوف الشعبي» أغرق فكر العوام في دوامات الكرامات واللامعقول. وتبدو تلك الفعاليات الفكرية في الأمور التالية:

أولاً - إن مرتبة (العلم) بشتى فروعه النقلية والعقلية [١]، ما فتئت بالنسبة لمجموع المجتمع العربي، وللسلطة الحاكمة فيه، هي أسمى مرتبة؛

---

(١) انظر تعريف النقلية والعقلية في ابن خلدون: مقدمة. بيروت. د.ت. ص٤٣٥، ٤٧٨.

وإن كان المقصود بالعلم آنذاك، وبالدرجة الأولى، علوم الدين، ويلحق بها بالنسبة للمجتمع العربي بالذات، علوم اللغة العربية. فعلى الرغم من شكوى بعض العلماء والأدباء في ذلك الوقت، من أن المجتمع قد انساق وراء المادة، وغدا تقويم الأفراد يستند إلى ما يملكون من ذهب وفضة، لا إلى ما يملكون من علم وأدب [1]. فإنه ما برح راسخاً في الواقع، في أذهان مجموع الناس، والمثقفين منهم بالطبع، أن العلماء هم ورثة الأنبياء. وقد عبر المؤرخ والمحدث النجم الغزي عن ذلك في مطلع كتابه « الكواكب السائرة »، ولخص حديثه ببعض أبيات، منها قوله [2]:

إنما سادَةُ الورى النجباءُ ونجومُ الهدى هُمُ العلماءُ
يَنْقضي الدهرُ والمكارمُ منهمْ أبَدَ الدهرِ ما لَهُمْ انقضاءُ
فهمُ الدائمون معنى وإن ما توفوا لِلّهِ إنَّهُمْ أحياءُ

كما عبّر مؤرخو التراجم عن هذه النظرة، بأن خصوا العلماء بالقسط الأوفى من تراجمهم [3]، ونظروا إليهم على أن مرتبتهم تفوق مرتبة الحكام، والعسكر منهم بالذات [4].

وقد احترمت الدولة العثمانية بصفة عامة هؤلاء العلماء من السنّة، من العرب والأتراك على السواء. ومهما كان مذهبهم السني، علماً أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنفي. وقبلت تدخل كبارهم في سياسة الدولة، ووساطتهم بينها وبين الرعية عندما كانت تتوتر العلاقات، وعملت على

---

(١) المحبي. المصدر السابق. ج٢. ص٢٩٥. ترجمة (عبد البر الفيومي).

(٢) ج١. ص ٤ - ٥.

(٣) لقد خصّ المحبي مثلاً العلماء والأدباء بـ(٩٠٪) من تراجمه تقريباً، والطبقة الحاكمة السياسية بـ(١٠٪) (١٢٠ ترجمة تقريباً من ١٢٨٩)، والأمر ذاته في كتب الطبقات الأخرى.

(٤) رأى النجم الغزي مثلاً في كتابه « لطف السمر »، إن كتابه لا يليق بذكر البلوكباشية ونحوهم، « وإن كانوا أعياناً في أنفسهم فليسوا من هذه الحلبة ». ترجمة « كنعان بن عبد الله البلوك باشي »(ج ٢ / ٦١٠ رقم الترجمة ٢٤٩).

استرضائهم [1]. إلا أن هذا لم يمنع من معاملتهم أحياناً بالشدة، عندما كانت الدولة ترى أنهم يقفون حجر عثرة في وجه طغيانها أو ظلمها، إلا أنها كانت تعود بسرعة إلى موقفها المتسامح منهم [2].

وهذه الرؤية لا تغطي بالطبع سوء إدارة عدد من ولاتها وقضاتها، وفساد انكشاريتها، فالتناقض بين المنحيين قائم وبيّن.

ثانياً ـ كان تيار العلم الديني السني تياراً نشيطاً في تلك المرحلة، وكان هو التيار العلمي الأعلى والأطغى، بالنسبة لمجموع المجتمع العربي آنذاك. وهدفه التمكين لأصول الدين الإسلامي في النفوس، وحماية الدين من البدع، ونشر السنة ودعمها في وجه التيارات الدينية والمذهبية الأخرى، كالتيار الشيعي مثلاً، أو الصوفي الشعبي المنحرف، أو أية أفكار يرى فيها العلماء خطراً على

---

(١) انظر على سبيل المثال فقط: الكواكب السائرة. ترجمة «محمد بدر الدين الغزي» (ج٣ ص ٥). ـ لطف السمر. ترجمة «محمد بن عجلان» (ج١، ص٦١ رقم الترجمة ١٣). ـ «أحمد العيثاوي» (ج١ / ٣٠٨ رقم الترجمة ١١٤) ـ «علي بن البعلي» (ج٢ / ٥٤٧. رقم الترجمة ٢١٥).

انظر كذلك موقف العلماء من قضية «يحيى الكركي» في ترجمة هذا الأخير ج٢ / ٦٩٨ رقم الترجمة ٢٧٧). وموقف «محمد البكري» في مصر من الوالي «خضر باشا» عندما قطع أرزاق العلماء في «المنح الرحمانية». ورقة ٥٧ آ.

(٢) أنظر موقف علماء دمشق عام ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م، لما وقفوا في وجه جور الوالي «عثمان باشا» السلحدار، ونفيه لبعضهم، ثم عفوه عنهم في: ابن جمعة، الباشات والقضاة. وقد قام بنشره صلاح الدين المنجد في كتاب «ولاة دمشق في العهد العثماني». دمشق ١٩٤٩. ص ٤٩ منه. وفي المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ٤ أجزاء. القاهرة ١٣٠١ هـ. ج ٣ ص ١٦٧. وفي سليمان الظاهر: صفحة من التاريخ الشامي لم يدون أكثرها. في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ١٧. عام ١٩٤٧ (ص ٤٤٥ ـ ٤٥٠). (ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

وانظر أيضاً موقف علماء دمشق عام ١١١٨ هـ/١٧٠٧ م ومقاومتهم الوالي حينما أراد إثقال كاهل الأهالي بفرض المال عليهم، في المرادي: المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٤، وفي ابن كنّان (محمد بن عيسى): الحوادث اليومية من تاريخ إحدى عشر وألف ومية. مخطوط في جزئين في برلين في مكتبة:

Staatsbibliothek Preussischer Kulturbesitz.

تحت الرقم .9479. WE (II), 1114, 9480. WE. (II) 1115

ج ١. ورقة ٦٧ أ و٦٨ أ.

أصالة الدين. إلا أنه بالمقابل، كان هناك تيار علم شيعي ليس بالضعيف، في البقاع التي انتشر فيها هذا المذهب، أكان في العراق أم في بلاد اليمن. ويلاحظ أنه مع انقسام المسلمين السنة الى مذاهب أربعة، هي المالكي والشافعي، والحنبلي، والحنفي، فإن الحوار الفكري كان متواصلاً بين علماء تلك المذاهب، حتى إن بعض العلماء كان يدرس المذاهب الأربعة، ويتعمق فيها، ليكون متمكناً من موقف مذهبه، ويرد على الطاعنين في بعض أموره. إلا أن ذلك الحوار لم يكن ليوصل إلى وحدة فكر. ومع أن مذهب الدولة الرسمي هو « الحنفي »، إلا أنها لم تفرضه على العلماء والناس قسراً. ولكن اتخاذها القضاة الكبار، ومعظم العاملين في المؤسسة الدينية، من الأحناف، وتأسيسها المدارس والمساجد وتزويدها لها بعلماء أحناف[١]، كان من العوامل التي أدت إلى انتشاره، وانخراط عدد من العلماء العرب فيه.

ولا يظهر الأمر على هذا الشكل الرباعي المذهب في تونس والجزائر وليبيا، اذ اقتصرت السنة في تلك البقاع على مذهبين هما المذهب المالكي الراسخ الأركان فيها، والشامل لمجموع المجتمع، والمذهب الحنفي الدخيل مع الدولة العثمانية؛ ويبدو أن المذهبين قد تعايشا[٢]. وإذا كان المذهب الخارجي الأباضي لا يزال له معتنقون في تلك الربوع، وفي أجزاء من شرقي الجزيرة العربية فإنهم كانوا قلة، ونشاطهم محدود، ومقتصر على محيطهم.

ولقد بقيت للفرد حرية اعتناق المذهب الذي يروق له، أي أن المذهب لم يكن وراثياً، فهناك عديد من العلماء قد اعتنق مذهباً غير مذهب أبيه وأسرته، إما لاقتناع علمي منه، أو لتحقيق أغراض خاصة، كتسلم مناصب الدولة

---

(١) محمد الحبيب الهيلة: مقدمة كتاب: الحلل السندسية في الأخبار التونسية لمحمد بن محمد الأندلسي الشهير بالوزير السراج. الجزء الأول في ٤ مجلدات. تونس. ١٩٧٠. ج١ ص٥٤.
الطاهر المعموري: مقدمة كتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان. ليبيا - تونس. ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. ص٤٨ - ٤٩.
(٢) المصدر السابق: المعموري: ص ٥٥.

مثلاً. ويظهر أن تغيير الفرد لمذهبه، وبصفة خاصة إلى المذهب الحنفي ـ مذهب الدولة الرسمي ـ لم يكن ليسيء لصاحبه إجتماعياً، بدليل قول أحد العلماء بأنه كان يتمنى «أن يكون له أربعة أولاد كل على مذهب»(١).

ومع موقف الدولة العثمانية الشديد من الشيعة، فإن الحوار الفكري بين علماء من السنة والشيعة لم ينقطع. فقد كان يجري حيثما يلتقون، ويتسم بحدة المناقشة (٢).

وكان من ثمار نشاط التيار الديني السني مؤلفات عديدة في ميدان العلوم الدينية. وقد يقال ألا جديد في تلك الثمرات، إذ لم يخرج التيار السني عن تقليديته، وظل يعتمد على تدارس علوم السلف من تفسير، وحديث، وقراءات، وفقه، ويشرح التآليف الماضية ويعلّق عليها، ويصنف على غرارها. فباب الاجتهاد في التشريع قد أغلق منذ زمن طويل. ولكن قبل الحكم نهائياً « بالتقليد » البحث على تلك الشروح، والتعليقات، لا بد من دراستها بدقة وعمق، وموازنتها مع ما مضى، فقد يكون في بعضها تجديد، ولا سيما في باب الفتيا، ومعالجة القضايا الاجتماعية الجديدة الطارئة على المجتمع. وهذه الدراسة لم تجر في الواقع حتى الآن، ولكن يستشم مما ورد في بعض المؤلفات التاريخية في تلك المرحلة أن صراعاً فكرياً كان قائماً بين اتجاهين: العودة إلى الأصول والقديم الأول في ميدان العلوم الدينية، وبين الاكتفاء بالجديد من شروح وتعليقات (٣). وهذا الصراع الذي تتبدى ملامحه في القرن العاشر / السادس عشر، يأخذ مداه في القرن الثاني عشر / الثامن عشر، ويبرز في

---

(١) المحبي: المصدر نفسه. ج١ ص٤٨. ترجمة (الشيخ ابراهيم الصمادي).

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ٤٤ (ترجمة محمد بن حسين البهاء العاملي).

(٣) انظر الحوار حول هذا الأمر في ترجمة « أبو بكر الكردي » في الغزي: لطف السمر. (ج١، ص٢٥٥، رقم الترجمة ٨٦).
كان الحوار بين « نجم الدين الغزي » الفقيه الشافعي الكبير في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، وبين فقيه معاصر له، هو « أبو بكر الكردي » فقد قال الأخير للأول: يا مولانا مطالعة كتب المتقدمين تشوش الفهم لأنه لا يعلق بالذهن ما فيها، وقد لخصها

«الحركة الوهابية» [1] التي طالبت بضرورة العودة إلى الأصول في الدين. وهذا يذكر بحركة «ابن تيمية» [2] في القرن السابع ـ الثامن/الثالث عشر ـ الرابع عشر/ في بلاد الشام، وحركة الإصلاح الديني في اوروبا في القرن السادس عشر، اللتين على الرغم من نظرتهما إلى الماضي، كانتا حركتين فيهما إحياء وتجديد، وثورة على الواقع المتردي.

= المتأخرون وبينوا المصحح منها. فكنت أقول له (والقول للغزي): «يا شيخ أبا بكر، الفقه في كتب المتقدمين فإذا طالعناها علمنا مآخذ المتأخرين».

ويشبه هذا أقوال الشيخ «أحمد الشناوي المصري» فالمدني حيث كان يقول: «في أسانيدنا الأولى كثرة الرجال بخلاف أسانيد المحدثين، فالمراد فيها قلة الرجال لسهولة النقد، والمراد هنا كثرة الرجال لتقوى المدد وتعظيم السند، فإن للمتقدم على المتأخر زيادة، وله عليه امداد وإفادة». (المحبي ج١/ ٢٤٤).

(١) نسبة إلى محمد بن عبد الوهّاب (١١١٥ـ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م):
عالم دين من نجد. ولد في «العينية»، وكان ابن قاضيها، وأخذ العلم منها ومن المدينة المنورة، وزار بلاد الشام والبصرة، دعا للعودة إلى أصالة الدين الإسلامي، ونهج السلف الصالح، ونبذ البدع، وتخليص الإسلام مما لحق به من شوائب. تبنى دعوته آل سعود، وقادوا حركة سياسية قوية، توسعت في جنوبي العراق، والحجاز، وشمال اليمن، والأحساء، واجزاء من جنوبي الشام. وكان لدعوته آثارها الايجابية في كل العالم الإسلامي، حتى المغرب الاقصى، ترك عدة مؤلفات.
انظر حوله:
ـ أحمد أمين: زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ مصر ١٩٤٨. ص١٠.
ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الدولة السعودية الأولى. القاهرة ١٩٧٩. ٣١ـ٥٢.
ـ الأعلام ج٧ ص١٣٧ـ ١٣٨.
ـ ليلى الصباغ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر. دمشق ١٤٠١ـ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ـ١٩٨٢م. ص١٤٣ـ١٤٤.

(٢) هو أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي (٦٦١ـ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ـ ١٣٢٨ م) من كبار علماء الدين الإسلامي، وداعية إصلاح فيه. حارب المتصوفة وأصحاب البدع وسجن، وتوفي في قلعة دمشق، له عدة مصنفات.
أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة. تعريب محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، ابراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، طبع منها ١٣ مجلداً، القاهرة. د.ت. ج١ /١٠٩ ـ والأعلام ج١ /١٤٠ـ١٤١.

ثالثاً - لقد رافق تيار العلم الديني الإسلامي السني السالف الذكر، تيار علوم لغوي عربي. فهناك كثير من العلماء العرب في المشرق والمغرب، قد درسوا علوم اللغة العربية وألفوا فيها كما فعل علماء الدين، وهناك فيض من تلك المؤلفات والمؤلفين. وقد يقال في هذا الباب ما قيل في الباب السابق عن «تقليدية» الانتاج. ولكن المتمعن في تلك الثمار، يلاحظ اهتماماً بقواعد اللغة العربية أشد مما سبق، واتجاهاً نحو بيان الدخيل من الألفاظ الأعجمية في اللغة، وكأن أصحاب تلك المؤلفات كانوا يسعون إلى ترسيخ قواعد اللغة والتذكير بها، حفاظاً عليها، ومنعاً للّحن فيها، والانحراف عن أصالتها، شأنهم في ذلك شأن علماء الدين. «فاللغة هي الأرض وبقية العلوم غراساتها». وكأني بتلك المؤلفات اللغوية، كانت تهدف إلى تنبيه المجتمع العربي إلى الخطر الذي كان يتهدد اللغة العربية، بعد إحجام الدولة العثمانية عن استخدامها لغة رسمية، وبعد انتشار اللغتين التركية والفارسية في أوساط المثقفين العرب، وتداول العامة لعدد من الكلمات الفارسية والتركية. هذا في الوقت الذي بات ضرورياً فيه، شرح تلك اللغة للعناصر التركية الراغبة في تعلمها، أو الاستزادة منها، وهديها إلى الصحيح والأصيل فيها. ومن المؤلفين الكبار في هذا الميدان «أبو بكر الشنواني»[1] والأديب العالم «الخفاجي»[2] والمؤرخ «محمد بن أبي السرور البكري الصديقي»[3] والمؤرخ الأديب

---

(١) ولد في شنوان في مصر، وتعلم في القاهرة، وبها توفي (١٠١٩ هـ / ١٦١١م). له عدة مؤلفات. انظر ترجمته في المحبي، المصدر نفسه. ج١ ص٧٩-٨١.

(٢) أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري وابن أخت الشنواني السالف الذكر. (٩٧٧-١٠٦٩ هـ / ١٥٦٩-١٦٥٩ م). أديب كبير، وعالم موسوعي، وشاعر رقيق، عمل قاضياً للقضاة في سلانيك ومصر. له عدة مؤلفات، منها «ريحانة الألبا». وقد ترجم فيها لمعاصريه بلغة أدبية مسجعة ومنمقة. وكتابه في مجال اللغة «شفاء الغليل فيما في كلام العربية من الدخيل، والنادر الحوشي القليل». انظر ترجمته في المحبي: المصدر ج١ ص ٣٣١.

(٣) مؤرخ وفقيه مصري من أسرة العلماء البكرية المشهورة. ولد في القاهرة ٩٩٨ هـ / ١٥٨٩ م ومجهول تاريخ الوفاة. له مؤلفات تاريخية عديدة منها «عيون الأخبار ونزهة الأبصار»، «والمنح الرحمانية في الدولة العثمانية»، و«النزهة الزكية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية». وكتابه =

«المحبي»[1]، والعالم «يوسف المغربي»[2]، وغيرهم.

رابعاً - وازى التيارين السابقين وتداخل معهما، تيار علمي ثالث كان محوره العلوم العقلية، كالرياضيات، والفلك، والطب، والكيمياء وغيرها، وإن كان التياران الأول والثاني قد غطيا عليه، لاهتمام مؤرخي تلك الحقبة بإبراز النابهين في حقول علوم الدين واللغة، وكثرتهم بالنسبة للمبدعين في هذا المجال. فهناك في الواقع عديد من العلماء قد درس ونبغ، وألّف، واخترع، وفي مختلف الأقطار العربية. ولا بد من البحث بإخلاص عن تلك المؤلفات ودراستها بتمعن وتمحيص، ولا سيما أن مطالع تلك الدراسات شرعت تـغيّر الفكرة السائدة عن نضوب تلك المرحلة من المبتكر الجديد والمفيد في العلوم. فالدراسة العلمية التي قام بها الدكتور «أحمد يوسف حسن» عن «تقي الدين ابن معروف»[3] الراصد الدمشقي المتوفى عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م، تثبت أن الفكر العلمي العربي المبدع لم ينضب. فقد برع هذا العالم في الفلك، وكان

= اللغوي هو «القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب»
انظر حوله: ليلى عبد اللطيف أحمد علي: ابن أبي السرور البكري. عصره ومؤلفاته في كتاب: «بحوث في التاريخ الحديث» جامعة عين شمس القاهرة: ١٩٧٩ /٢٤١-٢٥٤.
- وانظر كذلك: عبد الكريم رافق (بالانكليزية)

Ibn Abi'l - surur and his works. Reprinted from the Bulletin of Oriental and African Studies, University of London. Vol XXXVIII part I, 1975

(١) محمد الأمين المحبي (١٠٦١-١١١١ هـ / ١٦٥١-١٦٩٩م) دمشقي المولد والوفاة. أديب ومؤرخ موسوعي المعرفة. له مؤلفات عديدة، منها في التاريخ «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر». وفي الأدب «نفحة الريحانة»، وفي اللغة «قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل».

(٢) عالم لغوي وشاعر، توفي عام ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م. ترجم له الخفاجي في «ريحانة الألبا» (تحقيق عبد الفتاح الحلو. جزءان. القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م. ج٢ ص٣٢) والمحبي ج ٤ / ٥٠١-٥٠٣ ألف ما يشبه المعجم للكلمات الدارجة على لسان أهل مصر ووازن بعضها مع الألفاظ المغربية، وأسماه «رفع الأصر عن كلام أهل مصر».

(٣) ترجم له الخفاجي في «ريحانة الألبا» ج١ ص١٥١. أنظر كذلك حاجي خليفة، كشف الظنون (مجلدان استنبول ١٣٦٠/١٩٤١)، ص ٢٤٩، ٧٣٦، ٩٤٠، ٩٨٢.

له يد طولى في تأسيس « مرصد استامبول » عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م، الذي لم يبق طويلاً، لنقمة السلطان عليه وعلى فلكييه. إلا أنه هو والمراصد الفلكية الإسلامية الأخرى،ولا سيما في سمرقند ومراغة، كانت على ما يبدو النموذج الذي قلّده الغرب في مرصدي « براهة » [١] و«كيبلر»[٢]. وإن الدراسة المقارنة الحديثة بين أدوات الرصد التي استخدمها « تقي الدين » والتي استخدمها « تيخو براهة » أثبتت تشابهاً كبيراً بينهما [٣]. كما تفوق تقي الدين في الميكانيك. وله عدة مؤلفات، وكتابه في « الهندسة الميكانيكية » بعنوان « الطرق السنية في الآلات الروحانية »، قد حققه ونشره الدكتور أحمد يوسف حسن [٤]، ونفذ عملياً بعض ما جاء فيه من هندسة لناعورة ماء، كان تقي الدين قد أنشأها في دمشق، وتدل على تفكير علمي تقني متقدم. وقد عرض النموذج المصنوع في « معهد التراث العربي » بحلب.

وفي الحقيقة، إن من يقرأ بدقة كتب التراجم العربية في هذه المرحلة، يخرج بحصيلة خصبة عن عمل نشيط في ميدان الحساب، ولا سيما أنه كان مرتبطاً بعلم ديني هام هو « علم الفرائض ». وكذلك الأمر في ميدان الجبر والمقابلة، والمساحة [٥]. وكانت **الرياضيات** من العلوم التي يدرسها طالب

---

(١) تيخو براهة Tycho.Brahé : فلكي دانماركي (١٥٤٦ - ١٦٠١). كان من أوائل الفلكيين الأوروبيين العلميين في العصر الحديث ساعدت ملاحظاته الفلكية العالم « كيبلر » على وضع قوانينه المعروفة.

(٢) كيبلر J. Képler : فلكي ألماني (١٥٧١-١٦٣٠) اضطهد كثيراً، ومع ذلك وضع كتابه « علم الفلك » الذي عرض فيه نظريته عن كوكب عطارد وطرح قوانينه الشهيرة عن مدارات الكواكب، التي سمحت للعالم نيوتون باستخلاص قانون الجاذبية الأرضية.

(٣) انظر: Seyyed Hossein Nasr: Islamic Science. An illustrated study. London 1976 p.114, 126.

(٤) اسم الكتاب المنشور «تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية» حلب ١٩٧٦.

(٥) انظر على سبيل المثال فقط لا الحصر ترجمة « محمد بن جبريل » في الكواكب السائرة ج١/ ٥٦، وإبراهيم الأحدب في لطف السمر ج١/٢٤١ وترجمة « أبي الجمال المصري » في المحبي. =

العلم في ذلك العصر: فقد ذكر المؤرخ « المحبي » مثلاً، أنه قرأ الحساب [1]، ودرس الهندسة بطريقة مشخصة [2].

والأمر نفسه يقال عن « علم الفلك » وارتباطه بعلم الميقات، وبروز عدد من العلماء في ميدانيهما مع الاهتمام بأدوات الرصد والتوقيت[3]، وكذلك عن علم الكيمياء [4] والبصريات. حتى إنه ورد أن « محمد بـن العنز اليماني »

= المصدر نفسه. ج١ ص٨٨-٨٩. وترجمة « أبي طـالب العلوي » ج١ ص١٣١، و« العلاء الطرابلسي » ج٣ ص١٨٦، و« محمد سليمان المغربي » ج٤ ص٢٠٧. وانظرة ترجمة « خليل الموصلي » و« محمـد المتعـافي »، و« ابن النقيب » في ابن كنـان: الحـوادث اليـوميـة ج١/ ٣٠ب - ٣١آ، ٥٣ب، ١٧٠ب. وانظر كذلك في المرادي: سلك الدرر، تراجم « سعدي بن حمزة» (ج٢/ ١٥٦) و«عبد الرحيم المخلّلاتي» (ج٣/ ٦) و«عبد القادر التغلبي» (ج٣/ ٥٩)، وعبـد اللطيف المكتبي (ج٣/ ١١٩) وغيرهم كثير.

(١) المحبي. المصدر السابق ج٢/ ٣٤١. ترجمة «عبد الحي العكري».

(٢) المصدر نفسه. ج٤ ص٣٣٠-٣٣١ « ترجمة محمود البصير الصالحي ».

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر التراجم التالية: « أحمد بن تاج الدين » (المصدر نفسه ج١ ص١٧٨)، و« أحمد باكثير المكي » (المصدر نفسـه ج١ ص٢٧١)، و« محمد بن سليمـان المغربي » (ج٤ ص٢٠٦)، و« محمد الشلي الحضرمي » (ج٣ ص٣٣٨).
انظر بحث عباس العزاوي. « تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلاميـة والعربية في العهد العثماني (٩٤١-١٣٣٥ هـ/١٥٣٤-١٩١٧)». في، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢٨ عام ١٩٥٣ (ص٧٩، ٢٥٧، ٤٢١)، والمجلد ٢٩ عام ١٩٥٤ (ص٨٩، ٢١٩، ٢٣٨، ٥٥٣).
وانظر أيضاً ابن كنان: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية.
مخطوطة في مكتبة برلين تحت الرقم 6088, We-1116، قام بتحقيقها كرسالة ماجستير في قسم التـاريخ - كلية الآداب - جامعـة دمشـق - (حكمـت إسماعيل) تحـت إشراف (ليلى الصباغ) في عام ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م وهي في طريق النشر، انظر منها ترجمة « محمد الصالحي الهلالي » (المتوفى ١١١٥ هـ/ ١٧٠٣م) الذي ألف زيجاً (ورقة ١٧آ). وكذلك « ابراهيم البهنسي» الذي عمل تقويماً لوالي دمشق «سليمان باشا العظم» في: ابن كنان: الحوادث اليومية ج٢/ ٨٦آ وسلك الدرر ج١/ ٩.

(٤) ابن الحنبلي. در الحبب. ترجمة «محمد بن محمد بن علي» ج ٢ ق ١ ص ٨٧ وترجمة «سليمان البوسنوي» في المحبي. المصدر نفسه. ج ٢ ص ٢١٣. و«محمد بن العنز» ج ٣ ص ٣٧٦ (على سبيل المثال فقط).

« عمل ناظوراً يدرك به البعيد فأبصر به من صعدة إلى ربيع»[1]. وهذا يذكر بأنه في هذه المرحلة الزمنية تقريباً اخترع « غاليله » [2] منظاره الفلكي الذي اعتبر ثورة علمية ضخمة. وتشير التراجم كذلك إلى شخصية « حسين بن قرنق الدمشقي »، الذي أوجد مرآة قادرة على إظهار الغائب عن الرؤية المباشرة، والقائم في مكان بعيد [3]، ولقد عزا الناس وحتى المثقفين منهم تلك الاختراعات إلى أعمال السحر والطلسمات، إلا أنها إذا جردت مما أحيطت به من روح السحر والشعوذة، فإنها تظهر أقل ما تظهر، تطلعاً فكرياً أثبت العلم الحالي إمكان تحقيقه.

ويجب ألا ينسى في ميدان تلك العلوم « علم الملاحة والبحار » الذي بلغ على أيدي العرب في بداية هذه المرحلة شأواً بعيداً، في الجنوب العربي، والخليج العربي، والشرق الأفريقي العربي، وتمثل بصفة خاصة بشخصيتي « شهاب الدين أحمد بن ماجد » [4] و« سليمان المهري » [5]، والأول هو الذي قاد بمعرفته الجغرافية والفلكية، وأدواته المتقدمة، «فاسكو دوغاما» إلى الهند، حلم أوروبا الاقتصادي.

---

(١) المحبي. المصدر نفسه. ج٣ ص٣٧٦.

(٢) غاليلو غاليله Galileo Galilei رياضي وعالم طبيعي وفلكي. ايطالي الجنسية. عاش بين (١٥٦٤-١٦٤٢)وضع مبادىء الديناميك الحديث، وصمم أول منظار فلكي (١٦٠٩). اضطهدته الكنيسة لآرائه العلمية الحديثة بالنسبة للعصر، ولإيمانه بنظرية كوبرنيك في دوران الأرض والكواكب.

(٣) المصدر نفسه. ج ٢ ص ١١٨ فما بعد. إن قضية المرآة معروفة لدى العرب سابقاً، وعزاها ابن خلدون إلى إدراك نفساني. المقدمة ص ١٠٧.

(٤) انظر حوله البحث الذي كتبه « غابرييل فيران » في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الأجنبية، الطبعة الأولى.

G. Ferrand, Shihab Al-Din Ben Madjid, in E.I.Ied., t. IV, P. 375 seq.

ومن كتب عنه في العربية في الزركلي: الأعلام ج١ ص ١٩٠ - ١٩١. وكذلك: محمد محمود محمدين: « تساؤلات حول قضية إرشاد ابن ماجد لفاسكو دوغاما إلى طريق الهند » مجلة كلية الآداب - الرياض مجلد ٦. ١٩٧٩ ص٥٥ فما بعد.

(٥) انظر حوله دراسة « غابرييل فيران » أيضاً، في دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية ibid. Sulaiman al-Mahri, p. 550.

ويبدو أن الطب كان هو الآخر علماً له رواده، والمؤلفون في بابه، وكان له مشيخات في عدد من المدن العربية، ومدارس، كما كان له دور شفائه في مختلف المدن [1]. وكان بعض هؤلاء الرواد مدار دراسات حديثة قام بها الأوروبيون، واعترفوا لهم بحذقهم ومهارتهم، من أمثال «عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري» [2] المولود عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م الذي نعته «الدكتور

---

(١) انظر حول ذلك على سبيل المثال فقط لا الحصر التراجم التالية في المحبي: المصدر نفسه «أبو بكر بن الحكيم» (ج ١ ص ٩٦)، و«أحمد بن أحمد بن سلامة المصري» (ج ١ ص ١٧٥)، و«أحمد بن سراج الدين الملقب بابن الصائغ» (ج ١ ص ٢٠٣)، و«داود البصير الأنطاكي» (ج ٢ ص ١٤٠)، و«صالح بن نصر الله بن سلوم» (ج ٢ ص ٢٤٠)، و«الملاصفي الدين بن محمد الكيلاني» (ج ٢ ص ٢٤٤)، و.«على السجلماسي» (ج ٣ ص ١٧٣)، وغيرهم.

وانظر أيضاً ما ذكره الرحالة الطبيب «بيلون دومانس الفرنسي» الذي زار الشرق في منتصف القرن السادس عشر عن الطب في دمشق، واعجابه بمستواه في كتابه:

Belon de Mans, Les observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Inde, Egypte, Arabie et autres pays étrangers. Paris, 1555, p. 150.

- وانظر كذلك الدكتور شوكت موفق الشطي: تاريخ الطب (السفر الرابع) دمشق ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م ص ٦ - ٥١.

- وأحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام. دمشق ١٣٥٧ هـ/١٩٣٩ م ص ٢٠٤ - ٢٦٠.

- وليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق ١٩٧٣. ص ١٩٩ - ٢٠١.

- أنظر أيضاً Seyyed H. Nasr, op. cit, p. 184, 185, 189 حيث أوضح بصفة خاصة ما ورد في كتاب «غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان»، للطبيب «صالح بن سلوم» من جديد، حيث أسمى هذا الأخير الجزء الرابع من كتابه، «الطب الجديد الكيميائي الذي اختاره بركلسوس» ويقصد Parcelse، الطبيب والكيمياوي السويسري (١٤٩٣ - ١٥٤١)، الذي كان على رأس الطب في عصر النهضة في أوروبا، والذي أسماه ابن سلّوم «رأس أرباب هذه الصنعة» وبذلك تبدت واضحة أوليات التأثر العربي بالطب الغربي.

- وانظر أيضاً: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (جزءان). الجزائر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ج٢ ص٤٢٩ - ٤٥٠.

(٢) انظر حوله الدراسة القيمة للدكتور أبو القاسم سعد الله: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، ورحلته «لسان المقال»، في مجلة «الأصالة». الجزائر. العدد ٣٨. السنة الخامسة. شوال ١٣٩٦هـ / أكتوبر ١٩٧٦. ص٢-٢٤. وقد أصدر المؤلف الرحلة محققة. الجزائر ١٩٨٣.

لـو كليرك » في كتابه « تاريخ الطب العربي » بأنه آخر ممثل للطب العربي [1]. وقدم « الدكتور غبرييل كولان » رسالته في الـدكتوراه في الـطب عنه [2]. واعتبره « صاحب عقلية بعيدة عن الخرافات في عصر سادت فيه الشعوذة، وضعف استخدام العقل » [3].

أما مستوى تلك العلوم، إذا ما قيس بما أنتجته الحضارة العربية سابقاً، أو بما أنتجته الحضارة الأوروبية في تلك المرحلة، فأمر لم يدرس بعد بالتمحيص الكافي، والموضوعية المنصفة، وإن كانت هناك بدايات تقويم جديد تلوح في الأفق.

خامساً - إزدهار التأليف التاريخي العربي بمدارسه التقليدية، وإن كانت مدرسة « التراجم » أقواها في المشرق والمغرب على السواء. فقد رأت هذه المرحلة كثرة من المؤرخين، موسوعي المعرفة، مدققين ومحققين، ويدهشون الباحث المعاصر بغزارة مؤلفاتهم وضخامتها، ودقة المعلومات التي يقدمونها، وسعتها، وتنوعها، وبصفة خاصة المعطيات الاجتماعية والفكرية، وأحياناً الاقتصادية، مع التزام بشروط البحث التاريخي العلمي المتعارف عليها اليوم، من تحرٍ للمصادر الموثوقة والمتنوعة، ولا سيما المكتوبة منها، ونقد للمصادر والوقائع، وتعليل واقعي عقلاني، وصياغة سليمة من أمثال «النعيمي»[4]

---

(١) Leclerc, L., Histoire de la médecine arabe. New York, 1876 (2 vols) Vol. 2, P. 310

(٢) كانت بعنوان « الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري » وطبعها بالجزائر سنة ١٩٠٥.

(٣) المصدر السابق. ص ٣٩. تصدير: ابو القاسم سعد الله، في المصدر المشار إليه آنفاً. ص ٨.

(٤) عبد القادر بن محمد النعيمي (٨٤٥-٩٢٧ هـ / ١٤٤٢-١٥٢١م). من علماء الحديث في دمشق ومن المؤرخين. من مؤلفاته الهامة « الدارس في تاريخ المدارس » وقد طبع في جزئين. دمشق ١٩٤٨ - ١٩٥١ انظر حوله: الكواكب السائرة. ج١ / ٢٥٠-٢٥١ - الأعلام ج٤/١٦٨.

و«ابن الحنبلي»[١] و«ابن طولون»[٢] و«النجم الغزي»[٣] و«البوريني»[٤] و«المحبي»، و«ابن أبي السرور البكري الصديقي»، و«ابن أبي الرجال»[٥]

---

(١) رضي الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (٩٠٨-٩٧١هـ / ١٥٠٢-١٥٦٣م). من علماء حلب ومؤرخيها الكبار، له ما يزيد على خمسين مؤلفاً في معارف شتى. أهمها في التاريخ: «در الحبب في تاريخ أعيان حلب» وقد قامت وزارة الثقافة في سورية بنشره، بالتعاون مع محققيه محمود الفاخوري، ويحيى عبارة، وذلك في ٤ مجلدات (دمشق ١٩٧٢-١٩٧٤).
انظر ترجمته المفصلة في مقدمة المجلد الأول ص٧م - ٢٩م.

(٢) محمد بن علي بن طولون الدمشقي. (٨٨٠-٩٥٣هـ / ١٤٧٥-١٥٤٦م). مؤرخ وفقيه وله مشاركة في عديد من العلوم والآداب، وقد ألف في مختلفها. وله في التاريخ (٦٠) ستون مؤلفاً تقريباً. ولقد تأثر بشيخه النعيمي السالف الذكر. ومن أشهر كتبه «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان»، و«القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية»، و«إعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبرى»، وهذه المؤلفات مطبوعة ومحققة.
انظر حوله: الكواكب السائرة. ج٢/٢٥٢-٢٥٤. وفي مقدمة القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق محمد أحمد دهمان جزءان دمشق ١٤٠١/ ١٩٨٠ الطبعة الثانية ص١٥ - ٢٩.

(٣) محمد بن محمد بدر الدين الغزي، الملقب بالنجم. ولد في دمشق وتوفي فيها. (٩٧٧-١٠٦١هـ/ ١٥٧٠-١٦٥١م) مؤرخ وأديب، وفقيه. له مؤلفات عديدة وأهمها في التاريخ، «الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة» و«ذيله»- «لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر»، الاول مطبوع في (٣) اجزاء بتحقيق جبرائيل جبور (لبنان ١٩٤٥-١٩٥٩)، والثاني حققه محمود الشيخ كرسالة ماجستير في قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة دمشق - تحت إشراف ليلى الصباغ. تموز ١٩٧٩. ونشرته وزارة الثقافة في سورية بجزئين عام ١٩٨٠ - ١٩٨١.
- أنظر حول المؤرخ الدراسة التفصيلية في مقدمة «لطف السمر» ج ١/152-11 - والمحبي ج ٤/١٨٩ - ٢٠٠.

(٤) الحسن بن محمد البوريني (٩٦٣ - ١٠٢٤ هـ/١٥٥٦ - ١٦١٥ م). شاعر ومؤرخ، وأديب، وفقيه له مؤلفات في التفسير، والأدب، والتاريخ. وكتابه في الحقل الأخير هو «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» وقد حقق الدكتور صلاح الدين المنجد جزئين منه فقط، وطبعهما (المجمع العلمي العربي بدمشق)، عام ١٩٥٩ - و١٩٦٣، ولا تزال تتمته مخطوطة - أنظر حوله: لطف السمر ج ١/٣٥٥ فما بعد - وخلاصة الأثر ج٢/ ٥١ فما بعد.

(٥) أحمد بن صالح بن أبي الرجال اليمني (١٠٢٩-١٠٩٢هـ / ١٦٢٠-١٦٨١) أديب وافر الاطلاع، ومؤرخ نشأ في صنعاء. له تاريخ من سبعة مجلدات في علماء اليمن وائمتها، ورؤوسها، ويدعى «مطلع البدور ومجمع البحور».
أنظر ترجمته في خلاصة الأثر ج١ /٢٢٠-٢٢١، والأعلام ج١/١٣٥.

و«الشلي»[1]، و«عبد القادر العيدروس»[2]، و«ابن القاضي»[3] و«ابن كنّان»[4] و«المرادي»[5] وغيرهم كثير[6].

سادساً - بروز حركة أدبية عربية نشيطة في بلاد الشام ومصر بصفة خاصة، شرع مؤرخو الأدب المعاصرون يطلقون عليها، بعد الدراسات الأولية

---

(١) محمد بن ابي بكر بن احمد الحسيني الشلي الحضرمي (١٠٣٠-١٠٩٣ هـ / ١٦٢١-١٦٨٢)، عالم فلكي، ورياضي، ومؤرخ ولد في «تريم» في حضرموت، وتوفي في مكة. له عدة مؤلفات، أهمها في التاريخ «السنا الباهر بتكميل النور السافر عن اخبار القرن العاشر».
انظر ترجمته في خلاصة الأثر ج ٣ / ٣٣٦ - والأعلام ج ٦/ ٢٨٦.

(٢) مؤرخ وباحث من أهل اليمن الحضرمي (٩٧٨ - ١٠٣٧ هـ/ ١٥٧٠ - ١٦٢٨)، انتقل إلى الهند وتوفي فيها. من مؤلفاته العديدة «النور السافر عن أخبار القرن العاشر».
انظر ترجمته في خلاصة الأثر ج٢ / ٤٤٠ - والأعلام ج٤ / ١٦٤.

(٣) احمد بن محمد المكناسي الزناتي المعروف بابن القاضي. مؤرخ ورياضي (٩٦٠- ١٠٢٥ هـ / ١٥٥٣ - ١٦١٦ م). له عدة مؤلفات منها «درة الحجال في أسماء الرجال» و«غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض».
انظر ترجمته ومصادرها في الأعلام ج١/ ٢٢٥.

(٤) محمد بن عيسى بن محمود بن كنان (١٠٧٤ -١١٥٣ هـ / ١٦٦٣ - ١٧٤٠ م). من علماء دمشق ومؤرخيها. له عدة مؤلفات، منها «المروج السندسية في تاريخ الصالحية» و«الحوادث اليومية»، و«المواكب الإسلامية».
انظر ترجمته في المرادي: سلك الدرر ج٤/ ٨٥. حكمت اسماعيل. مقدمة المواكب الإسلامية. مصدر سابق ص ١١٣ - ١٤١.

(٥) محمد خليل بن علي (١١٧٣ -١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٩١ م). كان مفتي الشام ونقيب أشرافها. ولد ونشأ في الشام. أشهر كتبه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» و«عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام».
انظر حوله: مقدمة كتابه «عرف البشام» تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد. دمشق ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ص (هـ - ي). والأعلام ج ٦/ ٢٥٢.

(٦) انظر حول حركة التأريخ العربية في هذه المرحلة، واشهر المؤرخين وترجماتهم، نور الدين حاطوم، وأحمد طربين، نبيه عاقل، صلاح مدني: المدخل الى التاريخ. دمشق ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م. ص ٥٥١ - ٥٦٩. وحول حركة التأريخ في الجزائر بصفة خاصة: أبو القاسم سعد الله المصدر نفسه ج ٢/ ٣٣١ فما بعد. وحول حركة التاريخ في تونس أنظر:
Ahmed Abdesselem, les Historiens Tunisiens des XVII^e; XVIII^e et XIX^e siè-cles, Tunis 1973.

التي أجروها، اسم « النهضة الأدبية » [1]، ويظهر من كتب الأدب والتراجم أن البلاد العربية كانت تعج بعديد من الشعراء الكبار الذين لم يقوّموا حق التقويم، ولم توجه الدراسات الكافية إلى انتاجهم بعد، بل كان بعضهم قمة كابن النقيب، ومنجك [2]، في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. ولقد عمل بعض المؤرخين والأدباء في عصرهم، بالترجمة لهم، ولشعراء العربية من الأروام أيضاً. وممن قام بهذه المهمة مثلاً الشاعر والعالم « الخفاجي » في كتابيه « ريحانة الألباء » و« خبايا الزوايا ». وكان تأريخ الأدب العربي قد توقف إلى حد ما بعد « مبارك بن أبي بكر الموصلي » المتوفى عام ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م، في كتابه « عقود الجمان في شعراء هذا الزمان [3]. وتبع الخفاجي في خطوته تلك المؤرخ « المحبي » الذي دوّن كتابيه « نفحة الريحانة » و« ذيل نفحة الريحانة »، وسار على غرارهما في القرن الثاني عشر / الثامن عشر « عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن شاشو » (١٠٥٥ ـ ١١٢٨ هـ / ١٦٤٥ ـ ١٧١٦) في كتابه « تراجم بعض أعيان دمشق » ولو أنه لم يبلغ منزلتها.

ويلاحظ الدارس لتطور الأدب في هذه الحقبة، تطوراً في الأسلوب، وفي

= ـ وحركة التأريخ المصري: محمد أحمد أنيس: مدرسة التاريخ المصري في العهد العثماني معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٦٢.

(١) عبد الفتاح الحلو: مقدمة « نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة » للمحبي ٥ مجلدات. القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧. ج١ ص٣١.

(٢) نعيم الحمصي، المصدر نفسه. ج٢ ص١٠٩
انظر حول ابن النقيب. المحبي. المصدر نفسه. ج٢ ص٣٩٠ـ و٤٠٤.
عمر موسى باشا: محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني. دمشق ١٣٩٩ هـ ١٤٠٠ / ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠. ص٢١٨-٣٣١
وحول « منجك بن محمد بن منجك»(١٠٠٧-١٠٨٠ هـ/ ١٥٩٨-١٦٦٩) المحبي. المصدر نفسه ج٤ ص ٤٠٩ ـ ٤٢٣.
ونعيم الحمصي ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٤٧ فما بعد.

(٣) عبد الفتاح الحلو. مقدمة ريحانة الألبا للخفاجي ج ٣٢/١.

فنون الشعر وأوزانه، وتنوعاً في أغراضه [1]. هذا علماً بأن المطبوع من الشعر العربي في العهد العثماني الأول لا يزال قليلاً، وكثير مما خلفه شعراء هذه المرحلة وأدباؤها لا يزال ثاوياً مخطوطاً في مكتبات العالم [2].

وفي الواقع، لا بد في هذا المجال من دراسة الحركة الأدبية في البلاد العربية في ضوء تأثرها بالثقافة التركية الفارسية، وبالحركة الأدبية التركية في مركز الدولة العثمانية ومدنها، وضروري أيضاً دراسة الحركة الأدبية التركية في ضوء الحركة الأدبية العربية وموازية لها، إذ أن كتب التراجم العربية الأدبية والتاريخية، تشير إلى عدد من الأدباء الأتراك والمستعربين منهم، وإلى الشعر التركي وقواعده، مما يدل على تأثرات متبادلة.

ويتبين في هذه الحركة الأدبية العربية، وبخاصة في المشرق، اتجاه شعراء ذلك العصر نحو تقليد الشعر العربي الأصيل في العهدين الأموي والعباسي [3]، ونزعة قوية لدى الأدباء والمؤرخين في بلاد الشام بصفة خاصة، نحو تدارس أخبار العرب الخلّص، وأشعارهم [4]، بل وإلى تعريب كثير من المصطلحات والألفاظ التركية السياسية الدخيلة على اللغة العربية [5]. ويمكن

---

(1) عمر موسى باشا: المصدر نفسه. ص٢١٦-٢١٧. ونعيم الحمصي. المصدر نفسه ج٢ ص١٠٧-١٧٣، وج١/ ٣٢٧-٣٧٧.

(2) ن. الحمصي. المصدر نفسه. ج ٢ ص ١١٠ - أنظر حول الأدب في الجزائر: أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج ١٧٨/٢ - ٣٣٠.

(3) كان منجك مثلاً يحذو في شعره حذو «أبي فراس الحمداني» (الزركلي - الأعلام ج٨ ص٢٢٤)

(4) أنظر على سبيل المثال لا الحصر، ما أورده المحبي من حديث مطوّل عن النار العربية وأنواعها، ورده على بعض الأدباء الاتراك من أن العرب كانوا أسبق إلى معرفة المعمّى من الشعر (المصدر نفسه ج٢ ص٢٧٣، ص٣٩٢)؛ وتأليف الخفاجي لكتاب تحت عنوان «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب»؛ وتقريظ المحبي دوماً لمن كان يملك دواوين الشعر العربية القديمة، ويحفظ الشعر العربي، من العرب والأتراك. (على سبيل المثال ترجمة «عبد القادر بن عمر البغدادي» ج ٢ ص ٤٥٢، والمولى «أحمد بن نور الله البولوي» ج١ ص ٣٦٥).

(5) مثل تسمية «المحبي» للانكشارية بـ«الجيش الجديد»، وللباشا التركي بـ«الوالي، والمحافظ والكافل»، وللقزلار آغاسي بضابط الحرم وغيرها.

أن يرى في هذا الاتجاه العربي الأصيل والهام، والظاهر بشكل جلي عند رضي الدين الحنبلي، والغزي، والبوريني، والخفاجي، والمحبي، إذا ما تـوبعت دراسته بشمول وعمق، مظاهر لا لبس فيها للوعي القومي العربي، الذي درج كثير من المؤرخين المعاصرين على نسب ظهوره وانبثاقه إلى أواخر القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، وعلى إرجاعه لعـوامل خـارجية، كـالتحدي الاستعماري الأوروبي، وانتشار المفهوم القومي الأوروبي، والثورة الفرنسية، إلى غير ذلك من أمور. إن الشعور بالتمايز القومي بـين العرب والأروام (الأتراك) ـ على الرغم من الغطاء الديني الإسلامي العام ـ كان واضحاً في كتابات الأدباء والمؤرخين، وفي مشاعر المثقفين العرب: «فالغزي » مثلاً يفرق بين عرب محكومين، وأروام (أتراك) حكام ويغمز هؤلاء الأخيرين من طرف خفي[1] و «البوريني» يرد على معاتبيه لقوله الشعر بالفارسية[2] قائلاً:

تـعلَّمـتُ لفظَ الأعـجميَّ وإنـني من العــربِ العَـرْبــاءِ لا أتكـتَّمُ

واستهل الخفاجي كتابه « ريحانة الألباء » بقوله [3]:

فـإنـي من الـعُــرْب الأكــرمـيـن وفي أول الــدهـر ضــاعَ الكــرم

كما افتتح « المحبي » ترجمته لنفسه في « نفحة الريحانة »، بتقليده للخفاجي، قائلاً [4]:

وإنِّـي مـن الـعُــرْبِ الأقــدمـيـن وقـد ماتَ من قَبْـلِ خَلْقي الكرم

بل هناك من أظهر نقمته صراحة على الترك الأروام عندما لم يساووه معهم، ويقدموه إلى المناصب التي يطمح إليها. ومن أمثلة ذلك ما ورد على

(١) لطف السمر: ترجمة « بستان الرومي » (ج١ / ٣٤١ ترجمة ١٣١) و« حسين الدروي »(ج١/ ٤٠٩ ترجمة ١٥٠) ـ و«محمود بن الطبيب» (ج ٢/٦٤٥ رقم الترجمة ٢٥٧) ـ و«كمال افندي طاشكبري زاده» ج ٦٠٧/٢ ترجمة ٢٤٨)، وغيرها.
(٢) المحبي. المصدر نفسه ج٢ ص٥٢
(٣) ج ١ ص ٤.
(٤) ج ٢ ص ١٨١.

لسان « محمد الفارسكوري » القاضي المصري نزيل القسطنطينية حيث قال:

من الـرأي ترك التـرك إنـي بلوتهم فلـم أرهـم في الخير يومـاً ولا الشر

وعلّق «المحبي» الذي أورد هذا القول بقوله: «سبكه (أي الفارسكوري) من الحديث)، وهو ما أخرجه «الطبراني» عن ابن مسعود: (اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتي ملكهم، وما خولهم الله بنو قنطوراء). وبنو قنطوراء: الترك، وهي جارية لإبراهيم عليه السلام، من نسلها الترك[1]».

سابعاً - نشاط في الحركة التعليمية في المدارس والجوامع على السواء. وفي الحقيقة، لقد تركت الدولة العثمانية الحاكمة للبلاد العربية - كما أسلفنا القول - تقاليدها العلمية والتعليمية، ومدارسها. وقد سارت الحياة التعليمية في البلاد العربية سيرتها التي كانت عليها قبل ضم الدولة العثمانية لها. بل إن العثمانيين أبقوا للمدارس فيها أوقافها. وليس في أخبار تلك القرون ما يدل على أن الحكم العثماني قد أفقر تلك المدارس، أو أعاقها عن القيام بمهمتها، على الرغم من أن كثيراً من تلك الدارس، كان مدرسوه على مذاهب دينية مخالفة لمذهب الدولة الرسمي. كما أنه ليس هناك أدلة على انحطاط مستويات التعليم ووسائله، عما كانت عليه في أواخر العهد المملوكي. وإذا كان بعض المدارس قد ساءت أحواله، فإن هذا يرجع في الواقع لا إلى قيود فرضتها السلطة الحاكمة، وإنما إلى ضعف واردات أوقافها نتيجة تلاعب المتولين لتلك الأوقاف. وهناك شواهد على أن الدولة العثمانية كانت تشدد الرقابة في بادىء الأمر على هـؤلاء[2]، وتضرب بشدة كل من يحاول أن يسيء إليها، أو يبعثر أموالها، ولا سيما في القرنين الأولين من الحكم العثماني: فقد شنقت « سنان القرماني » الذي كان متولياً نظارة البيمارستان النوري بدمشق، ونظارة الجامع الأموي فيها، وكذلك « حسين جلبي » نـاظر المدرسة السليمية، وكان ذلك

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٨٢/٤.

(٢) أنظر على سبيل المثال ترجمة «أحمد بن شيخ زاده» في «لطف السمر». ج ٢٩٦/١ رقم الترجمة ١٠٧.

عام ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م،لأن الأول باع بسط الجامع وحصره، وخرب المدرسة المالكية الصمصامية قرب البيمارستان النوري، وحصل منه ضرر للمدرسة النورية ببعلبك [١]، والثاني أساء الاستعمال أثناء توليه تكية السلطان سليم بالصالحية [٢].

وفي الواقع، لم تكتف الدولة بالحفاظ على المدارس والمساجد القائمة، والحرص على متابعتها نشاطها التعليمي فحسب، بل أنشأت مساجد ومدارس أخرى، ورممت المتداعي منها. والشواهد عديدة: ففي دمشق مثلاً تم تشييد المدرستين السليمية [٣] والسليمانية [٤]، وعدد من المساجد من قبل الولاة، كالمرادية [٥]، والدرويشية [٦]، والسنانية [٧]، والسياغوجية [٨] كما رممت

---

(١) انظر الغزي: الكواكب السائرة ج٢/ ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص١٣٩

(٣) جامع بناه السلطان سليم الأول على ضريح الشيخ محيي الدين بن العربي في الصالحية عند فتحه لبلاد الشام، وألحق به تكية. انظر حولها: الغزي المصدر السابق ج١ ص٢١٠، والحصني. منتخبات التواريخ لدمشق. ٣ أجزاء. دمشق ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م ج٢ ص٥٨٥. وليلى الصباغ. المجتمع العربي السوري. ص٢١٤ - ٢١٧.

(٤) بناها السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ / ١٥٥٤م شرقي تكيته. انظر عبد القادر الريحاوي. التكية السليمانية - مجلة الحوليات الأثرية الصادرة عن مديرية الآثار بدمشق - المجلد السابع ١٩٥٧ ص ١٢٥ - ١٣٤. عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. د.ت ص ٣٧٨. والحصني. المصدر السابق ج٢ ص ٥٧٢.

(٥) انشأه مراد باشا سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م في السويقة في الميدان التحتاني، ويعرف اليوم بجامع النقشبندي. انظر ابن جمعة. المصدر نفسه. ص١٦ والغزي. الكواكب السائرة ج٣ ص٢٠٥-٢٠٦. والحصني. المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٤٧.

(٦) عمّره الوالي درويش باشا حوالي ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م. الكواكب السائرة. ج٣ص١٥٠ الحصني. ج٣ ص ١٠٤٧.

(٧) أمر ببنائه سنان باشا لما تولى دمشق في ٩٩٤ هـ، وتمت عمارته سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م. وهو عند باب الجابية. انظر العلموي ذيل مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ص٢٤٤.

(٨) أمر ببنائه الصدر الأعظم «سياغوش باشا» في العشر الأخير من القرن العاشر / السادس عشر بحارة القصاعين داخل باب الجابية. الغزي. لطف السمر. ج١/٣٩٤ ترجمة (حسن باشا الشوربزي) والمحبي خلاصة الأثر ج ٢/٢٥.

المدرسة القليجية، بعد أن كانت قد احترقت في فتنة تيمورلنك [1]. وكذلك الأمر في تونس حيث أنشئت مدارس جديدة، وجددت القديمة [2]. وكذلك في الحجاز [3]، والجزائر [4]، وغيرها..

والتعليم في تلك المدارس والمساجد، على الرغم مما يبدو من طابعه التقليدي في مواده التعليمية، وطرائقه، إلا أن هناك تأثراً واقعاً من تنظيم سليمان القانوني للتعليم العالي [5]، ومن الاحتكاك الواسع بين العلماء العرب والعلماء المسلمين الآخرين من غير العرب [6]. وقد يبدو هذا في بعض الجديد من الطرائق التعليمية لدى بعض المدرسين [7]، ومن النقد الموجه لبعض الطرائق التقليدية عند بعضهم الآخر [8].

وكان تبادل العلماء المعلمين قائماً على نطاق واسع في البلاد العربية في تلك المرحلة ومن ثم تتميز تلك الحقبة بحركة تنقل علمية حثيثة، كان يقوم بها العلماء والأدباء بين الأجزاء المختلفة للوطن العربي، والعالم الإسلامي، ولإقامة طويلة أو قصيرة. فمن الشام إلى الحجاز وبالمقابل، ومن الشام إلى مصر وبالمقابل، ومن اليمن إلى الحجاز، ومن مختلف الأقطار المغربية إلى المشرق، ومن المغرب

---

(١) ابن بدران. منادمة الأطلال. ص١٩٦، ٢٦٠ - لطف السمر ج١/ ٣٠١ - خلاصة الأثر ج١/ ٢٠٧.

(٢) الطاهر المعموري. المصدر نفسه. ص ٤٨.

(٣) انظر على سبيل المثال: الكواكب السائرة ج ٣/ ١٥٧ ترجمة السلطان سليمان. حول بنائه مدارس في مكة المكرمة.

(٤) انظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي ج١/ ٢٢٣ - ٢٨٥.

(٥) انظر التعليم في ليلى الصباغ. المجتمع العربي. ص ١٦٨ فما بعد و Gibb and Bowen, op. cit., part II, p. 144-7 وفي تاريخ الجزائر الثقافي ج١/ ٣١٥ - ٣٩٢.

(٦) انظر على سبيل المثال المحبي. المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ (ترجمة صالح الرومي) حيث يقول: «وهو في نفس الأمر عجيب الصنعة في تقريره وتفهيمه جار على طريقة محققي العجم والأكراد في مراعاة آداب البحث».

(٧) المصدر السابق ج٤ ص٣٣٠-٣٣١ (ترجمة محمود البصير الصالحي).

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص٢١. وترجمة (ابراهيم بن رمضان).

والمشرق إلى بلاد الروم والمدن العلمية فيها، كاستامبول، وبروصة، وأدرنة. وكأن الرحلة في طلب العلم ونشره قد عادت نشيطة وفعالة كما كانت عليه في الماضي، وهي من الأمور التي رأى ابن خلدون بحق « أنه لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال »[1].

وقد رافق النشاط التعليمي والعلمي في هذه المرحلة اهتمام كبير باقتناء الكتب وجمعها والحفاظ عليها، وتكوين المكتبات الخاصة والعامة، ووقفها على طلبة العلم[2]، حتى راجت تجارة الكتب، وكان لها دلّالها[3].

ثامناً - إزدهار « أدب الرحلات » حتى غدا شبه تقليد، أن يقوم العالم المتنقل، والأديب، بتدوين رحلته، ومشاهداته في المناطق التي يزورها أو يقيم فيها، وملاحظاته وتعليقاته، الجغرافية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعمرانية؛ وقد يكون التدوين نثراً أو شعراً [4]. ومن ثم فتلك الرحلات هي مصدر ثمين جداً لدراسة هذه المرحلة.

تاسعاً - إسهام المرأة العربية المسلمة في الحياة الفكرية في تلك المرحلة، تعلمًا، وتعليمًا للمرأة والرجل على السواء، وتحديثاً، وإنتاجاً شعرياً ونثرياً، وعملاً في ميدان الطب. وقد ترجم بعض مؤرخي القرن العاشر / السادس

---

(١) المقدمة. ص ٥٤١.

(٢) انظر على سبيل المثال فقط المحبي. المصدر نفسه ج١ ص٢٩، ١٢٤، ١٤١، ج٢ ص ٢٢٣. ج٣ ص١٥٧.

(٣) المصدر السابق ج٤ ص٣١٨، ج١ص١٠١ترجمة (محمود الباقاني) والأديب (أبو بكر العمري)، أنظر أيضاً تاريخ الجزائر الثقافي ج١/٢٨٦-٣١٤ (المكتبات).

(٤) هناك عدد كبير من تلك المؤلفات لا يزال كثير منها محفوظاً أو مفقوداً. انظر حولها جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. ٤ أجزاء في مجلدين. بيروت ١٩٦٧. ج٣ ص٣٣٨-٣٤١ ومن بعض المطبوع منها « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء» لابراهيم الخياري، و« رحلة الشتاء والصيف » لمحمد كبريت، و« نزهة الأنظار في فضائل علم التاريخ والأخبار » للورثيلاني. وهناك باحثون يحققون رحلات عبد الغني النابلسي المتصوف الدمشقي المشهور، كما قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بتحقيق رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الطبيب، وعنوانها « لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال»، وقد نشرت عام ١٩٨٣ في الجزائر.

عشر، لعدد من النساء الشهيرات في تلك الميادين [1]، كعائشة الباعونية العالمة المتصوفة الشاعرة [2]، وبوران بنت الشحنة الأديبة الصالحة [3]، وغيرهما. كما أن «المحبي» في القرن الحادي عشر قد أشار في ثنايا تراجمه إلى عالمات شاعرات [4] وإلى طبيبة استلمت مشيخة الطب في دار الشفاء المنصوري في مصر بعد وفاة والدها [5]. ولو توبع البحث في بقية البلاد العربية، عبر كتب التاريخ والتراجم في تلك البلاد لاتسعت ساحة الرؤية واشتدت وضوحاً.

وهكذا يمكن القول إن النشاط العلمي بتياراته المختلفة، مصحوباً بحركة تعليمية فعالة، كان منتشراً في معظم مدن الأقطار العربية والإسلامية، كالقاهرة، ودمشق، وحلب، ومكة، والمدينة، والقدس، وبغداد، والبصرة، والموصل، وصنعاء، وبروصة، واستامبول، وأدرنه، وفاس، ومراكش، والجزائر وتونس، وتلمسان وغيرها. بل إن كتب التراجم تبرز في القرنين العاشر والحادي عشر / السادس عشر والسابع عشر، حركة علمية وأدبية نشيطة في حضرموت وفي مدينة «تريم» فيها بالذات. كما تبيّن الصلة الفكرية الوثيقة بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا العربي، وبلاد الهند الإسلامية. فعديد من علماء اليمن وحضرموت، كان يتوجه إلى بلاد السواحل شرقي

---

(١) لقد ترجم الغزي في الكواكب السائرة لاثنتي عشرة امرأة، ورضي الدين الحنبلي في در الحبب لثمان وبعضهن مشترك بين الاثنين. (الكواكب السائرة. ج ١ ص ١٦٢، ١٦٣، ١٩٢، ٢٨٧، ٢٩٣. ج ٢ ص ١٢٨، ١٢٩، ١٤١، ٢٣٨، ج ٣ ص ١٥٤) - (در الحبب، ج ١ ص ٤٠٢، ٥٧٥، ٦٠٩، ٦٧٧، ١٠٦٠، ج ٢ ص ٢١، ٢٢).

- انظر حول تراجم الغزي للنساء ما كتبه عبد القادر المغربي تحت عنوان «اثنا عشر كوكبا» في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١٢. عام ١٩٣٢. ص٧٢١ فما بعد.

(٢) انظر ترجمتها في الكواكب السائرة. ج ١ ص ٢٨٧-٢٩٢، وفي رضي الدين الحنبلي در الحبب ج١ ص ١٠٦٠.

(٣) ترجمتها في الكواكب السائرة. ج٢ ص١٢٩ - ابن الحنبلي. در الحبب ج١ ص٤٠٣.

(٤) خلاصة الأثر. ج٢ ص٣٤١، ج٤ ص٤٨، ٤٧٩.

(٥) المصدر نفسه. ج١ ص٢٠٤. ترجمة (أحمد بن الصائغ).

أفريقيا والهند، ويعمل هناك. وهذا يؤكد وجود بؤر فكرية عربية ـ إسلامية مشعة في الهند، وشرقي أفريقيا العربي.

عاشراً ـ نمو تيار التصوف وتمازجه مع حركة العلم الديني. وإذا كان لهذا التيار سلبياته في الفكر العربي، فإنه كان له أيضاً إيجابياته، عندما كان العاملون في بابه يرتقون إلى مستوى التأمل في الوجود وخالقه، ويبحثون في العقائد وعلم التوحيد، وغيرها من قضايا كونية وروحية. ولا بد من العودة إلى المؤلفات الصوفية الكثيرة التي دوّنت في هذه المرحلة في المشرق والمغرب، وتقويمها موضوعياً (١).

حادي عشر ـ لم تقتصر الفعاليات الفكرية على المسلمين في هذه الحقبة فحسب، بل يلاحظ في بلاد الشام بصفة خاصة، معالم نهضة تعليمية وأدبية بين المسيحيين، ولا سيما في حلب ولبنان، وإن كان يغلب عليها هي الأخرى الطابع الديني. وقد يكون من عواملها الاحتكاك بالجاليات الأوروبية، التجارية والدينية، وتسرب البعثات التبشيرية الكاثوليكية العاملة في لبنان، وحلب منذ القرن السابع عشر، كالكبوشيين، واليسوعيين. وقد عمل هؤلاء على إدخال الثقافة الأوروبية الغربية عن طريق فعالياتهم التبشيرية التعليمية في الأوساط المسيحية، واقامتهم للمدارس في ارسالياتهم وأديرتهم. كما أن النابهين من موارنة لبنان كانوا يُرسَلون إلى روما أو باريس لإكمال دراستهم، ثم العودة لاستلام المناصب الكهنوتية، ومتابعة عملية التبشير الكاثوليكي، وتوطيد الصلة مع الكنيسة البابوية، وفتح المدارس ونشر التعليم. وبالمقابل فإن رجال الدين الوطنيين، الذين بقوا على عقائدهم الشرقية، سعوا لإنشاء المدارس، وتعليم أبناء طوائفهم، منعاً لهم من الزيغ والصبأ عن مذهبهم، فيما لو درسوا على يد المبشرين الكاثوليك. وقد ترتب على تلك الحركة التعليمية، حركة فكرية جديدة في الأوساط المسيحية. وظهر مفكرون دينيون، وأدب ديني،

---

(١) انظر حول بداية لتلك الدراسة تاريخ الجزائر الثقافي ج٢ / ١١٧ ـ ١٥٨.

وأسهم في تلك الحركة بعض الآباء اليسوعيين الذين تعلموا العربية. وتم إدخال الطباعة العربية إلى حلب؛ وإذا كان هناك بعض الشكوك حول تاريخ الإدخال في القرن السابع عشر، فإنه من المؤكد إن الأمر قد تم في الثامن عشر. وقد نشط النسخ قبل الطباعة، وكذلك الترجمة إلى العربية، عن السريانية، وازداد الاهتمام بجمع الكتب وتكوين المكتبات. وتبدى النشاط الثقافي واضحاً بين الموارنة المتعلمين: فالدارسون في أوروبا منهم عادوا إلى بلادهم بوعي جديد، وانكبوا على دراسة الكتب العربية. وقد وجهتهم إلى ذلك بصفة خاصة، حركة الاستشراق الواسعة، التي أخذت بالانتشار في أوروبا في هذه الحقبة، وألف كثير من المثقفين المسيحيين باللغة العربية، وأشهرهم «أسطفان الدويهي»، و«الأسقف الشدراوي»، والمطران «جرمانوس فرحات»، الذي لعب دوراً هاماً في حلب في أواخر القرن السابع عشر، وأسهم باحتكاكاته الواسعة بالأوساط الإسلامية الأدبية في حلب، في إحياء الأدب العربي بين الموارنة، كما كان هناك عديد غيرهم [١].

وخلاصة القول، إن جميع تلك المعطيات الأولية لدليل واضح على حياة فكرية عربية، إسلامية ومسيحية، غنية، ترفض بشدة وحزم وصفها بالانحطاط والتدهور، بل ولا حتى بالجمود، على الرغم من موجة التصوف الشعبي الذي أغرق فكر العوام، وبعض المتعلمين، في دوامات الغيبية والكرامات؛ ولا سيما أن تقويمها ذاك، قد تم بصورة سابقة لدراسات علمية موضوعية، عميقة ودقيقة، ومن المصادر العربية للحقبة نفسها؛ أو أنها قيست بمقياس الحضارة الغربية الحالية، وروحها التقنية العلمية المادية البحتة. بل يمكن القول عن هذه المرحلة ما قاله المستشرق «كاهن» عن حقبة السلاجقة الأتراك بأنه لا يحق لنا أن ننعت بالانحطاط حقبة من التاريخ تألق فيها عدد كبير من

---

(١) انظر حول مجموع النقطة العاشرة، ومصادرها العديدة. ليلى الصباغ ـ الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ص٤٢٦-٤٦٣، وص ٤٧٨-٤٨٢.

مفكري الحضارة الإسلامية [1]، من علماء وأدباء بل ومتصوفة متأملين، كأولئك الذين تتحدث كتب التراجم عن كثير منهم. وهذا مشابه لما قاله الدكتور « شوقي ضيف »، و« حسين مؤنس »، و« طه حسين » و« زكي المحاسني »، من الأدباء، والمؤرخين العرب المعاصرين، عن العصر المملوكي، السابق للعصر العثماني الأول، وما أشار إليه أيضاً الدكتور «هانس»[2].

لقد آن الأوان لإعادة تقويم الحضارة العربية في الفترات التي وصفت بالانحطاط والتدهور. وعلى المؤرخ العربي المعاصر بالذات، أن يدخل ميدان الدراسة العلمية التاريخية العميقة، وهو خالي الذهن من أية أفكار مسبقة، وأن ينكبَّ بشهية وإقبال على تراث تلك المرحلة، بكل فروعه وميادينه، وأن يمعن فيه تحقيقاً، ودرساً، وتنقيباً، وتعديلاً، وتجريحاً، وأن يقومه بتجرد، وبالنسبة لذلك العصر نفسه ومقوّماته، لا بالنسبة للتطور الحضاري الذي نعيشه في الربع الأخير من القرن العشرين. ولا بد من التعاون في هذا المضمار، في ميدان تبادل الوثائق، والدراسات، بين الباحثين العرب وجميع المهتمين بدراسة هذه المرحلة، وذلك للوصول إلى الحقيقة، ووضع الأمور في نصابها الصحيح.

وإن الدراسة التالية لأحد أعلام الفكر العربي في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وهو الأديب والمؤرخ « محمد الأمين بن فضل الله المحبي » قد تكون من بدايات هذا الطريق، ونموذجاً يثبت كثيراً مما ذكر في هذه المقدمة.

---

(١) المصدر نفسه. ص ٣٧٥.

(٢) انظر عمر موسى باشا، المصدر نفسه. ص٤-٧.

الفصل الأول

سيرة المحبي ومؤلفاته

سيرة المحبي

تمهيد:

لم يكن «محمد الأمين المحبي» موضوع هذه الدراسة نكرة في عصره (١٠٦١ ـ ١١١١ هـ/ ١٦٥١ ـ ١٦٩٩ م)، بل كان اسمًا لامعاً في سماء العلم، والتاريخ، والأدب، وله إنتاجه الخصيب، وعطاؤه الفكري اللذان أجمع أبناء زمنه على رفعة مستواهما. كما كان له تلامذة عديدون، وأصدقاء كثر، ومعجبون كبار من الأدباء والعلماء، لا في بلاد الشام، ودمشق موطنه فحسب، وإنما في أقطار عربية أخرى، كمصر، والحجاز، واليمن؛ بل تعدت المعرفة به تلك الأقطار إلى مركز الدولة العثمانية نفسها.

تلك الدولة التي كانت لا تزال لها امبراطوريتها الواسعة: فهي ما انفكت تمد سيادتها السياسية على معظم شبه جزيرة البلقان وجنوبي روسيا من الأرض الأوروبية، وعلى غالبية البلاد المشرقية العربية، ما عدا اليمن وحضرموت وعمان، وعلى البلاد المغربية العربية ما عدا المغرب الأقصى. إلا أن «المحبي» لم يعايش هذه الدولة وهي في عنفوان قوتها، وإنما خلال حقبة كانت تسير فيها في طريق الضعف والانحطاط، ذلك الطريق الذي سلكته منذ أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فالفساد قد استشرى في جميع نظمها الإدارية، وفي عسكرها بصفة خاصة، والهبوط أصاب اقتصادها، وعلى الرغم من ظهور فئة من الصدور العظام من «آل كوبرلي» في النصف الثاني من

القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، عملت بكل طاقتها لرأب الصدع، وإعادة الدولة إلى قوتها السابقة، فإن جهودها لم تثمر إلا ثمراً آنياً، إذ أن عوامل الانحطاط كانت أعمق من أن تصلحها تلك الجهود الجادة، واتجهت السلطات السياسية التي كانت تمثل تلك الدولة في الولايات العربية، إلى حكم محلي تثبِّته لصالحها، وتقلص النفوذ المركزي عليها، كما عملت الدول الأوروبية الطامعة بإمبراطوريتها، على انتهاز تلك الفرصة لانتزاع أجزاء منها على الأرض الأوروبية.

إلا أن ذلك الضعف الذي تردت فيه الدولة العثمانية الحاكمة لمعظم الأقطار العربية، لم يمنع الحياة الفكرية فيها من أن تأخذ مجراها، ولم تعق المفكرين من علماء وأدباء من أن يعيشوا حياة مجتمعهم، وأجواءهم الخاصة، وفي الوقت ذاته من أن يتحسسوا تلك التشنجات المؤلمة التي كانت تمر بها الدولة في المركز والأطراف. وكان «محمد الأمين المحبي» واحداً من أولئك المفكرين العرب، الذين لم يحيوا على هوامش تلك المرحلة، وإنما توغلوا فيها، بفكر العالم، والمؤرخ، وبكل أحاسيس الشاعر، وتفهموا أعمق أحداثها ومجرياتها. فكان «المحبي» ابن عصره، عبّر فيما كتب من أدب وعلم وتاريخ، لا عن حياة المجتمع العربي في ذلك الوقت، وبصفة خاصة الشامي منه فحسب، وإنما عن حياة «المجتمع العثماني» بل «الإسلامي» بكليّته. ولذا فلا عجب أن يَلْقى ذلك التجاوب الحار من أبناء عصره، وأن يتلقى في حياته الثناء من عدد من شعرائهم، وأن يحظى منهم بامتداح مؤلفاته. ومن هؤلاء على سبيل المثال «سليمان المعروف بالحموي الكاتب»[1] نزيل دمشق، و«عبد الرحمن الجيزي الطباطبي»[2] من أشراف مصر الأدباء الذي طلب الإجازة من

---

(١) أديب ورد دمشق من بلدة حماة، وأقام فيها عند نقيب الأشراف آنذاك «محمد العجلاني» وكان له مكاتبات مع «المحبي». وقصائد شعرية متبادلة. وله ديوان شعر. توفي ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م انظر ترجمته في المرادي: سلك الدرر. ج٢/ ١٦٧ ـ وفي المحبي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة. ٥ أجزاء. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ج١/ ٥١٠.

(٢) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ ٤/ ٦٥٩ ـ ٦٧٧، ومديحه للمحبي في ص ٦٦١ فما بعد.

المحبي بالرواية عنه، و«عبد الرحمن بن محمد عابدي»[1] من بلغاء المدينة المنورة، و«أحمد بن أحمد الأنسي اليمني المعروف بالزنمة[2]».

كما قرظه ورثاه بعد وفاته، بأسى وصدق، جمع من شعراء موطنه دمشق، حتى قال أحد تلامذته الذي جمع آخر مؤلفاته «ذيل نفحة الريحانة»، وهو «محمد المحمودي السؤالاتي»[3]: «وقد أكثر أدباء الشام الرثاء في شمائله ببديع النظام»[4]. ومن هؤلاء «مصطفى الصمادي»[5]، و«صادق بن محمد الشهير بابن الخراط»[6] و«محمد بن أحمد الكنجي»[7]، و«سليمان الحموي

---

(١) أنظر ترجمته وشعره في ذيل نفحة الريحانة تحقيق عبد الفتاح الحلو. القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م/ ٣٠٧ - ٣٢٢، وكان له صلة بالمتصوف الدمشقي الكبير «عبد الغني النابلسي» وجاء مديحه للمحبي في ص ٣٠٩ من الذيل.

(٢) من أهل صنعاء، مدح الإمام المؤيد محمد بن اسماعيل بن القاسم، والمهدي صاحب المواهب محمد بن أحمد، إلا أن الأخير غضب عليه فلحق بمكة، ومدح شريفها «أحمد بن غالب»، ثم عاد إلى اليمن وإلى الإمام المهدي بعد أن صفح عنه. وقد التقى به «المحبي» في مكة. توفي سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م في جزيرة زيلع.

أنظر ترجمته في الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. مجلدان، مصر ١٣٤٨ هـ، جـ١/٣٦ - ٣٧. وفي أحمد بن محمد الشرواني اليمني: حديقة الأفراح لإزالة الأتراح. مصر ١٣٠٢ هـ/٦، ونفحة الريحانة جـ٣/٥٩٦ - ٦٠٦.

(٣) هو محمد بن محمود بن محمود المحمودي السؤالاتي الحنفي العثماني كما أتى اسمه في ذيل النفحة. ولم يعثر على ترجمة له في المصادر المتوافرة. إلا أنه يرجح أن يكون هو نفسه الذي ترجم له «المحبي» في ذيل النفحة تحت اسم «محمد بن محمود المحمودي» ص ٧٩ - ١٠٠، ووصفه بأنه «شيخ شابّ.. يخوض من بحار الفقه لججه، فيوضح منها فتاويه وحججه... وكاد لكثرة علمه أن يكون عَلَماً مختصراً».

(٤) ذيل النفحة ص ٤٢٩.

(٥) أديب شاعر، وكاتب من كتاب الخزينة السلطانية توفي ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ - ١٧٢٥.

أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ٤/١٧٩ - ١٨٣ وذيل النفحة ص ١٧٠ - ١٨٥. وانظر رثاءه ص ٤٢٩ - ٤٣١ من الذيل.

(٦) كان عالماً ماهراً بالشرعيات، وأديباً شاعراً. لازم عبد الغني النابلسي وتزوج بابنته، ودرس بالمدرسة العمرية، وناب في قضاء محكمة الباب. توفي ١١٤٣ هـ/١٧٣٠.

أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ٢/١٩٢. وقد أورد له المحبي بعض شعر في ذيل النفحة دون أن يترجم له. انظر ص ١٨٤، ٢١٩ - ٢٢١، ٢٢٤، ٢٨٤ فيه. وانظر رثاءه له في المصدر نفسه ص ٤٣١.

(٧) ترجم المرادي لوالده «أحمد بن محمود الكنجي الحنفي الدمشقي» المتوفى عام ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ =

الكاتب»، و«عبد الحي بن علي الطالوي الحنفي الدمشقي» الشهير بالخال وابن الطويل[1]. والقاضي «زين الدين بن محمد بن سلطان»[2] ، و«عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق»[3] ، و«مصطفى الترزي»[4] ، و«محمد السمان»[5] ، و«سعودي بن يحيى العباسي الشهير

= في سلك الدرر جـ ١/١٩٦ - ١٩٩ وأشار إلى أنه سيتحدث عن ابنه «محمد» إلا أنه لم يفعل. ويظهر من ترجمة «المحبي» له في ذيل النفحة ص ٥٥، بأنه كان أديباً شاعراً برز على الرغم من شبابه الغض. انظر رثاءه للمحبي في المصدر نفسه ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(١) من الأدباء الدمشقيين المتميزين، طرق كل أغراض الشعر، وكان له في الهجو والمجون السبق. توفي ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م.
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ٢/٢٤٤ - ٢٥٣، وذيل النفحة ١٣٨ - ١٥٧. ورثاءه/٤٣٥ - ٤٣٦ من الذيل.

(٢) أديب ولد بدمشق ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م، وكان من المقربين للأمير الشاعر منجك، وعمل رئيساً لكتاب القسمة العسكرية وعمّر طويلاً حتى بلغ من العمر (١٠٤) سنوات، إذ توفي عام ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م.
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ٢/١١٨ - ١١٩، وذيل النفحة/١٨٦ - ١٨٨. وانظر رثاءه للمحبي في المصدر نفسه/٤٣٧ .

(٣) ولد بدمشق ١٠٧٥ هـ/١٦٦٥ م، وكان عالماً بالفرائض، وشاعراً. وعمل خطيباً بجامع السنانية. توفي ١١٣٨ هـ/١٧٢٦ .
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ٢/٢٦٦ - ٢٧٤، وذيل النفحة/٢٠٦، والأعلام جـ ٤/٦٤. وانظر رثاءه للمحبي في ذيل النفحة/٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٤) هو ابن أحمد باشا أمير الأمراء. كان أديباً شاعراً، وله معرفة بالطب. ولد عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٥ م، وتوفي ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م. وقد حطّ به الزمن في أخريات حياته وتراكمت عليه الأمراض.
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ٤/١٦٦ - ١٧٨، وفي المرادي نفسه: مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد. مخطوط في «المتحف البريطاني» تحت الرقم or. 4050, Sch5501 ورقة ١٨٩ ب - ١٩٢ آ. وذيل النفحة/٢٣٤ أما رثاؤه للمحبي فقد ورد في المصدر الأخير/٤٣٨ - ٤٤٠ .

(٥) لم يعثر على ترجمة له، إلا أنه هو الذي قام بجمع آخر لذيل نفحة الريحانة. ولم يترجم له المحبي في «نفحة الريحانة» أو ذيلها، مع أنه أورد أبياتاً من شعره، ووصفه بالأديب الفاضل، في ذيل نفحة الريحانة. أنظر الصفحات ٦٢، ١٧١، ١٩٣، ٢٢٥، ٢٥٨، ٢٦٦، ٣٧١، ورثاءه للمحبي ص ٤٤١ - ٤٤٢ .
إلا أنه قد يكون هو والد «سعيد بن محمد بن أحمد السمان» (١١١٨ - ١١٧٢ هـ/١٧٠٦ - ١٧٥٩ م) الأديب الشاعر الذي ترجم له المرادي في سلك الدرر =

بـالمتنبي»[1] ، و«محمد المحمودي» نفسه[2] .

ومع أن كل واحد من أولئك الأدباء والعلماء قد نعت «المحبي» بأوصاف جميلة مختلفة، واستخدم صوراً شعرية متباينة، تحمل من المديح والرثاء، كالعادة، مبالغاتها وشطحاتها، إلا أنهم أجمعوا على بعض صفات فيه: كعراقة المحتد، والفضل، والكمال، والظرف، واللطف، والنبوغ في فنون العلم والآداب والفصاحة والبيان. وقد يكون الشاعر «مصطفى الترزي» من أكثرهم إحاطة بفضائل المحبي دون إسراف في الثناء، حين قال في رثائه[3] :

هذا المُحِبِّي قد قضَى وكمالُه ... مـلءُ البلاد من الثنـاء الأعظم
فـرعٌ نماهُ من المعـالي مَحْتِـدٌ ... زاكي الجدودِ إلى الفخار الأقْدم
أعْيَى الـزمان بكـلِّ معنى نَـادرٍ ... بـالاقتـراحِ كغُـرَّةٍ في أدْهَمِ
ومضى كريمَ النفس غايـةُ إرْبه ... جمعُ الكمالِ عن الحُطام المحْطَمِ
بنقيِّ عـرضٍ طاهـرٍ ما شَـانَـهُ ... دَنَسُ البخيلِ وعاش غيرَ مذمَّمِ
حِكَمٌ كمُنْبَلجِ الصبـاحِ إضاءةً ... مَتَنَضِّـداتٌ مِثْـل نـظمِ الأنجُمِ
أنشا ووشَّى في البديـع بدائعـاً ... تُزري على زَهْرِ الرُّبا المتبسِّمِ

= جـ ٢/١٤١ ـ ١٤٩، وفي مطمح الواجد. ورقة ١٢٥ د ـ ١٤٦ آ. وقال عنه أنه اراد تأليف كتاب يترجم به شعراء عصره، وجمع آثارهم وارتحل للبلاد بقصد ذلك ليجعله كالنفحة للأمين المحبي والريحانة للشهاب الخفاجي والسلافة لابن معصوم فلم يتم له ذلك. وبقي في المسودات وانتثر وتبدد، والمنية عاقته عن نشر هذه الفوائد السنية. وهذا القول يدعو للتساؤل فيما إذا كان سعيد السمان قد فكر في هذا الأمر بعد أن وقع في يده ما جمعه أبوه من ذيل نفحة الريحانة.

(١) أبو السعود بن يحيى الشهير بالمتنبي العباسي الشافعي الدمشقي من علماء دمشق وأدبائها، له ديوان سماه «مدائح الحضرات بلسان الإشارات». توفي ١١٢٧ هـ/١٧١٥ م. وله موشحات رقيقة في وصف محاسن دمشق.
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ١/٥٨ ـ ٦٢، ذيل النفحة/٢٥٤ ـ ٣٠٤. ورثاءه للمحبي في المصدر نفسه/٤٤١.

(٢) أنظر مديحه للمحبي في مقدمة ذيل النفحة/٣ ـ ٤، وفي ترجمته لسيرته في الذيل نفسه/٤٠٠ ـ ٤٠٢، وانظر رثاءه له في ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وقد ختم به الذيل.

(٣) ذيل نفحة الريحانة/٤٣٩ ـ ٤٤٠.

نطق الفصاحة وهو طفلٌ يافعٌ وحَوى العلومَ بخِبرةٍ وتَعلُّمِ
واقتاد من أقصى البلاد شوارداً حتى أبانَ لها اتضاحَ المُبْهمِ
نَدْبٌ على نظم البدائه قادرٌ نَطِسٌ بأدواء الكلام المُفْخَمِ
نَفَحتْ منائِحهُ الذين تقدَّموا بتَراجِمِ الفُضَلا وكُلٍّ مفخَّمِ
حتى أبانتْ عن مَناقِبِ فَضْلِهم بفصيحِ لفظٍ ليس بالمُسْتَعجَمِ
أثنى على تلك المكارِمِ مُخْبراً بعجائبٍ عن فضل كلِّ مُتَرجَمِ

تلك هي الصورة العامة التي ارتسمت عن المحبي في أذهان معاصريه. أما إذا ما أريد التعرف به على طريقته في تراجمه وطريقة عصره، في ربط كل مترجم بجذوره العميقة، وأجداده الأول، فإنه لا بد من الرجوع إلى نسبه وأسرته.

أسرة المحبي(*)

«المحبي» هو «محمد الأمين» بن «فضل الله» بن «محب الله» بن «محمد محب الدين» بن «تقي الدين أبي بكر» بن «داود» بن «عبد الرحمن» بن «عبد الخالق» بن «محب الدين عبد الرحمن». وينسبه «عبد الرحمن الجيزي الطباطبي» وهو من سراة أشراف مصر وأدبائها ـ كما ذكر سالفاً ـ إلى آل علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء، وإلى الحسينين بالذات، حيث يقول[1]:

خِيارُ الكرامِ الشُّمِّ من آلِ هاشمٍ خُلاصَةُ أَهْلِ البيتِ نِعْمَ التناسُلُ
لفاطمة الزَّهْرا البَتُولِ انْتسابُه عليٌّ حُسَيْنيٌّ له الأصل كَافِلُ

(*) لقد تحدث عن هذه الأسرة وروابطها في القرن التاسع عشر المستشرق الألماني (هنري فردينند فستنفلد) المتوفى ١٨٩٩ م والذي نشر «تواريخ مكة» للأزرقي، والفاكهي، والفاسي، وابن ظهيرة وغيرهم، وعدداً كبيراً من الكتب الأخرى. وكتابه بعنوان:

Geleherten- Familie Muhibbi, in Damascus. und ihre Zeitgenossen im XI (XVII) Jahrhundert. Göttingen 1884.

(١) نفحة الريحانة جـ ٤/٦٦٧.

وفي الواقع لم يشر «المحبّي» ـ وهو مولع بذكر سلسلة الأنساب في تراجمه ـ إلى ذلك النسب صراحة، ولم يوصله إلى الجذر الأول كعادته في ذكر نسب الأشراف. إلا أنه يفتخر بأسرته التي ترجع في أصالتها إلى مدينة «حماة»[1] من مدن الشام، شمالي دمشق، وفي الوقت ذاته يوضح أنها غير «أسرة المحبي» الدمشقية[2]. ويؤكد أيضاً أصالته العربية، وكأنه يعبر بذلك عن شرافته وعن شعور قومي عربي يميّزه عن الأتراك الحاكمين آنذاك، ويبرز أفضليته. فقد قال عن أسرته:

بَيْتُ المُحبّي، بَيْتُ أبي وجَدِّي، ومَنْبِتُ عِرْقِ مَحْتِدي، ومَجْدي،
ارْتَضَعْتُ دَرَّهُ واغْتَذيتْ، وإلى فَضْلِهِ انْتَسبتُ واعْتَزَيتْ،
والمجْدُ ما افْتخرتْ به العربُ من القِدَمْ.

وإني لَمن العــربِ الأقْــدمين وقد ماتَ من قَبْلِ خَلْقي الكرَم
فأنا إذا افْتَخرْتُ هزَّتْني أرْيَحَيَّةُ الطَرَب ونافست بآباءٍ تَمْلِكُني عند ذِكْرِهِمْ حميَّة العرب.

أولَئِــكَ آبــائي فَجِئْني بِمِثْلِهِمْ إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامعُ»[3]

وقد يكون المحبي محقاً بالفخر بآبائه، لا لأنهم من العرب العرباء فحسب، وإنما لأن بيتهم كان بيت علم وعرفان. فأول من وفد منهم إلى

---

(١) مدينة قديمة شهيرة في بلاد الشام. وهي اليوم إحدى مدن «سورية»، وتقع في وسطها على نهر العاصي شمالي مدينة حمص، على خط عرض ٣٣,٣٣° شمالاً و٣٥,١٢° شرقاً. فتحها الصحابي أبو عبيدة بن الجراح، واشتهرت بنواعيرها، وبوجود زاوية قادرية كيلانية فيها.
أنظر معجم البلدان جـ٢/ ٣٠٠ ـ القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، بيروت. د. ت. ص٤٤٦، القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) ترجم المحبي نفسه لبيت المحبي الدمشقي بقوله: «وبيت محب الدين هؤلاء غير بيتنا بدمشق، وهم أقدم منا فيها. ويقال له «بيت ناظر الجيش»، لأن جدهم الأعلى القاضي «محب الدين» كان ناظر الجيش أيام السلطان الغوري».
أنظر خلاصة الأثر في تراجم القرن الحادي عشر. ٤ مجلدات. مكتبة خياط تصويراً عن طبعة المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٤ هـ. جـ ٤/ ٣٣٢. ترجمة «محمد المحبي».

(٣) نفحة الريحانة جـ ٢/ ١٨١.

دمشق، واستقر فيها، كان والد جد المحبي، مؤرخنا، وهـو محمد بن أبي بكر بن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق بن عبد الرحمن، الملقب بـ «محب الدين بن تقي الدين أبـو الفضل العلواني»، والمـولود في حمـاة في أواسط شهر رمضان ٩٤٩ هـ[1] (أي حوالي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤٢ م). وكان والده «أبو بكر تقي الدين» كاتباً بحماة، ثم غدا من مريدي «الشيخ علوان»[2] المتصوف الشهير، وصار يكتب بمحكمة حماة بين يدي القضاة. وعندما رزق بوالد جد المحبي «محمد محب الدين» فإنه حمله إلى الشيخ محمد بن علوان[3] فحنكه، ودعا له[4].

ويبدو من ترجمة «النجم الغزي» له[5]، ومن وصف حفيده له في الترجمة التي خصه بها[6] بأنه كان عالماً محيطاً بكل فن من فنون العلم فهو «ممن توحد

---

(١) لقد ذكر «الغزي» في كتابه «لطف السمر» جـ ١/١١٥، وعلى لسان محب الدين نفسه ـ إذ كان هذا الأخير من أشياخ الغزي ـ بأن مولده كان في ٩٥١ هـ/١٥٤٤ م. ولكن يبدو أن التاريخ الذي أثبته أعلاه كل من «البوريني» في كتابه «تراجم الأعيان»: مخطوطة المكتبة الوطنية في فيينا تحت الرقم Cod Arabe 1190, Mix 346 وفي الورقة ١٣٩ب منه، و«المحبي» في جـ ٣/٣٣٠ (ترجمة محمد بن أبي بكر) هو الأصح. لأنه رزق بابنه «عبد اللطيف» ـ أخي جد المحبي ـ في أواخر شعبان ٩٦٦ هـ/ أوائل أيار (مايو) ١٥٥٩ م، بحسب ما ذكره المحبي في ترجمة «عبد اللطيف المحبي» جـ ٣/٢٠. فإذا كان من المعقول مبدئياً أن يرزق بولد وهو في السابعة عشرة من عمره، فمن العسير أن يكون ذلك وهو في الخامسة عشرة. كما يؤكد هذا أيضاً قول «الغزي» نفسه بأن «محمداً بن أبي بكر» هذا كان عند وفاة سيدي «محمد بن علوان» ـ وقد توفي في أوائل ٩٥٤ هـ/١٥٤٧ م ـ دون السبع سنوات من العمر (لطف السمر ١/١١٥).

(٢) هو علي بن عطية الهيتي الحموي الشافعي، المتصوف الشاذلي. توفي بحماة ٩٣٦ هـ/١٥٢٩. أنظر ترجمته في الكواكب السائرة للغزي جـ ٢/٢٠٦، وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي جـ ٨/٢١٧.

(٣) هو محمد بن علي بن عطية الحموي الشافعي ـ صوفي واعظ كأبيه السالف الـذكر. توفي بحماة سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م. انظر الكواكب السائرة ج٢/ ٥٠.

(٤) لطف السمر جـ ١/١١٤ ـ ١١٥. ترجمة «محمد بن تقي الدين».

(٥) لطف السمر وقطف الثمر جـ ١/١١٤ ـ ١٢٣. وانظر ترجمته أيضاً في المرادي: عرف البشام فيمن ولي فتـوى دمشق الشـام. تحقيق محمـد مطيـع حـافظ وريـاض مـراد. دمشق ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م. ص ٥٧ ـ ٦٣.

(٦) خلاصة الأثر جـ ٣/٣٢٢ ـ ٣٣١ ونفحة الريحانة جـ ٢/١٨٢ ـ ١٨٣.

في عصره بمعرفة الفنون، خصوصاً التفسير، والفقه، والنحو، والمعاني، والفرائض، والحساب، والمنطق، والحكمة، والفنون الغريبة كالزايرجا[1]، والرمل، وغير ذلك». كما كان أديباً، فاق ما عداه في لطف النثر، وعذوبة اللفظ، وجودة المعنى وغرابة المقصد، وانسجام التراكيب[2]. ولقد حصل على تلك الثقافة الواسعة من عدد من كبار علماء عصره في حماة حيث كان مولده، وفي حلب[3]، ودمشق[4]، ومصر[5]،

---

(١) الزايرجا: من الأساليب الصناعية لاستخراج الغيب. وتعتمد على رسم دوائر تمثل الأفلاك، والعناصر، والمكوّنات، والروحانيات، وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم، ثم قسمتها إلى أقسام هي الأوتار، وترفق بحروف وغيرها. وقد شرحها «ابن خلدون» في مقدمته، وكيف يتم استحصال الغيب عن طريقها. وقد نسبت إلى «أبي العباس أحمد السبتي» من أعلام المتصوفة بالمغرب في أواخر المائة السادسة بمراكش.

أنظر ابن خلدون: المقدمة/١١٥ فما بعد ـ وحاجي خليفة كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جزءان. طهران ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م. جـ٢/٩٤٨ ـ والموسوعة الإسلامية المعربة. مجلد (١٠)/٣٣٤.

(٢) خلاصة الأثر جـ٣/٣٢٢.

(٣) مدينة قديمة ومعروفة ولها شهرتها في شمالي بلاد الشام. وهي اليوم ثاني المدن السورية بعد العاصمة (دمشق) وتقع على خط عرض ٣٥° ٣٥, شمالاً، وخط طول ٣٦° ٤١, شرقاً.

أنظر حولها: معجم البلدان ٥ مجلدات. طبعة دار صادر بيروت ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م. مجلد ٢/٢٨٢ ـ ٢٩٠. والقلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ مجلداً. القاهرة. د. ت. جـ٤/١١٦ ـ ١١٨. والموسوعة الإسلامية المعربة. مجلد ٨/١٩ ـ ٤٨، والدراسة لسوبر نهيم M.Sobernheim . وكذلك

J.Sauvaget; Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne. Paris 1941.

(٤) مدينة غنية عن التعريف، فهي المدينة الأولى في بلاد الشام، وعاصمة الخلافة الأموية سابقاً، وسورية اليوم. وهي مدينة عريقة في القدم، وتقع على خط عرض ٣٣° ٣٦, شمالاً وخط طول ٣٦° ١٨, شرقاً. وفيها الجامع الأموي أشهر المساجد في تاريخ العمران الإسلامي. أنظر حولها: معجم البلدان جـ٢/٤٦٣ ـ ٤٧٠ والقلقشندي. المصدر نفسه جـ٤/٩١ ـ ٩٧. ر. هارتمان R. Hartmann: دمشق في الموسوعة الإسلامية المعربة. مجلد ٩/٢٦٤ ـ الريحاوي (عبد القادر): مدينة دمشق. دمشق ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.

(٥) القطر العربي المعروف الذي يقع في الزاوية الشمالية الشرقية من أفريقيا، ويصل بين أفريقيا وآسيا، ويطل شمالاً على البحر المتوسط، وشرقاً على البحر الأحمر. وكان له دوره التاريخي الكبير في ميدان السياسة والحضارة خلال مختلف العصور، منذ القديم البعيد وحتى الوقت الحاضر.

وبلاد الروم[1]. وقد أجاد اللغة التركية والفارسية إلى جانب العربية، على غرار كثير من مثقفي عصره. وكان على صلة طيبة مع بعض علماء الدولة العثمانية الكبار، ولزم منهم ـ على عادة المرشحين للقضاء والتدريس عندهم ـ الملاّ «محمد جوي زاده»[2]، ورافقه إلى دمشق، والقدس[3]، ومصر. وزار بلاد الروم مرات، وعينته السلطنة

---

* والمصادر حول جغرافيته وتاريخه أكثر من أن تعدّ. أنظر حوله للاختصار والإيجاز، وتعرف بعض المصادر:

Encyclopédie de l'Islam, 1° éd. art. Egypt.

ومعجم البلدان. مجلد ٥/١٣٧ ـ ١٤٣.

إلا أنه قد يطلق على «القاهرة» عاصمة مصر، اسم «مصر» أيضاً كما هو الحال مع دمشق التي يسميها عامة أهلها «الشام»، أي عن طريق تسمية الجزء باسم الكل.

(١) هي بلاد الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا. ويبدو أن العرب تابعوا إطلاقهم على هذه البقاع، وبخاصة منها آسيا الصغرى (تركيا الحالية اليوم) هذه التسمية، كما أطلقوا على الأتراك صفة «الروم» و«الأروام» استمراراً لما كانت عليه قبل ضم الأتراك السلاجقة لها. فمن المعروف أنها كانت مقراً للروم البيزنطيين. ومن ثم، فإن استخدام المؤرخين العرب للفظة «الروم» وبصفة خاصة في القرون من العاشر الهجري فما بعد، لا يقصد منها «البيزنطيون»، وإنما الأتراك العثمانيون»، بل تسري هذه التسمية على ما قبل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولا سيما بعد زوال دولة البيزنطيين بسقوط القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م.

(٢) محمد بن محمد بن الياس الشهير بجوي زادة. ولي قضاء دمشق ٩٧٦ ـ ٩٧٧ هـ/١٥٦٨ ـ ١٥٦٩ م. وتنقل في مناصب القضاء حتى بلغ مرتبة شيخ الإسلام. وتوفي سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧ م.

أنظر ترجمته في الكواكب السائرة جـ٣/٢٧ ـ ٢٩. والأنصاري (شرف الدين موسى): ذيل قضاة دمشق حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة. نشر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه قضاة دمشق. ص ٣٣٠.

(٣) مدينة معروفة لدى المسلمين تحت اسم «بيت المقدس» أو «البيت المقدّس» أيضاً. اسمها القديم هو «أورشليم» وقد أطلق عليها الامبراطور الروماني «هدريان» بعد أن طرد اليهود منها عام ١٣٠ م اسم «ايليا كابيتولينا» واحتفظت باسم «ايليا» فقط عند العرب. وقد أسرى الرسول محمد ﷺ إليها، وبنى المسلمون فيها المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة. وهي تقع وسط الأرض الفلسطينية على خط عرض ٣١° , ٤٥َ شمالاً، وخط طول ٣٥° , ١٧َ شرقاً. وهي مقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث الإسلامية والمسيحية واليهودية.

أنظر حولها: ما جمعه «غي لوسترانج» في كتابه «فلسطين تحت حكم المسلمين» من أقوال وأوصاف لعديد من جغرافيي العرب.

Guy Le Strange, Palestine under the Moslems. Beirut (Khayats) 1965 pp. 83—217.

العثمانية قاضياً على «فُوَّة»[1] بمصر، فالقدموس[2] من أعمال طرابلس[3] في بـلاد الشام، فحمص[4]، فحصن الأكـراد[5]، ومَعَرَّة النعمـان[6]، ومعرة

---

(١) بضم الفاء وتشديد الواو. بلدة بالقرب من الإسكندرية. وهي مدينة قديمة من مدن مصر بمركز دسوق من مديرية الغربية، وعلى الشاطىء الشرقي لفرع رشيد. وكانت في آخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي من أعظم المدن المصرية وكان فيها في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي عدة قناصـل للدول الأوروبية كما كان ذلـك في الإسكندرية. وكانت ميناءً تتجمع فيه المراكب المنحدرة والمقلعة بأنواع البضائع في النيل وفي خليج الإسكندرية. وهي عامرة إلى الآن.

أنظر: علي مبارك. الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً. مصر ١٣٠٥. جـ ١٤/٧٧ ـ ٨٤. ومعجم البلدان: جـ ٤/ ٢٨٠. القرماني. أخبار الدول/٤٦٨.

(٢) قلعة شمال شرقي طرابلس الشام. وهي اليوم قرية تابعة لمدينة بانياس، وتقع شرقها في محافظة اللاذقية، وكانت من قلاع الدعوة الاسماعيلية الشيعية السبع. وكانت تتبع في العهد العثماني ولايـة طـرابلس كـما كـان عليـه الأمـر أيـام المـماليـك صبح الأعشى جـ ١/ ١٢١، وجـ ٤/ ١٤٧، ١٧٩.

(٣) وأصل اسمها بالعربية «أطرابلس»، وقد أسقطت منها الألف لتفريقها عن «أطرابلس الغرب». وهي مدينة على الساحل الشامي، شمالي بيروت، وتقع على خط عرض ٣٤,°٣٤ شمالاً وخط طول ٣٥,°٤٥. شرقاً. وهي اليوم ثاني المدن اللبنانية، ومرفأ هام، وفيها عدد من الآثار ترجع إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كالقلعة، والمدرسة الخاتونية، والجامع الكبير. وقد أنشىء فيها في القرن الحادي عشر للهجرة خان للصابون.

أنظر حولها: صبح الأعشى جـ ٤/١٤٢ ـ ١٤٤، ٢٣٣ ـ ٢٣٤. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت ١٩٧٥. ص ٣٩٠.

(٤) مدينة من مدن بلاد الشام، قرب نهر العاصي جنوبي حماة. وتقع على خط عرض ٣٤,°٤٤ شمالاً و٣٦,°٣٦ شرقاً. وهي اليوم مركز محافظة. من آثارها الشهيرة جامع خالد بن الوليد حيث يعتقد أن القائد الإسلامي الفاتح قد توفي ودفن.

أنـظر حولهـا: معجم البلدان جـ ٢/٣٠٢ ـ ٣٠٤. الروض المعـطار/١٩٨ ـ ١٩٩. صبح الأعشى جـ ٤/١١٢ ـ ١١٣.

(٥) حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. وسمي بحصن الأكراد لوضع أحد أمراء الشام فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج الصليبيين. إلا أنه سقط بيد الأخيرين، ثم استخلصه المسلمون منهم. ويطلق عليه اليوم اسم «قلعة الحصن»، ويسميه الأوروبيون Krak des chevaliers (حصن الفرسان).

أنظر معجم البلدان جـ ٢/ ٢٦٤. وصبح الأعشى جـ ٤/ ١٤٤.

(٦) مدينة قديمة بين حلب وحماة في بلاد الشام. وقد نسبت إلى الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري =

نِسْرين (١)، وكلّس(٢)، وعَزاز (٣)، ثم استقر في دمشق، حيث أعطي تدريس «المدرسة القصاعية»(١٣) فيها. ويبدو أن زواجه في دمشق من ابنة العلاّمة «اسماعيل بن أحمد النابلسي» (٤)، ثم من ابنته الثانية بعد وفاة

= الذي جازها ومات له ولد فيها. كانت من أعمال ولاية حلب في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد.
أنظر حولها: معجم البلدان جـ ٥/١٥٦. صبح الأعشى جـ ٤/١٤١ - ١٤٢. الروض المعطار/٥٥٥.

(١) ويقال لها أيضاً «معرة مصرين»، وهي من أعمال حلب وتقع إلى جنوبها. وتتبع اليوم محافظة إدلب، وتقع شمال إدلب وتبعد عنها (١١) كم.
أنظر حولها: معجم البلدان جـ ٥/١٥٥. أبو الفداء. تقويم البلدان، باريس١٨٥٠/٣٣١. صبح الأعشى جـ ٤/١٤٢. جدول المسافات للقطر العربي السوري من إصدار القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة/١٠٨.

(٢) قرية كبيرة إلى الشمال من سورية والشمال الغربي من حلب، تقع اليوم ضمن الحدود التركية. ويسميها ياقوت الحموي كلّز، وكذلك وردت أحياناً في وثائق المحاكم الشرعية لمدينة حلب في العهد العثماني. وقد كانت مركز صنجق للأكراد في القرن الأول من الحكم العثماني لبلاد الشام، وبرز فيها آل جنبلاط، الذين ثار منهم «حسين باشا» و«علي باشا» على العثمانيين في مطلع القرن السابع عشر. وتبعد عن حلب شمالاً ٦٠ ميلاً تقريباً. وتحيط بها البساتين والكروم.
أنظر: معجم البلدان جـ ٤/٤٧٦. كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء حلب ١٣٤١ - ١٣٤٥/ ١٩٢٢ - ١٩٢٦. جـ ١/٣٦٩.

(٣) بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. ويقال لها أيضاً (أعْزَاز). وهي اليوم مركز منطقة في محافظة حلب وتتصل معها بطريق معبدة طولها ٤٦كم.
أنظر: معجم البلدان جـ ٤/١١٨. المكتب المركزي للإحصاء السوري: التقسيمات الإدارية. دمشق ١٩٦٨/٣١٦. صفي الدين البغدادي: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق علي محمد البجاوي. ٣ أجزاء. مصر ١٣٧٣ - ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤ - ١٩٥٥. جـ ٢/٩٣٧. صبح الأعشى جـ ٤/١٢٧.

(٤) وهي مدرسة بحارة القصاعين في محلة الخضيرية بدمشق. أنشأتها خطبلى خاتون بنت ككجا في ٥٩٣ هـ/١١٩٦. وشرط المدرّس فيها أن يكون أعلم الحنفية بالأصلين.
أنظر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس. جزءان، حققه جعفر الحسني. دمشق ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م. جـ ١/٥٦٥.

(٥) من كبار علماء الشافعية في دمشق ومن أثريائهم في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر =

الأولى، جعله يستقر في هذه المدينة بدل حماة، هذا بالإضافة إلى كون دمشق مركزاً «لولاية دمشق الشام»، مما يجعل فرص الحياة العلمية والسياسية أمامه أشد وفرة، وأسمى رفعة. كما أنه أسلم تركة حميه الكبيرة كلها بعد وفاته، مع تحمله مسؤولية تربية ولديه: «عبد الغني»[1] ، وأخت صغيرة له، كانت حملاً عند وفاة أبيها. وفي الواقع كان استقراره في دمشق متوافقاً في الزمن مع وفاة حميه العلاّمة «اسماعيل النابلسي»، أي في عام ٩٩٣ هـ/ ١٥٨٦ م.

وفي دمشق تتالى في مناصب القضاء[2]، فقد تولى «النيابة

= الميلادي، شرط درويش باشا التدريس في جامعه الدرويشية له ولذريته من بعده. عاش بين (٩٣٧ - ٩٩٣ هـ/ ١٥٣٠ - ١٥٨٥ م).
أنظر ترجمته في النجم الغزي: الكواكب السائرة جـ٣/ ١٣٠ - ١٣٥.

(١) هو الملقب بزين الدين النابلسي، وهو جد عبد الغني النابلسي المتصوف الشهير المتوفى ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م. عمل بتحصيل العلم إلا أنه لم يبلغ فيه درجة أبيه وابنه. توفي في أواسط رجب ١٠٣٢ هـ/ أواسط أيار (مايو) ١٦٢٣ م.
أنظر ترجمته في لطف السمر جـ٢/ ٥١٣. خلاصة الأثر جـ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) كان القضاء الإسلامي في العهد العثماني منظمًا تنظيمًا دقيقاً، وله مراتب يتسلسل ضمنها مجموع القضاة. فالرأس الأعلى فيه هو «شيخ الإسلام» أو «المفتي الأكبر» أي مفتي السلطنة ومقره العاصمة القسطنطينية. ويليه «قاضيان للعسكر»، أحدهما «قاضي عسكر الأناضول»، وثانيهما «قاضي عسكر الروملي» (أي بلاد أوروبا العثمانية). ودون الاثنين عدد من كبار القضاة الذين يحملون لقب «ملاّ» أو «مولى» - وهي كلمة مقتبسة في أصالتها من كلمة «مولاي» العربية، وخصّ بها الأتراك علماءهم الكبار، وكذلك الأكراد مع تصحيفها إلى «منلا» - وكان عدد «الموالي» في الامبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي (٤٣) ثلاثة وأربعين ملاً، مصنفين بدورهم إلى ثلاث مجموعات بحسب رتبهم، المرتبطة بقيمة المدينة التي كانوا يعيّنون عليها. فالمجموعة الأولى تضم أحد عشر مولى، تسمى مناصبهم (بايه منصب)، وينتقل المولى فيها بالتدريج من أدنى منصب إلى أعلى منصب. أما المجموعة الثانية فتضم (١٢) اثني عشر مولى، ويبدو أن شأن هؤلاء كشأن السابقين يتدرجون من الرتبة الدنيا في مجموعتهم إلى الأعلى أيضاً. والمجموعة الثالثة تضم العشرين مولى المتبقين، وهؤلاء على ما يظهر من المصادر المتوافرة هم بمرتبة واحدة. وكانت المدينتان المقدستان «مكة والمدينة»، وكذلك «دمشق والقاهرة» من المدن الكبرى التي من نصيبها «ملاّ». وينضوي تحت جناحي «قاضيي العسكر» «القضاة الكبار» (الملاّ)، والقضاة الآخرون. وكان المسؤول عن قضاة الولايات العثمانية في آسيا ومصر «قاضي عسكر الأناضول»، بينما المسؤول عن قضاة الولايات =

= العثمانية فيأوروبا وشمالي أفريقيا، «قاضي عسكر الروملي». وكان جميع القضاة العثمانيين من الأحناف، لأن «المذهب الحنفي» هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية.

وكان القضاة لا يصلون إلى مناصبهم عادة إلا بعد دراسة أصولية، يكونون فيها طلاب علم أولاً ثم مدرسين. وطريق العلم مقسمة إلى اثنتي عشرة درجة منذ عهد السلطان «سليمان القانوني». وتجري الدراسة في مدارس العاصمة المعدّة لهذا الغرض، وهي مدارس السلطان بيازيد الثاني، ومدارس محمد الفاتح الثمان، ومدارس سليمان القانوني.

وقد جرت الدولة العثمانية على تعيين (نواب) للقاضي العثماني الحنفي، على المذاهب الثلاثة الأخرى (الشافعي، والحنبلي، والمالكي) حيث هناك عناصر من السكان على تلك المذاهب، وذلك ليقيموا القضاء على مذاهبهم في المحاكم الموزعة في المدينة أو في الولاية، وكان منها في دمشق خمس محاكم. وكان يؤخذ (نواب القضاة) غير الأحناف، من علماء البلاد المحليين وفقهائها في معظم الأحوال. وإذا غاب القاضي العثماني، الذي كان بمثابة «قاضي قضاة»، لسبب ما، كذهاب للحج، أو لمرض، أو لانقطاع عن العمل بسبب عزله وعدم استلام آخر للقضاء مكانه، فإنه كان يحل محلّه «نائب» له. وقد يكون من كبار العلماء المحليين الأحناف، كما كان شأن والد جد المحبي. وعندما ضعف شأن الدولة العثمانية، أصبح «قاضي القضاة» العثماني نفسه يعين نائباً له، ولا سيما إذا أقعده المرض أو حطت من قواه الشيخوخة، على أن يتقاسم معه الواردات المالية للقضاء. وكانت الدولة تتقاضى ثمناً لمنصب القضاء، بعد أن عمّ بيع مناصب الدولة، ويختلف الثمن باختلاف مستوى الرتبة. كما كان القاضي يجمع، إلى جانب مرتبه من الدولة، مبلغاً من المال من المتقاضين وبنسب محددة، هي أشبه بالرسوم.

ومثلما دب الفساد في البنية الإدارية للدولة العثمانية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، فإنه سرى أيضاً للقضاء. فأعطيت المراتب القضائية العليا لمن لم يسلك الطريق التعليمي المحدد، ولمن لم يتدرج في مناصبه، أي أعطيت للمقربين من الشخصيات الهامة، ولمن يدفع ثمناً أكبر. (أنظر على سبيل المثال ترجمة القاضي مصطفى بن مصلح الدين في خلاصة الأثر جـ ٤/٣٩٣ - ٣٩٤).

وقد عملت الدولة في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وفي عهد السلطان أحمد الثالث، وفي عام ١١٣٢ هـ/ ١٧٢٠ م على إعادة تنظيم القضاء، فجعلت عدد الموالي (٢٧) سبعة وعشرين فقط، (١٧) منهم من «الموالي الكبار»، و(١٠) أدنى منهم. والأول يتسلسلون أيضاً في ست مراتب: الثلاث الأولى لقاضيي العسكر، وقاضي استامبول، والرابعة لقاضيي مكة والمدينة، والخامسة لقاضيي بورصة وأدرنة، والسادسة لقاضيي دمشق والقاهرة.

أنظر لمعلومات أوفى عن القضاء العثماني:

Gibb and Bowen, Islamic Society and the West. 2 Parts. Oxford university Press 1957. Part II. pp. 81-113.

- وعن القضاء في دمشق في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مخطوطة موسى بن يوسف الأنصاري الدمشقي. التذكرة الأيوبية. المكتبة الظاهرية بدمشق، تحت الرقم (٧٨١٤ عام).

الكبرى»[1] سنين عديدة وقضاء العسكر بها[2] ،وقضاء الركب الشامي[3]، ودرّس بعدة مدارس كالناصرية البرانية[4]، والشامية البرانية[5]، والسليمية السلطانية[6].

---

(١) قد يكون المقصود «بالنيابة الكبرى» النيابة عن القاضي العثماني أثناء غيابه. فقد كان والد جد المحبي «يقوم مقام القضاة عند الانفصال، وكان أكثر القضاة إذا ولوا قضاء دمشق بعثوا إليه ساعياً بأن يقوم مقامهم الى أن يأتوا». (لطف السمر ج١/١١٨). . وقد يكون المراد منها أيضاً «النيابة بالمحكمة الكبرى» في دمشق كما وردت في (عرف البشام للمرادي/ ٦٠). و«المحكمة الكبرى» هي إحدى المحاكم الخمس في دمشق. وكان مقرها «المدرسة الجوزية» بالبزورية، ولذلك عرفت أيضاً بمحكمة البزورية، كما أسميت «بالدهيناتية» لوقوعها «بسوق الدهيناتية».

أنظر: عبد الباسط العلموي: مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م. ص ٢٤٧.

(٢) لا يراد «بقضاء العسكر» هنا المنصب الكبير الذي يلي شيخ الإسلام، كما أوضح ذلك في الحاشية (٢) من الصفحة السابقة، وإنما يعني هنا (القاضي) الذي يفصل بين العسكر. وكان يعين في معظم الأحوال آنياً، ليرافق الوالي أو السردار، عندما يكلّف أحدهما بقيادة حملة عسكرية. وإن كان يطلق على «القاضي العثماني» أحياناً هذا اللقب، وبخاصة في القاهرة.

أنظر: Gibb and Bowen, op. cit. p. 121.

(٣) قضاء قافلة الحج الشامي إذ أنه كان يرافق قافلة الحج قاض خاص بها. وكان يعين لها من العلماء البارزين، أو من نواب القضاء.

(٤) تقع في محلة الفواخير بسفح قاسيون بالصالحية من دمشق، قرب جامع الأفرم. أنشأها الناصر يوسف من آل أيوب، المتوفي ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م، وذلك في سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م، وقد تخربت اليوم.

أنظر النعيمي: الدارس ١١٥/١ - العلموي. المصدر نفسه/٢٠ - عبد القادر بدران. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. بيروت. د. ت/٦١.

(٥) تقع بين محلة العقيبة وسوق صاروجا. أنشأتها ست الشام ابنة أيوب، وأخت صلاح الدين الأيوبي المتوفاة ٦١٦ هـ/١٢١٩ م. لم يتبق منها سوى مسجدها وبعض حجرات وبركة ماء.

أنظر: الدارس ٢٧٧/١ - منادمة الأطلال/١٠٤.

(٦) هناك مدرستان باسم السليمية: إحداهما شرقي التكية السليمانية، وهي من إنشاء السلطان سليمان القانوني ونسبتها إلى السلطان سليم الثاني خطأ شائع.

أنظر حولها: ابن طولون: اعلام الـورى فيمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤ م. ص ٣٠١/ حاشية ٣ - الحصني (محمد أديب): منتخبات التواريخ لدمشق. ٣ أجزاء. دمشق ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م. جـ٣/٩٦٧ - ليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق ١٩٧٣/٢٢١ - ٢٢٢.

والمدرسة الثانية بهذا الاسم هي المدرسة الملحقة بالجامع والرباط والتكية التي بناها السلطان سليم الأول على قبر الشيخ محيي الدين بن عربي عام ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م.

وأفتى[1] على المذهب الحنفي بأمر من السلطان العثماني، علمًا بأنه كان في الأصل على المذهب الشافعي ثم تحنف. ومع أن أكثر تعبده كان على المذهب الشافعي حتى وفاته إلا أن فتاويه الحنفية اشتهرت. وجملة القول كان والد جد المحبي، عالماً عاملاً خلّف كثيراً من المؤلفات، وكتب كثيراً بخطه الجميل بحيث «لو حسب عمره والذي كتبه لبلغ كل يوم كراساً بالكامل. هذا مع كثرة الأسفار وتزاحم الأشغال والارتباط بالقضاء والفتوى والتأليف»[2]. وقد توفي في ٢٣ شوال من عام ١٠١٦ هـ/١١ شباط (فبراير) ١٦٠٨، ودفن قبالة

---

* أنظر: ابن طولون: القلائد الجوهرية جـ١/٦٤، محمود العدوي: الزيارات. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥٦. ص٣٣ - والحصني: منتخبات التواريخ جـ٢/٥٨٥ - العلموي: مختصر الدارس/٢٤٠ - صباغ: المصدر نفسه/ ٢١٤ - ٢١٨.
ومن المرجح أن يكون المقصود بها الأولى، بصفته مفتي السلطنة، إذ أن تدريس «السليمانية» وهي جزء منها، كان مشروطاً للمفتي.

(١) أوجد النظام القضائي العثماني إلى جانب القاضي في كل مدينة «المفتي»، كما كان عليه الأمر في بعض الدول الإسلامية كدولة المماليك مثلاً. والمفتي هو الفقيه الذي يطلب منه إيضاحات وتفسيرات للأمور الشرعية أو حلولاً لبعض القضايا، فيجيب مستنداً إلى معرفته بمختلف الأحكام الفقهية وتفرعاتها. ولقد أوجد السلطان العثماني «سليمان القانوني» في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد تنظيماً للمفتين موازياً لتنظيم القضاء، ولكن لم يكن له مراتبه وتدرجه، ويتبع لشيخ الإسلام. ومن الطبعي أن يكون المفتي في كل مدينة رئيسة على المذهب الحنفي، مذهب الدولة الرسمي، ولكن حيث هناك سكان من مذاهب سنية أخرى كالبلاد العربية، فإن المدن الرئيسة كانت تزود بمفتين من تلك المذاهب، ومن سكان البلاد الأصليين، إلى جانب المفتي الحنفي. ويأتي المفتي في مرتبته دون القاضي، وفوق نائبه.
أنظر حول الإفتاء في الدولة العثمانية وواجباته وآدابه: المرادي. عرف البشام/١ - ٢٧.
و: Gibb and Bowen, op. cit, Part II. p. 133-138

وقد شرعت الدولة منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بتسليم منصب الإفتاء الحنفي في دمشق لعلماء محليين من الأحناف، ووالد جد المحبي نموذج على ذلك. وفي القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي تسلم سبعة من أهل دمشق ذلك المنصب من أصل (١٣) مفتياً.
أنظر: عرف البشام/٣٩ - ٨٤.

(٢) خلاصة الأثر جـ٣/٣٢٢.

الجانب المحاذي لجامع جراح خارج باب الشاغور بدمشق، وهي التربة المعدة لهم ولآل النابلسي[1].

وكان لمحمد محب الدين هذا ثلاثة أولاد[2]: عبد اللطيف[3]، وعبد الباقي[4]، ومحب الله، وهو جد المحبي مؤرخنا، والوحيد الذي يبدو أنه قد ولد له من ابنة العالم «اسماعيل النابلسي».

وقد رأى نور الدنيا في فاتح القرن الحادي عشر للهجرة وقبل وفاة والده بخمسة عشر عاماً، أي في ١٠٠١ هـ/ ١٥٩٢-١٥٩٣. وقد نبت نبتة صالحة، فكان على غرار أبيه فاضلاً وعالماً، ووصل بين علماء دمشق إلى مرتبة لم يصل إليها أحد فيما تقدمه منهم، حتى كان «صدر الشام في زمنه ومرجع خاصتها وعامتها»[5] وقد درس في المدرسة الناصرية البرانية، وفي المدرسة الدرويشية[6].

ويبدو أن أسرة المحبي كانت أسرة ثرية بالمال ثراءها بالعلم: إذ يشير مؤرخنا عند حديثه عن جده، «بأنه قد عظم قدره جداً وأثرى»، و«بأن الدنيا

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢/٤٣٢.

(٢) نفحة الريحانة جـ ٢/١٨٣.

(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٣/١٩ - ٢٠ وقد توفي ١٠٢٣ هـ/١٦١٤ م. وفي نفحة الريحانة جـ ٢/١٨٤ - ١٨٩. وفي البوريني: المصدر نفسه جـ ٢/٣٤٥.

(٤) لم يعثر له على ترجمة، ولكن هناك إشارة عابرة إليه في لطف السمر/١١٨ - ١١٩، حيث يذكر الغزي أن والد جد المحبي قد صرَّف ولده (عبد الباقي) في أموال اسماعيل النابلسي، وبمعرفة زوجته التي هي ابنة الأخير. ووردت إشارة إليه في خلاصة الأثر جـ ٢/٣٤١-٣٤٢ في ترجمة ابنه عبد الحي. وذكر المحبي أنه كان ثرياً جداً ويظن أنه توفي عام ١٠٢٧ هـ/١٦١٨ م. جـ ٤/٣٧٩.

(٥) خلاصة الأثر جـ ٣/٣٠٨. ترجمة «محب الله بن محمد» جد المحبي.

(٦) هي جامع الدرويشية الذي بناه الوالي العثماني «درويش باشا» بالأخصاصيين جنوبي دار السعادة. وقد تم بناؤه عام ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م، وخصَّه بمدرسَينْ أحدهما حنفي وثانيهما شافعي. وكان منصب التدريس الشافعي من نصيب اسماعيل نابلسي، وآله من بعده.
أنظر: الكواكب السائرة ج٣/ ١٥٠ (ترجمة درويش باشا) وج٣/ ١٣٠ (ترجمة اسماعيل النابلسي). العلموي/ ٢٤٣ - ٢٤٤. وخلاصة الأثر ج٢/ ٤٣٣ (ترجمة عبد الغني النابلسي).

قد أقبلت عليه إقبالاً عظيماً» وملك الذخائر والتحف ما لا يضبط بالإحصاء[1]. وقد يكون جزءاً من هذا الغنى المادي قد أتاه من وفر أجور عمله، فقد جمع بين نيابة القضاء، وقسمته العسكرية[2] ستة عشر عاماً، لم يعزل خلالها إلا بضع مرات. كما نال شأنه شأن أبيه قبله، منصب قضاء العسكر، ورافق نائب الشام أحمد باشا كوجك[3] في حربه لفخر الدين المعني[4]، حيث تم القضاء على ثورته. كما وليّ قضاء الحج، بل وأعطي رتبة قضاء القدس[5]، بفضل تودده لقاضي عسكر الروملي «يحيى بن زكريا»[6]

---

(١) المصدر نفسه ج٣/٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) كان يعاون القاضي عادة «قسّام» ليقوم بقسمة التركات بموجب الشريعة الإسلامية ويحفظ لكل وريث حقه، وفي الوقت ذاته يحفظ حق الخزينة بالنسبة للمتوفين من العسكر (القابي كولاري). ويبدو أن كل قضاء مدينة زود بقسّام من هذا القبيل وأحياناً باثنين، أحدهما للعسكر، والثاني للمدنيين. ويظهر أن عمل القسام كان مربحاً، بل إن منصب القضاء نفسه كان كذلك. إذ كان القاضي يتناول ـ ٢٪ من قيمة أية قضية يبت فيها لها قيمة مالية معينة، كما كان يتقاضى بعض المال من بيع المناصب وانتقالها، ومن توزيع التركات، وتوقيع الوثائق المختلفة الخاضعة له.
أنظر: Gibb and Bowen op. cit. p. 125

(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١/٣٨٥ ـ ٣٨٨.

(٤) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ٣/٢٦٧ ـ ٢٦٩. وهو فخر الدين بن قرقماس من آل معن (٩٨٠ ـ ١٠٤٤ هـ/ ١٥٧٢ ـ ١٦٣٥ م). أمراء منطقة الشوف في لبنان. وقد ثار على الدولة العثمانية ووسع حدود إمارته، وضم صيدا، وصفد وبيروت. والتجأ إلى فلورنسة في إيطاليا عندما أحس أنه لا قبل له على متابعة المقاومة. وعاد بعد خمس سنوات إلى إمارته (عام ١٠٢٦ هـ/١٦١٧ م)، وصفحت عنه الدولة. إلا أنه عاد إلى مناوأة الدولة لتحقيق مطامحه، واستطاع «أحمد كوجك» أن يقبض عليه، ويرسله إلى استامبول، حيث أعدم عام ١٠٤٤ هـ/١٦٣٥.

أنظر حول تفصيل أكبر عنه: أحمد الخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني. تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني. بيروت ١٩٦٩. وعيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الامير فخر الدين المعني. الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٦.

(٥) كانت مدينة القدس من المدن التي خصت بقاض كبير (ملّا) شأنها شأن مكة والمدينة والقاهرة ودمشق وحلب.

(٦) من كبار علماء الدولة العثمانية (٩٩٩ ـ ١٠٥٣ هـ/ ١٥٩٠ ـ ١٦٤٣ م). ولي قضاء حلب فدمشق وكانت سيرته حسنة. وتنقل في عدة مناصب للقضاء حتى غدا شيخاً للإسلام.
أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤/٤٦٧ ـ ٤٧٢.

وملازمته له. ويضاف إلى ذلك ما خلفه له والده ووالدته من إرث كبير. كما أنه تزوج من امرأة ثرية من (آل المنقار)، وكان لهذه الأسرة وقف كبير، يذكر مؤرخنا بأنه هو نفسه كان له منه أوفى نصيب[1]. كما أن جدته لأمه وهي من (آل الكيال) كان لأبيها «ولي الدين»، أوقاف دارّة، استمتع المحبي فيما بعد بنصيب وافر منها[2]. وعلى هذا فجد المحبي، عاش حياة منعمة هنيّة، فيها «نال أمانيه من الزمن على وفق المقترح ولم يخدشه الدهر بخدشة» بحسب تعبير حفيده[3]. إلا أنه لم يستمتع طويلاً بالحياة، إذ توفي وهو لا يزال في السادسة والأربعين من عمره، وفي سلخ شعبان عام ١٠٤٧ هـ/ حوالي منتصف كانون الثاني ١٦٣٨ م، مخلفاً وراءه ثمانية أولاد، كان والد المحبي واحداً منهم وهو المسمى «فضل الله»[4].

لقد كانت سنّ «فضل الله» عندما توفي والده، ستة عشر عاماً، إذ ولد في ١٧ محرم ١٠٣١ هـ/٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٦٢١. ولا بد أنه قد تأثر بالجو العلمي الذي عاشه والده، فنشأ على تقليد الأسرة راغبـاً في العلم متقصياً لفنونه. ونهل ثقافته الأولى من معين والده، ثم اتصل بخدمة مفتي دمشق «عبد الرحمن العمادي»[5]، واستقى منه المعرفة، ونمط الإنشاء باللغة العربية، الذي كان العمادي متفوقاً به. ودرس على علماء دمشق الكبار في الحديث والفقه، ومنهم بالذات، علامة عصره «نجم الدين الغزي». وأجازه

---

(١) المصدر نفسه جـ ١/٢٩٧ (ترجمة أحمد بن محمد المعروف بابن المنقار).

(٢) أنظر المصدر نفسه جـ ١/٤٣٦ (ترجمة الشيخ بركات) وفيها يقول المحبي: «وابن عمه ولي الدين المذكور، هو والد جدة أبي لأمه، وله أوقاف دارة. وأنا الآن صاحب نصيب وافر من خيرها. وأبوه شمس الدين مثله صاحب إدرارات، وكلا الوقفين نصف نظارتهم عليّ جزاهم الله عني خيراً» وكرّر هـذا في (ترجمة محمد بن محمد بن بركات الملقب ولي الدين ابن الكيـال) جـ ٤/١٤٥، حيث قال: «وهو جد جدتي لأمي، وله وقف أهلي نصفه بيدي».

(٣) خلاصة الأثر جـ ٣/٣٠٩.

(٤) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٣/٢٧٧ ـ ٢٨٦ـ ونفحة الريحانة جـ ٢/١٩٨ ـ ٢١٧.

(٥) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/٣٨٠ ـ ٣٨٩. وفي عرف البشام/٦٦ ـ ٧٢ وكان من كبار علماء عصره، وقد توفي عام ١٠٥١ هـ/١٦٤١ م.

هذا الأخير إجازة عامة وهو لا يزال في السابعة عشر من عمره أي في ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ - ١٦٣٩. ونال الثقافة اللغوية لعصره، وهي إتقان اللغات الثلاث، العربية والفارسية والتركية. وسافر إلى حلب ليلازم[1] من المولى العثماني «يحيى بن زكريا» الذي كان من شيوخ أبيه وألف في سفرته هذه «رحلته الحلبية. ودرّس في دمشق بالمدرستين الدرويشية والأمينية[2]، وهو لمّا يتم العشرين من عمره. وفي عام ١٠٥١ هـ/ ١٦٤١ - ١٦٤٢ رحل إلى العاصمة العثمانية برفقة قاضي الشام «محمد عصمتي»[3] ليتابع العلم على طريق علماء الروم، وألف أثناءها «رحلته الرومية».

ثم عاد بعد سنة إلى دمشق ليعمل بالتأليف وقام بشرح الأجرومية[4]. وفي سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩ م، غادرها إلى مصر ليعمل نائباً لقاضيها الرومي

---

(١) يبدو أن المدخل عند العثمانيين لدخول المتعلم طريق التدريس والقضاء هو ملازمته لعالم كبير من الروم. ويذكر «غب وبوين» Gibb and Bowen في المصدر السابق لهما، بأن طلاب العلم بعد أن يمروا في تعليمهم بمدارس «بيازيد»، فإنه كان بإمكانهم أن يصبحوا «ملازمين» أي «مرشحين للعمل». وعندها يشرعون بتناول أجور. Part II. p. 146-147

ويشير «المحبي» نفسه إلى الملازمة شارحاً بعض نواحيها، وقائلاً: «أن هذه الملازمة (أي ملازمة عالم من العلماء والدخول في خدمته) عرفية اعتبارية، وهي المدخل عندهم لطريق التدريس والقضاء» جـ ١٧/١ (ترجمة المولى ابراهيم سيد شريفي).

(٢) تقع جنوبي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي، والمسمى أيضاً بباب الساعات. ويقال أنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية. بناها أتابك العسكر «أمين الدين كُمُشْتكين بن عبد الله الطغتكي» وكان نائب قلعة بصرى وصرخد. وتوفي سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ - ١١٤٧ م. وهي واقعة اليوم في سوق الحرير.

أنظر: الدارس جـ ١٧٧/١. العلموي/٣٣. الحصني: المصدر نفسه جـ ٩٩٤/٣.

(٣) من علماء الروم، تدرج في مناصب القضاء حتى وصل إلى منصب قضاء عسكر الروملي. ويذكر المحبي بأنه كان من القضاة المذمومين بالشام. توفي ١٠٧٦ هـ/١٦٦٥ - ١٦٦٦.

أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١١١/٤ - ١١٥. ونفحة الريحانة جـ ١١٣/٣ - ١١٦.

(٤) كتاب في النحو، في مبادىء اللغة العربية. وسمي باسم مؤلفه «أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم» المتوفي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م. أنظر دائرة المعارف (الموسوعة) الإسلامية المعربة ج١/ ٨٤ - ٨٧. مادة (ابن آجروم).

«محمد بن عبد الحليم البورسوي»[1]، في محكمة الصالحية من محاكم القاهرة. وفي القاهرة كان لقاؤه مع الأديب اللامع والقاضي «أحمد الشهاب الخفاجي»[2]. وعندما عزل البورسوي عن قضاء مصر بقي «فضل الله المحبي» في القاهرة ليشتغل بالعلم مع كبار علماء الجامع الأزهر[3]. إلا أنه ما لبث أن عاد إلى دمشق وهو مريض، وتفرغ للتأليف والظاهر أن مرضه كان عضالاً، فقد عمل على مراجعة عديد من الأطباء ليشفى بل قرأ كثيراً في الطب ليعالج نفسه حتى تمهر في هذا العلم، وداوم على الحمية، وتجنب الاختلاط بالناس[4].

ولما وليّ المولى «محمد عزتي»[5]، قضاء الشام عام ١٠٦٤ هـ/١٦٥٥ م، قامت صلة ود بينه وبين والد المحبي. فسعى له -على عادة ذلك العصر في تسلم مناصب الدولة ومنها القضاء- بقضاء (آمد)[6]. فانتقل بعدها إلى بلاد

---

(١) عالم تركي (توفي ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢) توصل إلى منصب مفتي السلطنة (شيخ الإسلام)، واشتهر أمره بين علماء عصره. كان قاضياً لمصر عام ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩ م. وقد عمل معه والد المحبي وكان صديقاً له، ومحباً، على الرغم من بعض كدر أصاب العلاقات بينهما، لميل فضل الله المحبي إلى الخفاجي الذي لم يكن على صلات طيبة مع البورسوي.

(٢) أنظر الهامش (٢) من المقدمة ص ٢٠.

(٣) هو الجامع الجامعة في القاهرة. بناه جوهر الصقلي بعد عام من دخول الفاطميين إلى مصر، وخلال إنشاء مدينة القاهرة عام ٣٥٩ - ٣٦١ هـ/ ٩٧٠ - ٩٧٢ م، وذلك في الجنوب الشرقي من المدينة وعلى مقربة من القصر الكبير. وسمي بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد ﷺ. وكان مركزاً للدعوة الفاطمية الإسماعيلية. وضعف شأنه في عهد الأيوبيين المتحمسين للسنة، إلا أن المماليك شجعوا التعليم السني فيه، فذاع صيته وأصبح معهداً علمياً يؤمه الناس من كل فج. وظل يؤدي دوره التعليمي الهام حتى الحقبة المعاصرة.

أنظر: دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٢/٥١ - ٧٤. وقد حرر البحث المستشرق فولرز K. Vollers.

(٤) خلاصة الأثر جـ٣/٢٧٩.

(٥) محمد بن لطف الله، أحد علماء الروم البارزين وأستاذ المحبي المفضل (١٠٣٩ - ١٠٩٢ هـ/ ١٦٢٩ - ١٦٨١ م).

أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ٤/١٣١ - ١٤٢.

(٦) وتسمى اليوم «ديار بكر» وقد كانت حصناً منيعاً في أرض ديار بكر الواسعة عند المجرى الأعلى =

الروم وبقي فيها أربع سنوات وتقرب خلالها من «محمد عزتي» عندما أصبح قاضياً لاستامبول، بل وتودد إلى الصدر الأعظم أحمد باشا الفاضل[1]. ويبدو أنه كان يبحث عن قضاء يُعطاه، وتحققت أمنيته بعد مشقة وضيق، وكان له قضاء بيروت[2]. وعاد إلى دمشق عام ١٠٧٧ هـ/١٦٦٨ م، ليصطحب ابنه «محمد الأمين» معه إلى هذه المدينة بعد أن كان قد فقد ابنه الثاني الأصغر «فيض الله» وهو غائب في استامبول. وكان «محمد الأمين» مؤرخنا، في السادسة عشرة من العمر آنذاك. وقد مكثا في بيروت سنة عادا بعدها إلى دمشق، ثم انتقلا ثانية إلى بيروت حيث أقاما هذه المرة عشرة شهور. ويبدو أن المرض قد عاوده ثانية، أو عزل عن القضاء، فرجع إلى دمشق ليركن نهائياً إلى التأليف، وإلى كتابة التاريخ الذي جمعه وأراد به أن يذيّل على كتاب «البوريني»: «تراجم الأعيان من أبناء الزمان»، والذي استفاد منه فيما بعد، ابنه «محمد الأمين» في تأليف كتابه «خلاصة الأثر». كما عمل على جمع ديوان شعره ومنشآته. ولم تمهله المنية طويلاً بعد عودته إلى دمشق إذ توفي في ٢٣ جمادي الثانية سنة ١٠٨٢ هـ/٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٧١ م.

وهكذا يتضح من متابعة أصول المحبي لأبيه أنه قد ولد ونشأ ضمن أسرة علم وتعليم، وثراء وقضاء. ولم تكن أسرة والدته وهي من «آل الأسطواني»

= لنهر دجلة، ثم توسعت فأصبحت مدينة. وهي اليوم تقع في الجنوب الشرقي من تركيا، على الشاطىء الأيسر لنهر دجلة، وعلى خط عرض ٣٧°,٥٤َ شمالاً و٤٠°,١٥َ. شرقاً.
أنظر معجم البلدان جـ ١/٥٦ - ٥٧. القرماني: أخبار الدول/٤٢٢ - ٤٢٣-

(١) هو ابن محمد باشا الصدر الأعظم من آل كوبرلي. عرف بحبه للعلم والأدب، وبسعيه لإصلاح أحوال الدولة. وقد حكم بين (١٠٧٢ - ١٠٨٧ هـ/ ١٦٦١ - ١٦٧٦ م).
أنظر ترجمته في خلاصة الأثر ج١/٣٥٢ - ٣٥٦.

(٢) الميناء المعروف على الشاطىء الشامي، وعاصمة لبنان اليوم. غدت من الموانىء الهامة بعد تعميرها من قبل فخر الدين المعني الثاني. وقد فصلت عن ولاية دمشق الشام وضمت إلى ولاية صيدا عام ١٠٧٢ هـ/١٦٦١ م، عندما أنشئت الولاية الأخيرة.
أنظر: معجم البلدان جـ ١/٥٢٥ - ٥٢٦. القرماني/٤٣٢. الموسوعة الإسلامية المعربة مجلد ٤/٢٩٦ - ٢٩٧.

Le Strange, op. cit. p. 408 –410

لتقل علماً وغنى وفضلاً عن أسرة والده: فأمه هي ابنة «أبي الصفا محمود بن أبي الصفا الاسطواني» الدمشقي الحنبلي[1]، «وكان من جملة الرؤساء وفضلاء الكتاب. ولي خدماً كثيرة من كتابات الخزينة والأوقاف، ورزق دنيا طائلة وسعة وكان كثير التنعم» وقد توفي قبل ميلاد المحبي، في عام ١٠٦٠ هـ/ ١٦٥٠ م.

حياة المحبي:

وإذا كان المحبي قد ترجم لأصوله مما مكننا من التعرف بالبيئة التي نما وسطها فإنه لم يترجم ترجمة متكاملة وجامعة لنفسه، على عادة ما كان يفعله كثير من علماء عصره، إلا ما أورده في نفحة الريحانة مسجعاً وبأسلوب أدب ذلك العصر[2]. وليس هناك من المعاصرين له، أو القريبين منه، وممن اتصلت بنا معلومات عنهم، من قدم له ترجمة وافية تروي ظمأ الباحث لمعرفة دقائق حياته. فهناك ثلاثة من المعاصرين له قدموا نفحات من سيرته: وهما تلميذه «محمد بن محمود بن محمود المحمودي السؤالاتي» الذي جمع «ذيل نفحة[3]

---

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١/ ١٣٠ - ١٣١.

(٢) جـ ١/ ٥ - ١٨.

(٣) إن «ذيل نفحة الريحانة» قد جمع من قبل اثنين أحدهما «السؤالاتي» المذكور أعلاه، وقد أتم جمعه في أواخر شوال سنة ١١١١ هـ/ أواخر نيسان (ابريل) ١٧٠٠ م، أي بعد خمسة شهور من وفاة المحبي، ومنه نسخ في دار الكتب المصرية، ودار الكتب الوطنية في بيروت (أنظر عبد الفتاح الحلو في مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/ ٣٠). وثانيهما «محمد بن السمان»، ومنه نسخة مضطربة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم (٤٧٢٣ عام)، وقد أتم صاحبها جمعها عام ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠ - ١٧٢١ م. ويبدو أن هذه النسخة هي نسخة أخرى في الظاهرية غير التي اعتمدها الأستاذ الحلو في تحقيقه، إذ أنها تفتقد مقدمة ابن السمان، التي أشار إليها في ص ٢ من مقدمة ذيل نفحة الريحانة المطبوع. ولم يعثر على ترجمة لأي من الجامعين، وإن كان الأستاذ الحلو يرجح أن يكون الجامع الأول هو «محمد بن محمود المحمودي» الذي ترجم له المحبي في الذيل (ص ٧٩ - ١٠٠). أما «محمد بن السمان» فقد يكون هو والد «سعيد بن محمد بن أحمد السمان» (١١١٨ - ١١٧٢هـ/ ١٧٠٦ - ١٧٥٩) (أنظر الحاشية (٥) من الصفحة (٤٤) من هذا البحث).

الريحانة» بعد وفاة أستاذه، وأدرج له ترجمة في نهايته[1]. والترجمة تقتصر على ثناء دافق على المحبي، وتذكر مؤلفاته وتاريخ ميلاده ووفاته، وبعضاً من شعره، ويختمها صاحبها بالمرثيات التي قيلت فيه. ومع أنها تلقي بعض أضواء على إنتاج المحبي، ومكانته في عصره، إلا أنها تبقى قاصرة عن التعريف بجوانب سيرته المختلفة. أما الشخصية الثانية المعاصرة للمحبي التي ترجمت له، فهي شخصية «عبد الرحمن بن محمد» المعروف بابن شاشو[2] (١٠٥٥ ـ ١١٢٨ هـ/ ١٦٤٥ ـ ١٧١٦ م). إلا أن ترجمته للمحبي مقتضبة ومسجعة ولا تقدم هي الأخرى إلا لمحات خاطفة جداً عن تكوينه وإنتاجه. والشخصية الثالثة المعاصرة للمحبي، والتي ترجمت له، فهي شخصية «محمد ابن عيسى بن كنان الدمشقي»[3] في مخطوطته «الحوادث اليومية من تاريخ إحدى عشر وألف ومية»، حيث ذكر وفاته، وتحدث باختصار عنه وعن بعض أساتذته، وأثنى عليه وعلى إنتاجه، ووصف شكله ومظهره الخارجي. ولم يأت بجديد كثير عن سابقيه، إلا أنه لخّص بكلمات موجزة ودقيقة الأساسيات في سيرة المحبي[4]. وقد يكون «المرادي» (١١٧٣ ـ ١٢٠٦ هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٧٩١)

---

(١) أنظر ذيل نفحة الريحانة/ ٤٠٠ ـ ٤٤٤.

(٢) أنظر ترجمته في المرادي: سلك الدرر جـ ٢/ ٣١٨. له كتاب مطبوع باسم «تراجم بعض أعيان دمشق» وقد قلد فيه المحبي في نفحة الريحانة، طبع في بيروت ١٨٨٦ وجاءت ترجمته للمحبي ص ٩٩ فما بعد.

(٣) من علماء دمشق وأدبائها ومتصوفتها (١٠٧٤ ـ ١١٥٣ هـ/ ١٦٦٣ ـ ١٧٤٠ م). وقد خلّف عدة تصانيف من أهمها «الحوادث اليومية من تاريخ إحدى عشرة وألف ومية» وهي يوميات بجزئين، تابع خلالها أحداث دمشق من ١١١١ هـ/١٦٩٩ م وحتى وفاته. و«حدائق الياسمين»، و«المروج السندسية في تاريخ الصالحية»، «والمواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية».
أنظر ترجمته في: سلك الدرر جـ ٤/ ٨٥، وفي مقدمة «المروج السندسية» تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق ١٩٤٧. ح - ٢ المقدمة. وفي مقدمة «المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشاميه» وقد قام بتحقيقه «حكمت اسماعيل» كرسالة ماجستير في التاريخ. كلية الآداب. دمشق ١٩٨٢ بإشراف د. ليلى الصباغ. وهو في طريق الطباعة.

(٤) «الحوادث اليومية» مخطوطة في مكتبة برلين تحت الرقم 1115 (11) we .9480 ,(11) we .9479.
ووردت الترجمة في جـ ١/ ١٦ ب ـ ١٧ آ. وجاء فيها ما يلي:
«جمادى الأولى في أوائله، يوم الخميس، توفي إلى رحمة الله أمين جلبي صاحب النفحة،=

الذي كتب عن المحبي في كتابه «سلك الدرر»[1] بعد ثلاثة أرباع القرن من وفاته على الأقل آخذاً عنه، كما أخذ عن السؤالاتي، وابن شاشو، وغيرهم، ومع أن ترجمته للمحبي ليست أكثر تفصيلاً ولا سيما إذا ما انتزع الشعر من الترجمة، إلا أنه يبقى أفضل تكثيفاً للنقاط الرئيسة في حياته. ولا تضيف الترجمة التي أوردها له «محمد كمال الدين الغزي»[2] في مخطوطته «المورد الأنسي والوارد القدسي» جديداً[3].

إلا أن الدارس لكتابي المحبي «خلاصة الأثر» و«نفحة الريحانة» والمنقب فيهما يمكنه أن يجمع من هنا وهناك بعض الشذرات عن حياة المحبي وبنيته الثقافية، يضيفها إلى الترجمات التي قدمت عنه، ولا سيما أنه يطرح نبذة مسجعة عن مجمل حياته في مقدمة النفحة. وفي ضوء مثل تلك الدراسة المنقبة، أمكن التمييز في حياة مؤرخنا بين ثلاث مراحل واضحة:

= والتاريخ المشهور، والمضاف والمنسوب، وصلي عليه بالجامع، ودفن بتربة باب الفراديس الشرقية. وكان عالماً، أديباً، متفنناً، مغشياً في النحو، والمنطق، والأصول. وأتقن فنون الأدب والنظم. وشعره في غاية الرقة والجودة والحسن. وكان لطيف الهيئة جداً، كامل الخلقة، أدركته أبيض الرأس واللحية، معظّم الملبس والهيئة، حسن النضارة، متواضعاً، حليًا، ظريفاً في شكله وهيئته. وتأسف الناس عليه، فرثاه كثير من أفاضل دمشق بقصائد طنانة. وكان انتهى إليه فن الأدب، والشعر، والتاريخ. ألف كتباً حساناً وأتقنها كل الإتقان. أخذ عن الفتال، والعلاء الحصكفي، والشيخ اسماعيل أفندي النابلسي. وأخذ الطريقة الخلوتية عن غوث زمانه السيد محمد العباسي الصالحي الحنبلي الخلوتي وترجمه في تاريخه وأتقن. رحمه الله وعفى عنه امين».

(1) جـ ٤/٨٦.

(2) هو محمد بن محمد الغزي العامري كمال الدين (١١٧٣ - ١٢١٤ هـ/ ١٧٥٩ - ١٧٩٩ م). مؤرخ شامي وأديب، ومفتي الشافعية بدمشق. له عدة مؤلفات منها: «المورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة عبد الغني النابلسي».
أنظر ترجمته في الأعلام جـ ٧/٢٩٨.

(3) مصورة عن نسخة عند السيد أديب النابلسي المدير في وزارة التربية السورية ٢٩٦ ورقة. ق ٨٩ آ، ٨٩ ب.

المرحلة الأولى من حياة المحبي
(١٠٦١ - ١٠٨٦ هـ/ ١٦٥١ - ١٦٩٩ م)

وتمتد من ميلاده وحتى بلوغه الخامسة والعشرين، وهي نصف حياته القصيرة نسبياً، إذ لم يعمّر المحبي سوى (٥٠) خمسين عاماً هجرياً. وقد قضى هذه المرحلة كلها في مسقط رأسه دمشق، ما عدا عامين منها، تنقل خلالها بينها وبين بيروت، حيث كان والده قاضياً فيها. ويمكن أن توصف هذه المرحلة بأنها مرحلة تكوين المحبي لثقافته العربية الإسلامية الواسعة على يد علماء عرب. ولا نعرف في الواقع شيئاً عن طفولة المحبي قبل الحادية عشرة من عمره، حتى إن هناك خلافاً حول تاريخ ميلاده. فالسؤالاتي في ذيل النفحة يؤكد أنه ولد عام ١٠٦٤ هـ، بينما المرادي يثبته بـ ١٠٦١ هـ. ويبدو مما ذكره المحبي نفسه في ترجمة أبيه، بأنه كان في الحادية عشرة من عمره (في محرم عام ١٠٧٣ هـ) عندما سافر والده إلى بلاد الروم عام ١٠٧٤ هـ[1]، بأن تاريخ المرادي هو الأصح

ومع ذلك فإنه يستطاع القول إنه كان يعيش في كنف والديه حياة بحبوحة ويسر لا حياة ضنك وعسر إلى جانب أخيه الأصغر «فيض الله». وقد نما المحبي وهو في رعاية والده الذي كان قد استقر في دمشق بعد عودته من القاهرة مريضاً. ولا بد أنه قد تعلم القراءة والكتابة على يده، وفي سن مبكرة قد تكون السابعة أو أقل على عادة علماء ذلك العصر الذين كانوا يقدمون

(١) خلاصة الأثر جـ٣/ ٢٧٩.

أولادهم للعلم منذ طفولتهم الباكرة. ويذكر المحبي بأنه تلقى عن والده أساليب الإنشاء التي كان مفلّقاً فيها، بل إنه خصّه بتعليمه ما تفرد به من الإنشاء[1]، ومن المنتظر أنه بعد تعلمه القراءة أقرأه القرآن. وقد يكون علّمه حفظاً عن غيب، بعض سور وآيات، حتى قبل أن يدرج في عالم القراءة.

ومن المؤكد أنه خلال مرحلة طفولته هذه تم تجويده لحصة من القرآن ـ كما أشار هو بنفسه إلى ذلك ـ على يد «إبراهيم بن رمضان الدمشقي الحنفي المعروف بالسقاء» (المتوفى ١٠٧٩ هـ/١٦٦٨ م)[2]، الذي كان له «ملكة في القراءات والوعظ». ويبدو أن المحبي النقادة لم يكن منسجماً مع طريقة معلمه في التعليم، إذ يصفه قائلاً: بأنه كان «يبالغ في التهديد والزجر وكان لا يخلو من تعصب»[3]. وقد ختم المحبي القرآن، وابتدأ في الاشتغال بالعلم، وهو في الحادية عشرة من العمر، أي منذ عام ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م، وهو العام الذي غادره فيه والده ليلتحق ببلاد الروم ويغيب عنه فيها أربع سنوات كاملة[4].

ولا يذكر المحبي شيئاً عن والدته، وعن وجودها أو عدمه، بل إن الرسالة التي بعث إليه بها والده عندما علم بوفاة أخيه الأصغر (فيض الله)، لا تشير ولو بكلمة صغيرة إلى تلك الأم[5].

وكل ما يتبين مما طرحه المحبي في كتابيه أنه خلال فترة غياب والده، وقد غدا وحيداً، كان في كفالة عمه (صنع الله) (١٠٣٧ ـ ١٠٩٧ هـ/ ١٦٢٧ ـ ١٦٨٥ م)[6]، ويثني أديبنا ومؤرخنا ثناء عاطراً على هذا العم، وأنه كان براً بوالد المحبي، ويحبه ويعظمه لأنه هو الذي رباه بعد وفاة والده.

(١) المصدر نفسه ص ٣٧٨.
(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٢١/١ ـ ٢٢.
(٣) المصدر نفسه/٢٢.
(٤) المصدر نفسه جـ٣/٢٧٩ (ترجمة فضل الله المحبي). جـ٢/٢٥٩ ترجمة (صنع الله المحبي).
(٥) أنظر تلك الرسالة في المصدر نفسه جـ٣/٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٦) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

ويؤكد أنه تقيد به ورباه، وأقدمه على الطلب، وكان به رؤوفاً وله محباً، وبمكان الوالد. وكان يعطف عليه، ويرعاه بكل ذاته حتى قال عنه «جعل أهم امره أمري وما عهدت منه لحظة ما إساءة، أو مقتاً، بل كان رحمه الله تعالى يألم لما آلم منه، وينشرح لما انشرح له، بل يغضب لغضبي، ويرضى لرضائي»[1]. وكان عمه يعمل في القضاء، فقد ناب بمحاكم دمشق: الكبرى، والقسمة[2]، والميدان[3]، والعونية[4]، كما كان نائباً للقضاء في القدس عام ١٠٧٢ هـ/١٦٦١ م، أي قبل توجه والد المحبي إلى بلاد الروم. ثم صار قاضياً بحمص، ولازم القاضي الرومي «محمد بن عبد الحليم البروسوي»[5] ومع أنه يبدو من حياة «صنع الله» بأنه كان دائم التنقل، إلا أن هذا لم يضعف من إشرافه على تربية ابن أخيه بدليل قول «محمد الأمين»: «وعلى كثير من مناهجه في التودد نهجت، وعلى آدابه وحسن طويته درجت»[6].

ولا يعترف المحبي لعمه فقط بحق رعايته وتنشئته في هذه السنوات الأربع وإنما يكنّ جميلاً مماثلاً لخاله «محمد بن أبي الصفا الاسطواني»، (١٠٢٤ -

(١) المصدر نفسه. ص ٢٥٩.

(٢) لا يعرف مكانها بالضبط في دمشق، ولكن تسميتها أحياناً بـ «محكمة القسمة النورية» يجعل الظن يتجه إلى أنها إما في «المدرسة النورية» أو في «محكمة الباب» التي تقع تجاه المدرسة النورية الكبرى، وكانت مركز القاضي العثماني بدمشق.
أنظر عبد الكريم رافق: وثائق محاكم دمشق الشرعية وأهميتها في كتابة تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني. بحث قدم لسمنار الدراسات العليا في جامعة عين شمس بالقاهرة في ٧ - ١٢ مايو ١٩٧٧. ص ٥.

(٣) وتقع في ميدان الحصى أي الميدان التحتاني اليوم، جنوبي دمشق.

(٤) هي محكمة قناة العوني، وتقع في حي العمارة البرانية بالقزازين جنوبي جامع الجوزة. وسميت بهذا الاسم نسبة إلى قناة جنوبها تدعى (قناة العوني).
أنظر الدارس جـ ٣٩٦/١. منادمة الأطلال/٣٧٢.

(٥) سبقت ترجمته في الحاشية (١) من الصفحة (٦١).

(٦) خلاصة الأثر جـ ٢٥٩/٢.

١٠٧٧هـ/ ١٦١٤ ـ ١٦٦٥م) وكان من أفاضل دمشق أيضاً[١]. وقد كان إلى جانب قرابته الماسة به صديقاً حميًا لوالده، ومن المشتغلين اللذويين على العلم، وممن اشتهر بالمعرفة، ومهر في صناعة الإنشاء العربي والتركي، وتفوق في حسن الخط. وقد ولي القسمة، وعمل «كاتب عرض» لقاضي دمشق الرومي «محمد عصمتي» أي كاتب العروض التي يرسلها القاضي للسلطنة. وفيه يقول المحبي[٢]: «وله عليّ حق تربية وتعليم».

وهكذا وجد المحبي في غياب والده، وفي مرحلة مراهقته الأولى، من يعوض له حنان الأب، ويوجهه الوجهة الصالحة المتلائمة مع ميوله للمعرفة واهتماماته العلمية. فدرج ينهل من علماء دمشق فنون العلوم المختلفة. وكان من مشايخه الذين أجلّهم جداً «إبراهيم بن منصور الفتال الدمشقي»[٣]. وقد رأى فيه المحبي «العالـم العلم الباهر، الماهر، المحقق، المدقق، أستاذ الأساتذة ومعترفهم، وبحر العلماء ومغترفهم»[٤]. وكنَّ له المحبي حباً خالصاً وعرفاناً عميقاً بالجميل، لأنه هو الذي حفزه على متابعة العلم وقوّم عمله، وغذّى شخصيته بالمعرفة والتربية القويمة، وقدمه لمجتمع العلم آنذاك وأشاع أدبه وكان له مكان أبيه[٥]. وقد لزمه المحبي منذ أن غادر والده دمشق عام ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢، وحتى وفاة الشيخ في عام ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م. وكان يكاتبه خلال وجوده في بلاد الروم. ولم تكن صلة المحبي به صلة تعاطف روحي فحسب، وإنما صلة نفع علمي يتحقق له من ملازمته. فقد اشتهر ـ شيخه ـ بحسن التأدية والتفهم فأكب عليه الطلبة ولزموه، وانتفع به من الفضلاء ما لا يحصى[٦]. وقد تتلمذ على هذا الشيخ الفاضل معظم مشايخ

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه. جـ٣/٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه. الصفحة ذاتها.
(٣) أنظر ترجمته في المصدر نفسه. جـ١/٥١ ـ ٥٣.
(٤) المصدر نفسه/٥١.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
(٦) المصدر نفسه/ ٥٢.

المحبي. وقد قرأ هو عليه مواطن من تفسير القرآن الكريم، وأخذ عنه الحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والمنطق والأصلين، وشيئاً من التصوف والأدب. وكان له حلقة تدريسه في الجامع الأموي[1] بين المقصورة وباب الخطابة، ثم تحول إلى دار الحديث الأحمدية[2] بالمشهد الشرقي. وفي الصيف كان يدرس في الرواق الشرقي مما يلي باب جيرون[3]، ثم لزم داره بالكلاّسة[4] غالباً.

---

(١) هو الجامع المشهور في مدينة دمشق، الذي بناه الوليد بن عبد الملك عام ٨٧ هـ/٧٠٥ م درّة بين الجوامع الإسلامية، وغموذجاً فخماً لها.

أنظر: معجم البلدان جـ٢/٤٦٥ - ٤٦٧ بند دمشق. وصلاح الدين المنجد: مسجد دمشق. دمشق ١٩٤٨.

J. Sauvaget, — La Mosquée Omeyyade de Médine Paris 1947 P.94 - 95.

— Monuments Historiques de Damas. Beyrouth 1932. p. 12-38.

والحصني - منتخبات التواريخ لدمشق جـ٣/١٠١٤ - ١٠٤٢.

ومحمد كرد علي: خطط الشام ٦ أجزاء. بيروت ١٣٨٩ - ١٣٩٢ هـ/ ١٩٦٩ - ١٩٧٢ م. جـ ٥/٢٥٧ - ٢٦٣.

وليلى الصباغ: بين جامع الزيتونة في تونس، وجامع بني أمية في دمشق. بحث قدم بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة في ٢٥ محرم - ٢ صفر ١٤٠٠ هـ/١٥ كانون الأول (ديسمبر) - ٢١ منه ١٩٧٩ في تونس (لما ينشر بعد).

(٢) لم ترد في كتب التاريخ قبل المحبي دار حديث بهذا الاسم إلا أن المحبي يؤكد في جـ١/١٥٨ (ترجمة أحمد بن تاج الدين) بأنها هي المدرسة الأحمدية بجامع بني أمية التي كان حددها أحمد باشا الحافظ أثناء حكومته بالشام بالمشهد الشرقي من الجامع. وقد يكون المقصود منها بحسب التحديد المكاني الوارد أعلاه، «مشهد عروة» أو ما يسمى «بدار الحديث العُرْويّة» التي حدد «النعيمي» مكانها بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي والتي كان مكانها يعرف سابقاً بمشهد علي رضي الله عنه. وقد سميت بالعروية «نسبة إلى محمد بن عروة الموصلي» المتوفى ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م، الذي كان أول من فتحها.

أنظر الدارس جـ١/٨٢. صلاح الدين المنجد. مسجد دمشق/٢٥ حاشية ٣١.

(٣) أحد أبواب جامع بني أمية السبعة، ويقع في شرقيه ويقابله في الغرب باب البريد، ويسمى أيضاً بباب «النوفرة» لوجود نافورة ماء قربه.

(٤) هناك مدرسة بهذا الاسم، وهي لصيق الجامع الأموي من شمال، ولها باب إليه. وسميت بهذا الإسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع. وجعلت زيادة لما ضاق الجامع بالناس. =

وقد سمع عنه المحبي «مغني اللبيب»[1] و«شرح الطوالع» للأصبهاني[2]، و«شرح الأربعين»[3] لابن حجر، وتفسير البيضاوي[4]

= بناها نور الدين الشهيد عام ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وجددها صلاح الدين الأيوبي ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م. وكانت من مدارس الشافعية. . وقد درست اليوم.
أنظر الدارس ٤٤٧/١. العلموي/٧١. منتخبات التواريخ ٩٥٠/٣. خطط الشام جـ ٨٩/٦.
وقد يقصد المحبي من «داره بالكلاّسة» أي المجاور لهذه المدرسة.

(١) «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» وهو كتاب في النحو للشيخ جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بابن هشام النحوي، المتوفى ٧٦١ هـ/١٣٦٠ م، والذي هو من أئمة اللغة العربية.
أنظر: كشف الظنون جـ ١٧٥٢/٢. الأعلام جـ ٢٩١/٤.

(٢) طوالع الأنوار: كتاب في التوحيد لعبد الله بن عمر ناصر الدين البيضاوي الشيرازي المتوفى ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م. وهو من كبار علماء الدين الإسلامي، ومن المفسرين الجليلين. ولد في فارس وتوفي في تبريز. له «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في تفسير القرآن الكريم.
أنظر الأعلام جـ ٢٤٧/٤ - ٢٤٨ والمصادر عنه.
أما «الأصبهاني» الذي قام بشرحه فهو «محمود بن عبد الرحمن بن أحمد شمس الدين الأصفهاني أو الأصبهاني وهو مفسر، وعالم بالعقليات، ولد في أصبهان والتقى بدمشق بابن تيمية، وعاش في القاهرة وتوفي فيها. له عدة مؤلفات أهمها كتابه المشار إليه سابقاً وهو «مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار للبيضاوي». وقد عاش في الفترة (٦٧٤ - ٧٤٩ هـ/ ١٢٧٦ - ١٣٤٩ م.
أنظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ٤ أجزاء. حيدرآباد ١٩٤٥ - ١٩٥٠، جـ ٣٢٧/٤. وشذرات الذهب جـ ١٦٥/٦. الأعلام جـ ٥٢/٨ - ٥٣.

(٣) شرح الأربعين: أي «شرح الأربعين حديثاً النووية». و«الأربعون حديثاً النووية» كتاب من تصنيف يحيى بن شرف الحوراني النووي الشافعي (٦٣١ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٧٧ م). وهو من نوى في حوران في بلاد الشام. علامة بالفقه والحديث، له عدة مصنفات، منها «المنهاج في شرح صحيح مسلم»، و«منهاج الطالبين» في فقه الشافعية.
أنظر الدارس جـ ٢٤/١. الأعلام جـ ١٨٤/٩ - ١٨٥.
وقد شرحت «الأحاديث الأربعون النوويه» كثيراً، ومن تلك الشروح «شرح ابن حجر الهيتمي». وهو أحمد بن محمد السعدي الأنصاري، الفقيه المصري الكبير (٩٠٩ - ٩٧٤ هـ/ ١٥٠٤ - ١٥٦٧ م)، وله عدة مؤلفات أخرى.
أنظر ترجمته في الكواكب السائرة جـ ١١١/٣ - ١١٢. الأعلام جـ ٢٢٣/١.

(٤) هو المسمى بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي ويعرف بتفسير البيضاوي. أنظر الحاشية (٢) أعلاه.

والبخاري [1] ، والهداية [2] .

وفي الوقت نفسه حضر المحبي دروس الشيخ «محمد بن بدر الدين بن بلبان البعلي الدمشقي»، المتوفى ١٠٨٣ هـ/١٦٧٢ م في الحديث. وكان على المذهب الحنبلي، ولكنه يقرىء على المذاهب الأربعة. وقد اتفق أهل العصر على تفضيله وتقديمه. وقد أخذ عنه الحديث جمع من أعيان العلماء، وكبار رجال الدولة وبعض شيوخ المحبي[3] .

واتصل المحبي أيضاً خلال غياب والده في بلاد الروم بـ«محمد بن عمر العباسي الدمشقي الصالحي الحنبلي» المتوفى ١٠٧٦ هـ/١٦٦٥ م شيخ الطريقة الخلوتية[4] في دمشق، وأخذ الطريقة عنه. ولعل المحبي قد تأثر، وهو لا يزال طفلاً في التاسعة من عمره، بما انتشر وشاع في دمشق عام ١٠٧٠ هـ/ ١٦٥٩ ـ ١٦٦٠ م بأن الله قد استجاب لدعوة هذا الشيخ، عندما رافق أهلها في طلب الاستسقاء، فأمطرت السماء ثلاثة أيام بعد أن حبس الغيث عن أهل دمشق، واستسقوا عدة مرات ولم يستجب لهم حتى يئسوا. فكان بذلك من جملة المريدين الذين تدفقوا على هذا الشيخ بعد اشتهار أمره[5] . وقد كان لهذه الطريقة أتباع كثر في بلاد الشام في ذلك القرن ويؤيد هذا قول المحبي عند حديثه عن «أحمد العُسالي» شيخ الخلوتية (المتوفى عام ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م)

(١) وقصد كتاب «الجامع الصحيح» في الحديث، المشهور بصحيح البخاري، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري المتوفى ٢٥٦ هـ/٨٦٩ م.
أنظر كشف الظنون جـ ٥٤١/١. وهو أوثق الكتب الستة المعوَّل عليها في الحديث. أنظر أيضاً الأعلام جـ ٢٥٩/٦.

(٢) هو كتاب «الهداية في شرح البداية» في الفقه الحنفي لعلي بن أبي بكر المرغيناني (أصله من نواحي فرغانة في بلاد ما وراء النهر). عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي (٥٣٠ ـ ٥٩٣ هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٩٧ م). وكان من كبار الفقهاء والمفسرين.
أنظر الأعلام جـ ٧٣/٥.

(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر ج٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٤) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١٠٣/٤ (محمد بن عمر العباسي).

(٥) المصدر نفسه. الصفحة ذاتها.

بأنه قد أخذ عنه من أهالي دمشق وغيرها، خلق لا يحصون كثرة[1]. وإشارته أيضاً إلى أن مريدي الشيخ «اخلاص الخلوتي» في حلب يقربون من مائة ألف[2] بل إن الحكام العثمانيين أبدوا اهتماماً بهذه الطريقة وشيوخها، حتى إن والي دمشق أحمد باشا المعروف بالكوجك عمَّر لأحد أقطاب الخلوتية المشار إليهم سابقاً وهو «أحمد العسالي»، زاوية خاصة بالقرب من مسجد القدم سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥ م[3]. وقد سلك هذه الطريقة أيضاً ابن عم والد المحبي[4]، وعدد من أصحابه. وقد ظل «محمد الأمين» مواظباً عليها، وجدد العهد لها على يد «محمد غازي الخلوتي» خليفة «الشيخ اخلاص» بحلب، والمتوفى عام ١٠٨١ هـ/١٦٧٠ م. وكان «جلّ أهل دمشق» قد أخذوا عنه الطريق، وكانوا يزدحمون عليه حتى اضطر لمبايعتهم عبر شاش طويل يمده خارج الحلقة، فيقبض عليه الناس فيبايعهم. وأخذ عنه أيضاً في القدس جمع عظيم[5]. فالمحبي بدا معجباً بمبادىء الخلوتية[6] ووسائلها طالما أنها تعتمد على مجاهدة النفس، وتهذيب الأخلاق، وقمع الشهوات، والابتعاد عن اللذات الدنيوية.

---

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢٤٨/١ ـ ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ٣٨٩/١. ترجمة «اخلاص الخلوتي».

(٣) المصدر نفسه جـ ١/ ٢٤٩. ترجمة «أحمد العسالي».

(٤) هو «محمد بن عبد اللطيف المحبي الخلوتي الدمشقي». أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٤/١٥ ـ ١٨ وفي نفحة الريحانة جـ ١٨٤/٢.

(٥) المصدر نفسه جـ ٣١٣/٤. ترجمة «محمد غازي الخلوتي».

(٦) إن تسمية الطريقة آتية من «الخلوة» وهي من لوازمها. ويعرّف «المحبي» نفسه «الخلوة» استناداً إلى ما جاء في «الرسالة الاسمائية» لأيوب الخلوتي (أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤٢٨/١ ـ ٤٣٣ وفي نفحة الريحانة جـ ٥٤٧/١) بقوله: «وليدخل الخلوة السرية، وهي التفريد بالله ذكراً في وجوده والغيبة عما سواه، فإن تيسر مع ذلك خلوة الشخص عن الخلق في أن يجلس في مكان طاهر، والأفضل أن يكون مسجد جماعة، وأن ينوي الاعتكاف، والصوم الشرعي. والأولى أن يتجرد عن كثرة الأكل والشرب إذا أفطر، وإذا ترك الشرب فإن ذلك أولى، فإن العطش في الطريق أمر عظيم، بل هو مسرع الفتح إذا ساعد التوفيق والعناية، ويشرب شيئاً من الماء والدبس أو العسل. ويكون ذكره في الخلوة «لا إله إلا الله»، فإن عجز عن =

وإلى هذه المرحلة الأولى من العمر أيضاً ترجع صحبة المحبي للشيخ «أحمد الصفدي» إمام الدرويشية. وقد بقي مصادقاً له من عام ١٠٧٤ هـ/ ١٦٦٣ - ١٦٦٤ م وحتى وفاة الصفدي في ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٨ - ١٦٨٩ م. وعندما رحل المحبي إلى بلاد الروم ظلت المكاتبات بينهما قائمة. وكان هذا الشيخ كثير الشعر، نديّ القلم، «مشتغلاً بعلم القراءات ونسخ الكتب». وقد

= ذكرها في الظاهر فيرجع إلى اسمه في الباطن فيذكره. ولا ينام في الليل قليلاً ولا كثيراً بل بعد صلاة الإشراق لتنجلي له وقائعه. وإن كانوا جماعة فكذلك، إلا أنهم يذكرون الله جميعاً بقوة عزم، وإن وجد حاد ينشد لهم من كلام السادة الصوفية فلا بأس ليروّحهم، فإن المجاهدة لها كرب على النفوس. والخلوة بالجماعة لا تتجاوز الثلاثة أيام، وخلوة الواحد ما شاء. من ثلاثة، وسبعة، وخمسة عشر، وثلاثين، شهراً كاملاً، وسبعين، وعاماً، ثم العمر كله، وهو الخلوة المطلقة بالسر المطلق. قال بعضهم: لا يتخلص الإنسان من أحكام النفس إلا إذا توالت مجاهدته، وتتابعت حولاً كاملاً، فلا تعود أوصافها إليه، وإن عادت لا تستولي على الإنسان، بل تزول بأدنى توجه بعد ذلك. وأما عندنا (أي عند جماعة أيوب الخلوتي) فإن فعل ذلك فلا يأمن بل يجمع بين المجاهدة والأدب في عدم الركون إلى النفس. والسادة الخلوتية اختاروا في السلوك اثني عشر اسمًا تذكر بالترتيب شيئاً بعد شيء على حسب الوارد، فلا يذكر الثاني حتى ترد موارده على الأول، ويقع الأذن بذكر الثاني، فيذكر مع قوة الاجتهاد، وثبات الجأش، وعلو الهمة، والثالث والرابع إلى الثاني عشر. وذكرها له ثلاثة شروط: الأول كتمانه عن سائر الناس، الثاني، الطهارة في الحس بالوضوء أو الغسل والمعنى بالأخلاق الحسنة النافية للأخلاق السيئة. الثالث، المداومة عليها في كل حال، وعدم المبالاة بالخلق في الإقبال والإدبار، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ (سورة المزمّل/٨) ، وقال تعالى: ﴿وذكراسم ربه فصلى﴾ (سورة الأعلى/ ١٥) وإن أراد السالك أن يسرع إليه الخبر فليلزم الذكر، وليخلص فيه إخلاصاً يحقر السري في عينه وكأنه باق على عدميته الأصلية وهو كذلك، فلا وجود لشيء مع الحق جلّ وعلا». أنظر خلاصة الأثر ج١/ ٢٥٠ ترجمة (أحمد العسالي).

ويضيف «المحبي» في مكان آخر، في حديث عن الطريقة الخلوتية في حلب فيقول:

«وكان للمريدين في كل سنة خلوة عامة مع شيخهم أيام الشتاء، يصومون فيها ثلاثة أيام، ويأكلون عند المساء مقدار أوقيتين من الحريرة (نوع من الحساء يصنع من السمن والماء والطحين)، ورغيفاً من الخبز أكثر من أوقية، ولا يشربون الماء القراح بل يشربون القهوة. ويستمرون في الذكر والعبادة آناء الليل وأطراف النهار. وأما باقي الأيام فيقومون سحراً ويتهجدون على قدر طاقتهم ثم يأخذون في الذكر لوقت الإسفار (طلوع الصبح)، ثم يصلون الصبح ويقرؤون الأوراد إلى ارتفاع الشمس، ويصلون الاشراق. وهكذا يفعلون العبادات في أوقات الصلوات المفروضات».

جـ ١/ ٣٨٩ - ٣٩٠. ترجمة الشيخ اخلاص.

تولى الإمامة والخطابة، والتدريس، والوعظ، وعمل شاهداً في المحكمة، وكان يقيم أكثر أوقاته بالخلوة بجامع الدرويشية، يدرس فيها القرآن والحديث، والعقائد، والفقه، والأدب[1].

والظاهر أن هذه الأمور كانت تستهوي المحبي، ولا سيما الشعر منها، فكانا يتطارحانه. إذ كان المحبي قد أظهر ميلاً للأدب والشعر منذ سن مبكرة. ويشير إلى أن أول شعر قاله، كان ذاك الذي صدّر به رسالة بعث بها لوالده في استامبول يشكو الفرقة، ويبثه الشوق، وقال فيه[2]:

أتُراهُ يَسرُّني بتلاقي ... ونواهُ قد لجَّ في أطْرافي
كيف أسْلو عُهودَه وغرامي ... فيه أضحى وقفاً على الأشواقِ
يا اللّهَ اللّهَ من فؤادٍ مُعَنَّى ... كم يُلاقي من الجوى ما يلاقي
قد تَصَبَّرْتُ بالضرورة حتماً ... وأرى الصبرَ عَنْهُ مُرَّ المَذاق
فلعلَّ الزمانَ يَقْضي بجمع ... لي من بَعْدِ طولِ فراقي

إلا أن «السؤالاتي»، و«المرادي» من بعده، يؤكدان أن الأبيات التي كانت باكورة شعر المحبي هي تلك التي قالها في تِرْبٍ له بالشام، ألّف بينهما المكتب، وكان يرتع معه أيام الصبا ويلعب، ففارقه، و«كان فراقه عنده من أعظم ذنوب البَيْن، وفي المثل: أقْبَحُ ذنوبِ الدهرِ تفريق المحبّين». ومن ثم كتب إليه بهذه الأبيات[3]:

لا كانتِ الدنيا وأنت بعيدُ ... يا واحداً أنا في هواه وحيدُ
يا من لَبِسْتُ لهجره ثوب الضَّنى ... وخَلَعْتُ بُرْدَ اللهو وهو جديدُ

---

(1) خلاصة الأثر جـ١/٣٥٧. (ترجمة الشيخ أحمد الصفدي). وله ترجمة في نفحة الريحانة جـ١/٤٠٩ - ٤١٩.

(2) المصدر نفسه. جـ٣/٢٧٩. (ترجمة فضل الله المحبي).

(3) ذيل نفحة الريحانة/٤٠٣. سلك الدرر جـ٤/٨٧.

وتركتُ لذّاتِ الوجودِ بأسْرِها	حتى اسْتوى المعدومُ والموجودُ
قسماً بما ألْقَى عليك من العِدَى	ومُحِبُّ وجهكِ في الورى مَحْسُودُ
إن المحبّ كما علمتَ صبابةٌ	فالصبرُ يَنْقُصُ والغرام يزيدُ
ولقد ملأتَ القلبَ منك مهابةً	فعليَّ منك إذا خَلَوْتُ شهيدُ
والحِرْصُ مذمومٌ بإجماعِ الوَرى	إلا عليكَ فإنه محمودُ

ولكن حديث المحبي نفسه، ومستوى الشعر الأول، يثبتان أن ما أرسله إلى أبيه كان هو إنتاجه الأول. إلا أن والده عندما تسلم الرسالة، لم يرتح لنظمه الشعر فبعث إليه يحذره قائلاً: «قرأت الأبيات القافية التي هي باكورة شعرك وعنوان نجابتك إن شاء الله وعلوّ قدرك، فإياك من الشعر، فإنه كاسد السعر، ويشغل الفكر، وعليك بالاشتغال لتبلغ درجة الفحول من الرجال، والله سبحانه يبقيك، ومن كل سوء يقيك، ويقر عين أبيك فيك وفي أخيك»[1].

ولم يخيب «محمد الأمين» ظن أبيه به، فتابع جني ثمار العلم والأدب من كل منحى. وصاحب عدداً من الرفاق الذين غدوا بدورهم من الشعراء. وقد أفصح المحبي عن أسماء فريق منهم، عندما ترجم لهم في ذيل نفحة الريحانة. ومن هؤلاء «أحمد بن محمود الكنجي» المتوفى عام ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥ - ١٦٩٦ م، الذي قال عنه: «وهو صحيبي منذ عرفتُ الصُّحبة، وعقيدي في العشرة التي تمخضت للمحبة»[2]، ومثله «أحمد بن محمد السُّلامي المعروف بابن أكري بوز» والمتوفى عام ١١٢٦ هـ/١٧١٤ م، والذي أصبح أديباً نحوياً، وصوفياً مقرباً من عبد الغني النابلسي[3]. وقد عرّفه بقوله: «وهو

---

(١) خلاصة الأثر. جـ٣/٢٧٩. ويبدو أن الرسالة كانت قبل أن يعلم بوفاة ابنه الأصغر (فيض الله).

(٢) ص ٤٩.

(٣) هو عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣ هـ/ ١٦٤١ - ١٧٣١ م). شاعر، وعالم ديني، ومتصوف كبير. له عدة تصانيف، وتنقل في أنحاء بلاد الشام، وسافر إلى =

رفيقي من عهد معرفتي الرِّفاق، وزميلي في العشرة التي أُسِّست على مَحْض الوفاق، ولي معه مُجالسات يستعيرُ منها النسيم فضل التَّلطُّف، ويأخذ عنها الهزارُ والغصنُ حسنَ التَّرنُّم والتعطُّف»[1]. ومن هؤلاء الرفاق الأول أيضاً «عمر بن مصطفى الرجيحي»، الذي وصفه قائلاً: «وهو رفيقي في مكتب الوداد، حيث يصبغ أفواهنا المِداد، فما تغيَّرَ منا عهد، ولا أمالنا عُنُقٌ لغايته أو نَهْد»[2]. ولم يكن رفاقه كلهم من دمشق بل كان له زميل ودٍ من حلب أيضاً، وهو «محمد سليمان بن خالد عبد القادر المدرّس»، وكان والده من أمراء أكراد حلب، وتوفي ١١٤١ هـ/ ١٧٢٨ - ١٧٢٩ م. وقد تحدث عنه بقوله: «صحبته بدمشق إبّان التحصيل، والهِمَّةُ تعْقِدُ بيننا وبين التفريع والتأصيل. ونحن في بُلَهْنيةٍ هنيّة، نقطف زهرة الحياة جَنيَّة»[3].

وعندما عاد والده لموطنه دمشق بعد غياب أربع سنوات في بلاد الروم، وجد أن ابنه «محمد الأمين» قد شبّ وأينع عوده، وامتلأت نفسه بذخيرة ثمينة من العلم والعرفان. وبدا الوالد هذه المرة حريصاً على ألا يترك ابنه وحده في دمشق، بعد أن كان قد افتقد الابن الثاني الصغير وهو في الغربة. ولذلك فإنه اصطحبه معه إلى بيروت، حيث كان قد عينّ قاضياً. وعاش الولد إلى جوار الوالد، ولعامين، تنقلا خلالهما بين دمشق وبيروت، ثم رجعا ليستقرا نهائياً في دمشق، وليتفرغ والد المحبي لتأليف تاريخه - كما ذكر سابقاً - ولعلّ المحبي كان يساعد أباه في هذا المضمار، ويتتبع بلهفة خط عمله، وهو الولوع منذ أن «عرف اليمين من الشمال، وميّز بين الرشد والضلال بمطالعة كتب الأخبار، والبحث عن أحوال الكمَّل الأخيار»[4].

= مصر والحجاز، وكتب رحلاته. من مؤلفاته: «الحقيقة والمجاز، في رحلة الشام ومصر والحجاز» و«الرحلة الحجازية والرياض الأنسية» و«نفحات الأزهار على نسمات الأسحار».
أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ٣/ ٣٠. الأعلام جـ٤/ ١٥٨ - ١٥٩.

(١) ذيل نفحة الريحانة/١٨٩.
(٢) المصدر السابق/٢٠٠.
(٣) المصدر السابق/٣٦٥.
(٤) خلاصة الأثر جـ١/ ١ (من المقدمة).

ولم يستمتع «محمد الأمين» طويلاً بصحبة والده فقد حضرت الوالد الوفاة بعد خمس سنوات من عودته من بلاد الروم، وفي الثالث والعشرين من جمادى الثانية سنة اثنتين وثمانين وألف/ السابع والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) سنة واحد وسبعين وستمائة وألف. وكان محمد الأمين قد تابع خلال السنوات الخمس من رفقته لوالده، ثقافته. ومن المؤكد أن أباه قد لعب دوراً هاماً في تعليم الابن عبر خزينه العلمي وتجاربه الحياتية، وصداقاته للعلماء وتزاوره معهم، وما كان يجري بينهم وبينه من محاورات فكرية ومناقشات، كان الابن حاضراً معظمها بل ومسهمًا فيها. فمن تلك الصداقات مثلاً التي أكد المحبي استفادته منها: «عبد الله بن سيف الشريف المعروف بابن سعدي القسطنطيني» «أحد الموالي الأجلاء والأديب المنشىء والشاعر»، الذي عين قاضياً على مكة عام ١٠٧٨ هـ/١٦٦٧ م، فورد على دمشق في طريقه إليها، وكان بينه وبين والد المحبي «مودة سالفة وصحبة قديمة». وقد أعجب به المحبي وقال عنه: «فرأيت أديباً كامل الأوصاف قوي البداهة والحافظة». ويبدو من نسبه أنه كان عربي الأصل[(١)]. والأمير «منجك بن محمد بن منجك»[(٢)] أحد الشعراء الدمشقيين الكبار، وكان شديد التودد لوالد المحبي ويزوره كل يوم غالباً، وتجري بينهما «محاورات عجيبة ومحادثات غريبة». وكان يحث «محمد الأمين»، كلما اجتمع به عند والده، أن يقرأ له بعض قصائد شعرية من دواوين الشعراء المفلّقين، ويسأله عن بعض ألفاظ مغلقة، وكان الشاب الأمين بدوره حريصاً على الفوائد التي يتلقاها منه، ويقوم بتدوين كثير من أشعاره وأشعار غيره[(٣)]. ومن أصدقاء والده الذين استفاد المحبي منهم أيضاً، «حسين

---

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ٣/٤٤ ـ ٤٩. ونفحة الريحانة جـ٣/٣٢ ـ ٣٨. وكان يرى أن أصله العربي بصفته شريفاً، كان عائقاً في وجه وصوله لأعلى المناصب. وكان يتمثل البيتين المشهورين:

إنّ أصْلي وذَكائي مِنْ مُرادي حَرَماني
ليتَني كنتُ من التر كِ جهولاً قَرَماني

(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٤٠٩ ـ ٤٢٣. ونفحة الريحانة جـ١/١٣٦ ـ ١٦٠.
(٣) خلاصة الأثر جـ٤/٤٢٠.

العدوي الزوكاري»[1]، وكان فقيهاً شافعياً وأديباً. وكان والد المحبي ممن يميزه بالتقريب ويستحسن ما يأتي به من النادر الغريب. وقد قال عنه المحبي: «وقد لزمته في عهده أدبج بتقريراته مهارق الطروس، وأعطر بنفحات تحريراته رياض الأدب الريانة للعروس»[2] وقد أجازه بجميع مروياته. و«أحمد بن محمد الحلبي المهمنداري» المفتي الحنفي، المتوفى ١١٠٥ هـ/١٦٩٣ م[3]، وكان عالماً بالفقه وشاعراً وقد قال عنه المحبي: «وهو أحدُ من حَضرْتُ عندَه، واقتدحتُ في الاستفادةِ زندَه، وكان هو وأبي عقيدَيْ صُحبة، وأليفي مودة ومحبَّة، وبينهما لُحْمةٌ ليست سُدى، واتفاقٌ ليس إلا ببُرْد فضل وندى»[4]. وفي الواقع لقد كان المحبي برّاً بوالده، معترفاً بفضله وحسن توجيهه. فعنه قال:

«فإني من صُلْبِه خرجتْ، وعليه تخرَّجت،

ولا أعدُّ من الفَضْلِ ما كثر لديَّ أو قلّ إلا منه ابتداؤه وإليه انتهاؤه،

وكنت أطْوَعَ له من قلمِهِ لِكَلِمه، وأوفق من بَنانِه لبيانِه،

ما مِلْت عن نَهْجِه ولا تنحَّيتَ، من حين دبَّبْت إلى حين التحيت،

وكان هو حريصاً على فائدةٍ يُلقيها عليّ، وعائدةٍ يجرُّ نفعَها إليّ، حتى خصّني بتعليمِ ما تفرد به من صنعة الإنشاء، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء»[5].

إلا أن هذا لا يعني انصرافه عن العلماء الآخرين. فالمتتبع لأخبار المحبي يدهشه نهمه للمعرفة بأوسع أطرها ومن ثم فإنه إلى جانب ما كان يستفيده من

---

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/١١٦ - ١١٨. ونفحة الريحانة جـ ١/٥٨١ - ٥٨٥.

(٢) نفحة الريحانة جـ ١/٥٨١.

(٣) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ ١/٥٦٠ - ٥٦٥. وسلك الدرر جـ ١/١٨٦ - ١٩١. عرف البشام/٨٥ - ٩٠.

(٤) نفحة الريحانة جـ ١/٥٦١.

(٥) المصدر نفسه جـ ٢/١٩٨ - ١٩٩.

والده وأصدقائه ـ وهو ليس بالقليل ـ فإنه لم ينقطع عن الاستمرار في أخذ العلم من كبار مشايخ عصره في دمشق، كل بحسب اختصاصه؛ خلال حياة والده، وبعد وفاته، وحتى عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٥ م، وهو عام ارتحال «محمد الأمين» إلى بلاد الروم. ومن هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم مختلف أنواع العلوم: «رمضان بن موسى المعروف ـ بابن عطيف الدمشقي الحنفي» المتوفى ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م[1]، وكان فقيهاً ونحوياً وراوياً أمثل للشعر، وأيام العرب وأخبار الملوك والشعراء. وكان يقرىء في جامع السنانية والدرويشية. ولقد حضر بالذات دروسه بالعربية وأخذ عنه أشياء من الفنون الأدبية[2].

ومن شيوخه «عبد الحي بن أحمد العكري الصالحي الحنبلي» المعروف «بابن العماد» صاحب المؤلف المشهور في التراجم «شذرات الذهب» (المتوفى ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)[3]. وقد قرأ عليه مؤرخنا الصرف والحساب، وهو في عنفوان عمره، واعترف بما جناه منه في ترجمته له حيث قال: «وكنت أرى لقيته فائدة اكتسبها وجملة فخر لا أتعداها. وكان يتحفني بفوائد جليلة ويلقيها علي، وحباني الدهر بمجالسته، فلم يزل يتردد إليَّ تردد الآسي إلى المريض حتى قدر لي الله تعالى الرحلة عن وطني لبلاد الروم وطالت مدة غيبتي وأنا أشوق إليه من كل شيّق حتى ورد عليَّ خبر موته وأنا بها»[4].

ومن شيوخه في هذه المرحلة أيضاً «عبد القادر بن بهاء الدين المعروف بابن عبد الهادي الدمشقي» الجهبذ، المحقق، الفطن (المتوفى ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ م)[5]، وقد قرأ عليه المحبي طرفاً من شرح العَضُد[6] على

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٢/١٦٨ ـ ١٧١. ونفحة الريحانة جـ ١/٥٧١ ـ ٥٨٠.
(٢) نفحة الريحانة جـ ١/٥٧١.
(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٢/٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٤) المصدر نفسه/٣٤١.
(٥) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/٤٣٧ ـ ٤٣٨. ونفحة الريحانة جـ ١/٥٨٦ ـ ٥٨٩.
(٦) العضد هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن عضد الدين الايجي المتوفى ٧٥٦ هـ/١٣٥٥ م. ولد بإيج ببلاد فارس. وهو عالم بالأصول والعربية والمعاني. وله عدة

مختصر المنتهى لابن الحاجب[1] في الأصول، وشرح الرسالة الوضعية للعصام[2] كما طالع شرحه على المختصر المذكور. و«محمد بن علي المعروف بالعلاء الحصكفي»[3] مفتي الحنفية بدمشق المتوفى ١٠٨٨ هـ/١٦٧٧ م. وهو عالم محدث وفقيه كبير، ونحوي كثير الحفظ جيد التقرير والتحرير. وقد حضره المحبي يقرىء تنوير الابصار[4] في داره، وتفسير البيضاوي في المدرسة التقوية[5] والبخاري في الجامع الأموي وانتفع به، وكان مع المحبي عدد من صحبه[6].

= تصانيف منها «شرح مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه و«العقائد العضدية» و«الرسالة العضدية» في علم الوضع.
أنظر ترجمته في الدرر الكامنة جـ ٣٢٢/٢. والأعلام جـ ٦٦/٤.

(١) هو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب، لأن أباه كان حاجباً. فقيه مالكي، ومن كبار العلماء بالعربية. ولد في مصر وسكن بدمشق، وتوفي بالإسكندرية عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م. من تآليفه المشهورة «الكافية في النحو»، و«الشافية في الصرف»، و«منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل».
أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان. مجلدان مصر ١٣١٠ هـ (مختصر إلى وفيات الأعيان) جـ ٣١٤/١. الأعلام جـ ٣٧٤/٤.

(٢) هو العصام الاسفراييني (٨٧٣ ـ ٩٤٥ هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٥٣٨ م). وهو إبراهيم بن محمد بن عربشاه. ولد في سفراين من قرى خراسان. له عدة تصانيف أشهرها «الأطول» في شرح تلخيص المفتاح للقزويني، في علوم البلاغة. شذرات الذهب جـ ٢٩١/٨. الأعلام جـ ٦٣/١ ـ ٦٤.

(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٦٣/٤ ـ ٦٥. وعرف البشام/٨١ ـ ٨٤.

(٤) تنوير الأبصار: مؤلَّف في الفقه الحنفي صنَّفه «محمد بن عبد الله التمرتاشي» المتوفى ١٠٠٤ هـ/١٥٩٦ م. وهو فقيه أصولي متكلم من غزة. واسم الكتاب «تنوير الأبصار وجامع البحار».
أنظر: خلاصة الأثر جـ ١٨/٤ ـ ٢٠ ترجمة «محمد التمرتاشي».

(٥) مدرسة بدمشق داخل باب الفراديس بالعمارة. بناها الملك المظفر عمرشاه أيوب بن شادي سنة ٥٧٤ هـ/١١٧٨ م، وهي من مدارس الشافعية، وظل يقام بها الذكر حتى الحقبة المعاصرة. الدارس جـ ٢١٦/١. العلموي/٣٧. منتخبات التواريخ جـ ٩٤٤/٣.

(٦) خلاصة الأثر جـ ٦٣/٤ ـ ٦٤.

إلا أن من أكبر الأساتذة الذين أظهر المحبي إعجابه الشديد بهم، فقد كان «نجم الدين محمد بن يحيى الفرضي» المتوفى ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ - ١٦٨٠ م[١]. وقد قال عنه: «كان أعظم شيخ أدركته واستفدنا منه. وكان في العلم والتقوى والزهد فرد زمانه، لم أر مثله في تفهيم الطلبة والحرص على تهذيب قرائحهم، وجبر خواطرهم، مع أنه كان رحمه الله تعالى، حاد المزاج سريع الانفعال، ولكنه إذا انفعل يرضى بالحال، ويتلافى ما كان منه. وهو في علوم اللغة العربية فارس ميدانها، والمجلّي يوم رهانها، لم يكن أحد مثله فيها... وله فضل لا يرد. وأما في الفرائض والحساب ففضائله فيها جاوزت الحد والعد...».

«أدركته أنا أولاً وهو يدرس دروساً خاصة بجامع بني أمية، فقرأت عليه الأجرومية ثم شرحها للشيخ خالد[٢]، ثم شرح الأزهرية، ثم شرع في قراءة شرح القواعد للشيخ خالد، وشرح تصريف العزّي للتفتازاني[٣]. ومن حين شروعه فيهما لزمته لزوماً لا انفكاك معه إلا مجالس قليلة إلى أن أتمهما. وأقرأ الشذور للقاضي زكريا[٤] وأتمه.

---

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤/٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) خالد بن عبد الله الأزهري (٨٣٨ - ٩٠٥ هـ/ ١٤٣٤ - ١٤٨٩ م). نحوي من أهل مصر. له عدة تصانيف، منها؛ «شرح الأجرومية»، و«موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب» و« المقدمة الأزهرية في علم العربية» وهي التي قصدها «المحبي» بقوله «الأزهرية».
أنظر: الكواكب السائرة جـ ١/١٨٨. الخطط التوفيقية جـ ١٠/٥٣. الأعلام جـ ٢/٣٣٨ - ٣٣٩.

(٣) هو مسعود بن عمر من أئمة العربية، والبيان، والمنطق. ولد بتفتازان من خراسان، وتوفي عام ٧٩٣ هـ/١٣٩٠ م. له عديد من التآليف منها: «حاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب» و«شرح التصريف العزّي» في الصرف. (وتصريف العزّي، كتاب في الصرف للزنجاني المتوفى ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م).
أنظر ترجمته في الدرر الكامنة جـ ٤/٣٥٠. الأعلام جـ ٨/١١٣ - ١١٤.

(٤) زكريا بن محمد الأنصاري المصري الشافعي (٨٢٣ - ٩٢٦ هـ/١٤٢٠ - ١٥٢٠ م). قاض ومفسر ومن حفاظ الأحاديث. ولي القضاء. له تصانيف كثيرة منها «تحفة الباري على صحيح البخاري» و«شرح شذور الذهب» لابن هشام.

ثم حضرت عنده ابن المصنف[1] إلى الاستثناء وسافرت الى الروم وبلغني أنه أتمه بعد ذلك، واقرأ جانباً من مغني اللبيب. وكان يحضر دروسه جمع يجاوزون الأربعين»[2].

وحضر المحبي أيضاً دروس الشيخ «أحمد الداراني الدمشقي» المتوفى ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م[3] وكان فقيهاً وواعظاً بالجامع الأموي ويدرس الفقه فيه، وكان المحبي يعتقد به، لأنه «خير محض من فرقه إلى قدمه».

ولم يأخذ المحبي علوم الدين والشعر والأدب والأخبار فحسب وإنما سعى نحو الرياضيات والمنطق. وكان شيخه الكبير في هذا الميدان «محمود البصير الصالحي الدمشقي الشافعي» والمتوفى عام ١٠٨٤ هـ/١٦٧٣ م[4]. وكان حسبما وصفه المحبي «نادرة الزمن وأعجوبة الوقت» فقد كان عارفاً بالرياضيات والإلهيات والطب، وكان فكراً مبدعاً، ومعلّما واعياً أصول مهنته بالمضمون المعاصر لها الآن، فقد علّمه الهندسة بطريقة مشخصة، هذا إلى اعتنائه بعلم الطب عن طريق «لزومه التجربات». وقد استقى منه «محمد الأمين» المنطق والهندسة والكلام. ويعلق المحبي على طريقة أستاذه في تعليم الهندسة، التي أعجب بها أيما إعجاب بقوله: «وكان هو ـ أي أستاذه ـ لما أخذ الهندسة احتال على ضبط أشكالها بتماثيل من شمع عسلي كان يمثلها له أستاذه الشيخ رجب

= أنظر ترجمته في الكواكب السائرة جـ ١/١٩٦. السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ١٢ جزءاً. القاهرة، ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ. جـ ٣/٢٣٤. الأعلام جـ ٣/ ٨٠ ـ ٨١.

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي المتوفى ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م. وهو ابن ناظم «ألفية ابن مالك» المشهورة. من أهل دمشق مولداً ووفاة. له «شرح الألفية»، ويعرف «بشرح ابن الناظم» كما يعرف هو أيضاً بابن الناظم.
أنظر ترجمته في شذرات الذهب جـ ٥/٣٩٨. الأعلام جـ ٧/ ٢٦٠.

(٢) خلاصة الأثر جـ ٤/٢٦٥.

(٣) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ١/ ٣٥٦.

(٤) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٤/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

المذكور[1] فضبطها ضبطاً قوياً، فلما قرأت الهندسة عليه كنت أعجب من تصويره الأشكال كما أخذها عن أستاذه. وكان يقول: «إذا برز الشكل الذي أصطنعه فليقابل الشكل الذي في الكتاب»[2].

ومن العلماء الذين اعترف المحبي بمشيختهم له، وإنما بطريقة عابرة في سياق كلامه[3]، «أبو المواهب الحنبلي»، وكان من أعلم أهل الشام بالحديث[4].

ولم يقتصر الشاب الأمين في استقاء المعرفة بأوسع تشعباتها في عصره، من علماء دمشق فحسب، بل كان يتتبع زيارات كبار علماء العصر الوافدين من البقاع الإسلامية المختلفة، ويسعى إليهم مشوقاً ولهفاً. ومن هؤلاء العالم المدني «ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري» المتوفى ١٠٨٣ هـ/ ١٦٧٢ - ١٦٧٣ «أحد المشاهير بالبراعة في الحديث والمعارف وفنون الأدب والتاريخ، وكان واسع المحفوظات، وله الأشعار الرائقة والرسائل الفائقة». وقد اجتمع المحبي به عند قدمته الأولى من الحجاز (عام ١٠٨٠ هـ/١٦٦٩ م)، وعند قدمته الثانية من بلاد الروم ١٠٨١ هـ/١٦٧٠ م. وكان اجتماعه به مراراً، ويقول إنه أسمعه من «أوائل الجامع الصحيح للبخاري» وسمع منه، ثم أجازه بجميع

---

(١) هو رجب بن حسين بن علوان الحموي الأصل، الدمشقي الشافعي الفرضي. كان ماهراً في العلوم الرياضية، كالهيئة والحساب والفلك والموسيقى. توفي ١٠٨١ هـ/١٦٧٦ - ١٦٧٧. أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/١٦١ - ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٤/٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) المصدر نفسه جـ٣/٤٠٢، ترجمة «محمد بن بلبان البعلي الدمشقي الحنبلي»، حيث يقول «وأشياخنا الثلاثة: أبو المواهب الحنبلي، وعبد القادر بن عبد الهادي، وعبد الحي العكري».

(٤) هو محمد بن عبد الباقي بن عبد القادر الحنبلي، مفتي الحنابلة بدمشق. عاش بين (١٠٤٤ - ١١٢٦ هـ/ ١٦٣٤ - ١٧١٤ م).
أنظر سلك الدرر جـ ٦٧/١ - ٦٩. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ٤ مجلدات. مصر ١٢٩٧ هـ. جـ ٧٢/١. ابن كنان: الحوادث اليومية جـ ١/ق٣٨ ب. منتخبات التواريخ جـ ٦١٥/٢. الأعلام جـ ٥٥/٧.

مروياته، وكتب له الإجازة بخطه في رجب عام ١٠٨١ هـ/١٦٧٠ م[1].
وكذلك الشيخ «محمد الملغروي» المتوفى ١٠٨١ هـ/١٦٧٠ م. وهو أحد موالي الروم المشهورين بالعلم والتحقيق وقاضي الحرمين وكان له في التفسير اليد الطولى وقد رآه بدمشق وإن لم يجتمع به[2]. واستمع لحلقة الشيخ «حسن بن محمد الكردي النورديني» المتوفى ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧ - ١٦٦٨ م في الجامع الأموي عندما وفد لدمشق في حدود سنة خمس وسبعين وألف (١٦٦٤ م)، والمحبي لم يزل يافعاً. ويقول مؤرخنا في ذلك: «وعاينته هناك، وهو يقرر أشياء دقيقة المرمى تدل على نظر دقيق وتحقيق زائد» واطلع على مؤلفاته التي وصفها كلها بالدقة[3].

ومن الأساتذة الذين يمكن أن يكون المحبي قد احتك بهم وأخذ منهم قبل سفره لبلاد الروم، «عثمان بن محمود المعيد» المعروف «بالقطان» (المتوفى ١١١٥هـ/١٧٠٣م)، وقد ترجم له في نفحة الريحانة، وقال فيه: «وقد اتَّخَذْتُ معه مذ عَرَفْتُ الاتحاد، فما رأيتُه مالَ عن طريقِ المودَّةِ والآحاد. وله عليَّ حقٌّ مشيخةٍ أنا من بحرِها اغترف وبألطافها الدائمة اعترف. وكثيراً ما أرِدُ وِرْدَه واقتطف رَيْحانَه ووَرْدَه. فأنْتَشِقُ رائحةَ الجنان، وأتعشَّق راحة الجَنان، بمحاضرة تهزُّ المعاطفَ اهتزازَ الغصون، ورونق لَفظٍ لم يَدَعْ قيمةً للدرِّ المصون»[4]. وظل المحبّي على اتصال به حتى وفاته، بل وجرت له معه مكاتبات من مصر.

وكذلك اتصل المحبي بالشيخ «عبد الغني النابلسي» المتوفى ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م[5]. وكان من أقربائه من ناحية جدته الثالثة لأبيه، وأخذ

---

(١) خلاصة الأثر جـ١/٢٧، من ترجمة (إبراهيم الخياري) ص ٢٥ - ٢٨. وله ترجمة في نفحة الريحانة أيضاً جـ٤/٣٦٦ - ٣٧٣.

(٢) أنظر خلاصة الأثر جـ٤/٣١٢ ترجمة (محمد الملغروي).

(٣) المصدر نفسه جـ٢/٦٣ - ٦٤. ترجمة (حسن النورديني).

(٤) نفحة الريحانة جـ١/٥٩٤، وامتدت ترجمته إلى ص ٦٠٠. وانظر سلك الدرر جـ٣/١٦٧ - ١٧٠.

(٥) انظر الحاشية (٣) ص ٧٧.

كذلك العلم عنه، إلا أن اتصاله الواسع به تم خلال المرحلة الثالثة من عمره، وأثناء زيارته لمصر، حيث التقى به هناك.

ومن شيوخ المحبي أيضاً «اسماعيل بن علي المدرّس الحائك» الذي وصفه بقوله: «فقيه الشام الآن»[1]، وقد توفي عام ١١١٣ هـ/١٧٠١. وكان من الفقهاء الكبار، وغدا مفتياً لدمشق[2].

ويتضح من متابعة خطوات المحبي في اكتساب المعرفة أنه قد كوّن زاداً ثقافياً، واسعاً جداً وهو في موطنه دمشق خلال هذه المرحلة الأولى من حياته، وقد تحراه من كبار رجال الاختصاص في عصره، وهو لما يجاوز الخامسة والعشرين من عمره. وفي هذه الفترة من شبابه، وفي عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٥ م بالضبط قرر المحبي أن يغادر موطنه دمشق ويرتحل إلى بلاد الروم.

ولا يعرف بالضبط السبب الذي دفعه إلى ترك دمشق وراءه، وهو المؤمن بأنها «من عَهْدِ أنْ دَخَلَتْها العرب وهي موطنُ كلٍّ أدب لكَ فيه الأرَب، وقد أنجبت في كل وقتٍ وأوان بقادة كلِّ حكمةٍ منهم بديوان»[3]. وفي الواقع قد يكون هناك جملة أسباب، وأولها على ما يبدو نفسي عاطفي، انجرف فيه المحبي وراء شعوره بالوحشة والغربة بعد أن افتقد بعض أحبابه، وقد يكون والده واحداً منهم. وفي ذلك يقول بأسلوبه المسجع في نفحة الريحانة «واجْتَنَيْتُ من ثمراتِ خواطرهم كلَّ يانع مستطاب، وحشوت صَدَفَةَ أذني من تلك اللآلىء الرطاب، وملأتُ السمْعَ منهم كلما يحسدُ القلبُ عليه الأذْنا، لكني لم أقضِ من رؤيتهم مطمعاً حتى غربوا وشمسُ الفضلِ معاً فعانَيْتُ الوجودَ دونَهم كالنهار بلا شمس، وعاينتُ الأمرَ ولا هُمْ كالراحَة بلا خمْس؛

---

(١) خلاصة الأثر جـ ٦٣/٤. ترجمة (محمد العلاء الحصكفي).

(٢) أنظر ترجمته في سلك الدرر ٥٥٦/١. عرف البشام ٩٠ـ٩٢. تراجم علماء وأدباء وشعراء دمشق مخطوط في الظاهرية رقم ٤٣٢٤. الورقة ١٩٣. منتخبات التواريخ ٦١٨/٢.

(٣) نفحة الريحانة جـ ٢١/١.

وفقدتُ بهم الوطرَ الذي شايعتُه، والأملَ الذي على الوفاءِ والرَّعْيِ للذِمَمِ بايَعْتُه، فلم ألْبَثْ حتّى كرِهْتُ الثوى، وتحرَّكتْ عزيمتي لداعي النوى، فأمضيتُ لجهةِ الرومِ العزمِ وأدخلتُ على حرف العِلَّة عاملَ الجَزْم»[1]. وتبدو هذه المعاناة النفسية، بصورة أخرى، وبشكل أكثر وضوحاً في القصيدة التي كتبها عام ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م «للشريف أحمد»[2] صديقه في بلاد الروم، حيث أظهر فيها أن من عوامل بعده عن الوطن جفاء الأحبة فيه، فقد قال[3]:

وأسْهَرَني بأرضِ الروم برقٌ	سرى من جلّق يشكو الكلالا
وجدّد لي بأرض الشام عهداً	وذكّرني الأحبّة والظِلالا
مواطنُ صبْوَتي ومُقامُ أنسي	وإن صَرَمَتْ أهاليها الحِبالا
وما كانتْ غوانيها جفاةً	ولكن علّموهنَّ الدلالا
وتركُ المرءِ دارَ الضَيْمِ حتمٌ	ونفسُ الحرِّ تأبى الاعتقالا
وما كلَّفتُهم شيئاً ولكن	أعادَ الوهمُ رشدَهُم ضلالا
جفوا فحلمتُ فازدادوا جفاءً	وظنُّوا الحلم عجزاً واحتمالا
فخلّفت الديارَ ومَنْ عَلَيْها	وفارَقْتُ الأحبّةَ والعيالا

«فالسفر والتشاغل بطيِّ المراحل، يخلِّص النفس مما تعانيه»، بحسب قول له هو، في تعليل تنقل أحد الأدباء الذين ترجم لهم[4].

ومع أهمية هذا السبب، إلا أن هناك عوامل أخرى: كرغبته في الاستزادة من العلم، وتعرف ثقافة العلماء الأروام من منابعها، ولا سيما أن العاصمة «استامبول» أو «دار الخلافة» ـ كما أطلق عليها المحبي ـ كانت آنذاك مركزاً

(١) المصدر نفسه/٦ ـ ٧.
(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١/ ١٩٠ ـ ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه/١٩٢.
(٤) جـ٣/ ٢٠ ترجمة (عبد اللطيف المنقار).

علمياً فعالاً: ففيها المدارس الوفيرة، وبخاصة منها تلك التي تعد المدرسين والقضاة[1]، وهي موئل كثير من العلماء الأفذاذ من الأتراك والعرب، ومهبط العديد من علماء العالم الإسلامي الذين كانوا يتوافدون إليها إما لتحصيل علم أو لمنحه، أو للتقرب من السلطان والسلطات الحاكمة العليا، أو للحصول على منصب تدريس، أو إفتاء، أو قضاء أو غيره. وفي ذلك قال: «محمد بن عمر العرضي» الأديب الحلبي عنها: هي «كعبة الأفاضل إلا أنهم يحجون إليها كل

---

(١) كانت «استامبول» في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد تعج بالمدارس، ولقد زودها السلاطين المتتالون، ومنذ عهد محمد الفاتح بصفة خاصة بالكثير منها. بل إن عديداً من الوزراء، وكبار رجال الدولة، وأميرات البيت السلطاني، قد قلدوا السلاطين في هذا المضمار، حتى إنه ينسب إلى المعمار سنان أنه بنى ما لا يقل عن ٥٥ مدرسة فيها أيام السلطان «سليمان القانوني»، وكان أغلبها لأفراد من غير السلاطين. إلا أن أهم هذه المدارس، هي تلك التي أنشأها السلطان «محمد الفاتح» (٨٥٥ ـ ٨٨٥ هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) وابنه من بعده «بيازيد الثاني» (٨٨٥ ـ ٩١٨ هـ/ ١٤٨١ ـ ١٥١٢ م) ثم «سليمان القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م). فهناك «مدرسة أيا صوفيا» التي ربطها الفاتح بمسجد «أيا صوفيا»، وبنى أيضاً ما لا يقل عن ١٦ مدرسة حول مسجده المسمى «بمسجد الفاتح». ولقد شيدها على مرحلتين: ففي المرحلة الأولى بنى ثماني منها: أربعاً إلى شمال المسجد وأربعاً إلى جنوبه وسميت بمدارس (الصحن)، وأطلق على الصحن الذي تتحلق حوله هذه المدارس اسم صحن الثماني. إلا أنه ما لبث أن وجد من الضروري تشييد ثماني مدارس أخرى مجمعة بالشكل الآنف الذكر، وأطلق عليها اسم (المدارس الموصلة للصحن) أو (تتمة)، وذلك لأنها خصصت للدراسات الأولية الإعدادية أو بتعبير آخر لتكون مدخلاً لمدارس الصحن الثمان.

وكانت كل واحدة من المدارس الثمان الأولى تحوي قاعة رئيسة أساسية يجري فيها التدريس، وخمس عشرة غرفة مقببة للطلاب، وغرفتين للأساتذة المساعدين، وغرفتين لحراس الباب والخدم. وفي مدارس (التتمة) كانت التجهيزات أدنى مستوى من السابقة، فلم تزود كل مدرسة من تلك المدارس إلا بثماني غرف غير مقببة، وتتسع كل واحدة لثلاثة طلاب. فالمدارس الست عشرة إذن كانت تتسع لـ (٣١٢ طالباً فقط). وكان الطلاب في هذه المدارس يدرسون عشرة علوم هي: القواعد، والنحو، والمنطق، وعلوم الدين، وفقه اللغة، وعلم البيان، والمعاني، والإنشاء، والهندسة، والفلك. وكل من أتقن هذه المواد العشر يتلقى لقب (دانشمند) أي (الحاصل على المعرفة)، ويحق له أن يُعلِّم الطلبة. ويمكن للدانشمند أن يطالب برئاسة مدرسة من المدارس الصغيرة العامة، ولا يتابع دراسته. إلا أن هذا يعني أنه قد صرف النظر عن الوصول إلى مرتبة العلماء، وما يتلوها من مناصب عليا. فحتى يصبح (الدانشمند) عضواً في فئة العلماء كان من الضروري أن يقوم بدراسة متعمقة للشريعة والفقه الإسلاميين، وأن يجتاز عدة

فحوص ليحصل على درجات أرقى فأرقى. ومن هؤلاء العلماء كانت تزود عادة جميع المدارس العليا بالمدرسين كما ينتقى منهم القضاة الكبار (الملا)، والصغار.

أنظر حول المدارس الثمان وعلومها: E. S. Greasy, History of the Ottoman Empire. Beirut 1968 p. 104—105.

إلا أن هذا النمط من التعليم السائد في عهد السلطان «محمد الفاتح» أخذ طابعاً أكثر تنظيماً وتكاملاً في عهد السلطان سليمان القانوني. فقد بنى هذا الأخير «مدارس السليمانية» حول مسجده كما فعل محمد الفاتح، وابنه السلطان بيازيد الثاني بعده، وجعل التعليم فيها يمر عبر درجات تعليمية، هي بمثابة المراحل التعليمية، وعدة سنواتها، في تعليمنا الحاضر. وقد اختلف في تقدير عدد هذه الدرجات، وجعلوها تتراوح بين ٧ ـ ١٢ درجة، وأسماؤها ضمن التقدير العددي الأكبر لها (وهو ١٢ اثنتي عشرة درجة) هي كما يلي:

١ ـ ابتدائي خارج ٢ ـ حركتي خارج (تحرّك خارجا) ٣ ـ ابتدائي داخل ٤ ـ حركتي داخل (تحرّك داخلاً) ٥ ـ الموصلة للصحن ٦ ـ صحن الثمان ٧ ـ ابتدائي الْطميشلي ٨ ـ حركة الْطميشلي (ويبدو أن هاتين الدرجتين وصفتا بـ ألطميشلي لأن المدرسين فيها كانوا يتناولون في الأصل ٥٠ ـ ٦٠ أقجة يومياً) ٩ ـ الموصلة للسليمانية ١٠ ـ خوامس السليمانية ١١ ـ السليمانية ١٢ ـ دار الحديث.

وكان على كل طالب علم في «المدارس السليمانية»، أن ينال في كل مرحلة من مراحل سيره التعليمي عبر الدرجات الإحدى عشرة «إجازة» تشهد له بأنه غدا عارفاً بما درسه على أيدي معلميه، وتسمح له بالانتقال إلى الدرجة التي تليها. وعندما ينتقل إلى الدرجة السادسة وهي الموصلة إلى المدارس (الثمان) المشار إليها آنفاً، فإنه لا يعود «صوفتا» كما كان يطلق على «المبتدئين»، وتعني «المتحرق للعلم» وإنما «دانشمند» (الحاصل على المعرفة) ويسمح له بأن يتابع دراساته في المدارس الأعلى، وأن يعمل في الوقت نفسه مدرساً مساعداً في الدرجات الأدنى، أي أن يستمع لطلابها ويعيد عليهم ما كانوا قد درسوه على أساتذتهم ويسمى في هذه الحالة بـ «المعيد». وإذا ما رأى بعد ذلك أيّ أمل له في الوصول إلى أعلى المناصب القضائية، فإن عليه أن يتابع دراسته عبر المراحل الست المتبقية، وأن ينال منها أكبر عدد من الإجازات. وعندها يصبح «مدرّساً» وفي هذا الوضع، عليه مرة أخرى أن يبدأ بالتدريس في المرحلة الدنيا ثم يرتقي تدريجياً نحو العليا. ولا يصبح مرشحاً لمنصب «الملا» أو «القاضي الكبير»، (المولوية)، إلا بعد الوصول إلى الدرجة التاسعة من التدريس على الأقل. ويمكن القول إن المتخرجين من المدارس السليمانية كانوا ثلاث فئات: **الفئة العليا**، وتضم المدرسين المتخرجين ابتداءً من الدرجة التاسعة (الموصلة للسليمانية) فما فوق، وذروتها مدرسو «دار الحديث». **والفئة الوسطى**، وتحتوي مدرسي الدرجات السادسة والسابعة والثامنة. **أما الفئة الدنيا** من المدرسين فهم ما تبقى، أي دون الدرجة السادسة.

وفي الواقع، كانت قلة من الدارسين هي التي تتابع كل تلك المراحل التعليمية، ولا سيما أنهم كانوا يعرفون أن العلم لا يكفي وحده للوصول إلى المناصب العليا، وإنما لا بد من الاعتماد على

آن، وسوق عكاظهم إلا أنها تنصبّ فيها مصاقع الروم لا مصاقع عدنان»[1] ولعلّ المحبي أراد هو الآخر أن يسلك سلوك قضاة الروم وعلمائهم، لينال مثل تلك المناصب، وله في ذلك أسوة بأصوله كأجداده وأبيه. وبذلك يحقق مفخرة أو عملاً ذا قيمة ولعلّه يشير إلى ذلك عندما قال في «نفحة الريحانة»: «فعل امرىء جدَّ جدُّه، وما رأيه إلا في مفخر يستجده»[2]، مضمناً بذلك ما قاله الباخرزي[3] في مقدمة «دمية القصر»: «فعل امرىء جد في طلب العلم جِدُّه، وما رأيه في عَسْجد يستفيده، ولكنه في مفخر يستجده»[4]. ومن المرجح أنه قد شجعه على هذا الارتحال «منحة الملازمة» التي كان القاضي الرومي «محمد عزتي»[5] قد وعد والده بها، والمحبي مـازال طفلاً في الثالثة من عمـره، أي عندمـا كان «محمـد عزتي» قـاضيـاً بـدمشق عـام ١٠٦٤ هـ/

«الوساطة» و«التقرب للسلطة» والرشوة، ولذا فإن كثيراً منهم كان يلتحق، بعد المرور بالمراحل الدنيا من ذلك التعليم، بمدارس مسجد السلطان بيازيد وهي مختصة بدراسة الفقه. وكان يحق للمتخرجين من هذه المدارس أن يصبحوا «ملازمين» أي مرشحين لوظائف نواب القضاة، والقضاة العاديين، والمفتين في الأقاليم. وهذه المناصب كانت مفتوحة كذلك للمجازين من المدارس الأخرى الخارجة عن ذلك التنظيم المركزي في العاصمة وإذا رغب هؤلاء في متابعة دراستهم ليصبحوا مدرسين، فإنه كان أمامهم سبع سنوات تدريب أخرى في المدارس العليا.
Gibb and Bowen, op. cit. Part II p. 144 – 147.

وليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق ١٩٧٣ ص ١٧١ - ١٧٣.

(١) نفحة الريحانة ج٢/ ٤٨٤ ترجمة «محمد بن عمر العرضي». - مصاقع: جمع مِصْقَع: البليغ.

(٢) المصدر نفسه جـ ١/٧.

(٣) علي بن الحسن المتوفى ٤٦٧ هـ/١٠٧٥ م. شاعر وكاتب، وله علم بالفقه والحديث. من أهل «باخرز» من نواحي نيسابور. اشتهر بكتابه «دمية القصر وعصرة أهل العصر»، وهو ذيل ليتيمة الدهر للثعالبي. شذرات الذهب جـ٣/٣٣٧. الأعلام جـ٥/٨١.

(٤) دمية القصر. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. دار الفكر العربي ١٩٦٨ جـ ١/٨.

(٥) هو «محمد بن لطف الله» العالم الرومي، المخلّص بـ«عزتي»،، والمتوفى ١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١م كان قاضي عسكر، وأستاذ المحبي في استامبول. انظر ترجمته في خلاصة الأثر. ج٤/ ١٣١ - ١٤٢ - ونفحة الريحانة ج٣/٨ - ١٦.

١٦٥٤ - ١٦٥٥. وقد بعث له بها عام ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨ - ١٦٦٩، ومعها منصب للتدريس في مدرسة «لامعي»[١]من مدارس بروصة[٢]، وبخمسة وعشرين عثمانياً[٣]. وعندما نقل إلى قضاء عسكر الروملي أرسل إليه للتدريس في مدرسة «خوجة خير الدين»[٤]في القسطنطينية بثلاثين عثمانياً[٥]. ولا بد أن يضاف إلى هذه العوامل رغبة المحبي الشاب في التنقل والترحال، للاطلاع على مختلف مظاهر الحياة في العاصمة والمدن التركية الأخرى، على عادة علماء ذلك العصر، وأدبائه من العرب. فهناك اعتقاد سائد وصحيح بأن «الرحلة في طلب العلم لا بد منها، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال» كما أشير إلى ذلك في مقدمة البحث.

وفي الواقع، يلاحظ من التراجم التي طرحها المحبي، وقبله الغزي، أن كثيراً من علماء البلاد العربية والإسلامية وأدبائها كان يتنقل وعلى نطاق واسع،

---

(١) لامعي هو الشيخ الصوفي محمود بن عثمان بن علي النقاش المتوفى ٩٣٨ أو ٩٣٩هـ/ ١٥٣١ - ١٥٣٢م في بروصه. انظر طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية. بيروت ١٣٩٥هـ/ ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) أو بورصة: مدينة تقع إلى الشمال الغربي من آسية الصغرى. كانت من المدن الحصينة أيام البيزنطيين. فتحها أورخان ثاني سلاطين بني عثمان عام ٧٢٦ هـ/١٣٢٦م وغدت عاصمة للدولة العثمانية قبل أدرنة فاستامبول. وتقع على خط طول ٤٠,٢٦° شرقاً وخط عرض ٣١,٤٠° شمالاً.

أنظر حولها: دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٦٠٨/٣.

(٣) العثماني أو الأقجة، وهي النقد العثماني الفضي الأول. ويعني اسمها «الأقجة» «القطعة الفضية الصغيرة» وكان وزنها في بادىء الأمر أكثر من ثلث الدرهم بقليل، أي ١٨ حبة، أو غراماً تقريباً. وقد تناقصت قيمتها كثيراً خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي حتى وصل وزنها إلى $\frac{1}{2}$ ٢ حبة من الفضة في أواخر القرن.

أنظر: Gibb and Bowen, op. cit. Part II. p. 49 - 51.

(٤) الخواجه خير الدين: أحد علماء الدولة العثمانية. كان معلماً للسلطان محمد الفاتح وبنى جامعاً ومدرسة في استامبول. توفي في آخر سلطنة محمد الفاتح حوالي ٨٨٤هـ/ ١٤٨٠م.

انظر الشقائق النعمانية/ ١٠٥.

(٥) انظر خلاصة الاثر ج٤/ ١٣٥.

بين موطنه وبلاد الروم من ناحية، وبين مواطنهم وبقية أنحاء البلاد العربية من ناحية أخرى، حتى شاع في ذلك الحين «أدب الرحلات»[1]. بل إن «عبد الباقي المعروف باسم السمان» وهو صديق للمحبي، لم يترك بلدة من أمهات بلاد الروم إلا ودخلها حتى وصل إلى جزيرة كريت[2] وعديداً من العلماء ممن ترجم لهم المحبي تنقلوا حتى بلاد الهند، وفارس. ولا بد أن المثقفين الشباب من العرب كانوا يرون في ذلك الارتحال غنى للذات، وتجديداً لها، وجلواً المقدر والشأن. ولهذا المعنى يشير المحبي أثناء حديثه عن ارتحاله لبلاد الروم قائلاً[3]: «وفي الانتقالِ تنويةٌ لحامل الأقدار، ولـولاه لم يكس البدر حلّة الإبدار:

وكذا الدر ضائعُ الحسنِ في البحـ ـرِ فـإن بـانَ عـنـه راقَ جمـالا
ومـيـاه الـبـحـر مـلح فـمـهـا حَـمَلتهـا الـسحـابُ عُـذْنَ زلالا

وقوله أيضاً[4]:

يجـوبُ الأرضَ منْ طلبَ الكمـالا ومَنْ صحِـبَ القَنـا بلغ السؤالا
ولـيس يبـين فـضـل المـرء حتى يـبـيـنْ وَيشبـه الشهب **انتقـالاً»**

---

(١) لقد كان للنجم الغزي رحلته المدونة لبلاد الحجاز، ولابراهيم ا'نياري رحلته وللبوريني رحلتان إحداهما حلبية وأخرى طرابلسية، ولجد المحبي رحلات ثلاث: المصرية، والرومية، والتبريزية، ولوالد المحبي رحلته الحلبية، ورحلته الرومية، ولمحمد المعروف بكبريت «رحلة الشتاء والصيف» وغيرهم كثير. وكانوا يدونون أحداثها نثراً أو شعراً، ويصفون مراحل الطريق وما رأوه خلالها، ولذا فهي مصدر هام، تاريخي وجغرافي، لتلك الحقبة.

(٢) خلاصة الأثر جـ ٢/ ٢٧٠ جزيرة (كريت) أو (إقريطش)، جزيرة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط جنوبي شرقي بلاد اليونان. فتحها العرب المسلمون عام ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ - ٨٢٦ م، وأخرجهم البيزنطيون منها عام ٣٥٠ هـ/ ٨٦٠ - ٨٦١ م. وفتحها العثمانيون عام ١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٥ م. إلا أنها لم تستسلم جميع أجزائها بسهولة حتى ١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٩ م.
أنظر حولها: دائرة المعارف الإسلامية المعربة جـ ١/ ٤٦٥ - ٤٧١. والبحث للمستشرق: جيس F. Giese

(٣) نفحة الريحانة جـ ١/ ٧.

(٤) خلاصة الأثر جـ ١/ ١٩٢.

وبهذا المعنى علّل أيضاً رحلة الشاعر الأديب «محمد بن عمر العرضي الحلبي»[1] المتوفى ١٠٧١ هـ/١٦٦٠ م إلى بلاد الروم حيث قال: «وكان دخل الروم مقدَّراً أن المتاع بأرضه يُسترخص، وأن المرء يبلغ مناه في أي وجه يشخص»[2].

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤/٨٩ ـ ١٠٣. نفحة الريحانة جـ ٢/٤٨٣.
(٢) نفحة الريحانة جـ ٢/٤٨٤.

المرحلة الثانية من حياة المحبي

(١٠٨٦ - ١٠٩٢ هـ/ ١٦٧٥ - ١٦٨١ م)

وتحتوي حياته في بلاد الروم ومدتها ست سنوات.

غادر محمد الأمين دمشق برفقة «محمد بن عبد الحليم البروسوي» الذي أشير إليه آنفاً، وكان صديقاً لوالد المحبي، ولعل البروسوي هو الذي أقنع المحبي بالرحيل وشجعه عليه. ولم يسافر مؤرخنا وحده، بل كان معه أيضاً عمه الحبيب لقلبه «صنع الله». وقد خرج ثلاثتهم من دمشق في الثامن من شهر صفر عام ١٠٨٦ للهجرة/٤ أيار ١٦٧٥[١]، ووجهتهم «بروصة» بلد البروسوي، ومركز من مراكز العلم الكبرى في الدولة العثمانية. وقد يكون المحبي قد اتخذ هدفه هذه المدينة لا لمصاحبة البروسوي فحسب، ولا لأنها مرحلة على الطريق إلى العاصمة، وإنما ليقوم «محمد الأمين» بالتعرف على مدرسة «لامعي» التي أعطاه «محمد عزتي» التدريس بها بخمسة وعشرين عثمانياً. إلا أن المحبي وعمه لم يمكثا بها طويلاً فقد غادرا صاحبهما، وتوجها إلى «أدرنة»[٢] العاصمة الثانية للدولة العثمانية، وكان السلطان العثماني «محمد

---

(١) خلاصة الأثر جـ٣/٤٨٧. ترجمة محمد البروسوي.

(٢) مدينة في تراقيا، وغرب استامبول. استولى عليها العثمانيون عام ٧٦٣ هـ/١٣٦٢ من البيزنطيين. وقد جعلها السلطان «مراد الأول» عاصمة للدولة، أي منذ ٧٦٨ هـ/١٣٦٧ م. وهي مدينة تجارية هامة. وبنى فيها العثمانيون عدداً من المساجد كجامع بيازيد، وجامع مراد الثاني، وجامع سليم الثاني وغيرها.
أنظر: دائرة المعارف الإسلامية المعربة جـ ١/ ٥٣٥. مادة (أدرنة) للمستشرق «مورتمان».

الرابع» (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ/ ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) آنذاك فيها. وفيها أقام المحبي وعمه مدة لم يحددها، وقد تكون عدة من شهور إذ أن المحبي يشير إلى أنه كان في استانبول في أواخر عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٥ م[١].

وقد قام «المحبي» خلال المدة التي قضاها في «أدرنة» باتصالات علمية ففيها اجتمع بـ «مصطفى بن عبد الحليم البروسوي»[٢] أخي محمد عبد الحليم البروسوي الذي رافقه وعمه من بلاد الشام إلى بروصة، وكان مصطفى آنذاك قاضي العسكر في أناطولي. ولعل وجوده في هذا المنصب كان دافعاً للمحبي وعمه للانتقال إلى «أدرنة»، علّهما يحصلان منه على ما يبغيان من منصب وعلم، أو يساعدهما في هذا السبيل. ويعترف المحبي بأنه أسدى إليه نعمًا طائلة[٣]، ولو أنه لا يحدد نوعها.

وفي أدرنة تابع مؤرخنا أخذ العلم من أربابه المعروفين: ففيها التقى بـ «عبد القادر بن عمر البغدادي»[٤] (المتوفى ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢ م)، الذي وصفه المحبي بقوله: «نزيل القاهرة، الأديب المصنف، الرحال، الباهر الطريقة في الإحاطة بالمعارف، والتضلع من الذخائر العلمية. وكان فاضلاً، بارعاً، مطّلعاً على أقسام كلام العرب، النظم والنثر، راوياً لوقائعها وحروبها وأيامها، وكان يحفظ «مقامات الحريري»[٥]، وكثيراً من دواوين العرب على

---

(١) خلاصة الأثر جـ ١/١٨١. ترجمة «أحمد البياضي». إلا أن المحبي يذكر في مواضع أخرى بأنه قدم القسطنطينية في عام ١٠٨٧ هـ/١٦٧٧ م (جـ ٢/٢٤٢، جـ ٤/١٣٥) ولعل وصوله إليها كان في الأيام الأخيرة من عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٥ م.

(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر. جـ ٤/٣٧٦ - ٣٧٧. وهو أحد علماء الروم وممن تسنم مناصب قضائية عديدة حتى وصل إلى قضاء العسكر توفي ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م.

(٣) المصدر نفسه، والصفحتان ذاتها.

(٤) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/٤٥١ - ٤٥٤.

(٥) الحريري هو القاسم بن علي بن البصري، الأديب الكبير (٤٤٦ - ٥١٦ هـ/ ١٠٥٤ - ١١٢٢ م)، صاحب «المقامات الحريرية» التي سماها «مقامات أبي زيد السروجي». ومن كتبه «درة الغواص في أوهام الخواص»، و«صدور زمان الفتوة وفتور زمان الصدور». أنظر ترجمته في وفيات الأعيان جـ ١/٤١٩. الأعلام جـ ٦/١٢.

اختلاف طبقاتهم، وأحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار والحكايات البديعة، مع التثبت في النقل وزيادة الفضل والانتقاد الحسن، ومناسبة إيراد كل شيء منها في موضعه، مع حفظ اللغة الفارسية والتركية. هذا بالإضافة الى تآليف كثيرة دونها. . وكان قد وفد إلى أدرنة ودخل مجلس الصدر الأعظم «أحمد الفاضل من آل كوبرلي»[1] وغدا قبلة الكبراء في المدينة»[2]. وكان بين هذا العالم الأديب وبين والد المحبي حقوق مودة قديمة، فرحب به وأقبل عليه ولقد أعجب مؤرخنا بعلمه، فاقتنى كتابه القيم «شرح شواهد شرح الكافية» للرَضّي الاسترابادي[3] وهو في ثمانية مجلدات، وقد جمع فيه البغدادي «علوم الأدب واللغة ومتعلقاتها بأسرها إلا القليل»؛ فقرأه أديبنا مدعماً ميوله الأدبية، ومعرفته اللغوية، وانتفع به ونقل منه في مجاميع نفائس أبحاث يعز وجودها في غيره. ولم يكتف بهذا الكتاب فحسب، بل طالع مؤلفاته الأخرى، وانتقى منها «مباحث ونوادر كثيرة».

وفي أدرنة كذلك، اجتمع «محمد الأمين» بمحمد قاضي القضاة (المتوفى ١٠٨٧ هـ/ ١٦٧٦ ـ ١٦٧٧ م) وكان على ما يبدو على معرفة سابقة به مذ كان متولياً قضاء الشام عام ١٠٨٠ هـ/١٦٦٩ م، وقد دخل المحبي معه بمناقشات بعد أن اجتمع به مرات، واستمتع بمباحثاته في التفسير ودوّن بعضها[4].

وفي أدرنة كان لقاؤه أيضاً بـ«محمد البخشي الحلبي»، (المتوفى ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م)، المحدث الفقيه والصوفي الخلوتي، الذي كان قد سافر إليها عام سفر المحبي. «فاتحد معه اتحاداً تاماً» بحسب تعبيره، وكان يجتمع

---

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٣٥٢/١ ـ ٣٥٦.
(٢) المصدر نفسه جـ ٤٥١/٢ ـ ٤٥٣.
(٣) هو محمد بن الحسن نجم الدين، عالم بالعربية من أهل «استراباذ» (من أعمال طبرستان). عاش نحو ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م واشتهر بكتابيه «شرح الكافية» لابن الحاجب في النحو. و«شرح مقدمة ابن الحاجب» المسماة بالشافية في علم الصرف.
أنظر كشف الظنون/١٠٢١ و١٣٧٠. الأعلام جـ ٣١٧/٦.
(٤) أنظر في ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٣١٣/٤.

معه في غالب الأوقات، «وكان شديد الحرص على فوائده وحسن مذاكراته». وأعجب به، وقال عنه: «وما رأيت فيمن رأيت أحلم ولا أحمل منه. وكان روّح الله تعالى روحه، من خيار الخيار، كريم الطبع، مفرط السخاء»[1].

ولم تقتصر لقاءات المحبي على علماء فحسب، بل إنه اجتمع أيضاً ببعض الشخصيات العربية السياسية، والأدبية، في آن واحد، كشخصية «الأمير أحمد بن زيد» وأخيه «الشريف سعد» من أشراف مكة. وقد وفدا إلى دار السلطنة، كي يسعيا لدى السلطان، لإعادتهما إلى شرافة مكة بعد أن عزلهما الأشراف عنها[2]. وكان هذا اللقاء في أدرنة فاتحة صداقة بين المحبي والشريف أحمد، توطدت أواصرها في القسطنطينية، وامتدحه المحبي بعدة قصائد.

لم يستقر مؤرخنا في أدرنة، بل انتقل منها وعمه معه للقسطنطينية. ويربط انتقاله هذا بسفر السلطان «محمد الرابع» لعاصمة ملكه[3]. ولا تعرف بالضبط الصلة بين الأمرين، اللهم إلا إذا كان المحبي وعمه قد ارتبطا بعمل تدريسي

---

(١) أنظر ذلك في ترجمته في المصدر نفسه جـ ٤/٢٠٨ - ٢١١. ونفحة الريحانة جـ ٢/٦٤٥.

(٢) أنظر ترجمة الشريف «أحمد بن زيد» في خلاصة الأثر جـ ١/١٩٠ - ١٩٧، وترجمة «سعد بن زيد» في المصدر نفسه جـ ١/٤٣٦ - ٤٥٠، ضمن ترجمة الشريف «بركات بن محمد».

بعد وفاة الشريف «زيد بن محسن» الذي حكم بين (١٠٤٢ - ١٠٧٧ هـ/ ١٦٣٢ - ١٦٦٦ م)، قام صراع على الشرافة بين ابنه «سعد»، وبين «حُمود بن عبد الله»، وانتهى الأمر إلى اتفاق بينهما. وحكم الأمير سعد بين (١٠٧٧ - ١٠٨٣ هـ/١٦٦٦ - ١٦٧٢ م). إلا أن الخلاف عاد فدب بين الطرفين، وتدخلت السلطنة العثمانية عن طريق والي مصر، وحاكم جدّة «حسن باشا». وعمل هذا الأخير على خلع «الشريف سعد»، وعيّن بدلاً منه «أحمد بن الحارث» من الأشراف أيضاً. ولم تلبث السلطنة أن احلت محلّه «الشريف بركات بن محمد»، فخرج «الشريف سعد»، وأخاه «الشريف أحمد» إلى عاصمة الدولة العثمانية، ليشرحا للسلطان الحال، وكان «الشريف سعد» قد شارك معه أخاه «أحمد في الشرافة». وانتهى الأمر بتسلم «الشريف أحمد السلطة»، حيث حكم (١٠٩٥ - ١٠٩٩ هـ/ ١٦٨٤ - ١٦٨٧ م).

(٣) خلاصة الأثر جـ ٢/٢٦٠ ترجمة (صنع الله المحبي)، حيث يقول: «ثم لما توجه السلطان محمد إلى قسطنطينية جئت أنا وإياه إليها» أي هو وعمه.

ضمن بلاط السلطان وحاشيته، أو كانا يتابعان مسعاهما لدى السلطنة وكبار موظفيها، لنيل منصب تدريسي أو قضاء، وهذا هو المرجح، لأنه على أثر انتقالهما، أعطي عم «المحبي» قضاء «معرة مصرين (نسرين)» من أعمال حلب في الشام. وقد لا يكون الأمر هذا أو ذاك، وإنما مجرد ربط زمني بحت. ومهما يكن، فالمحبي لا يفصح عن أسباب مغادرته أدرنة إلى العاصمة العثمانية، فقد يكون للأسباب الآنفة الذكر، وقد يكون لتسلم منصب التدريس في مدرسة الخوجة خير الدين في القسطنطينة، الذي مُنحه من «محمد عزتي» عندما كان هذا قاضياً لعسكر الروملي؛ وقد يكون لملازمة «محمد عزتي» نفسه، بعد أن عزل عن القضاء، وانزوى في داره في القسطنطينية.

وبالفعل فقد التحق مؤرخنا في القسطنطينية بمجلس «محمد بن لطف الله» المخلَّص بـ «عزتي»، «وكان مجلس علم حافل يضم جمعاً كبيراً من الأفاضل، وتجري فيه المذاكرة والمطارحة في جميع الفنون» ولا سيما في ميداني الأدب والشعر. ولقد استطاب المحبي تلك الأجواء العلمية، فبقي إلى جوار «محمد عزتي» طيلة ما تبقى من حياة هذا الأخير. ويقرظ مؤرخنا شيخه بكثير من الإجلال قائلاً عنه: «أستاذي، ومرجعي، وملاذي، عين الروم، وعماد ملك بني عثمان، وصدر علمائهم، وأوحد العصر في العلم والفضل، وسائر أدوات الرياسة، والآخذ من الآداب بالطرف القوي. وكان إليه الإشارة في الفصاحة والبراعة، مع حسن النظم والنثر في الألسن الثلاثة، وجزالة الألفاظ وسلالتها، إلى براعة المعاني ونفاستها»[١]. وقد قدر المحبي نعمه عليه وامتدحه بعدة قصائد[٢]. ومن المؤكد أن المحبي لم يستفد من علم أستاذه، وأدبه،

---

(١) المصدر نفسه جـ ٤/١٣١.

(٢) ومن جملة ما قاله فيه تمجيداً وعرفاناً بالجميل:

يـا من نلوذُ مـنَ الـزمـانِ ببـابـهِ	ونـرى نـداه لِما نـؤمِّـل مَغْـنـاً
أَلبسْتَني نعـمـاً رأيتُ بهـا الـدجى	صبحـاً وكنتُ أرى صباحيَ مُـظْلِما
فبقيتُ يحسـدني الصـديـقُ وقبـلَهـا	كـان الـعـدوُّ يمـرُّ بي مـتـرحِّـمـا

المصدر نفسه/١٣٩.

وكرم خلقه فحسب، ولا من مطارحات العلماء والأدباء في مجلسه فقط، وإنما غبّ من معين مكتبته، العامرة بكل ما لذّ وطاب من أفانين المعرفة. فقد جمع «محمد عزتي» على عادة كثير من علماء عصره ورجالاته ـ حتى السياسيين منهم ـ «من الكتب ما لا يدخل تحت حصر حاصر، ولا ضبط ضابط، مع كثرة تنوعها، وعديد نسخها»[1].

خمس سنوات عاشها المحبي في القسطنطينية، وهو منغمس في هذا المناخ العلمي، يتتبع أخبار العلم والعلماء، والشعر والشعراء، العرب والأتراك، الأمواتِ منهم والأحياء، ويمزج في ذهنه الذكي، الثقافة العربية الإسلامية بأصالتها، بالثقافة التركية، التي هي في واقعها مزيج من فكر إسلامي، فارسي ـ تركي ـ عربي. ولم يكن تتبعه عن طريق الكتب فحسب، بل عن طريق الاتصال المباشر: ففي القسطنطينية اتصل بـ«صالح الرومي» المتوفى ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م[2]، «أحد النوادر في تحقيق العلوم»، وقد اشتهر أمره حتى تهافت عليه فضلاء الروم للوصول إليه والاقتباس مما لديه. ورأى في تدريسه نمطاً مغايراً لما اعتاد عليه من أساتذته العرب، وأعجب به: «فهو عجيب الصنعة في تقريره وتفهيمه، جار على طريقة محققي العجم والأكراد في مراعاة آداب البحث. وكانت له مهارة في العلوم العقلية لا يشق فيها غباره». وكان يقرىء كتاب «مغني اللبيب» لابن هشام ويدرّس شرح المواقف[3] في إحدى المدارس الثمان، كما كان له في بيته دروس خاصة.

---

(١) المصدر نفسه/١٣١.

(٢) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢٤٢/٢.

(٣) كتاب «شرح المواقف» هو لعلي بن محمد الجرجاني (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣ م)، وهو فيلسوف ومن كبار العلماء بالعربية، تنقل بين شيراز وسمرقند، وعاصر تيمورلنك. له نحو خمسين مصنفاً في الفرائض، والمنطق، والحديث، والهيئة، وغيرها من العلوم. وكتاب «المواقف» الذي شرحه هو للعضد الإيجي، وقد مرّت ترجمته.
أنظر حول الجرجاني: محمد بن عبد الحي اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية. مصر ١٣٢٤ هـ/١٢٥. الأعلام جـ ١٥٩/٥ ـ ١٦٠.

واستفاد المحبي أيضاً من الشيخ «أحمد بن حسن البياضي» (المتوفى ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٦ - ١٦٨٧ م). وكان قاضي القسطنطينية آنذاك، ثم وليّ قضاء العسكر بروم ايلي. ويصفه المحبي بأنه «أجمع علماء الروم لفنون العلم والشهير بالفقه، وفصل الأحكام». ويبالغ المحبي فيصفه بأنه رآه «جبلاً من جبال العلم»[1]. كما لزم المولى «أحمد بن نور الله البولوي» (المتوفى ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م) قاضي القدس الشريف، وأحد ملازمي أستاذه «محمد عزتي». وكان بحسب وصف المحبي له من أمثل فضلاء الروم في معرفة فنون الأدب واللغة، وأرواهم للشعر العربي، وأحفظهم للوقائع والأخبار. وكان متقناً للفقه والفرائض، والأصول، وجمع إلى تحقيق العجم فصاحة العرب. وقد قرأ عليه أصول الفقه، وتلقى منه الفرائض والعروض ورسالة الربع[2].

ومن علماء الروم أيضاً الذين استمع إليهم المحبي، أو حضر بعض مجالسهم، «حسن بن أحمد الرومي الشهير بأمي سنان زاده» (المتوفى ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧ - ١٦٧٨). وكان خلوتياً كالمحبي «وفرد وقته في المعارف الإلهية»، ولأهل الروم فيه اعتقاد عظيم، حتى السلطان محمد الرابع نفسه (١٠٥٩ - ١٠٩٩ هـ/ ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م). وكان يعظ في القسطنطينية بجامع السلطان محمد، وقد رآه المحبي، وأعجب بحلو عبارته وتواضعه[3].

وكذلك حضر أحد مجالس عالم الروم، وشيخ الإسلام «محمد الأنكوري» (المتوفى ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٧ م) الذي يصفه بأنه «لم يكن أفقه منه في العصر الأخير، ولا أحكم من رأيه في التقرير والتحرير». وقد اجتمع به «محمد الأمين» مرة في بستانه في ضواحي استامبول (قنليجه)، مع جماعة من فضلاء المدرسين والأدباء. وكان يقرأ في شرحه لكتاب «تنوير الأبصار» للتمرتاشي.

---

(١) أنظر ذلك في ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١/١٨١ - ١٨٢.
(٢) أنظر ذلك في ترجمته في المصدر نفسه جـ ١/٣٦٥ - ٣٦٦.
(٣) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/١٨ - ٢١.

وقد أبان في ذلك الشرح عن «فضل باهر واطلاع تام، وانتقد على التمرتاشي انتقادات أكثرها مسلّمة، لا مجال للخدش فيها»[1].

ولم تقتصر لقاءات المحبي العلمية على علماء أروام، وإنما سعى أيضاً إلى من قدم القسطنطينية من العلماء العرب، ومنهم العالم المغربي الجزائري الكبير «يحيى الشاوي المغربي» (المتوفى ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٤ - ١٦٨٥ م). وكان المحبي قد سمع عن علمه الغزير، والمتنوع، ولا سيما في التفسير، والحديث، والفقه، والمنطق، والنحو، والمعاني، والبيان. فالتمس منه القراءة، فأذن له، ولجماعة من أهل دمشق وغيرها من البلدان، كانت مقيمة في عاصمة الدول العثمانية آنذاك. وقد قرأوا عليه «تفسير سورة الفاتحة من البيضاوي مع حاشية العصام»، و«مختصر المعاني»[2] مع حاشية «الحفيد»[3] و«الخطائي»[4]، و«الألفية»، وبعض شرح «الدواني»[5] على «العقائد العضدية»[6] . وثبت للمحبي بعد حضور دروس هذا العالم، بأنه حقاً لآية باهرة في كل ميدان، وقرظ منطقه ومحاكمته فهو «إن جرت الحروف على وفق لسانه، وفق بين المعقول والمنقول، وإذا ناظر عطل من مجاريه مجاري الأنفاس، واستنبط من بيان منطقه علم الجدل والقياس». وهكذا متّن المحبي ثقافته السابقة في علوم

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٤/٣١٤ - ٣١٥.

(٢) هو «المختصر في علم المعاني والبيان» لسعد الدين التفتازاني المتوفى ٧٩٣ هـ/١٣٩٠ م (ترجم سابقاً).

(٣) هو «محمد بن أحمد التلمساني» المعروف «بحفيد ابن مرزوق» (٧٦٦ - ٨٤٢ هـ/ ١٣٦٤ - ١٣٤٨ م) عالم بالفقه والأصول والحديث والأدب. ولد وتوفي بتلمسان. له عدة تصانيف في أبواب شتى. الأعلام جـ ٢/٢٢٨.

(٤) لم يعثر على ترجمة له. ولكن وردت اشارة اليه في كشف الظنون ج١/ ٤٧٥ تذكر اسمه وهو «نظام الدين عثمان الخطايي» المتوفى ٩٠١هـ/ ، وأن له حاشية على المختصر للتفتازاني، وهي حاشية لطيفة ومشهورة متداولة.

(٥) هو محمد بن أسعد الصديقي الدواني جلال الدين (٨٣٠ - ٩١٨ هـ/ ١٤٢٧ - ١٥١٢ م). قاض وباحث، عاش في فارس. له عدة تصانيف منها «شرح العقائد العضدية». الأعلام جـ ٦/٢٥٧.

(٦) العقائد العضدية كتاب في علم الوضع لعضد الدين الايجي المتوفى ٧٥٦ هـ/١٣٥٥ م (ترجم سابقاً).

الحديث، والتفسير، والمنطق، وعلم الكلام. وقد أجازه أستاذه المغربي الجزائري، هو والجماعة التي درست عليه، إجازة شعرية، هي صورة لطيفة من الإجازات الشعرية الشائعة آنذاك. وكان نص ما خصّ المحبي منها الأبيات التالية[1] :

«الحمد لله الحميد، والصلاة والسلام على الطاهر المجيد، وعلى آله أهل التمجيد،

أجَزْتُ الإمامَ اللَّوْذَعِيَّ المُعَبِّـرا	أميناً أمينَ الدينِ روحـا مصوّرا
سليلَ محبُّ الدِّين، بيتُ هدايةٍ	وبيتُ منـارِ العلمِ قِدْمـاً تقرَّرا
بإقرائه متنَ البخاريَ الـذي به	تقـاصر عَنـه من عَـداهُ وقصَّـرا
موطّا شِفاءِ[2] والشفاءَ كمسلمٍ[3]	إذا مُسْلِمـاً تقريـه حقّاً تصـدَّرا
وباقي رجالِ النقلِ حقّاً مبيِّنـاً	وتفسيرَ قولِ الله في الكلِّ قرّرا
أَجَزْتَ المسَمَّى البدرَ في الشرعِ كلِّه	كما صحَّ لي، فاترك مراه تكدَّرا

---

(١) أنظرها في ترجمة «يحيى الشاوي» في خلاصة الأثر جـ ٤/٤٨٦ - ٤٨٨، ص ٤٨٧ - ٤٨٨. وله ترجمة أيضاً في نفحة الريحانة جـ ٥/٤٥ - ٤٨.

(٢) الموطأ: هو مصنّف «مالك بن أنس الأصبحي» إمام أهل المدينة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. توفي عام ١٧٩ هـ/٧٩٥ م. وإلى مالك ينسب المذهب المالكي، والمالكية.
أنظر الأعلام جـ ٦/١٢٨، وما ورد عنه من مصادر.
الشفاء: هو «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» لمصنّفه: عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي، المتوفى بمراكش عام ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م. كان محدثاً وفقيهاً وشاعراً، وقاضياً، ونسابة ومؤرخاً.
أنظر وفيات الأعيان جـ ٣/٤٨٣. الأعلام جـ ٥/٢٨٢.

(٣) جاءت في خلاصة الأثر جـ ٤/٤٨٦ (لمسلم)، إلا أن المعنى لا ينطبق على الحقيقة، ولذا صححت من «نفحة الريحانة» جـ ٥/٤٧. وبذلك يكون المعنى بأنه أجازه بإقراء الشفاء، كإقرائه «مسلماً»، أي كتاب «الجامع الصحيح» لمسلم أو «صحيح مسلم» للإمام «أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الشافعي» المتوفى ٢٦١ هـ/٨٧٥ م. وهو أحد الصحيحين اللذين جمعا أحاديث رسول الله ﷺ، وثاني كتب الحديث الستة. وقد جمع فيه اثني عشر ألف حديث كتبها في خمس عشرة سنة.
أنظر الأعلام جـ ٨/١١٧ - ١١٨.

وعلمَ كلامٍ خالياً عن أكاذب الـ ـفلاسفةِ الضلَّالِ والعدْلُ نُكْرا
أقـولُ لِكـلِّ فلسفيٍّ يـدينُـه ألا لعنَـةُ الـرحمنِ تعلو مُـزَوِّرا
أجبريلُ فَلَكٌ عاشرٌ[1] يا عِداتنا أعـاديَ شـرعِ اللهِ نِلتُمْ تحيُّـرا
بـأي طريقٍ قُلْتُم عُشْرَ عَشْـرَةٍ ونفيَ صفـاتٍ والقديمَ تحجُّـرا
حكمتم على الرحمن حِجرا[2] محجَّراً ومُتْعُكُم[3] خَلْقَ الحـوادث دَمَّرا
أبْري الحبيب اللوْذَعيَّ عن الردى مجازاً بدين الشرْعِ كُلَّا مُحرَّرا
ولكن عليه النُّصْحُ والجِدُّ والتقى وإن نـاله أمْـرُ القضـاءِ تصبَّـرا
حماهُ إلهُ العرشِ من كلِّ فتنةٍ ونجّـاهُ من أسْواءِ سـوءٍ تَسَتُّـرا
وصـلِّ وسلِّمْ بُكْـرةً وعشيَّـةً على مَنْ به حـيُّ القلـوب تحيّرا

والظاهر أن المحبي في القسطنطينية، شأنه شأن كل غريب، كان يحنّ إلى ملاقاة أبناء وطنه، وكانت الجالية الدمشقية أو الشامية والعربية بعامة تسعى إلى التواصل دائمًا لتتذاكر أخبار الوطن، والأهل، والأحداث، كما هي حال الغرباء من موطن واحد. ومن ثمَّ، فإنه عـاود اتصالـه بمحمد «البخشي الحلبي» الذي تعرف به في أدرنة، وكان يجتمع به في غالب الأوقات، وينتفع من مذاكراته[4]. وكذلك تابع لقاءه بالشريف «أحمد بن زيد» وقضيـا مع بعضهما أياماً جميلة وتطارحا الشعر، ومدح المحبي صديقه الشريف بقصائد مطوَّلة[5]. بل إن حب مؤرخنا للشعر، وقرضه له، ولهفته الشديدة لتقصي أخبار العرب الخلَّص وأشعارهم، وشوقه لتعرف شعراء عصره وأخبارهم،

---

(١) يشير هنا إلى قول الفلاسفة بوجود عشرة أفلاك، تسع مفصّلة ذواتها جُمَلٌ، وواحد أول مفرد هو العاشر.
أنظر ابن خلدون. المقدمة/٥١٥.
(٢) الحِجْر: العقل، لأنه يحجر الإنسان عما لا يليق به.
(٣) في نفحة الريحانة جـ ٤٨/٥ (ومنعكم) إلا أن المعنى ينسجم مع ما ثبت أعلاه، فالمُتْع: هو المكاذبة. أي أن مكاذبتكم في «خلق الحوادث».
(٤) خلاصة الأثر جـ ٢٠٨/٤.
(٥) المصدر نفسه جـ ١٩١/١ ـ ١٩٦.

دفعه لعقد الصلة مع الشاعرين العربيين «عبد الباقي المعروف بابن السمان الدمشقي»[1] (المتوفى ١٠٨٨ هـ/١٦٧٧ م)، و«عبد الله بن محمد الحجازي الشهير بابن قضيب البان الحلبي الحنفي»، (المتوفى ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م)[2].

أما الأول، فكان أديباً، له اطلاع تام على أشعار العرب الخلّص، وأيامهم، وأمثالهم، وله تصانيف كثيرة في فنون متنوعة، وقد ساح كثيراً في البلدان حتى وصل خبره إلى السلطان العثماني في استامبول، فاتخذه نديماً. ثم أعطي مدرسة بقسطنطينية، فألقى رحله بها، وتقرب إليه كبراؤها، ومنهم «محمد عزتي» نفسه أستاذ المحبي. واجتمع معه مؤرخنا، في ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م، عند دخوله إليها، وهو يدرس بالفتحية إحدى مدارس القسطنطينية برتبة موصلة الصحن «واتحد معه اتحاداً لم يتفق له مع أحد غيره» باعتراف المحبي وتعبيره. وكان يقضي معه النزهات الطويلة، ويحضر معه دروس الشيوخ من الأروام، ومنها دروس الشيخ «محمد الشهير بالأنكوري» (المشار إليها سابقاً). وكانا يتطارحان الشعر وأخبار العرب، فكلاهما شاب وشاعر ومستقص لأنباء القوم. إلا أن المنية عاجلت الصديق الشاب واخترمت عوده الغض وهو لا يزال في الرابعة والثلاثين من العمر. ولم ينعم المحبي بصحبته سوى سنة واحدة، ولكنه ظل أميناً لذكراه، لما شاهده من محبته وصدقه وجميل صنائعه له[3].

أما «ابن قضيب البان الحلبي»، فكان شاعراً، ومنشئاً بليغاً، وبالألسنة الثلاثة. وقد عمل قاضياً، وقربه الصدر الأعظم «أحمد الفاضل» إليه، وصيَّره نديم مجلسه الخاص، إلا أنه ما لبث أن غضب عليه، فانزوى في القسطنطينية خمسة أعوام. وخلال فترة انزوائه التقى به المحبي، ومدحه بقصيدة شعرية طويلة، «ولازمه لزوماً لا انفكاك معه»، وجرت بينهما مساجلات شعرية طويلة

---

(١) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٨٣. ونفحة الريحانة جـ ١/ ٢٣٥ ـ ٢٥٣.
(٢) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٣/ ٧٠ ـ ٨٠.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢/ ٢٧١.

ومحاورات عجيبة ـ بحسب قول المحبي ـ[1].

ومن الشعراء الذين التقى بهم وهم من أرض الوطن أيضاً، «أسعد بن عبد الرحمن البتروني، الحلبي» (المتوفى ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢ م) الذي سلك مسلك قضاة الروم حتى وليّ إفتاء الحنفية بحلب، وكان فاضلاً أديباً، حسن الهيئة، فكهاً، لطيفاً، طيب المحاورة، شريف النفس، متواضعاً، وإضافة إلى ذلك شاعر مطبوع، إلا أن أغلب شعره في الهجاء. وقد لزم المحبي مجلسه، وكان شغوفاً بحديثه ومؤانسته، حتى إنه مدحه بقصيدة طويلة[2].

ومن الأخوان الذين زاملهم أو ودهم في بلاد الروم أيضاً «عبد الحليم البهنسي الدمشقي» (المتوفى ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ ـ ١٦٨٠ م) والمعروف «بابن شقلبها». وكان من «المتضلعين في فنون شتى، ولكن أغلب اشتهاره بالفقه». وقد اجتمع به المحبي كثيراً، ولكنه لم يشعر ـ على ما يبدو ـ بود كبير له بدليل قوله عنه: «وكان على ما شاهدته من أطواره أحد عجائب المخلوقات لا يستقر في أمر المشرب على حال»[3].

وكذلك محمد بن عمر الخوانكي[4]، وهو أديب مصري، وزين الدين البصري[5]، وعبد الرحمن المجلد[6]، وأبا الاسعاد بن الشيخ أيوب[7] والسيد أبا المواهب سبط العرضي الحلبي[8].

---

(١) جـ ٧٣/٣.

(٢) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ١/٣٩٩ ـ ٤٠٢. ونفحة الريحانة جـ ١/٦٠٢.

(٣) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٢/٣١٩.

(٤) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ ٤/٦٤٧ ـ ٦٤٩.

(٥) قد يكون هو زين العابدين بن أحمد البصروي المتوفى ١١٠٢ هـ. وقد ترجمه في نفحة الريحانة جـ ١/٤٢٠ وله ترجمة في سلك الدرر جـ ٢/١٢٠.

(٦) هو عبد الرحمن بن محيي الدين السليمي الحنفي المعروف بالمجلد الدمشقي. ولد بعد ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١ وتوفي ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧ ـ ١٧٢٨م. عالم نحوي وزاهد. انظر المرادي: سلك الدرر ج٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٧) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ ١/٥٥٦ ـ ٥٥٩. وفي سلك الدرر جـ ١/٦٣ ـ ٦٥. وقد قال عنه: «وبيني وبينه موالاة محققة، وعقود موثقة، وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غبّ القطر مفتقة».

(٨) ورد ذكر أولئك الزملاء في ترجمة «يحيى الشاوي المغربي» في خلاصة الأثر ج٤/٤٨٧.

ومن الشذرات السابقة من حياة المحبي في عاصمة بلاد الروم، يتبين أنه قد ملأ وقته بمتابعة العلم، وكسب الأصدقاء، وتنمية ميوله الشعرية، حتى إنَّه اتجه إلى الشعر الفارسي والتركي أيضاً، فقرأ منها الكثير، إذ كان يتقن اللغتين التركية والفارسية اتقاناً جعل مادحيه يقولون فيه: «جهبذ الألسن الثلاث ففي كلَّ لسان لهنَّ يبدي فنوناً»[1]. وعرب بعضها[2]، وبينّ الفرق بين الشعر التركي والعربي، وجمع حصة كبيرة من الشعر الأول[3] وتسقط أخبار شعراء الروم المعاصرين له. فعندما سمع مثلاً عن الشاعر التركي «سليمان البوسنوي» الذي كان أحد بلغاء شعراء الروم، رغب في الاجتماع به لكنه لم يستطع لذلك سبيلاً إذ توفي هذا الأخير قبل أن يتم له ذلك. وقد خصص فصلاً خاصاً في كتابه نفحة الريحانة[4] لشعراء الروم الكبار، وخصّ بعضهم بتراجم في خلاصة الأثر[5].

وإذا كان المحبي قد أخذ من عديد من العلماء وهو في بلاد الروم، واحتك بعدة شعراء فإنه من المؤكد قد قضى شطراً كبيراً من وقته في مطالعة الوفير من الكتب باللغتين العربية والتركية، ولا سيما تلك التي أشار إليها في مقدمة كتابه «خلاصة الأثر»، بصفتها موارد لكتابه؛ كما عمل على الاطلاع على كثير من المجاميع، واستعمق في كتب العرب الأوائل. ولا بد أنه خلال مطالعاته، كان يدون ـ كما أشار هو أكثر من مرة ـ كل ما يراه هاماً في ميدان

---

(١) ذيل نفحة الريحانة/٤٣٤.

(٢) أنظر تعريبه لبعض الشعر الفارسي في خلاصة الأثر جـ٣/٢٧٤. ونفحة الريحانة جـ٣/٢٢٥ ـ ٢٢٧. أما تعريبه للشعر التركي فانظر المصدر الأخير نفسه/٧، ٩٩، ١٢٨، ١٣٠ ـ ١٣٨.

(٣) أنظر خلاصة الأثر جـ١/١٩٧. ترجمة المولى «أحمد بن المنلا زين الدين العجمي المعروف بالمنطقي».

(٤) أنظر جـ٣/٥ ـ ١٣٨ (الباب الثالث في نوابغ بلغاء الروم).

(٥) أنظر على سبيل المثال ترجمة «عبد الباقي» شاعر الروم جـ٢/٢٨٧ ـ ٢٨٩، و«عبد الحليم» المتخلص بحليمي جـ٢/٣٢٤ ـ ٣٢٥. و«عمر نفعي» جـ٣/٢٢٨ ـ ٢٣٠. وسليمان البوسنوي جـ٢/٢١٣.

الشعر، والأدب، والتاريخ، والجغرافية، وعلوم اللغة العربية، وغيرها من ميادين المعرفة، بدليل ما يحمله كتابه منها من غزير المعلومات، وعمق الثقافة.

وقد يُتساءل، في نهاية المطاف من المرحلة الثانية من حياة المحبي، هل قضى المحبي السنوات الست من حياته في القسطنطينية، ولا عمل له سوى تعاطي العلم، وأخذه من مظانه، والتعرف بأربابه، والمناقشة في أموره؟ وهل انتسب للمدارس العثمانية المعروفة في العاصمة؟ أو هل سعى للتدريس في بعضها؟ لا يجيب المحبي بشكل صريح على أي من تلك التساؤلات، بل ولا يشير إلى شيء من ذلك، إلا ما ذكرناه سابقاً بأن أستاذه «محمد عزتي» كان قد أوكل إليه، عندما كان قاضي عسكر، مدرسة «خوجة خير الدين». إلا أنه يستشم من بعض إشارات عابرة، بأنه قد سلك مسلك قضاة الروم، أو بتعبير آخر سعى للدراسة في مدارس التأهيل لمناصب القضاء المشار إليها آنفاً. إذ يذكر في ترجمته لأستاذه «محمد بن لطف الله» (محمد عزتي)، بأنه كتب إليه قصيدة «يستدفع به ما نابه من سلوك طريق القضاء، ويرجوه في تخليصه من هذه الورطة قبل أن يتولى منصباً»[1]. ولعله خلال هذا الطريق كان اجتماعه ببعض علماء الروم، الذين أشرنا إليهم، والذين كانوا يدرِّسون بالمدارس الثمان أو الموصلة إليها. فالمحبي سعى إذاً لسلوك طريق القضاء فعلاً، وقطع شوطاً فيه، بدليل ترقبه لتعيينه في منصب من مناصبه. إلا أنه بالتالي، لم ينسجم معه، ولعلّ لميوله الشعرية، دخلاً في نفوره منها، وإحساسه بالعنت والضيق منها. وفي ذلك يخاطب أستاذه قائلاً[2]:

وإذا نابَ امرأً جهدُ القضا ... فإلى سُدّتِه منه الفرار
لك أنْهي نُوَباً من بعضِها ... يُذْهل اللبُّ وذو العقل يحارْ
حلّ بيَ الشيْبُ فأفنى رونقي ... وكذاك البدْرُ يَعْلوهُ السِرارْ

---

(١) جـ ٤/١٤٠.

(٢) المصدر نفسه/١٤١.

فـأغشْني من كروبٍ في الحَشـا حُرَقٌ منها، وفي الطَرْفِ انكسارْ

ولكن إذا كان المحبي لم يبغ منصباً قضائياً، فإنه طلب من أستاذه أن يشفع له لدى شيخ الإسلام، بملازمة على مدرسة في بلاد الروم. ولعلّه نال بغيته، أو لعلّه لم تمتعه الظروف بذلك، لوفاة أستاذه، الذي قضى في الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٠٩٢ هـ/٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٨١ م. وفي الواقع، لقد كان موت أستاذه صدمة كبيرة له، على الرغم من أنه كان مدركاً بأنه مريض منذ مدة ويشكو آلاماً عديدة. إلا أن تعلقه الشديد به أشعره بغربة قاسية بعد افتقاده ولذا فإنه لم يبق في القسطنطينية بعد وفاته إلا يوماً واحداً فقط(١).

---

(١) المصدر نفسه/ ١٤٢.

المرحلة الثالثة من حياة المحبي

(١٠٩٢ - ١١١١ هـ/ ١٦٨١ - ١٦٩٩ م)

ومدتها تسعة عشر عاماً هجرياً. وقد قضى المحبي الجزء الأكبر منها في موطنه دمشق، وجزءاً منها في التنقل بينها وبين الحجاز، ومصر. وإذا كانت المرحلتان السابقتان من حياته قد اتصفتا بأخذ المحبي للعلم والأدب من مختلف مواردهما، وبجمع المأثور، واختزان الكثير منهما، فإن هذه المرحلة الأخيرة كانت مرحلة النضج والعطاء.

غادر المحبي القسطنطينة في الخامس عشر من شهر شوال عام ١٠٩٢ هـ/٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٨١ م، وهو في الثلاثين من عمره، أي في نضارة الشباب إلا أنه كان يحمل على كتفيه - كما يبدو - كثيراً من الهموم والأحزان، فهو ما زال «أليف حزنه، وكئيب مصابه» لفقدانه معلمه الكبير. وقد صحبه في طريق العودة الأديب «عطاء الله العاني»، ويقول عنه المحبي: «فاجتنيت من مفاكهته روضاً أُنُفاً، وعلّقتُ في جيد أدبي وأُذُنِه قلائد وشُنُفاً»(١). والظاهر أن أساه هذا قد جعله ينطوي على نفسه، ويخلو إليها، ويعتزل الناس، وهو المعتنق للطريقة الخلوتية، والأليف لمضمون الخلوة. كما أن اهتماماته العلمية والأدبية التي انصرف إليها، وكرّس لها كل صباه ومقتبل

(١) أنظر ترجمته في ذيل نفحة الريحانة/٣٥١ - ٣٥٦ وسلك الدرر جـ٣/٢٦٢ - ٢٦٥. الطباخ: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٧ أجزاء. حلب ١٣٤٢ - ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٣ - ١٩٢٦ م. جـ٦/٤١٩ - ٤٢٢ وأشار إلى أنه توفي حوالي ١١١٠ هـ/١٦٩٨ م.

شبابه، قد عودته الانصراف عن متع الحياة. إذ لا تفيدنا المصادر عن زوج له أو ولد، مع أنه من المعروف في ذلك العصر، أن الشباب كانوا يتزوجون مبكرين[1]. ويضاف إلى ذلك غربته الطويلة عن الأهل، والخلّان، والوطن، مما جعله يحسُّ بالوحشة في مطلع عودته، ولا سيما أن الأجواء التي لاقاها بدت متقهقرة إلى سوء. وقد وصف المحبي نفسه عند عودته وصفاً نفسياً شائقاً بقوله: «رأيْتُ الدهرَ عانَدَني في الديارِ والأحباب، وكَساني المشيبَ قبل أن أعرف مقدار حقِّ الشباب. وقد ولَّتني الثلاثون أذنابها وصبَّت عليَّ المصائبُ ذُنابهَا. وغاب هلالُ الصِّبا في مغاربه، وألقيتُ حبلَ الصِّبا على غاربه. بعدما كان ذَرعي عن هموم الأثر خالياً، وحالي ببُرْدِ العيشِ حالياً. فَرَميتُ الشّامَ بعزمة المُنْتاب، وقد رضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ. فحلَّيتُها في عصرٍ ذهب رُواؤه، وفرغ من المعارف إناؤه. وعَضُدُ الأدب هَيْض، وثَمَده بعد هُنَيْئَة غَيْض. حتى تقلَّصتْ ذيول ظِلالِه، وبكت عيونُ المنى على أطْلالِه. والناسُ إمّا ساكتٌ أُلْفاً، أو ناطقٌ خلْفاً. ولزمتُ كِسْرَ البيت، وسكنتُ سكون الميت. متكفكفاً بما في يدي، ومستدْفعاً ليومي وغدي. وأنا في الدنيا الموصوفة بالنَّضارةِ، من جُملة النَّظّارة. أرمقها يَمْنة ويَسْرة، فلا أرى إلا هماً وحسرة. ولا أراني إلا كاسفاً مُعنًّى، وكأنني لَفظٌ بلا معنى. فزمان فرحي أقصرُ من التفاتِ الحبيب، وتلفُّتي للسَرّاء تلفُّتُ المريضِ للطبيب في أوقاتٍ أثقل من الحديث المُعاد، وأطول من عُمْرِ الانتظار لوقت الميعاد»[2].

وقرر المحبي، وهو في خلوته تلك أن يجمع أوراقه، وينصرف إلى التأليف. وقد تابع وصفه لنفسه قائلاً: «لا سميرَ لي أوانسه، ولا جليسَ عندي

---

(١) هناك بيت شعر واحد ورد في قصيدة له يمكن أن يستشم منه بانه كان له أولاد أو أسرة خلّفها في دمشق عند انتقاله إلى بلاد الروم، وقد ذكر سابقاً، وهو:

فخلَّفْتُ الديارَ ومن عَلَيْها ... وفارقتُ الأحبَّةَ والعيالا

ومع ذلك تبقى الإشارة غامضة.

(٢) نفحة الريحانة جـ ١/٩.

أجالسه، سوى أوراقٍ مزّقتْها الريح، وفرّقتْ شملَها التباريح. التقطتها كلٌ واحدة من بُقعة، وجمعتُها من كل رقٍّ رُقعة»[1].

إلا أن عزلته على ما يظهر لم تكن تامة، إذ أنه عاد لتتبع وفود العلماء إلى دمشق، والسعي إليهم. ومن هؤلاء «محمد بن محمد بن سليمان الروداني المغربي» الذي ورد إلى دمشق عام ١٠٩٤ هـ، وتوفي فيها، في العام نفسه وفي العاشر من ذي القعدة/٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٨٣م. وكان كما عرّفه المحبي: «فرد الدنيا في العلوم كلِّها». وقد اجتمع به ثمة مرة، وبرفقة المولى أحمد بن لطفي المنجم، و«رأى فيه مهابة العلم وحلاوة المنطق»[2].

كما كان له أصدقاؤه وخلّانه، ومعظمهم من الشعراء الذين ترجم لهم في النفحة، من أمثال «إبراهيم بن محمد السفرجلاني»[3] الذي قال فيه: «وهو حَليفي الذي ارتبطْتُ معه على ودٍّ مؤثَّل، وأليفي الذي شخصُه نأى أو دنا، في عَيْني ممُثَّل. ما زلت في حبِّه متصل العلائق، وكلانا على المودَّةِ مصفًّى الخلائق»[4]. و«عبد الباقي بن مغيزل»[5]، و«أحمد بن عبد الله العطار المعروف بابن جَدِّي»[6] الذي قال عنه: «وبيني وبينه أخوَّةٌ أواخيها مشدودة، وأبوابُ

(١) المصدر نفسه/١٠.

(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤/٢٠٤ ـ ٢٠٨.
يشير المرادي في سلك الدرر جـ ٤/٨٦، في ترجمته لمحمد الأمين المحبي، بأن محمد بن سليمان المغربي قد أجازه بمروياته، إلا أن المحبي لا يشير إلى ذلك. ولعلّ المرادي توهم الأمر، فأسند ما ورد في الترجمة عن إجازة «عيسى المراكشي» لمحمد المغربي بجميع مروياته، للمحبي، إذ كانَ «محمد بن سليمان المغربي» هو المتكلم لا «المحبي».

(٣) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ ١/٤٧٩ ـ ٤٩٥. وسلك الدرر جـ ١/١٥، ووفاته فيه عام ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م.

(٤) نفحة الريحانة جـ ١/٤٨٠.

(٥) أنظر ترجمته في المصدر نفسه/٤٩٦ ـ ٥٠٣. وسلك الدرر جـ ٢/٢٣١، وقد توفي عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٦ م.

(٦) أنظر ترجمته في المصدر نفسه/٥٠٤ ـ ٥٠٩. وسلك الدرر جـ ١/١٢٨ ـ ١٣١. توفي عام ١١٢٦ هـ/١٧١٤ م.

التمويهاتِ عنها مسدودة»[1]. وكثيرون غيرهم، ممن أشار إلى صحبته لهم أثناء ترجمتهم في ذيل نفحة الريحانة.

ولا يعرف تماماً أي مؤلفاته ابتدأ المحبي بتدوينها قبلاً بعد عودته من استامبول. أما بالنسبة لكتابيه الكبيرين «خلاصة الأثر» و«نفحة الريحانة»، فيبدو أنه قد عمل فيهما تسويداً معاً، وأنه قد انتهى من التبييض الأول لخلاصة الأثر في عام ١٠٩٦ هـ/١٦٨٦ م[2]، بينما بيّض «نفحة الريحانة» بعد تسويدين، وهو في مصر[3] أي ليس قبل عام ١١٠٤ هـ/١٦٩٣ م. ومع ذلك، يتبين من ترجمته لنفسه بأنه ابتدأ بالعمل بنفحة الريحانة منذ قدومه إلى دمشق، واختلائه بورقه[4] . إلا أنه اصطدم بنقص في بعض تراجمه ومصادره عن أهل الحجاز واليمن[5] ، فقرر بما عرف عنه من حب الاستقصاء والتدقيق، أن يزور تلك البقاع، ويستقي معطياته من الميدان المباشر، ويوازن بين ما وصله من أنباء، وما يشاهده ويسمعه.

وسافر أول ما سافر إلى الحجاز، للحج، وللحصول على ما يريد في آن واحد، وكان ذلك في خاتمة القرن الحادي عشر للهجرة، إذ يشير إلى أنه كان مجاوراً في أواسط سنة مائة وألف، (١١٠٠ هـ/١٦٩١ م)، حيث أجازه مشافهة «عمر بن السيد سالم بن شيخان» برواية جميع ما لوالده[6] .

---

(١) نفحة الريحانة جـ ١/٥٠٤.

(٢) أوضح المحبي ذلك في ترجمته «لفضل الله العمادي» جـ ٣/٢٧٥. فقد قال: «ومن غريب ما اتفق لي في هذا التاريخ (أي تاريخ وفاة فضل الله العمادي، وهو في ٢٥ رجب ١٠٩٦ هـ/٢٧ حزيران (يونيه) ١٦٨٥ م)، أنني لما بيضت منه التبييض الأول، كنت وصلت في تبييضه إلى هذا المحل، وشغلتني العوائق أياماً عن تبييض شيء منه، مع أنه لم يعهد لي ذلك، حتى مات صاحب الترجمة فأدرجته في محله الذي يذكر فيه».

(٣) نفحة الريحانة جـ ١/١٨.

(٤) المصدر نفسه/١٠ ـ ١١.

(٥) المصدر نفسه/١٣.

(٦) خلاصة الأثر جـ ٢/٢٠٢.

وفي الحجاز التقى المحبي بكثير من الشيوخ، والأدباء، والعلماء، «من كل إمام شابَ رأسُ المصابيح وما رأتْ له عديلاً، وخطيبِ تقوّس ظهرُ المحاريب وما وجدت له بديلاً. وحكيمٍ يبرأ به الزمان من مرضه، وشاعرٍ يجُري حياة النفوس في غَرَضه»[1] . وبعضهم كان من اليمن، وبعضهم من مصر، وجماعة من المغرب، وكثيرون من الحجاز، فأخذ ما يبغيه من معلومات وشعر منهم. وطُلب إليه، وهو في مكة أن يكون نائباً لقاضيها، ففعل. وهكذا لم يضع المحبي وقته عبثاً في الديار المقدسة، بل إنه إضافة إلى عمله في القضاء، وسعيه الحثيث لجمع المعطيات عن علماء الحجاز واليمن وأدبائهما، ولا سيما المعاصرين له منهم، فإنه تابع أخذه العلم ممن لقي في الحجاز من العلماء الكبار، من أمثال «حسن العجيمي المكي»[2] (المتوفى عام ١١١٣ هـ/١٧٠٢ م)، و«أحمد النخلي»[3] (المتوفى عام ١١٣٠ هـ/١٧١٧ م)، الذي أجازه بكل مروياته[4]، وإبراهيم الكوراني[5] (المتوفى عام ١١٠١ هـ/ ١٦٩٠ م)، والثلاثة توفوا في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، ولذا فإن المحبي لم يترجم لهم في كتابه خلاصة الأثر كما فعل مع مشايخه الآخرين، إلا أنه ترجم للشيخين الأولين في نفحة الريحانة، معاً، وقال عنهما: «وهنا أذكر لي شيخين، وعَلمَينْ في العلم راسخين، أخذت عنهما، واستفدت منهما، كلٌّ منهما في ذلك الأفقِ قمر باهر السناء والسنا، وقصده أسنى قصدٍ توخاه المدح والثناء هدايته متكلفة بإحياء علوم الدين، وإرشاده يتولى منهاج

---

(١) نفحة الريحانة جـ ١/١٤.

(٢) أنظر ترجمته في الأعلام جـ ٢/٢٢٣، وكان من العلماء بالحديث، وله عدة مصنفات، وهو يماني الأصل.

(٣) أنظر ترجمته في محمد عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات مجلدان. فاس ١٣٤٦ - ١٣٤٧ هـ. جـ ١/١٨١. والأعلام جـ ١/٢٣٠. وانظر ثبت مشيخته في المخطوط في المكتبة الظاهرية تحت الرقم ٦٩٣٨.

(٤) خلاصة الأثر جـ ٤/٤١. ترجمة (محمد الشمس البابلي) حيث قال: «عندما أجازني بجميع مروياته في حرم الله الأمين يوم الأربعاء ثاني ذي الحجة سنة إحدى ومائة وألف».

(٥) أنظر ترجمته في سلك الدرر ١/٣٥. الشوكاني: البدر الطالع ١/١١. الأعلام ١/٢٨.

العابدين»[1] . ودعاؤه بظهرِ الغَيْب عُدَّة وعَدَد، وبِرُّه حالَيْ الظعنِ والإقـامة مُعْتَمل مُعْتَمد، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أَمَد. وردتُ منها حضرةَ الأنوار المُفاضة، وجعلت قَصْدَهما بحجَّة سَفَري طواف الإفاضة. فأرياني من الجدِّ ما لو كان بظُبة صارمٍ ما بنا له غِرار، ومن البِشْر ما لو سال بصَفْحةِ البدرِ ما خيفَ عليه سِرار. فلله هما قد خَلُصا للناقِد، ورَفلا في أُزُرٍ من الحمد طيّبةِ المعاقد. ولِلْعَهْدِ أنا لستُ أنسَاهما فأذكرهما، وإذا ذكرتهُما فكلِّي ألسِنةٌ تحمدهما وتشكرهما وبهما أرجو من الله حُسْنَ المتـاب، وأن أكون مّمن تنـاول بيمينه الكتاب»[2] .

أما «إبراهيم الكوراني»، وكان عالماً كبيراً بالحديث، ومن أبرز فقهـاء الشافعية في عصره، ومن المتقنين للغات الثلاث العربية والفارسية والتركية، فإن المحبي لم يترجم له في أي واحد من كتابيه، إلا أنه اعترف بمشيخته له، واتخذ أحد كتبه وهو «الأمم لإيقاظ الهمم» مصدراً من مصادره في خلاصة الأثر. وكان على صلة وثيقة به، إذ يذكر المحبي مهمة علمية كلفه بها أثناء وجوده في مصر فقال: «إن شيخنا العلامة إبراهيم الكوراني المدني أراد تحصيل رسالة للحافظ «ابن حجر العسقلاني»[3] فيها علّق الشافعي القول به على الصحة، وكانت موجودة عند «شرف الدين زكريا» من أحفاد القاضي زكريا الأنصاري المصري، فعـوّل عليّ لما تـوجهت إلى مصر في استعـارتها منـه وكتابتها، فلازمته لأجلها نحو شهـرين وهو يعتـذر إليَّ ولم يمكن تحصيلها منه»[4] .

---

(١) إن «إحياء علوم الدين» و«منهاج العابدين» من كتب حجة الإسلام «محمد بن محمد أبو حامد الغزالي» المتوفى ٥٠٥ هـ/١١١١ م.

(٢) نفحة الريحانة ٤/٣٢٥.

(٣) هو أحمد بن علي العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ/ ١٣٧٢ - ١٤٤٩ م) عارف بالأدب والشعر، ومحدّث كبير. له عدة مؤلفات منها «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة». أنظر ترجمته في السخاوي: الضوء اللامع جـ ٢/٣٦. الأعلام جـ ١/١٧٣ - ١٧٤.

(٤) خلاصة الأثر جـ ٢/٢٢٣. ترجمة «شرف الدين حفيد القاضي زكريا».

ولم يرتبط المحبي في الحجاز بأولئك العلماء الثلاثة فقط، بل كان على صلة مباشرة بمن ترجم لهم من معاصريه من الأدباء والعلماء، في نفحة الريحانة[1]. ومن أبرز من استفاد منهم «عبد الملك بن حسين العصامي»[2] (المتوفى ١١١١ هـ/١٦٩٩ م) وصاحب كتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي»، وكان يدرس في المسجد الحرام. وقد قال عنه:

«وقد صحبته أيام المجاورة، واغتنمتُ من نشوة المحاضرة والمحاورة.
في أوقاتٍ لا أحسِب من عمري غيرها، ولا أنسى مدة عمري خيرها ومَيْرَها،
وقد أخذتُ عنه من بدَعه، ومُخترعه في محاسن الشعر ومبْتَدعِه»[3].

و«مصطفى بن فتح الله»، (المتوفى ١١٢٣ هـ/١٧١١ م)، وهو حموي الأصل، إلا أنه أقام في مكة بعد رحلة قام بها إلى اليمن ليأخذ من أهلها، وهو مؤرخ وأديب[4]، وقد أخذ عنه المحبي كثيراً في تراجمه اليمنية. وكان على ما يبدو من أصدقائه الحميمين حيث قال عنه: «لقيته بمكة جوارَ الركنِ والحطيم، فكنت له مالكاً وكان هو لي عقيلاً، أرتاد له معرساً فيهيىء لي مقبلاً. وكانت عشرتي معه، فرشها المحامد، وخدمها الشاكر والحاسد»[5]. وقد تبعه المحبي إلى «الطائف» عندما ذهب إليها، ولاقى الهول ـ على ما يظهر ـ في طريق عودته منها[6].

= ويبدو بعض الاختلال الزمني في هذه الفقرة، إذ من المؤكد أن المحبي بقي في الحجاز حتى أواخر ١١٠١ هـ، ولم يسافر إلى مصر إلا في عام ١١٠٣ هـ على الأقل، أي أن «ابراهيم الكوراني» إذا ثبتت وفاته عام ١١٠١ هـ كما ترجم له، يكون قد توفي. فهل لاحق المحبي الموضوع وهو لا يعلم وفاة الكوراني؟

(١) أنظر جـ ٤/الباب السادس «في عجائب نبغاء الحجاز» ص ٥ ـ ٣٩٠.

(٢) أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ٣/١٣٩. والبدر الطالع ٤٠٢/١ ـ ٤٠٣.

(٣) نفحة الريحانة جـ ١٢٣/٤ حيث ترجمته تمتد حتى ص ١٢٨.

(٤) أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ١٧٨/٤. الجبرتي جـ ٧١/١ ـ ٧٢. الأعلام جـ١٤٠/٨. ونفحة الريحانة جـ ٤٦٨/١ ـ ٤٧٨.

(٥) نفحة الريحانة جـ ٤٦٨/١.

(٦) المصدر نفسه/٤٧٤ ـ ٤٧٥.

ومن الشخصيات السياسية ـ الأدبية التي التقى بها في الحجاز أيضاً، ورغب في الاستفادة منها مصدراً مباشراً، ولكنه لم ينجح، «الحسين بن عبد القادر بن الناصر»[1]، وهو من أسرة الأئمة الزيديين في اليمن، وكان قد خرج من بلاده إلى الحجاز لاجئاً من ظلم الإمام «محمد بن أحمد بن الحسن» (١٠٩٧ ـ ١١٠٩ هـ/ ١٦٨٦ ـ ١٧١٧ م)[2]. وقد سعى المحبي للاجتماع به إلا أنه اعتذر عن لقائه[3].

واجتمع أيضاً بـ «أحمد بن أحمد بن محمد الأنسي» من أدباء اليمن[4]، وكان هو الآخر فاراً من جور الإمام السالف الذكر، وقد عاشره المحبي[5]، وجرت بينه وبينه مطارحات شعرية ومدائح متبادلة.

وبعد الحجاز رغب المحبي في أن ينتقل لمصر، ليحقق فيها سمعه من أخبار علمائها وأدبائها، «وليسبر ذلك الجمع ويطابق بين العيان والسمع»[6]. ولكن لظروف لم يوضحها، واكتفى بالقول عنها «فمنعني حكم القضا الذي

---

(١) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ٣/٣٠٣ ـ ٣٢٥. والبدر الطالع جـ١/٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) أنظر ترجمته في الحسين أحمد العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام مصر ١٩٣٩ م ص٦٨ ـ ٦٩. البدر الطالع جـ٢/٩٧ ـ ١٠١. الأعلام جـ٦/٢٣٩.

(٣) يسوّغ المحبي الرفض تسويغاً نفسياً جميلاً عندما يشبهه باعتذار «عز الدولة بن صُمادح» (وهو أمير المرية وما جاورها من بلاد الأندلس، وابن المعتصم بن صمادح المتوفى ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م، الذي هاجمه «يوسف بن تاشفين»)، عندما رغب أحد الأدباء بمقابلته، وكان ردّه كما يلي: «أتعلم أنّا اليوم في خمولٍ وضيق، لا يتّسع لنا معهما، ولا يَجْمل بنا الاجتماع مع أحد، لا سيّما مع ذي أدب ونباهة، يلقانا بعين الرحمة، ويزورنا بمنة الفضل في زيارتنا، ونكابد من ألفاظ توجعه، وألحاظ تفجعه. ما يجدّد لنا هماً قد بلي، ويحيي لنا كمداً قد فني، وما لنا قدرة أن نجود عليه بما يَرْضى به عن همّتنا، فدعنا كأننا في قبر نتدرّع لسهام الدهر بدرعِ الصبر». نفحة الريحانة ج٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٤) أنظر حاشية (٢) من ص ٤٣ من هذه الدراسة.

(٥) وفيه قال: «وأما عشرتي معه فما زلتُ أذكرها، وبلسان الاخلاص أحمدها وأشكرها. فقد رأيت منه خِلاً طبعُه مصفّى، ومشربه من رِيق الشؤبوب أصفى». نفحة الريحانة جـ٣/٥٩٦.

(٦) نفحة الريحانة جـ١/١٥.

لا يقابل إلا بالرضا»[1]، لم يفعل، فعاد إلى دمشق، وقد يكون ذلك عام ١١٠٢ هـ/١٦٩٢ م.

وعاود في دمشق سيرته الأولى من الانعزال والتأليف. وفي ذلك قال: «عُدْتُ إلى مجموعي الذي انتحيت وطُلقي الذي إليه تَنحَّيْت فضممتُ إلى الأصل ما تلقَّيْتُه، وأثْبتُّ ما اخترتُه من الأشعارِ وانْتَقَيْتُه. وحُبِّب إليَّ الانعزال عن الناس، فلم أخالِطْهم في وحشةٍ ولا إيناس»[2]. وبقي على ذلك الحال حتى جاءه «زين العابدين البكري»[3]. العالم المصري الكبير، ليخرجه من انزوائه وكآبته. ولذت للمحبي صحبة العالم الجليل، والشاعر الأنيس، فقال عنه: «فاستخْرَجَني من مطمورةِ المنزل، وصيَّرني عن الهمِّ في معْزِل، وأطلق أملي وكان مَعْقولاً، وأعادَ خاطري بعد الصَّدأ مصقولاً. ففتَّقْتُ في أوقاته مَبْسَماً، واغتنمت للعمر الهنِّي موسِماً»[4]. وعندما طلب منه «زين العابدين» أن يرافقه للقاهرة، استجاب لدعوته وتهيأ للرحيل. إلا أن عائقاً ما، لا يذكر المحبي صفته بوضوح، أقعده عن ذلك: «فتخلَّفْتُ لعائقٍ خلَّفَني لولوعي وخلَّى بين الغرام وضُلوعي. ذاك ولوعٌ للمجْد لا لِنَجْد، وغرامٌ للعَلْيا لا للأفيا»[5]. وبقي المحبي في دمشق إلى أن قدم إليها المولى عبد الباقي بن محمد المعروف بـ «عارف»[6] وهو في طريقه للقاهرة قاضياً فيها. وكان المحبي قد اجتمع به في بلاد الروم مرات، وكان من علمائها وأدبائها العارفين بالعربية، والمهتمين

---

(١) نفحة الريحانة المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
(٢) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.
(٣) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ٤/٤٩٢ ـ ٥٢١. وفي الخطط التوفيقية جـ٣/١٢٥، ويسميه محمد أبو المواهب زين العابدين. وقد عاش بين (١٠٥٠ ـ ١١٠٧ هـ/ ١٦٤٠ ـ ١٦٩٥ م)، كما وردت إشارة إلى وفاته في سلك الدرر جـ١/١٥١، في ترجمة «أحمد بن كمال الدين البكري». ويظهر أن المحبي كان قد سمع عنه قبل وفوده إلى دمشق، وقد أسهم في استدعائه إليها برسالة أورد نصها في نفحة الريحانة جـ٤/٤٩٣ ـ ٤٩٥.
(٤) نفحة الريحانة جـ١/١٥.
(٥) المصدر نفسه/١٥ ـ ١٦.
(٦) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ٣/١٧ ـ ٣١.

بالأخبار والتاريخ. فلما ورد لدمشق رآه ثانية، ويبدو أنه قد عرض على المحبي أن يكون في خدمته في القضاء في مصر. ولما كان «زين العابدين البكري» قد أرسل لمؤرخنا رسالة يدعوه فيها إليه، ويستحثه على المجيء إلى مصر[1]، وكان هو متشوقاً لهذا الأمر، فإنه رافق القاضي «عارف» إلى القاهرة، وقبل أن يكون مساعداً له في القضاء أو نائباً له فيه.

وفي القاهرة، نزل في حمى القاضي عارف، واتصل بزين العابدين البكري، وطابت للمحبي الحياة، إذ توافق القاضي عارف مع البكري على «ترويج حظّه»، وقد أفصح عن ذلك بقوله: «وفتحا بنظرهما إلى الأمنية لحظي. وخصّاني من برِّهما الممتدّة أطنابه، بما يعجزُ عنه إسهابُ القولِ وإطنابُه. وأنا الآن في ظلٍّ رعايتهما، مصاحبُ الراحة والدعة، وأينما حَلَلْتُ نزَلتُ على الرحب والسَّعة. فلهذا صفا فكري هذه الأيام من الشوائب، وأمنت بعون الله ـ وصمة النوائب، وشرعت بأمرهما في نسخ ما سوّدته أولاً وثانياً»[2]. ويقصد كتاب نفحة الريحانة.

والتقى في القاهرة، وعند البكري في مجلسه، بأستاذه «عبد الغني النابلسي»، الذي أتاها زائراً عام ١١٠٥ هـ/١٦٩٣ م[3]. ويبدو أنه خلال هذه المرحلة من حياته قد ازداد تعرفاً به وبعلمه وأخذ منه طُرَفاً، وتحائفَ ودقائق، وحقائق. وقرَّظه تقريظاً قد يكون بالغ فيه حين قال: «بحرُ علمٍ لا يُدْرِكُ غَوْرُه، وملكُ فضلٍ على قُطْب الرجاءِ دورُه. وهو محمد نحوت إلى كعبته، ورميتُ نشابَ البراعةِ من جُعْبتِه. ومضى لي في صحبته حينٌ، لا أنشقُ به إلا شمامات ورياحين»[4].

---

(١) أنظر نص الرسالة في المصدر نفسه جـ ٤/٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٢) جـ ١/١٧ ـ ١٨.

(٣) أنظر عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز. مخطوطة في الظاهرية تحت الرقم ٣٢٢٦. عدد أوراقها ٤٤٠. ورقة ١٧٩ ب ـ ١٨٠ آ.

(٤) نفحة الريحانة جـ ٢/١٣٧ ـ ١٣٨.

وفي القاهرة، تعرف المحبي بعديد من العلماء والأدباء، ممن عجت بهم مصر في ذلك الوقت، وممن كان يحضر مجلس القاضي عارف، ومجلس زين العابدين البكري. وفي الوقت ذاته تعرفوا هم به، وانتشرت على ما يظهر شهرته، وذاع صيته، وحضر كثيرون مجلسه. وقد وصف الأديب الشريف «عبد الرحمن الجيزي الطباطبي» قاصديه بقوله: «وقصدوه، وهو الغني من هذه الصناعة، وهم بالنسبة إليه الفقراء البائسون، فتلقاهم بالقبول، وفاح عليهم من رحيق ختام كلامه مسك... وأنزلهم منازلهم في مجالس حكمه، وخلع على أعطافهم من حلل نثره ونظمه، فحملوا على عواتق شكرهم لواء الحمد الأزهر، وخفقت أعلام مدائحهم بثناء الفخر الأبهر، وهم يقولون في دقائق معارفه ﴿إن هذا إلا سحرٌ يُؤثر﴾[1]، وإن فضله كالشمس لا يُنكر، وإن ذكره الرفيع أبى الله أن لا يذكر»[2].

ويبدو أن المحبي ظل مقيمًا في القاهرة حتى وفاة صديقه البكري عام ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م[3]، ولو أنه ليس هناك ما يثبت ذلك. وقد زار مدينة رشيد أثناء إقامته[4]. ويظهر من رسائل تبادلها مع «سليمان المعروف بالحموي الكاتب» ومع أستاذه «عثمان القطان»، بأنه لم يكن سعيداً تماماً من إقامته بمصر، بل كان يشعر بالقيد فيها، وكان الحنين إلى دمشق يمضّه، وقد أفصح عن ذلك بقوله: «إني منذ ودعت بها (أي الشام) حلاوة الرضا، ودَّعْتُ العيشَ المُرتضى، وبتُّ على جمْر الغضا، وحدِّ السيف المنتضى. وأنا الآن بحكم الزمان مستودعُ دار الهوان. أضحك للبوس، وأبشُّ للوجه العبوس.

---

(١) سورة المدثر آية (٢٤).

(٢) نفحة الريحانة جـ ٤/٦٦٥. من ترجمة «عبد الرحمن الجيزي الطباطبي».

(٣) عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/١٣.

(٤) المصدر نفسه جـ ٣/٣١، جـ ٤/٥٠٣. ورشيد مدينة في شمال مصر غربي النيل الغربي عند مصبه في البحر المتوسط: تقع على خط عرض ٣١°,٢٤ شمالاً و٣٠°,٢١ شرقاً. وقد حلّت محل فوّه كميناء. وقد نمت واتسعت من القرن السادس عشر.
أنظر الخطط التوفيقية جـ ١١/٧٥ ـ ٨١.

وأتصفح وجوهاً لا أرجوها، وأريدُ مدحَها والمروءةُ تهجوها. أكثرُهم شيخٌ يتغنّى ويبرزُ في أطوار شتى. يأكلُ ما تأكلُ الناس، ويخالفُهم في المشرب واللباس. له وجهٌ لا يشفّ، وعينٌ لا ترفّ. إذا تكلم كَلَم، وإذا بشّ أدهش وأوحش. وقد مقتُّ بهم الأيام وتصاريفها، وسئمت الحياة وتكاليفها. ولو جهلت أن الحِذْقَ لا يزيد الرزق، لعذرتُ نفسي في الرحل أشدُّه والحبل أمدّه. ولكني أعلمُ هذا وأعملُ ضدَّه، وأسير سيراً ينكرُ المرء فيه جهده. وإلا فمن أخذني بالمطار في هذه الأقطار. حتى تركني أنازل المحن وأعتب هذا الزمن». ويسترسل المحبي في وصف ما يقاسيه من عنت في «بولاق» حيث كان يقيم. ويختم رسالته بقوله: «فأنا فارقتُ الجنةَ تعلمةَ آدم أبي، واستبدلتُ نقيضها بطرفٍ نافر وقلبٍ أبيّ. وإني إلى مواضع إيناسي، ومراتعِ غزلان صريمي وكناسي، أحنّ من حمامة لفرخ، وأورى شوقاً من عفَّارٍ (وهو شجر يتَخذ منه الزناد) ومَرْخ (شجر سريع الورى)[1]».

وبهذا المعنى الأخير كتب إلى أستاذه القطان قائلاً: «وأما دمشق فشوقي إليها شوق البلبل إلى الورد، وامرىء القيس إلى الأبلق الفرد. وأنا مهدٍ تسليماتي إلى كل يابسٍ من روحها وأخضر، ومتبرجٍ من ثمراتها في قباء رواء أنضر. وأشتاق عهدها، والعمر ربيع نضر، والروض جرّ عليه ذيله الخضر. وأرجع فأقول:

إن حبّي دمشق إن عُدَّ ذنباً   فذنوبي أجلّ من طاعاتي

وأنا مؤمل أوبة تسرّ، فيمتع الناظر بتلك الوجوه الغرّ، والمناظر الزهر»[2].

وعاد المحبي مرة أخرى لمسقط رأسه، وقد زاد نضجاً وتجربة ليتابع تأليفه، وليعمل مدرساً في المدرسة الأمينية والظاهر أن الأمراض قد استولت

---

(١) نفحة الريحانة جـ ١/٥٢٧ ـ ٥٣٠.
(٢) المصدر نفسه/٥٩٤.

عليه في أخريات حياته، فأصابه الهرم على الرغم من أنه لم يبلغ الخمسين. ولا أدل على ذلك من قوله لصديقه «محمد بن عمر الخوانكي» عندما التقى به في دمشق، عام ١١٠٠ هـ، وقبل مغادرتها إلى الحجاز[١].

لا تـعيبـنَّ صـفـرة الـلون منّـي ... واحمـرارَ الـدمـوع في أجفـاني

فـبيـاض الـمشيبِ يـنبىء أنّي ... قـد غيّرتني تلونـات الـزمـان

وأكد هذا الأمر «الشمس الغزي»[٢] في كتابه «لطائف المنّة»، وكان قد التقى بالمحبي عند والده مرتين، إذ كان بين المحبي ووالد الشمس الغزي مودة أكيدة[٣].

وفي الثامن عشر من شهر جمادى الأول ١١١١ هـ / الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩٩ م، حضرت المحبي **الوفاة**، خاتماً القرن السابع عشر الميلادي. وصلى عليه شيخه عثمان القطان في الجامع الأموي، ودفن بتربة **الذهبية من مرج الدحداح[٤]، قبالة قبر العارف بالله أبي شامة[٥].**

---

(١) المصدر نفسه جـ ٤/٦٤٧.

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن زين العابدين شمس الدين الغزي (١٠٩٦ - ١١٦٧ هـ/ ١٦٨٥ - ١٧٥٣). مؤرخ كان مفتي الشافعية بدمشق. له «ديوان الإسلام» و«لطائف المنة». أنظر ترجمته في سلك الدرر جـ ٤/٥٥٣. الأعلام جـ ٧/٧٠.

(٣) سلك الدرر جـ ٤/٨٦.

(٤) وتدعى مقبرة باب الفراديس، وهي أكبر مقابر دمشق الشمالية. وهي معروفة، وتقع اليوم شرق شارع بغداد قرب الأزبكية. أنظر محمود العدوي: الزيارات. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥٦/١٩. صلاح الدين المنجد خطط دمشق. بيروت ١٩٤٩/١١٧.

(٥) هو عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م). محدث ومؤرخ. لقب أبا شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. له كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية» وكتب أخرى. النعيمي: الدارس جـ ١/٢٣. الأعلام جـ ٤/٧٠.

مؤلفات المحبي

لقد أشرنا سابقاً إلى أن المرحلة الثالثة من حياة المحبي كانت هي مرحلة العطاء، التي انصرف فيها إلى التأليف. وليس لدينا معلومات تبين فيها إذا كان قد مارسه قبل هذه المرحلة، وإن كان «المرادي» قد بينّ خلال ترجمته له، بأنه «ألف مؤلفات حسنة بعد أن جاوز العشرين»[1]. مهما يكن، فمن المؤكد أن أزاهير المعرفة المتنوعة والغزيرة، التي جمعها في فكره، خلال ما يقارب ربع قرن، طرحها مدونات عديدة بعد الثلاثين. وفي الواقع، لقد زود المحبي المكتبة العربية بعدة مؤلفات، أي أن إنتاجه لم يقتصر على المؤلَّفينْ الضَخْمينْ الآنفي الذكر، وإنما شمل مجموعة أخرى. ويبدو إنتاج المحبي وفيراً على عادة علماء عصره، والعصور الإسلامية السابقة له، حتى أن إنسان الوقت الحاضر يدهش، وهو الذي يتمتع بحياة أكثر رفاهاً ورخاء، ويملك من وسائل التقنية الكتابية ما هو أيسر وأرقى، كيف توافر للمحبي، ولغيره من أولئك العلماء الوقت الكافي كي يطرح مثل ذلك الثمر الغزير الناضج. وقد يفسر بعض الأمر، انصرافه الكلي لهذا العمل، دون انشغال كبير بشؤون الحياة ـ على ما يظهر ـ مضافاً إلى ألمعيته وخزينه الثقافي الثري، ومهارته في الإنشاء. ويمكننا عند الحديث عن مؤلفاته أن نستعير تعبيره الذي وصف به إنتاج جَدِّه. فنقول عنه: بأنه «لو حسب عمر المحبي ـ وهو لم يتجاوز الخمسين ـ والذي كتبه،

(١) سلك الدرر جـ ٤/٨٦.

لبلغ كل يوم كراساً بالكامل»[1]. وقد ولج المحبي في هذه المؤلفات عدة أبواب من فنون المعرفة، ولذا فإن طالبه «عبد الرحمن الجيزي الطباطبي» كان صادقاً عندما وصفه ووصف مؤلفاته بقوله[2]:

هُمام له في كل فنٍّ مؤلَّفٌ ... بأوضح معنى ليس فيه تداخل
هو البحر، إن حدثت عن معجباته ... ضعفْتَ عن استيعاب ما أنت ناقل
فأمواجه نحوٌ، وصرفٌ، ومنطقٌ ... ولجّته التاريخ، والشعر ساحل

ويمكن تصنيف ما أنتجه ضمن ثلاث زمر، بحسب نوعية المعرفة التي كوَّنت قوامها الأساسي:
١ ـ مؤلفات ذات طابع لغوي. ٢ ـ مؤلفات أدبية، نثرية وشعرية. ٣ ـ مؤلفات تاريخية.

أولاً ـ المؤلفات اللغوية:

وهي ما ألفه «المحبي» في ميدان علوم اللغة العربية، وبخاصة في قواعدها ومفرداتها. ويبدو من مجموعها، كأن المحبي قد أراد من خلالها تثبيت قواعد اللغة العربية، أو التذكير بها، منعاً للانحراف واللحن فيها، وكذلك تبيان الدخيل من الألفاظ على اللغة العربية، حتى تحفظ على اللغة أصالتها. فكأني به كان يؤمن آنذاك أن «اللغة العربية هي الأرض، وبقية العلوم غراساتها»[3]. ولا يبدو المحبي في الواقع مجدداً في هذا الباب، وإنما متبعاً خطة درج عليها بعض معاصريه، والجيل الذي قبله. فكأنه كان يتابع هدفاً كبيراً،

---

(١) خلاصة الأثر جـ٣/٣٢٢.
(٢) نفحة الريحانة جـ٤/٦٦٨.
(٣) القول منسوب «لمحمد الأسطواني» أحد علماء دمشق (١٠١٦ ـ ١٠٧٢ هـ/ ١٦٠٧ ـ ١٦٦١ م). وقد عمل إماماً بجامع السلطان أحمد في استامبول، ثم واعظاً في أحد مساجدها. ودرّس تحت قبة النسر بالجامع الأموي وله بعض حكم.
أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٣٨٦ ـ ٣٨٨. والقول في ص ٣٨٨.

آلت فئة من المثقفين العرب على نفسها الوصول إليه آنذاك، وهو تنبيه المجتمع العربي إلى الخطر الذي يتهدد اللغة العربية، ولا سيما بعد انتشار اللغتين الفارسية والتركية، وتسرب بعض الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية. وبذلك يكون المحبي وزملاء له نموذجاً فعالاً لإحياء قومي عربي، ابتدأ عبر اللغة والأدب. وقد يثبت هذا القول، المؤلفات الكثيرة في هذه الفترة عن بيان الدخيل من الألفاظ في اللغة العربية، والإلحاح على تعليم قواعدها وشرح غوامضها، وما تم من انحرافات في بابها، وذلك عبر المؤلفات، والتدريس العملي الفعلي. بل إن كتاب «خلاصة الأثر» للمحبي ـ وهو مبدئياً كتاب تاريخ ـ يحوي الكثير منها[1].

وقد يؤيد هذا القول أيضاً، اتجاه شعراء هذا العصر نحو تقليد الشعر العربي الأصيل في العهد الأموي[2]، ونزعة المحبي ومعاصريه من المتعلمين، نحو تدارس أخبار العرب الخلّص وأشعارهم وبعثها، وبيان شأن العرب وفضلهم[3]، بل نزعة المحبي وبعض من الأدباء إلى تعريب كثير من

(١) أنظر على سبيل المثال فقط لا الحصر: جـ٢/٣٨٢ ـ ٣٨٣ من خلاصة الأثر. ترجمة «عبد الرحمن العمادي»، وجـ٢/٢٢٤ ترجمة «شرف الدين بن حبيب الغزي»، وجـ٣/٥٣ ـ ٥٥ ترجمة «عبد الله الدنوشري».

(٢) لقد أكد هذه الفكرة الأستاذ «نعيم الحمصي» مدرّس «أدب الدول المتتابعة» في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق، أثناء حوار حول هذا الموضوع. وقد قام الأستاذ الحمصي بدراسة شاملة وعميقة لأدب الحقبة العثمانية وأعد مؤلفاً كبيراً فيه، وافته المنية عام ١٩٨١ قبل إتمامه. إلا أنه طرح موجزاً صغيراً لبعضه في كتابه «نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة وتاريخه» جزءان. أعد لطلاب جامعة تشرين باللاذقية. دمشق ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ م.

(٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر، ما أورده المحبي من حديث مطول عن النار العربية وأنواعها (جـ٢/٣٨٣)، وما ورد في مجموع ترجمة (أحمد بن شاهين القبرسي) (جـ١/٢١٠ ـ ٢١٤)، ورد المحبي على بعض أدباء الروم من أن العرب لا يعرفون المعمى من الشعر (جـ٢/٣٩٢)، وتأليف الخفاجي لكتاب تحت عنوان «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب» وقد ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين (خلاصة الأثر جـ١/٣٣٣)، وكتاب مرعي الكرمي: «مسبوك الذهب في فضل العرب» (جـ٤/٣٥٩) إلى غير ذلك من مؤلفات.

المصطلحات والألفاظ التركية السياسية وغيرها فيما يكتبون[1]، وإلى الاهتمام بالمعَاجم العربية[2].

وكان من الصفات المحببة لقلب «المحبي» اتصاف المترجَم، بمعرفته لأخبار العرب، واقتنائه لعديد من دواوين شعرائهم الماضين، ولا سيما إذا كان المترجَم له تركياً[3]. وقد يكون في هذا الاتجاه الظاهر عند عديد من مؤرخي هذا العصر وأدبائه، كالحنبلي، والغزي، والبوريني، والخفاجي، وغيرهم، بدايات إحياء «للوعي القومي العربي» الذي نسبه المؤرخون المعاصرون اليوم للقرن التاسع عشر، وأرجعه بعضهم في الغالب إلى عوامل خارجية، منها انتشار المفهوم القومي في أوروبا. فالشعور الإسلامي لم يغطِّ في الواقع الشعور القومي العربي، الذي يميز بالذات بين العرب المحكومين والروم (الأتراك) الحاكمين. ويتبين من سياق تراجم تلك الحقبة أن ذلك التمايز كان قائمًا، وقوياً في نفوس بعض العناصر، كما أشير إلى ذلك سابقاً في المقدمة. ويمكن للباحث المستقصي أن يحصل على عديد من الشواهد قد يكون أبرزها ما قاله المؤرخ والشاعر «البوريني» لمن عتب عليه تكلمه بالفارسية وكأنه أعجمي[4]:

تعلمتُ لفظَ الأعـجمـيِّ وإنني   من العـربِ العـربـاءِ لا أتكتَّمُ

---

(١) كقوله عن الانكشارية (الجيش الجديد)، وعن الباشا التركي (الوالي، والمحافظ، والكافل)، وعن القزلار آغاسي (ضابط الحرم)، وعن بيك الصنجق (أمير علم)، وغيرها كثير.

(٢) على سبيل المثال ألف المحبي حاشية على معجم «القاموس المحيط» (انظر ذيل نفحة الريحانة/٤٠٢، وسلك الدرر جـ ٤/٨٦) كما قام «عبد الله الطبلاوي» بكتابة نسخ متعددة من «القاموس»، واختصر «لسان العرب» لابن منظور وسماه «رشف الضرب من لسان العرب»، لم يكمله (أنظر خلاصة الأثر جـ ٣/٦٦).

(٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر، أقواله في ترجمة «عبد القادر بن عمر البغدادي» المتوفى ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢ م عن أنه كان عنده ألف ديوان من دواوين العرب العاربة وخلّف كتاباً تحت اسم «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» (جـ ٢/٤٥٢) وكذلك في ترجمته لمحمد بن سليمان المغربي (جـ ٤/٢٠٧): «وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً». وانظر أيضاً ترجمته للمولى (أحمد بن نور الله البولوي) وما قال في معرفته للشعر العربي والوقائع (جـ ١/٣٦٥).

(٤) خلاصة الأثر جـ ٢/٥٢. ترجمة «حسن البوريني».

وما كان قصْدي غيرَ صونِ حديثِكم إذا صرتُ من شوقي بـه أترنَّمُ
وإن كنت بين المعجمين فمعربٌ وإن كنت بين المعربين فمعجمُ
فأغدو بـأشواقي إليكم متـرجماً وسرُّكم في خاطري ليس يُعلَمُ

ومنها ذلك الفخر بالأصالة العربية، الذي افتتح به «الخفاجي» كتـابه «ريحانة الألبا»، و«المحبي»، كتابه «نفحة الريحانة»، وقد أشير إلى ذلك في المقدمة[1]، ومثله ما استهل به «محمد بن محمود السؤالاتي» كتاب «ذيل نفحة الريحانة» حيث قال: «يقول المتمسك بذيل الأدب والفرع الباسق من جرثومة العرب»[2].

ويتبدى ذلك الشعور العربي أيضاً في تلك النعرة التي كانت تبرز بصفة خاصة عندما تصطدم مصالح أبناء العرب مع مصلحة الأروام. وقد أتى ذلك واضحاً في ترجمة «المحبي» لـ «عبد الله بن سيف الله الشريف المعروف بابن سعدي القسطنطيني»، الذي وصل إلى مرتبة علمية رفيعة، إلا أنه فُضِّل عليه بالتعيين في المنصب المقابل لها رجل تركي[3]؛ وفي ترجمـة «محمد بن عمـر الفارسكوري المصري» عندما أُبعد هو الآخر عن مجلس مفتي السلطنة[4]، وفي ترجمة «عبد اللطيف بن المنقار»[5] عندما وزع القاضي الرومي الخدمات في حلب على «أقربائه الأعاجم» ولم يخص العرب بشيء منها. وقد ثبّت ذلك أحد الشعراء في رسالة بعث بها إلى صديقه «عبد اللطيف بن المنقار» قائلاً في مطلعها:

طلعت عليـك طليعةُ الأعجـامِ فـانْهَضْ إلينا قـادماً بســلام

كما أن كثيراً مما أورده «المحبي» في ثنايا كتابه يفصح عن هذا الشعور

---

(١) أنظر ص (٣١) من المقدمة.
(٢) ص ٣.
(٣) أنظر الحاشية (١) من الصفحة ٧٩ من هذه الدراسة وج٣/ ٤٤ من خلاصة الأثر.
(٤) أنظر ص ٣٢ من المقدمة، وج٤/ ٨٢ من خلاصة الأثر.
(٥) خلاصة الأثر جـ٣/ ٢٠.

العربي المتمايز. فعند حديثه عن بداية الدولة العثمانية قال: «ولما كانت أسماؤهم أعجمية أضربتُ عن ذكرها لطولها واستعجامها، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف إن لم يُضبط شيء منها»[1]، وعند ترجمته لأحد ولاتهم وهو «نصوح باشا» قال: «وشهرته بناصف باشا، وهذه عادة الأتراك في تلاعبهم بالحروف، فيقولون في «نصوح» «ناصيف» وتبديلاتهم ليس لها حد يحصرها، ولا قاعدة تضبطها»[2].

ويبدو هذا الشعور بالطبع قوياً في بلاد اليمن، حيث كانت الثورة على الحكم العثماني فيها، والصدام بالسلاح، وحيث أبرزه الشعراء في شعرهم. ومن أمثلة ذلك ما قاله شاعرهم «عبد الله بن المهدي الحوالي»[3] بعد النصر، في مديح الإمام «المؤيد بالله»[4]، ومن جملته:

وانقضت دولـة العلوج ونـالت ... سـاسة الملك من بني عثمـان

وما أنشده شاعرهم وأميرهم «علي بن الإمام محمد بن القاسم»[5] مخاطباً والده، ومستحثاً له على الجهاد، عندما مُنع الركب اليمني من الحج عام ١٠٨٣ هـ/١٦٧٢ م[6]:

أترضى أن نرى في الدهر هُوناً ... ويَـتبـو ركـنـه فـي ذا الأوانِ
ويُمنـع وفـدُ بيت اللهِ منـه ... ويضحى الخـوفُ فينا كـالأمانِ
ويـملكـه الـعلوجُ ويـمـنـعـوه ... ويُصْرَف عنه ذا الوفد اليمـاني

---

(١) خلاصة الأثر جـ ١٣/١ «ترجمة السلطان إبراهيم».
(٢) المصدر نفسه جـ ٤٤٨/٤.
(٣) أنظر ترجمته في المصدر نفسه جـ ٨٣/٣ ـ ٨٤، والشعر ص ٨٤.
(٤) هـو الإمـام محمـد ابن الإمـام القـاسم، الـذي أخـرج الأتـراك العثمـانيـين من اليمن. (١٠٢٩ ـ ١٠٥٤ هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٤٤ م).
أنظر ترجمته في المصدر السابق نفسه جـ ١٢٢/٤ ـ ١٢٣. والبدر الطالع جـ ٢٣٨/٢. الأعلام جـ ٢٢٩/٧. ونفحة الريحانة جـ ٢٤٨/٣ ـ ٢٤٩.
(٥) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١٤٨/٣ ـ ١٥٠. ونفحة الريحانة جـ ٢٥٧/٣ ـ ٢٦٢.
(٦) نفحة الريحانة جـ ٢٦٢/٣.

وأنت خليفـةُ الـرحمن فيـنـا وأنتَ حُسـامُـه في ذا الـزمـانِ
ونحن بنـو البتولِ ونَجْـلُ طـه وفـيـنـا أُنـزِلـتْ آيُ الـقُـرانِ

ومثله ما أنشده «إبراهيم بن صالح المهتدي الصنعاني»[1] الذي كان يتشبه بالمتنبي حيث قال في المناسبة ذاتها، مستحثاً الإمام اسماعيل[2] على الجهاد[3]:

فلا تتركوا الأتراكَ في جَنَبـاتها على الغيِّ قد سادوا القرومَ وشادوا
ألم تـذكـر الأتـراكُ غـارةَ أثْلَةٍ وأنَّهم ذاقـوا الـوبـال وبـادوا
فعـودوا عليهم عَـوْدةً مَقْسَـرِيَّـةً يُصـاب سليمٌ عنـدهـا ومـرادُ

وتشمل مؤلفات المحبي ذات الطابع اللغوي خمسة كتب هي:

١ ـ ما يعوَّل عليه في المضاف والمضاف إليه: وهو بسط وإضافـة مع ترتيب على حروف المعجم لكتاب أبي منصور الثعالبي[4]، «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب». وقد بدأه بالهمزة والألف، وختمه بيوم اليمامة، وبخاتمة في إضافة الأيام من حرف الياء والكتاب موجود، ومنه عدة نسخ خطية، موزعة بين دار الكتب المصرية، ومكتبة الأزهر، وبعض مكتبات استامبول، وتونس، وقد ضم معهد المخطوطات العربية المصورة في القاهرة صور أربع

---

(١) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ٣/٥٦٥ ـ ٥٨٤. البدر الطالع جـ١/١٦ ـ ١٧. ابن معصوم: سلافة العصر. مصر ١٣٢٤ هـ/٤٧٧ ـ ٤٨٧ . أصله هندي وفد أبوه إلى اليمن وأسلم. شاعر له ديوان شعر. مدح أئمة اليمن، ولازم في آخر حياته العبادة والزهد. توفي عام ١١٠٠ هـ أو قبلها/١٦٨٨ م.

(٢) تولى أمر اليمن بعد أخيه «محمد المؤيد» (١٠٥٤ ـ ١٠٨٧ هـ/ ١٦٤٤ ـ ١٦٧٦ م). كان حازماً، وعالماً، وله عدة تآليف. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ١/٤١١ ـ ٤١٦. البدر الطالع ١/١٤٦. ونفحة الريحانة جـ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٦.

(٣) نفحة الريحانة جـ٣/٥٦٧ و٥٦٩.

(٤) هو عبد الملك بن محمد المتوفى ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م من أئمة اللغة والأدب. ومن أهل نيسابور، له مؤلفات عديدة.
أنظر ترجمته في شذرات الذهب جـ٣/٢٤٦. ووفيات الأعيان جـ١/٢٩٠. والأعلام جـ٤/٣٠١.

نسخ منها[1]، ولعله هو نفس كتاب «الأمثال» الذي نسبه جرجي زيدان إليه، وأوضح وجوده في المدرسة الأحمدية بحلب[2]. وقد ذكر الكتاب المرادي في سلك الدرر جـ ٤/٨٦، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي، ملحق ٢/٤٠٤، والسؤالاتي في ذيل نفحة الريحانة ص ٤٠٢[3].

٢ - **جني الجنتين في تمييز نوعي المثنيين**: وقد أشار إليه المرادي والسؤالاتي في ذيل نفحة الريحانة باسم «المثنى الذي لا يكاد يتثنّى»، وقد ألفه المحبي ملحقاً بكتابه السابق. وكان آخر مؤلفاته زمناً، إذ خلص من تأليفه في الثاني من جمادى الأولى، من شهور سنة عشر ومئة وألف/ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩٨ م، أي قبل وفاته بعام. وقد طبع في دمشق منذ نصف قرن في مطبعة الترقي عام ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠ م ونشرته دار القدسي والبدير. وقد وصفه الدكتور عبد الفتاح الحلو بقوله[4]: «رتب على مقدمة في تعريف المثنى الحقيقي وفصلين: الأول في المثنى الحقيقي وجعله على حروف المعجم، والثاني في المثنى الجاري على التغليب، وصدره بمقدمة وجعله على حروف المعجم، وجعل له خاتمتين: الأولى فيما أضيف من المثنى، والثانية فيما أضيف إليه من المثنى، وأجراها أيضاً على حروف المعجم. وجعله هدية لصنوي الفضل والأدب

---

(١) أنظر عبد الفتاح الحلو في مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/٢٤، حيث أورد النسخ ومكانها، وأرقامها.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٤ أجزاء. بيروت ١٩٦٧ جـ ٣/٣١١.

(٣) لقد جاء في مقدمة الكتاب ما يلي: «حمداً لله تعالى نفسه أجلّ ما يعوّل عليه... أما بعد.. لم أزل أجوب رياض الأدب، فأجني ثمارها الطرية عن كَثَب. وكان عندي أنموذج ثمار القلوب، بغية الحريص وسر المطلوب، أتفكه منه بالجني الداني، وأتناول منه ما تتهافت من بدائعه خُرَّد المعاني. وهو أجل كتاب وضعه أبو منصور... وقد كنت أراه قابلاً للبسط، محتاجاً في أكثر ألفاظه إلى البيان والضبط. وكان يخطر لي أن أضيف إليه أشياء لا بد منها، وأضمه لطائف خلا أكثر الكتب المشهورة عنها، فتصدفني عن ذلك الصوادف، وتصرفني دون الوصول إليه الصوارف، حتى انضاف إلى ذلك التماس ورد عليّ من أخ ما زال اعتناؤه منساقاً إليَّ... فبادرت إلى ملتمسه من غير مهلة، وراعيت له طريقة هينة سهلة، لكون رتبته على حروف المعجم، وبيّنت من ألفاظه ما أشكل وأعجم. فدونك كتاباً جمع فأوعى، ودعى شوارد اللطافة فأجابته طوعاً». نقلاً عن عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/٢٤.

(٤) مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/١٧ - ١٨.

(محمد بن إبراهيم العمادي)[1] و(محمد بن حسين القاري)[2] ومنه نسختان خطيتان في دار الكتب المصرية تحت الرقمين ٢١٣، و٢٩٠ (لغة تيمور)[3].

٣ ـ الدر المرصوف في الصفة والموصوف: وقد أشار إليه محمد السؤالاتي، والمرادي[4] ولا يعرف عن الكتاب شيء الآن.

٤ ـ الناموس: وهو حاشية على «القاموس»[5]، ويشير محمد السؤالاتي والمرادي إلى أن المنية قد صادفته قبل أن يكمله[6]. ويضيف السؤالاتي إلى أن تلك الحاشية، «أقسم كل جِهْبِذ أنه لم يجتمع بمثالها». ولعلّ «عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي» (١٠٧٥ ـ ١١٣٨ هـ/ ١٦٦٤ ـ ١٧٢٥)، الأديب الشاعر، وخطيب جامع السنانية كان يقصدها عندما بعث برسالة إلى المحبي يقول فيها: «والمتوقع من سحاب نداه، وأبحر أفضاله الذي لا يدرك مداه أن يمنَّ بكتابه «القاموس المحيط والقابوس الوسيط»[7]. وقد يكون قصده مجرد استعارة كتاب «القاموس» منه.

٥ ـ قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل: وذكره المرادي باسم «قصد السبيل فيما في لغة العرب من الدخيل» بينما أسماه محمد السؤالاتي في

---

(١) أنظر ترجمته في ذيل نفحة الريحانة/١١ ـ ٣٤. وسلك الدرر جـ٤/١٧ ـ ٢٣. وعرف البشام/١٠٠ ـ ١٠٧ وهو محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن العمادي (١٠٧٥ ـ ١١٣٥ هـ/ ١٦٦٤ ـ ١٧٢٣ م)، كان عالماً وشاعراً تولى إفتاء الحنفية بدمشق، والتدريس في المدرسة السليمانية. وكان المحبي معجباً جداً به.

(٢) أنظر ترجمته في ذيل نفحة الريحانة/٣٥ ـ ٣٨. وسلك الدرر جـ٤/٣٥ ـ ٣٧. وهو أديب امتدحه المحبي وقال عنه «وأنا مدّاحه الذي أباهي به وأفاخر، ووُدّي كلّه له من الأوّل إلى الآخر». توفي ١١٣٨ هـ/١٧٢٥ م.

(٣) عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة جـ١/١٨.

(٤) ذيل نفحة الريحانة/٤٠٢. سلك الدرر جـ٤/٨٦.

(٥) هو «القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط» لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي المتوفى ٨١٧ هـ/١٤١٥ م. أنظر الأعلام جـ٨/١٩.

(٦) المصدران نفسهما والصفحات ذاتها.

(٧) ذيل نفحة الريحانة/٢٠٧ وأنظر ترجمة الأديب المذكور في المصدر نفسه/٢٠٦ ـ ٢٢٨، وفي سلك الدرر جـ٢/٢٦٦ ـ ٢٧٤.

ذيل نفحة الريحانة/٤٠٢ «الدخيل الذي ليس له مثيل» وقد عمل المحبي في كتابه هذا ـ بحسب ما جاء في مقدمة الكتاب[١] ـ على أن يجمع، وينقح، ويضيف إلى ما فعله سابقوه في هذا المضمار، من أمثال (الجواليقي)[٢] و(الخفاجي). وضم إلى كتابه ما عرَّبه المتأخرون أيضاً، وقدم مقدمة طويلة في المعرّب والدخيل، والمولّد، استغرقت نحو عشرين صفحة، ورتب الكتاب على حروف المعجم ووصل فيه إلى «مقدونية» من حرف الميم، ومن الكتاب نسخة في دار الكتب المصرية برقم (٢٩٥ لغة تيمور).

ولقد نحى نحوه في كتابه هذا أو ما يشابهه سابقون له، ومعاصرون، من أمثال «محمد بن أبي السرور البكري الصديقي» في كتابه: «القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب»[٣]، ويوسف المغربي في كتابه «رفع الأصر عن أهل مصر»[٤]. وكان الخفاجي قد سبق الثلاثة في كتابه «شفاء الغليل فيما في كلام العربية من الدخيل، والنادر الحوشي القليل»[٥].

---

(١) جاء في مقدمة الكتاب ما يلي: «الحمد لله على نعمة اللسان... وبعد.. لما كان الدخيل من الألفاظ يرنو عن الخفاء رنوَّ الألحاظ، وطال ما جال في بالي، مع أني مشتغل بتاريخ بلبالي، أن أجمع فيه كتاباً حافلا، يكون لبيان مفرداته كافلاً؛ علماً أن من ألف فيه لم يستوف المقصود، ومنهم من وعد في ديباجته بأشياء فلم يوفِّ بالوعود. وكتاب «الجواليقي» وإن كان جليلًا، إلا أنه يعدّ عند الناظرين نزراً قليلاً. وأما «الخفاجي» فإنه اقتصر على ما جنح إليه فكره، ولم يستوعب ما يلزم في هذا الشأن ذكره. وأما «القاضي الأنطاكي» فإنه خرج عن الصدد، وغفل عما لا يستحسنه كل أحد، فكتابه كتاب وفيات استطردها، وبنى عليها أبواب كتابه وأطّدها.... فكتابي هذا قد جمع ما في هذه الكتب من مواد مذكورة، مع زيادات تربو عليها، أرجو ألا تكون منكورة، فإني قد ضممت إليها المولّد، وغلط الخاصة والعامة». مقتبس من الحلو: مقدمة نفحة الريحانة/٢٢ ـ ٢٣.

(٢) موهوب بن أحمد (المتوفى ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م) عالم بالأدب والفقه عاش في بغداد، من مؤلفاته (المعرَّب) في ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي.
أنظر ترجمته في وفيات الأعيان جـ٢/١٤٢. الأعلام جـ٨/٢٩٢.

(٣) انظر الحاشية (٣) من ص ٢٠ من مقدمة هذه الدراسة. والكتاب مطبوع. وقام بتحقيقه السيد إبراهيم سالم، وقدم له وراجعه إبراهيم الأبياري. نشر وزارة الثقافة في مصر. القاهرة.د.ت.

(٤) أنظر حاشية (٣٩) من مقدمة هذه الدراسة. والكتاب نشر مصوراً عن المخطوط. موسكو ١٩٦٨.

(٥) خلاصة الأثر جـ١/٣٣٣.

ثانياً ـ المؤلفات الأدبية:

لقد كان المحبي منعطفاً نحو الأدب منذ طفولته وفي ذلك يقول هو نفسه محللاً لميوله: «فمنذ أن ألقيتُ الألواح، وميزت بين الصباحِ والمصباح، جعلتُ الأدبَ لناظري مَلْمَحاً، واتَّخَذْتُ لفكري من بين المعارف مَطْمحاً، وكنتُ أَعدُّه لصحائفِ الشمائلِ عنواناً، وأُرَتِّبُ لبيتِ قصيدِه في بدائع المآثرِ ديواناً، وأشيمُ من آفاقه بوارِقَ السِّحْر، وأَشُمُّ من أَرْدانِه روائح الشَّحْر[1]. فأرتشِفُ منه ما هو أشف من الماء في زُجاجِه، وأشتفُّ ما هو ألذُّ من الرحيق في مِزاجِه»[2]. ويعاود حديثاً مماثلاً عندما يقول في مقدمة ديوانه[3]: «وبعد فإني لم أزلْ منذ ألقيت الألواحَ وميزتُ بين المصباح والصباح، أُنْفقُ نَقْدَ عُمري في تحصيلِ الأدب... وكم اعلام بهم التقيت ونجوم بصُحْبتهم ارتقيت،.. حتى استَخْرَجتُ من دفائنهم ما كَنَزوه من ميراثِ النبوَّة، ومَلكتُ في خزائنهم ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة، وصدحت في رياض مجالسهم صَدْحَ البلابل؛ لما أغْدَقوا عليّ من كرمهم التي طلّها وابل... ولم يكن في الخاطر تعليق القصائد... إلى أن سنح للفكر الفاتر... أن أجمع ما تفرق من تلك القصائد في ديوان»[4].

ولقد رأينا كيف كانت باكورة إنتاجه شعراً، وهو لما يزل في الثانية عشرة من عمره، وكيف تابع خلال مراحل حياته كلها، وبدأب، الأدب والأدباء، وأخبار الشعر والشعراء. وفي الحقيقة إن المحبي أديب وشاعر إلى جانب كونه مؤرخاً، أكان في معرفته الأدبية الغزيرة، أو في حس النقد الأدبي الذي يتمتع به، أو في أسلوب كتابته. فأسلوبه في النثر الفني يقارع كتَّابَ عصره،

---

(١) العنبر المنسوب إلى الشِحر، ميناء على ساحل البحر العربي شرقي حضرموت. معجم البلدان مجلد ٣/٣٤٧.

(٢) نفحة الريحانة جـ ١/٤.

(٣) هناك نسخة منه وبخط محمد الأمين المحبي نفسه بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٤ شعر تيمور. أنظر عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة /٢٢.

(٤) نقلاً عن عبد الفتاح الحلو في مقدمة نفحة الريحانة/٢١ ـ ٢٢.

ويغلبُهم على ما أرادوا من سجعٍ ملتزم، وازدواجٍ يسيطر على أسلوبهم[1]. أما شعره فهـو شاعـر موهـوب، «شعره لـطيف وهو مشهـور» كما وصفـه المرادي[2]، وقد حلّى به كتابيه «خلاصة الأثر»، و«نفحة الريحانة». بل إن «ابن شاشو» ارتفع به إلى مستوى رفيع من الأدب حينما قال عنه: «لو كان للأدب نبي لكان متنبيه»[3].

فلا عجب إذاً وميوله الأدبية بهذا العمق والرواء، أن يعطي المحبي في ميدان الأدب ثماراً حلوة المذاق، بل أن يغمس كل مؤلفاته في لجته. وبالفعل فله في هذا الباب ستة مؤلفات، هذا علمًا أن مؤلفاته اللغوية نفسها قد تدخل في فتحة من هذا الباب، لأنها حاوية لكثير من مضمونات الأدب. وهذه المؤلفات الأدبية هي:

١ ـ **الأمالي** وقد ذكرها «المرادي»[4] ولا يعرف محتواها، إذ لم يعثر على نسخة منها. إلا أن «السؤالاتي» أضاف عند ذكره لها بأنها «كعقد اللآلي»[5].

٢ ـ **حصة على ديوان المتنبي** وينطبق على هذا المؤلف ما ذكر في شأن المؤلف السابق، ووصفه «السؤالاتي» قائلاً: «تَبْهَر ذوي الألباب، وللعقول تسبي»[6].

٣ ـ **ديوان شعر لـه** ومنه نسخـة في دار الكتب المصريـة (٤٠٤ شعر تيمور). ويبدو أنها النسخة الأصلية التي خطها بيده، إذ عليها تعليقات عديدة في هوامش الصفحات مما فاته وضعه في مكانه[7]. وهناك نسخة منه في المكتبة

(١) المصدر نفسه/١٥.
(٢) سلك الدرر جـ ٤/٨٦.
(٣) تراجم بعض أعيان دمشق/٩٩.
(٤) سلك الدرر. جـ ٤/٨٦.
(٥) ذيل نفحة الريحانة/٤٠٢.
(٦) المصدر نفسه. الصفحة ذاتها.
(٧) عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة ص ٢١ ـ ٢٢.

الظاهرية، من (٧٦) ورقة تحت الرقم (٧٩٢٦). ويشير بروكلمان إلى نسخة أخرى في برلين[1].

ويحوي الديوان عدة قصائد في أصدقائه وشيوخه. ويلاحظ أنه «لم يرتب ديوانه على القوافي، ولم يلتزم ترتيبه على الأغراض، ولكنك تجد مدائحه في شخص بعينه في مكان من الديوان، ثم يتبعه بمن هو دونه في المرتبة»[2]. وقد ابتدأه بالمقصورة النبوية[3]:

دعِ الهوى، فآفةُ العقل الهوى   ومن أطاعَه من المَجْدِ هَوى

٤ ـ **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة** وهو مؤلف أدبي ضخم، قلّد فيه المحبي «ريحانة الألبا للخفاجي» بل جعله ذيلاً لها. وقد أوضح أديبنا ذلك في مقدمة الكتاب حين قال بأسلوبه الأدبي المسجع: «وكان كتاب الريحانة للشهاب، الذي أغنى عن الشمسِ والقمر، وأطْلَع الكلام ألذَّ من طيب المُدام والسَّمر... لم يَزَلْ من عهد صباي... أمنية رجائي الحائم وبغيةَ قلبيَ الهائم، وشمّامتي التي أشتمّ، ومَسْلاتي متى أهتمّ. وزَمْزمةَ لساني، وعقيلة استحساني. حتى أوَدُّ لو كانت أعْضايَ كلُّها نواظرَ تُبصِرُه، بحيث لا تملّ لحظاً، وخواطر تتذكَّرُه، على ألاّ تسأمَ حفظاً، وألسنة تكرِّره، بشرطِ ألا تقْنعَ لفظاً فخطر لي أن أقْدحَ في تذييله زندي، وآتي في محاكاتِه بما اجتمع من تلك الأشعار عندي»[4].

وفي الواقع إن «نفحة الريحانة» هي تاريخ لشعر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر للميلاد، في البلاد العربية، ولشعرائه. فقد غطى المحبي في كتابه، تراجم أبرز الشعراء في جميع الأقطار العربية وكذلك شعراء العربية وغير العربية من الأروام، مع تقديم نبذة من شعر كل واحد منهم. وفي كتاب المحبي هذا تتبدى ثانية، معالم حركة لإحياء الأدب العربي، لا تطول الماضي

(١) Encyclopédie de l'Islam 1° ed Vol III p. 749

(٢) عبد الفتاح الحلو. المصدر السلف الذكر ص ٢٢.

(٣) لقد أورد مقاطع منها في نفحة الريحانة جـ ٥/ ٦٠ ـ ٦٣.

(٤) نفحة الريحانة جـ ١/ ١٠.

فحسب، وإنما تحيط بالحاضر، وتسعى لإحيائه بتثبيته، ونقله إلى الأجيال. ولم يقتصر صاحبها على قطر عربي واحد، وإنما طوَّق جميع الأقطار بوحدة واحدة، على الرغم من أن بلاد المغرب الأقصى لم تكن خاضعة للحكم العثماني؛ بل تجاوز النطاق العربي فقدم صورة عن امتداد العربية، لغة حضارة، حتى بلاد فارس والروم. وبذلك يكون كتاب «المحبي» وقبله كتاب «الخفاجي» متابعة للتأريخ الأدبي العربي، الذي يمكن القول بأنه كان قد توقف تقريباً بعد العماد الأصفهاني[1]، ومبارك بن أبي بكر الموصلي[2].

وقد قسم المحبي الكتاب إلى ثمانية أبواب: خص الأول والثاني منهما بشعراء بلاد الشام. وضمَّن الأول محاسن شعراء دمشق ونواحيها، وترجم فيها بطريقة أدبية لا إخبارية لكثير من شيوخه، ولبعض زملائه في طلب العلم، ممن توفي، أو أدرك بداية القرن الثاني عشر الهجري/ أواخر السابع عشر الميلادي. كما ترجم لبعض البيوت العلمية في دمشق بترجمة خاصة، كبيت

---

(١) هو محمد بن محمد عماد الدين الكاتب (٥١٩ـ٥٩٧ هـ/ ١١٢٥ ـ ١٢٠١ م) مؤرخ وأديب، أصله من أصبهان وعمل في خدمة نور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي. واستوطن دمشق. له كتاب «خريدة القصر» وقد ضمنه شعراء عالمه الإسلامي مع نبذ من أشعارهم الأعلام ج٧/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

ويبدو أن الاتجاه نحو بعث التاريخ الأدبي للعرب كان من سمات عصر المحبي، حتى بين أدباء الروم أنفسهم إذ يشير المحبي إلى أن (علي بن محمد المعروف بالرضائي) قد اختصر خريدة العصر للعماد وسماها «عود الشباب» (جـ٣/١٨٨) وقال في الأسباب التي دفعته إلى ذلك ما يلي: «ولما وجدتُ بعض نقده أزيفَ من رائج زماننا، شرعتُ في تمييز الجياد، واكتفيت باقتطاف الجياد من ثمارِ أغصانها. بل فتَّقتُ بالعرف الضائعَ من بانها. وإني وإن فاتني بعض جواهره، فالغائصُ يعذر بما في يديه، ويشكر الصبا مقبلاً من الحبيب ببعض عرف صدغيه، فجاء بحمد الله تعالى، غادةً تُسحر القلوب بألفاظها القسية، وألحاظها البابلية، تصيد القلوب بألحاظها التي زيّنها الجمال بالفتور. فمن نظر فيه يشتعل قلبه بالنار، وتكتحل عينه بالنور. وإني غير آمل من أبناء الزمن تحسينهم، وبقلادةِ حسن القبول توشيحهم وتزيينهم. فإن من جرب الناس في أمرهم، يعرف أن الناس مشتقون من دهرهم بل نؤمل من كرمهم الفسيح أن لا يوردوا وجهه بالتصريح بأنه قبيح».

(٢) من أدباء القرن السابع الهجري، توفي ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٤ م. له كتاب «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان».

حمزة ومنهم نقباء الأشراف، وبيت العمادي، وبيت النابلسي، والفرفوز، والقاري، وبيت المحبي أي أسرته، مع إحاطته بأبرز أعلام كل بيت. كما ترجم لأدباء من القدس، والرملة، وصفد، وصيدا، وجبل عامل، وحمص. وخصَّ الباب الثاني بنوادر أدباء حلب وضمنه تراجم لعدد من شعراء حلب. وقدم لكل باب بوصف لكل من مدينة دمشق، ومدينة حلب[1]. وقد تضمن البابان (١٣٩) ترجمة.

أما الباب الثالث فجعله يدور حول «نوابغ بلاد الروم» وقدم له بوصف مقتضب للقسطنطينية، وتضمن (٣٤) ترجمة. والباب الرابع في «ظرائف ظرفاء العراق والبحرين» واحتوى (١٩) تسع عشرة ترجمة، والباب الخامس في «لطائف لطفاء اليمن» وتضمن (٧٤) ترجمة من أبرزها تراجم الأئمة الزيديين وأبناء البيوت الشهيرة من الأسياد في اليمن[2]. والباب السادس في «عجائب نبغاء الحجاز»، ويضم (٦٣) ثلاثاً وستين ترجمة، وأفرد لأدباء المدينة المنورة حقلاً خاصاً. والباب السابع في «غرائب نبهاء مصر» وفيه (٤٠) أربعون ترجمة[3]. والباب الثامن في تحائف أذكياء المغرب» وعدّتهم (١٢) اثنا عشر أديباً، وهو أصغر الأبواب حجمًا[4]. وأنهى الكتاب بخاتمة قال فيها: «وهنا وقفتْ بي مطية السير، وختمت الكلام راجياً من ربيّ خاتمة الخير». وأبدى فيها رضاه عن عمله قائلاً: «ولما فرغتُ من جمعه، وجعلته هديَّة لناظر الدهر وسَمْعِه، التفتُّ إليه فشاقني، وحدا بي نحو الإعجاب وساقني». ثم ضمّنها بعض فصول قصار له، وأشعار، وحكم. وسَوّغ ذلك بقوله: «لما رَأيتُ مَنْ ذُكر فيه تخلَّدت آثارُهم وشنّف أُذُنَ الزمان نظامُهم ونثارهم، نافستهم في اقتحام تلك الدور، وقنعت باجتماع الشمل ولو

---

(١) لقد أتى البابان في الجزئين الأول والثاني من الكتاب المطبوع. وجاء الباب الثاني بالذات في الجزء الثاني/٤٣١ حتى نهايته.

(٢) أتت الأبواب الثلاثة المذكورة (الثالث، والرابع والخامس) في الجزء الثالث من الكتاب المطبوع.

(٣) ضم الجزء الرابع من الكتاب المطبوع البابين المشار إليهما (السادس والسابع).

(٤) أتى هذا الباب في مطلع الجزء الخامس من الكتاب المطبوع، وتليه الخاتمة، فالفهارس.

في خلال السطور. وحَرِصت على أن أنال منهم قرباً، وأخذت أعقابهم أدباً رحباً، كما قيل ساقي القوم آخرهم شرباً»[1].

وإذا كان المحبي قد قلّد في «نفحة الريحانة» الخفاجي، إلا أنه فاقه بعدد التراجم وتنوعها، وسعى كي لا يعاود ترجمة لأديب سبق وترجم له الخفاجي. ومع ذلك فإنه اضطر أحياناً لمثل ذاك الأمر، حتى يستكمل صورة بدت له ناقصة أو مشوهة. وقد قال بهذا الصدد: «وكنت عزمتُ ألا أترجمَ أحداً ممّن ترجَمَه ثم عَدَلت، لأنني رأيتُ ألسنةَ النقّاد عن زَيْف بعضِ تراجمه مترجمةِ. فإنه وإن نوّه بِحزْب، إلا أنه قصَّر في الإطراء بشعارهم، وإنْ أطنبَ في آخرين إلا أنه لم يذكر عيونَ أشعارهم. على أنَّه ـ نوّر الله مزاره، ومحى من صحيفته يوم العرض أوزاره ـ أغفل من القوم حِزباً نقايا، وكأنه أومأ إلى قولهم: في الزوايا خبايا. فذكرت من أغفله ذكراً شافياً، وأعدت مما فوّته قدراً كافياً»[2].

وقد انتهى المحبي من تبييض كتابه في مصر، وبتشجيع من صديقيه «عارف» و«زين العابدين البكري» كما أشير إلى ذلك سابقاً. وعلى الرغم من أنه انتهى منه قبل سنوات سبع أو ست من وفاته، إلا أنه انتشر في حياته وقرظه الأدباء. وقد عثر الأستاذ عبد الفتاح الحلو، الذي قام بتحقيقه على عدد من نسخه الخطية موزعة في مكتبات العالم[3]. والكتاب حريٌّ أن يدرس لتسليطه أضواء كاشفة على أدب تلك الحقبة نثراً وشعراً، ولتعريفه بمجموعة كبيرة من الأدباء في العالم الإسلامي آنذاك، ولغناه الشعري، وطرحه صورة واضحة وثرية عن الشعر في تلك الحقبة، وأخيراً لأسلوبه الشائق والمحكم، على الرغم من الصنعة الواضحة فيه، وإن كان لا يُشعر بـالتكلف فيها. ويعقِّب الأستاذ «عبد الفتاح الحلو» على ذلك الكتاب، وعلى كتاب «ريحانة

---

(١) جـ ٥/٤٩.

(٢) نفحة الريحانة جـ ١/١٢.

(٣) أنظر مقدمة المصدر نفسه/٢٨ ـ ٢٩.

الألبا» للخفاجي، و«سلافة العصر» لابن معصوم، بأنها تمثل نهضة في تدوين تاريخ الأدب العربي، أدت إلى نهضة أخرى مشابهة في القرن الثاني عشر[١].

٥ ـ والكتاب الأدبي الخامس للمحبي هو **«ذيل نفحة الريحانة»**. ولقد استدرك فيه المحبي بعض من لم يترجم له من الشعراء في النفحة، إلا أنه توفي قبل أن يتم ما أقدم عليه. ولقد أوضح في مقدمة كتابه، أسباب تأليفه قائلاً: «وبعد، فإني بعون ربّي سبحانه، لما أتممتُ كتاب «نفحة الريحانة»، وقرّ بلُطفه من أبناء العِين كلُّ عين، وجاوَز في الشُّهرة كلَّ مكانٍ حتى قيل: إلى أين، قيَّض الله شيطاناً حاسداً لم يكن في بالي، وسببه أنيِّ لم أنوِّه به، لأنِّي بمثلِه لا أبالي. فأرادَ مناظَرَته مع نَوع ازْدرا، وكتب منه على ما سمعتُ قدراً نزراً. ومن جملة ما عابه، تركُ أناسٍ ممَّن يُترجَم، ونسبَها إلى الغرضِ في تركهم وحاشايَ من زَعْم مُرَجَّم. ثم رأى أن الشوطَ بعيد، وتقلّب في أمره بين وعد ووعيد. فقد بلغه أنيِّ التزمتُ أن أضَع عليه وضعاً جَزْلاً، يصيِّره في العالمَ ضحكةً وهزلاً، فأعرض إعراض مُريب، وهو غريبٌ ففعله غريب... وأنا بحمد الله مَنْ منذ ميَّزت، تهيَّأتُ لمواد القبول وتحيَّزت، فثبتُّ مدَّةَ عمري ثبات الصَّخر، وتناولت من الفوائد ما يفخر به الفخر. ولو جمع ما قرَّرته، أو كتبته وحرَّرته، لبلغ ألفَ جلدٍ ضخام، وذلك مما يعزُّ على الموجودين من قادةٍ فخام. فهذا كتابي في الميدان وأمثاله، ممن له أدنى رأيٍ يعلم أنه لم يجتمع بمثاله... وقد استدركتُ الآن من لم يُذْكر، ورأيتهم أحقَّ من يحُمد من مثلي ويشكر. فشرعت بفضل الهمَّة، في هذه التتمّة المهِمَّة»[٢].

وجاء تلميذ المحبي «محمد بن محمود بن محمود المحمودي السؤالاتي»[٣] بعد وفاة شيخه، وقام بجمع ما كان قد دوّنه شيخه عن بعض الشعراء المعاصرين له وما وصل إليه من شعرهم، وألحق به بعض إضافات، إذ كان

---

(١) المصدر نفسه/٣١.

(٢) ذيل نفحة الريحانة/٦ ـ ٨.

(٣) أنظر هامش (٣) من الصفحة ٤٣ من هذه الدراسة.

كثير من التراجم خالياً من الأشعار، ورتبه معتمداً على قطعة بخط المرحوم المحبي تشير إلى ذلك الترتيب، وأتمه في أواخر شهر شوال عام ١١١١ هـ/أي حوالي ١٨ نيسان (أبريل) ١٧٠٠ م، أي بعد خمسة أشهر من وفاة المحبي، وألحق به ترجمة لأستاذه، وبعضاً من شعره، والمراثي التي قيلت فيه[١].

ومثلما قام «محمد السؤالاتي» بجمع ما وجده في «مسودات المحبي» بعد وفاته. فإن شخصاً آخر يدعى «محمد بن السمان»[٢] قام بمهمة مماثلة، إذ وجدت نسخة من «ذيل نفحة الريحانة» نسب جمعها إليه وجاء تدوينها متأخراً، إذ فرغ ناسخها من كتابتها عام ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠ م[٣]. وقد قام الأستاذ عبد الفتاح الحلو بمقارنة النسخ، وتوصل إلى أن جمع السؤالاتي أتم وأوفى مما فعل ابن السمان[٤]. وإذا كان «السؤالاتي» قد حصل على «مسودات المرحوم»، فالتساؤل المطروح: هل كان لدى ابن السمان نسخ منها، أم أنه استفاد مما جمعه السؤالاتي قبلاً؟. مهما يكن، تبقى النسخ المنسوبة للسؤالاتي أكثر ترتيباً وتنظيماً.

ويضم «ذيل نفحة الريحانة» ثلاثين ترجمة، رتبها جامعها ـ كما كان يريد صاحبها ـ في ثلاثة فصول: الفصل الأول ويحوي «من انتشى من بلغاء دمشق الشام» وعددهم (٢١) واحد وعشرون، والفصل الثاني: «في من انتشى من بلغاء المدينة المنورة» وعددهم اثنان فقط، والفصل الثالث «في نبهاء حلب الشهباء» وعدتهم (٧) سبعة. وكانت الخاتمة ترجمة «محمد الأمين المحبي» نفسه بقلم «السؤالاتي».

٦ ـ والمؤلف الأدبي السادس للمحبي هو **«راحة الأرواح وجالبة السرور والأفراح»** وقد أشار بروكلمان إلى وجوده مخطوطاً في برلين تحت الرقم

---

(١) أنظر مقدمة محمد بن محمود بن محمود السؤالاتي في ذيل نفحة الريحانة/٣ ـ ٥ من المتن.
(٢) أنظر هامش (٥) من الصفحة (٤٤) من هذه الدراسة.
(٣) عبد الفتاح الحلو. مقدمة ذيل نفحة الريحانة/٥.
(٤) المصدر نفسه/٣.

8162 [1]، وذكره كذلك جرجي زيدان[2]. وهو أرجوزة تضم حكمًا وأمثالاً. ولم يشر إليه «محمد السؤالاتي» عندما عدّد مؤلفات المحبي، وكذلـك فعل المرادي. ويبدو أن إغفالهما ذكره يرجع إلى أن المحبي قد أورد تلك الأرجوزة في خاتمة نفحة الريحانة[3]، واستهلها بقوله:

حَـمْـدُ إلـهٍ مـا لـه مثـالُ — أحسنُ مـا سـارت بـه الأمثـالُ

من حكم لمن وعى أيـديهـا — وهَـذه تـحـائفُ أهـديـهـا

جـالبـة السـرور والأفـراح — سـمـيّتـهـا بـراحـة الأرواحِ

ثالثاً ـ المؤلفات التاريخية وكتاب خلاصة الأثر:

إن كل ما كتبه المحبي في ميدان الأدب واللغة هو في الواقع جزء من تاريخ تلك الحقبة التي عاشها، بل إن «نفحة الريحانة» مع كل أسلوبها الأدبي المسجع، هي كتاب في «التاريخ الأدبي» كما أوضحنا ذلك سابقاً؛ ومع ذلك فالمحبي لم يَرْسُ فقط على هذه المؤلفات التي تصور عصره، بل دخل ميدان التاريخ من بابه العريض بكل ما يتضمن من خبر. وبحسه التاريخي الدقيق ميز بين عمله ذي الطابع الأدبي في «نفحة الريحانة»، وبين ما دونه في «خلاصة الأثر»، هذا مع العلم أن كثيرين قد ترجم لهم في الكتابين.

فقد ذكر في النفحة، عند حديثه عن «عبد الباقي بن أحمد السمان» بأنه قد اتفق بينه وبينه مراجعات «اكتفيت بذكرها في التاريخ كما وقـع عليه الاختيار، لأنها من قسم الخبر، والتاريخ موضوعه الأخبار»[4]. كما أشار في ترجمة «أبي السعود الشعراني»: «وكنت ترجمته في كتابي النفحة، وغيّرت ترجمته

---

(1) Encyclopédie de l'Islam 1° ed. Vol III. p. 749

(2) المصدر السابق ص ٣١١.

(3) أنظر جـ ٥/٦٣ ـ ٦٧.

(4) جـ ١/٢٤٩.

إلى قالب آخر حسبما التزمته فيها من الالتزامات، فما عليّ أن أذكر المعدول عنه، إذ فيه على كل حال تطرية»[1] .

وقد كان لمحمد الأمين منذ نعومة أظفاره ميول واضحة نحو متابعة الأخبار، وهذا يتفق مع ميوله الأدبية. وفي ذلك يقول: «فإني منذ عرفتُ اليمينَ من الشمال، وميَّزت بين الرُّشد والضلال، لم أزلْ ولوعاً بمطالعة كتبِ الأخبار، مغرىً بالبحث عن أحوال الكمَّل الأخيار. وكنتُ شديدَ الحرصِ على خبر أسمعه، أو على شعر تفرق شمله فأجمعه، خصوصاً لمتأخري أهل الزمن»[2] . ولذا قد يكون أمراً منتظراً أن يطرح ثمراً في هذا الباب كما فعل في ميدان الأدب، وهو الذي عايش أباه خلال تأليفه لتاريخه، الذي ذيَّل به كتاب «الحسن البوريني»، فكان كتاب المحبي الضخم في التاريخ وهو **«خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر»** ولم يعرف له كتاب تاريخ آخر، وهو الموضوع الرئيسي لهذه الدراسة.

وقد أوضحنا سابقاً أنه ابتدأ بتبييضه قبل نفحةِ الريحانة، ولكن يبدو أنه عاد ثانية الى تنقيحه في ضوئها، وبعد أن أتمها، إذ فيه إشارات كثيرة إليها، كما في النفحة إشارات إلى «خلاصة الأثر». ويظهر أنه قام بعملية فرز وانتقاء للمعطيات التي قمَّشها، فمنها ما ثبته في «النفحة» ومنها ما خص به «الخلاصة»[3]، فجاء عمله متوازياً ومتوازناً ودقيقاً بحيث لا يشعر قارىء الكتابين بتكرار تقليدي مملّ، بل لكل كتاب سمته، ولكل ترجمة في أحد الكتابين لونها.

---

(١) خلاصة الأثر جـ ١٣١/١.
(٢) خلاصة الأثر جـ ٢/١.
(٣) أنظر متن الهامش (٢٦٢) و(٢٦٣).

الفصل الثاني

كتاب خلاصة الأثر

الوصف الخارجي للكتاب

لقد حلَّل المحبي في مقدمة كتابه التاريخي الكبير هذا، الأسباب التي دفعته لتأليفه، بالإضافة إلى ما ذكره سابقاً عن رغبته الفردية، وميوله الخاصة للخبر. والتحليل يعكس في الواقع، مرحلة العزلة والتشاؤم، التي كان يعيشها أثناء تأليف كتابه، والتي تلت عودته من بلاد الروم والتي بانت في مقدمة النفحة حيث قارن بين الزمن الذي كتب به الخفاجي ريحانته، والزمن الذي كتب هو فيه نفحته قائلاً: «فإن من أحْسَنَ قبلي وقُبلَ كلامُه، وقلَّ في مثل هذا الغرض ملامُه، إنما أحْسنَ والدنيا شابة، وريح القبول هابة، والأيام مساعفة، والأوقات مساعدة، والسعود قائمة، والنحوس نائمة. وأنا قد وجدت في زمان هرمت فيه البلغة، وفترت الدعوة، وكسدت السِّلعة، وبطلت الصنعة:

وأعظم شيء في الوجود تمنّعاً   نتاج ومُرامٌ من عقيم زمان

وقد جاء في ذلك التحليل ما يلي: «وما أقدمني على هذا الشأن إلا تخلف أبناء الزمان عن إحراز خصل الفضل في هذا الميدان؛

لعمرُ أبيك ما نُسب المُعلَّى   إلى كرم وفي الدنيا كريمُ
ولكنَّ البلادَ إذا اقشعرَّت   وصُوِّح نبتُها رُعِي الهشيمُ

«فأنا ذلك الهشيم الذي سدَّ مسدَّ الكريم. كيف وقد نَجَمَ نَجْمُ الجهل، وصُوِّح نبتُ بيتِ الفضل، وصَدِئت القلوب، وضعف الطالب والمطلوب.

وربما يُظَن أن ما تخالج في صدري هَجَس، لِرعونةٍ أوجبَها الفراغُ والهَوَس. كلاًّ بل ذلك لأمر يستحسِنه اللبيب، ويحسن موقعُه لدى كلِّ أريب، لما فيه من بقاءِ ذكر أناسٍ شنَّفتْ مآثرُهم الأسماع، وجمع أشتاتِ فضائلَ حَكَم عليها الدهرُ بالضياع. وليس غرضي إلا أداءَ حقهم المفترض، وأبرأ إلى الله من تهمة الغرض»(١). وإذا كانت مقدمة تحليله تعكس تشاؤمه من أحوال الجهل السائدة، التي يبدو أنه كان مبالغاً فيها، فإن القسم الأخير منه يطرح الهدف الأسمى من كتابة التاريخ في نظر مؤرخي ذلك العصر وعلمائه، وهو «تدوين محاسن الأخيار»، إذ يلاحظ هذا أيضاً عند «البوريني»(٢) و«الغزي»(٣) و«ابن الحنبلي»(٤) وغيرهم. ويعود هو نفسه إلى تأكيده في مقدمته قائلاً نقلاً عن غيره «إن الاشتغال بنشر أخبار فضلاء العصر، ولو بتواريخهم، من علامات سعادة الدنيا والآخرة، إذ هم شهود الله تعالى في أرضه»(٥).

وكتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» من «كتب التراجم الطبقية» الضخمة، أو بتعبير آخر من كتب «سير الرجال». و«مدرسة التراجم» في التأليف التاريخي العربي من أقدم المدارس التاريخية، فمن المعروف أن العرب المسلمين ابتدأوا تدوين تاريخهم بكتابة سيرة الرسول الكريم ﷺ، وأتبعوها بسير الصحابة، والتابعين، والمحدِّثين منهم بالذات. ونقل المؤرخون التالون هذا الاهتمام إلى الرجال البارزين الآخرين من الخلفاء، والساسة، والشعراء، والأدباء، والأطباء؛ ويبدو أن انبثاق نهضة العرب، وتألق فعاليتهم، من حياة الرسول الكريم، جعلهم يؤمنون بقيمة الفرد في حياة الأمة، ومن ثم كان هذا عاملاً من العوامل التي وجهتهم نحو الاهتمام بتراجم الرجال. وقد قال الدكتور جبور في مقدمة كتاب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» الذي قام بتحقيقه: «لا أظن أن هناك أمة أغنى من الأمة

(١) خلاصة الأثر جـ ١/٤.
(٢) تراجم الأعيان جـ ١/٣، ٥.
(٣) أنظر الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة جـ ١/٣.
(٤) در الحبب في تاريخ أعيان حلب ٤ أجزاء (تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبارة) دمشق ١٩٧٤. جـ ١ قسم أول/٩.
(٥) خلاصة الأثر جـ ١/٥.

العربية في كتب السير، ولا أظن أن مؤرخي أمة من الأمم التفتوا لتدوين مشاهير أمتهم، كما التفت مؤرخو العرب. فمنذ أن بدأ «ابن اسحق»[1] بوضع سيرة النبي، و«الواقدي»[2] و«ابن سعد»[3] في تأليف الطبقات، وإلى يومنا هذا، والصبغة الغالبة في الكتب العربية هي سير الأعلام من الرجال»[4]. بل إن المؤرخ الانكليزي «غب» يشير إلى أن نبوغ العرب الحقيقي في علم تدوين التاريخ يتجلى في كتابة السير أكثر من تجليه في رواية الأخبار[5].

ولقد وصلت مدرسة التراجم هذه لذروة من ذراها الرفيعة بمؤلف «وفيات الأعيان» «لابن خلكان» (المتوفى ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م)، إذ أوجد هذا المؤرخ ما يشبه المعجم الشامل في تراجم الرجال منذ ظهور الإسلام. وتبعه «الصفدي» (المتوفى ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م). وتطورت مدرسة التراجم بعد ذلك وخرجت من مضمون الشمول الزمني الواسع، وشرع العاملون في ميدانها من المؤرخين

---

(١) محمد بن اسحق بن يسار المطلبي بالولاء. من أهل المدينة المنوّرة، ومن أقدم المؤرخين العرب المسلمين. له «السيرة النبوية» التي رواها عنه «ابن هشام»، ومؤلفات أخرى. انتقل إلى بغداد وتوفي فيها عام ١٥١ هـ/٧٦٨.
أنظر ترجمته في: وفيات الأعيان جـ ٤٨٣/١. دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٨٨/١ - ٩٠. والبحث لبروكلمان. الأعلام جـ ٢٥٢/٦.

(٢) محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء. من الرعيل الأول من مؤرخي الإسلام (١٣٠ - ٢٠٧ هـ/ ٧٤٧ - ٨٢٣ م) ومن أبرزهم. كان تاجراً في المدينة، ثم انتقل إلى بغداد أيام الرشيد، وولي القضاء. له عدة مؤلفات منها: «المغازي النبوية»، و«فتوح الشام» و«فتح مصر والإسكندرية» وغيرها.
أنظر حوله: وفيات الأعيان جـ ٥٠٦/١. الأعلام جـ ٢٠٠/٧ - ٢٠١.

(٣) محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨ - ٢٣٠ هـ/ ٧٨٤ - ٨٤٥ م). من حفاظ الحديث، ومن المؤرخين المسلمين الأوائل. سكن بغداد وتوفي فيها: له مؤلف «طبقات الصحابة» المعروف بطبقات ابن سعد. وهو في سيرة النبي، والصحابة، والتابعين إلى وقته.
أنظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١٤) مجلداً. مصر ١٣٤٩ هـ. جـ ٣٢١/٥.
دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ١/ ١٩٠. والدراسة للمستشرق «مِتْوتش E. Mittwoch». الأعلام ج٦/٧.

(٤) جـ ١/آ (المقدمة)

(٥) دائرة المعارف الإسلامية المعربة. مجلد ٥٠٣/٤ مادة (تاريخ).

بانتقاء تراجمهم من فترة محدودة من الزمن هي القريبة منهم، والتي تمتد على القرن الذي يعيشون فيه أو الذي قبله. أي أنهم جعلوا تراجمهم ضمن طبقة جعلت قرناً من الزمن فظهر مؤلف «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» «لابن حجر العسقلاني» (المتوفى ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م)، وأتبع بمؤلف «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» «للسخاوي» (المتوفى ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م)، وتلاه «النجم الغزي» (المتوفى ١٠٦١ هـ/١٦٥١ م) في كتابه الآنف الذكر. وجاء بعده المحبي ليتابع التقليد المفيد ذاته، ويحيط بأعيان القرن الحادي عشر بكتابه الذي نتحدث عنه.

ولقد ازدهرت «مدرسة التراجم» في جميع الأقطار العربية، وظهر عديد من روادها في المشرق والمغرب على السواء. إلا أنه يلاحظ أن أغلبهم قد ترجم لأعيان إقليمه بالذات، أو لفترة قد تقل عن قرن. وامتازت هذه المدرسة في بلاد الشام بصفة خاصة، بأنها لم تقتصر على تاريخ تراجم قطر بعينه، وإنما عمل مؤرخوها على الترجمة لكل من رأوه عنصراً فعالاً، وذا أثر علمي، أو أدبي أو سياسي، أو صوفي، في أنحاء العالم الإسلامي بمجموعه. ويبدو هذا بيّناً في «الكواكب السائرة»، وفي «تراجم الأعيان» للبوريني، وفي «خلاصة الأثر» للمحبي بالذات، وكأن مفهوم الوحدة العربية والإسلامية قد رسخ في أذهان مثقفي أهل الشام، رسوخاً إيمانياً جعلهم يعبرون عنه واقعياً في مؤلفاتهم.

ففي هذا المؤلف «خلاصة الأثر» تتجلى النظرة الشمولية الواسعة والموحدة لتاريخ العالم الإسلامي بأوضح صورها. فالمحبي ترجم في كتابه الكبير هذا لأبرز الشخصيات الإسلامية التي توفيت بين (١٠٠١ - ١١٠٠هـ/ ١٥٩٢ - ١٦٨٦م)، على كل امتداد العالم الإسلامي، أي من بلاد الهند الإسلامية شرقاً، وحتى المحيط الأطلسي غرباً، ومحتوياً بالطبع امتداد الامبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا. فقد تحدث في سيرة رجال من أعيان المجتمع من مختلف مدن بلاد الشام (كدمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وبعلبك[1]،

(١) مدينة قديمة في شمال سهل البقاع، وهي في لبنان اليوم. فيها آثار رومانية ضخمة. تقع على خط عرض ٣٤° شمالاً وخط طول ٣٦°,١٥ شرقاً تقريباً.

أنظر حولها: الأطلس العربي: القاهرة ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م من صنع الإدارة العسكرية خريطة =

ونابلس[1]، والرملة[2]،وصفد[3]،وغزة[4]،وطرابلس،وصيدا[5]،وجبل عامل[6]،وغيرها)ومن عديد من

= ٣١. ومعجم البلدان جـ ١/٤٥٣ ـ ٤٥٥. الروض المعطار/١٠٩.
Le Strange, op. cit. p. 295 – 298.

(١) مدينة في فلسطين شمالي القدس، تقع بين جبلي عيبال وجرزيم. وهي من المدن القديمة، وتكثر حولها أشجار الزيتون. وقد سكنها السامريون قديماً. وقد تحدث عنها معظم جغرافيّي العرب.
أنظر: معجم البلدان جـ ٥/٢٤٨ ـ ٢٤٩ ـ الروض المعطار/٥٧١ ـ Le Strange, op. cit, p. 511-514.

(٢) مدينة في فلسطين إلى الجنوب الشرقي من يافا، وعلى الطريق بينها وبين القدس، وعلى الطريق الذاهبة من دمشق إلى مصر. قيل سميت بهذا الإسم لغلبة الرمل عليها تقع على خط عرض ٣١°, ٥٠ شمالاً، و٣٤°, ٥٠ شرقاً تقريباً. وينسب إلى سليمان بن عبد الملك تمصيرها. وكانت في العهد العثماني مدينة تجارية هامة، لكونها على طريق القوافل التجارية، ومحطة من محطات الحجيج المسيحي إلى بيت المقدس.
أنظر حولها معجم البلدان جـ ٣/٦٩ ـ ٧٠ الروض المعطار/٢٦٨ ـ الأطلس السالف الذكر خريطة ٣٣. Le Strange, op. cit, 303-308.

(٣) مدينة من مدن بلاد الشام، وشمالي فلسطين اليوم، وفي جبال الجليل منها. تقع على خط عرض ٣٢°, ٥٦ شمالاً و٣٥°, ٢٨ شرقاً تقريباً. كانت أيام المماليك مركز نيابة، ولها قلعة حصينة.
أنظر: صبح الأعشى جـ ٤/١٤٩ ـ ١٥٠. معجم البلدان جـ ٣/٤١٢. الأطلس نفسه الخريطة ذاتها (فلسطين). Le Strange, op. cit. p. 524—525

(٤) مدينة من مدن بلاد الشام، في أقصى الجنوب الفلسطيني، قرب ساحل البحر المتوسط، تقع على خط عرض ٣١°, ٣٠ شمالاً و٣٤°, ٢٥ شرقاً. كانت مدينة تجارية هامة في العهد العثماني، لوقوعها على الطريق البرية بين دمشق ومصر. كانت تحكمها خلال معظم القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أسرة رضوان العثمانية. ويطلق عليها اسم «غزة هاشم» لوجود قبر هاشم بن عبد مناف فيها.
أنظر صبح الأعشى جـ ٤/٩٨ ـ ٩٩. الروض المعطار/٤٢٨.
Le Strange, op. cit. p. 442—443.

(٥) مدينة قديمة من بلاد الشام، على الجزء الأوسط من ساحلها المطل على البحر المتوسط، وهي اليوم من مدن جنوب لبنان الهامة. تقع على خط عرض ٣٣°, ٣٤ شمالاً و٣٥°, ٢٠ شرقاً تقريباً. غدت مركز ولاية عثمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر.
أنظر: الروض المعطار/٣٧٣. صبح الأعشى جـ ٤/١١١.
Le Strange, op. cit. p. 346—347.

(٦) تلال في لبنان الجنوبي تمتد من ضفة الليطاني اليسرى إلى الحدود الفلسطينية. وهي منطقة زراعية خصيبة ويسكنها بصفة خاصة (المتاولة) وهم طائفة من الشيعة الاثنتي عشرية. وقد عرفوا بهذا الاسم لأنهم تولّوا علياً وأهل بيته أي اتخذوه ولياً. وقد أبرز المحبي عدداً من شعرائها، وعلمائها. =

مدن الحجاز (مكة[1]، المدينة[2]، الطائف[3] وغيرها) ومن شتى أرجاء اليمن[4] (صَنْعاء[5]، زَبِيد[6]، صَعْدَة[7]، عدن[8] وغيرها) ومن حضرموت[9] (وبصفة خاصة

= أنظر فردينان، توتل: المنجد في الأدب والعلوم (في كتاب واحد مع المنجد في اللغة). بيروت ١٩٦٦. ص ٣٣١ (مادة: عامل). وص ٤٧٥ (مادة: متاولة).

(١) مدينة غنية عن التعريف، فهي المدينة المقدسة التي رأت ميلاد الرسالة الإسلامية، ومولد النبي العربي محمد ﷺ، وهي المدينة التجارية في الماضي والحاضر. تقع على خط عرض ٢١°,١٤ شمالاً، و٤٠°,١٤ شرقاً. فيها الكعبة المشرفة، وإليها يحج المسلمون كل عام. كانت في العهد العثماني مركز الشرافة. لها عدة أسماء غير مكة.
أنظر الأطلس السابق/ خريطة ٣٥. معجم البلدان جـ ٤/٤٧٥ (بكّة) وجـ ١٨/١٨١ - ١٨٨ (مكة). الروض المعطار/(بكـة) ص ٩٣ - ٩٤. صبح الأعشى جـ ٤/٢٤٨ - ٢٥٥ و٢٦١ - ٢٨٤.

(٢) هي يثرب القديمة، وعاصمة الإسلام الأولى، والمدينة التجارية الهامة في الماضي والحاضر. تقع شمالي مكة، على خط عرض ٢٤°,١٥ شمالاً و٣٩°,٥٠ شرقاً. منها نشر الرسول محمد ﷺ رسالته، وفيها قبره الشريف، وثاني الحرمين لها عدة أسماء منها طيبة، وطابة.
أنظر الروض المعطار/٣٨٠، ٤٠١ - ٤٠٢، ٥٢٩، ٦١٧. معجم البلدان جـ ٥/٨٢ - ٨٨. صبح الأعشى جـ ٤/٢٨٥ - ٢٨٩ و٢٩٣ - ٣٠٤.

(٣) مدينة إلى الجنوب الشرقي من مكة، وهي مصيف أهلها، اشتهرت بلطف هوائها وفواكهها، وكان فيها منازل ثقيف. تقع على خط عرض ٢١° شمالاً و٤٠°,٥٠ شرقاً. ومن أسمائها «وجّ». أنظر معجم البلدان جـ ٤/٨ - ١٢. الروض المعطار/٣٧٩. صبح الأعشى جـ ٤/٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) هي القطر العربي إلى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، والمطلّ على البحر الأحمر وخليج عدن.

(٥) عاصمة اليمن الشمالية اليوم، ومدينة كبيرة هامة. تقع على خط عرض ١٥°,١٩ شمالاً و٤٤°,١٤ شرقاً. اسمها القديم (أزال). اشتهرت باعتدال مناخها. فيها بني قديماً قصر غمدان.
أنظر: الروض المعطار/٣٥٩ - ٣٦٠. معجم البلدان جـ ٣/٤٢٥ - ٤٣١.

(٦) مدينة في اليمن إلى الجنوب الغربي من صنعاء، والمدينة الثانية بعدها في الماضي. وهي كثيرة المياه والفواكه. اختطت أيام المأمون العباسي.
أنظر: الروض المعطار/٢٨٤. معجم البلدان جـ ٣/١٣١ - ١٣٢.

(٧) مدينة في شمال اليمن، لها أهميتها التجارية. واشتهرت قديماً بصناعة الجلود.
أنظر معجم البلدان جـ ٣/٤٠٦. الروض المعطار/٣٦٠ - ٣٦١.

(٨) عاصمة دولة اليمن الديموقراطية الشعبية اليوم تقع على ساحل خليج عدن، على خط عرض ١٢°,٥٢ شمالاً و٤٥° شرقاً. كانت مدينة تجارية هامة، إذ كانت تتجمع فيها تجارة الشرق الأقصى وتجارة شرقي أفريقيا. إلا أن جدة انتزعت منها هذا المركز من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.
الروض المعطار/٤٠٨ - ٤٠٩. معجم البلدان جـ ١٣/٨٩ - ٩٠.

(٩) المنطقة الممتدة في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية شرقي اليمن، وتطلّ على البحر العربي، =

من مدينتي تريم وسيون) ومن البحرين[٢]، والأحساء[٣]، ومن بلاد العجم (فارس)[٤]، ومدن الهند[٥]، ومن أرجاء المغرب[٦]، والجزائر[٧]، وتونس[٨]، وطرابلس الغرب[٩]. وتحدث عن بعض الشخصيات الهامة في الدولة العثمانية أكانوا

= ويحدها شرقاً أرض المهرة. من مدنها الرئيسة «سيون»، و«تريم»، و«شيبام» وكلها واقعة في «وادي مسيلة». في شمالي المنطقة. وهي اليوم جزء من «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية». أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٧/ ٤٥٩ ـ ٤٦٥ والبحث للمستشرق شليفر J.Schleifer . ومعجم البلدان ج٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

وانظر حول «تريم» المحبي: خلاصة الأثر جـ ١/ ٧٧ ـ ٧٨

(٢) كان يراد بها قديماً الشاطىء الغربي للخليج العربي أمام جزائر البحرين أي ما يسمى اليوم «الحسا» أو «الاحساء» أما اليوم فيقصد بالبحرين، مجموعة الجزر القريبة من الشاطىء الغربي للخليج العربي، وأكبرها جزيرة البحرين (ويسمونها أيضاً أوال).
أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٣/٣٩٢ ـ ٣٩٤. معجم البلدان جـ ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٩.

(٣) الأحساء أو «الحسا»، قصبة إقليم يعرف هو الآخر بهذا الاسم. وقد أعاد تأسيس المدينة الزعيم القرمطي أبو طاهر الجنابي عام ٣١٤ هـ/٩٢٦ م. ولكن «الأحساء» اليوم هي «الإقليم» لا المدينة.

أنظر: دائرة المعارف الإسلامية المعربة. مجلد ١/ ٤٤٧. معجم البلدان جـ ١/ ١١١ ـ ١١٢

(٤) وهي البلاد المعروفة اليوم بإيران، والممتدة شرقي بحر عمان والخليج العربي.
أنظر حول موجز عنها: المنجد في الأدب والعلوم/٤٩ ـ ٥١.

(٥) هي بلاد الهند الممتدة جنوبي القارة الآسيوية على شكل شبه جزيرة، والغنية عن التعريف.

(٦) يقصد بها بلاد المغرب الأقصى، أو الجزء من المغرب العربي الواقع في أقصى الغرب ويحده شمالاً البحر المتوسط وغرباً المحيط الأطلنطي، أي هي بلاد «المملكة المغربية» اليوم.

(٧) هي المغرب الأوسط، أو الجمهورية الجزائرية» اليوم.

(٨) هي التي كانت تسمى أيام العرب المسلمين باسم أفريقيا، وتكوّن اليوم «الجمهورية التونسية».

(٩) في الأصل مدينة في الجزء الغربي من ليبيا اليوم، وميناء هام، كما هي عليه اليوم، ولكن كان يقصد بها ليبيا بمجموعها أي (برقة)، و(طرابلس الغرب) و(فزان)، وكانت مقر الباشا في العهد العثماني.

من العاصمة القسطنطينية[١]، أو من مدن ومقاطعات آسيا الصغرى[٢]، والبلقان[٣]، ولا سيما من مدن بروصة، وأدرنة، وإسكوب[٤]، ومن بلاد البوسنة[٥]، وغيرها.

ولم يفت المحبي في مقدمته أن يوضح مضمون كلمة «الأعيان» الواردة في عنوان كتابه فقال: «كنت شديد الحرص على خبر أسمعه، أو شعر تمزق شملُه فأجمعُه خصوصاً لمتأخري أهل الزمن، المالكين لأزمَّة الفصاحةِ واللسان، من كل ملكٍ تتلى سورة فخره بفم كل زمان، وأميرٍ لم تبرح صورةُ ذكره تُجلى على ناظرِ كل مكان، وإمامٍ لم تنجب الليالي بمثاله، وأديبٍ تهتز معاطفَ البلاغة عند سماع فضلِه وكمالِه»[٦].

وفي الواقع لقد قدم «محمد الأمين» في كتابه (١٢٨٩) ألفاً ومائتين وتسعاً وثمانين سيرة من سير رجال تلك الفئات الأربع من «الأعيان» المشار إليهم آنفاً. ونؤكد على لفظة «الرجال» لأنه لم يترجم في الحقيقة لأية امرأة، مع أن

---

(١) هي استامبول، عاصمة تركيا اليوم، والدولة العثمانية سابقاً، وقبلها الدولة البيزنطية. مدينة غنية عن التعريف، تقع على مضيق البوسفور، المدخل إلى البحر الأسود وبحر مرمرة، وعلى خط عرض ٤١° شمالاً و٢٨,٥٧° شرقاً.

أنظر حولها معجم البلدان جـ ٤/٣٤٧ - ٣٤٨. ولتفصيل أكبر:

— Grand Larousse Encyclopédique, 12 vol. Paris 1960—1975. Vol 3. p. 424—426.

— Encyclopédie de l'Islam 2° ed, Vol. I. P.888- 898.

(٢) تركيا الآسيوية الحالية.

(٣) شبه جزيرة البلقان، وكانت الدولة العثمانية قد ضمت إليها معظم أجزائها.

(٤) تقع جنوب يوغوسلافيا الحالية على جانبي نهر فاردار، وكانت قاعدة للغزوات العثمانية في شمالي البلقان. فيها عدد من المدارس وبرز فيها عدد من العلماء والشعراء الأتراك.
أنظر: دائرة المعارف الاسلامية. مجلد ٢/١٤٢ - ١٤٦.
قام بالدراسة: فهيم بجراكترفتش Fehim Bajraktarevich

(٥) هو الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة البلقان، وتقرن عادة بالهرسك. وهي اليوم من جمهوريات يوغوسلافيا، وفي الشمال الغربي منها، وعرف سكانها بالعربية بـ (البشناق).
أنظر حولها: دائرة المعارف الإسلامية المعربة. مجلد ٤/٢٩٢ - ٣١٩. والبحث للمؤرخ كرسماريك J. Kresmarik.

(٦) خلاصة الأثر جـ ١/٣.

النجم الغزي قبله قد فعل في الكواكب السائرة، وتحدث عن سيرة اثنتي عشرة امرأة، وكذلك فعل ابن الحنبلي في «در الحبب»[1]. ولا يعني إغفال المحبي لتراجم النساء انعدام وجودهن المميَّز في هذا القرن، إذ لا يمكن أن يمر قرن كامل على مجموع العالم الإسلامي، وهو خال من نساء متفوقات، أو عالمات، أو شاعرات، أو متصوفات؛ بل إن المحبي لا يعدم الإشارة العابرة في ثنايا تراجمه إلى بعض النساء المبرِّزات ومنهن على سبيل المثال «بديعة الزمان» قريبته حيث يصفها قائلاً بأنها: «كانت من العلم والمعرفة ونظم الشعر في محل سام، واشتغلت على جدي القاضي محب الدين، وأخذت عنه الفقه والعربية، وقرأ عليها ابنها وأخوه»[2]. وإشارته إلى امرأة من بني سيفا كانت تعرف الشعر حق المعرفة[3]. كما أنه في ترجمة «أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ المصري» الذي كانت له مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري[4] في مصر، يذكر المحبي بأنه عند وفاته تولت ابنته مشيخة الطب من بعده[5]. «وفي حديثه عن فخر الدين المعني الثاني» أمير لبنان الثائر على الدولة العثمانية، أبرز

---

(1) أنظر الموضوع الذي كتبه محمد المغربي عن أولئك النساء تحت عنوان «إثنا عشر كوكباً» في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ١٢ لعام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م. ص ٦٤٢ - ٦٤٦.
وانظر في در الحبب جـ ١/ ٣٣١، ٤٠٢، ٤٠٦، ٥٧٥، ٦٠٩، ٦٧٧، ١٠٦٠ وجـ ٢/ ٢٢، ٦٩.

(2) خلاصة الأثر جـ ٢/ ٣٤١ في ترجمة (عبد الحي بن عبد الباقي المحبي). جـ ٣/ ٤٧٩ ترجمة (محمد بن عبد الباقي).

(3) المصدر نفسه جـ ٤/ ٤٨ ترجمة (الأمير محمد بن سيفا).

(4) ويدعى البيمارستان الكبير أو مارستان قلاوون، و«مارستان» أو «بيمارستان» كلمة فارسية تعني مكان المرضى، أي «المستشفى» أو «دار الشفاء» بالعربية. و«البيمارستان المنصوري» أمر السلطان المنصور «قلاوون» المملوكي ببنائه عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م في القاهرة. ووقف له وقفية كبيرة، وزوده بكل ما يحتاجه المريض أثناء إقامته، ولا سيما الأدوية. وقد توالى على مشيخته أفضل الأطباء. وظل العمل يجري فيه حتى مطلع القرن العشرين، إلا أنه عفت آثاره وزالت رسومه الآن.

أنظر حوله: الدكتور شوكت الشطي: موجز تاريخ الطب عند العرب. دمشق ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م ص ٣٧ - ٤٥.

(5) المصدر نفسه جـ ١/ ٢٠٤

دور والدة الأمير في الدفاع عن ابنها لدى الوالي العثماني «أحمد باشا الحافظ»، وفي دفعها المال كي تصفح الدولة عنه[1]. وكذلك فعل عندما أوضح موقف زوجة «مدلج» أمير العرب من منافس زوجها على الإمارة[2]، وأكد دور والدة السلطان في السياسة[3]، وأثر ملكة الكرج في حرب الدولة العثمانية[4]. ولم يغفل المحبي أيضاً عن إيضاح جهود الأميرات العثمانيات في تشجيع العلم، من بناء للمدارس[5]، أو إغداق العطايا على أفاضل العلماء[6]. بل إنه يتعرض في كتابه إلى البغيات من النساء، ومعاملة بعض الشيوخ الحسنة لهن وهديهن إلى طريق الرشاد[7]. ويبدو في طرحه لجميع أمور المرأة ذا موقف موضوعي منها، ولا يشعر من كلامه بأنه كان ينظر إليها نظرة دنيا أو سوء، ولعل بعض تصوفه أبعده عن الترجمة لها بشكل مباشر وبارز.

وإذا كان إحصاؤنا لتراجم المحبي بحسب ما وردت في كتابه المطبوع عام ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م هو (١٢٨٩) ترجمة وهذا ما أكده بروكلمان[8]، فإن (غب) أشار إلى أنها أكثر من (١٣٠٠)[9]، فإما أن هذا الأخير أعطى رقمه بشكل تقريبي، أو أنه أضاف إلى العدد «المعنون» من التراجم، والمفهرس في مقدمة أجزاء الكتاب، تراجم أخرى ألحقها المحبي ببعض تلك التراجم

---

(١) المصدر نفسه جـ ١/٣٨١ - ٣٢٨ (ترجمة أحمد باشا الحافظ).

(٢) خلاصة الأثر جـ ٢/١٠١، ترجمة (الأمير حسين الحياري).

(٣) المصدر نفسه جـ ٢/٢٥٧ ترجمة (صنع الله شيخ الإسلام). وجـ ١/٣٩٧ ترجمة (المولى أسعد بن حسن جان).

(٤) المصدر نفسه جـ ٤/٣٤٣ ترجمة (السلطان مراد الأقدم).

(٥) جـ ٤/١٣٣ (مدرسة أسماخان بنت السلطان سليمان) في ترجمة (محمد بن لطف الله بن زكريا). جـ ١/١٨٩. مدرسة والدة السلطان مراد الثالث بمدينة اسكدار (ترجمة أحمد بن روح الله).

(٦) جـ ١/١٨٩ (أرسلت والدة السلطان مراد الثالث ضيافة لمن يحضر الدرس قيمتها ألف دينار) (ترجمة أحمد بن روح الله).

(٧) جـ ١/٣٧٤ ترجمة (حمدة المجذوب).

(٨) Encyclopédie de l'Islam 1 ed. Vol IIIp. 749

(٩) Ibid, supplément. p. 164

المعنونة إلحاقاً. فالمحبي نفسه يشير إلى أنه إذا لم يتعرف بالدقة والضبط على وفاة شخصية ما، فإنه لا يفرد لها ترجمة خاصة، وإنما يتبعها لشخصية لها بها صلة[1] ومن ثم فإن هناك تراجم في كتابه داخلة في تراجم أخرى وقد يصل العدد بها إلى أكثر من (١٣٠٠) ترجمة كما قدره المستشرق غب.

ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن الفهرس العام لخلاصة الأثر قد تضمن ترجمة لا لشخصية وإنما ترجمة مفردة للفرقة الدرزية وردت تحت عنوان «ذكر الدرزية»، وهي ملحقة بترجمة «فخر الدين المعني»[2]، وكأن المحقق، أو المؤلف، قد نظر إليها نظرته إلى شخصية قائمة بذاتها. وإذا ما ضمت هذه الترجمة إلى المجموع يصبح عدد التراجم المفهرسة (١٢٩٠) ترجمة.

ولكن إذا كانت الأرقام التي طرحها المستشرق «غب» تجد تسويغاً واقعياً، فإن ما ثبته المرادي عن عدد التراجم وهو ستة آلاف ترجمة[3] يدعو للتساؤل والشك. فهل يا ترى طرح الرقم عشوائياً، وعن طريق المبالغة؟ أم أنه قصد مجموع أسماء الأعلام التي وردت ضمن تراجم المحبي، ولعلها تبلغ هذا العدد أو أكثر إذا ما أحصيت، بعد أن تُجرى لها فهرسة بحسب حروف المعجم؟ أم أن هناك كتاباً للمحبي آخر أوسع من ذلك الموجود بين أيدينا، ويضم فعلاً (٦٠٠٠) ترجمة؟ إن الشكوك حول إمكان وجود كتاب تراجم للمحبي أوسع من خلاصة الأثر الذي بين أيدينا، قد يؤيدها ما أشار إليه «بروكلمان» بأن هناك كتاباً للمحبي تحت اسم «الأعلام»، مرتباً بحسب حروف المعجم وكل حرف منه قد يعادل مجلداً، ويضم أعلاماً عديدة تحتوي (الأعلام، والنسب، والكنى، والنساء، والأمهات) وقد وصل صاحبها فيها إلى حرف الميم.

---

(١) أنظر خلاصة الأثر جـ ٢٤٢/١ (يذكر أحمد بن الملاحيدر الكردي السهراني أثناء ترجمته لأحمد بن عثمان الكردي المجروحي). وجـ ١١٠/٤ (يترجم لابني محمد بن خروف بصورة موجزة بعد ترجمته لأبيهما. (جـ ١٢٤/١) (يترجم لمحمد الحلبي الكوراني أثناء ترجمته لابنه أبي السعود)، وجـ ٤٣/١ ويترجم (لعلي السمهودي) صاحب «تاريخ المدينة» أثناء ترجمته (للشيخ إبراهيم بن أبي الحرم)، وهكذا.

(٢) جـ ٢٦٨/٣ - ٢٦٩.

(٣) سلك الدرر جـ ٨٦/٤.

ومسودته محفوظة في مكتبة لايبزيغ تحت الرقم Vollers N° 683[1]، وبذلك قد يكون محتوى كتاب «خلاصة الأثر» منطبقاً على عنوانه، أي هو خلاصة لذلك السفر الضخم. وقد يدعم هذا الاستنتاج ما ذكره المحبي نفسه في مقدمته حين قال «حتى اجتمع عندي ما طاب وراق وزين بمحاسن لطائفه الأقلام والأوراق، فاقتصرت منه على أخبار أهل المائة التي أنا فيها وطرحت ما يخالفها»[2]، ومن ثم قد يكون ما أشار إليه «بروكلمان» هو المسودة الأولية للمحبي قبل تدوينه «خلاصة الأثر»، ولعلها هي التي اطّلع عليها المرادي وقصدها، وإن كانت هذه الفرضية غير قوية. مهما يكن، فإن هناك عدداً من نسخ كتاب «خلاصة الأثر» مبعثرة في عدد من المكتبات العربية والأجنبية[3]، ولا بد من العودة إليها وتكوين شجرة نسب لها كما لا بد من تعرف المخطوط الذي أشار بروكلمان إلى وجوده في لايبزيغ، وتحقيق الكتاب من جديد، تحقيقاً حديثاً؛ وبذلك يتأكد من عدد تراجمه، ومدى مطابقة ما هو موجود بين أيدينا للأصل الذي دونه المحبي. ولا يدفعنا لهذا الطلب الشكوك حول عدد التراجم فحسب كما طرحها المترجمون للمحبي، وإنما إشارة صغيرة وردت في كتاب المحبي نفسه أيضاً، فهو يشير إلى وجود ترجمة لشخصية «صالح بن عبد النبي بن صدقة»[4]، إلا أن هذه الترجمة غير موجودة في الكتاب المطبوع وإضافة إلى تلك الأمور، فإن التحقيق الجديد يوجد الشروح، والكشافات

---

(١) op. cit. p. 748

(٢) خلاصة الأثر جـ ١/٣.

(٣) نسختان في المكتبة الظاهرية (عام ٧٣١٦) و(عام ٥٦٩٩) وأربع نسخ في دار الكتب المصرية (٥٤٣ تاريخ) (٣٩٤١ تاريخ) (١٠٠٩ تاريخ تيمور) (٢١٠٧ تاريخ طلعت) وواحدة في دار الكتب الوطنية في بيروت (ف ٦٥) صورها معهد المخطوطات العربية تحت الرقم (١٠٣٧ تاريخ).

واحدة في باريس (٥٨٣٠) وواحدة في بريل (H) ١/١١٢، ٢/٢١٣.

وواحدة في المتحف البريطاني (DL 34). ونسخة في الهند (بانكيبور ١٢، ٤/٦٦١). وفي تركيا في طوب قابو ٢/٩. وفي لايبزيغ/٦٨٣. وفي عاشر أفندي/٦٤٤ وشهيد علي/١٨٦٨.

(أنظر عبد الفتاح الحلو. مقدمة نفحة الريحانة جـ ١/٢٠ - ٢١).

(٤) أنظر جـ ٤/٣٣٢ في ترجمة (محمود قاضي القضاة).

المختلفة، التي تسهل سبل البحث، والاستفادة من هذا المصدر القيم، الفائدة المرجوة. وريثما يتم هذا الأمر، فإنه لا مناص من الاعتماد على الكتاب المطبوع المتوافر بين أيدينا، وقد قام بتحقيقه منذ ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م، أي منذ أكثر من قرن «السيد مصطفى وهبة» من القطر المصري، وأمر بطبعه في المطبعة الوهبية، «محمد باشا عارف» أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر[١]. وعلى الرغم من أن محققه قد بذل جهداً كبيراً فيه إلا أنه بالنسبة للتحقيق الحديث يبقى ناقصاً.

ولقد جاء الكتاب المطبوع، في أربعة أجزاء تضم (١٩٨٤) صفحة. وقد وزعت فيها التراجم توزيعاً متوازناً إلى حد ما: فقد تناول الجزء الأول (٣٢٩) ترجمة بـ(٥٠٢) من الصفحات، والثاني (٣٠١) من التراجم بـ(٤٧٥) صفحة، والثالث (٣٢٨) ترجمة بـ(٤٩٥) صفحة، والرابع (٣٣١) ترجمة بـ(٥١٢) من الصفحات. وقد يبدو الجزء الثاني نابياً قليلاً في عدد تراجمه وصفحاته عن الأجزاء الأخرى، إذ يفرق عنها ـ كما هو ملاحظ ـ بما يقارب (٢٥) ترجمة. ويبدو أن التقسيم الرباعي للكتاب، والفهرسة العامة الواردة في مطلع كل جزء، ليسا من عمل «المحبي» وإنما من عمل الناسخ أو المحقق، وإن كان هذا الأخير لم يذكر ذلك. إذ أن المحبي الذي قدم وصفاً لمعظم تقاطيع كتابه، لم يلمّح إلى هذا التجزيء. كما أن هذا التجزيء لا ينسجم مع روح المحبي في التصنيف والترتيب، إذ لم يُتبع في تقسيم التراجم بين الأجزاء الأربعة مثلاً أساس بيّن، كحصر تراجم مجموعة من الأحرف في جزء خاص، تكون متوازنة في عددها مع تراجم الحروف الأخرى في الأجزاء الباقية. فتراجم حرف (الحاء) التي بدىء بها في آخر الجزء الأول، أكملت في مطلع الجزء الثاني، وبعض تراجم حرف (العين) التي ختم بها الجزء الثاني أكمل في بداية الجزء الثالث، وقسم من تراجم حرف (الميم) الذي أغلق به الجزء الثالث، أتمت في الأقسام الأولى من الجزء الرابع. ومن كل هذا يظهر

---

(١) أنظر المصدر نفسه. ص ٥١١ ـ ٥١٢.

أن المجزىء للكتاب قد نظر إلى عدد التراجم، وعدد الصفحات فقط أساساً لعملية التجزيء، دون النظر لتكامل تراجم الحرف.

ولقد رتب المحبي تراجمه ـ كما تبيَّن من الإشارات السابقة ـ على حروف المعجم، لا جغرافياً كما فعل في نفحة الريحانة وذلك «ليسهل لمطالعه ما غمَّ عليه واستعجم»[1]. وبيّن في مقدمة كتابه طريقته في ترتيبها فقال: «أقدم أولاً الاسم الذي أوله همزة ممدودة ـ وبالفعل فقد استهل كتابه بترجمة «آدم الانطاكي» ـ ثم ما كان أوله ألف، وأقدم من ذلك ما شاركه أبوه في اسمه، فإذا تعدد ذلك، قدمت الأسبق وفاة. ثم أرجع فأذكر من بعد حرف الهمزة، الحروف المعجمة من أولها إلى آخرها، وأذكر في كل حرف ما فيه من الأسماء، مقدِّماً ما كان في ثاني الاسم من الحروف المقدَّمة، وهكذا أفعل في أسماء الآباء. فإذا انتهى من وصلني اسم أبيه، ذكرت من لم أعرف اسم أبيه، مراعياً سبق الوفاة، وأكتفي بذكر الكنية أو اللقب إذا اشتهر صاحب الترجمة بأحدهما، ولم يُروَ له اسم، وأذكر ذلك في ضمن الأسماء»[2].

وإذا ما أحصي عدد التراجم موزعاً على الأحرف الأبجدية يكون توزع التراجم كما يلي:

حرف الألف (٢٨٩) ـ الباء (١٢) ـ التاء (١٠) ـ الثاء (لا تراجم فيها) ـ الجيم (٩) ـ الحاء (٨١) ـ الخاء (٩) ـ الدال (٨) ـ الذال (١) ـ الراء (١٣) ـ الزاي (١٩) ـ السين (٢٢) ـ الشين (١٤) ـ الصاد (١٩) ـ الضاد (لا ترجمة) ـ الطاء (٢) ـ الظاء (٢) ـ العين (٣٠٦) ـ الغين (٣) ـ الفاء (١٧) ـ القاف (٦) ـ الكاف (٢) ـ اللام (٣) ـ الميم (٣٧٥) ـ النون (١٣) ـ الهاء (٦) ـ الواو (٢) ـ الياء (٤٦).

وبترتيب تلك الأعداد بحسب قيمتها، ومن الأكبر فالأصغر، يتضح أن

---

(١) خلاصة الأثر جـ ٤/١.

(٢) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.

أكثر التراجم تتجمع تحت أحرف الميم، فالعين، فالألف، فالحاء:

حرف الميم	٣٧٥	حرف الشين	١٤	حرف الهاء	٦
حرف العين	٣٠٦	حرف الراء	١٣	حرف الغين	٣
حرف الألف	٢٨٩	حرف النون	١٣	حرف اللام	٣
حرف الحاء	٨١	حرف الباء	١٢	حرف الطاء	٢
حرف الياء	٤٦	حرف التاء	١٠	حرف الظاء	٢
حرف السين	٢٢	حرف الجيم	٩	حرف الكاف	٢
حرف الزاي	١٩	حرف الخاء	٩	حرف الواو	٢
حرف الصاد	١٩	حرف الدال	٨	حرف الذال	١
حرف الضاد	١٧	حرف القاف	٦		
	١١٧٤		٩٤		٢١

وهذا الإحصاء يمكن أن يكون نقطة انطلاق أولية لـدراسة في «علم الأسماء» (الأنتروبونيمي) في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، بصفته يمثل عيّنات محدودة من مجموع أسماء المسلمين فيه.

ويتبين لأول وهلة من الطريقة التي ركب بها «المحبي» مجموع كتابه، وكأنه قد وضع تراجم مجموع القرن في مستوى زمني واحد، وفي مستوى نوعي واحد على الرغم من أنه يتضح للقارىء بعد التوغل في كل ترجمة على حدة، أن هناك تحديداً دقيقاً لزمن وجودها، ولنوعيتها. أو بتعبير أوضح، لم يتبع «المحبي» «التصنيف في الزمن» أو «التطبق» الذي اتبعه «الغزي» مثلاً في كتاب «الكواكب السائرة»، وذيله «لطف السمر». فهذا الأخير قسم تراجم القرن العاشر إلى ثلاث طبقات بحسب سني وفاتها، ثم رتب تراجم كل طبقة على حدة على حروف المعجم مقدماً من كان اسمه «محمد»، وخص كل طبقة بجـزء من كتابـه: (فالجـزء الأول) يتضمـــن تراجـــم أولئــك الــذين توفـوا في

الثلث الأول من القرن، و(الجزء الثاني) تراجم من توفوا في الثلث الثاني، و(الجزء الثالث) من حضره الموت في الثلث الثالث[1]. وبذلك يكون تركيبه العام لكتابه أوضح لمفهوم الزمن، وأكثر تيسيراً للقارىء في تسلسل الوقائع التاريخية، وربطها، وبيان التطور خلال حقبة زمنية محدودة وفي وعي مدى المعاصرة بين الشخصيات المطروحة. ويمكن القول، أن المحبي قد اتبع التصنيف البسيط لتراجمه، المعتمد على حروف المعجم فقط، لا التصنيف المركب الطبقي، الذي يحوّل التراجم إلى طبقات زمنية محدودة، أو مكانية، أو فئوية، أو الثلاثية معاً، مصنّفة بحسب حروف المعجم؛ هذا مع العلم أنه قد صنف الأعيان الذين ترجم لهم، في ذهنه فقط، إلى أربع فئات ـ كما أشرنا سابقاً ـ فئة ملك، وفئة أمير، وفئة إمام، وفئة أديب. أي أنه جمع على عادة مؤرخي التراجم العرب بين التراجم السياسية، والأدبية، والعلمية.

وإذا ما تتبعنا مؤرخنا في **تراجمه الفئوية الأربع**، يلاحظ أنه قد خص فئتي الملوك والأمراء معاً بنسبة ضئيلة من مجموع تراجم كتابه، لا تتجاوز عشرة ١٠٪[2]. بينما كان من نصيب الفئتين الأخيرتين العلماء والأدباء النصيب الأوفى. وهذا الاتجاه عند المحبي طبيعي بل وتقليدي، لأن سير العلماء ـ وهم ورثة الأنبياء ـ كانت في نظر المثقفين آنذاك «أصدق تعبيراً عن التاريخ الحق لأمة الله على الأرض من النظم السياسية الزائلة»[3].

ومع أن عدد التراجم السياسية ضئيل نسبياً عند المحبي، إلا أن تلك التراجم ملونة تلويناً كبيراً، وتتضمن شتى النوعيات من الشخصيات في عصره، وهذا ينسجم مع تشعب فكر المحبي، وغزارة معلوماته وإدراكه لخفايا زمنه المختلفة، ونظرته المكانية الشمولية الواسعة، لعالم لم يحدده بقطره، أو

---

(١) أنظر الكواكب السائرة جـ ١/٧ ـ ٨.

(٢) لا يزيد عدد التراجم السياسية عن (١٢١) ترجمة من أصل (١٢٨٩) ترجمة.

(٣) أنظر «غب» في بند «تاريخ» في دائرة المعارف الإسلامية المعربة، المجلد الرابع العدد الثامن ص ٤٩٦.

بالأقطار المجاورة فحسب، وإنما كل سعة امتداد العالم الإسلامي ـ كما أسلفنا القول ـ فقد انطلقت دائرة إحاطته بفئة الملوك والسلاطين من أقصى الهند شرقاً حيث ترجم لبعض سلاطينها وأمرائها[1] إلى أقصى المغرب حيث طرح سيرة سلطانين من سلاطينها الكبار[2]، إلى أقصى الجنوب في اليمن حيث قدم عدة تراجم لأئمتها من الزيديين[3]، فإلى الزاوية الشمالية حيث حط على سبعة من سلاطين بني عثمان[4] بل وانعطف شرقاً فترجم لشاه من شاهات الفرس الصفويين[5]، ولسلطان بلاد كيلان[6].

وقد كان المحبي في إحاطته تلك، حر الرأي، وموضوعياً، عندما تجاوز حسن صلات دولته العثمانية الحاكمة مع أولئك الملوك والسلاطين، والأئمة، أو سوءها؛ فمن المعروف أن العلاقات بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في بلاد إيران كانت دائمة التوتر، والحرب ضروس وشبه مستمرة بين الأئمة الزيديين في اليمن وتلك الدولة في الثلث الأول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

---

(١) من أمثال جوهر، ومحمود بن عادل شاه، وعنبر وولده عبد العزيز فتح خان (جـ ١/٤٩٦، جـ ٤/٣٨٦، جـ ٣/٢٣٠ ـ ٢٣٣ على التوالي).

(٢) السلطان أحمد المنصور من الشرفاء السعديين (جـ ١/٢٢٢ ـ ٢٢٥. السلطان مولاي رشيد، من سلالة الأشراف العلويين التي تلت السعديين على الحكم (جـ ٢/١٦٤).

(٣) أنظر عدداً منها في جـ ١/١٨٠ أحمد بن الحسن بن القاسم، ٤١١ الإمام اسماعيل بن القاسم، ٤١٦ اسماعيل بن محمد بن الحسن. جـ ٣/١٤٨ علي بن الإمام المتوكل، ٢٩٣ الإمام القاسم المنصور، ٢٩٤ القاسم الثاني حفيد السابق، ٣٩٦ الإمام محمد بن اسماعيل، ٤٢٨ الإمام محمد بن الحسن، ٤٥٥ محمد بن الحسين. جـ ٤/١٢٢ الإمام محمد المؤيد بالله. أنظر الملحق بهذا الكتاب الجزء الخاص باليمن.

(٤) هم حسب تواليهم على العرش مراد الثالث (جـ ٤/٣٤١ ـ ٣٥٤) محمد الثالث (جـ ٤/٢١٦ ـ ٢٢٣) أحمد الأول (جـ ١/٢٨٤ ـ ٢٩٢) مصطفى الأول (جـ ٤/٣٦٣ ـ ٣٦٥) عثمان الثاني (جـ ٣/١٠٥ ـ ١٠٨) مراد الرابع (جـ ٤/٣٣٦ ـ ٣٤١)، إبراهيم الأول (جـ ١/١٣ ـ ١٦).

(٥) الشاه عباس (جـ ٢/٢٦٧ ـ ٢٦٩).

(٦) أحمد خان (جـ ١/٣٧٣ ـ ٣٧٤).

وإذا كانت تلك هي ألوان فئة (الملوك)، فإن فئة (الأمراء) كانت أغزر لوناً، فإلى جانب التنوع المكاني والزماني في الأمراء - الملاحظ سالفاً في الملوك - فهناك أصناف متعددة منهم. فهناك: **أولاً أمراء تابعون للدولة العثمانية** الحاكمة، ومنهم وزراؤها وصدورها العظام[1]، وولاتها في البلاد العربية[2]، وبصفة خاصة في دمشق، وحلب، ومصر، وبغداد[3]، وغزة، وطرابلس، وغيرها. **وثانياً أمراء محليون** في البلاد العربية حكموا مناطقهم بشيء من الاستقلال الذاتي، ومن هؤلاء شرفاء مكة[4]، - وقد توسع المحبي في ترجمة

---

(١) من أمثال إبراهيم باشا الوزير الأعظم (جـ ١/٥٩) وأحمد باشا الكوبرلي (جـ ١/٣٥٢ - ٣٥٦) وحسن باشا الطواشي (جـ ٢/٦٩) ودرويش محمد باشا (جـ ٢/١٥٧) وسنان باشا (جـ ٢/٢١٤) ومحمد المعروف بلالا باشا (جـ ٤/٢٨٢) ومحمد باشا الكوبرلي (جـ ٤/٣٠٩) ومحمد باشا قبوجي باشي (جـ ٤/٣٠٣) ومصطفى باشا (جـ ٤/٣٩٧).

(٢) من أمثال إبراهيم باشا نائب مصر (جـ ١/٦١ - ٦٢)، وأحمد باشا الحافظ كافل دمشق (جـ ١/٣٨٠ - ٣٨٥)، وأحمد باشا كوجك كافل دمشق (جـ ١/٣٨٥ - ٣٨٨)، وجعفر باشا صاحب اليمن (جـ ١/٤٨٥ - ٤٨٨)، وحسين باشا الصاري والي حلب فنائب الشام (جـ ٢/١٢٤ - ١٢٥)، وحسين باشا دالي حسين نائب مصر فلمشق (جـ ٢/١٢٣ - ١٢٤) وصالح باشا الموستاري نائب الشام (جـ ٢/٢٤٢ - ٢٤٣)، وغازي باشا الجركسي نائب الشام فمحافظ مصر (جـ ٣/٢٤٤ - ٢٤٦)، وفضل الله باشا الوزير نائب اليمن (جـ ٣/٢٨٦ - ٢٨٧)، وقانصوه باشا نائب اليمن (جـ ٣/٢٩٧ - ٢٩٩)، ومحمد باشا ابن الدفتردار نائب الشام (جـ ٤/٢٢٦ - ٢٢٨)، ومحمد باشا نائب حلب وأذنة (جـ ٤/٢٩٤ - ٢٩٦)، ومحمد باشا حاكم اليمن (جـ ٤/٢٩٦ - ٢٩٩)، ومصطفى باشا الشهير بابشير والي دمشق فحلب (جـ ٤/٣٩٦).

(٣) عاصمة العراق اليوم، وعاصمه الخلافة العباسية سابقاً. من أكبر المدن الإسلامية وأعظمها شأناً تقع على نهر دجلة، وعلى خط عرض ٣٩°, ١٩ شمالاً و٤٤°, ٤٤ شرقاً.
أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٤/٣ - ٢١.
وانظر Encyclopédie de l'Islam. 2° ed. article (Bagdad) لعبد العزيز الدوري.

(٤) أنظر ترجمة عدة منهم: جـ١/١٣١ - ١٣٥ أبو طالب بن حسن بن أبي نمي. ١٩٠ - ١٩٧ أحمد بن زيد، ٢٣٩ - ٢٤١ أحمد بن أبي نمي، ٣٤٨ - ٣٤٩ أحمد بن محمد الحرث بن الحسين، ٣٥٩ - ٣٦٤ أحمد بن مسعود، ٣٩٠ - ٣٩٤ ادريس بن الحسن، ٤٣٦ - ٤٥٠ بركات بن أبي نمي، جـ٢/١٧٦ - ١٨٦ الشريف زيد، جـ٣/٣٨ - ٣٩ عبد الله بن الحسن، ٨٦ عبد المطلب بن حسن، ٢٠٤ - ٢٠٦ عمار بن بركات، ٢٨٨ فهيد بن الحسن. جـ ٤/٢٧ الشريف محمد بن عبد الله، ٤٤٨ الشريف نامي.

عدد منهم ـ وبعض أمراء المناطق في بلاد الشام[1]، وبعض الأمراء الذين خدموا الدولة في السابق، ثم استقروا في بعض المناطق العربية وظلوا يحملون هذا اللقب دون عمل سياسي واضح[2]. وثالثاً عدد من رجال السياسة والجيش والإدارة ممن تمتع بلقب أمير، أو بعمل أمير دون لقبه، أو مارس عملاً إدارياً سياسياً لصالح الدولة، أو نشاطاً سياسياً وعسكرياً معادياً لها[3].

ومثلما توخى «المحبي» في انتقائه لتراجم الملوك والسلاطين، الموضوعية، وحرية الفكر، فإنه فعل في اختياره لتراجم الأمراء ورجال الإدارة والسياسة. فقد تحدث ومطولاً عن الأمراء التابعين والموالين للدولة، وكذلك كان نهجه مع الثائرين عليها والمشاكسين، من أمثال بعض شرفاء مكة، وفخر الدين المعني الثاني، وعلي جنبلاط، وعبد الحليم اليازجي.

وإذا كانت التراجم السياسية للأمراء والملوك وهي لا تتجاوز المائة والعشرين بتلك الألوان الكثيرة، فإنه من المرتقب أن تكون تراجم العلماء والأدباء أكثر ثراء وخصباً وهي تنيف عن المائة بعد الألف من التراجم. وتتضمن هذه التراجم علماء في الدين الإسلامي: من محدثين، ومفسرين،

---

(١) من أمثال: الأمير أحمد بن طراباي الحارثي أمير اللجون وأسرته من بعده (جـ ١/٢٢١ ـ ٢٢٢) وفخر الدين المعني أمير الشوف (جـ ٣/٢٦٦ ـ ٢٦٨)، وعلي باشا جنبلاط أمير كلس فحلب (جـ ٣/١٣٥ ـ ١٤٠)، وآل سيفا في طرابلس (حسين بن يوسف جـ ٢/١٢٠ ـ ١٢١ ومحمد بن علي جـ ٤/٤٧ ـ ٤٩، يوسف بن سيفا ٥٠٣) وبنو حرفوش في بعلبك (موسى بن علي جـ ٤/٤٣٢ ـ ٤٣٣) وبنو الأعوج في حماة (الأمير حسن جـ ٢/٤٥ ـ ٥١) وأمراء من البدو كشديد أمير من أمراء آل جبار (جـ ٢/٢٢٢). وآل رضوان العثماني الأصل، أمراء غزة (الأمير حسن جـ ٢/١٧. حسين باشا جـ ٢/٨٨ ـ ٨٩ أحمد بن رضوان جـ ١/١٨٧ ـ ١٨٩). وآل الشهابي حكام وادي التيم (الأمير منصور جـ ٤/٤٢٩ ـ ٤٣٠).

(٢) من أمثال إبراهيم الطالوي (جـ ١/١٧ ـ ١٨) وبرويز (جـ ١/٤٥١).

(٣) ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: بعض رؤساء الجند، كعلي بن أرنؤود (جـ ٣/١٥٦) وخداوردي (جـ ٢/١٢٩) وكيوان (جـ ٣/٢٩٩ ـ ٣٠٣)، وبعض أمراء الحج كرضوان الكرجي أمير الحاج المصري (جـ ٢/١٦٤ ـ ١٦٦). وبعض الثائرين على الدولة كعبد الحليم اليازجي (جـ ٢/٣٢٢ ـ ٣٢٤) وغيرهم.

وفقهاء، ومقرئين، وخطباء مساجد، وأئمة مساجد، ومشرفين عليها، كما تحتوي قضاةً ومفتين، هذا بالإضافة إلى علماء في المنطق وعلم الكلام، ومتفقهين في علوم اللغة العربية كالنحو، والصرف، والبلاغة، وبارعين في علوم الكيمياء والرياضيات من حساب وهندسة، وفرائض، وهيئة، وفلك، وميقات، ومتبحرين في العلوم الغريبة كالزايرجا، والرمل، والأوفاق، وأخيراً أطباء. وفي الحقيقة إن معظم العلماء المترجم لهم كانوا موسوعيي المعرفة، ومن النادر اختصاص واحدهم بفن واحد من فنون العلم، إلا أنه قد يتوافر لديه، بالإضافة إلى إحاطته الشاملة، اهتمام خاص بناحية علمية معينة، يبزّ بها أقرانه، وتميّزه.

وإلى جانب أولئك العلماء، ضمت تراجم المحبي ضمن هذه الفئة، من اشتهر أمره من المتصوفة الكبار المنتمين إلى عديد من الفرق الصوفية، كالقادرية، والشاذلية، والرفاعية، والخلوتية، والنقشبندية، والمولوية، والكلشنية، والأحمدية، والبيرامية وغيرها. كما احتوت متصوفة قد لا ينتسبون إلى فرقة ما، وإنما عكفوا على الزهد والتقشف، وجذبوا إلى الله تعالى وكانت لهم أحوالهم وكراماتهم ـ بحسب ما ذكره المحبي عنهم ـ.

أما الفئة الرابعة من أعيان المجتمع التي ترجم لها المحبي، فكانت فئة الأدباء، وقد خصها بأوفى قسط من اهتمامه. ولقد أشرنا سابقاً لميول المحبي الأدبية الواضحة، ولشاعريته، ولذا فليس من المستغرب أن تنال منه هذه الفئة ذاك الاهتمام. بل يمكن القول إن أخبار «مالكي أزمة الفصاحة واللسان» كانت هدفه الأول[1]، سواء أكان هؤلاء من الساسة أم من العلماء أم من القضاة أم من غيرهم. وقد تابع خاصة أنباء الشعر والشعراء فطغت مسحة الشعر على كتابه. وإذا كان المحبي في طرحه لتراجمه السياسية موضوعياً في اختيارها، فلم يتخذ أساساً في انتقائها سوى مدى قيمتها في عصره، ولفهم

(١) خلاصة الأثر جـ ٢/١.

عصره، فكان بذلك متحرراً من ضغوط السياسة، فإنه كان كذلك متحرراً في اختياره لعلمائه وأدبائه، من الضغوط المذهبية، والأهواء الشخصية. فلم يفرق على الرغم من سنيته، ومذهبه الحنفي، بين علماء من السنة وعلماء من الشيعة، بل توسع في ترجمة بعض الأخيرين[1]، ولو أنها جاءت أحياناً نقلاً عمن سبقه، كما لم يميز في العلماء والأدباء بين فقراء وأثرياء، فعدة ممن ترجم لهم كانوا فقراء، بل إن بعضهم كان مملوكاً سابقاً[2].

ولم يعدم «المحبي» ضمن تراجمه «للمثقفين» - إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير المتأخر - من الترجمة لبعض المجيدين في ميدان الموسيقى أو الغناء، أو الإنشاد، وإن كان عددهم محدوداً. ولكن يلاحظ أنهم لا ينفردون بهذه الصفة وحدها، بل يجمعون إلى جانبها صفات مميزة أخرى، كإجادتهم الخط أو إتقانهم الشعر، أو براعتهم في علم من العلوم، أو شغلهم لمنصب إداري أو ديني[3].

وما عدا التراجم السياسية أو العلمية، والصوفية والأدبية فإن كتاب المحبي يضم بعض ترجمة أدخلها المحبي لأنها أثارت الرأي العام في وقتها لحادثة جرت لها، واشتهر أمرها، ومثال على ذلك «أبو السعود بن الكاتب» الذي كان من الأثرياء المتنعمين، إلا أنه انتحر لولهه وغرامه بغلام[4]، وكذلك ترجمة «يوسف بن عبد الملك البغدادي» الملقب «بالحمار»، لأن كثيراً من

---

(١) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: ترجمة البهاء محمد العاملي الهمداني (جـ٣/٤٤٠ - ٤٥٥) وحسن العاملي الشهير بالشامي (جـ٢/٢١ - ٢٣) وحسن العاملي الكونيني الشهير بالحانيني (جـ٢/٢٩ - ٣٠)، وتراجم عدد من أئمة الزيديين في اليمن، وعلمائها من الشيعة، وكذلك من البحرين.

(٢) أنظر على سبيل المثال ترجمة الشيخ (حسين بن عبد الله) (جـ٢/٩٥ - ٩٨).

(٣) أنظر كمثال: تراجم أكمل الدين الدمشقي (جـ١/٤٢٢ - ٤٢٣) وبعث الله المصري (جـ١/٤٥٣ - ٤٥٤) وعبد علي بن ناصر الحويزي (جـ٢/٤٢٧ - ٤٣٢)، ورجب بن حسين بن علوان الحموي (جـ٢/١٦١ - ١٦٢).

(٤) جـ١/١١٨ - ١١٩.

الأدباء كانوا يعرضون به في أشعارهم، ويبنون على لقبه أشياء[1].

ولا بد من الإشارة إلى أمرين في خاتمة الحديث عن الصفات الخارجية لتراجم كتاب «خلاصة الأثر»، **أولهما** أن تراجم العلماء، والأدباء، والمتصوفة، موزعة على جميع أنحاء العالم الإسلامي، شأنها في ذلك شأن تراجم الملوك والأمراء، وهذا ما أكدناه سابقاً. **ثانيهما** ليس هناك في الواقع توازن في كمية المعطيات التي تحتويها التراجم. وبتعبير أوضح لا تتسق التراجم في عدد الصفحات الخاصة بها. وفي الحقيقة إذا ما وزع مجموع الصفحات على عدد التراجم، لأصاب كل ترجمة صفحة ونصف في المتوسط. إلا أن المُراجِع للكتاب يلاحظ تذبذباً فيما خُصَّتْ به كل ترجمة: فهناك تراجم لم تعط سوى بضعة أسطر بحيث جُمعت ثلاثٌ أو أربع في صفحة واحدة، كما أن هناك تراجم خصت بصفحة كاملة، أو اثنتين أو ثلاث أو أربع. وقد يتجاوز بعضها الصفحات الأربع إلى ثلاث عشرة صفحة[2] أو خمس عشرة[3]. إلا أن عدد هذه التراجم الموسعة لا يتجاوز (٣٥) خمساً وثلاثين ترجمة. ويبدو أن إطالة المحبي أو اقتضابه لا يرتبط دائماً بأهمية صاحب الترجمة أو قيمته وإنما بمدى توافر المعطيات لديه عنه.

(١) جـ ٤/٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٢) أنظر كمثال: ترجمة السلطان مراد الأقدم (جـ ٤/٣٤١ ـ ٣٥٤) أحمد الخفاجي (جـ ١/٣٣١ ـ ٣٤٣).

(٣) أنظر كمثال: ترجمة بركات بن أبي نمي شريف مكة (جـ ١/٤٣٦ ـ ٤٥١) والبهاء محمد العاملي الهمداني (جـ ٣/٤٤٠ ـ ٤٥٥).

«خلاصة الأثر» مصدر تاريخي

إن كتاب المحبي الموصوف آنفاً بمجموع تراجمه تلك الوفيرة والغنية والمتنوعة، كنز تاريخي ثمين، لأنه بغزارة ألوانه، وكثرة نماذجه، يقدم صوراً عديدة من فعاليات مجتمع القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشرللميلاد، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والفنية على امتداد العالم الإسلامي، بل وبعض لمحات من أوضاع العالم الأوروبي الشرقي، الذي كان على احتكاك وعلاقات مباشرة مع الدولة العثمانية، ولا سيما أن كثيراً من الوثائق تعوزنا عن أحوال ذلك المجتمع الإسلامي، والعربي منه، خلال هذه الحقبة.

آ - أبرز المعطيات السياسية في كتاب خلاصة الأثر

إذا ما سئل كتاب المحبي عن الأحوال السياسية في ذلك القرن فانه لا يعطي في الواقع من تراجمه صورة كاملة وجاهزة، مثل تلك التي يمكن أن يقدمها مؤرخ لتلك الأحوال، بسياقها الزمني المتسلسل، وترابطها المنطقي، وتماسكها السببي. إذ تبدو الأحداث ضمن التراجم المنتشرة على طول الكتاب، أحداثاً متناثرة، ومبعثرة، ولا رابطة بينها. فترتيب التراجم على حروف المعجم حطم صلة الزمن بين الوقائع بالنسبة للقارىء ولا سيما العادي منه. ناهيك عن أن طريقة التراجم نفسها تشتت الأحداث بين مجموعة من

السير ، قد يكون بعضها سياسياً ، وبعضها الآخر غير سياسي، ومع ذلك فإن معظم التراجم، وبصفة خاصة السياسية ـ العلمية (كتراجم القضاة مثلاً) تتعرض لقضايا سياسية كثيرة، خطّت مجراها في ذلك القرن، ويمكن للباحث أن يغترف منها، ويبني إذا ما تتبعها في الزمان والمكان، بعض الجوانب الهامة للتاريخ السياسي لتلك الحقبة بناء متيناً، فالمحبي فصل في كثير منها، ولا سيما تلك التي عايش أصحابها، أو استقاها ممن عاصروها. وبدا أنه كان ملاحظاً دقيقاً بصفته شاهد عيان، وناقداً ممحصاً، وباحثاً محققاً بصفته مؤرخاً.

ومن العسير في الحقيقة تقديم تلخيص يحتوي جميع ما طرحه المحبي من أمور سياسية في تلك التراجم لأنها خصيبة جداً بتفاصيلها، وواسعة الامتداد في الزمان والمكان. إلا أنه يمكن فقط تثبيت بعض خطوط، قد ترسم بعض الملامح للصورة السياسية للعالم الإسلامي والعربي آنذاك وقد تكون الخطوط أثخن وأبرز بالنسبة للعالم العربي ولبلاد الشام بالذات وأهم هذه الخطوط:

أولاً: لقد كان العالم الإسلامي منقسمًا من الناحية السياسية إلى عدة دول ففي أقصى الشرق تقوم دويلات هندية إسلامية في الدكن[1]، مثل حيدر آباد، وبيجافور، وغيرها. هذا إلى جانب وجود « ملك أكبر » للهند من المسلمين(ويقصد من سلالة بابر التيموري [2] الذي أقام إمبراطورية إسلامية

---

(١) الدكن: هو القسم الجنوبي كله من شبه الجزيرة الهندية. ومنذ أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي امتد الحكم الاسلامي اليها، واتسع النفوذ الإسلامي فيها في القرن الرابع عشر. وفي الخامس عشر ومطلع السادس عشر انقسمت الدكن إلى عدة ممالك إسلامية مستقلة أهمها مملكة بيجافور وتقع الى الجنوب الغربي من الدكن وتحكمها أسرة (عادل شاهي)، ومملكة غولكندة وتحكمها أسرة (قطب شاهي) التي أسست فيها عام ١٥٩٠م مدينة «حيدر آباد»، فأعطت اسمها للمملكة وتقع غولكندة شرقي بيجافور في وسط الهند. أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٩/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤ بند (الدكن) وكذلك مجلد ٨/ ١٥٥ ـ ١٥٦ بند (حيدر آباد) وانظر الملحق الخاص بالهند في ذيل الكتاب.

(٢) مؤسس الأسرة المغولية في الهند، وهو من أحفاد تيمورلنك. كان حاكماً في فرغانة ثم مد ـ

كبيرة في الهند). وعلى رأس تلك الدويلات الهندية حكام مسلمون يشجعون العلم والعلماء العرب المسلمين الوافدين إليهم، وبصفة خاصة من اليمن وحضرموت، إذ كانت الصلة بين هذا الإقليم والهند قوية.

وإلى غرب الهند، تقوم بلاد العجم (إيران) وحكامها من الصفويين الشيعة(1)، وقد تمكنوا في الربع الأول من القرن السابع عشر، وفي عهد « الشاه عباس » (٩٩٥-١٠٣٩هـ / ١٥٨٧-١٦٢٩) من إعادة سيادتهم على بغداد في ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣ م، بعد أن كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد انتزعها منهم عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م. إلا أن الدولة العثمانية في عهد سلطانها « مراد الرابع » (١٠٣٣-١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣-١٦٤٠ م) استطاعت أن تسترد المدينة العربية عام ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م، وتحتوي مرة أخرى العراق كلها.

وفي غربي وشمال غربي بلاد العجم تمتد « الدولة العثمانية »، وقد بسطت سيادتها على البلاد العربية كلها في المشرق والمغرب، ما عدا المغرب الأقصى، الذي احتفظ باستقلاله تحت سيادة سلاطينه الشرفاء الحسينيين أولاً، فالعلويين (2)، وبعض الأطراف الشرقية والجنوبية من شبه الجزيرة العربية كسلطنة عمان (3).

= سيطرته إلى الهند، واستولى على لاهور عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٤، واتخذ «أغرا» عاصمة لملكه، وتوفي ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م. وقد سعت سلالته من بعده إلى تثبيت نفوذها في الهند ومدّ سيادتها على جنوبها (أنظر الملحق الخاص بالهند في ذيل الكتاب) وانظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة مجلد ٣ / ٢٤٣-٢٤٥ بند (بابر). والدراسة لهيوار Cl. Huart

(1) أنظر حولهم « الملحق الخاص بالفرس » في ذيل الكتاب.

(2) أنظر حول الأسرتين الحاكمتين الملحق الخاص بالمغرب في ذيل الكتاب.

(3) هي الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية. وكان البرتغاليون أثناء سعيهم لاحتكار طريق الهند التجاري خلال القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد قد استولوا على موانئها كمسقط، وصحار. وفي الثلث الأول من القرن الحادي عشر الهجري، / السابع عشر الميلادي تحالفت انكلترة مع إيران لطرد البرتغاليين من مواقعهم في الخليج العربي وانتزعت منهم «هرمز» في مدخله عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م. وفي ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م توصل إلى =

وبدا هذا العالم الإسلامي، كما قدمه المحبي، وعلى الرغم من تمزقه السياسي يعيش ضمن تواصل حضاري إسلامي، وصلات علمية وثيقة، تجعله يبدو موحداً. بل ويمد المحبي ذلك الغطاء الحضاري العربي الإسلامي حتى «جاوة» حيث كانت تأتي أسئلة دينية منها للمشرق[1]، وحتى تنبكتو[2] في السودان الغربي، حيث ترجم لبعض علمائه[3].

إن الملامح العامة لصورة هذا العالم الإسلامي كما يمكن استنتاجها من «خلاصة الأثر» قد تكون صحيحة في خطوطها العامة، إلا أن التفاصيل، ولا سيما عن بلاد الهند، وإيران، وبلاد المغرب الأقصى، ناقصة، ومع ذلك فإنها تبقى مصدراً معاصراً، قابلاً للنقد والموازنة والتكامل مع المصادر الأخرى.

ثانياً: إذا كانت المعطيات الواردة في كتاب «خلاصة الأثر» عن الأوضاع السياسية في شرقي العالم الإسلامي ليست واسعة أو متكاملة، لبعد المحبي

الحكم في عمان «ناصر بن مرشد» من قبيلة اليعاربة. فقام بتوحيد عمان، والجهاد ضد البرتغاليين، وتمكن من أتى بعده من انتزاع الموانىء العمانية من البرتغاليين، ومن مدّ السيادة العربية العمانية إلى شرقي أفريقيا وإنهاء الوجود البرتغالي فيها عام ١٠٧٠ هـ/ ١٦٦٠ م.
أنظر ليلى الصباغ. تاريخ العرب الحديث والمعاصر. دمشق ١٩٨١/١٩٨٢ ص١٤٧-١٤٩

(١) أنظر ترجمة «تاج الدين بن أحمد المعروف بابن يعقوب» المدني ثم المكي المتوفى ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ م في خلاصة الأثر جـ١/ ٤٥٧-٤٦٤، وص ٤٥٨ بالذات حيث أشار بأن للمترجم «رسالة في الكلام على الأسئلة الواردة من بلاد جاوة». وهي الجزيرة المعروفة من جزر أندونيسيا اليوم في الجنوب الشرقي من بلاد الهند.

(٢) إحدى مدن «دولة مالي» اليوم في غرب أفريقيا، وعلى نهر النيجر. كانت مركزاً تجارياً هاماً بين المغرب وأفريقيا الوسطى. تقع على خط عرض ١٦°،٤٩ شمالاً، و٢°،٤٣ غرباً. معظم سكانها من المسلمين.
أنظر حول تمبكتو (تنبكتو) والسودان الغربي، الملحق الخاص بالسودان في ذيل الكتاب.
وانظر أيضاً Grand Larousse Encyclopédique vol.7.P.1—2

(٣) ترجم المحبي لثلاثة من علماء تنبكتو هم:
أحمد البابا جـ/ ١٧٠-١٧٢.
محمد الوطري جـ٤/ ٢١١-٢١٢.
النجيب النكداوي جـ ٤/ ٤٨٨.

عن مسرح الأحداث، وعدم توافر المصادر الغائصة إلى الأعماق لديه، فإن التراجم المحيطة بحياة الدولة العثمانية، من سير للسلاطين، والوزراء، والولاة، والأمراء المحليين والثائرين على الدولة، بل والقضاة والمفتين، وغيرهم من موظفي المؤسستين الإداريـة والدينية، ترسم مجمـوعة من الصـور الحية والواقعية عن هذه الدولة وأوضاعها ولا سيما أن المحبي قد عاش لفترة من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي في لبها. ومن ثم فإن القارىء العادي لها، ناهيك عن الباحث، يخرج منها بتعارف مع الأمـور التالية، تتفاوت سطحية وعمقاً مع تفاوت المعلومات التي طرحها عن كل واحدة من تلك الصور:

١ ـ **أصل الدولة العثمانية**: وقد بين المحبي، هذا الأمر على عادته في ذكر نسب أية أسرة ترجم لعدد من أفرادها في كتابه ـ وذلك عند ترجمته لأول سلطان عثماني أتى اسمه في المقدمة، وهو «السلطان إبراهيم». فبعد أن أوصل تسلسل نسبه إلى «سليمان شاه»، تطرق إلى أصل الأسرة فقال: «قد تقرر أن أصل بيتهم من التركمان النزالة الرحالة من طائفة التاتار. وينتهي نسبهم إلى يافث بن نوح وهو الجد السادس والأربعون للسلطان إبراهيم. ولما كانت أسماؤهم أعجمية (أي أسماء الأجداد الستة والأربعين) أضربت عن ذكرها لطولها واستعجامها، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف إن لم يضبط شيء منها، ولا حاجة إلى الإحاطة فيها بلا فائدة، فإنها مـذكورة في التـواريخ التركية». وقول «المحبي» «قد تقرر» قد يفصح عن أنه قد حُسم خلاف كان قائمًا حول ذلك الأصل. وفي الواقع اختلف المؤرخون في ذلك، فبعضهم نسبهم إلى «عثمان بن عفان»[1] وبعضهم الآخر إلى أحد مماليك «أحمد بن طولون» صاحب الدولة الطولونية في مصر، (٢٥٤ـ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ـ٩٠٥م) أو

(١) محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور. ٣ أجزاء. القاهرة ١٣١٢ هـ. جـ٣ /٢٣٧ وابراهيم بن عامر العبيدي قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان مصر ١٣١٧ هـ / ٢١ فما بعد. وقد دوّن الكتاب ١٠٩٢ هـ/١٦٨٠ م.

أحد مماليك المأمون العباسي[1] . فالمحبي إذاً يقر بأصلهم التركماني لا العربي القرشي كما سعى إلى ذلك مؤرخ مصري معاصر تقريباً للمحبي وهو « إبراهيم بن عامر العبيدي المالكي ». ولم يسع المحبي إلى الحديث عن سلاطينهم الأول ومفاخرهم في ميدان الفتوح والجهاد، إذ أن استطراده هذا قد يخرجه عن موضوعه الأساسي وهو ترجمة حياة السلطان إبراهيم، واكتفى بتسويغ تجاوزه ذلك بقوله: « وأما ذكر مبدأ ظهورهم فهو شائع مشهور، وقد تكفل به غير واحد من المؤرخين، فلا نطيل بذكره، ونرجع إلى ما هو الغرض من ترجمة السلطان إبراهيم»[2] .

٢ ـ **النظم السياسية التي كانت تحكم الدولة في المركز**: كوجود « سلطان » على رأسها، وإلى جانبه عدد من الوزراء وعلى رأسهم الوزير الأعظم، وإلى جوارهما مؤسسة إدارية غنية بالإختصاصات المختلفة، وبخاصة منها المالية والعسكرية، ومؤسسة دينية لها نظمها ومراتبها، واختصاصاتها.

٣ ـ **النظم السياسية التي كانت تحكم الإمبراطورية**: من حيث تقسيمها إلى **ولايات وصناجق وأقضية** في آسيا، وأخرى في أوروبا وأفريقيا، **والهيئة الحاكمة في تلك الولايات** من بكلربكي (أو أمير الأمراء، أو الكافل، أو المحافظ كما يعرب المحبي التسمية)، وكتخدا (نائب الوالي)، والدفتردار، (القابض على الشؤون المالية) وآغا العسكر (ويسميه المحبي رئيس الجند أو ضابط الجند) وأنواع العسكر من«ينكجرية» (وهم المشاة) (ويعرب المحبي التسمية ويطلق عليها اسم«الجند الجديد» كما هو معناها بالعربية) وسباهية (وهم الفرسان)[3]،

---

(١) أنظر محمد بن طولون (المؤرخ الدمشقي المتوفى ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ـ جزءان ـ تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢م. جـ٢/ ٣٠.

(٢) أنظر خلاصة الأثر جـ١/ ١٣.

(٣) السباهية كلمة فارسية الأصل تعني « الفارس ». وكانت تتكون فرقة الفرسان في الدولة العثمانية من جنود إقطاعيين في الأساس، أي الدولة كانت تمنحهم إقطاعات يعيشون على واردها. وكان على كل فارس مقطع أن يلتحق بالجيش في حالة الحرب، وأن يقدم في الوقت=

وسكبانية[1]. هذا إلى إشارات سريعة عن الإقطاع في بعض الولايات، وموظفيه، وعن بعض الضرائب المفروضة كالعوارض السلطانية[2] مثلاً.

= نفسه عدداً محدداً من الجند الجُبَلِيَّة. وقد أطلق عليهم سكان الجزائر وتونس وطرابلس الغرب اسم «الصبائحيين» وهو تحريف للسباهيين.

ويختلف الإقطاع الممنوح باختلاف مرتبة المقطع، وكان على ثلاث درجات:

١ - **الإقطاع الخاص** وهو ما تجاوز وارده ٩٩,٩٩٩ أقجة (عثماني).

٢ - **الزعامة** وهو ما تراوح وارده بين ٢٠,٠٠٠-٩٩,٩٩٩ أقجة.

٣ - **التيمار** وهو ما كان وارده بين ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ أقجة - ١٩,٩٩٩ أقجة.

أنظر لتفصيل أكبر: Gibb and Bowen, op, cit, part I. p.46—56.

(١) السكبانية أو السكمانية كما صحّفت: كلمة فارسية الأصل مركبة من مقطعين «سك» وتعني «الكلب» بالعربية، و«بان» وتعني «الصاحب، أو الحامي»، والمقطعان معا يعنيان «حامي الكلب»، أي ذلك الذي يقود الكلاب أمام الكبراء والأمراء حين يسيرون إلى الصيد. وقد أطلقت هذه التسمية على إحدى فرق المشاة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، ولم توضع تحت قيادة آغا الينكجرية إلا بعد فتح القسطنطينية. وهناك من يؤكد أن هذه التسمية كانت تطلق على فرقة المشاة العثمانية قبل إنشاء الينكجرية. ولم تلبث أن أسميت بها فرق الجند المرتزقة الذين استأجرهم السلاطين والولاة. وكان هؤلاء يتقاضون أجراً أثناء الحرب أما في أوقات السلم، فإنهم كانوا يهيمون على وجوههم في الأناضول، ويبيعون خدماتهم لمن يدفع لهم. وكانوا ينهبون ويسلبون. وقد استغلهم الثائرون على الدولة. ويبدو أنه قد تكونت منهم مع الزمن جماعات تنتظم تحت زعامة واحد أو أكثر منهم. وقد أطلق على تلك الجماعات التي عاثت فساداً في بلاد الأناضول من أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أسم «الجلالية».

أنظر: البوريني: تراجم الأعيان جـ٢/٢٥٩ - والمحبي جـ٢/٣٢٤ (ترجمة عبد الحليم اليازجي) - و Gibb and Bowen, op. cit, part I. p.59—60.

(٢) «العوارض السلطانية» أو «الديوانية» أي هي الضريبة المفروضة أثناء الطوارىء أو الأمور العارضة، أو بتعبير أدق أثناء الأزمات المالية التي تتعرض لها خزينة الدولة من جراء حرب ما مثلاً. إلا أنها أصبحت مع الزمن ضريبة تفرض كلما وجدت السلطات حاجة للمال. وقد سميت بـ«السلطانية» و«الديوانية» لأنها فرضت بقرار من السلطان بعد موافقة الديوان. وكانت الدولة تقسم الأقضية إلى (بيوت) أو عوارض خانة، وتفرض على كل بيت منها نسبة معينة من الضريبة الكلية. وكانت تؤخذ من المدنيين فقط، وتقسم البيوت إلى غنية ومتوسطة وفقيرة. ويجبي الضريبة عادة القاضي ويذكر «غب وبوين» أن هذا النظام الضريبي =

وفي الأسطر القليلة التالية، المقتطفة من ترجمة وزير من وزراء الدولة العثمانية، نموذج صغير جداً مما ورد في كتاب المحبي عن بعض تلك النظم السياسية ـ الإدارية المشار إليها آنفاً ـ ومما يمكن أن تقدمه تراجمه من تعارف مع مؤسسات الدولة السياسية. فهو يقول عند حديثه عن «حسن باشا الشهير بيمشجي»[1] بأنه: «كان أحد الوزراء[2]، في عهد السلطان محمد بن مراد[3]

= قد يرجع إلى منتصف القرن السابع عشر. إلا أن ما ورد في ترجمة «كمال أفندي طاشكبري زاده» في كتاب لطف السمر جـ٢/٦٠٧-٦١٠ وترجمة الشخصية نفسها في خلاصة الأثر جـ٣/٣٥٧-٣٥٨، يدل على أن هذه الضريبة كانت موجودة في عام ١٠٠٥ هـ/١٥٩٧م، أي في أواخر القرن السادس عشر ولقد جاء ذكرها في خلاصة الأثر أكثر من مرة. أنظر على سبيل المثال ترجمة «السيد حسن الدمشقي» جـ٢/١٥، الذي أرسل إلى القسطنطينية لعرض مادة العوارض السلطانية على السلطات المسؤولة. وقد قرر منها في كل سنة (٢٥٠٠٠) إلى خزينة السلطان (دون تحديد النقد)، ويشير المحبي إلى أنه «لم يكن سبق ذلك» ولعله يقصد المبلغ الكبير نسبياً، لأن ما يرويه يرجع إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وقد يكون بالتأكيد بعد استرداد بغداد من العجم عام ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨ م.

(١) انظر الترجمة في خلاصة الأثر جـ٢/٧٢.

(٢) لقد كان «الوزير» هو مساعد السلطان، كما كان عليه الأمر في الخلافة العباسية وفي دول إسلامية أخرى وكان يسمى في عهد السلاطين الأول «بريفان» أو «برفنجي»، وتعني بالفارسية (مفتش) أو (آمر). وكانت «الوزارة» في الدولة العثمانية رتبة ولقباً تابعاً لها، يغدقها السلاطين على معاونيهم المقربين. وقد ارتفع عدد الوزراء في السلطنة العثمانية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إلى تسعة وزراء. إلا أن المعاون الأول للسلطان من هؤلاء الوزراء كان يطلق عليه، تمييزاً له عن الآخرين، لقب «الوزير الأعظم» أو «الصدر الأعظم»، وهو المشرف على جميع شؤون الدولة بعد السلطان، بل هو أشبه بنائب له. وكان يرئس «الديوان الهمايوني» منذ عهد السلطان محمد الفاتح، ويتمتع بصلاحيات واسعة. وقد أنقص عدد الوزراء في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي إلى أربعة أو خمسة فقط. وكانوا يلقبون بحسب ترتيبهم ومرتبتهم بـ(الوزير الثاني)، (الثالث)، (الرابع).. الخ. وكان عدد من الولاة يحمل رتبة وزير. ويلاحظ أن «المحبي» عند حديثه عن بعض الولاة كان يؤكد هذا الأمر، إذا كان الوالي من حملة تلك الرتبة، فيشير إلى بعضهم «بالوزير»، بينما لا يفعل ذلك مع الآخرين.

أنظر لتفصيل أكبر عن «الوزارة في الدولة العثمانية» Gibb and Bowen, op. cit. Part 1. p. 107 and seq.

(٣) هو محمد الثالث (١٠٠٤-١٠١٢هـ/ ١٥٩٥-١٦٠٣م). وقد ترجم له المحبي في جـ٤/ ٢١٦-٢٢٣، والغزي في لطف السمر جـ١/ ١٥٢-١٥٦. وقد تمت في عهده محاربة =

وكان في مبدئه من جماعة السلطان في الداخل[1]، ثم خرج ضابطاً للجند الجديد[2]، وعزل. ثم أعيد، ثم أعطي حكومة

= الأفلاق (فلاشيا وهي مقاطعة من رومانيا الحالية) والهنغار والنمسا. ومنيت الدولة العثمانية في بادىء الأمر بعدة هزائم، ثم قام السلطان بنفسه بحملة فحقق الأتراك النصر. وفي عهده اضطربت الأمور في الولايات، وازداد تمرد الانكشارية، .واستغل الفرس الضعف ليستعيدوا ما فقدوه سابقاً من مقاطعات وخلفه بعد وفاته ابنه السلطان أحمد (١٠١٢-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٣-١٦١٧.

أنظر لتفصيل أكبر:

Edward S. Greasy, History of the ottoman Turks; reprinted in Beirut 1968 - Khayats p. 230-238.

(١) لقد كانت « سراي السلطان » أو مقر إقامته وعمله، مقسمة إلى ثلاثة أقسام: قسم الحريم حيث تقيم نساؤه وجواريه، وله فيه غلمانه وخدمه. وقسم الداخل أو الجناح الخاص الذي يصفو فيه السلطان لنفسه، ولأموره الخاصة، بعيداً عن الحريم وأعمال الدولة المباشرة، ولهذا القسم خدامه من الغلمان البيض والسود، وكانوا يربون تربية خاصة. وعلى رأسهم كان منصب « آغا باب السعادة ». والقسم الثالث هو قسم الخارج وفيه يتم اتصال السلطان بشؤون الدولة، وله موظفوه، والعاملون فيه، وهم على احتكاك مباشر مع قادة الجند وموظفي الإدارة المختلفين. ويطلق على كبار العاملين فيه على خدمة السلطان لقب « اغوات الركاب الهمايوني » وتقع قاعة العرش أو قاعة استقبال السلطان بين قسم الداخل والخارج.

أنظر لتفصيلات أوسع :

– Gibb & Bowen, Part I. P.72 and seg

— Halil Imaleik; The ottoman Empire (the Classical Age 1300-1600) Translated by Norman Itz Kowitz and Colin Imber London 1973 p. 76-88.

(٢) أي الانكشارية وهي فرق المشاة في الجيش العثماني. وأصل هذه الفرق من عبيد السلطان (قابي قولاري) الذين حصل عليهم إما من الأسر أثناء الحروب أو عن طريق الجمع قسراً (الدفشرمة) من فتيان الرعايا النصارى في ولاياتة البلقانية، وكان يربيهم تربية خاصة في مدارس أعدت لهذا الغرض وكانوا يتقاضون على خدماتهم أجوراً نقدية وعينية على خلاف الفرسان الأقطاعيين. وقد استطاعت عناصرهم أن تقبض على معظم مناصب الدولة حتى الصدارة العظمى. وكلمة الإنكشارية مركبة من مقطعين (يني) ويعني (الجديد) و(شيري) وتعني « العسكر » أو « الجند » فالإنكشارية هي (الجند الجديد). وقد فسد نظامهم الذي كان يضرب المثل بدقته وصرامته في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وتفاقم تمردهم على السلطنة في العاصمة، وعلى الولاة في الولايات، وغدوا عنصر شغب، وفوضى، وفساد، في الدولة بعد أن كانوا دعامة قوتها وعنفوانها. وظل أمرهم يزداد سوءاً حتى =

شروان[1]، ثم عزل، وصار وزيراً رابعاً، وأعطي التفتيش على السكة الجديدة والأموال[2] في شهر ربيع الأول سنة تسع بعد الألف، فشكرت خدمته، فصار قائم مقام[3] الوزير في شهر شعبان من هذه السنة. ثم أعطي ختم الوزارة العظمى[4] في سادس عشريّ محرّم سنة عشر وألف».

٤ ـ تفصيلات عن سياسة السلاطين العثمانيين الذين حكموا خلال القسم الأعظم من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وحياتهم، مما يرسم بعض معالم السياسة العثمانية الداخلية والخارجية. وقد ترجم المحبي لسبعة منهم فقط أشرنا إليهم سابقاً، أما السلطانان الثامن والتاسع، اللذان شغلا بقية القرن وهما «محمد الرابع» (١٠٥٨ ـ ١٠٩٩ هـ/ ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م) وسليمان الثاني (١٠٩٩ ـ ١١٠٣ هـ/١٦٨٧ ـ ١٦٩١ م) فإنه لم يتطرق لترجمتها، إلا أنه أشار إلى السلطان الثامن وهو «محمد الرابع»

---

* قضى عليهم السلطان محمود الثاني في عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦م والمقصود بضابط الجند الجديد أي رئيسهم، وبالتعبير العثماني (آغا الإنكشارية).
أنظر لتفصيل أكبر: ليلى صباغ: الجديد في العسكر الجديد. مجلة الفكر العسكري العدد الثالث دمشق عام ١٩٧٥ (ص١٨٨ـ٢٠٦) والعدد الرابع. دمشق ١٩٧٥ (ص٧٣ـ٨٨).

(١) مقاطعة على الساحل الشمالي الغربي لبحر قزوين وقد انتزعتها الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في إيران.

(٢) أي النقود المسكوكة جديداً، إذ أخذ تزييف النقود يتزايد منذ عهد «محمد الثالث» وأثناء حكم خلفائه من بعده. وهذا التزييف تعرفه العثمانيون من أوروبا التي كانت تعمل في بابه على نطاق واسع، ولذلك أوجدت الدولة تفتيشاً على النقد.

(٣) «القائم مقام» بالنسبة للوزير هو الذي كان يحل محل الصدر الأعظم أثناء غيابه. ويتمتع في فترة نيابته هذه، بكل سلطات الصدر الأعظم ما عدا الإشراف على المنطقة التي تجري فيها العمليات العسكرية. وقد كان للوالي أحياناً (قائم مقام) يحلّ محله في بعض الظروف الطارئة.

(٤) كان السلطان يفوض سلطاته للوزير الأعظم بمنحه خاتم توقيعه الذي كانت تمهر به جميع الوثائق الهامة وفي حالة إعفائه من منصبه فإنه كان يطلب منه رده.
H. Inalcik, of, cit, P95

ـ الذي عاصره المحبي ـ خلال ترجمته لبعض وزرائه «كمحمد الكوبرلي»[1]، و«مصطفى باشا»[2] وفي بعض مواضع أخرى. وإذا كان سبب عدم ترجمته للسلطان سليمان الثاني واضحاً وهو عدم وفاته في القرن الحادي عشر، فإن سبب انصرافه عن ترجمة «محمد الرابع» يبقى مبهماً. ولعل تأخر وفاة محمد الرابع إلى ما بعد ابتداء المحبي بتدوين كتابه عام ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م، ومجيء هذه الوفاة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري عامل من عوامل هذه الثغرة في التراجم السياسية للمحبي. وقد يكون السبب أيضاً المعاصرة المباشرة، والحرج من نشر أمور قد لا تسر القائمين على السلطة.

٥ ـ دقائق كثيرة عن الأحوال الداخلية المتدهورة للدولة العثمانية كانحطاط مختلف مؤسساتها الإدارية، وانتشار بيع المناصب وتسليمها لغير أهلها[3]، وتفشي الرشوة وفساد الجيش بانكشاريته، وسباهيته، وثوراته المتوالية في العاصمة، حتى غدا السلطان ألعوبة في يده كما حدث خلال تسلط الأعاجم

---

(١) خلاصة الأثر جـ٤/٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه / ٣٩٧.

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر: جـ١/٦٠ ترجمة «إبراهيم باشا الوزير الأعظم» أحد وزراء السلطان «مراد بن سليم الثاني»، حيث يقول عنه: «وكان يعقد عرائس المناصب من غير كفاءة لكل خاطب، ويفرقها بعد استيفاء مدتها ويزفّها لآخرين دون انقضاء عدتها. كان أكثر مواعيده منجزة بسيول هباته، لكنها وساوس تنشأ من خطراته، حتى غدت عنده أكياس الدراهم أخلى من قدر البخيل ومعدة الصائم».

وكذلك جـ٢/٨٥ في ترجمة «حسين باشا جانبولاذ»، حيث يبين أن أحد الولاة وهو حسين باشا أمير لواء الحبشة قد خرج عن طاعة السلطنة «لأنه لما تولى إمارة الحبشة أخذ منه أكابر الدولة مالاً جزيلاً استدان غالبه ثم عزلوه سريعاً، فشق عصا الطاعة مغالباً لهم».

ومثل ثالث جـ٢/٦٩ـ٧٠ في ترجمة «حسن باشا الطواشي» الوزير الأعظم لدولة السلطان محمد بن مراد، حيث أتى فيها: «وهم بتوسيع باب الارتشاء، وأخذ بالأخذ من الناس كيف يشا، رمى غرض الرشا فأصاب، ودعاه داعي البغي فأجاب، وجمع من شتيت الطمع ما جمع... فأجل مناه أخذ الناس، وقاعدة ارتشائه كتضمين العرب على غير قياس. ما من منصب إلا وباعه لغير أهله، ولم يجتهد في إيقاع تقليده في محله». ويقصد بالتضمين: تضمين الشعر، أي ما لم يتم معناه من بيت الشعر إلا في البيت الذي بعده. انظر لسان العرب مادة (ضمن) مجلد ١٣ ـ ج٥٥/٢٥٨ ـ ٢٥٩، (طبعة ـ دار صادر بيروت ب٦٥ جزءاً و١٥ مجلداً).

الأتراك على الخلافة العباسية إبان الدور الثاني من العصر العباسي، فشرع يعين من يراه هو صالحاً، ويعزل ويقتل من ينقم عليه [1]، هذا بالإضافة إلى بروز نفوذ كبار موظفي السراي وبصفة خاصة المشرفين على قسم الحريم (القزلار آغاسي) - ويعرب المحبي المنصب فيسميه (ضابط الحرم) -، فأخذوا هم الآخرون يتداخلون في خلع السلاطين وتعيينهم، كما حدث مع السلطان «مصطفى الأول» [2].

ولا يكتفي المحبي أثناء عرضه لتراجمه السياسية بمجرد سرد الأحداث، بل يعلق هنا وهناك مضمناً تعليقاته أسباب ذلك التدهور تارة، وتنبؤاته بالمستقبل تارة أخرى. ويلاحظ أن في تحليله للأمور نظرات صائبة، ولا سيما في الأمور التي عاصرها. ومن أمثلة تلك النظرات الصائبة التي تلخص الأوضاع العامة المتدهورة للدولة قوله: «إن أمر الملك كان من عهد أن ولي السلطان محمد بن إبراهيم السلطنة قد اختل (أي عهد السلطان محمد الرابع الذي عاصره المحبي) وتهاون رؤساء الدولة، لصغر السلطان، في نظم الأمور على نسق يرضي الجمهور. فكثرت الأغراض، وبدلت الجواهر بالأعراض، وتغيرت الدول وذهبت الناس الأول، وقامت الفتن على قدمٍ وساق، وانتصب

---

(١) أنظر ترجمة « السلطان عثمان » ج٣/١٠٧-١٠٨، حيث تألب ضد هذا السلطان الإنكشارية بحجة منعه من السفر إلى الحج، وقتلوا ضابط الجند (آغا الإنكشارية)، والصدر الأعظم السابق، وقبضوا على السلطان وقتلوا الوزير الأعظم دلاور باشا، وضابط الحرم (القزلار آغاسي)، وأجلسوا السلطان مصطفى ثانية على العرش عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م. وانتهى الأمر بخنق السلطان عثمان.

وانظر كذلك في ترجمة السلطان «مراد بن سليم» جـ٤/٣٥٢-٣٥٣ وما تتضمنه من أخبار الفتنة باستامبول حيث اتفق الإنكشارية، في ربيع الآخر من ١٠٠١ هـ / كانون الثاني ١٥٩٣ م، والسلاحدارية (فرقة من الفرسان) على المطالبة بعلوفاتهم بعد أن أبطىء بتسليمها، فألحوا لتسليم « الدفتري » لهم، وانتهى الأمر بتسليمه.

وانظر أيضاً ثورة السباهية ضد السلطان مراد الرابع ج٤/ ٣٣٩، وقضاءه عليها.

(٢) أنظر ترجمة « السلطان مصطفى » جـ٤/٣٦٣-٣٦٥، ودور « القزلار اغاسي » (ضابط الحرم) المسمى مصطفى آغا، والذي كان آنذاك قائم مقام الوزير الأعظم، في خلع السلطان مصطفى عام ١٠٢٧ هـ / ١٦١٨ م وتولية السلطان عثمان.

الخلاف، وارتفع الوفاق، وتقوَّت ضعاف الدولة وأظهروا العتوَّ والصولة، فكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم. وبهذا السبب كان يولَّى الوزير أياماً فلا يرى هدواً ولا راحة، ولا إن كان مناماً، ثم يقتل، أو يعزل، أو ينهب أو يسلب، إلى أن بغت طائفة من العبيد اللئام الذين هم داخل حرم السلطان من الخدام، وهجموا على جدة السلطان صاحبة الخيرات فقتلوها ليلاً، ولم يخشوا إثماً ولا ويلاً»[1].

ومن تعليقاته المتنبئة بانهيار الدولة قوله في حرص السلطان على تزيين عاصمته، إثر انتصار أحرزه في حرب مع ملك المسقو (الروس) - وكان المحبي موجوداً آنذاك في القسطنطينية - «فشرعوا في التزيين، وبذلوا جهدهم في التأنق فيها، واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار. وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها، وأنا متحقق من غير شك يخامرني أنها لم تصدر في زمان، ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم، ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور واستوعب جميع آلات النشاط والحبور وفشت المناهي، وقصر فيها المحذر والناهي. وعلمت العقلاء أن مثل هذا الأمر كان غلطاً، وأن ارتكابه جرم عظيم، وخطأ. وما أحسب ذلك إلا نهاية نهنهة السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة ثم طرأ الانحطاط وشواهد النقصان وتبدل الربح بعدها بالخسران»[2].

وكأني بالمحبي أراد أن يدعم نظراته السياسية التحليلية في انهيار الدولة، بما أكده المفكرون الأتراك العثمانيون المعاصرون، في هذا المجال أيضاً، عندما ساق تلخيصه لكتاب «واقعتنامه» التركي «الذي دوَّنه المولى «أويس» المعروف «بويسي»»، «واحد الزمن في النظم والنثر باللغة التركية - كما عرَّفه المحبي - والذي ألَّف السيرة النبوية بالتركية، والمتوفى عام ١٠٣٧ هـ/١٦٢٧ م.

---

(١) انظر جـ٤/ ٣٠٩-٣١٠ ترجمة «محمد كوبري».
(٢) جـ٤/ ٣٩٨ ترجمة «قره مصطفى باشا».

فهذا التلخيص يمثل نقداً للسلطنة العثمانية، وبياناً بأسباب ضعفها، وبعض ومضات في الفكر السياسي لتلك الحقبة، ترسم اتجاهه نحو التشاؤم، وبأن الفساد في الدول مبدأ عام، وأن جميع الدول الإسلامية وقعت فيه. ويروي المحبي ما ورد في ذلك الكتاب موضحاً أن صاحبه ألفه على طراز مخاطبة جرت من البديع الهمذاني[1] لابن فارس[2] صاحب المجمل. فقد رتب «أويس» في كتابه «واقعتنامه» رؤيا وأبرزها في ذلك القالب، في عهد السلطان أحمد في حدود سنة سبع عشرة وألف، وكان أمر الدولة إذ ذاك في غاية الاضمحلال، فقال والحديث لأويس: «لما لاحظت الحوادث في عالم الكون والفساد، كنت أتمنى لو كلمتُ السلطان في هذا الشأن بلا واسطة، حتى طرقني النوم في أثناء هذه الفكرة فرأيت جماعة، كل منهم في ناصيته نور السعادة لامع، وشعاع الإقبال في وجهه، فنزلوا في بستان وكل منهم استقر على كرسي، وبقيت أنا مع الخدم. فناداني المتأمِّر منهم وأجلسني، فسألت عنه، فقيل لي إنه الإسكندر ذو القرنين[3]، والذين هم حوله ملوك آل عثمان الماضين. ثم أقبل موكب حافل وأسفر عن السلطان أحمد، فجاء وجلس على

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني أبو الفضل (٣٥٨ـ٣٩٨هـ/ ٩٦٩ـ١٠٠٨م). أحد كبار الكتاب بالعربية له « مقامات » قلدها الحريري .وكان شاعراً، تساجل هو وأبو بكر الخوارزمي في نيسابور. كان مقرباً من أمراء عصره وملوكه. توفي في هراة، وله ما يزيد عن مائة من الرسائل.
وفيات الأعيان جـ١/ ٣٩ ـ الأعلام جـ١/ ١١٢.

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي من أئمة اللغة والأدب (٣٢٩ـ٣٩٥ هـ/ ٩٤١ـ١٠٠٤م). قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب بن عباد. ولد في قزوين وتوفي في الريّ. من تصانيفه « مقاييس اللغة » و« المجمل »، و« الصاحبي » في علم العربية وغيرها
وفيات الأعيان جـ١/ ٣٥ ـ الأعلام جـ١/ ١٨٤ .

(٣) هو الإسكندر المقدوني أو الإسكندر الكبير الشهير (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م) ولد في مقدونيا من أرض اليونان وتعلم على أرسطو، وكوّن امبراطورية شاسعة امتدت على بلاد اليونان وآسية الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، والعراق، وفارس، وحتى حدود الهند. توفي في بابل من أرض العراق.
أنظر: G.L.E. vol. I. P. 230—231

سرير مقابل للإسكندر، وأخذ هو والإسكندر في المكالمة. فكان تارة يتكلم وذاك ينصت، وتارة ينصت وذاك يتكلم، حتى ابتدر الإسكندر وقال: إن السلطان قَلْبُ العالم فإذا لم يكن القَلْبُ معتدل الأحوال، انحرف العالم عن حد الاعتدال والعدل. والرشادُ مادة السداد، والمرحمة والإنصاف سبب جمعية الرعايا، والجَوْر والاعتساف باعث تفريق البرايا. فتأوَّه السلطان ثم قال: أيها السلطان الأعظم كلامك حق معلوم. أما اعتدال القلبِ فموجود، وأما الجَوْر فغيُر مجحود، وذلك لأن السلطنة لم تُسلَّم لنا إلا بعد خَراب الدنيا. فإنه من عهـد جـدي المـرحـوم السلطان «مـراد الثـالث» (٩٨٢-١٠٠٤ هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥م) قد ارتكبت مكروهات لا محيد عنها، وذلك بسبب التصميم على قلع شجرة الرفض والإلحاد[1]، فاقتضى الأمر تعيين العساكر التي لا نهاية لها، ولزم ذلك إعطاء المناصب العليَّة والمراتب السنيَّة لغير أهلها. ولزم من ذهاب العساكر وإيابها في كل سنة تكاليف الرعايا، ووقع بينهم وبين العساكر. وربما أدت مخاصمة اللسان إلى محاكمة السيف والسنان، فوقع بسبب ذلك الخراب. فقال : إن قطع النظر عن ذلك وادُّعي العمار فيما قبله، وإن الدنيا لم تخرب إلا في هذا الزمان، فيا ليت شعري متى كانت معمورة، أفي زمان آدم؟ ثم ذكر وقائع نبي بعد نبي الى نبينا، ثم إلى الخلفاء، ثم إلى الملوك ثم إلى زمن الملك الناصر بن قلاوون[2]، ولا يتعرض إلا لصاحب ماجـرية غريبة. وبعد إيراد الماجرية يقول: في أي زمان هذا كانت الدنيا معمورة إلى آخر ما ذكره. ومن رسالة البديع تعرف الأسلوب، غير أنه غيّره في كونه ابتداءً من أول الدنيا إلى الطرف الآخر، والبديع ابتدأ من الطرف الآخر»[3].

---

(١) يقصد محاربة الشيعة الصفويين.

(٢) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ/ ١٢٩٣-١٣٤١ م)، أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام. تولى العرش ثلاث مرات، إذ اغتصب الملك منه مرتين. ومع ذلك يعتبر عصره من أزهى عصور دولة المماليك البحرية.

أنظر علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى. القاهرة ١٩٤٧/١٦٨-١٧٥.

(٣) خلاصة الأثر جـ١/ ٤٢٦-٤٢٧.

ويقدم كتاب المحبي بالإضافة إلى ما ذكر سالفاً من الأمور السياسية:

٦ ـ معلومات غزيرة عن الأوضاع السياسية في عدد من ولايات الدولة العثمانية، وبصفة خاصة العربية المشرقية منها. كسياسة بعض الولاة، والقضاة، وموظفي الدولة الآخرين، والفرق العسكرية فيها، وموقف الشعب منها وعلاقاتها فيما بينها. ويسلّط المحبي أضواء قوية على الأحوال في **بلاد الشام، والحجاز، واليمن،** ويتحدث طويلاً، مستفيداً من مصادر من سبقه من المؤرخين كالغزي والبوريني، **عن فساد الإنكشارية وتسلطهم على البلاد، وتسربهم إلى الحياة الصناعية والتجارية، وسعيهم الى تملك الأراضي والأوقاف ولو قسراً واغتصاباً، وتكوينهم شبه طبقة خاصة متنمّرة. ويتحدث عن رؤسائهم من الطغاة ككيوان**[١] وخدا وردي[٢] وغيرهم، وعلاقتهم المؤذية بالأهالي، والولاة، والقضاة، وتعاونهم أحياناً مع بعض الأمراء المحليين كفخر الدين المعني الثاني مثلاً[٣]، أو مع بعض الولاة كحسن باشا[٤]، ضد الدولة، كما استفاض في الحديث عن الفتن المتولدة من تحركاتهم وما فعلوه في حلب بصفة خاصة[٤] وبدمشق، وفي عدة مناسبات، من سلب ونهب وفساد[٥]. كما يبرز ظلم الولاة للأهالي في بلاد الشام، والجور عليهم بالضرائب، والمصادرات، وفساد بعض القضاة، وظلمهم وارتشاءهم، وثورات الأهلين عليهم، ورجمهم لهم [٦].

---

(١) أنظر ترجمته في جـ٣/٢٩٩-٣٠٣.

(٢) جـ٢/١٢٩.

(٣) جـ٢/٧٨-٨٩.

(٤) أنظر جـ٢/٨٤-٨٧ ترجمة (حسين جانبولاذ)، وجـ٤/ ٤٤٨ ترجمة (نصوح باشا).

(٥) على سبيل المثال: جـ١/٢٦٣ ترجمة (المولى أحمد بن عوض وحادث القشلق) وجـ٤/٣١١ ترجمة (محمد باشا الكوبري). وجـ٤/٣٣١-٣٣٢ ترجمة (محمود قاضي القضاة بدمشق) - وجـ٢ /٤١٧-٤١٨ ترجمة (عبد السلام بن عبد النبي المرعشي).

(٦) من الأمثلة: ما ورد في ترجمة الوالي «أحمد باشا الحافظ» (جـ١/٣٨١): «وساس الأمور في بداية أمره على النهج القويم، إلا أنه لما طالت مدته تجبر وظلم الناس ظلماً بلغ الغاية، وملأ من الرعب قلوب أهل دمشق. ولما مات الشيخ محمد بن سعد الدين (شيخ الطريقة الجباوية) تنازع في المشيخة أخوه سعد الدين وابن أخيه كمال الدين ... فأخذ من كل واحد منها أموالاً لا تحصى... وصادر جماعات في دمشق، وأخذ منهم أموالاً بغير حق». =

ويقدم معلومات وافية عن ثورات الأمراء المحليين «كفخر الدين المعني»[1] و«حسين جنبلاط»[2] و«علي جنبلاط»[3]. وبالمقابل، فإنه يطرح أيضاً وبموضوعية ما قدمه بعض الولاة من إصلاح وتحسين للأحوال، وما اتصف به بعض القضاة من عدل واستقامة[4].

ويتوغل في تلافيف صراع الأشراف في الحجاز مع حاكم جدة العثماني، وصراعاتهم فيما بينهم، وتدخل ولاة اليمن ومصر والشام في تلك الصراعات[5]، وكذلك في صراع أئمة اليمن من الشيعة الزيديين مع الدولة العثمانية وولاتها ووصولهم للاستقلال عنها[6] إلى غير ذلك من قضايا سياسية داخلية شغلت المشرق العربي آنذاك.

ويلاحظ أن المحبي قد خص بلاد الشام، واليمن، والحجاز، بالقسط الأوفى من المعطيات السياسية، بينما اقتصرت معلوماته عن بلاد المغرب

= وكذلك ما أتى في ترجمة «السيد حسن بن أحمد الدمشقي المعروف بابن الحجار» جـ٢/١٥ فقد أخذ على عاتقه أن يتوجه إلى آمد ليعرض أحوال أهل دمشق وما هم عليه من الحيف والظلم إلى الوزير قره مصطفى باشا لما عاد من بغداد، وذلك برفقة بعض العلماء... كما توجه إلى العاصمة لعرض مادة «العوارض السلطانية».

- وانظر أيضاً ترجمة «القاضي أحمد الأياشي» جـ١/٢٠٨-٢٠٩، وترجمة «محمد طاشكبري زاده» جـ٣/٣٥٦-٣٥٨.

(١) أنظر: جـ٣/٢٦٦-٢٦٧ (ترجمة فخر الدين المعني) وجـ١/٣٨٠ (ترجمة أحمد باشا الحافظ) وجـ١/٣٨٥ (ترجمة أحمد باشا الشهير بالكوجك).

(٢) ج٢/٨٤-٨٧.

(٣) جـ٣/١٣٥-١٤٠ (ترجمة علي جنبلاط) وجـ٤/٣٥٧(من ترجمة مراد باشا).

(٤) أنظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١/٣٥٢ «ترجمة أحمد باشا كوبري» والي دمشق ١٠٧١هـ/١٦٦١م، المعروف بالفاضل، وكيف سعى لمعالجة القحط الذي أصاب بلاد الشام بجلبه القمح من مصر، وكيف ضبط الأوقاف، ونظم الأمور. وترجمة القاضي «مصطفى كوجك» (عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م) وكيف أنصف الأهالي من الجند المرابين.

(٥) انظر هامش (٤) من الصفحة (١٦٢) من هذه الدراسة.

(٦) انظر هامش (٣) من الصفحة (١٦١) من هذه الدراسة، وكذلك ترجمة «جعفر باشا» ج١/٤٨٥-٤٨٨، و«حسن باشا» والي اليمن ج٢/٦٩-٧١، و«سنان باشا» حاكم اليمن ج٢/٢١٧-٢١٨، و«قانصوه باشا» ج٣/٢٩٧-٢٩٩، وفضل الله باشا ج٣/٢٨٦-٢٨٧.

التابعة للدولة العثمانية على صور صغيرة وسريعة، كحديثه عن استخلاص «حلْق الواد»[1] في تونس من الأسبان[2]، وعن الوالي« علي باشا كوزلجه » في تونس أيضاً الذي غدا حاكمًا للبحر (قبطان باشي) فصدرا للوزراء[3] . وكذلك كان الأمر في حديثه عن مصر، إذ قصره على ترجمة لواليين فيها هما إبراهيم باشا[4] وغازي باشا[5]، ولأمير الحج من المماليك « الأمير رضوان »[6] الذي كان أقوى شخصية في مصر من العقد الخامس وحتى السابع من القرن الحادي عشر الهجري.

٧ ـ **معطيات كثيرة من الحروب الخارجية للدولة العثمانية لا سيما مع** الأنكروس ـ المجر ـ ومع الروس (المسقو)، والنمجة (النمسا) وكريت، في أوروبا، وفي الشرق مع العجم[7]. ويطرح المحبي خلال حديثه عن تلك الحروب مجريات المعارك تفصيلياً، ويوضح الفرق المشتركة في القتال، وأحياناً أنواع الأسلحة، ولا سيما إذا كانت نوعاً جديداً « كاللغم » مثلاً الذي أثار انتباهه، فشرحه شرحاً دقيقاً، وبيَّن فعاليته[8].

---

(١) هو ميناء تونس، ويقع على مخرج بحيرتها استولى عليه الاسبان عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وجعلوا منه مركزاً حصيناً.

(٢) انظر ترجمة « سنان باشا » جـ٢/٢١٤ـ٢١٧.

(٣) جـ٣/١٤٠ـ١٤١.

(٤) جـ١/٦١ـ٦٢.

(٥) جـ٣/٢٤٤ـ٢٤٦.

(٦) جـ٢/١٦٤ـ١٦٦.

(٧) انظر على سبيل المثال: ترجمة (السلطان إبراهيم) (جـ١/١٣ـ١٦)، (السلطان أحمد) (جـ١/٣٨٤ ـ ٣٩٢)، و(السلطان محمد) جـ٤/٢١٦ ـ ٢٢٣، و(السلطان مراد فاتح بغداد) جـ٤/٣٣٦ـ٣٤١، (السلطان مراد الأقدم) ج٤/٣٦١ـ٣٥٤، و(أحمد باشا كوبري) جـ١/٣٥٢ـ٣٥٦ و(أحمد باشا الحافظ) جـ١/٣٨٠ـ٣٨٥، (وحسن باشا اليمشجي) جـ١/٧٢ـ٧٣ و(محمد باشا البوسنوي) جـ٤/٢٨٨، (ومصطفى باشا المرزيفوني) جـ٤/٣٩٧ـ٤٠٣.

(٨) جـ١/١٥ـ١٦.

٨ - بعض معلومات عن « السكبان » و« الجلالية » الثائرين على الدولة العثمانية، على الحدود الشمالية من سورية، وفي بلاد الأناضول، والذين أقلقوها من أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وحتى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وعن فئة من زعمائهم «كعبد الحليم اليازجي» وأخيه حسن، و«حسين باشا» والي الحبش سابقاً، و«قره سعيد»، و«ابن قلندر» وغيرهم[1].

ثالثاً: وخارج حدود الدولة العثمانية، قدّم المحبي معلومات سياسية عن «المغرب الأقصى». ومع أنها ليست وافية - كما أشير سابقاً - إلا أنها تبرز الملامح الكبرى في الحياة السياسية خلال بعض المراحل من القرن الحادي عشر الهجري. إذ أنه يترجم لأكبر شخصية سياسية في « الدولة السعدية » وهو « أحمد المنصور »[2]، وللمؤسس الحقيقي « لدولة الأشراف العلويين » التي تلت الدولة السعدية وهو « مولاي رشيد »[3].

رابعاً: في كتاب المحبي طرح للقيم السياسية السائدة في مجتمع تلك الحقبة، عن طريق تقويم المحبي، أو المصادر التي أخذ عنها، لأعمال الشخصيات السياسية التي قدّم تراجمها. فمن تلك القيم السياسية الرفيعة التي كان الناس يطلبونها في حاكمهم،

---

(١) أنظر ترجمة (عبد الحليم اليازجي) جـ٢/٣٢٢ - ٣٢٤ و(مراد باشا) جـ٤/٣٥٥ - ٣٥٨، و(السلطان أحمد) جـ١/٣٨٤-٣٩٢ و(حسن باشا بن محمد باشا) جـ٢/٤٠-٤٥.
انظر حول «السكبان» و«الجلالية» الحاشية (١) من الصفحة (١٧٣) من هذه الدراسة. وكذلك:
Inalcik (H) The Heyday and Decline of the Ottoman Empire in the cambridge history of Islam, 2 vol cambridge 1970. vol I P. 348- 350.

(٢) أنظر جـ١/٢٢٢-٢٢٥.

(٣) جـ٢/١٦٤.

ما وصف به مثلاً أحد الأئمة في اليمن، حيث قال عنه: «وسلك طريق العدل، وتعهد أحوال الفضلاء، وعمّ ظل فضله الأنام، وسار سيرة الأئمة الهادين من تفقد الضعُفاء، وأمنت السبل، ووفدت الأسفار وكان مع اشتغاله بأمور الرعايا، منهمكاً بمطالعة كتب العلم والأدب، وله ميل للفنون العلمية ومحاضرة بديعة، وله أشعار حسان»[١].

وفي تقويم لأحد سلاطين بني عثمان بيَّن المحبي مرة أخرى، أن توافر حب العلم في السلطة السياسية أمر مطلوب، وقيمة سياسية هامة، بل إن معرفة السلطان للعربية قيمة محبذة أيضاً، هذا بالإضافة إلى تمسكه بالشريعة الإسلامية. فقد وصف السلطان العثماني أحمد مقرظاً بقوله: «كان محباً للعلماء وآل البيت، متمسكاً بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل، سمح الكف، جواداً، لا تزال إحساناته للفقراء واصلة، وعطاياه لأرباب الاستحقاق مترادفة وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات. وله شعر بالتركية... ومما يروى له من الشعر العربي قوله...»[٢] .

ومن القيم السياسية المذمومة في الوالي مثلاً « ما من بلد تولاه إلا وأمست بيوته خاوية واشتعلت فيه من المظالم نار حامية... صوَّب نحو أهلها (أهل الولاية) ألسنة القهر والمكر وأخذ يشتت شمل أحوالهم، يأخذ مالهم من مالهم. لم يغادر لهم نقداً ولا بضاعة... فتح باب المصادرة كي يصل إلى مطلوبه. وكان عدو علماء الملّة الغراء والشريعة الشريفة الزهراء»[٣] وتَبين تلك القيم السياسية أيضاً في تعليقات المحبي التي أشرنا إلى بعضها سابقاً، وقد تكون هي قيم المحبي ذاته. فمنها مثلاً: ما قدّمه في أسباب انهيار الدولة

---

(١) جـ١/١٨١ من ترجمة (الإمام أحمد بن الحسن إمام اليمن) .
(٢) جـ١/٢٨٤.
(٣) جـ١/ ٥٨-٥٩ ترجمة (إبراهيم باشا المعروف بدالي إبراهيم) .

العثمانية، وأبرزها: «تهاون رؤساء الدولة في نظم الأمور على نسق يرضي الجمهور. . . وكانوا في آرائهم ناظرين إلى ورائهم»[١].

خامساً: تتضمن تراجم المحبي صوراً من بعض الوثائق السياسية والإدارية، وهي مع ندرتها مفيدة. ومنها: صورة منشور أو فرمان باللغة العربية، بتولية أحد الأشراف إمارة الحجاز مبيّناً واجبات الشريف ومسؤولياته، وقد دبجه للسلطنة أحد الأدباء العلماء العرب وهو «الشهاب الخفاجي»[٢]. وفحوى رسالة ملك المجر إلى الوزير الأعظم مصطفى باشا[٣] وصورة عن الديباجية بالعربية لوقفية «محمد باشا كوبري»، من إنشاء أحد كبار الموالي الأتراك، والتي كانت تصدّر بها على ما يبدو الوقفيات الهامة[٤].

ب - أهم المعطيات الاجتماعية في «خلاصة الأثر»

وإذا كانت المعلومات السياسية السابقة الوفيرة يمكن استخلاصها من تراجم المحبي، وهي مغطيات هامة، فإن ما يمكن استنباطه من معلومات عن الأحوال الاجتماعية والفكرية في العالم الإسلامي، والعربي منه بصفة خاصة، يعتبر أكثر أهمية، لضآلة المعطيات المتوافرة لدينا في هذا المجال عن هذه الحقبة، ولمعاصرة المحبي لفترة كبيرة من القرن الذي يترجم لأعيانه، ولاطلاعه الواسع، وفكره النافذ والممحص، ومتابعته الدؤوب للقضايا الكبرى في المجتمع آنذاك، ولاحتكاكه بصفة خاصة بأوساط العلم والعلماء، والقضاة والمفتين.

---

(١) جـ٤/ ٣١٠ ترجمة (محمد باشا الكوبري).
(٢) جـ١/ ١٣٢-١٣٣ ترجمة (الشريف أبو طالب).
(٣) جـ٤/ ٤٠٢ ترجمة (مصطفى باشا المرزيفوني).
(٤) جـ٣/٢٥-٢٦ من ترجمة (عبد اللطيف المعروف بأنسي).

إن تراجم المحبي تعكس عفوياً، وعن غير قصد منه صوراً كثيرة من حياة المجتمع، أتت مشتتة ومتفرقة:

أولها: الفئات الاجتماعية. إن القارىء لمجموع كتاب المحبي يخرج بانطباع أولي، وهو أن مجتمع ذلك الوقت، الإسلامي والعربي على حد سواء، كان منقسماً إلى فئتين متمايزتين، **فئة الحكام** التي يترجم المحبي لرؤسائها، **وفئة المحكومين.** والعلاقة تتراوح بينهما، بين وئام وسلام إذا ما طبّقت الفئة الحاكمة مفهومات القيم الإسلامية السياسية والاجتماعية، من عدل، ومساواة، وتسامح، وحرص على مصلحة المجموع الاقتصادية والاجتماعية، وبين حرب وصراع إذا ما بحثت الطبقة الحاكمة عن مصلحتها الخاصة، ولا سيما المادية، على حساب مصلحة المجموع. ويشعر المرء بصورة عامة، ومن خلال مجموع ما ورد في تراجم المحبي، أن تلك العلاقة في البلاد العربية كانت علاقة عدم رضى بل ونقمة من الفئة المحكومة تجاه الفئة الحاكمة.

وكانت الفئة الحاكمة في البلاد العربية، ولا سيما في البلاد التي خصّها المحبي بأكثر التراجم، كبلاد الشام والحجاز، واليمن، تنقسم بدورها إلى فئات، فهناك: **السلطة الحاكمة العثمانية وسلطة الأمراء المحليين** كما أشرنا لذلك سابقاً، والسلطة الحاكمة العثمانية كانت هي الأخرى فئات: **الوالي وحاشيته، وموظفوه المختلفون، والجيش** ممثلاً بخاصة بالحاميات الإنكشارية. ويمكن تلخيص العلاقات بين «مجموع الفئات الحاكمة» و«الرعية المحكومة» بأنها كانت علاقات خاضعة بصفة خاصة للعلاقات بين الفئات الحاكمة نفسها، فالفئة المحكومة **سلبية على العموم تراقب وتتلقى نتائج تلك العلاقات. إلا** أنها كانت تنظر إلى «السلطة المركزية» في العاصمة، على أنها الحامي، والملجأ لها من الملمات التي قد توقعها بها السلطات الحاكمة مباشرة في الولاية. فكانت إذا قُهرت، تتجه بالعروض والشكاوى إلى المركز، وتبعث إليه بالسفارات من علماء وأعيان ليرفع عنها الحيف والجور. ومن ثم كانت **نقمتها**

على السلطة الحاكمة المباشرة، لا على السلطة المركزية الممثلة بالسلطان وهيئته المركزية.

وقد كانت الصلات بين الفئات الحاكمة بالولاية صلات صراع بين مراكز القوى، فهي تتحالف، أو تتناحر وتتقاتل بحسب اختلال التوازن بينها. وفي مجملها كانت في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي علاقات حرب تفرض كل وبالها الاقتصادي والاجتماعي، على الفئة المحكومة، من ضرائب، ومصادرات، واجتياح للأرض الزراعية، وقتل أو نهب، وما يتبع ذلك من هجرة من المدن، أو من القرى، مما أدى إلى اندثار بعضها،وما كان يرافق تلك الظاهرات من تشريد وبؤس، وتعطيل للفعاليات الاقتصادية، وارتفاع في الأسعار، وغيره [1].

(١) أنظر على سبيل المثال لا الحصر، ما أصاب سكان حلب من مصائب، نتيجة الصراع بين مراكز القوة، ولا سيما من الانكشارية الذين « استولوا على أكثر قراها. . . وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم »، وما قاست البلاد من القتال بينهم وبين الولاة. ترجمة « نصوح باشا » جـ٤/٤٤٨-٤٥١.ويعلّق المحبي في نهاية تلك الترجمة قائلاً: « وانقطع أمرهم (أي أمر الإنكشارية) عن حلب، وعن سرداريتهم فيها، وليته انقطع عن دمشق أيضاً، فلعمري أن بلدة تأمن غوائلهم ولا ترى مصائبهم ونوازلهم، لهي أمينة من جميع المصائب، مدفوع عنها بلطف الله تعالى ».

وانظر أيضاً ما أصاب حلب وأهلها من الصراع بين « نصوح باشا » و« حسين باشا » جانبولاذ (جـ٢/٨٤-٨٧). فقد قطع حسين باشا الماء عن حلب لمحاصرة نصوح باشا فيها، ومنع الميرة والطعام عنها، ونصب متاريس على أسوارها. . . « وعمّ الحلبيين البلاء من المبيت على الأسوار، وحفر السراديب، ومصادرة الفقراء والأغنياء كل يوم وليلة لطعام السكبانية وعلوفاتهم. وأغلقت الدكاكين، وتعطلت الصناعات، وحرقت الأخشاب للطعام والقهوة بسبب قطع حسين باشا الميرة حتى الخشب والحطب. ونزل البلاء من جانب السماء على حلب، فبيع مكوك الحنطة بمائة قرش ريال، وجرة الشيرج (زيت السمسم) بثمانية عشر قرشاً، ورطل لحم الخيل الكديش (غير الأصيل) بنصف قرش، والتينة الواحدة بقطعة، وأوقية بزر البطيخ بأربع قطع. وأعظم من في البلدة يجد أكل البصل والخل من أحسن الأطعمة، وكان بعضهم يأخذ الشمع الشحمي ويضعه في طعام الأرز والبرغل. وكان العساكر لا يجدون التبن بل يأخذون الحصر وينقعونها في الماء، ويقطعونها ويطعمونها للخيل بدلاً من =

وعلى الرغم من بعض تقارب إجتماعي بين عناصر من الفئة الحاكمة العثمانية، وعناصر من الفئة المحكومة العربية الإسلامية، كالتزاوج مثلاً، ولا سيا بين الإنكشارية وأهل البلاد [1] وتسرب هؤلاء الأخيرين إلى العسكر، ودخول العسكر في الحرف المختلفة، مما أدى إلى تغير في بنية الإنكشارية، وتحولها تدريجياً إلى جند محليين أطلق عليهم أسم « اليـرلية » أو « عسكـر الشام » تمييزاً لهم عن « القبوقول » أو الجند المبعوثين من إستامبول[2]، وعلى الرغم من سعي الفئة الحاكمة لتعلم اللغة العربية، لغة الإسلام وأهل البلاد، بل وإتقانها وإجادتها أحياناً، ومع محاولة الفئة المثقفة العربية بالتالي، لتعلم اللغة التركية، فإن العلاقة بين الطرفين كانت تبدو فاترة ورسمية، بل إن مفهوم التمايز بين العربي والرومي ظل قائمًا بل نامياً، كما أشير إلى ذلك سابقاً. و شكل كبار الجند بصفة خاصة طبقة قوية إقتصادية، فهي تملك الأرض وتستثمرها، وتستغل مالها في الصناعة والتجارة حتى قبضت على منصب الحسبة، وكان لها النفوذ في بعض الأسواق[3].

= التبن. وكل فقير يغرم في اليوم قرشين، والمتوسط عشرة، والغني عشرين، واستمر الحصار نحو أربعة أشهر وأياماً ».

وانظر أيضاً جـ٤/٢٩٦ (ترجمة محمد باشا نائب حلب وأدنة ودمشق) حيث يقول: «وعاثت جماعته في البلد وضواحيها يمنة ويسرة، وكان كل واحد يريد أن ينتقم من دمشق وأهلها...

وانظر أيضاً على سبيل المثال: اندثار بعض القرى كقرية « بطياس » في حلب جـ٢/٢٠٨. ويبدو أن الاندثار لم يكن كاملاً لأن وثائق المحاكم الشرعية في حلب ظلت تشير إليها.

(١) أنظر جـ٢/١٠٨ ترجمة « حسين البيمارستاني» نقيب أشراف حلب، الذي زوج ابنته لأحد زعماء الإنكشارية وهو « خداوردي »، وكذلك فعل أبو الجود البتروني مفتي حلب تقرباً إلى جاهه.

وانظر أيضاً على سبيل المثال جـ٢/١٤٩ (ترجمة درويش محمد الطالوي) الذي كان أبوه رومياً تزوج من دمشق، وجـ٢/٤١ (ترجمة حسن باشا نائب الشام) أيضاً.

(٢) أنظر جـ٤/٣١١ (ترجمة محمد باشا كوبري).

(٣) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.

وإذا كانت تراجم المحبي تقدم معطيات غنية عن علاقات الفئتين الحاكمة والمحكومة، تدخل في واقعها في الحيزين الاجتماعي والسياسي معاً، فإنها تستطيع أن تعطي، إذا ما استقرئت واستحلبت، معلومات عن فئات المجتمع العربي نفسه، وبخاصة في بلاد الشام، تتراوح بين الوفرة والقلة. فالمعلومات عن فئة (العلماء) وهي الفئة التي عاش وسطها المحبي وترجم لها عن سعة، غزيرة، ولذلك فإنه يمكن رسم صورة حية وواضحة، وبكثير من التفصيلات عنها، وسنشير إلى بعض ما يمكن الاستفادة منها، فيما يطرحه المحبي من معطيات فكرية في كتابه، علمًا بأن هذه الطبقة بمجموعها كانت طبقة غنية، تملك المزارع، والأراضي، والبساتين، والحمامات، والدكاكين، ولا سيما العاملة منها في تولية الأوقاف ونظارتها.

أما فئات (الحرفيين) و(التجار) و(الفلاحين)، فتبقى المعلومات عنها ضئيلة وإن كان لا يعدم إشارات عابرة هنا وهناك عن تنظيم الحرفيين في رابطة تحت إمرة شيخ المشايخ (أو سلطان الحرافيش)[1]، وعن النظرة المتدنية نسبياً

---

(١) ليس لدينا معلومات مؤكدة عن لقب « سلطان الحرافيش »، أو عن العلاقة بين الحرافيش والتنظيمات الحرفية، بل لا يعرف على الدقة مصدر اشتقاق كلمة « حرفوش ». ولكن يبدو أنه قد اشتق في بادىء الأمر من كلمة (حرفش) العربية التي تعني (استعد للعراك)، ثم اتخذت معنى آخر. « فالحرفشة » في العهد المملوكي هي حالة الشخص العامي، الخشن الملمس (Dozy T.I P. 273) والحرافيش هم فئة دنيا من طبقات المجتمع أيام المماليك. ويبدو أنها كانت موجودة في المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق، وحلب، وحماة، وحمص. وهم أشبه بالشطّار والعيّارين في بغداد أيام العصر العباسي، والأحداث والزعر. وكانوا يضمون جماعة من الشحاذين المحترفين، وأصحاب العاهات. وكان لها نوع من النقابة على رأسها شيخ يحمل على ما يظهر لقب « سلطان الحرافيش ». أما كيف عمم هذا اللقب على « شيخ مشايخ الحرف » فلا معلومات بهذا الصدد. وقد ظهر هذا اللقب حوالي نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وبقي حتى نهاية حكم المماليك، وكان آخر من ذكره الغزي في لطف السمر (جـ ١/٦٢ - ٦٣) الذي نقل عنه المحبي (جـ ١/١٤٤ - ١٤٥)، وقد أكد الغزي عند وروده في كتابه بأن هذا اللقب قديم، وأن شيخ مشايخ الحرف أصبح يلقب احتشاماً « بشيخ المشايخ ».

انظر حول ذلك:

W.M. Brinner, Harfuch, dans l'Encyclopédie de l'Islam, 2° éd Leyde-Paris 1971 T. III. p. 211-212.

للعلماء عن أصحاب الحرف[1]، وعن جمع بعض الحرفيين بين مهنتهم والعلم والأدب[2] وعن غنى بعض التجار وعن عدد من الأسر التجارية الكبيرة في دمشق وتوفيق بعضهم بين الاشتغال بالعلم والأدب والتجارة[3]، وتنقلهم للتجارة في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي وحتى بلاد الهند وصلاتهم بالعلماء، وبر بعضهم بطلبة العلم والفقراء، وبعض أوقافهم الخيرية، وبنائهم للمساجد أو المآذن[4]. ثم نظر بعض العلماء إليهم على أنهم إحدى الطبقات الأربع التي يقوم عليها قوام الدنيا وهي السلطان وجنده، والعلماء والصوفية، والتجار، وأرباب الصنائع[5]. أما (الفلاحون) فهناك أيضاً لمحات خاطفة جداً عن سوء أحوالهم[6] وانتشار التصوف العامي وحلقات الذكر بينهم[7]، واستدانتهم بالربا[8].

---

(١) أنظر جـ ١٥٤/٤ في ترجمة «محمد بن خصيب القدسي» حيث يقول: «نشأ على الجد والإجتهاد حتى ساد وبرع ونبغ من بين أهله وحيداً لأنه لم يكن منهم صاحب معرفة بل كلهم من أرباب الحرف».

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر: جـ١٤٥/٤ (ترجمة محمد العجلاني) كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير » وجـ٢٠٢/٤ (ترجمة محمد ميرزا السروجي الدمشقي): « كان يشتغل السروج ويبيعها ثم طلب العلم ». والمصدر نفسه / ٢٦٤ (ترجمة محمد البطنيني): « كان خبازاً في بادىء الأمر »، وجـ٤٩٠/١ «ترجمة جمال الدين المعروف بالجنيد الدمشقي » « كان يتعاطى صنعة القماش ».

(٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: جـ٣١/١ (ابراهيم كاسوحة)، جـ٥٢/١ (إبراهيم الفتال)، المصدر نفسه/٦٨ (أبو بكر المعروف بابن الجوهري)، جـ٣٥٨/٢-٣٥٩ (عبد الرحمن اليمني)، جـ١٧/٣-١٨ (عبد اللطيف الجابي)، المصدر نفسه / ٢٠٢-٢٠٣ (علي المحلي)، الجزء نفسه / ٤٥٩-٤٦٠ (محمد الحموي)، جـ٣٧/٤-٣٨ (محمد الهوش) وج١٥/٢ (حسن بن أحمد الدمشقي المعروف بابن الحجار).

(٤) انظر الهامش السابق، وجـ٤٥٦/١-٤٥٧ (ترجمة تاج الدين بن أحمد المعروف بابن محاسن الدمشقي) الذي كان «أحد التجار المياسير وكان مع ثروته لا ينفك عن المذاكرة... ورحل إلى مصر والحجاز للتجارة ». وكذلك جـ٣٧٠/١ (ترجمة أبو الوفاء السعدي) حيث ورد « أن علاء الدين بن الحجيج التاجر الكبير كان هو باني المئذنة ».

(٥) جـ٣٨٨/٣ (محمد الأسطواني).

(٦) جـ٤٤٩/٤ (وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم) أي للإنكشارية (ترجمة نصوح باشا).

(٧) جـ١٥٣/١ ترجمة (أبو الوفاء السعدي).

(٨) جـ٤٥٥/١ ترجمة (برهان الدين إلبهنسي).

وقد يتساءل وما موقف المحبي من التقسيم الديني للمجتمع؟ لا يتطرق المحبي في الواقع لأهل الذمة إلا عرضاً، عند حديثه مثلاً عن قضية بناء مئذنة على كنيسة للنصارى بمحلة الخراب بدمشق، وما أثارته من جدل بين العلماء[1]، وعند كلامه عن تفتيش أحد القضاة على كنيسة في القدس وصل إلى مسامع الدولة أنه جرى تجديد فيها[2]، وعند إشارته لنصراني رغب في الإسلام، ثم رغب عنه، وكانت عقوبته القتل[3].

ولكنه إذا كان لا يلقي أضواء كافية على أوضاع أهل الذمة، فإنه ركز بالمقابل حديثه، وتفصيلاً عن « الفرقة الدرزية » ومعتقداتها وعاداتها [4]، كما أنه أكد خلال تراجمه المذهب الديني السني الذي كان يعتنقه المترجم سواء أكان حنفياً، أم مالكياً، أم حنبلياً، أم شافعياً، هذا بالإضافة إلى ترجمته لعديد من الشخصيات الشيعية، ولا سيما من اليمن وجبل عامل في بلاد الشام، وبلاد فارس، والهند، والبحرين، مع لمحات خاطفة عن معتقداتهم أحياناً، وإشارات إلى ملاحقة السلطة العثمانية لمن يشك بتشيعه في إمبراطوريتها. مع الملاحظة بأن المحبي كان يتغاضى عن ذكر مذهب الشخصيات الشيعية العاملة التي يترجم لها إلا ما ندر[5].

وإذا ما سئل عن مدى تعرض مؤرخنا لطبقة العبيد، وقد كانت موجودة حتماً لأن الرق وأسواق النخاسة كانت لا تزال قائمة في ذلك العصر، فإنه

---

(١) جـ١/ ٣٧٠ (ترجمة أحمد العيثاوي).

(٢) جـ٣/٣٢٥ (محمد محب الدين).

(٣) جـ٤/ ٣٩١ (مصطفى عزمي زاده).

(٤) جـ٣/٢٦٨-٢٦٩ ملحق بترجمة فخر الدين المعني.

(٥) أنظر على سبيل المثال لا الحصر جـ٢/١٩١-١٩٣ (ترجمة زين الدين العاملي وجـ٣/ ٤٣٢ - ٤٣٥ (محمد الحر العاملي) وجـ٣/ ٤٤٠ - ٤٥٥ (محمد البهاء العاملي)، وجـ ٤/ ٣٠١ - ٣٠٢ (محمد باقر الدمادي العجمي) وجـ ٤/ ٤٩ - ٥٤ (محمد الحرفوشي العاملي) وجـ ٤/ ٦٥ - ٧٣ (محمد الحشري العاملي). هذا بالإضافة إلى تراجم الأئمة الزيديين في اليمن المشار إليهم سابقاً وعدد من علماء وأدباء فارس والبحرين واليمن.

يلاحظ أنه قد أحاط بها فئة قائمة بذاتها، ولها دورها السياسي، في كلامه عن الأشراف في الحجاز [١] ، وعن الحكام في الهند [٢] وعن المماليك في مصر [٣] ، إلا أنه في البقاع الأخرى فليس هناك سوى إشارات سريعة إلى وجود فردي لبعض العبيد والإماء، وتملك الأشخاص لهم [٤] ، ولم يشر إلى أن «القبوقول» مثلاً أو الينكجرية هم في أصولهم الأولى أرقاء.

وبالإضافة لما ذكر عن أضواء المحبي المسلطة على الفئات الاجتماعية في مجموع المجتمع العربي، والشامي بخاصة، في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر للميلاد، فإن تراجمه تتعرض هنا وهناك إلى (الإقطاع) بل ويعرف ببعض فئاته وببعض الحاصلين عليه، والعاملين عليه من الموظفين[٥].

ويتطرق بين آن وآن إلى حياة الموسرين من بناء للقصور، وإقامة للحدائق، واقتناء للبساتين، ولحياة الفقراء وضنك عيشهم، والمتعاطفين معهم من أمثال «حسن الديرعطاني» الذي كان ينكر على السوقة بيعهم المآكل الطيبة، ويقول إنهم يكدرون على الفقراء عيشهم ويؤذونهم [٦] .

ولايغفل المحبي في تراجمه الحديث عن نمطي الحياة السائدين في المجتمع العربي وهما حياة الحضر في المدن والقرى، وحياة البدو أو الأعراب، فيترجم لرؤساء هؤلاء

---

(١) أنظر جـ١/ ٤٤٦ (الشريف بركات)، وجـ١/ ٣٩٠ (الشريف ادريس).

(٢) انظر جـ٣/ ٢٣١ (ترجمة الملك عنبر).

(٣). جـ٢/ ١٦٤-١٦٥ (الأمير رضوان).

(٤) انظر جـ٢/ ٩٥ (ترجمة الشيخ حسين بن عبد الله) وجـ٤/ ٢٢٩ (ترجمة محمد أبو سرين بن المقبول حيث يشير إلى وجود الأماء) وجـ٢/ ٤٤٠ (ترجمة عبد القادر العيدروس).

(٥) أنظر: جـ١/ ٣٠-٣١ (إبراهيم بن كيوان الذي اختار إقطاع زعامة بعد أن تخلى عن عمل الجند)، وجـ١/ ٢٩-٣٠ (إبراهيم باشا الدفتردار الذي كان كتخدا الدفتر بالشام، أي المشرف على شؤون أرباب الزعامات والتيمار) وجـ١/ ٥٠٠ (حبيب النخجواني وحصول والده على زعامة) وجـ٣/ ٣٥٤ (محمد بن الأكرم وحصول جده منذ عهد السلطان سليم على زعامة بأربعين ألف عثماني).

(٦) أنظر جـ٢/ ٧٨

الأخيرين، ويشير لتناحرهم فيما بينهم، ولبعض تحركات قبائلهم في هذه الحقبة وبعض عاداتهم، وتعرضهم للقوافل ونهبها، وقطع الطرقات[1].

ثانياً: ومثلما كانت تراجم المحبي قادرة إذا ما استحلبت على طرح أضواء على بعض فئات المجتمع، فإنه يمكن استنتاج بعض حقائق منها عن (الأسرة) أيضاً في هذه المرحلة من التاريخ: كالكنى التي تجمع الأسرة وأصالة تسميتها كآل الجوهري في دمشق وآل الكواكبي في حلب، وبيت الحلفاوي، والمناشيري[2] وغيرهم كثير. ولمحات عن التزاوج بين الأسر، وبين الروم والعرب، وعلاقات أفراد الأسرة ببعضهم، ولا سيما الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء[3] والأخوة ببعضهم[4]، والأسس التي تتحكم بتلك العلاقات،

---

(١) أنظر جـ٢/٢١٩ (ترجمة سنان باشا كوجك)، حيث يتحدث عن انتقال فرقة من عرب آل جبار (أولاد أبي ريشة) من العراق إلى نواحي تدمر وانضمام سكبانية علي جنبلاط إليهم، وعيثهم فساداً في بلاد الشام حتى شرقي الأردن، ومحاربة الدولة العثمانية لهم بالاشتراك مع عرب المفارجة. وانظر أيضاً جـ٢/١٠١-١٠٢ (حسين الجباري) وجـ٢/٢٢٢ (شديد آل جبار) وجـ١/٣٦٤ (أحمد بن مطاف).

(٢) سمي آل الجوهري مثلاً بهذا الاسم لأن جدهم البعيد، عندما وفد إلى دمشق حمل معه جواهر ومعادن (جـ١/٧٠) أبو بكر الجوهري.

- وسمي آل الكواكبي بذلك لأن جدهم كان في مبدأ أمره حداداً يعمل المسامير الكواكبية (جـ١/١٣) (إبراهيم الكواكبي).

- وأطلق على بيت الحلفاوي الحلبي هذه التسمية أو تسمية (بني حلفاء)، لأنه كان لهم أب ولد في طريق الحجاز بجوار أرض كانت تنبت الحلفاء، ولم يكن له مهد يوضع فيه، فكانت أمه تأخذ شيئاً من ورق الحلفاء، وتضعه تحت ولدها، إلى أن فارقت تلك الأراضي فكنّي بأبي حلفاء. فهم في الأصل « بنو أبي حلفاء » إلا أن الاسم اختصر فقيل (بنو حلفاء) بحذف مضاف (جـ٤/١٨٤ نجم الدين حلفاوي).

- وأسمي آل المناشيري بهذا الاسم نسبة إلى « المناشير »، وهي رقاع الأحكام، وكان جدهم الأدنى كاتب الإنشاء بالديار المصرية (جـ٤/٢٠١ محمد المناشيري).

(٣) على سبيل المثال فقط، أنظر جـ١/١٣ (المولى إبراهيم الكواكبي)، وجـ١/٧٤ (السيد أبو بكر باعلوي)، وجـ١/٦٥ (أبو بكر بن الأهدل اليمني) وجـ٤/٤٨٥ (يحيى بن المنقار).

(٤) على سبيل المثال جـ١/٣٤ (إبراهيم بن سعد الدين)، وجـ٢/١٠٨ (حسين البيمارستاني).

والظروف الطارئة التي تؤثر فيها. ثم الزواج من الإماء وكثرة الولد[1]، مع طرح النظرة الاجتماعية الدنيا لمن كان أبوه مملوكاً[2]. وموجبات الطلاق[3]، ثم حرص كثير من الأسر الرفيعة المقام على إثبات نسبها لآل الرسول محمد ﷺ أمام شهود عدل، وانتمائها من ثم إلى طبقة الأشراف والتمتع بامتيازاتهم، والتزيي بزيهم أي لبس العمائم الخضراء[4].

ولا بد من التأكيد أن المحبي كان حريصاً على إثبات النسب بعيداً، وحتى الجد السادس والأربعين[5]، وفي الوقت ذاته على بيـان الأصلاء في المدن والنزلاء، وأصول هؤلاء النزلاء، وبذلك يمكن تكوين فكرة مبدئية عن حركة التنقل الواسعة بين مدن كل قطر عربي، وبين كل قطر وآخر، ومدينة وأخرى، وبين أجزاء العالم الإسلامي كله، وبالتالي حركة الهجرة. فمدينة دمشق مثلاً كانت بحسب ما طرح المحبي في تراجمه عن سكانها، كان يسكنها في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد عدد من الأعاجم وفدوا إليها، وعدد من الأكراد والأتراك، ومثلهم من البشناق، ومن المغاربة ومن سكان المدن الأخرى في بلاد الشام.

كما يمكن أن يستدل من تراجم المحبي عن بعض أوضاع متفرقة عن المرأة، كنا أشرنا لنبذة منها سابقاً. ويبرز المحبي في كتاب «خلاصة الأثر» أيضاً المفهوم

---

(١) على سبيل المثال فقط أنظر جـ٢/١٦ (حسن باشا رضوان) حاكم غزة الذي كان «مغرماً بالنساء.. وجمع من الحظايا عدداً كثيراً، ورزق منهم أبناء كثيرة نحو (٨٥) ولداً. وينقل عنه أنه كان إذا حضر أحدهم لديه يسأله عن اسمه. واتفق أن مات أحدهم فلم يعرفه حتى عرّفوه له بوالدته، وقالوا هذا ابن فلانة».
وكذلك جـ٢/٤ (الشريف حسن) شريف مكة الذي كان له (٢٥) ولداً من الذكور و(١٧) من الأناث.

(٢) أنظر جـ١/٥٦ (ترجمة إبراهيم المهتار).

(٣) أنظر على سبيل المثال جـ٢/٣٥٨ (عبد الرحمن اليمني).

(٤) جـ١/ ٤٩ (إبراهيم الصمادي الواعظ) وجـ١/٧٥ (أبو بكر باعلوي الشلي) وجـ١/١٥٣ (أبو الوفاء السعدي الحلبي).

(٥) جـ١/٣٢٥ (أحمد صاحب الخال).

الاجتماعي المتماسك للأسرة العربية وبخاصة في بلاد الشام، حتى أنها تبدو وكأنها وحدة متكاملة، لها سماتها التي توارثتها عبر الأجيال: كالشرف أو الثراء، أو العلم أو الإمارة أو كلها معاً. وفي هذا الإطار يتحدث المحبي عن عديد منها، ويسعى لتتبع تاريخها، وعوامل شهرتها. كبني الكواكبي في حلب[1]، وبني سعد الدين في الشام[2] وآل الصمادي[3]، وبني الأهدل في اليمن[4]، والطبريين في مكة[5] وبني الحصني[7] في دمشق، وآل الأخنائي الذين هم من أقدم بيوت دمشق لأنهم من نسل معاوية بن أبي سفيان[8] وآل عبد الهادي في صفورية[9] وغيرهم كثير.

ثالثاً: يتعرض المحبي في سياق تراجمه إلى كثير من **العلاقات الاجتماعية**: كعلاقة العلماء فيما بينهم، وكذلك الأدباء والشعراء، والعلاقة المتبادلة بين فئة العلماء والشعب، وفئة المتصوفة والشعب، وبين الفئة الحاكمة والعلماء، والفئة الحاكمة وبقية فئات الشعب كما أسلفنا القول.

وضمن هذه العلاقات الاجتماعية يتحدث المحبي في عديد من تراجمه عن علاقة شاذة تبدو أنها كانت متفشية في مجتمع ذلك الوقت وهي « حب الرجال للغلمان ». ولا يبدو المحبي شاجباً للناحية الجمالية والمعنوية البحتة فيها، بل يذكر غزل الشعراء بالغلمان وقصصهم، ويميز بين هوى أهل الموصل وحلب

---

(١) جـ١/١٣ (إبراهيم الكواكبي).
(٢) المصدر نفسه/٣٤ (إبراهيم سعد الدين).
(٣) المصدر نفسه/٤٩ (إبراهيم الصمادي الواعظ).
(٤) المصدر نفسه / ٦٧ (أبو بكر بن الأهدل).
(٥) جـ٢/٤٦٢ (عبد القادر الطبري).
(٦) جـ٣/٣٥٣ (محمد الحصني الدمشقي).
(٧) جـ٣/٣٥٤ (محمد بن الأكرم).
(٨) جـ٢/١٣٢ (خليل الاخنائي) .
(٩) جـ ١/ ٢٨١ أحمد الصفوري ابن عبد الهادي.

وغيرهم بهم (هوى المرد والمعذرين) دون حرج[1] إلا أنه بالنسبة لتحولها إلى علاقة فحش، فإنه ككلّ المجتمع آنذاك يبدي استياءه ونفوره منها[2].

رابعاً: يشير المحبي في سياق تراجمه إلى أنواع من ملابس تلك الحقبة، كملابس الأروام والعرب، وبعض أشكال العمامة بخاصة. ومن حديثه عن الثياب قوله مثلاً: «يلبس ثوباً من الليف البرلسي سوى أكمامه فكان يصنعها من الكتان الرفيع الفاخر، وله تاسومتان إحداهما عتيقة في أغلب أوقاته، وأخرى جيدة يصطحبها داخل كيس معلق في حزامه إذا أراد الدخول على بعض الأعيان لبسها ووضع العتيقة مكانها في الكيس إلى أن يخرج فيعيدها»[3] وقوله أيضاً: «كان كثير التجمل، يلبس الثياب الواسعة والعمامة الكبيرة على طريق أبناء العرب، بالأكمام الواسعة والعمامة المدرجة والشد على الكتف»[4]، «وكان يتعمم بعدة برود ويضع على رأسه عقدة لبد ويجعلها واحدة فوق واحدة»[5]. ومن الأمثلة أيضاً قوله: «ولما رأى (قاضي دمشق) خطيب الجامع الأموي يخطب بعمامة صغيرة نادى الخطيب، وألبسه العمامة التي تعرف بالمكوّر، وأمره أن لا يخطب بعد ذلك إلا بها»[6]. ويضمِّن المحبي تراجمه أيضاً وصفاً لملابس الأشراف، كقوله عن أحدهم: «يلبس العمامة الكبيرة الخضراء، والثياب المتسعة بالأكمام الطويلة الأذيال وقد لبسوا الأخضر قبيل الألف بمدة قليلة... وكان من عادة الأشراف يربون لهم الشعور في رأسهم»[7].. ومن أمثلة الملابس العادية أيضاً: «وعليه قنباز من جوخ أحمر

---

(1) جـ١/٤٣-٤٤ (إبراهيم بن أبي الحرم)، ١٠٥ (أبو بكر العمري)، جـ٢/٢٢٠ (سنان باشا ابن محمود)، جـ٣/١١٤ (عطاء الله الصادقي)، جـ٣/٢٢٦ (عمر بن الصغير).

(2) جـ١/٩٩-١٠٠ (أبو بكر العمري)، جـ٣/٣٩٠ (محمد العبادي).

(3) جـ١/٣٧٥ (أحمد المغربي القيرواني).

(4) جـ٤/١٤٤ (محمد بن الرجيحي).

(5) جـ١/٣٧٤ (أحمد الضوي المصري).

(6) جـ٤/٣٩٤ (مصطفى بن مصلح الدين).

(7) جـ١/١٥٣ (أبو الوفاء السعدي الحلبي).

وعلى رأسه عمامة صغيرة منامية»[1] وهناك أيضاً إشارات إلى ملابس النساء كالبرقع، والخمار[2] وإلى ملابس الفقراء والنساك، كقوله عن أحد الزهاد: «يلبس الثياب الخشنة كالعباءة والقميص من الخام، مع قدرته على لبس أحسن»[3].

وطرح قضية وضع الشد على الكتفين وهل هو سنة أم بدعة، وأوضح أنه كُتب في الأمر رسالة اسمها: «نيل الاهتداء في فصل الارتداء»[4].

وكل ما يطرقه المحبي في هذا الباب يساعد على رسم صور عن ملابس بعض فئات المجتمع في ذلك العصر: فمن الألبسة الفاخرة مثلاً «فراء السمور»[5] وكان يخلع على الشخصيات الكبيرة، من قبل السلطان أو الهيئات العليا، فخلعة والي دمشق لقاضيها عند وفوده كانت منها[6]. ومن تلك الملابس أيضاً الحلل الجوخ البنفسجية اللون التي ركب فيها فروة من النافة[7]. أما خلع الأشراف في الحجاز فإنه لم يصفها مع ذكره لها[8].

خامساً: هناك إشارات كثيرة إلى أنواع من الأطعمة المعروفة في ذلك العصر، والمشروبات، أكانت للطبقة الثرية، أو للطبقة الفقيرة الزاهدة: كقوله مثلاً عن السلطان مصطفى العثماني: «فإنه لم يأكل الزفر مطلقاً، وإنما كان يأكل الكعك الناشف، واللوز، والبندق، وأنواع الفواكه»[9] بينما يشير إلى أن

---

(1) جـ1/155 (أبو الوفا الحموي).
(2) جـ1/271 (أحمد المرشدي) وجـ1/460-461 (تاج الدين بن يعقوب).
(3) جـ1/257 (أحمد الحمامي).
(4) جـ1/275 (أحمد المتبولي).
(5) السمور: حيوان من بلاد الروس يشبه النمس، ومنه أسود لامع وأشقر، وتسوّى من جلوده فراء غالية الأثمان.
انظر لسان العرب ـ دار صادر بيروت ـ ج4/ 380. بند (سمر).
(6) جـ4/303 (محمد باشا سبط الوزير الأعظم)، جـ4/136 (محمد عزتي).
(7) جـ4/138 (محمد عزتي).
(8) جـ2/2 (الشريف حسن).
(9) جـ4/364 (السلطان مصطفى).

الفقراء والزهاد كانوا لا يقتاتون إلا بالخبز الخشن، ويتأدم بعضهم بالخل والزيتون أو نحوهما[1] .ويذكر المحبي فوق ذلك تأليف بعض الأدباء والعلماء رسائل في أنواع الأطعمة وكيفية طبخها [2] .

أما المشروبات فهناك عديد منها، وأهمها تأصل شرب القهوة وانتشارها. وكانت قد دخلت المجتمع العربي منذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وثار حولها جدل بين الفقهاء[3] هل تحلل أم تحرم؟إلا أنها في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي رسخت قدمها حتى أصبح للقهوة بيوتها، التي تتعاطى فيها جهراً، وبشكل عام[4] وتغزل الشعراء بها على نطاق واسع ودافعوا عنها. ومن أمثلة ذلك قول زين العابدين البكري العالم والأديب القاهري (المتوفى ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤م) [5] :

إن تشربِ القهوةَ في حانِها	فاللطفُ قد حفَّ بندمانِها
بمائِها نَغسلُ أكدارَنا	ونحرق الهمَّ بنيرانِها
لا هم يبقى لا ولا غم إذ	قابلك الساقي بفنجانها
يقولُ مَنْ أبْصرَ كانونَها	أفٍّ على الخمر وأدنانِها
شرابُ أهلِ اللهِ فيها الشفا	جواب من يسأل عن شَانها

وقوله أيضاً:

أسقِنا قهوةً غُدافيَّة[6] اللـ	ـون حلالاً تُفرِّجُ الهمَّ عنّا

---

(١) جـ٢/٧٨ (حسن الديرعطاني).

(٢) جـ١/٤٦٨ (تاج الدين النقشبندي).

(٣) أنظر حولها. ليلى الصباغ المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني دمشق ١٩٧٣/١٦١-١٦٢.

(٤) أنظر على سبيل المثال جـ٣/٢٢٦ (ترجمة عمر بن الصغيّر) كان في دمشق مكان معد لبيع القهوة يسمى بالقهوة الجديدة تحت قلعة دمشق. وجـ٤/٢٨٧ (محمد الاضطراري) « يجلس في بيوت القهوة ». وجـ٤/٣٣٩ (ترجمة السلطان مراد الرابع) فقد أمر بتعطيل القهوات في جميع ممالكه. وجـ٢/٣٣٤ (عبد الحي طرز الريحان).

(٥) جـ٢/١٩٧ (زين العابدين البكري).

(٦) غُدافي: أسود اللون. المنجد /٥٤٥ بند (غدف).

وأَدْرها مِنْ خالصِ البُنِّ صرفاً   لا تشب حسنَها بغَيْرٍ فَتُنّا
واتَّبعْ قَولَ أشرفِ الرسل حقاً   قالَ قولاً من غشَّنا ليس منّا

كما أنهم وضعوا الألغاز الشعرية بها، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر والعالم اليمني «مصطفى الضمدي» (المولود ١٠٠٤ هـ/١٥٩٥ م)(١):

وجاريةٍ سوداءَ إنْ هي أسْفَرتْ   يقبلُّها أهلُ المروءةِ والنهى
إذا ما اشتهى ظلمَ الحبيبةِ عاشِقٌ   فمجموعُها ظلمٌ لعمري مُشْتَهى
إذا بَرَدَتْ أحشاؤها طَالَ مَكْثُها   وإن أصبحتْ محمومةً طابَ صبُّها
وإن ذكر الأحبابُ طيبَ أُصولهم   ليفتخروا فالرَّشْقُ بالقلبِ أصلُها
وإن سُقِيتْ من خالصِ المحضِ شُربةً   تسارع فيها الشيبُ وابيضّ جسمُها

فأجابه الشاعر حلاًّ للغز:

إذا شِئْتَ حلَّ اللغز منه فإنَّها   لأوَّلُ ما يُقري الضيوفَ أولو النهى
إذا خيمها في الرشق فابعث لها دوا   وفي القشر بنيان لداء دوا لها
إذا حذفوا من ابنها الفاء واجتزّوا   فذلك شيء طيب الطعم مُشْتهى
إذا أدخلوه النارَ صار محبباً   وإن أودعوه الظلَّ صار مُكْرهاً

ومن المشروبات التي يبدو أنها تفشت خلال هذا القرن أيضاً، الخمرة، على الرغم من منع الدين الإسلامي لها(٢)، حتى اضطرت الدولة لاستصدار فرمانات بالنهي عنها، وتعطيل حاناتها، ورفع أمانتها. بل إن السلطان عثمان نفسه دار عليها بنفسه، وقفل أبوابها وطرد أصحابها(٣). ومع ذلك فقد ظل

---

(١) خلاصة الأثر جـ٤/٤٠٥.
(٢) أنظر على سبيل المثال فقط ج٤/٩-١١ (محمد بن عبد الغني).
(٣) أنظر جـ٤/٢١٩-٢٢٠ (السلطان محمد) وجـ٣/١٠٥ (السلطان عثمان).

الشعراء يتغزلون بها بشكل مباح[1]، ولم يجد بعضهم غضاضة في التوصية بشربها مع خلٍّ وفي أصيل، حيث قال[2]:

لا تشربِ الراحَ إلا مع أخي ثقةٍ   واخترْ لنفْسِك حراً طيّب السَلَف
فالراحُ كالريح إن مرَّتْ على عطرٍ   طابَتْ وتخبث إن مرَّتْ على الجِيَفِ

كما انتشر في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي تعاطي المكيّفات بأنواعها: كالأفيون[3]، والحشيش[4]، والبرش[5]، وبخاصة بين

---

(١) أنظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١/ ٤٠-٤١ (إبراهيم الأكرمي)، وجـ١/ ٥٥ (إبراهيم المهتار)، جـ٢/ ٥٣ (الحسن البوريني).

(٢) جـ٤/ ٧٥ (محمد بن عمر بن فواز).

(٣) عصارة لبنية تستخرج من نبات الخشخاش، يستعملها المدمنون للتخدير، أنظر المنجد/ ١٣ (أفيون).
أنظر حول تعاطيه جـ١/ ١١٨ (أبو السعود بن الكاتب)، جـ٣/ ٢٥٨ (فتح الله بن النحاس)، جـ٤/ ٢٩٤ (محمد أمين الدفتري) جـ٤/ ٦ (محمد البهائي).

(٤) نبات سنوي زراعي يتميز بكونه من المنبهات. يستخرج مسحوقه من ساق النبتة الذكر. له فوائد طبية، ويرغب فيه المدمنون على المخدرات. أنظر المنجد/ ١٣٤ بند (حشّ).
وعن تعاطيه، على سبيل المثال لا الحصر جـ٣/ ٣٨٩ (محمد العبادي).

(٥) عرّفه «الشهاب الخفاجي» الشاعر المصري المتوفى ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٨ م في كتابه «ريحانة الألبا» جـ٢/ ١٢٩ بقوله: «أسم معجون معروف، وأصله بَرْشَعْثا، ومعناه بـرء ساعـة باليونانية فعُرِّب. وعرّفه صلاح الدين المنجد في كتاب تراجم الأعيان للبوريني جـ١/ ٧٤ (حاشية) بأنه تركيب مخدر كـالأفيون. وقـد أفاده الأمـير جعفر الحسني من علماء دمشق المعاصرين، بأن الصيادين كانوا يمزجونه مع الطعام ويقدمونه للطيور لتخديرها وصيدها.
وقد أعطى «الفارس دارفيو» وهو أحد التجار الفرنسيين في صيدا، الذي غدا فيها بعد قنصلاً لفرنسا في حلب، معلومات أوفى عن هذه المادة المخدرة المنتشرة آنذاك، علماً بأنه عاش في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع عشر أي كان معاصراً للمحبي. ويقول عنه في مذكراته ما يلي: «هو صورة مصغرة عن الأفيون وله التأثير نفسه. وهو خلاصة عشب يسميه العرب «البرش»، وأنا لم أستطع رؤية هذا النبات على الرغم من سعيي الحثيث إلى ذلك، والعرب أنفسهم لا يعرفونه أيضاً، إذ أنه يأتيهم مصنعاً من مصر. وقد يكون هو ما يسميه الأطباء «بالميكونيوم Meconium» الذي ما هو سوى عصارة مستخلصة من رؤوس نبات الخشخاش وأوراقه. ولكن للخشخاش أنواعاً، وليس لها كلها الصفات ذاتها، أو قوة التأثير نفسها. فبعد العصر يترك ليتبخر، حتى يتحول إلى معجون صلب، يلينونه بالعسل، وبعض =

العلماء والقضاة[1]. ويبدو أن انصراف الناس إلى الأخير كان كبيراً، وآثاره السيئة على حياتهم كانت فادحة، بدليل قول الخفاجي فيه[2] :

لقد حَلّ في مصر بَلاءٌ من البَرْشِ به غدتِ الأرْواحُ والمال في أرْشِ
وكـان بها حَـرْثٌ ونسـلٌ فمُـزِّقـوا وأُهلِك ذاك الحرثُ والنسلُ بالبرشِ

وكقول «البوريني»، وقد ابتلي به هو الآخر[3]:

عمَّ البَلا بأكْـلِ البَرْشِ فـانتُقِعت مخـايلُ النـاس في خَلْقٍ وأخْـلاقِ
ولو تصوّر هـذا الدهـرُ في رجلٍ لأبْصـرْتـه الـورى في زيّ دريـاقِ

وقول بعض الشعراء فيه ناهياً[4] :

تبـدّلْ عن البَرْشِ المبلِّد بـالطِلا فعـالم أَهْل البَـرْش غمرٌ وجـاهلُ
فما البرشُ إن فتشت عن كنهه سوى دويهيـة تَصْفَـرُ منهـا الأنـامـلُ

= عقاقير أخرى، تنزع منه رائحته البشعة، ومرارته، وحموضته... ويسبب تعاطيه أولاً بعض التنبه، ثم الخدر والنعاس... وتعاطيه المتواصل يضعف الأعصاب وتصاب الأطراف بالارتجاف، حتى لا تستطيع اليد أن تمسك بشيء، ويتمايل الرأس والجسم لأقل مجهود ومن تعوده لا يستطيع الانفصال عنه، ويفقد الشهية لأكل اللحوم، ولا يميل إلا لتناول الفواكه، ويكره النبيذ ويقضي متعاطوه يومهم في تدخين التبغ وتتعكر أمزجتهم... وهناك ممن يتناول البرش والأفيون من يسمّون «بالترياقي»، لأن هذه المشروبات تصيبهم بأثر معاكس، فهم يضحكون وحدهم دون سبب، ويغنون ويقصون قصصاً ممتعة في بداية تناولهم له، ثم يغطون بعد ذلك في نوم عميق. وكلهم هزيلو الأجسام، شاحبو اللون، تغلب الصفرة على وجوههم، سيئو المزاج، ولا هم لهم إلا أن يغطوا في أحلامهم».

أنظر: Mémoires du Chevalier d'arvieux, 6 tomes, Paris 1725. T.III P.19—22

(١) ومن أمثلة تعاطيه الكثيرة في خلاصة الأثر أنظر جـ٤/٦ (محمد البهائي)، وجـ٤/٢١٣ (محمد حلوجي زادة)، و٢٧٤ (محمد الكريمي)، وجـ٤/٨٩ (محمد العرضي الحلبي) وجـ٢/٥٤ (الحسن البوريني)، وجـ٣/٦٩ (عبد الله قاسم زاده).

(٢) ريحانة الألبا جـ٢/١٢٩.

(٣) خلاصة الأثر جـ٢/٥٤ (الحسن البوريني).

(٤) المصدر نفسه جـ٢/١٣١ (خضر الموصلي).

ويشير المحبي إلى آثاره الصحية السيئة، كإصابة صاحبه بالسوداء والهزال، واختلاط العقل[1] والاستغراق في النعاس والسرد[2]، وإن تركه فجأة يولّد الموت[3]. إلا أن بعضهم رأى فيه أيضاً كاشفاً لأخلاق الناس العميقة[4].

ويذكر المحبي ضمن تراجمه كذلك انتشار تدخين التبغ، وقد بدأ ظهوره خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ولم يفت مؤرخنا أن يحدد وقت انتشاره في البلاد العربية، وموقف علماء ذلك العصر منه، من محلل له ومحرم، كما حدث للقهوة قبله. وفي ذلك يقول أثناء حديثه عن إحدى الشخصيات اليمنية التي يترجم لها: « وكان شديد الإنكار على من يشرب التبغ، واعتنى بإزالته من تلك الأديار، فتم له، ونودي في الأسواق. وصنف له الشيخ محمد علي بن علاء المكي في حرمته مصنفين، وتبعه بعض الحنفية في تحريمه. والذي أفتى به الشيخ عبد العزيز الزمزمي، والشيخ عبد الله بن سعيد باقشير من شافعية الحجاز، عدم الحرمة الا لمن له حصل به ضرر. (قلت) وظهور التنباك المسمى « بالتبغ » و« بالتتن » بجهة الغرب والحجاز واليمن، وحضرموت، كان في سنة اثنتي عشرة وألف كما وجدته بخط بعض المكيين وتاريخه (بغي). وأما ظهوره في بلادنا الشامية فلا أتيقنه لكنه قريب من هذا التاريخ. **انتهى**[5]». وذكر المحبي بعض الرسائل التي كتبت بمنعه مثل « تحفة

---

(١) جـ١/٢٩٧ (أحمد بن المنقار)، وجـ٤/٢٩٤ (محمد أمين الدفتري).

(٢) جـ٤/٢١٣ (محمد حلوجي زادة).

(٣) جـ٤/٢٦٤ (محمد بن نوعي). والفكرة منسوبة إلى هذا الأخير حيث قال في ترجمة بعض المتكيفين: «ابتلي بالكيف ثم دعته الغيرة إلى قطعه دفعة، فكان قطعه قاطع عرق حياته وسبب وفاته ».

(٤) أنظر جـ ٤/٧٥ (محمد بن عمر بن فواز)، حيث قال:

بالكَيْف تظهر أخلاقُ الرجالِ لنا ... لا بالصنائع والهيئاتِ والحرفِ
والكَيف كيفيةٌ للنفسِ تُخْبِرنا ... عن خُلُق صاحبها إخْبارَ معترفِ
فإنها الريحُ إن مرّت على عطرٍ ... طابت وتخبثُ إن مَرّت على الجيفِ

(٥) أنظر جـ٢/٨٠ (ترجمة حسن بن السقاف اليمني).

ذوي الإدراك في المنع من التنباك » و« إعلام الأخوان بتحريم الدخان »، « ونصيحة الأخوان باجتناب شرب الدخان »، ومعارضة فئة من المعاصرين له مثل الشيخ علي الأجهوري الذي أثبت برسالتين حل شربه ما لم يضر[1] وبيّن كذلك تحمس بعض الشعراء له، ووصفهم له بشعر جميل، كقول أبي المواهب البكري فيه مثلاً[2]:

هات اسْقني التبغَ إن تَبغي الصفا سَحَرا	حتَّى أخَـدَّر منـهُ وهـو إغشـاءُ
واسْتحلُّ أنوار شمعٍ من يَدَي رشأٍ	قَدْ زانَـه قـامـةٌ بـالحسنِ هيفـاءُ
بدرٌ غدا كوكبُ الإسعادِ في يـدهِ	طـوعاً لـه فهو مـاضي الأمر نهَّـاءُ
سـاقٍ لنا قَلْبُـه قـاسٍ وكيف دنـا	مِنْ لينِ عِـطْفيهِ والأضـدادُ أعـداءُ
لعـلَّ نار أسىً بـالبعدِ قـد وَقَدَتْ	يـوماً يكـونُ لهـا بـالقـربِ إطفـاءُ
فامْلأ كؤوسَ رحيقٍ كالحري فَقَـدْ	أغْنتـكَ إذْ وُصفت باللطفِ صَهْباءُ
ودَعْ مـلامَ طبيبٍ عـابهـا سَفَهـاً	وداوني بـالتي كـانت هي الـداءُ

ويتحدث عن منع السلطان للناس عن تعاطيه[3] ، وكذلك عن المطارحات الشعرية فيه. ومن هذه المطارحات ما جرى بين الشهاب الخفاجي الذي كان يدخنه، وبين محمد بن محمد الحسيني نقيب الأشراف في بلاد الدولة العثمانية الشاجب[4] فقد قال الأول:

إذا شُـربَ الـدخـانُ فـلا تلُمْنـا	وجُـدْ بـالعفـو يـا روض الأمـاني
تـريـد مهـذبـاً من غيـرِ ذنبٍ	وهـل عـودٌ يفـوحُ بـلا دخـانِ

---

(١) أنظر جـ٤/١٨٧ (محمد علي بن علاّن الصديقي) وج١/٦ ـ ٧ (إبراهيم اللقاني).

(٢) جـ١/١٤٦ (أبو المواهب البكري).

(٣) جـ٤/٣٣٩ « إذ منع السلطان مراد الرابع عن شرب التبغ بالتأكيدات البالغة ». وانظر أيضاً جـ٤/١٧٩.

(٤) جـ٤/١٧٩ (ترجمة محمد بن محمد الحسيني الشهير بشيخي).

فأجابه الثاني قائلاً:

إذا شرب الدخان فلا تَلُمْني على لَوْمي لأبناء الزمانِ
أريد مهذباً من غير ذنبٍ كريح المسكِ فاح بلا دخانِ

وأوضح المحبي في كتابه أيضاً الأداة التي كان يدخن بها وهي الغليون، وقدّم ما قيل من شعر في هذا المجال، ومنه على سبيل المثال قول الشاعر الحلبي «صلاح الدين الكوراني»[1]:

لقد عنَّفونا بالدخانِ وشربهِ فقلتُ دعوا التعنيفَ فالأمر أحوجا
ألا أنّ صلَّ الغمِّ في غار صَدْرِنا عصانا فدخنّا عليه ليخرجا[2]

وقول عبد البر الفيومي[3]:

غليونُنا لقد غَلا ما فيه والماءُ يفورْ
في مُهجتي ومقلتي دخانُه أضْحى يدورْ

وقول القاضي الرومي في مصر، علي بن محمد المعروف برضائي[4]:

غليونُنا حين هَمَّت كلُّ نائبةٍ به وسامرنا همٌّ وأفكارُ
قد اهتديْنا إلى شَرْب الدخانِ به كأنَّه علمٌ في رأسهِ نارُ

سادساً: ومن الأمور الاجتماعية التي تعّرض لها أيضاً كتاب خلاصة الأثر، النكبات التي كانت تصيب البلاد بين آونة وأخرى: من ظروف طبيعية

---

(١) جـ٢/٢٥٥ (صلاح الكوراني).

(٢) الصلّ: الحية السوداء، ومن شأنها أنها إذا عصيت في وكرها دخّن عليها لتخرج.

(٣) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٢/٢٩١ ـ ١٩٨. وهو من أدباء مصر. توفي ١٠٧١ هـ/ ١٦٦٠ م. أما الشعر المذكور أعلاه فقد ورد في المصدر نفسه جـ٢/٢٥٦ (ترجمة صلاح الكوراني).

(٤) جـ٣/١٨٨.

قاسية، كهطول ثلوج شديدة، وأمطار غزيرة، وما ينجم عنها من سيول مدمره[1] كذكره مثلاً ـ نقلاً عن مصادر سابقة ـ عام ثمان وتسعين وتسعمائة، وما وقع فيه بدمشق من «ثلوج عظيمة دامت نحو أربعين يوماً، وسقط منها بيوت كثيرة على أقوام هلكوا تحت الردم»[2]. وكذلك السيل العظيم في المدينة نفسها عام ١٠٦٤ هـ/١٦٥٣ م «حتى علا الماء على حجر التاريخ الذي تحت قلعة دمشق مقدار ذراع»[3] ويعلق المحبي على ذلك فيقول: «وقد وقع أمثاله قديماً، لكن هذا أربى بهذا المقدار، كما وجدت الآثار في جامع يلبغا[4] بالجدار. وكان الفصل أواسط فصل الربيع بل مضى منه ثلثاه؛ ولم يؤذ نفس المدينة وإنما كان في الخارج كما شاهدنا. وأخذ بعض الرجال، والنساء، والأطفال، حتى رؤي من الأطفال الصغار حصة وهم في المهاد. وأظن أن الذين غرقوا منهم جاوزوا التعداد، وتلف للناس من العسل، والأرز، والسمن، وبقية المؤن شيء كثير، لأن أكثر بقالة دمشق في ناحية الزيادة، وخصوصاً سوق المؤيدية الشهير[5]. وبقي الماء من بعد الظهر إلى نحو نصف الليل، ثم غاض بإذن رب الأرض والسماء، الملك الفياض»[6].

---

(١) جـ٢/٤١ (حسن باشا).

(٢) جـ٢/٧٧ (حسن الغريق).

(٣) هناك عدة أنواع من الذراع، وقد اتخذ ذراع مقياس النيل القديم في جزيرة الروضة منطلقاً لجميع الحسابات. وقد قدّر بـ٥٤,٠٤سم.
أنظر فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري. ترجمة د. كامل العسلي. منشورات الجامعة الأردنية. د.ت. ص٨٣.

(٤) غرب سوق الخيل في مدينة دمشق، تحت قلعة دمشق، وعلى ضفة بردى، وشمالي المرجة. أنشأه نائب دمشق في عهد المماليك الأمير سيف الدين يلبغا الناصري عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م.
أنظر: النعيمي: الدارس جـ٢/٤٢٣ ومحمد أحمد دهمان: دمشق في عهد المماليك. دمشق ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م/ ١٣٥-١٣٦.

(٥) سوق من أسواق دمشق تحت القلعة، وقد يكون قرب مسجد المؤيد الذي أنشأه السلطان المملوكي «الملك المؤيد» عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م.
النعيمي: الدارس جـ٢/٣٧٠.

(٦) أنظر جـ٤/٢٢٧ (محمد باشا ابن الدفتردار).

ومن مثل تلك الكوارث أيضاً هطول البرد الكبير في بلاد الحجاز عام ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦م والسيول التي حدثت في المدينة ومكة والطائف في ذلك العام[١] . وما أصاب البلاد من جفاف، وقحط ومجاعة لأسباب جغرافية أو سياسية، وتوجُّه الناس إلى صلاة الاستسقاء عند انحباس الغيث يستمطرون بها السماء، وما كان يرافق ذلك الجفاف، والقحط من غلاء الأسعار وضنك العيش[٢]. ومن أمثلة ذلك مجاعة دمشق عام ١٠٧١ هـ/١٦٦١ م[٣] بعد انحباس الغيث عنها عام ١٠٧٠ هـ/١٦٦٠ م[٤] والقحط الذي أصاب بلاد اليمن حوالي سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦٢٠ م[٥] .

ومن النكبات الاجتماعية التي يذكرها كتاب «خلاصة الأثر» ضمن تراجم الأشخاص كذلك الحرائق، التي كانت تندلع في بعض المدن، وتصيب البيوت والأسواق . كحريق سوق العطارين في حلب في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي حيث ذهب للناس أموال كثيرة[٦]، وحريق ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٤م في دمشق، « بسوق الطواقية والذراع العتيق[٧] لصيق

---

(١) أنظر جـ١/٤٤٧ (الشريف بركات) .

(٢) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: جـ١/٣٥٣ (أحمد باشا الفاضل)، جـ٢/٨٦ (حسين باشا جانبولاذ)، جـ٤/١٠٣ (محمد بن عمر العباسي).

(٣) جـ١/٣٥٣ (أحمد باشا الفاضل).

(٤) جـ٤/١٠٣ (محمد بن عمر العباسي).

(٥) جـ٤/٢٩٨ (محمد باشا حاكم اليمن).

(٦) جـ١/٣٦٤ (الأمير أحمد بن مطاف).

(٧) سوق من أسواق دمشق عند باب البريد قرب الجامع الأموي، ويبدو أنه كانت تباع فيه « الطواقي » جمع « طاقية » وهي لباس للرأس معروف. إلا أن والي دمشق « مراد باشا » عمّر مكانه سوقاً عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م بعد أن هدم الحوانيت القديمة، وسمي « بسوق المرادية ». وبنى لصيقه وكالة (أي خاناً للتجار)، ونقل إليه تجار سوق السباهية إلا أنهم عادوا إلى سوقهم بعد وفاته. وعمّر أيضاً إلى جانبه سوقاً آخر، نقل إليه تجار سوق الذراع. وكان سوق الذراع هذا سابقاً قبلي الجامع الأموي، وكان يسمى بسوق النحاسين، وقد بناه في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد صدر الدين بن المنجا. (أنظر: الدارس جـ٢/٨٧، ٤٠١) وسوق الذراع اليوم وهو الذي بناه مراد باشا فيمتد من سوق الحميدية حتى =

الجامع الأموي. وسبب ذلك أن بعض أهل الصناعة من أهل السوق غفل عن إطفاء النار بحانوته المغلوق، فشبت النار في صبيحة النهار، ووقع التنبيه على المبادرة لإطفائها، وامتحن الناس ساعتئذ بكربها وبلائها. ثم جاء الوزير صاحب الترجمة ومعه غالب العسكر، والسقائين، والبنائين، والقصارين إلى محل الحريق، ووقف بنفسه وأطفأه. وكان من جملة ما حرق من الحوانيت مائة وثلاثة وعشرون حانوتاً»[1] وكذلك حريق القسطنطينية عام ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ م الذي ابتدأ «بحيّ الفنار فيها وذهب طعمته نحو اثني عشر ألف بيت، ثم تراسل الحريق في كثير من المحلات حتى حسب ما وقع منه، فكان تسعين حريقاً كل ذلك في سنة واحدة»[2].

ومن تلك الكوارث أيضاً ما كان يحط على البلاد بين آونة وأخرى من بلاء الجراد. وقد بيّن «المحبي» كيف كان يسعى الأهالي لمكافحته بطرقهم التي ألفوها، .واعتقدوا أنها تبعد الجراد وتخلصهم من شروره، وذلك بإحضار « ماء السمرمر» الذي يستدعي بدوره طيوراً سوداء تسمى « السمرمر » ويقال لها أيضاً: السوادية، ومن خواصه أن هذه الطيور عندما تشعر بوجود هذا الماء تأتي كالسحابة السوداء، فتصيح على الجراد وتقتله. وقد وصف الاحتفال الذي كان يتم فيه نقل ماء السمرمر، وكان يؤتى به ـ على ما قيل ـ من عين بين أصفهان وشيراز (والمدينتان في بلاد العجم الأولى وسطها الغربي، والثانية في جنوبها الغربي) تدعى (عين سرم). وكان الوالي نفسه هو الذي ينظم هذا الاحتفال، ففي ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م كانت قد اجتاحت البلاد (دمشق)

= ينتهي بسوق العبجية من سوق مدحت باشا. وهو سوق مغطى بسقف، وتكثر فيه المخازن الكبرى، وتباع فيه الأقمشة، ولوازم الخياطة. أنظر لطف السمر جـ٢/٦٥٣-٦٥٤ - وخلاصة الأثر جـ٤/٣٥٦، وجـ٢/٢٥، وأحمد حلمي العلاف. دمشق في مطلع القرن العشرين. نشر علي جميل نعيسة. دمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م/ ١٣-١٤.

(١) أنظر جـ٤/٢٢٧ (محمد باشا بن مصطفى باشا).

(٢) جـ٤/٣٩٨ (مصطفى باشا).

موجة من الجراد، فأمر الوالي، «بخروج الصوفية بالأعلام، وعامة الناس بالتهليل إلى لقائه. فدخلوا به على سفح قاسيون من ناحية القابون، حتى وضعوا منه حصة على رأس المنارة الغربية بالجامع الأموي، وحصة على منارة جامع المصلى »[1].

ومن المآسي الاجتماعية التي تعرّض لها كتاب « خلاصة الأثر » أيضاً، ما كان يصيب الأهالي في البلاد العربية بين فترة وفترة من أوبئة **كاسحة كالطاعون**. فهناك إشارات إلى طاعون ١٠١٧ هـ / ١٦٠٨ م في دمشق[2] وطاعون ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩، في مصر، الذي « كان ابتداؤه في أواخر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين، وانتهاؤه في أواخر جمادى الآخرة من السنة المذكورة. وكان غالب من يموت فيه عمره ما بين الخمس عشرة سنة إلى خمس وعشرين سنة. وحصر من توفي مضبوطاً من الحوانيت يوماً بيوم، فكان من ابتدائه إلى انتهائه مائة ألف وخمساً وثلاثين ألفاً هذا ما أخرج من الحوانيت وما عدا ذلك فهو كثير »[3]. وكذلك طاعون ١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م في مصر[4]، وطاعون دمشق ١٠٨١[5]هـ، وطاعون ١٠٦٢ هـ / ١٦٥٢ م « الذي لم يعهد مثله في الكثرة. وبلغ عدد الجنائز بدمشق يوماً بيوم ألفاً وينوف، واستمر ستة

---

(١) جـ٢/١٢٤ـ١٢٥ (حسين باشا المعروف بصاري حسين).
وجامع المصلّى يقع جنوبي دمشق خارج محلة ميدان الحصى. أنشأه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م. وهو لم يزل عامراً ومن أكبر جوامع حي الميدان، ويعرف بجامع باب المصلى.
أنظر النعيمي: جـ٢/٤١٩، وأسعد طلس: ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ملحق بثمار المقاصد لابن عبد الهادي. بيروت ١٩٤٣/١٩٥.

(٢) أنظر جـ١/٤٨٨ (أبو بكر السندي) وقد قال فيه العالم والمؤرخ « نجم الدين الغزي»
عَجِبتُ لطاعونٍ أصابتْ نبالُه ... وأرْبَتْ الخطيَّ والصارم الهندي
سطا في دمشق الشام عاماً وآخراً ... تبسَّط في الهندي وما ترك السندي

(٣) جـ١/٤٨٨ (جعفر باشا).

(٤) جـ١/٨٥ (أبو بكر بن صالح الكتامي).

(٥) جـ٢/٤٠٤ (عبد الرحمن ابن النقيب)

أشهر»[1]، وإذا كانت تراجم المحبي تشير إلى تلك الأوبئة وآثارها، فإنها بالمقابل توضح اهتمام المفكرين بتدوين رسائل تبين وسائل عدم انتشارها. ومن أمثلة ذلك رسالتان «لمرعي الكرمي» إحداهما بعنوان: «تحقيق الظنون بأخبار الطاعون» والثانية تحت عنوان: «**ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون**»، وكتاب لفتح الله البيلوني «**خلاصة ما يعوّل عليه الساعون في أدوية دفع الوباء والطاعون**»[2].

ويدخل ضمن تلك الزمرة من المصائب الاجتماعية، **الأمراض المنتشرة آنذاك**. ويلاحظ أن تراجم المحبي تحوي إشارات عديدة إلى أمراض أصابت أصحابها. فهو يسعى دائماً لتعليل الوفاة ما أمكنه ذلك، مع بيان الأمراض التي أدت للوفاة. ومن تلك الأمراض: الإسهال، والصرع، والمراقيا، والاستسقاء، واليرقان الأسود، والفالج، والتخمة، والماليخوليا، وذات الجنب، والقولنج وغيرها[3]. ولا ينسى أن يعلل الوفاة أيضاً بالانفعالات النفسية من غيظ، وألم نفسي[4].

سادساً: وبالإضافة إلى كل ما أشير إليه سالفاً، فإنه يمكن تتبع كثير من العادات الاجتماعية المختلفة: كبعض العادات المتبعة عند **ولادة ولد ذكر**، كأن تقيم النساء الأفراح، ويضربن الدفوف، ويغنين، ويحضرن الغواني، ويجتمعن للتفرج واللهو[5]. **وكالاحتفالات عند الأعراس** أو **الختان والولائم وتكاليفها الكبيرة لدى الطبقة الغنية** فقد ذكر «المحبي» في ترجمته لحسن

---

(١) جـ١/٤٨٨ (جعفر باشا).

(٢) جـ٤/٣٥٩ (مرعي الكرمي)، جـ٣/٢٥٥ (فتح الله البيلوني)

(٣) على التوالي كما وردت في المتن: ج٢/١٤٩ (داود البصير)، ج١/١٤٨ (أبو المواهب البكري)، ج١/٤٠١ (أسعد البتروني) ج١/١٧ (إبراهيم سيد شريفي)، ج١/٣٥٦ (أحمد الفاضل)، ج١/٢٥ (إبراهيم العمادي)، ج١/٤٧٥ (تقي الدين القاضي)، ج١/٤٢٢ (الأديب أكمل الدين)، ح٢/٤٠ (الإمام حسن إمام اليمن)، ج٢/١٠ (الشريف حسن).

(٤) جـ١/٦٣ (إبراهيم آغا المتولي) (على سبيل المثال).

(٥) أنظر جـ٢/١٠٩ (حسين البيمارستاني).

الأسطواني الثري بأنه « اتفق أنه زوَّج ابناً له، وختن آخر، فبالغ في الكلفة بحيث اتفق أهل دمشق على أنه لم يتفق ما فعله من التبسط والمبالغة في الضيافات لأحد قبله[1]». ويصف احتفال السلطان « مراد الثالث » بختان ابنه « محمد » فيقول: « في سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م، احتفل السلطان مراد بختان ولده السلطان محمد، وصنع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحد من الخلفاء والملوك، وامتدت الولائم والفرجة، واللهو الطرب مدة خمسة وأربعين يوماً، وجلس (السلطان) للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان (محلة كبيرة في استامبول)، وأغدق النعم العظيمة. ورأيت في تاريخ البكري أنه جعل صواني صغاراً من ذهب وفضة، وملأ الذهب بالفضة، والفضة بالذهب، وألقى ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان » [2].

كما أنه يتعرف من كتاب « خلاصة الأثر » ببعض **العادات المتبعة عند وفاة الميت** التي نظر إليها بعض علماء الدين على أنها مناكر يجب محاربتها، كلبس السواد خلف الميت، ورفع النساء الصوت بالولولة، بل إن عالماً منهم أمر بضرب النساء المولولات بالهراوات، لمنعهن من مرافقة الجنازة والخروج إلى المقابر [3].

ومن العادات الاجتماعية أيضاً **بعض المواكب، ومنها مواكب الأشراف في مكة**، فهو يصف على سبيل المثال موكب الشريف أحمد فيقول: « وكان للشريف أحمد زوجان من القنا الطويل جداً بسنان مذهب تحته أكرة من الفضة مطلية، يحمل كل واحد رجل يمشي على قدميه، إذ سار في موكبه يسيران أمامه، قريباً منه، يصوّبانها ويصعدانها بحركة سريعة لطيفة التصويب والتصعيد على حد سواء، وربما كان فيهما أجراس ».

---

(١) أنظر جـ٢/١٦ (حسن الأسطواني)، وكذلك جـ٣/١٠٤ (عثمان الزيلعي)، وجـ٤/٣٩٣ (مصطفى حسمي زاده).

(٢) أنظر: جـ٤/٢١٦ (مراد الأقدام).

(٣) جـ٣/٣٨٧ (محمد الأسطواني).

ويعقب المحبي على ذلك بقوله: «رأيت بخط بعض الفضلاء أن هذا يفعله أئمة اليمن وأكابر أمرائه إلى الآن إذا ساروا في المواكب»، ويتابع حديثه فيؤكد بأن «ليس أهل اليمن أول من ابتدعه، فقد كان يفعله الخلفاء العباسيون» [1].

سابعاً: يمكن التعرف من كتاب خلاصة الأثر بأمور اجتماعية أخرى متفرقة، كبعض **وسائل التدفئة السائدة آنذاك**، وهي الاعتماد على لبس الملابس الكثيرة أولاً واستخدام النار في الموقد، والفحم المشتعل في «المنقل»، وهو أشبه بوعاء نحاسي أو من التوتياء، له أشكال متعددة بقوائم أو غير قوائم، يملأ بجمر النار المتجمع من احتراق الحطب، أو بالفحم المشتعل. وظلت الوسيلة الأخيرة مستخدمة في بيوت دمشق حتى الربع الأول من هذا القرن ويتبين هذا مما ذكره «المحبي» عن أستاذه «محمد عزتي»، حيث قال: «وفي الشتاء يجلس في مكان صغير، ويكون عنده منقل كبير، يكون عليه من الفحم والنار شيء كثير، وكذا في الموقد كثير من الحطب، وعليه الثياب الكثيرة، وتحته الطرحة الوثيرة» [2].

ومن تلك الأمور الاجتماعية أيضاً، **بعض الألعاب** التي كان الناس يمارسونها للتسلية: كلعب **الشطرنج** الذي يبدو أنه كان منتشراً، وله هواته، والماهرون في بابه [3]، ولعب النرد أيضاً [4]، أو كانت تمارس لكسب غير

---

(١) جـ١/٢٤٠ ـ ٢٤١ (الشريف أحمد).

(٢) جـ٤/١٣٦ (محمد عزتي).

(٣) أنظر جـ١/٢٤٠ (الشريف أحمد)، وجـ/٤٩١ (جمال الدين الجنيد الدمشقي) الذي «كان مفرد وقته في لعب الشطرنج، ويضرب المثل به»، وجـ٢/٢٢٢ (الأمير شديد)، وجـ٢/٢٧٦ (عبد الباقي السمان) وجـ٢/١٠٢ (عبد الوهاب بن رجب) «الذي كان متهالكاً على لعب الشطرنج في دكاكين باب الجابية يجلس في بعض الدكاكين ويلعب مع من أراد، ويكشف رأسه، ويضع العمامة إلى جانبه، ولا يزال يلعب إلى أن تغرب الشمس» وجـ٤/٢٧٤ (محمد الكريمي).

(٤) جـ٢/٣٣٤ (عبد الحي طرز الريحان).

مشروع **كالقمار**، مما يدل على وجوده على الرغم من تحريم الدين له، بل كان له مكان خاص في دمشق، في محلة تحت القلعة، كان يسعى إليه أحياناً بعض المتدينين لكسر أدواته، وضرب المقامرين فيه [١].

ومنها أيضاً **أنواع العقوبات الجسدية** المطبقة من الدولة أو الأمراء المحليين أو غيرهم على المخالفين، والخصوم، والمناوئين. ومن هذه العقوبات، حبس الدم[٢]، وحلق الذقن واللحية[٣]، وتقييد الرجلين ووضع الغل في العنق ثم إلباس المرتكب قلنسوة نصراني[٤]، **والدمغ** بالنار في الجبهة، والأنف، والوجه، وإركاب حمار مقلوب، وكشف الرأس، والتعرية حتى القميص، والطوفان بالمرتكب أسواق المدينة وشوارعها[٥]. **ومنها أيضاً سلخ الجلد وذر الملح عليه ثم ملؤه، تبناً[٦]، والذبح بالسكين[٧]، والخنق بالوسادة[٨]، والخنق بالوتر[٩]، والإغراق بالماء[١٠]، وعصر المذاكير[١١]، والحرق بالنار[١٢]، والصلب[١٣].**

وهناك أمر رآه « المحبي » بدعة جديدة في الحياة الاجتماعية بدمشق، على الرغم من أنه ليس بالجديد، وهو « **ظاهرة الانتحار** » فهو يذكر عن « أبي

---

(١) جـ٣/٣٥٤ (محمد بن الأكرم).
(٢) جـ١/٤٤٠ (الشريف بركات).
(٣) جـ٣/٩٦ (عبد الواحد قاضي القنفذة).
(٤) جـ٢/ ٤٢ (حسن باشا).
(٥) جـ٣/٣٠١ (كيوان).
(٦) جـ٢/٢٦٣ (عامر بن علي صاحب اليمن).
(٧) جـ٢/٤٩ (حسن الأعوج).
(٨) جـ١/٣٠ (إبراهيم باشا الدفتردار).
(٩) جـ٣/ ١٠٥ (خنق السلطان عثمان لأخيه).
(١٠) جـ١/٣٠ (إبراهيم باشا الدفتردار).
(١١) جـ١/٣٠ (إبراهيم باشا الدفتردار).
(١٢) جـ٢/٤٩ (حسن الأعوج)، جـ٢/١٧٧ (الشريف زيد).
(١٣) جـ٢/٤٣ (صلب في خشب الأرجوحة) (ترجمة حسن باشا)، وجـ٢/١٧٧ (الشريف زيد) وقد ورد في تلك الترجمة عن أحد المتمردين بأنه « أتي به إلى مكة وطيف به على جمل معذباً بالنار، ثم صلب حياً ».

السعود الكاتب الدمشقي »، وكان والده من كبار التجار والأعيان، ابتلي بمحبة غلام، ولما اشتد عليه أهله باللوم والتعنيف، وهو وله بالغلام، لجأ إلى الانتحار بأخذ جرعة كبيرة من الأفيون قدرت سبعة دراهم. ويعلّق المحبي على هذا الحادث قائلاً: « وهو - أي أبو السعود الكاتب - الذي أحدث هذه الفعلة بدمشق، وكان الناس عنها غافلين، وبعد ذلك تبعه في فعلها أناس، واشتهر هذا الأمر، وهذه القصة مشهورة حتى صارت بين أهالي دمشق مداراً للتمثيل بها في أغراض كثيرة. وبالجملة فقد فتح مبدعها باباً شنيعاً، وارتكب أمراً فظيعاً » (١).

ثامناً: ومثلما كانت تراجم المحبي غنية بالقيم السياسية، فإنها غنية جداً بالقيم الاجتماعية والأخلاقية المحبَّذة في ذلك الوقت، والممجوجة على حد سواء. فكل شخصية يترجم لها، ويصفها، تتضمن الكثير منها، وبذلك فكتاب « خلاصة الأثر » على الرغم من تأكيد المحبي في مطلعه إلى أنه كان يبحث عن أخبار الكمّل الأخيار، هو كتاب يحوي الكثير من النقد الاجتماعي لرجالات العصر. فمن تلك القيم الاجتماعية والخلقية الكثيرة على سبيل المثال فقط لا الحصر، «كان ملازماً للعبادة والاستفادة، مترفعاً عن الدنيا وأهلها، لا يتردد إلى أحد إلا في خير. . . سمح النفس، حسن الصفات، شريف الطباع، مشهوراً بقيام الليل، وإحياء الليالي الفاضلة. . . وكان مع ما اجتمع فيه من المهابة شديد البسط كثير الدعابة والغزل، وطرح التسمت. . . مليح الحديث لا يمل وإن طال»(٢).

وعن شخصية أخرى. « يحنو على الأيتام، وحضن كثيراً منهم ممن لا ولي له ونمى أموالهم » (٣). وعن شخصية ثالثة: « كان غاية في الجود والكرم وصلة الرحم، وحب الفقراء، والإحسان إليهم، ومحبة العلم والعلماء، والصلحاء،

---

(١) جـ١/١١٩ (أبو السعود الكاتب).
(٢) جـ٢/٢٨٥ (ترجمة عبد الباقي إمام الأشرفية).
(٣) جـ٢/٢٥ (حسن باشا شورنزه).

والأولياء. وكان ديّناً صدوقاً وقوراً، مشهوراً بالعفاف، وكرم النفس كثير الورع. وكان وجيهاً عند الناس مقبول الشفاعة والقول، مسموع الكلمة، صبوراً على السعي في قضاء حوائج المسلمين»[1].

ومن القيم الاجتماعية الممجوجة مثلاً، شرب الخمر، ولبس لبوس النصارى[2]. ومن الأوصاف الاجتماعية الناقدة التي نقلها « المحبي » عن النجم الغزي ما وصف به إحدى الشخصيات المعروفة هاجياً: « وكان يلبس عمامة كبيرة مكوّرة، وله عرج وقصر، وهو مع ذلك يتبختر، ويتخذ غلاماً أمرد من أبناء الناس يمشي خلفه، وربما يلتفت ويخاطبه في الطريق، وكل منهما يرفل في زينته. وكان يعرف التركية، وإذا تكلم بها تبجح إزدراء بابناء العرب، وهو ليس إلا منهم. وكانت فضيلته جزئية إلا أن جراءته كلية»[3]، وغير هذا كثير.

ولعل كتابي « الغزى » اللذين يشير إليهما المحبي، ويضمِّن كتابه بعض شذرات منهما، صورة تعكس القيم الاجتماعية المثالية المطلوبة من الفرد في المجتمع. وهما كتاب « عقد النظام لعقد الكلام » - وكتاب - « التنبيه في التشبيه ». ويصف « المحبي » الكتاب الأول بأنه كتاب غريب الوضع، مبني على مقولات السلف في النصيحة والزهد وأشباههما، ثم ينظم تلك المقولات. أما الثاني فهو «كتاب بديع في سبعة مجلدات من قطع النصف، لم يسبق إلى تأليفه». وهو أنه يذكر ما ينبغي للإنسان أن يتشبه به من أفعال الأنبياء والملائكة والحيوانات المحمودة، وما يتشبه به من اجتناب ما يذم فعله[4]. ويورد «محمد الأمين» بعض ما استخرجه من الآداب الاجتماعية التي يطرحها الغزي، ومنها آداب عيادة المريض على سبيل المثال، وفيها يقول[5]:

---

(١) جـ ٣٢٧/٤ (محمود بن يونس الطبيب).
(٢) جـ١٩٤/٤-١٩٥ (محمد نجم الدين الغزي).
(٣) جـ ١٩٧/٤.
(٤) جـ١٢١/٣ (علوي الجفري).
(٥) جـ١٠٩/٢ (حسين البيمارستاني).

إن تَعُدْ يوماً مريضاً فَليكُن في زمنٍ لاق فيه أن تعودْ
واطرقِ البابَ برفقٍ ثم باسْـ ـمِكَ صرِّح، ما صديقٌ كالحسودْ
واغْضُضِ الطرْفَ ولا تُكْثِر إذا من سؤالٍ، ثم خفِّف في القعودْ
لا تكلمْ في الذي يُضجِرُه أو له فيه ارتيابٌ في الوجودْ
ضعْ عليه يدَكَ اليُمنى وعن حالِه، سلْهُ على وجه يجودْ
أظهر الرِقة، وسع مدةً وعِدْنَه بالعوافي أنْ تَعوْد
وأشرْ بالصبر، حذِّر جزعاً وادعُ بالإخلاص مولاك الودودْ
تلك آدابُك إن عُدْتَ ومنْ يحفظِ الآداب يُرجىْ أن يسودْ

ويشبه ذلك ما قاله العالم «أحمد السندوبي المصري »[1]:

إذا عُدْتَ المريضَ فلا تطوِّل وقلل في الكلام لدى العيادة
ولا تذكرْ له فيها مريضاً ولا خبراً فذلك خيرُ عادة

وفي الواقع يبدو أن رجال الفكر في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، كان لهم اهتماماتهم بتثبيت الآداب الاجتماعية المختلفة، ولعل ذلك ناجم من شعورهم بأن بعض تلك الآداب قد نسيت، أو تنوسيت، أو شرع بالتحرر منها، نتيجة طغيان « العامية »، والجهل على سلوك الأفراد. ومن المؤلفات بهذا الصدد، التي وردت في « خلاصة الأثر »: « شرح على منظومة ابن العماد في آداب الأكل » وسماه مصنفه « فتح الرؤوف الجواد »، وكتاب في آداب الملوك سماه « الجواهر المضيئة في بيان الآداب السلطانية »، وكتاب ثالث أيضاً في هذا الباب الاجتماعي هو « الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود »[2].

عاشراً: في الكتاب إشارات عديدة إلى **«الأوقاف الخيرية والأهلية»**. أما

---

(١) جـ١/٢٥٦ (أحمد السندوبي).
(٢) جـ٢/٤١٦ (عبد الرؤوف المناوي).

الأولى فهي ذات النفع العام، التي خصّت بها المدارس والمستشفيات والجوامع، وغيرها من منافع عامة، وبصفة خاصة أوقاف الحرمين الشريفين في مكة والمدينة [١]. ومثل على ذلك أن سوق المرادية بباب البريد بدمشق، والوكالة، وسوق الذراع التي بناها مراد باشا والي دمشق، جعلت وقفاً للحرمين [٢]. وكذلك فعل أحمد باشا كوجك [٣]. **وقدم «المحبي» إحصاءً** للمال النقدي الذي كان يجمع من أوقاف الحرمين في البلاد الرومية، والذي يطلق عليه اسم « الصر »، وكان يرسل في كل عام إلى الحرمين برفقة قافلة الحج الشامي، وبأمانة موظف خاص هو « أمين الصر ». فقد أورد بهذا الشأن ما يلي: « والذي ضبطه جامع هذه الأرقام بطريق التقريب، ورقمه حسب ما وصل إليه علمه من أفواه المباشرين والكتاب، إن الذي يجهز في كل عام إلى فقراء الحرمين ومجاوريها من صدقات آل عثمان وخدمتهم [٤]، وممن سيأتي

---

(١) كانت أوقاف الحرمين الشريفين كثيرة ومتنوعة ومن مصادر عديدة: بعضها ترجع إلى عهد يسبق العهد العثماني، وبعضها الآخر من العهد العثماني. وجزء منها أوقفه السلاطين، وجزء آخر كبار رجال الدولة، أو أميرات البيت السلطاني، أو الأعيان في أي بلد عربي واسلامي. وكان لهذه الأوقاف دائرة مالية حاصة في العاصمة على رأسها « محاسب الحرمين »، ومن فروعها « حرمين مقاطعه سي » وهو قسم مالي يشرف على تلزيم أوقاف الحرمين. وكان لكل وقف « متولٍ » يشرف على شؤونه من جمع لوارداته وصرفها، وتعهده بالصيانة، وبكل ما يلزم لإبقائه داراً، و« ناظر » يراقب مبدئياً « المتولي ». وكان « القزلار آغاسي » أو « ضابط الحريم أو الحرم » في القسطنطينية هو ناظر جميع أوقاف الحرمين في العاصمة، ويساعده نائبان له، أحدهما في « بروصة » والثاني في « أدرنة » كما كان هناك تفتيش خاص بتلك الأوقاف.

أنظر Gibb and Bowen, of. cit. part I p.131—132, Part II. P.171

(٢) انظر خلاصة الأثر جـ٢/٢٥ (حسن باشا شوربزه) وجـ٤/٣٥٦ (مراد باشا).

(٣) جـ١/٣٨٨ (أحمد باشا كوجك).

(٤) خدمة السلطان أو خدامه: هم في أصلهم من مرافقي السلطان الخاصين، ومن « المتفرقة » بصفة خاصة، الذين يكونون إلى جانب السلطان أثناء الحملات الحربية. وقد جرت عادة السلاطين منذ عهد السلطان « سليمان القانوني » على منح هؤلاء « خدمات »، أي أعمالاً مدنية بعد انتهاء الحرب، تكون مفيدة لهم مادياً مكافأة لهم على عونهم العسكري للسلطان خلال الحرب، وكانت تلك الأعمال، إما جمعاً لضريبة الجزية من أهل الذمة، أو إدارة أملاك الأميرات، أو تسليمهم التزامات مقاطعات ضريبية. وكان يطلق على احدهم لقب « الخادم ». Gibb and Bowen, part I, 328, II. P22

ذكره في الديار المصرية ما هو من المال النقد المسمى بالصر، ماثة كيس[١] وأربعة وستون كيساً، بيان ذلك: ما هو من أوقاف الدشيشة الكبرى [٢] أربعة وستون كيساً، وما هو من وقف السلطان مراد [٣] سبعة عشر كيساً، وما هو من وقف السلطان محمد[٤] اثنا عشر كيساً، وما هو من وقف السلطان أحمد[٥] اثنا عشر كيساً، وما هو من وقف الخاصكية [٦] عشرة أكياس، وما هو من

---

(١) الكيس: كمية من النقود كانت توضع في «كيس» أو في «صرّة»، وتوزن وتختم وتوضع في الخزنة. ويبدو أن لفظ «صرّة» كانت تستخدم للنقود الذهبية بصفة خاصة، أما «الكيس» فيحوي نقوداً فضية أو ذهبية، وكان الكيس يختلف محتواه من عصر إلى آخر. ففي عهد السلطان سليمان القانوني، كانت القاعدة أن يضم الكيس (٢٠,٠٠٠) أقجة (عثماني)، إلا أن هذا الرقم ارتفع منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وحتى نهايته إلى (٤٠,٠٠٠) أقجة، و(٥٠,٠٠٠) أقجة. ويلاحظ أنه كان هناك أنواع من الأكياس بحسب ما تحويه، أهمها الكيس الاستامبولي، والرومي، والديواني، والمصري، وكيس المغرب. فالكيس الرومي يحوي (٥٠٠) قرش (أي ٦٠,٠٠٠ أقجة)، والديواني (٤١٦ ٢/٣) من القروش (٥٠,٠٠٠أقجة)، والكيس المصري ويحوي (٦٢٠) قرشاً أي (٢٥,٠٠٠) بارة (والبارة تقريباً ٣ أقجات، أي ما يقرب الـ٧٥,٠٠٠أقجة). والكيس المغربي كان يضم (١٠٠٠) قطعة ذهبية. Ibid, II, P.58

(٢) الدشيشة: طعام من برٍّ مرضوض، ويبدو أن وقف الدشيشة الكبرى، هو الوقف المخصص لصنع مثل هذا الطعام في مكة والمدينة، لإطعام الفقراء. وقد أشار المحبي أن السلطان «مراد الثالث» قد «جعل دشيشة لأجل فقراء المدينة الشريفة ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وبها النفع التام لأهل المدينة (جـ ٤/٣٤٤).

(٣) هو على ما يبدو السلطان «مراد الرابع»، إذ عرف عنه اهتمامه بالحرمين الشريفين، حتى أنه «أمر متولي الجهات خصوصاً مصر، بإجراء حبوبهم، وإرسال مغلّات أوقافهم، فما من أمر يرد عنه إلا وفيه الحث على ذلك». جـ ٤/٣٣٩ (مراد فاتح بغداد).

(٤) لا يعرف بالضبط إذا كان هو محمد الثالث بن مراد الثالث (١٠٠٤-١٠١٢ هـ/ ١٥٩٥-١٦٠٣ م) أم «محمد الرابع» بن إبراهيم (١٠٥٩-١٠٩٩ هـ/ ١٦٤٨-١٦٨٧ م). أنظر ترجمة الأول في خلاصة الأثر جـ ٤/٢١٦-٢٢٣.

(٥) هو السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (١٠١٢-١٠٢٧ هـ/ ١٦٠٣-١٦١٧ م). أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ١/٢٨٤-٢٩٢). وقد ورد فيها بأنه رتب من ريع وقفه لفقراء الحرمين وأرباب وظائفها زيادة في معلومهم في كل سنة اثني عشر كيساً تحمل إليهم صحبة الحاج المصري. جـ ١/٢٩٠.

(٦) الخاصكية هي فرق من الإنكشارية، وكان بعضها خاصاً بالسراي السلطانية وهم الذين عرفوا «بالبستانجية» وفريق منهم كان يكلف بإمرة الحملات المرسلة إلى الحدود، أو لحل القضايا القائمة ـ

وقف الحرمين عشرة أكياس، وما هو من وقف الأشراف [1] اثنا عشر ألف نصف [2] ، وما هو من وقف الخدام ثمانون ألف نصف، وما هو من وقف رستم باشا [3] اثنا عشر ألف نصف، وما هو من وقف اسكندر باشا [4] عشرة آلاف نصف، وما هو من وقف سنان باشا [5] عشرون ألف نصف،

= بين انكشارية الولايات وكان بعضهم يكوّن حرس السلطان الخاص.

Gibb and Bowen, Part I. p. 321-322 No 350.

وكان يطلق لفظ « الخاصكية » أيضاً على محظيات السلطان اللاتي كن يرزقن بأولاد ذكور، وكن يسمين أيضاً « خاصكي سلطان »، بينما اللائي يرزقن ببنات فإنهن كن يسمين « خاصكي قادن » فقط. Ibid, P.73

ويبدو أن المقصود بوقف الخاصكية، وقف بعض محظيات السلطان، أكثر مما هو وقف بعض الفرق الخاصة.

(١) أي الوقف المخصص « للأشراف » وهم الذين ينتسبون إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب.

(٢) النصف: أي نصف درهم من الفضة، وهو نقد فضي متداول منذ عهد المماليك. وقد قدر نصف الفضة في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وعند دخول العثمانيين مصر بالعثماني (الأقجة)، أي أن الأشرفي الذهب كان يصرف بخمسة وأربعين نصفاً أو بخمسة وأربعين عثمانياً أو بأربعين. وفي عهد السلطان سليمان ٩٢٨هـ/ ١٥٣٤م سكّ نصف فضة جديد يقع بنصفين وربع، وكان الدينار السليماني يعادل (٢٥) خمسة وعشرين نصفاً. وقد تذبذب النصف فضة، ويبدو أنه خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، غدا يساوي « البارة »، وهي تساوي (٣) أقجة (عثماني)، وانخفضت قيمته إلى (٢) أقجة في أواخر القرن. وكان يستخدم بمصر خاصة، ويسك فيها.

انظر الخطط التوفيقية جـ٢٠/١٤٤-١٤٩، وأحمد شلبي: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات - تحقيق - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. القاهرة ١٩٧٨. ص١٠٨ هامش (٥٥).

(٣) رستم باشا: صدر أعظم في عهد السلطان سليمان القانوني توفي ٩٦٨هـ/ ١٥٦١. أنظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي جزءان. أخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٢ ج٢/ ٢٤١.

(٤) اسكندر باشا: لعله والي مصر في ٩٦٣ - ٩٦٦هـ/ ١٥٥٦ - ١٥٥٩م. فقد عرف بمآثره الحميدة وأوقف كثيراً من الأوقاف في مصر على مسجد وتكية وسبيل. انظر أحمد شلبي بن عبد الغني:المصدر السابق/١١٢.

(٥) هناك عدة وزراء وصدور عظام في الدولة العثمانية بهذا الاسم، ولا يعرف بالضبط من المقصود. بل كان للسلطان محمد الثالث صدران أعظمان بهذا الاسم. أنظر خلاصة الأثر جـ٤/٢٢٢.

وما هو من وقف علي باشا [1] اثنان وثلاثون ألف نصف. وما هو من الحب في كل عام ثمانية وأربعون ألف أردب، وثمانمائة أردب، وذلك خارج عن صدقات البلاد الرومية، والشامية، والحلبية، وغالب الممالك الإسلامية **(قلت)** وذلك شيء لا يحصره ضبط، ولا يحيط به **وصف»**[2].

ولم يكتف «المحبي» بذكر بعض تلك «الأوقاف الخيرية» كلما سنحت فرصة لذلك ضمن التراجم، بل إنه تحدث عن بعض «متوليها» [3] ومحاسبيها وبعض طرق استغلالها، كاستئجارها والتلاعب فيها، وأكل **المتولين** لها [4] وضياعها، أو على العكس من ذلك، تنميتها وأمانة بعض المتولين في الإشراف عليها [5]. كما أنه أشار إلى ما كان يجري أحياناً من استلاف أجورها [6]، وإلى موقف بعض العلماء من بيع الأوقاف بالجواز وعدمه وإلى استبدال الوقف وجوازه أو عدمه [7].

---

(١) لعلّه «ياوز علي باشا» الصدر الأعظم للسلطانين محمد الثالث وأحمد الأول توفي عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م الأثر ج١/٢٩٢ وج٤/٢٢٢ وزامباور: المصدر السابق. ج٢/٢٤٢.

(٢) جـ١/٢٩٠ (السلطان أحمد).

(٣) انظر على سبيل المثال جـ٣/٢٩٢ (قاسم الكردي)، جـ١/٢٠٩-٢١٠ (أحمد بن سنان القرماني)، وجـ١/٦٢-٦٣ (إبراهيم آغا) جـ٢/٢٢٠ (سنان باشا الدورلي)، جـ١/٣٧٣ (أحمد المغربي) جـ٤/٣٨٦ (مصطفى بن قاسم) جـ١/٤٧٥ (تقي الدين القاضي التقي)، وجـ١/٢٤٣-٢٤٤ (أحمد المجروحي). جـ١/٤٨٨-٤٨٩ (جلال بن أدهم)، جـ٢/٢٤-٢٧ (حسن باشا شوربزة)، وجـ١/٤١٠-٤١١ (إسماعيل بن عبد الوهاب الهمذاني)، وجـ٤/٣٧٢ (مصطفى بن صاري خوجة).

(٤) أنظر جـ١/٢٠٩-٢١٠ (ترجمة أحمد بن سنان القرماني) و٤١٠-٤١١ (إسماعيل الهمذاني)، وجـ٣/٢٩٢ (قاسم الكردي)، وجـ٣/٩-١٠ (عبد الكريم العبادي).

(٥) جـ١/٣٧٣ (أحمد المغربي)، جـ٢/٢٥ (حسن باشا شوربزة)، جـ٣/٢٩٢-٢٩٣ (قاسم بن عبد المنان الكردي).

(٦) أنظر، جـ٤/٣٢٥ (محمود بن يونس الطبيب)، جـ٤/٣٨٦ (مصطفى بن قاسم).

(٧) أنظر، جـ١/٢٨٠-٢٨١ (أحمد الشوبكي) الحنبلي، وكان يحكم ببيع الأوقاف. وجـ٢/١٢٦ (حنيف الدين المرشدي) وله رسالة في استبدال الوقف سماها «السيف الشهير على من جوّز استبدال الوقف بالدراهم والدنانير».

أما الأوقاف الأهلية، أو الذرية، فهي التي حبسها بعض الأثرياء على ذريتهم، على أن تـؤول بعد انقراضها إلى نفع عام. وقد أورد « المحبي » بعضاً منها خلال تراجمه، كوقف آل منقار، ووقف آل الكيال، وكان للمحبي نصيب فيها، ووقف بني تاج الدين [1]، وغيرهم وبـيّن كيفية تسلط كبـار الإنكشارية في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، على بعض تلك الأوقاف الخاصة، وادعائهم تبعيتها لهم [2].

وخلاصة القول، يحتوي كتاب « خلاصة الأثر » مادة إجتماعية ثرية جداً يمكن أن يستفاد منها في العديد من البحوث الاجتماعية عن البلاد العربية والإسلامية في القرن الحادى عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

جـ ـ المعطيات الاقتصادية في «خلاصة الأثر»

وإذا كانت تراجم المحبي تزخر بصور عديدة من الحياة الاجتمـاعية، فإنها لا تبدو بمثل هذا الغنى في الحياة الاقتصادية. فهي لا تتضمن في الواقع إشارات كثيرة لمختلف الفعـاليات الاقتصـادية السـائدة في المجتمـع العربي والإسلامي آنذاك. إلا أنها لا تعدم نثرات عنها هنا وهناك، يمكن أن يُركّب منها بعض ملامح عن الأوضاع الاقتصادية، إذا ما توبعت بصبر ودقة. ففي بعض التراجم إشارات عابرة إلى الـزراعة، وأصنـاف الأشجار، وأنـواع الزروع، وآبار الماء، والاهتمام بتوزيع المياه على الأطيان. ومثل على ذلك ما أتى في ترجمة « عبد العزيز الصعدي » اليمني من أن هذا الأخير « هو الذي أجرى القوانـين في آبار صعـدة في المساقي، وقـدّر الأجباب المعـروفة من

---

(١) أنظر، جـ١/٣٩٧ (أحمد بن المنقار)، جـ٤/١٤٥ (محمد بن محمد الكيال)، جـ١/١٥٨ وقف بني تاج الدين وهو من الأوقاف الكبيرة بدمشق (أحمد بن تاج الدين التاجي).

(٢) أنظر على سبيل المثال ما فعله «كيوان » ببستان الحجاجية وكان من وقف « بيت العنبري»، وما ألحقه من أذى بالتاجر (محمد بن العنبري) جـ٣/ ٣٠٠-٣٠١ (كيوان).

الماء. . . وذرع الماء على الطين»[1] وفي ترجمة «خير الدين الرملي» أتى أنه غرس في الرملة ألوفاً من الأشجار المختلفة من الفواكه والتين والزيتون وأنه كان يبارك العمل الزراعي الذي يدرّ عليه ما يعيش منه حتى أنه قال به شعراً، ذكر فيه بعض أدوات الزراعة المعروفة آنذاك «كالمر» و«المسحاة»[2]:

بورك لي في المرّ والمسحاة فهما هو الملجىء للجهات
وهي إذا قام عليها صدقة وللذي فرط نارٌ محرقة

وفي ترجمة «مصطفى بن قاسم بن عبد المنان» يتحدث عن فلاحة ودار بقرية «دير العصافير» من غوطة دمشق، والبستان مزروع بأشجار الحور[3]. وفي ترجمة «حسن باشا بن محمد باشا الوزير» إشارة إلى أن الوالي في بغداد قد حفر نهراً في العراق أخذه من دجلة فأجراه يسقي أماكن كثيرة، قيل أن محصولها يزيد في السنة عن عشرين ألف دينار ذهبي[4]، كما أن هناك بعض إشارات أيضاً إلى سعي بعض المتنفذين والأثرياء لإقامة الحدائق، واستجلاب أنواع من الفواكه من أماكن بعيدة لعدم توافرها في المنطقة التي يراد الزراعة فيها[5]. وإلى جانب ذلك يأتي ذكر بعض الأزهار وزراعتها، كزراعة الزنبق مثلاً على ساحل البحر الشامي[6]. هذا إلى تأكيدات كثيرة لارتباط الزراعة بالأمطار، والقحط بالجفاف، والجراد. ويبدو أن البلاد العربية والإسلامية لم تكن تخلو في ذلك الزمن من مؤلفين في الأدب الزراعي، فضمن التراجم ترد أسماء بعض الكتب المدوّنة في هذا الباب كالكتاب في الأشجار الذي ألفه «عبد

---

(١) جـ٢/٤٢٤.
(٢) جـ٢/١٣٧.
(٣) جـ٤/٣٨٦.
(٤) جـ٢/٤٣.
(٥) جـ٢/١٢٤ (حسين باشا الصاري).
(٦) جـ٢/١٣٤.

الرؤوف المناوي» وسماه «غاية الإرشاد إلى معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد»[1] ورسالة في «كيفية غرس الأشجار» «لتاج الدين النقشبندي»[2].

ومثل تلك النشرات الزراعية، معطياته عن بعض الصناعات والحرف التي كانت تمارس في مجتمع ذلك الوقت، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، صناعة عصر السمسم، والخبازة، وصناعة المناخل، والسروج والحياكة، وصنع الصابون المطيّب وحدادة المسامير، وصباغة الورق، والنجارة، والصياغة، وتجليد الكتب، وصناعة القصب، والحلاقة، والحجامة، والعطارة[3]. هذا بالإضافة إلى لمحات عن بعض الصناعات الرائجة «كالقماش العناياتي المتخذ من الحرير» و«الجوخ الأسود والأخضر»[4]، والقماش الكتاني، والقطني، والصوفي، إلى غير ذلك.

ويثبِّت المحبي في بعض تراجمه أيضاً، إشارات للتجارة والتجار، ويسر أحوالهم[5] ويشير إلى تجارة محلية محدودة يقوم أصحابها ببيع الحبر، والحرير، والصابون والقماش، ومواد العطارة[6]. كما تتضح في ثنايا مجموع التراجم

---

(١) جـ٢/٤١٥ (عبد الرؤوف المناوي).

(٢) جـ١/٤٦٨.

(٣) أنظر جـ١/١١١ (أبو بكر المعصراني: عصر السمسم)، جـ٤/٢٦٤ (محمد البطنيني، الخبازة)، جـ٤/١٥٣ (محمد الخلوتي: صناعة المناخل) جـ٢/٢٨٧ (عبد الباقي شاعر الروم: السروج)، جـ١/٦٢ (إبراهيم النبتيتي: الحياكة) وكذلك جـ١/٢٥٧ (أحمد الحمامي)، ج١/٤٩١ جمال الدين الجنيد الدمشقي)، ج٢/١٩ (حسن أمي سنان زادة: الصابون المطيب، جـ١/١٣ (إبراهيم الكواكبي)، جـ١/٤١٠ (إسماعيل الهمذاني: صباغة الورق)، جـ٣/٢٠١ (علي النجار: النجارة)، جـ٣/٣٦ (عبد الله الأهدل: الصياغة وتجليد الكتب)، جـ٤/١٦٠ (محمد بن سعد الدين: صناعة القصب)، جـ٢/٢٤٢ (صالح درس عام: مزين) جـ٢/٥١ (الحسن البوريني: العطارة).

(٤) جـ٤/٤٩ (محمد الحريري العاملي)، وجـ٤/٣٦ (محمد الصيداوي).

(٥) جـ١/١١٨ (أبو السعود ابن الكاتب)، جـ١/٤٩٠ (جمال الدين الجنيد)، وجـ٤/٣٩٥ (مصطفى العلبي).

(٦) جـ١/٤١٠ (إسماعيل الهمذاني: بيع الحبر)، جـ١/٤٥٥ (برهان الدين البهنسي: بيع =

صورة عن تجارة خارجية تبدو ذات أفق واسع، ويسعى العاملون في ميدانها، بين اليمن وحضرموت وأرض مهرة (شرقها) وشرقي أفريقيا (بلاد السواحل)، وبين تلك الأقاليم وبلاد الهند والحجاز. فقد ذكر في ترجمة (السيد علوي الجفري) وهو من حضرموت، أنه اشتغل بالتجارة وبورك له فيها، وجاب البلاد، وسار إلى الجبال، وأقام بالمستفاض من أرض مهرة مدة، وعظمه سلطانها. ورحل إلى السواحل وبجّله ملوكها، وارتحل إلى الهند واليمن ومصر وغيرها. وكان كثير الأسفار إلى الحج[١]. كما كانت تلك التجارة قائمة بين بلاد الشام ومصر[٢] وبين بلاد الشام والحجاز، والشام والعراق وبلاد الروم[٣]، وبين بلاد الحجاز واليمن، وبالذات بين مخُا ومكة، حيث كانت تتم التجارة بالبن والقماش فميناء مخا كان ميناءً نشيطاً تدخله مراكب عديدة تنقل البن إلى جدة، ومنها إلى مكة[٤].

ومن الأمور الاقتصادية التي يتعرض لها كتاب «خلاصة الأثر» هنا وهناك **غلاء الأسعار ونتائجه** ومثل على ذلك ما ورد في ترجمة «محمد باشا حاكم اليمن» حيث قال: «وفي هذا القرن ـ يقصد الحادي عشر للهجرة ـ يضرب المثل بالغلاء الواقع بمكة في سنة تسع بعد الألف، ونهاية ما وصل فيه الأردب المصري [٥] إلى ثمانية عشر ديناراً [٦] على ما سمعناه من الثقات

= الحرير)، جـ٢/١٩ (حسن أمي سنان زادة: بيع الصابون)، جـ١/١٠٠ (أبو بكر العمري: العطارة).

(١) جـ٣/١٢١.

(٢) جـ١/٣١ (إبراهيم بن كاسوحة)، جـ١/٦٨ (أبو بكر الجوهري).

(٣) جـ٢/٤٣٤ (عبد الغني الخاني) وجـ٤/١٦٠ (محمد بن سعد الدين).

(٤) جـ٢/١١٤ (الشيخ الحسين بافضل اليمني). وجـ١/٤٩٦ (السيد حاتم الأهدل اليمني).

(٥) الأردب: مكيال مصري للحنطة يتألف من (٦) ويبات، كل (ويبة) ثمانية (أقداح) كبيرة أو ١٦ صغيرة، أي أنه يعادل تقريباً اليوم بين ٧٣،١٢٥ كغ ـ ٦٩,٦ كغ من القمح أو ٥٦ كغ من الشعير، أنظر ڤالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري. ترجمة د. كامل العسلي منشورات الجامعة الأردنية. د.ت. ص٥٨ـ٥٩.

(٦) الدينار: تسمية قديمة للنقد الذهبي المسكوك في الدولة الإسلامية، وظلت سارية المفعول في =

المشاهدين لذلك. (قلت) فتكون الغرارة الشامية [1] على هذا باثنين وسبعين ديناراً، فإن الأردب المصري ربع الغرارة الشامية. ولم يستمر هذا الغلاء إلا نحو ثلاثة أشهر. وفيه أكل الناس لحوم الكلاب والبسس (القطط). قال الإمام علي بن عبد القادر الطبري «في الأرج المسكي والتاريخ المكي»: سمعت من الوالد أن الفقراء كانوا يأخذون دم الشاة ويجعلونه في إناء على النار ثم يستعملونه. ثم وقع بعد عام تسع غلاء متعدد، منه الغلاء الذي ذكرناه (ويقصد غلاء عام ١٠٢٩هـ في بلاد

= العهد العثماني. ومن المعروف أن أول من سك نقداً ذهبياً في الدولة العثمانية كان السلطان محمد الفاتح، وقد سكه على نمط « الدوقات » البندقية، أو النمسوية. وبعد ضم السلطان سليم الأول لمصر سميت هذه العملة الذهبية بـ« شريفي » أو « الأشرفي » أي كما كان يطلق على النقد الذهبي المملوكي (نسبة إلى لقب « الأشرف » الذي اتخذه ثلاثة من سلاطين المماليك الأخيرين). وكان الأوروبيون يسمونه أيضاً « السلطاني ». وكان وزنه ولمائتي عام من سكه (٥٣) حبة (أي درهم وقيراط وجزء، والدرهم يساوي ٥٠ حبة أو ٣،٢ غرام. وقد كان يعادل في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (٦٠) أقجة. إلا أنه غدا يعادل خلال الأزمة النقدية التي سادت منطقة البحر لمتوسط من ١٥٦٠ فما بعد بسبب تدفق الفضة الأمريكية (١٢٠) أقجة، أو (٨٥) بارة. وفي أواخر القرن السابع عشر غدا الشريف يعادل (٢٤٠) أقجة لانخفاض قيمة هذه الأخيرة.

Gibb and Bowen, P.II P.51—52

وفي أواخر القرن السابع عشر سكت الدولة عملة ذهبية أطلق عليها أسم «الطغرالي» لوجود الطغراء السلطانية عليها، وكانت تعادل (٣٠٠) أقجة. وفي عهد السلطان أحمد الثالث، عام ١٧١١م، سك نقد ذهبي جديد. وأسمي « الذهب الاستامبولي »، أو « الزنجرلي » أو « الفندقي ». كما سك نقد ذهبي أخف وزناً من السابق أطلق عليه اسم « زر محبوب » (زر بالتركية تعني الذهب، ومحبوب بالعربية أي المرغوب بـه)، وقد قدرت قيمة « الذهب الاستامبولي » عام ١٧٢٥ بـ (٤٠٠) أقجة، والنقد الذهبي المسكوك في مصر والذي سمي كذلك «زنجرلي» بـ٣٣٠ أقجة (١١٠ بارة)، والطغرالي المصري بـ(٣١٥) أقجة.

أنظر Ibid, P.55—56

(١) الغرارة عِدْل من صوف أو شعر، وكانت تتألف من (١٢) كيلاً أو (٧٢) مداً دمشقياً، أي حوالي ٢٠٤،٥ كغ من القمح، أو حوالي (٢٦٥) ليترة بوصفها مكيالاً أو ما يعادل (٣) أرادب مصرية. أنظر القلقشندي ج٤/ ١٨١ ،وهانتس/ ٦٤ ، والخطط التوفيقية ج١١/ ٦٧. إلا أن هذا الوزن قد اختلف على ما يبدو من قول المحبي، فغدت الغرارة الشامية تعادل (٤) أردبات مصرية بدل الثلاثة.

اليمن والحجاز)، ثم في سنة سبع وثلاثين وقع غلاء عظيم واستمر متزايدا إلى سنة ثمان، فبقيت الكيلة الدخن في هذا العام بأحد عشر محلّقاً. ثم وقع في عام تأليف هذا الكتاب (أي ١٠٩٥ ـ ١٠٩٦ هـ) غلاء أضرم في الأفئدة نيران الاشتعال، وأعمى بصائر الناس من التفرغ للاشتغال، واستمر أشهراً عديدة. وفي الغالب إنما يكون في أنواع الحبوب، وقد يقع في السمن وغيره من المأكولات»[(١)].

أما غلاء عام ١٠٢٩ هـ الذي أشار إليه، فقد سبقه قحط استمر مدة من الزمن في اليمن، وبيع حمل الجمل[(٢)] من الحنطة بأربعين صـرفاً[(٣)]، وعبرة

---

(١) جـ٤/٢٩٨-٢٩٩

(٢) حمل الجمل: يختلف وزنه من بلد إلى آخر، وفي العراق كان يعادل نظرياً (٣٠٠) منّ (والمنّ هو تقريباً ٨٠٠ غ، أو ٦٠٠ رطل)، وهذا يساوي مبدئياً ٢٤٣,٧٥ كغ، أو ٢٥٠ كغ بالمتوسط للاختلاف بين مكان وآخر.
أنظر هانتس/٢٦ ـ ٢٧.
وتحديد المحبي لحمل الجمل في اليمن بـ(٣٠) قدحاً صنعانياً يطرح تساؤلاً عن وزن «القدح الصنعاني». و«القدح» هـو مكيال مصري. ومنه الصغير وهو يعادل تقريباً ٧١٦,٨٣غ، والكبير ضعف الصغير ويعادل ١,٤٣٣,٦٦ كغ أي (١,٥) كغ. ولكن يبدو أن القدح الصنعاني أكبر بكثير من القدح المصري، فمن غير المعقول أن يكون «حمل الجمل» معادلاً لـ(٤٥) كغ فقط، إذا نظر إلى القدح الصنعاني على أنه قدح مصري كبير. فإذا كان حمل البعير قد قدّر مبدئياً بـ(٢٥٠) كغ وهذا منطقي، فإن القدح الصنعاني يساوي مبدئياً (٨) كغ أو خمسة أضعـاف «القدح المصري الكبير».
أنظر هانتس/٦٥.

(٣) الصرف ـ أشار الورثيلاني إليه في رحلته التي قام بها إلى البلاد الحجازية في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد والتي أسماها «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. ص ٥١٠. وذكر عنه ما يلي: «في المدينة المنورة يسمون الأربعين ميدياً صرفاً، فيقولون عشرة أصرف وعشرون صرفاً، يعنون كل أربعين قيراطاً من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرفاً كقولنا في بلادنا مثقالاً... ويذكرون الصروف إذا ذكرت مجموعة (ذهباً)، فيقولون: عشرون دهباً، وثلاثون ذهباً، يعنون عشرين صرفاً من غير قصد إرادة الذهب، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها.». وعلى هذا فالصرف يعادل (٤٠) بارة مصرية أو قطعة، أو أنه (١٢٠) أقجة، لأن البارة غدت تعادل (٣) أقجة أي أنه يساوي ديناراً ذهبياً أو أشرفياً تقريباً. وهذا ما أكده «دوزي» في قاموسه =

حمل الجمل ثلاثون قدحاً صنعاتياً [1] وبيضة الدجاجة ببقجة، وهي عبارة عن كبير واحد في مقابلة عثمانيين [2].

ومما ذكر سابقاً يتضح أنه يستفاد من كتاب المحبي في الميدان الاقتصادي بعض معطيات عن المكاييل والأوزان المستخدمة آنذاك: كالمكوك [3]، والجرّة [4]، والرطل [5]، والأردب المصري، والغرارة الشامية، وحمل الجمل، والقدح وغيرها؛ وكذلك بعض مقاييس الأطوال كالذراع.

وينبي أيضاً عن أنواع النقد الرائجة في البلاد العربية والإسلامية كالدينار

= (جـ٢/٨٢٩) بأن الصرف (٢٢) درهماً بدينار يوسفي». ولعلّ تسميته «بالذهب» كما أشار الورثيلاني، ترجع إلى أنه كان يساوي مبدئياً ديناراً من الذهب. إلا أن المحبي في خلاصة الأثر جـ٢/١٨٥، يشرح «الذهب» في الحجاز بقوله: (الذهب الواحد عندهم بمثابة ثلث القرش في بلادنا). فإذا كان القرش في أواخر القرن السابع عشر يعادل ١٦٠ أقجة، فإن «الذهب الحجاري» كان يساوي (٥٣) أقجة، وهذا لا يتفق مع ما ذكره الورثيلاني بعد قرن من الزمن.

(١) أنظر هامش (٢) من الصفحة السابقة (٢٢٧).

(٢) جـ٤/٢٩٨ (محمد باشا حاكم اليمن).

(٣) المكوك يختلف وزنه من بلد إلى آخر. وهو في حلب يعادل (١٩) سنبلاً، وكل سنبل (رطل ونصف) أي أن المكوك يعادل تقريباً (٦١) كغ. كان ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري. إلا أنه يبدو من أقوال القلقشندي في القرن الخامس عشر (جـ٤/٢١٦) أن المكوك الحلبي كان يعادل (٧) ويبات مصرية أي ٨١,٢ كغ من القمح، أي أردب وعشر تقريباً
هانتس/ ٧٨ - ٧٩.

(٤) لا يعرف وزنها، وقد وردت مكيالاً «لزيت الشيرج». انظر خلاصة الأثر جـ٢/٨٦ (حسين باشا جانبولاذ).

(٥) كان رطل دمشق يعادل تقريباً ١,٨٥ كغ، بينما في حلب ١,٥ كغ، وهذا كان قديماً. ولكن منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي اختلفت قيمة الرطل بحسب المادة الموزونة. فرطل الحرير في حلب يساوي ٢,٢١٧ كغ، ورطل المعادن والتوابل ١,٩ كغ، وفي المتوسط كان يعادل ٢,٢٨ كغ.
هانتس/ ٣٣ - ٣٤.

الـذهبي (الشريفي)، والعثمـاني، والقـرش [1]، والصـرف، والمحلّق [2]، والـريـال [3]، والقـطعـة [4]، والكيس، والنصف، والهـنّ الهنــدي، والبقجة[5] وغيرها. هذا بالإضافة لبعض أسعار السلع في فترات معينة من القرن، وفي زمن الغلاء بصفة خاصة.

ولا تخلو التراجم من بعض المعلومات عن الاحتكارات الاقتصادية التي كان يشترك فيها رجال الدولة أنفسهم: فقد ورد في ترجمة أحد ولاة أدنة[6] أنه

---

(١) القرش: نقد فضي أوروبي، وأكثر ما اشتهر منه الفلمنكي (الهولاندي)، وكان يحمل صورة « أسد » ولذا سمي « بالأسدي » أو « الأرسلاني » أو « الأصلاني » (أرسلان وأصلان كلمتان تركيتان تعنيان الأسد بالعربية). وهناك أيضاً « القرش النمسوي » المسمى بالريال، أو « قره قرش »، الذي كان يزيد بوزنه بمقدار الثمن عن القرش الفلمنكي. وهناك « الريال الاسباني » الذي كان المصريون يسمونه « بأبي مدفع ». وقد سكّت الدولة العثمانية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي « قرشاً عثمانياً » قلّدت به القروش الأوروبية. وكان يعادل (٢/٣) القره قروش. وكان (القرش الريالي) أو الريال يعادل في أواخر القرن السابع عشر (١٦٠) أقجة.

Gibb and Bowen, part II. 53—54

(٢) المحلّق: نقد فضي كان يستخدم في الحجاز واليمن، وقد أشار إليه الورثيلاني في رحلته/ ٥١٠ وذكر أنه يعني « القيراط المسكوك »، ويقولون له في مصر «فضة » و« مؤيدي ». ومن المعروف أن « المؤيدي » في مصر هو « المدين »، وهو « الفضة »، وهو « البارة » أيضاً. وكانت تعادل في أواخر القرن السابع عشر (٣) أقجة، بينما كانت تعادل في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي عثمانيتين (أنظر وثائق المحاكم الشرعية. حلب مجموعة ٤ ص٦٨٨). فالمحلّق هو إذاً (البارة).

(٢) الريال: انظر هامش(١) أعلاه.

(٣) القطعة: نقد فضي كان يسك بمصر،وكان يعادل في الأصل ٢/٥ الدرهم من الفضة أي أن كل (١٠٠) درهم تعادل (٢٥٠) قطعة أو (بارة) كما أسماها العثمانيون. وكان اسمها الأول « المؤيدي » وحرّفها العامة إلى « ميدي »، ولفظها الأوروبيون « مدين ». فالقطعة لا تعادل « الأقجة » وإنما هي من مضاعفاتها، وكانت تعادل في بادىء الأمر (٤) أقجة ثم غدت (٣) أقجة، بل وكانت (٢) أقجة كما أشير في الهامش السابق.

(٤) أنظر خلاصة الأثر جـ٢/٢٣٢ (الملك عنبر).

(٥) البقجة: نقد فضي يعادل عثمانيين أي قريباً من « البارة ». خلاصة الأثر جـ٤/٢٩٨.

(٦) مدينة جنوب آسيا الصغرى، قريبة من الحدود الشامية، وقرب نهر «سيحان». وتسمى أيضاً « أضنة » و« أذنة ». أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعربة جـ٢/٣١٣-٣١٤.

حرَّج على البضائع كلها فلا يبيعها جلاَّبُها إلاَّ لمن عيَّنه من جماعته، ثم تباع للسوقة بعد ذلك[1]. وكذلك اتهم قاضي حلب باحتكار القمح مع بعض أعوانه من أهاليها المتنفذين[2].

كما أن هناك نصوصاً بيّنة تؤكد وجود الربا [3] على الرغم من تحريم الدين الإسلامي له. ومع أنه ظاهرة إجتماعية إلا أن له صلة وثيقة بالاقتصاد، ودخل الفرد. ويبدو أن الفلاحين هم أكثر الناس استدانة من المرابين، الذين كانوا من أصحاب السلطة والنفوذ، ولا سيما من الإنكشارية [4]، بل ومن طبقة العلماء، «فبرهان الدين بن محمد البهنسي» مثلاً كان مدرّساً وقاضياً. «وبعد عزله استقر بدمشق، وبقي يعامل الفلاحين، واشتهر بالربا، وبلغ فيه مبلغاً ليس وراءه غاية. وكان إذا استحق ماله على الدائن يغلظ عليه في طلبه ويقول: لا سبيل إلا أن تعطيني مالي أو تشقلبه. وهذه عبارة جارية على ألسنة العوام يقولون: شقلب ماله أي رابح فيه مرّة ثانية، فكان منهم من يعطيه ماله، ومنهم من يرابحه، وبذلك عرف بشقلبها» [5]. وكذلك كان «حسين بن محمد البيمارستاني» نقيباً للأشراف، إلا أنه على ما يظهر من ترجمته كان يعمل في المداينات بالربا بدليل قول «المحبي» عنه: «كان صاحب أموال جزيلة حصلها من التجارات والمداينات»[6].

---

(١) جـ٤/٢٩٥ (محمد باشا نائب حلب وأذنة).

(٢) جـ٣/٨٠ (عبد الله الحجازي الحلبي).

(٣) جـ٤/٣٩٤ (كوجك مصطفى) وكان قاضياً تحرى في أحكامه وحررها وخصوصاً فيما يتعلق بالجند ومداينتهم وكان يحطّ على المرابين، ويلزمهم على ردِّ ما لديهم من رهون. ويبدو مما ورد في الترجمة أن الدائنين المرابين كانوا من الجند.

(٤) أنظر جـ٤/٢٩٥ (محمد باشا نائب حلب وأذنة)، وفيها أن الوزير نائب الشام عقد مجلساً عظيماً كتب فيه حجة على العسكر أنهم (لا يرابون) مما يدلّ على انتشار الربا بينهم، وإساءتهم به للأهالي

(٥) انظر جـ١/٤٥٥ (برهان الدين بن محمد البهنسي).

(٦) جـ٢/١٠٨.

ومن الأمور ذات الصلة بالاقتصاد أيضاً ما أتى من لمحات عابرة عن إجراءات اتخذتها الدولة لمعالجة القحط والمجاعة في إقليم ما، وذلك بالاستفادة من خيرات إقليم آخر، كسعيها مثلاً لاستيراد الحبوّب من مصر إلى بلاد الشام حينما أُصيبت بلاد الشام بالقحط في عام ١٠٧١ هـ [١].

وجملة القول، على الرغم من القلّة النسبية للمعلومات الاقتصادية في كتاب «خلاصة الأثر»، فإن تلك القلّة تنبىء عن أمور هـامة في البنيـة الاقتصادية للبلاد العربية وبعض البلاد الإسلامية.

د ـ المعطيات الفكرية

وإذا ما انتقل إلى قيمة «خلاصة الأثر» مصدراً للتأريـخ الفكري في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي فقد تكون تراجم المحبي أخصب ما تكون بالمعطيات الفكرية. وقد يكون عسيراً جداً الإحاطة بكل ما يقدمه في هذا المجال، ويمكن القول بأن معطياته قابلة لتكـون منطلقـات لبحوث عديدة في ميدان الفكر والإنتاج الفكري في المجتمع العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر للهجْرة/السابع عشر للميلاد. فعبر تراجمه الكثيرة لفئة العلماء، أو بتعبير أشمل، للعاملين ضمن المؤسسة الـدينية الإسـلامية من علماء، وقضاة وأئمة مساجد، وخطباء، ومؤذنين، وساعين في مجال الأوقاف الدينية يوضح لنا أموراً كثيرة أهمها:

أولاً: إن مرتبة العلم بالنسبة للعلماء أو المثقفين من أمثال المؤلف، هي أسمى مرتبة في المجتمع العربي والإسلامي آنذاك، على الرغم من شكوى هؤلاء المثقفين بأن مجتمع ذلك الوقت قد انجرف وراء المادة، وأصبح المال هو ديدنه، والقيمة الكبرى فيه، فتصدّر المجالس الجهّال الأثرياء بدل العلماء. فقد أتى على لسان المؤرخ والأديب «عبد البر الفيومي» (المتوفى ١٠٧١هـ/١٦٦٠م)

(١) جـ١/٣٥٣ (أحمد باشا الفاضل).

شكوى بهذا المعنى، حيث قال: «قد كان الفضل في المراقي من نصل عيون الدهر هو الراقي، والترقي في الأدب به التوقي من النصب والوصب، وكل هذا ذهب، وانحصر الدواء في الفضة والذهب. فالمفلحون في خبايا النقود قعود، والمفلسون في زوايا الخمول رقود. فدَعْ فضلَ العلم والحَسَب، واسع أن يكون لك من المال خيرُ نَشب. فقد كان الأدب وديعةً واسترد وصار الدرهم مرهماً ولبرء ساعة استعد»[1].

ومع أن هذا القول يُمثل منعكساً عن أحوال المجتمع آنذاك، إلا أنه يبقى مبالغاً فيه ومماثلاً لنفثات بعض المفكرين في كل عصر. وقد أبرز « المحبي » هذا التشابه مع الماضي، عندما عقّب على قول «الفيومي» بأمثلة شعرية ونثرية قديمة، تبرز هي الأخرى قيمة المال وأصحابه في المجتمع على حساب العلم وأهله[2] . ومن ثم فمع تلك الأقوال والأفكار، ظلّ العلم قيمة إجتماعية محببة يتطلع إليها المجتمع بمعظم فئاته. ويبدو هذا واضحاً في أقوال بعض العلماء، ومنها ما نظمه رئيس أجلاء الشيوخ في دمشق « عمر القاري الدمشقي » (المتوفى ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) قائلاً[3]:

لولا ثلاثٌ هنَّ أقصى المرادْ ... ما اخترتُّ أن أَبْقى بدار النفادْ
تهذيبُ نفسي بالعلوم التي ... به لقد نلتُ جميع المرادْ
وطاعةٌ أرجو بإخلاصها ... نوراً به تُشِرق أرض الفؤادْ
فأسألُ الرحمن بالمصطفى ... وآله التوفيق فهو الجوادْ

وشبيه بها ما قاله آخر[4]:

لولا ثلاثُ خصال هنَّ من أملي ... ما كنتُ أوثرُ أن يمتدَّ بي أجلي

(١) جـ٢/٢٩٥.
(٢) المصدر نفسه / الصفحة ذاتها.
(٣) جـ٣/٢٢٤.
(٤) المصدر نفسه / الصفحة ذاتها.

كسبُ العلوم التي منْ نور بَهْجتها يبينُ لي مَسْلكي في القولِ والعملِ
وجبرُ خاطرِ منْ قد ذلَّ جانبهُ ولم يجدْ مسعفاً في الحادث الجللِ
كذاك للَّهِ تسليمي ومُرتجعي فهذه جلُّ ما أرجوه من أملي

ويتبدى التقويم الاجتماعي العالي للعلم أيضاً في قول «أبي بكر الأهدل اليمني» (المتوفى ١٠٣٥ هـ/١٦٢٥ م)[١]:

إن كنتَ تطلبُ في الداريْنِ تفضيلا وتبتغي من مليكِ الكونِ تكميلاً
داومْ على العلمِ والفعل الجميل تَنَلْ ذكراً جميلاً وتكميلاً وتوصيلاً
فاطلبْهُ وادأبْ على تحصيلهِ أبداً وقمْ بتأليفهِ إن حزتَ تأهيلاً
وانفقِ العمرَ في تحقيقِ حاصِله واعمر به الدهر تدويناً وتحصيلاً

وإذا كان ذاك هو موقف العلماء والمتعلمين من العلم، وهو موقف طبيعي ينسجم مع تكوينهم الفكري، فإن موقف العامة، والسلطات الحاكمة لا يقل عنه، أي أن العامة كانوا يجلون العلماء، وينظرون إليهم نظرة تقديس، وينضوون تحت أحكامهم، فهم بالنسبة إليهم «ورثة الأنبياء»، و«خير الورى». وبالمقابل فإن السلطة الحاكمة العثمانية كانت تجلّ العلماء، وتقدمهم، وتسمع لهم، وتخصهم بعدد من الامتيازات، ومنها منحهم جرايات من الجوالي (ضريبة الجزية على غير المسلمين)، وتعفيهم مبدئياً من المصادرة، وتقبل بهم وسيطاً بينها وبين الرعية. وكتاب «المحبي» زاخر بالأمثلة على ذلك، وعلى توسط العلماء، ولا سيما القضاة والمفتين لدى السلطة السياسية لرفع المظالم عن الرعية، ولتهدئة الخواطر وحلّ القضايا العويصة. أنظر مثلاً تدخل جد المحبي لدى المفتي الأعظم ومعلم السلطان في حادثة القبض على القضاة في قضية محمود البواب، التي شغلت الأذهان في دمشق في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[٢]. وانظر أيضاً سعي قاضي حلب في

(١) جـ١/ ٦١ (أبو بكر بن الأهدل)
(٢) جـ٢/ ٤٢ (حسن باشا).

الصلح اثناء حصار حسين جانبلاط للمدينة [1]، وسعي العلماء أثناء حصار علي جنبلاط وفخر الدين المعني لمدينة دمشق [2] لرفع ذلك الحصار عن أهاليها. وبصورة عامة، لم يعرف عن السلطة السياسية العثمانية قتل العلماء أو التنكيل بهم إلا ما ندر ولذا كان عقاب « محمود البواب »، الذي ثبتت عليه تهمة تحقير علماء دمشق وإهانتهم، الصلب [3]. بل إن مفتي السلطنة المولى « حسين أخي زاده » سعى في قتل الصدر الأعظم عندما سمع أنه قال كلاماً مسيئاً بحق الرسول الأعظم، على الرغم من موقف العساكر القوي إلى جانبه. وعندما أراد السلطان «مراد الرابع» أن يقتل بعض أعيان القضاة احتج جماعة من الموالي (كبار القضاة) بأن السلطان خالف قوانين أجداده في قتل العلماء. وبعث المفتي المذكور أعلاه بكتاب إلى والدة السلطان تذكر بأن قوانين السلاطين ألا يقتلوا العلماء، وإذا حصل منهم ظلم طردوهم إلى بلاد بعيدة. ومع أن موقف المفتي كان قوياً إلا أن السلطان هذه المرة لم يأخذ بالماضي وخنق المفتي [4]. وهناك نماذج كثيرة تظهر تقدير واحترام السلاطين والوزراء والولاة للعلماء والأدباء، حتى أنه صدر أمر شريف (فرمان) بتقدم قضاة العسكر على أمراء الأمراء في مجالس السلطنة وفي كل المناسبات [5].

ثانياً: إن تيار العلم الديني الإسلامي كان التيار الفكري الأعلى بالنسبة لمجموع المجتمع آنذاك، وعلى الرغم من انقسام المسلمين السنة إلى مذاهب أربعة، هي المالكي، والحنفي، والشافعي، والحنبلي، فقد كان هناك تلاق بين علماء تلك المذاهب، مع وجود التنافس بينهم، حتى أن العالم منهم قد يتتلمذ على المذاهب الأربعة مع التعمق بمذهبه الخاص [6]، بل قد يجمع بين

---

(١) جـ٢/٨٧ (حسين جنبلاط).

(٢) جـ١/٣٢ (إبراهيم الإزنيقي)، وجـ٣/١٣٧ (علي جنبلاط).

(٣) جـ٢/٤٢ (حسن باشا).

(٤) جـ٢/١١٠-١١١ (المولى حسين أخي زاده).

(٥) جـ٢/٤٢٥ (عبد العزيز التبريزي).

(٦) أنظر على سبيل المثال فقط ترجمة « محمد المكتبي » وشيوخه جـ٤/٧٣ .

إفتاء مذهبين، كمحمد بن عمر العرضي الحلبي المتوفى ١٠٧١هـ/١٦٦٠م، الذي جمع بين إفتاء الحنفية والشافعية [1] ويبدو أن المذهب لم يكن إرثياً، وإن كان في كثير من الحالات يظهر وكأنه كذلك. والدليل على هذا أن العديد من العلماء قد غيَّر مذهب أسرته، لاقتناع علمي أو لأغراض مادية. وهذا يلاحظ في عهد الدولة العثمانية بصفة خاصة، حيث تبنَّت الدولة المذهب الحنفي، واشترطت في المناصب الدينية توافره في أصحابها. بل إن جَدَّ المحبي نفسه كان في أصله شافعياً ثم تحنَّف. ومن الأدلة على عدم إرثية المذهب أيضاً، أن أمنية أحد العلماء كانت في أن « يكون له أربعة أولاد كل على مذهب » [2]. وفي الحقيقة أن الحوار الفكري بين علماء المذاهب السنية الأربعة كان مستمراً في تلك الحقبة، بل إن هذا الحوار لم ينقطع حتى بين السنة والشيعة، على الرغم من تعصب الدولة العثمانية ضد الشيعة وملاحقتهم، وتعصب علماء الطرفين لآرائهم، والقارىء لترجمة « محمد بن حسين البهاء العاملي » [3]، يرى صورة حية من ذلك الحوار.

ويظهر المحبي في طرحه لتراجم بعض الشخصيات الشيعية العالمة من « العامليين » (سكان جبل عامل في جنوب بلاد الشام) ومن الشيعة الزيدية في اليمن، ومن أعاجم الفرس، وبعض علماء البحرين، ولحديثه عن الفرقة الدرزية وكبار شخصياتها، مع كل شجبه لأفكارهـا، فكراً منفتحاً ومعْلِماً للأجيال القائمة والقادمة، بحرية ودون أي تزمت، عن التيارات الفكرية الدينية التي كانت تجوس المجتمع العربي والإسلامي ـ كما أسلفنا القول ـ. وقد يقرأ القارىء أية ترجمة من تراجم الشخصيات الشيعية دون أن يشعر بمذهبها، لأنه لا يشير إلى ذلك إلا نادراً، ويقدمها وهو محترم لعلمها وأدبها دون النظر لمخالفتها لمعتقده السني. بل إن طرح المحبي لترجمة « يحيى الكركي » [4] وبيان

(١) جـ٤/٨٩-١٠٣.
(٢) جـ١/٤٨ (إبراهيم الصمادي).
(٣) جـ٣/٤٤٠-٤٤٥.
(٤) جـ٤/٤٧٨-٤٨٠.

النجم الغزي قد سبقه إلى ذلك ورأى فيه (النجم الغزي) مارقاً خطيراً عن الدين، فسعى بكل ما لديه من نفوذ وسلطة للقضاء عليه واستصدار أمر بإعدامه، يدل أيضاً على حس تاريخي صحيح لدى المحبي، يلاحق الخبر ويطرحه، مهما كان موقف طارحه منه.

وفي باب العلوم الدينية الإسلامية بشتى فروعها، تقدم تراجم المحبي فيضاً من المؤلفات لا بد من حصره ودراسته وموازنته مع ما كتب في الماضي، لتعرف الجديد فيه والتقليدي قبل إصدار حكم عليه بأنه غث أو سمين.

ثالثاً: يتضح من تراجم المحبي أن تيار العلم الديني الإسلامي السالف الذكر، كان مرفوقاً بتيار علم لغوي عربي. فأكثر التراجم كان لمن غاص في علوم الدين واللغة على حد سواء، وأعطى في مجاليهما تدريساً وتأليفاً، أو كان أصحابها من العرب أو غير العرب. إلا أنه يلاحظ أن أغلب من اهتم بعلوم اللغة العربية في هذا القرن كان من أهل البلاد العربية. وبذلك كان العلماء العرب، بتقليديتهم في معاودة علوم السلف اللغوية، وشرح ما جاء فيها والتعليق عليها، وتعليمها، والتأليف على سنتها، عاملاً في تثبيت جذور اللغة العربية أكثر فأكثر في المجتمع العربي، في وقت أخذت اللغتان الفارسية والتركية تجدان طريقهما إليه، بل وفي نشر هذه اللغة في الأوساط التركية نفسها. وقد أشير في مقدمة هذه الدراسة إلى أن العديد من العلماء الأتراك أحاط باللغة العربية وعلومها، ودرسها بعمق واتقان [1]. وفي الواقع، قدم القرن

---

(١) أنظر على سبيل المثال لا الحصر التراجم التالية: جـ١/٣٦٥ (أحمد بن نور الله البولوي) - جـ١/٣٩٦ (أسعد بن حسن جان) - جـ٢/١٠٩-١١١ (حسين أخي زادة) - جـ٢/٣١٩ (عبد الحليم أخي زاده) - جـ٢/٣٥١-٣٥٧ عبد الرحمن بن حسام الدين - جـ٣/٢-٨ (عبد الكريم بن سنان) - جـ٣/٢٣-٣٦ (عبد اللطيف المعروف بأنسي) - جـ٣/٥١-٥٢ (عبد الله ابن طورسون زاده) - جـ٣/٦٤ (عبد الله خواجه زاده) - جـ٣/٢٨٨-٢٩٢ فيض الله ابن القاف - ج٣/٣٥٣ - ٣٥٤ (محمد بن أحمد وحيي زاده) - ج٣/٣٥٦ - ٣٥٨ (محمد طاشكبري زاده) - ج٣/٤٠٥ - ٤٠٨ (محمد برهان الدين الحميدي) - ج٤/١٧٧ - ١٨١ (محمد بن محمد بن برهان الدين الحميدي) ج٤/٢٢٣ - ٢٢٤ (محمد بن مصطفى المعروف أبوه ببستان) - ج٤/٢٢٥ - ٢٢٦ (محمد =

الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي كثيراً من المؤلفات في ميدان اللغة العربية وعلومها من معاجم، ومدوّنات في علوم البيان والمعاني والعروض لا بدّ من دراستها ليرى مدى الجدة فيها كما أشير إلى ذلك في علوم الدين.

رابعاً: إن النشاط العلمي الديني واللغوي، السالف الذكر كان منتشراً في معظم مدن الأقطار العربية والإسلامية كالقاهرة، ودمشق، ومكة، والمدينة، وحلب، والقدس، والرملة، وبعلبك، وفاس، وتونس، والجزائر، ومراكش، وتلمسان، وبغداد، والبصرة، والموصل، وصنعاء، وبروصة، والقسطنطينية، وأدرنة وغيرها. بل إن إلحاح المحبي على الحديث عن علماء حضرموت يبين أنها كانت مركزاً نشيطاً من مراكز العلم ولا سيما مدينة «تريم» فيها كما يبرز تلك الصلة الفكرية الوثيقة بين العالم العربي وبلاد الهند الإسلامية، إذ أن كثيراً من علمائها، وعلماء اليمن، كانوا يتوجهون إلى بلاد الهند وينشطون هناك. وهذا يظهر وجود بؤر علمية دينية ولغوية مشعة في الهند نفسها. ويمد المحبي إحاطته بالنشاط العلمي في العالم الإسلامي حتى يوصله الى «تنبكت» في السودان الغربي[1]، وإلى جاوة من حزر الهند الشرقية[2] كما بينّ ذلك سابقاً.

خامساً: حركة تنقل واسعة كان يقوم بها علماء تلك الحقبة بين الأجزاء المختلفة للعالمين العربي والإسلامي، ولإقامة طويلة أو قصيرة، فمن الشام إلى الحجاز وبالمقابل، ومن الشام إلى مصر وبالمقابل، ومن اليمن إلى الحجاز وبالمقابل، ومن مختلف الأقطار المغربية إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب[3]

= كاني الرومي) - ج٤/ ٣٩٠ - ٣٩٢ (مصطفى عزمي زاده) - ج٤/٣٩٣ (مصطفى بن بستان) - ج٤/٤٦٧ - ٤٧٢ (يحيى بن زكريا) وغيرهم.

(١) أنظر ترجمة (أحمد بابا الصنهاجي الماسي) جـ١/١٧٠-١٧٢ (ومحمد بن محمود المعروف بيغبغ المالكي) جـ٣/٢١١-٢١٢ و(النجيب النكداوي) ج٤/٤٤٨.

(٢) أنظر جـ١/٤٥٨ (تاج الدين بن يعقوب).

(٣) لقد انتقل من المشرق إلى المغرب الأقصى في عهد السلطان السعدي «أحمد المنصور» المعروف بحبه للعلم والأدب، ثلاثة من العلماء والأدباء هم: أبو الفضل بن محمد العقاد الشاعر، =

ـولو أن هذا التيار يبدو أضعف ـ ثم من جميع أنحاء البلاد العربية بمشرقها ومغربها إلى بلاد الروم أو إلى المدن العلمية في الدولة العثمانية، وإن كان تنقل اليمنيين إلى مدن تلك الدولة يظهر ضعيفاً، أو غير موجود. وقد يعلّل ذلك بالصلات السياسية السيئة بين اليمن والدولة العثمانية، وبأن كثيراً من علمائها من الشيعة.

سادساً: توضح تراجم المحبي للعلماء، صلات بعضهم ببعض الحسنة والسيئة، والعوامل التي كانت تتحكم بتلك الصلات: من احترام وتقدير المكفايات العلمية التي كانت تبين عبر التدريس، وعبر التأليف ومن خلال الحوار، والفتاوى، ومطارحة الآراء ومن تقويم للأخلاق والسلوك الاجتماعي، وأحكام مجموع المجتمع فيهم؛ ثم التنافس حول الشهرة العلمية، وارتقاء المناصب الدينية وتقاسمها، حتى المنصب الواحد منها (منصب الخطابة في الجامع الأموي مثلاً) ولا سيما منها مناصب الخطابة والتدريس، والوعظ في المساجد، وإقراء القرآن، والفتوى، ونيابة القضاء، إلى غير ذلك. ومع وجود كثير من الشوائب المسيئة لصفة العلماء في بعض العلاقات التي يطرحها المحبي بينهم، فإنهم يبدون في كتابه في غالبيتهم رجال فضل، وعلم، وأخلاق قويمة، وإن كان بعضهم غير متجرد عن النزعات الدنيوية، بل ومغرقاً فيها أحياناً.

سابعاً: يسقط كتاب المحبي أضواء كاشفة بصفة خاصة على «**القضاة**» من فئة العلماء، إذ يخصهم بقسط كبير من تراجمه، أو بالأحرى فإنه يعطي معلومات وافية عن مجموع نظام القضاء في الدولة العثمانية، ومناصبه، ومراتبه المنتظمة تسلسلاً من نائب قاض، إلى قاض صغير، إلى ملّا (مع بيان مرتبة الملّا بحسب قيمة المدينة التي يعين لها) إلى قاضي عسكر، فشيخ الإسلام،

= والشريف المدني، وإمام الدين الخليلي (أنظر جـ١/١٤٤) إلا أن «المحبي» لم يترجم إلا للأول منهم فقط (جـ٦/١٤٣ ـ ١٤٤).

وكيفية الوصول إليها، والخلل الذي قد يحدث في التعيين لها[1] وتنقلات القضاة الأروام والعرب بين مختلف مدن الأمبراطورية، ومدى نزاهتهم وعدلهم[2]، أو تهاونهم في عملهم[3] أو تعرضهم للرشوة[4]، وجورهم، وموقف بعض رؤسائهم منهم إذا ما ارتشوا[5] وموقف العامة منهم إذا ما ظلموا،

---

(١) أنظر جـ٤/٣٩٣ (ترجم مصطفى المرزيفوني). فهذا القاضي مثلاً قفز إلى قضاء دمشق، وهو قضاء رفيع الشأن، دون أن يمر بالمراتب التي تسبقه، ودون أن يحمل المؤهلات لذلك، وذلك لشفاعة أحد المقربين من السلطان له. وعدّ «المحبي» ذلك الأمر «من أغرب ما وقع في الدولة العثمانية، لأن رتبته بعيدة الوصول الى رتبة الموالي (القضاة الكبار)، فضلاً عن قضاء دمشق المعدود عندهم من أعظم المناصب. ولم يبق أحد من موالي الروم ممن رآه أو اجتمع به إلا أظهر له العداوة، وقصده بما يؤلمه، وهم يقولون أن قطاع الطريق العام أقل وزراً من المتعرض في هذا الطريق الخاص».

(٢) أنظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١/١٧٢ (ترجمة أحمد شيخ زاده) قاضي الشام: ١٠٢٢هـ/١٦١٣م (كان يباشر الأحكام بنفسه، ويتحرى الحق فيها، متصلباً في الحق، يتردد إليه الخصوم وإلى نوابه المرّة بعد المرة فلا يأخذ منهم شيئاً حتى تنتهي الدعوى فيأخذ منهم برفق.. وكان مقتصداً في أحواله ويقول: الاقتصاد خير من الجور على الناس، وكان له إنكار على ما يراه من المناكير... وكان متقيداً بأوقاف الجوامع والمساجد بدمشق، مشدّداً على متوليها...» وكذلك ترجمة (كوجك مصطفى) قاضي الشام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م، الذي كان يقضي بالعدل ولا يخاف سطوة الجند المتنفذين.

(٣) أنظر ترجمة قاضي الشام ومصر (أحمد بن روح الله) جـ١/١٩٠. فقد قال عن تهاونه: «كان لا يتأمل الحجة التي تعرض عليه للإمضاء، بل كان يمضيها تقليدا للكاتب، ثقة به، وتغافلا عن التثبت، لاسيا في أمور الشرع.وصدر من ذلك أن بعض أعدائه أدخل عليه حجة فيها بيع السموات وتحديدها بكرة الأرض، فعلّم عليها، واشتهر أمرها بين موالي الروم وما بالى بذلك». وقد هجا أحد الشعراء ذلك القاضي عندما عين على مصر قائلاً:

حمير شروان أتت مصرنا ... وأصبحت بعد الشقا في دعه
وفارقت كنجة لكنها ... لم يخلُ منها البعضُ من بَرْدعه

و(شروان) هي منطقة إلى الشمال الغربي من بلاد فارس على ساحل بحر قزوين، و«كنجة» إحدى مدنها وتقع غربي «باكو»، أما «بردعه» فهي المنطقة التي تقع فيها «كنجة». و«بردعة» بالعربية يقصد بها الكساء الذي يلقى على ظهر الدابة أو ما يسمى «بالسرج».

(٤) أنظر على سبيل المثال فقط جـ٤/٣٩٣ (ترجمة مصطفى بن بستان).

(٥) أنظر جـ٣/٤٩٤ (ترجمة محمد بن عبد الرحيم): ذكر أمام قاضي العسكر محمد بن عبد=

ذلك الموقف الذي قد يصل إلى السب العلني، والرجم، والضرب بالبيض والهجو[1].

ويشير أيضاً إلى القضايا الكبرى التي حكموا فيها، ولباسهم، وبعضاً من عاداتهم، وعلاقاتهم مع الحكام، وصلة هؤلاء بهم احتراماً، أو تعالياً أو إهمالاً وتهاوناً، ومكانتهم العامة بالنسبة إليهم، كتقدمهم عليهم أو تقدم هؤلاء عليهم [2]، أو الاستماع إلى نصائحهم وإنكاراتهم عليهم [3] وتخطي الولاة لها أو الأخذ بها ودورهم الهام وسيطاً بين الحكام والرعية [4] وبعد ذلك صلاتهم

= الرحيم، وكان جوالاً بالحق بريئاً من الرياء والمداهنة، « ثلاثة من القضاة الكبار في زمانه كانوا معروفين بالجور وتناول الرشوة، فقال إن ولأني الله أمرهم صلبتُ منهم فلاناً في مكان كذا، وفلاناً في محلة اليهود وفلاناً في محلة النصارى. فبلغ أحدهم ما قال، فذهب إليه، يستفسر منه في زيّ متعتب. فقال له: كيف سمعت مقالتي؟ قال: بلغني أنك قلت إن وليت حكمه صلبته في محلة النصارى. قال: إنما قلت عنك أصلبه في محلة اليهود، لأن شهرتك بالجور فوق ذينك الشخصين ».

(1) أنظر جـ١ /٢٠٨-٢٠٩ (ترجمة المولى أحمد بن سليمان الاياشي). الذي رجمه أهل دمشق خلال استقباله لواليها بسبب رشوته وإبطاله كثيراً من الحقوق. وكذلك جـ٣/٣٥٦-٣٥٩ (ترجمة محمد طاشكبري زاده) الذي رجمه الناس، وسبوه، وشتموه، وضربوه، ببيضة لأنه جار عليهم بمال العوارض، وهجاه شعراؤهم.

(2) أنظر هامش (٥) ومتنه في الصفحة (٢٣٤).

(3) أنظر على سبيل المثال ترجمة « أحمد شيخ زاده » قاضي الشام في جـ١ /١٧٢. فقد « كان يواجه أحمد باشا الحافظ نائب الشام بالانكار عليه والنصيحة وكان الحافظ يكرمه ويجلّه » وترجمة « مصطفى حسمي زاده » جـ٤ /٣٩٢، وكان قاضياً لدمشق ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، حيث قال عنه: « وله اليد البيضاء في قمع الظلمة، وكان في أيام قضائه ورد الوزير مرتضى باشا محافظاً بالشام، وكان جباراً عاتياً ظالماً، فعارصه في أمور كثيرة، ولم يدعه يتجاوز في الظلم مقدار المكنة ». وترجمة « حسن أخي زادة » الذي أنكر على السلطان مراد الرابع قتله للقضاة والعلماء، ووقف منه موقفاً صلباً أدى بالسلطان إلى خنقه. أنظر هامش (٤) من الصفحة (٢٣٤). كذلك موقف المولى أحمد المنطقي النخجواني من «عثمان الجفتلري» نائب والي دمشق ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م، ومنعه له من بعض المظالم، ودسّ هذا الأخير ضده، ثم إعدامه: (ج١/ ٢٠٠ - ٢٠١).

(4) أنظر هامش (١) و(٢) ومتنها في الصفحة (٢٣٤) وكذلك ج١/ ٢٦٣ (ترجمة المولى أحمد بن عوض) الذي كان قاضي دمشق عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١ - ١٦٣٢م. وقد استخدم نفوذه لقمع عسكر السلطان

مع بقية العلماء والمتصوفة وبصفة خاصة العلماء المحليين من البلاد العربية، وصلاحياتهم المختلفة، بما في ذلك إصدار حكم الإعدام على المارقين عن الدين [1]. هذا بالإضافة إلى أجورهم في العمل، وما يدفعونه ثمناً لوظائفهم من هدايا وأموال، وتقرب لأصحاب النفوذ [2] وتعرضهم للقتل والإعدام إذا نقمت السلطة الحاكمة عليهم، بل وإلى مصادرة أموالهم بعد قتلهم (كما حدث «لأحمد المنطقي» في دمشق عام ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥ م) [3].

كما توضح تراجم القضاة بأنه لم يكن هناك فاصل قاطع بين القضاء والتدريس والفتيا، فقد عمل كثير من القضاة ونوابهم في التدريس وفي القضاء، مثلما جمع قضاة بين القضاء والإفتاء، ومفتون بين الإفتاء والتدريس، بل إن التدريس في مدرسة السليمانية بدمشق، كان مشروطاً لمفتي دمشق، وفي مدرسة العثمانية بالقدس لمفتي القدس. ويتبدى من تلك التراجم أيضاً أن منصب القضاء الحنفي في بعض المدن الصغيرة، وبتعبير أصح، منصب القاضي الأول فيها كان يعطى لقاض من أبناء العرب، ممن سلك مسلك الأروام في الدراسة القضائية. فقد عينّ عمّ المحبي قاضياً في معرة مصرين، ووالد المحبي في بيروت، وغيرهما. وقد يعطى هذا المنصب في بعض المدن الكبرى كدمشق أو حلب مثلاً لقاض من سكان المدينة، كحال المولى «أحمد

= (القشلق)، الذي كان قد عينّ لمحاربة العجم، وأرسل إلى دمشق ليقضي فصل الشتاء فيها، فتعدى وأفسد ونهب مال الناس. وأنظر أيضاً جـ٢/١٥٧ (ترجمة درويش محمد باشا) نائب الشام في ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م، وكان ظالماً جباراً فمتك في أهلها، وتجاوز في ظلمهم الحد، فلم يجد العامة سوى القاضي كي يشتكوا إليه ويتوسلوا. وجـ٤/٢٩٥-٢٩٦ (ترجمة محمد باشا نائب حلب) ودور قاضي دمشق «بلبل زاده» عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣-١٦٢٤م في فك أسر «مصطفى باشا» والي دمشق الذي وقع أسيراً بيد ابن معن.

(١) أنظر جـ٤/٤٧٨-٤٨٠ (ترجمة يحيى الكركي) الذي اتهم بالضلال والزندقة فحكم القاضي بإراقة دمه بعد محاكمته من قبل مجلس يضم علماء المدينة، وكذلك جـ٢/٤٢ (حسن باشا).

(٢) أنظر على سبيل المثال جـ٤/٣٩٤ (مصطفى المرزيفوني) الذي «اجتهد في تحصيل قضاء روم إيلي، وصرف على ذلك شيئاً كثيراً من الهدايا والمال».

(٣) جـ١/٢٠٠-٢٠١.

النخجواني المعروف بالمنطقي» الذي عينّ قاضياً في حلب فدمشق، وكذلك المولى «أحمد عوض العينتابي الحلبي»، العينتابي الأصل والحلبي المولد، الذي كان قاضياً للقدس، فالشام، فمصر، والإثنان توليا القضاء في الأربعينات من القرن الحادي عشر. إلا أنه يلاحظ أن الأول من أصل أعجمي (من نخجوان في فارس). واستقر في دمشق، وقد يكون الثاني من أصل تركماني.

ويستفاد من تراجم القضاة أيضاً أنه كان هناك ـ كما أشير سابقاً ـ نواب قضاة في المدن العربية على المذاهب السائدة فيها، غير الحنفية، وهم بالطبع من سكان البلاد، وقد ترجم المحبي لعدد منهـم. وأخيراً تُشفُّ تلك التراجم عن الصفات النموذجية المطلوبة من القضاة، وبصفة خاصة منها التحري في القضايا المطروحة عليهم، والدقة في الأحكام، والنزاهة، والعفة، والديانة، وحسن السيرة. وتتلخص فيما أورده « المحبي » في ترجمته للقاضي « مصطفى البروسوي » حيث قال عنه « كان فرد زمانه مع وفور فضل، وعلم، وعقل. واثق العهد، صادق الود، حسن التصرف، بريئاً من الرياء والتكلف، له ديانة وحسن سيرة، مع صحة فطنة، وسلامة سريرة. عفيف النفس، نظيف الملبس، طاهر الذيل، قريباً لخاطر المتـأنس... عظمـه أهل دمشق حق التعظيم لما احتوى عليه من الوقار والبهاء في نفسه، ولتقيده بفصل الأحكام على وجه العفة والاستقامة، ولكون أخيه إذ ذاك مفتي السلطنة ومحل الإنسان من عينها ـ وهذا يوضح أن الدعم المركزي للقاضي كان له أهميته في عيون الناس ـ، وجاءه خبر عزله عن الفتوى وهو قاض ولم يتأثر وزاد في التصلب، وقمع الحكام... ومـا أطاع يـوماً سلطان الغضب فيـها لاقاه من الـراحة والتعب [1] ». وبالمقابل فإنها توضح الصفات الشائنـة التي اتسم بها بعض القضاة والتي تتبين في الهجاء الموجه إليهم من الشعراء مثلاً. فمن هجاء الشـاعر أبي المعـالي الطالـويّ للمولى «أحمـد الأياشي» قـاضي دمشق عام ١٠٠٨ هـ/١٥٩٨ م، الذي ثار عليه الأهالي ورجموه، قوله [2]:

(١) جـ٤/٣٧٦.

(٢) جـ١/٢٠٩.

الشام تبكي بدموع غزار بكاء ثكلى ما لها من قرارْ
بكاء مظلوم له ناصر لكن بعيد الدار والخصم جارْ
كيف استحل ألف قرش لنا وجملة المال ثلاث كبارْ
وجملة الأوقاف في عهده تباع في الدلال بيع الخيارْ
ويدّعي الرقة في طبعه مثل المخاديم الموالي الكبارْ

(وفي ذلك إشارة إلى أخذه ألف قرش من ثلاثة آلاف خلفها أحد الدمشقيين المسمى عقيص)».

ثامناً: ومثلما تلقي تراجم المحبي تلك الأنوار الكاشفة على منصب القضاء وتفرعاته، فإنها تطرح أنواراً مماثلة على **منصب الإفتاء الأعلى** وملحقاته من أمين للفتوى وموزع لها [١]، والدور الديني والسياسي للمفتي الأكبر في الدولة (شيخ الإسلام) وسلطته التي وصلت إلى حد الإفتاء بقتل السلطان[٢]. وأحوال المفتين في البلاد العربية من أحناف، أروام وعرب محليين، وكيف لم تقتصر الدولة على تعيين أروام للإفتاء الحنفي في المدن العربية الكبيرة، وإنما عينت عرباً، هذا إلى جانب اعتمادها مفتين عرباً من المذاهب الأخرى الحنبلي والشافعي، والمالكي [٣]. وكذلك تبرز نقابة الأشراف ووظيفتها وبصفة خاصة

---

(١) أنظر على سبيل المثال جـ٢/٤٧٣ (ترجمة عبد القادر قدري).

(٢) أنظر جـ٢/٤١٢ (ترجمة عبد الرحيم بن محمد) المتوفى ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م، الذي أفتى بقتل السلطان إبراهيم، بحجة أنه انتهك بعض الحرمات، كغصبه بعض نساء ذات أزواج، وأمور أخرى خارجة عن الشريعة، فقتل.

(٣) من المفتين الأحناف العرب في دمشق مثلاً جد المحبي «محب الدين محمد بن أبي بكر» (خلاصة الأثر جـ٣/٣٢٢-٣٣١) و(عبد الرحمن بن محمد العمادي جـ٢/٣٨٠-٣٨٩) وابنه (عماد الدين بن عبد الرحمن العمادي) (جـ٣/٢٠٣) و«علاء الدين محمد الحصكفي» (جـ٤/٦٣) وفي مكة «الشيخ حنيف الدين المرشدي» (جـ٢/١٢٦-١٢٨) وفي مصر «عبد القادر الطوري» (جـ٢/٤٤٢-٤٤٣). ومن الأمثلة على مفتين من المذاهب الأخرى: أبو بكر بن مسعود مفتي المالكية بدمشق» (جـ١/٩٧)، و«أبو الوفاء العرضي، مفتي الشافعية بحلب» (جـ١/١٤٨-١٥٢) و«عبد اللطيف المفلحي المفتي الحنبلي في الأزهر» (جـ٣/١٤) «ومحمد النجم الغزي» مفتي الشافعية بدمشق» (جـ٤/١٨٩-٢٠٠) وغيرهم.

في بلاد الشام [1] ونقابة الأشراف الكبرى في القسطنطينية ونشأتها، وأبرز من تسنمها في القرن الحادي عشر الهجري [2]. كما تتعرض هنا وهناك إلى المناصب الأخرى للمؤسسة الدينية كالأئمة، والوعاظ في المساجد، والخطباء والمؤذنين [3].

تاسعاً: قد يكون من أهم ما يستفاد من كتاب «خلاصة الأثر» الطافح بالمعطيات الفكرية، معلومات غزيرة ووافية عن «التعليم» في المجتمعين العربي والإسلامي [4]، وفي الواقع إن المحبي يوضح عبر تراجمه أموراً كثيرة عنه ومنها مثلاً: درجات ذلك التعليم ومراحله، منذ طفولة المتعلم حتى نهاية حياته، ووسائله، وطرقه، ومدارسه الكثيرة، وحلقات مساجده، المنتشرة في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية، وأكبر العاملين في ميدانه، وصلات المدرسين ببعضهم في المدينة الواحدة، وتنافسهم فيما بينهم، وما ينتج عن ذلك التنافس من علاقات صحيحة ومجدية على التعليم أو سقيمة فاسدة، ثم تحاورهم العلمي، ومناقشاتهم والقضايا التي شغلت اهتمامهم [5] وكذلك صلات هؤلاء المدرسين بالمدرسين في البقاع الأخرى من العالم العربي والإسلامي، وتزاورهم، وانتقالهم للتدريس لفترة محدودة على نمط ما نسميه

---

(١) على سبيل المثال: «حسين بن محمد البيمارستاني» نقيب حلب (جـ٢/١٠٨ـ١٠٩)، «محمد بن حمزة» نقيب الشام (جـ٤/١٢٤ـ١٣١)، «عبد القادر بن قضيب البان» نقيب حلب وديار بكر. جـ٢/٤٦٤. وغيرهم.

(٢) على سبيل المثال «محمد بن برهان الحميدي» (جـ٣/٤٠٥ـ٤٠٨) و«محمد بن محمد بن برهان الحميدي» (جـ٤/١٧٧ـ١٨١).

(٣) على سبيل المثال: «إبراهيم الصمادي الواعظ» (جـ١/٤٩ـ٥١)، «عبد الرحمن بن المزور الدمشقي» خطيب جامع السلطان أحمد في استامبول (جـ٢/٣٤٥ـ٣٤٦) «ومحمد القابوني» خطيب جامع منجك بدمشق (جـ٤/٢٣٣ـ٢٣٤) «ويوسف بن أبي الفتح» إمام السلطان في استامبول (جـ٤/٤٩٣ـ٥٠٠) و«أحمد الشراباتي» رئيس المؤذنين بجامع بني أمية بدمشق (جـ١/١٧٨).

(٤) من المربك وضع توثيق في الهوامش لمختلف النواحي المستفاد منها في التعليم لتوافرها بكثرة بل يمكن القول أن ترجمة كل «عالم ـ مدرس» قد تحوي على نبذة من كل واحدة منها.

(٥) أنظر نموذجاً فقط جـ١/٣٢ـ٣٣ (ترجمة إبراهيم بن الطباخ).

اليوم «بالأستاذ الزائر»، أو لفترة طويلة.

وتبين التراجم أيضاً الفرق بين طرائق التدريس عند الأتراك العثمانيين وعند العرب، إذ يشير المحبي في ترجمة (أحمد بن روح الله) إلى ذلك قائلاً: عن المترجم: «وألقى بها (أي في مدرسة والدة السلطان مراد بمدينة اسكدار) درساً عاماً حضره غالب فضلاء الروم وعلماؤها، وخلع عليه يوم الدرس ثلاث خلع بعد أن أرسلت إليه الوالدة، ألف دينار لأجل ضيافة من يحضر الدرس. وما وقع ذلك لأحد غيره وكان درساً حافلاً فلم يعهد في الروم مثله لأن المدرسين في بلادهم لا يفعلون ذلك وإنما يجلس المدرس وحده في محل خال من الناس فلا يدخل إليه إلا من يقرأ الدرس وشركاؤه فيه، ولا يحضرهم أحد من غير تلامذة المدرس[1].

وتبين بشكل جلي علاقة الأستاذ بتلميذه، وعلاقة طالب العلم بأستاذه، وهي بمجموعها علاقة حب متبادل واحترام وتبجيل، وإن كانت لا تخلو من نقد وتجريح أحياناً. وبالإضافة لهذا تطرح التراجم صوراً من الإجازات الشعرية والنثرية التي كان يمنحها المدرسون لطلبتهم بالعلم والتدريس، وأنواع الكتب التي كانت تدرّس، أو تؤلف لغاية التدريس، وهي غزيرة جداً. فإذا ما حقق كتاب «خلاصة الأثر» تحقيقاً جديداً، ووضعت له الكشافات المتنوعة، ومنها كشاف بالكتب التي يحويها، فإنه سيتضح تنوعها، وغزارتها، ومؤلفوها الكثر، هذا إلى جانب أنه سيسمح بتعرف المستويات التعليمية في مختلف الأقطار العربية إذا ما روجعت تلك المؤلفات.

ويظهر من التراجم أيضاً، وهذا أمر معروف، بأن التعليم في البلاد العربية لم يكن يتم في المدارس، والمساجد، والدور الخاصة للعلماء فحسب، بل كان يجري في زوايا المتصوفة كذلك، ولا يشارك فيه مدرسون من العلماء فقط وإنما كبار شيوخ التصوف. وهناك بعض إشارات إلى حضور النساء

---

(١) ج١/ ١٨٩ - ١٩٠.

لبعض المتصوفة من المجاذيب، وممن اشتهر بالمكاشفة منهم، ولعلّهن كن يحضرن للكشف عن المستقبل أكثر مما يحضرن للعلم والتعلم. فقد أتى في ترجمة «حسن الغريق» أنه «كان يجتمع عنده من النساء في الوقت الواحد ما يزيد على مائة امرأة» وأن حسن هذا «كان كثير الكلام عند زيارة الزائرين فيأخذ كل أحدٍ من كلامه حصة لنفسه تناسب مقصده»[١].

ومن الأمور التعليمية التي تستشف من التراجم كذلك، أجور بعض المدرسين. ومن المعلوم أن أجور المدرسين كان تؤخذ عادة من الأوقاف المخصصة للمدارس أو المساجد. ففي المدرسة التي شادها «درويش بك بن أحمد بن مطاف» والي حلب مثلاً، عيّن الواقف في أواخر القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد عشر قطع فضية يومياً للمدرس فيها[٢]. وعندما أحدث الدرس الحديث تحت قبة النسر في جامع دمشق، عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م، وهي وظيفة تعليمية رتبها بهرام آغا كتخدا والدة السلطان إبراهيم، وبنى لها وقفاً السوق الجديد والخان قرب باب الجابية، فإنه عيّن للمدرس ستين قرشاً، وللمعيد ثلاثين، ولقارىء العشر عشرة قروش[٣]. إلا أنه مقابل هذه الجرايات من الأوقاف، كان هنالك ضريبة الجوالي (الجزية على غير المسلمين) التي كانت تدخل الخزينة المحلية، كخزينة دمشق مثلاً، وهذه الضريبة كانت توزع أموالها على «العلماء». ولا يعرف بالضبط فيها إذا كان للمدرسين من العلماء علوفة منها بالإضافة إلى ما يأخذون من الأوقاف. ولكن هناك بعض نماذج تشير إلى أن أفراداً من العلماء المدرسين سعوا كي يكون لهم نصيب في الجوالي «كإبراهيم بن الطباخ» في دمشق الذي حصل على ستين عثمانياً كل يوم، وكان هذا في أوائل القرن الحادي عشر هـ/السابع عشر م[٤]. وكانت علوفات العلماء من هذه الضريبة ذات أهمية كبيرة على ما

(١) جـ٢/٧٧ (حسن الغريق).
(٢) جـ١/٣٦٤ (أحمد بن مطاف).
(٣) جـ٣/٤٠٨-٤٠٩ (محمد المحاسني)
(٤) جـ١/٣٢.

يبدو في حياة العلماء عامة حتى أنه عندما عمل « اسكندر الكاتب » كاتب الخزينة الشامية على إلغائها عام ١٠٦١ هـ / ١٦٥١م بموافقة السلطات في استامبول أوضح « المحبي » بأن هذا كان سبباً في فقر العلماء وإضعاف قوتهم، ونظر إليها العلماء على أنها مصاب جلل [١]. ويبدو أنه كان لبعض المدرسين جرايات من « صندوق السلطنة » أيضاً، إذ هناك ذكر لمثل هذا الأمر في ترجمة محمد بن عبد الملك البغدادي الذي منح في اليوم من ذلك الصندوق ما يزيد عن أربعين عثمانياً [٢]. ويتضح مما سلف أن أجور المدارس كانت تتراوح بين (٢٥ - ٦٠) عثمانياً في اليوم، إذا وضع في الحسبان ما كان قد أعطي للمحبي نفسه عندما خُصَّ بملازمة تدريسية في بلاد الروم. وإذا ما أجريت موازنة بين أجور المدرسين هذه، وأجور الجند في النصف الثاني من القرن السابع عشر في استامبول، فإنه يلاحظ أن أجر المنصب التعليمي المحترم في دمشق يعادل مرتين أجر السباهي على الأقل و٤ مرات الإنكشاري [٣].

وكانت وظيفة التدريس، شأنها شأن وظيفة الخطابة والإمامة في المسجد، يمكن أن يفرغها (يتنازل عنها حباً أو بيعاً) صاحبها إلى آخر، بعد موافقة القاضي [٤] بل إن الإمامة كانت تفرغ للأولاد الرضع أحياناً [٥].

ويتبين من بعض التراجم أيضاً أن التعليم في الأقطار العربية لم يكن حكراً على مدرسين من أهل تلك الأقطار، وإنما كان يشارك فيه مدرسون غرباء جنساً: من الأتراك، والأكراد، والأعاجم، والهنود. وإذا كان معظم من ترجم لهم المحبي من هؤلاء متقناً للغة العربية وعالماً في العلوم التي يدرّسها، فإن بعضهم لم يكن مؤهلاً لهذه المهمة، حتى شكى منه الطلبة واعترضوا عليه. ومثل على ذلك ما ورد في ترجمة « أبي بكر بن الزهيري » الذي أخذ

---

(١) جـ١/٤٠٣ (اسكندر الكاتب).

(٢) جـ٤/٣٢.

(٣) انظر: Mantran (R), Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle. Paris 1962. P. 277

(٤) أنظر على سبيل المثال فقط: جـ١/٢٤٢ (أحمد المجروحي)، وجـ١/٣٦٦ (أحمد البهنسي).

(٥) أنظر ترجمة (عبد الجليل الشامي) جـ٢/٣٠٠.

«المدرسة الجوزية» عنه «رجل رومي اللسان، أعجمي التبيان يقال له موسى» فاستدعى التقي من أهل البلدة أن يكتبوا محضراً في أحوال موسى المذكور: هل هو أهل للدرس أم هو جاهل بكل مسطور. فكتب العلماء فيه وأطالوا، وجالوا في ميدان ذمّه وصالوا، وما تركوا له أديماً صحيحاً، وشرَّحوا عرضه بالقول تشريحاً حتى أن العلامة القاضي محب الدين (جد المحبي) أنشد فيما كتب:

تصـدَّر للتـدريسِ كـلُّ مُهـوَّسٍ بليـدٍ تسمى بـالفقيـه المـدرِّسِ
فحقٌّ لأهـل العِلـم أن يتمـثلوا ببيتٍ قديم شاع في كـل مجلسِ
لقـد هَزِلتْ حتى بـدا من هُزالهـا كلاها وحتى سامها كـلُّ مفلسِ[1]

ولم يغفل « المحبي » عن تقويم تعليم العلماء المدرسين، ومن ثمَّ احتوت تراجم هؤلاء صفات تعبر عن ذلك التقويم. ويبدو أن المعيار الأكبر في نجاح المدرّس في تعليمه، كما هو الآن، عدد الذين انتفعوا من علمه. ولذا فإن عبارة « وانتفع به خلق كثيرون » تتردد في عدد من تراجم هؤلاء المدرسين[2]. ولم يقوّم في التعليم كمية العطاء فحسب، وإنما الطريقة أيضاً. ويبدو أن الطريقة المتبعة في التعليم كانت تقرير المدرّس الدرس مع الإيضاح والشرح، واستخدام التكرار لتثبيته في الأذهان. واستناداً إلى هذا، كان من جملة تقويمه للطريقة، قوله على سبيل المثال لا الحصر: « كان حسن التقرير، ويبالغ في تفهيم الطلبة، ويكرر لهم تصوير المسائل، والناس في درسه كأن على رؤوسهم الطير »[3]. وقوله في ترجمة أخرى: « وكان يحضر درسه جم

(١) جـ١/٩٤. والمدرسة الجوزية من مدارس الحنابلة بدمشق، تقع في سوق البزورية جنوبي الجامع الأموي وغربي قصر العظم. أنشأها يوسف بن عبد الرحمن الجوزي بعد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م. وقد درست الآن. الدارس جـ٢/٢٩ خطط الشام جـ٦/٩٨.

(٢) جـ٢/١٢٦ (حنيف الدين المرشدي)، وجـ٢/١٦٢ (رجب بن عماد الدين)، وجـ٢/١٦٩ (رمضان العطيفي).

(٣) جـ١/١٧٥ (أحمد بن سلامة المصري).

غفير، واشتهر بالفتح لكل من قرأ عليه، وقصدته الطلبة من كل مكان لما يحصل في درسه من البحث والإيضاح. وكان له في تعليم المبتدئين تدريج حسن »[1]. وأورد في ترجمة ثالثة أنه « كان إذا قرر المسألة لا يزال يكررها بعبارات مختلفة حتى تظهر بادي الرأي، ولذلك كثر الأخذون عنه »[2]. وفي ترجمة رابعة يقرّ « بأنه ـ أي المترجم له ـ كان يحب الطلبة ويبالغ في ملاطفتهم والإحسان إليهم، وأجاز كل من قرأ عليه»[3]. وفي ترجمة خامسة ينقد المدرس فيقول: «كان يقرر تقريراً جيداً إلا أنه ضيق العبارة»[4]، وفي سادسة: «كان متين التحقيق، حسن الفكرة، متأنياً في التقرير، نظاراً في تحريره، وكتابته أمتن من تقريره»[5].

ومثلما قوّم « المحبي » المدرسين في طرائق تعليمهم، فإنه قوّم الطلبة في مدى أخذهم، ومن ذلك مثلاً تقويمه « لمحمد بن محمد بن جانبك »، والتقويم في الواقع هو للنجم الغزي الذي نقل عنه « المحبي »، فقال عنه: « أخذ العلم عن العلاء بن العماد، والنور النسفي القاضي وغيرهما، ولكنه لم يحصّل شيئاً، وكان مغفلاً يعتقد الفضيلة في نفسه ويدعيها »[6].

ولم تغفل التراجم أيضاً طرح بعض المواقف المشرّفة لعلماء مدرسين تجاه السلطة الحاكمة. ومنها على سبيل المثال موقف العالم المدرّس « محمد العيثاوي الدمشقي » الذي دخل مرة على المحافظ في مصلحة متعلقة بالخانقاه السميساطية[7] وطعامها، فتشاغل الباشا عنه بأوراق، فمسك الباشا من طوقه

---

(١) جـ١/٢٦٣ (أحمد بن السقاف).
(٢) جـ١/١١٦ (أبو الحسن السجلماسي).
(٣) جـ١/٢٢ (إبراهيم بن جعمان اليمني).
(٤) جـ٤/٢٠٢ (محمد العيثاوي).
(٥) جـ١/٨٥ (أبو بكر بن السقاف).
(٦) جـ٤/١٥٩.
(٧) تقع شمالي الجامع الأموي، وكانت في الماضي داراً لعبد العزيز بن مروان. بناها أبو القاسم علي بن محمد السلمي السميساطي المتوفى ٤٥٣هـ/١٠٦١م. وقد تخربت اليوم. أنظر الدارس جـ٢/١٥١-١٦١، منتخبات التواريخ جـ٣/٩٦٢ خطط الشام جـ٦/١٣٥.

وجذبه، وقال له أنظر في أمر هؤلاء الفقراء، واقض مصلحتهم، فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه. ودخل مرة أخرى على حاكم آخر بسبب معاليم الجامع الأموي، وكان سنان باشا المتولي عليها كتب بها دفتراً وأراد قطع شيء منها، فوجد الباشا ينظر في دفتر المتولي ويتأمله، فجذبه أيضاً من طوقه وقال له: «لا تلتفت إلى ما كتبه هذا الظالم، وكان حاضراً في المجلس وانظر إلى عباد الله بنور الله. فعمل على مراده وترك ما أراد المتولي»[١].

وأخيراً يتبدى مما ورد في تراجم «خلاصة الأثر» عن التعليم والعلم، بأن العلم كان متمكناً من أفئدة الكثيرين، وأنه كان مطلباً إجتماعياً من مختلف الفئات الغنية والفقيرة وقد أشرنا سابقاً كيف جمع عدد من التجار والحرفيين بل وألساسة بين العلم وحرفهم وأعمالهم. وكان باب العلم مفتوحاً للراغبين فيه، حتى للعبيد[٢].

عاشراً: يتبينّ من تراجم «خلاصة الأثر» ظاهرة علمية هامة، وهي الاهتمام الكبير باقتناء الكتب، وجمعها، والحفاظ عليها، وتكوين المكتبات الخاصة والعامة، ووقفها على طلبة العلم أو على الأهل والذرية، وذلك في البلاد العربية أو بلاد الدولة العثمانية الأخرى. والتراجم تزخر بإشارات من هذا القبيل. فقد ورد في ترجمة «أحمد باشا الفاضل» الصدر الأعظم من آل كوبرلي، أنه «قبل وفاته وقف كتبه، ووضعها في خزانة بتربة في استامبول، ورتب لها أربعة حفاظ. وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان. وأخبرني بعض من أثق به أنها خمنت بأربعين ألف قرش»[٣]. وجاء في سيرة «درويش محمد الطالوي» أنه «كان قبل موته بأيام عمر في داخل بيته بمحلة التعديل[٤] بيتاً صغيراً. وكان يقول: هذا البيت بيت الفتاوى وموضع

---

(١) خلاصة الأثر جـ٤/٤٠١-٤٠٢.

(٢) أنظر ترجمة «حسين المملوك» جـ٢/٩٥-٩٨.

(٣) جـ١/٣٥٦.

(٤) هي إحدى المحلات في دمشق، في منطقة القنوات، ليس بعيداً عن باب الجابية.

الكتب. ومن العجب أنه نقل كتبه إلى البيت المذكور، فكان يصفُّها، ويرتبها، وينظر فيها، ويقلبها، وهو ينشد هذا البيت، وأظنه من نظمه ونتائج فهمه وهو:

أقلبها حفظاً لها وصيانةً فيا ليت شعري من يقلّبها بعدي[1]

وأتى في ترجمة «الشيخ إبراهيم السؤالاتي» أنه «كان حريصاً على جمع الكتب، واقتنى منها أشياء كثيرة في كل فن، ووقفها آخراً على بنت له»[2]. وفي سيرة « الشيخ حسن الكردي العمادي » أنه « وقف جميع كتبه على طلبة العلم، ووضعها عند بني السعساني، هي وكتب الدفتري، وهي محتوية على نفائس الكتب[3]. وفي ترجمة « عبد الرحمن الحضرمي » ذكر أنه « جمع من الكتب النفيسة ما لم يجمعه أحد من أهل عصره، وقفها على طلبة العلم الشريف بمدينة تريم » [4]. وفي سيرة « الشيخ أبي الغيث القشاشي التونسي » أتى أنه « جمع من نفائس الكتب ما لا يعد ولا يحصى. ومن جملة ما وجد في خزانة كتبه ألف نسخة من البخاري وقس عليه الباقي » [5]. وقال « المحبي » عن«خير الدين الرملي » بأنه « حصل من الكتب شيئاً كثيراً ما ينوف عن ألف ومائتي مجلد، غالبها من نفائس الكتب ومشاهيرها من كل علم، وكان عنده منها نسخ مكررة » [6]. وعن « شرف الدين حفيد القاضي زكريا الأنصاري المصري » أن «كتبه كانت كثيرة بحيث أنه اجتمع عنده كتب جده شيخ الإسلام [7] ومن بعده من أسلافه على كثرتها، وأضاف إليها

---

(١) جـ٢/١٥٥.

(٢) جـ١/٢٩.

(٣) جـ٢/٧٨.

(٤) جـ٢/٣٥٩.

(٥) جـ١/١٤١.

(٦) جـ٢/١٣٨.

(٧) هو زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٢٦هـ/١٤٢٠-١٥٢٠م): من حفاظ الحديث وقاض مفسر. عيّن قاضياً للقضاة. اشتغل بالعلم وله تصانيف كثيرة في الفقه، والتجويد، والنحو، والحديث، والمنطق. الأعلام جـ٣/٨٠-٨١.

مثلها شراءً واستكتاباً، فكان إذا أتاه أحد بكتاب، أي كتاب للبيع لا يخرجه من بيته ولو بزيادة على ثمن مثله. وكان حريصاً على خطوط العلماء ضنيناً ورأيت بخط صاحبنا الفاضل مصطفى بن فتح الله أنه أخبره أن عنده من طبقات السبكي الكبرى [1] ثماني عشرة نسخة، وثمانية وعشرين شرحاً على البخاري، وأربعين تفسيراً إلى غير ذلك. ولما مات (عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م) تفرقت كتبه شذر مذر، وكانت تباع بالزنبيل بعد أن كان يشح بورقة منها» [2].

ولم يكن جمع الكتب بقصد دراستها، والاحتفاظ بها، ووقفها على طلبة العلم فحسب، بل كان بعضهم يقوم بذلك للإتجار بها. فقد أتى في ترجمة «محمود الباقاني» أنه «ملك كتباً كثيرة، وكان يتاجر فيها ويكتسب من ذلك مالاً كثيراً» [3]. وكانت محلة الكلّاسة بدمشق معدة لبيع الكتب، وراء الحائط الشمالي من الجامع الأموي [4]. وكان لتجارة الكتب دلّال خاص [5]، وقد كان هناك تنافس بين الأدباء والعلماء على اقتناء النفيس منها [6]. بل إن بعض كبار الساسة من محبي الأدب والعلم كان يبذل الكثير لجمع الكتب من أية بقعة من العالم الإسلامي، ومثل على ذلك السلطان المغربي «أحمد المنصور

---

(١) عبد الوهاب بن علي تاج الدين السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ/ ١٣٢٧-١٣٧٠م) قاضي القضاة في دمشق، وباحث ومؤرخ. سكن دمشق وتوفي فيها بعد أن كان مولده في القاهرة. امتحن عدة مرات. له عدة تصانيف أهمها «طبقات الشافعية الكبرى» و«معيد النعم ومبيد النقم». أنظر الأعلام جـ٤/٣٣٥.

(٢) خلاصة الأثر جـ٢/٢٢٣.

(٣) جـ٤/٣١٨.

(٤) جـ١/١٠١ (ترجمة أبي بكر العمري). وهذه المحلة لا تزال مكاناً لبيع الكتب في دمشق وتسمى «المسكية» اليوم.

(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٦) أنظر ما تم بين أبي بكر العمري وإسماعيل النابلسي حول شراء كتابين المصدر نفسه /١٠١-١٠٢.

السعدي»[1] الذي كلّف «محمد أمين الدفتري» من المشرق بأن «يبعث إليه ما يجده من الكتب النفيسة، وقد أورد « المحبي » المكاتبات بينهما بهذا الشأن[2].

ويبدو أن صناعة النسخ كانت رائجة على نمط صناعة الطباعة اليوم، وكانت هواية لبعض العلماء. فقد ورد في ترجمة « أبي السعود الكازروني» بأنه « كان له همة عظيمة في النسخ، لم يضيع وقته بلا شيء منه، فجمع بذلك كتباً نفيسة بخطه »[3]. وكذلك في ترجمة « رمضان العطيفي » بأنه « كتب الكثير بخطه، وجمع نفائس الكتب في كل فن»[4]، وفي سيرة «علي بن علوان » أيضاً أتى أنه « كتب كتباً كثيرة بخطه، منها الجامع الصغير للسيوطي [5] كتب منه إحدى وعشرين نسخة، واشتهر فيها ». وكان النسخ يتخذ أحياناً صورة من صور تحقيق المخطوطات اليوم بدليل ما ورد في الترجمة السابقة نفسها من أن سبب اشتهار نسخة الجامع الصغير التي دونها « علي بن علوان » ترجع إلى « أنه كان اشترى نسخة من بعض الأفاضل، وقابلها، وصححها، وكتب على ألفاظها المشكلة مقالات شراحه، واعتنى بها »[6].

حادي عشر: يبيّن كتاب « المحبي » تطور العلوم المختلفة في العصر الذي يترجم له، والإنتاج في بابها. فثقافة العصر لم تكن الإحاطة بالعلوم الدينية

---

(١) رابع سلاطين الدولة السعدية (٩٥٦-١٠١٢هـ/ ١٥٤٩-١٦٠٣م)، وأكبرهم شأناً. فتح السودان، ونظم بلاده، ووقف في وجه القوى الخارجية الطامعة بالمغرب. كان محباً للعلم.
أنظر خلاصة الأثر جـ١/ ٢٢٢ - ٢٢٥. والسلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٤أجزاء مصر ١٣١٢هـ. ج٣/ ٤٢ - ٩٥. الأعلام ج١/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) خلاصة الأثر جـ٤/ ٢٩٠-٢٩٣ (ترجمة محمد أمين الدفتري).

(٣) جـ١/ ١٢٤.

(٤) جـ٢/ ١٦٩.

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ/ ١٤٤٥-١٥٠٥م) مؤرخ، وحافظ، وأديب عاش في القاهرة، له ما يزيد عن (٦٠٠) مصنف في علوم مختلفة. أنظر الكواكب السائرة جـ١/ ٢٢٦، والأعلام جـ٤/ ٧١-٧٣. وكتابه « الجامع الصغير» هو في الحديث.

(٦) أنظر خلاصة الأثر جـ٣/ ١٦٠.

الإسلامية، والعلوم اللغوية العربية فحسب، وإتقان اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية، وإنما التفقه بمختلف ميادين العلوم، كما أوضحنا ذلك في سيرة المحبي وثقافته. فالعالم كان موسوعياً مع تخصص في فرع من الفروع، والمثقف ملماً بالعلوم المعروفة في زمنه، النقلية والعقلية. ومن ثم يلاحظ في « خلاصة الأثر »، إلى جانب الإشارات الكثيرة إلى مختلف العلوم الدينية بتفرعاتها وعلمائها، وإنتاجها الثري، والعلوم اللغوية العربية بتشعباتها، والعاملين الأفذاذ في حقلها وتصانيفهم الكثيرة، تأكيدٌ لوجود العلوم الأخرى المسماة بالعقلية، وللمنهمكين فيها، كعلوم الرياضيات وتضم الهندسة وعلم المساحة، والحساب والفرائض (ولو أن علم الفرائض علم ديني، إلا أنه يستند إلى علم عقلي هو الحساب)، وعلم الفلك، والهيئة، والميقات. ثم هناك علم البصريات، وعلم الكيمياء، وعلم الطب.

ففي العلوم الرياضية هناك إشارات عديدة إليها، وإلى دارسيها، والمؤلفين في بابها مما يدل على أن سوقها كانت نافقة، وأن ما يُدَّعى من انصراف الناس عنها مبالغ فيه، وموارب عن الحقيقة. فمن الأمثلة على نشاطها ما ورد في ترجمة « الشيخ أبي الجمال المصري » من أنه « ألف الحواشي المفيدة على كثير من الكتب في كثير من الفنون، وأكثرها في فن الحساب، والفرائض (علم تقسيم التركات)، والجبر، والمقابلة، وأعمال المناسخات بالصحيح، والكسور، والحل »[1]. وكذلك في ترجمة « عبد القادر الفيومي » من كونه « جمع بين المعقول والمنقول وكان فقيهاً، محدثاً، فرضياً، صوفياً، ويعرف الحساب، والهيئة، والميقات، والموسيقى وغيرها »[2]. وما أتى أيضاً في ترجمة « علي العلاء الطرابلسي » من أنه « قرأ الحساب والجبر والمقابلة مع الهندسة على الشيخ عبد اللطيف الكيال المؤقت بالجامع الأموي، وأخذ عنه كثيراً من علم الفلك، وأخذ قواعد هذا العلم حتى مهر فيه عن الشيخ أبي بكر تقي

---

(١) خلاصة الأثر جـ١/٨٨-٨٩.
(٢) جـ٢/٤٥٦.

الدين الصهيوني ». وكان له ولع بالحساب حتى أنه عند ذكر تاريخ ختام أحد تآليفه وضع هذا التركيب الحسابي: « وقد انتهى (أي التأليف) في التاريخ الموافق للخمس الخامس من السدس الرابع من الثلث الثالث من الربع الثاني، من العشر العاشر، من العشر التاسع، من العشر العاشر من الهجرة النبوية ». ويعلّق « المحبي » على هذا التاريخ بأنه سأله في حلّه بعض الأصدقاء فوفق إلى ذلك، والحل هو أنه « انتهى في اليوم العشرين من جمادى الآخرة لسنة تسعين وتسعمائة لأن المائة العاشرة عاشر أعشار الألف وتاسع أعشار المائة من الأحد والثمانين إلى التسعين، وعاشر العشرة هو سنة تسعين، والثلث الثالث من الربع الثاني هو الشهر السادس من السنة وهو جمادى الآخرة، ورابع أسداسه من ستة عشر إلى عشرين، وخامس السدس هو العشرون»[1]. وتبين الاهتمامات بالعلوم الرياضية والفلكية أيضاً في ترجمة « عبد الجليل بن عبد الهادي » الدمشقي حيث أتى فيها: « وأخذ العلوم الرياضية عن الشيخ رجب بن حسين الحموي... وألف تآليف فائقة... وله الربع الجامع في الفلك في أعمال الليل والنهار، ورسالة سماها الدر اللامع في العمل بالربع الجامع، ورسالة في الربع المقنطر، ورسالة في الهندسة »[2]. وورد في ترجمة « محمد الشلي الحضرمي » لنفسه ما يلي: « وطلب مني جماعة أن أؤلف في علم الميقات، فألفت رسالة في علم المجيب وانتفع بها الطلبة، ثم شرحتها شرحاً وانتفع به، وكتبه كثيرون من أهل مصر واليمن والهند. وألفت رسالتين مطوّلتين في علم الميقات بلا آلة، ورسالة في معرفة ظل الزوال كل يوم لعرض مكة، ورسالة في معرفة اتفاق المطالع واختلافها، ورسالة في المقنطر ورسالة في الاصطرلاب »[3].

وأتى في ترجمة « محمد بن العنز اليمني » « وشرح قصيدة الامام الهادي

(١) جـ٣/١٨٦-١٨٧.
(٢) جـ٢/٣٠٠.
(٣) جـ٣/٣٣٨.

عـز الدين بن الحسن الرائية، وفيها معرفة المواقيتوتكلم على مواد نافعة من علم الفلك، وما يحققونه من الكسوف وأعمال الربع المجيب » (١) .

وفي سيرة « أحمد بن تاج الدين » الدمشقي الأصل، المدني، مؤقت الحرم النبوي: « وله في وضع الآلات الفلكية اليد الطولى » (٢) .

وفي التعريف بالعالم « محمد بن سليمان المغربي » أتى أنه « كان يتقن فنون الرياضة لإقليدس(٣)، والهيئة، والمخروطات، والمتوسطات، والمجسطي (٤)، ويعرف أنواع الحساب والمقابلة، والارتماطيقي، وطريق الخطأين، والموسيقى، والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها، والوقوف على حقائقها » (٥) . وله من التآليف الشاهدة بتبحره ودقة نظره... منظومة في علم الميقات وشرحها... واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة، والاسطرلاب، وانتشر في الهند واليمن والحجاز، وغـير ذلك من الرسائل»(٦) .

وفي ترجمة « محمد بن إسرائيـل اليمني » ورد أن له « رسـالة في علم المساحة ، المشمة التفاحة في علم المساحة »، جمع فيها الكثير المتفرق من الكتب في هذا الفن » (٧) . وفي الحديث عن « رجب بن حسين بن علوان الحموي » تأكيد لاهتمامه بالفلك حتى وصفه « المحبي » « بالفلكي » وأنه كان

(١) المصدر نفسه/ ٣٧٦.

(٢) جـ١/١٧٨.

(٣) Eucleides: رياضي يوناني من القرن الثالث ق.م. وقد درس الرياضيات في الاسكندرية. أهم كتبه « العناصر » الذي ظلّ المصدر المعتمد في الهندسة. وهو مؤلف من (١٣) جزءاً.

(٤) Almageste أو « التركيب الكبير ». وهو كتاب فيه عرض لنظام العالم وقد وضعه العالم اليوناني « بطليموس » الذي عاش في القرن الثاني للميلاد. وكان فلكياً ورياضياً وجغرافياً. وقد أمضى حياته في مدينة الإسكندرية. وله كتاب هام آخر هو « جغرافية بطليموس ».

(٥) جـ٤/٢٠٦.

(٦) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.

(٧) جـ٤/١١.

« أعجوبة الزمان في العلوم الغريبة، وكان لديه منها فنون عديدة. وأمهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيئة، والحساب، والفلك، والموسيقى »[1]. وكان هذا العالم أستاذاً لعدد من البارعين في العلوم الرياضية ومنهم أستاذ « المحبي » نفسه، وهو « محمود البصير الصالحي » الذي أشير إليه سابقاً بأنه علم «المحبي» الهندسة بطريقة مشخصة. وهناك أمثلة أخرى كثيرة تثبت تلك الاهتمامات بالعلوم الرياضية خلال ذلك القرن يمكن للمستقصي أن يستخلصها، ولا سيما في ميدان التأليف. فهناك مثلاً كتاب «تسهيل الصعاب في علمي الفرائض والحساب» «لأحمد بن مطير»[2]، و«منظومة في الحساب» «لأحمد صاحب الخال»[3] ومثلها عديد.

وفي ميدان العلوم التجريبية كعلم الفيزياء، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، فإن هناك إشارات تدل على وجود علماء أفذاذ فيها، كانت لهم نظراتهم العلمية الصائبة، واختراعاتهم، وتآليفهم، كما كانت لهم منهجيتهم العلمية السليمة، المعتمدة على « **التجربة** ». فقد جاء في ترجمة « سليمان البوسنوي » أن « كنعان الكرجي » الذي اخترع البادزهر العملي المعروف « بالكنعاني »، وهو ترياق ضد السموم، كان ينقل عنه أنه « لما ابتدعه **جربه لأمور كثيرة مراراً، وصحت تجربته**»[4]. وفي ترجمة «محمود البصير الصالحي» أنه «اعتنى بعلم الطب **ولزم التجربات**»[5].

وأتى في الحديث عن «محمد بن العنز اليماني» أنه اخترع ناظوراً يدرك به البعيد «فأبصر به من صعدة إلى ربيع ومن ربيع إلى صعدة والحكم واحد»[6].

---

(١) جـ٣/١٦١-١٦٢.
(٢) جـ١/٢٥٢.
(٣) المصدر نفسه / ٣٢٥.
(٤) جـ٢/٢١٣.
(٥) جـ٤/٣٣١.
(٦) جـ٣/٣٧٦.

كما جاء في سيرة العالم «حسن بن قرنق الدمشقي» بأنه أنتج مرآة، يرى من خلالها أناساً بعيدين عنه إذا ما استنطقها. ويصفها «المحبي» قائلاً: «توصل لصنع مرآة إذا أبهم عليه أمر يعطيها لأحد جلسائه ينظر فيها، ويتلو هو أسماء، فيرى الناظر فيها المطلوب على كيفية تنتج معرفتها حتى يبقى كأنه مشاهد فيخبره به الناظر فيشرع في تحصيله... ومن أغرب ما سمعته عنه في هذا الباب أن أحد قضاة دمشق كان له أخ في الروم، وكان بها أحد الصدور، فغضب عليه السلطان وعزله عن منصبه ونفاه عن دار السلطنة، فلما وصل خبر ذلك إلى أخيه قاضي دمشق ظن أنه قتل، وحصل له من الألم ما منعه الهجوع. فاستدعى صاحب الترجمة، وطلب منه النظر في حال أخيه، فظهر في المرآة مكانه وهيئته، وذكر أنه مرسل إلى أخيه القاضي مكتوباً، وبيّن عدد أسطره، ويوم وصوله، فطلب منه قراءته. فكان الناظر في المرآة يُملي عليه وهو يكتب، إلى أن انتهى. واتفق مجيء المكتوب في اليوم الذي عينه، فقوبل على النسخة "التي" كتبت فلم يزد ولم ينقص. وهذه الواقعة من أغرب ما سمعته»[1]. وإذا ما جرد الخبر مما نسب إلى صاحبه من المهارات في العلوم الغريبة، والنيرنجيات، والأعمال العجيبة، فقد تدل على أقل تقدير، على تطلع خيالي علمي، وإمكان اختراع متقدم، أشبه «بالرائي» أو «الرائي التليفوني»، أثبت التطور التقني المعاصر إمكان تحقيقه[2].

وإذا نظر إلى ذلك على أنه نموذج من علم البصريات، فإن «المحبي» ميّز في حقل «الكيمياء» بين «الكيمياء» والسيمياء على الرغم من اختلاط المفهومين بأذهان الناس آنذاك. «فعلم الكيمياء» كان مرتبطاً في ذلك الوقت في فكر الكثيرين «بعلم الصنعة» أو «السيمياء» أي تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. وقد ثبت لديهم استحالة ذلك

---

(١) جـ٢/١١٩.

(٢) إن « المرآة » وسيلة لاستشفاف الغائب أو الغيب أمر معروف عند العرب المسلمين، ويعزو ابن خلدون الرؤية في المرآة بأنها ليست من إدراك البصر، وإنما إدراك نفساني.
أنظر المقدمة/١٠٧.

الأمر، ومن ثم فإن النظرة إلى المشتغلين به كانت تشوبها نظرة الاتهام والشفقة لأنهم يبددون جهدهم ومالهم دون طائل. إلا أن «المحبي» طرح في كتابه نظرة صحيحة عن علم الكيمياء عندما تتبع تاريخ هذا العلم عند العرب، وعرّف بأقطابه[1]، وعندما أكّد أن اختراع «البادزهر» ترياق السموم هو من علم الكيمياء، وعندما أدان أيضاً العاملين في السيمياء أو «الصنعة»، إلا أنه بالمقابل أكد أنه بإمكان «الصنعة» أن توصل صاحبها إلى «الفضة الخالصة»[2]، دون أن يشرح الوسيلة. ولعله قصد القول: استخلاص الفضة الخالصة من شوائبها.

وفي حقل علمي « النبات » و« الحيوان »، فقد أشار إلى وجود مؤلفات في هذا المجال، تتحدث عن الأشجار والحيوان، ومن هذه المؤلفات « قرَّة عين الإنسان بذكر أسماء الحيوان » و« الإحسان ببيان أحكام الحيوان »، و« غاية الإرشاد إلى معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد »، للعالم « عبد الرؤوف المناوي » [3].

وفي ميدان « علم الطب » فقد أشرنا في المقدمة إلى أنه أورد عدداً من تراجم الأطباء من أقطار عربية متفرقة [4]، ومن القسطنطنية، وأن بعض أطباء بلاد الشام التحق ببلاط السلطنة العثمانية في القسطنطينية «كصالح بن سلوم»، رئيس مشيخة الطب في حلب[5]، و« أبي بكر بن الحكيم

(١) جـ١/٢١٣-٢١٤ ترجمة (أحمد الشاهيني).
(٢) جـ٣/٣٧٦ ترجمة (محمد بن العنز اليمني).
(٣) جـ٢/٤١٦.
(٤) أنظر جـ١/١٧٥ (أحمد بن سلامة القليوبي المصري)، وجـ١/٢٠٣-٢٠٤ (أحمد بن الصائغ)، جـ١/٢١ (إبراهيم بن المنلا الجمل)، وجـ١/٩٦-٩٧ (أبو بكر بن الحكيم)، وجـ١/٤٠١ (أسعد البتروني)، وجـ١/٤٠٦ (إسماعيل الحجازي)، وجـ٢/١٤٠ (الحكيم داود بن عمر البصير الأنطاكي)، وجـ٢/٢٤٤ (صفي الدين الكيلاني)، جـ٢/٢٤٠ (صالح بن سلوم الحكيم)، وجـ٤/٣٣٣-٣٣٤ (مدين القوصوني) وجـ٤/١٦٥-١٧٠ (محمد بن حبيقة الميداني) وجـ٤/٣٢٤-٣٧٢ (محمود بن يونس)، وغيرهم.
(٥) جـ٢/٢٤٠.

المصاحب»[1]. وتبين من خلال كتابه وجود مشيخات للطب في القاهرة، وحلب، ودمشق، ومكة، والقسطنطينية[2]. وأن هناك طبيبات، وقد تسنمت إحداهن مشيخة الطب في القاهرة في دار الشفاء المنصوري بعد وفاة والدها [3]. وطرح المحبي ضمن سير بعضهم أعمالهم الطبية البارزة، ومؤلفاتهم. ومن النماذج على الأولى، ما ذكره في ترجمة الطبيب «الملاصفي الدين بن محمد الكيلاني» حيث قال: «يحكى عنه في الطب غرائب، منها أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء الفقراء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئاً نفخه في أنف الطريح فجلس وعاش مدة، فتعجب الناس من ذلك وسأله أصحابه عن ذلك، فقال: رأيت أقدامه واقفة، فعلمت أنه حيّ. ومنها أن بعض التجار كان يطعن فيه، ويتكلم عليه، فلما بلغه أرسل بعض الفقراء بغصن من نبات له رائحة طيبة فلما شمه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه، فاضطر إلى صاحب الترجمة فأرسل إليه واستعطفه فأعطاه سفوفاً من ذلك النبات فعوفي مما به. ومنها أن بعض أولاد الشريف حسن (من شرفاء مكة) أصابته علة، فأمر صفي الدين أن يعمل له كوفية من العنبر، ففعل له فزالت العلة. وأصابت تلك العلة بعض الرعية، ففعل له كوفية من ضفع البقر فعوفي، فقيل له: أليست علة الرجلين واحدة؟ فقال: نعم، ولكن ولد الشريف نشأ على الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضفع لزادت علته، والآخر بعكسه فداوينا كلاً بما يناسبه. وكان يأمر مَنْ مرِض أن يخرج من مكة ولو إلى المنحنى، لأن هواء مكة في غاية الاعتدال، لكن رائحة البالوعات تفسده، ولهذا بنى بيتاً بالمُحَصِّب[4] يسكنه من به مرض»[5].

---

(١) جـ١/٩٦-٩٧.

(٢) على التوالي الموجود في المتن: جـ١/٢٠٤، جـ٢/٢٤٠، جـ١/٩٦، جـ١/٤٠٦، جـ٢/٢٤٤.

(٣) جـ١/٢٠٤.

(٤) المُحَصَّب: موضع بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب، وهو بطحاء مكة.

(٥) خلاصة الأثر جـ٢/٢٤٤-٢٤٥.

ومن الأمثلة أيضاً على أنماط العلاج الطبي التي استخدمها الأطباء آنئذ ما أوضحه الطبيب الشهير « داود الأنطاكي » في علاج الطبيب « محمد شريف العجمي » له وشفائه من شلله، واستخدامه ما نسميه اليوم « بالعلاج الفيزيائي ». فقد أورد ما يلي: « فعند ذلك اصطنع لي دهناً مسّدني به في حرّ الشمس، ولفني بلفافة من فرقي إلى قدمي حتى كدت أفقد عن الحس، وتكرر منه ذلك مراراً من غير فاصل. فمشت الحرارة الغريزية فيّ كالحميا في المفاصل، فبعدها شدّ من وثاقي، وفصدني من عضدي وساقي، فقمت بقدرة الواحد الأحد، بنفسي لا بمعونة أحد »[1].

أما المؤلفات الطبية فلا تبدو قليلة، ومنها على سبيل المثال، كتاب « داود الأنطاكي» المشار إليه سابقاً، وعنوانه «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب » وجمع فيه الطب والحكمة، واشتهر بين الناس، واختصره في كتاب « البهجة »[2]. وهناك ما ألفه العالم « عبد الرؤوف المناوي » أيضاً بعنوان « بغية المحتاج في معرفة أصول الطب والعلاج »، وكتابه في « التشريح والروح وما به صلاح الإنسان وفساده »، وكتاب آخر جمع فيه عشرة من العلوم، من بينها « التشريح والطب »[3]. وفي ترجمة « علي السجلماسي» إشارة إلى « عدة رسائل له منها واحدة في الطب، وأخرى في التشريح »[4]، وكذلك في ترجمة « تاج الدين النقشبندي » حيث أتى أنه كان له « رسالة في أنواع الطب... وكان له وقوف تام في الطب »[5]. وفي ترجمة الطبيب « أحمد بن سلامة القليوبي المصري » بيان بمؤلف له في الطب جامع[6]، ويبدو أن قراءة مؤلفات الطب كانت شائعة لدى العلماء والمتعلمين كجزء من الثقافة العامة، بدليل

---

(١) جـ٢/١٤١.

(٢) المصدر نفسه/ ١٤٢.

(٣) جـ٢/٤١٥-٤١٦.

(٤) جـ٣/١٧٤.

(٥) جـ١/٤٦٨.

(٦) جـ١/١٧٥.

تقريظ بعضهم - وهم من علماء الدين - على كتب في الطب. وإن ما ورد في « خلاصة الأثر »، في ترجمة « محمد بن حسن جان» مفتي السلطنة العثمانية، عن تقريظه لكتاب طبيّ، يدلّ على ما كان يعجب الناس من كتب الطب آنذاك، فقد قال:

روضة أنوار آثار الشفا منها تلوح　　دوحة أنوار أثمار الصفا فيها تفوح
عرفها ذاك يقوّي القلب طيباً طيّباً　　منه للأرواح روح فيه للأبدان روح
كامن في طبه قانون أصحاب الدوا　　موجز في متنه توضيح ألباب الشروح

روضة نباتها أزهرت فاقتطفت منها أدوية الشفاء، وحديقة دوحتها أثمرت فاجتنيت من أغصانها أفاويه الدواء، أجاد جامعها وأحسن، وأمعن فيها جمع وأتقن، حيث أتى بمختصر حسن في تلخيص مطوّلات هذا الفن، فغدا موجزاً سديداً نفيساً، يليق بأن يكون لحذاق الطب أنيساً، فيه ما لا يسع الطبيب جهله، وإنما يعرف قدره أهله. جرى فيه على سمت الطبائع كما هو بين أهل الفن شائع. فإن الشرع مناع الشنائع، يدل الأسباب والعلامات على اتقان بأوضح العلامات، يتعين للأعيان أن يتمموا آماله، ويطيبوا بطيب التطبيب باله »[1].

ومثلما ألّفت كتب في الطب والتشريح، ألفت كتب في « الأدوية »، فهناك « داود الأنطاكي » الذي وضع كتاب « الدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة »[2]، و« فتح الله البيلوني » في كتابه عن أدوية الطاعون، وقد أعطاه عنواناً « خلاصة ما يعوّل عليه الساعون في أدوية دفع الوبا والطاعون »[3]، و« مرعي الكرمي » في مؤلفه « ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون »[4]، وغيرها.

---

(١) جـ٤/١٦٨.
(٢) جـ٢/١٤٢.
(٣) جـ٣/٢٥٥.
(٤) جـ٤/٣٥٩.

ثاني عشر: قدّم المحبي في « خلاصة الأثر » بالإضافة إلى تراجم أولئك العلماء العاملين في العلوم العقلية، تراجم نخبة من المؤرخين من مختلف الأقطار العربية، ممن ألف في التراجم، أو الحوليات أو الفنون التاريخية الأخرى، وكان بعضهم مصادر لكتابه «خلاصة الأثر» أكانوا من العرب أم من الأتراك. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: أحمد الخالدي الصفدي[1]، وأبو الوفاء العرضي الحلبي[2]، وأحمد الصنهاجي الماسي السوداني[3]، وأحمد القرماني التركي[4]، وأحمد بن أبي الرجال[5]، و«تقي الدين الغزي التميمي»[6]، والحسن البوريني[7]، وعبد الباقي الاسحاقي المنوفي[8]، و«عبد البر الفيومي»[9]، و«عبد القادر الطبري»[10]، و«محمد نجم الدين الغزي»[11]، و«محمد الشهير بكاني الرومي»[12] ومحمد الشلي[13] و«عبد القادر العيدروس»[14] وغيرهم، مع ذكره لمؤلفاتهم، وأحياناً لوصف لها.

ولكن « المحبي » لم يتحدث في كتابه عن جغرافيين معاصرين له، وإن كان قد أورد عدداً ممن اهتم بـ« أدب الرحلات » ومنهم جده[15]،

(١) أنظر ترجمته في جـ ١/ ٢٩٧.
(٢) جـ١/١٤٨.
(٣) جـ١/١٧٠.
(٤) جـ١/٢٠٩.
(٥) جـ١/٢٢٠.
(٦) جـ١/٤٧٩.
(٧) جـ٢/٥١.
(٨) جـ٢/٢٨٩.
(٩) ج٢/٢٩١.
(١٠) جـ٢/٤٥٧.
(١١) جـ٤/١٨٩.
(١٢) جـ٤/٢٢٥.
(١٣) جـ٣/ ٣٣٦.
(١٤) ج٢/ ٤٤٠.
(١٥) جـ٣/٣٢٢ (محمد بن أبي بكر) صاحب ثلاث رحلات: الرحلة المصرية، والرومية، والتبريزية.

وأبوه[1] ، وإبراهيم الخياري [2] ، ومحمد كبريت [3] ، وآخرون.

وإذا كان «المحبي» لم يترجم لجغرافيين إلا أن كتابه طافح بالمعلومات الجغرافية، فحسُّ المكان نامٍ جداً لديه، فهو لا يترك أي مكان يذكره في تراجمه، أكان اسماً لمدينة أو مسجد، أو مدرسة إلا ويسعى للتعريف به وتحديد موقعه، ومن ثمَّ قد لا تخلو ترجمة من تراجمه من مثل هذا الأمر. ومثل على ذلك ما ورد في ترجمة «آدم الأنطالي» في فاتحة كتابه حيث عرّف «بأنطالية» وشرح موقعها قائلاً: «إنها على وزن أنطاكية. بلدة كبيرة بأراضي قرمان على ساحل البحر الرومي، وطاؤها في نطق العوام تبدل ضاداً، ويحذفون نونها فيقولون (أضالية)» [4].

وكذلك الأمر بالنسبة إلى «لقانة» التي ينسب إليها «إبراهيم اللقاني»، و«أيلة» التي دفن قربها هذا الأخير[5]، والبترون [6] وحصن كيفا [7]، والأحساء[8]، والبقاع العزيزي والبقاع البعلبكي[9]، وسيروز[10]، وغيرها كثير. ومن أمثلة تحديده مكان المدارس مثلاً قوله في ترجمة «جلال بن أدهم» من أهل دمشق: «فيسكن في الشتاء بالمدرسة العادلية المقابلة للظاهرية، وفي الصيف بالمدرسة الجمالية بسفح قاسيون»[11]. وفي ترجمة «جمال الدين العجمي» من علماء القدس قوله: «دفن بماملا بقبته التي أنشأها بجوار البسطامية

---

(١) فضل الله بن محب الله. وله الرحلة الحلبية، والرحلة المصرية جـ٣/٢٧٧-٢٨٦.
(٢) جـ١/٢٥-٢٨ ورحلته هي «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء».
(٣) جـ٤/٢٨-٣١. ورحلته هي رحلة الشتاء والصيف.
(٤) جـ١/٥.
(٥) جـ١/٩.
(٦) جـ١/١١.
(٧) جـ١/١٢.
(٨) المصدر نفسه ١٩.
(٩) المصدر نفسه/١٧٧.
(١٠) المصدر نفسه/ ١٨٠.
(١١) المصدر نفسه/ ٤٨٩.

شمالي الكبكية. . .» و«قرر في تدريس دار الحديث التي تجاه دار القرآن السلامية وشرقي المدرسة، الظافرية»[1]، وهكذا.

وواضح من كتابه أنه قرأ أمهات كتب الجغرافيا العربية، ومنها بصفة خاصة «معجم البلدان» و«المشترك وصفاً والمختلف صقعاً» لياقوت الحموي، و«تقويم البلدان» لأبي الفداء الحموي، و«مسالك الأبصار» للعمري [2].

ومن ثمَّ فكتاب «خلاصة الأثر» مصدر جغرافي قيّم إلى جانب كونه مصدراً تاريخياً ثميناً، ولا سيما في تحديد أماكن المدارس، والمساجد والمحلّات، وبصفة خاصة في دمشق.

ثاني عشر: يقدم كتاب «خلاصة الأثر» لوحة غنية جداً، قزحية الألوان عن الفعاليات الأدبية النثرية والشعرية في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر للهجرة. وقد أشرنا سابقاً ومفصلاً إلى إهتمامات «المحبي» الأدبية، وبصفة خاصة الشعرية منها. والكتاب موشى بأدباء من جميع أصقاع العالم الإسلامي، وفيه نماذج كثيرة من الشعر والنثر العربيين، في أغراض عديدة ومتنوعة من مدح، ورثاء، وغزل، وخمريات، وعتاب، ولوم، وهجاء، وشكر، وحكمة، وتصوف، ووصف لمظاهر الطبيعة، والأزهار، والناس، ولبعض الأمور المستجدة في حياة المجتمع كالقهوة، والتبغ، والبرش، والأفيون، كما يتضمن شعراً سياسياً ناقداً لبعض الأحداث، كحادث القشلق بدمشق [3]، وشعر أحاج وألغاز وهو كثير في هذا القرن [4]، وشعر معمى، وشعر مجون [5]، بل في الكتاب قطعتان نثريتان في الهجاء المقذع قد تكونان

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٢) أنظر بتوالي المتن: جـ١/١٩، جـ١/١٢، جـ١/٩، وجـ٣/٢٦٩ (في شرحه شقيف أرنون).

(٣) جـ١/٢٦٣ ترجمة (المولى أحمد بن عوض العينتابي).

(٤) أنظر على سبيل المثال جـ١/٢٩٩-٣٠٠. ترجمة (أحمد بن فرفور). وجـ١/١٠٧ ترجمة (أبو بكر العمري).

(٥) على سبيل المثال جـ١/٣٤٢ ترجمة (أحمد الخفاجي).

فريدتين في اقذاعهما في الأدب العربي[1]، هذا بالإضافة إلى « تأريخ شعري متنوع » .

وفي الكتاب أيضاً شرح للشعر السائد في عصره، وأوزانه، كالدوبيت، والموشح، والمواليا، والكان وكان، والقوما[2]، وحديث لطيف عن المعمّى يبرهن فيه المحبي عن أن هذا النوع من الشعر، هو وشعر الأحاجي من إبداع العرب، ثم ادعاه الأعاجم لأنفسهم. فمما قاله في هذا الشأن: « وهذا (أي الشعر المعمّى) من الأنواع اللطيفة المسلك، وقد أدرجه بعض المتأخرين في فنون البديع، وعدّه من المحسِّنات، واعترض بأن ملاحظة المحسِّن إنما هي بعد رعاية الفصاحة والبلاغة مشروطة بعدم التعقيد لفظاً ومعنى، وكلاهما موجود في المعمى فهو خارج عنه. وقد يجاب بأن محققي هذا الفن شرطوا لصحته وجود المعنى الشعري فيه، وإذا لم يكن موجوداً فليس بمعتد به، فعليه أن يكون داخلاً في المحسنات قطعاً، وإن كان بعض متقدمي علمائه لم يشترط ذلك لصحته وهو مما لا اعتداد به. ومن غريب ما وقع لي مع بعض أدباء الروم، وقد ذكر المعمى، فقال: أبناء العرب لا يعرفون المعمى، فأوردت له أشياء منه بالعربية، فاعترف بأن المتأخرين مشوا على نهج الأعاجم والأروام فيه لكثرة اختلاطهم بهم، وأما المتقدمون فلا يعرفونه. فأخرجت له دفتراً من جمعياتي نقلت فيه عن «ابن قتيبة» اللغوي[3] قال: إن هذه الأنواع الثلاثة، وهي: الأحاجي، واللغز، والمعميات من خصائص العرب، وكل من نظم فيها من أبناء فارس وأبناء الروم إنما أخذ ذلك عنهم وتطفل على موائدهم.

(١) جـ٣/٤ـ٨ ترجمة (عبد الكريم المنشي). وجـ١/٣٧٦ـ٣٨٠ ترجمة (أحمد المغربي القيرواني).

(٢) جـ١/١٠٧ـ١٠٨ ترجمة (أبو بكر العمري).

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ـ٢٧٦هـ/ ٨٢٨ـ٨٨٩م) . من أئمة الأدب ولد ببغداد وسكن الكوفة، وولي قضاء الدينور، وتوفي ببغداد، له مصنفات كثيرة من أبرزها: « أدب الكاتب » و« عيون الأخبار »، و« الشعر والشعراء »، وقد تصدّى للشعوبية وله في ذلك كتاب « فضل العرب على العجم ».
الأعلام جـ٤/٢٨٠.

وانظر إلى تسمية هذه الأمور الثلاثة، هل هي عربية أو فارسية؟ فالمعمى من التعمية وهي التغطية، والأحجية من الحجا وهو العقل، كأنه يختبر فيها العقل، واللغز، الاخفاء، انتهى ما قاله. ولكن مع هذا، فالحق أحق أن يتبع، إن تطفل الفرس والروم على العرب في هذه الأمور، وإن كان واقعاً، لكنهم لجودة أفكارهم تصرّفوا فيه تصرف الملّاك فاستحقوا أن يوصفوا به»[1].

وينتقل إلى تعريف « الأحجية »، و« اللغز »، و« المعمى » في الشعر فيقول: « الأحجية أن يؤتى بلفظ مركب يطلب معناه من تحليل لفظ مفرد، كقولك هد هداي ارجع ارجع. وأما المعمى « فهو قول يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيماء بحيث يقبله الذوق السليم، واللغز مثله إلا أنه يجيء على طريقة السؤال، والفرق بينه وبين المعمى، أن الكلام إذا دل على شيء من الأشياء بذكر صفات له تميزه عما عداه كان ذلك لغزاً، وإذا دلّ على أسم خاص بملاحظة كونه لفظاً بدلالة رموزه سمي بذلك معمى فالكلام الدال على بعض الأسماء يكون معمى من حيث أن مدلوله ذات من الذوات لا بملاحظة أوصافها » [2].

ويستطرد « المحبي » في كتابه كذلك أثناء حديثه عن شخصيات تراجمه إلى أخبار كثيرة، غنية وممتعة، عن الشعر في الجاهلية وعصور الإسلام، ويطرح مقتبسات من الشعر، من الشعراء المعاصرين له والشعراء السابقين مما يدل على ثقافة شعرية أصيلة وعميقة، وإحاطة واسعة بالشعر وأنواعه في الماضي وفي حاضره. كما يظهر معرفة متينة بالمؤلفات الأدبية المختلفة المعاصرة له، والمطارحات الأدبية، والرسائل المتبادلة بين الأدباء ولا سيما في بلاد الشام[3]. بل ويسعى للموازنة بين

(١) جـ٢/٣٩٢ ترجمة (عبد الرحمن بن النقيب).
(٢) المصدر نفسه/ ٣٩٣.
(٣) على سبيل المثال فقط أنظر ترجمة (إبراهيم بن الطباخ) جـ١/٣٣

الشعر التركي والعربي، وترجم لبعض كبار الشعراء الأتراك من أمثال «عبد الباقي»[1] و«عمر نفعي» [2] وغيرهما.

وخلاصة القول إن تراجم «خلاصة الأثر» طافحة بمعلومات عن الأدب في القرن الحادي عشر للهجرة، وتكمل «نفحة الريحانة» ما أتى في «خلاصة الأثر»، بل إن أسلوب «المحبي» في كتابه الأخير قد يكون أحدى المعطيات في تقويم أسلوب العصر، وتعرفه.

ثالث عشر: وكما سلط «المحبي» أنواراً ساطعة على التيار العلمي بشتى تشعباته، وأغناه بوفرة المعلومات، وكما استعمق في تيار الأدب والشعر منه بخاصة، فإنه فعل في تيار آخر كان يشق طريقه في داخل المجتمع العربي والإسلامي بشكل واسع وعميق، وهو «تيار التصوف». «فالمحبي» يخص هذا التيار بقسط كبير من مؤلفه: فيشرح «التصوف» وأسباب تسميته بهذا الاسم، وكل ما قيل حول هذا الأمر[3]. ويحيط خلال تراجمه بعديد من الفرق الصوفية، ويشرح بعض مقوّماتها، ولا سيما «الخلوتية» التي انتسب إليها[4]، و«العُشَّقية»[5]، و«النقشبندية»[6]، و«الكلشنية»[7]،

(١) جـ٢/٢٨٧-٢٨٩.

(٢) جـ٣/٢٢٨-٢٣٠.

(٣) أنظر ترجمة (إبراهيم الصمادي الواعظ) جـ١/٥٠-٥١.

(٤) الطريقة الخلوتية: سميت بهذا الاسم نسبة إلى «الخلوة» التي هي من لوزام الطريقة. أنظر حولها تفصيلات أوسع في خلاصة الأثر جـ١/٢٥٠ (ترجمة أحمد العسالي)، وجـ١/٣٨٩-٣٩٠ (ترجمة إخلاص الخلوتي). وهي متفرعة من السهروردية».

(٥) طريقة متفرعة من الطريقة النقشبندية، من أقطابها «عطية الله الهندي النقشبندي» أو «اله بخش» المتوفى عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م. أنظر حول بعض أصولها، خلاصة الأثر جـ١/٤٢٣-٤٢٤ (ترجمة أله بخش)، وجـ١/٤٦٤-٤٧٠ (ترجمة تاج الدين النقشبندي).

(٦) تنسب إلى مؤسسها الشيخ بهاء الدين محمد نقشبند البخاري (٧١٧-٧٩٢هـ/١٣١٧-١٣٨٩م). وتأصلت جذورها في بلاد الهند، وانتشرت في كل العالم الإسلامي لمحافظتها على أسس الدين الإسلامي. أنظر خلاصة الأثر جـ١/٤٦٤ (ترجمة تاج الدين النقشبندي). انظر: E.I.1 ed. vol III. P.899 (Nakshband)

(٧) مؤسسها الشيخ «إبراهيم الكلشني». وهو متصوف خلوتي ولد في أذربيجان، والتجأ إلى =

و« القادرية »[1] ، و« العلوانية »[2] ، و« الرفاعية »[3] ، و« البيرامية »[4] ،
و« الصمادية »[5] ، و« الجباوية »[6] ، و« المولوية »[7] ،

= القاهرة عندما قام الشاه إسماعيل الصفوي بدعوته الشيعية. دعاه السلطان سليمان القانوني إليه، وتوفي بالقاهرة عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣-١٥٣٤م. كتب بالفارسية كتابه «المعنوي» الذي رد به على مثنوي « جلال الدين الرومي » E.I. 1° ed. vol II.p.193 مادة (Gulshaniya).
أنظر خلاصة الأثر جـ١/٤١٩ (إسماعيل الكلشني).

(١) نسبة إلى الإمام « عبد القادر الجيلاني » أو « الكيلاني » أو « الجيلي » (٤٧١-٥٦١هـ/١٠٧٨-١١٦٦م) ولد في « جيلان » على الساحل الجنوبي الغربي من بحر قزوين، ثم انتقل إلى بغداد، ودرّس وأفتى فيها. له عدة مؤلفات منها « الفتح الرباني ». وانتشرت طريقته في التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي.
أنظر خلاصة الأثر جـ١/١٩٣ (ترجمة أحمد بن محمد القادري).

(٢) نسبة إلى « علي بن عطية بن علوان الحموي » الصوفي الكبير المتوفى ٩٣٦هـ/١٥٣٠م. وهو من فقهاء الشافعية الزاهدين، ومن أتباع الطريقة الشاذلية. وكان له مريدون كثيرون. أنظر المصدر نفسه جـ١/٢٨٢ (ترجمة أحمد بن راحتي) وجـ١/٢٥٧ (أحمد الحمامي العلواني).

(٣) نسبة إلى «أحمد بن علي الحسيني الرفاعي » (٥١٢-٥٧٨هـ/ ١١١٨-١١٨٢م). وهو إمام زاهد، ومؤسس للطريقة. ولد في العراق قرب واسط، وتصوّف. انجذب إليه كثير من المريدين. أنظر المصدر نفسه/ ٧٨ (أبو بكر قعود).

(٤) وهي فرع من الطريقة النقشبندية. وقد أسسها في أنقرة « حاجي بيرم » المتوفى ٨٣٣هـ/١٤٢٩-١٤٣٠م ولها منشآت في استانبول وضواحيها. وانتشرت في البلاد العربية انتشاراً محدوداً.
انظر أحد أقطابها في المحبي جـ١/١٦ (إبراهيم بن تيمورخان القزاز).

(٥) نسبة إلى الشيخ « محمد بن الشيخ خليل الصمادي » (عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥) من حوران. وكان لهم زاوية في دمشق داخل باب الشاغور.
أنظر خلاصة الأثر جـ١/٤٨، ٤٩، ٥٠ (ترجمة إبراهيم الصمادي)، و(إبراهيم الواعظ الصمادي).

(٦) أو « طريقة سعد الدين ». ومؤسسها هو « سعد الدين الجباوي »، وتتراوح سنة وفاته بين ٧٠٠-٧٣٦هـ/ ١٣٠٠/١٣٣٥م. ومعظم المعلومات عنه أسطورية.
أنظر حوله خلاصة الأثر جـ١/٣٤-٣٥ (ترجمة إبراهيم بن سعد الدين).

(٧) نسبة إلى « مولاي جلال الدين الرومي » وهو محمد بن محمد القونوي الرومي (٦٠٤-٦٧٢هـ/ ١٢٠٧-١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية ومتصوف كبير. ولد ببلخ واستقر بقونية. له كتاب « المثنوي » وهو أشعار صوفية بالفارسية، وعدد أبياتها (٢٥٧٠٠) بيت. وهذه الطريقة تعتمد في أذكارها على الرقص والموسيقى. وكان لها نفوذها في الدولة العثمانية.
أنظر ترجمة أحد أقطابها في خلاصة الأثر جـ١/٥-٦ (آدم الأنطالي)..

و« الأحمدية » [١] ، والشاذلية [٢] ، و« الجشتيـة » [٣] ، و« الكبرويـة » [٤] ، و« المدارية » [٥] ،وغيرها. ويتحدث عن بعض المعتقدات الصوفية كوحدة الوجود [٦] ، وعن تقاليد الفرق وآرائها، كالختمة [٧] وشكوى الخواطر [٨] . ويذكر الكثير من كرامات المتصوفة، والمجاذيب (أي المجذوبون إلى الله تعالى)، ويقصد بالكرامات، تلك القدرات التي يدَّعى أنهم يتعدون بها القدرات الطبيعية للبشر العاديين، كأن يجعلوا السماء تمطر بعد انحباس، والمريض يشفى من علته، والمستقبل يستشف، والغيب يتكهن. ويبرز « المحبي » كيف كان لهم

---

(١) نسبة إلى أحمد بن علي الحسيني أبو العباس البدوي المتوفى ٦٧٥هـ/١٢٧٦م. وأصله من المغرب، وطاف بالبلاد العربية واستقر بمصر ودفن بطنطا. وكان له مريدون كثيرون ومنهم الظاهر بيبرس. أنظر حول أحد سالكيها، المصدر نفسه / ٢٣٠-٢٣١ (شعبان أبو القرون).

(٢) نسبة إلى علي بن عبد الله أبي الحسن الشاذلي (من بلدة شاذلة في تونس) المتوفى ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. طاف ببعض البلاد العربية في المشرق، وله عدة مصنفات في التصوف. توفي بصحراء عيذاب من بلاد مصر.
أنظر المصدر نفسه جـ٣/٤١٢-٤١٦ (عبد الرؤوف المناوي).

(٣)، نسبة إلى الشيخ معين الدين حسن السجزي، المتوفى ٦٢٧هـ/١٢٢٩م و« جشت » قرية في الهند، وهي مقر شيوخه. وهذه الطريقة أول طريقة أخذها أهل الهند، وانتشرت فيها، ولها شعبتان: النظامية، والصابرية. أنظر حولها: الثقافة الإسلامية في الهند تأليف عبد الحي الحسني. دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. ص٤٨٠-٤٨١ وأنظر خلاصة الأثر جـ١/٤٦٤-٤٦٥ (تاج الدين النقشبندي).

(٤)، شيخها نجم الدين أحمد بن عمر الخوارزمي الخيواقي الخوارزمي (٥٤٠-٦١٨هـ/ ١١٤٥-١٢٢١م) زار مدن إيران ومصر. كان مقرباً من جنكزخان.. له « فواتح الجمال وفوائح الجلال». (أنظر المنجد/٤٣٢ مادة الكبري) والطريقة منتشرة في الهند وانظر: الثقافة الإسلامية في الهند ص ١٨٤-١٨٥.
وخلاصة الأثر جـ١/٤٦٩ (تاج الدين النقشبندي).

(٥) وتنسب إلى الشيخ « بديع الدين المدار المكنبوري ». من الطرق المنتشرة في الهند.
أنظر حول الطريقة: الثقافة الاسلامية في الهند/١٨٥. وخلاصة الأثر جـ١/٤٦٩ (تاج الدين النقشبندي).

(٦) خلاصة الأثر جـ١/٣٤٥ (أحمد القشاشي)، وجـ٢/١١٣-١١٦ (حسين بافضل اليمني)، وجـ٢/٤٧٤ (عبد الكريم القطبي)، وجـ١/٢٣٨ (أحمد الدوعني).

(٧) المصدر نفسه جـ١/٣٤٥ (أحمد القشاشي).

(٨) المصدر نفسه جـ١/٢٥٧ (أحمد بن عمر الحمامي الخلوتي).

بهذه القوى الخارقة المزعومة تأثيرهم في الناس والسلطات الحاكمة، وفي الأفراد المتنفذين [1] ، بحيث تمنع هؤلاء من تطبيق عقوباتهم، أو إنزال أذاهم بالناس، أو على نقيض ذلك تمدهم بالعون لتسليط قوى شريرة ضد من يريدون بهم أو بمن يحبونهم شراً. ولا يبدو «المحبي» مكذباً لها، وإن كان في بعض الأحيان يردها لراويها [2] .

ومثلما تحدث عن تنقل العلماء الواسع في أنحاء العالم الإسلامي، فإنه بيّن تنقل هؤلاء المتصوفة بحثاً عما يسمونه (حقيقة) [3]، وسوء أحوال بعضهم المادية [4]، أو ثراء بعضهم الآخر [5]، كما يشير إلى نقد بعض الناس من الفضلاء لهم، ويثبت ما أورده في هذا الشأن. ومن هذا القبيل ما قاله بعض أفاضل مكة عنهم من الشعر [6].

صوفيَّة العصر والأوانِ صوفيّةُ العصرِ والأواني
فاقوا قوم لوطٍ بنقرزان النقرزانِ

وإذا كان قد أوضح وأكد تأثيرهم في السلطات الحاكمة، فإنه بالمقابل أبان عن تدخل السلطات الحاكمة في المشيخات الصوفية، وتثبيت أصحابها

---

(١) بعض الأمثلة فقط: جـ١/٥ (آدم الأنطالي)، جـ١/٤٨ (إبراهيم الصمادي)، جـ١/٩٥ (أبو بكر بافقيه)، جـ١/٩٦ (أبو بكر بن الحكيم المصاحب)، جـ١/٩٨-٩٩ (أبو بكر بن المقبول الزيلعي)، جـ١/١٢٠ (أبو السعود الشعراني) جـ١/ ٢٥٤-٢٥٦ (أحمد الخلوتي)، جـ١/٣٨٩ (إخلاص الخلوتي)، جـ٣/١١٨-١٢٠ (علوي بن علي السقاف الحضرمي) جـ٣/٢٥٤ (غياث اليمني)، جـ٣/٢٥٤ (فايد المجذوب)، جـ٣/٤٠٣-٤٠٤ (محمد بن بركات السقاف)، جـ٤/٢٨٤ (محمد بن الترجمان). وغيرهم كثير.

(٢) على سبيل المثال جـ١/٣٨٩-٣٩٠ (إخلاص الخلوتي).

(٣) جـ١/٣٧٥ (أحمد الأحمدي المصري)، جـ١/٢٥٤ (أحمد الخلوتي).

(٤) جـ١/٢٥٩-٢٦٠ (أحمد القاري الحلبي).

(٥) جـ١/٣٨١ (ثراء بني سعد الدين) (ترجمة أحمد باشا الحافظ).

(٦) جـ١/٢٧٠-٢٧١ ترجمة (أحمد المرشدي).

فيها، أو إبعادهم عنها[1]، والزوايا التي أنشؤوها لهم، والمساعدات المادية المقدمة من قبلهم لبعض هؤلاء والأوقاف المخصصة[2].

(هـ) - الأمور الفنية في خلاصة الأثر

لم يهمل «المحبي» في كتابه «خلاصة الأثر» النواحي الفنية، فهناك معطيات كثيرة ودقيقة في هذا الباب، ولا سيما في المجال العمراني. فقد قدم معلومات شتى عن بعض ما بني في هذا القرن من مدارس، ومساجد، وحمامات، وقصور فخمة، وأسواق، وخانات، وبصفة خاصة في دمشق، والحجاز، واليمن، والقسطنطينية، وما زينت به من نقوش، وقاشاني، ورخام، وما حلّيت به من حدائق. وبذلك يكون «المحبي»، وبالذات في الفترة الأخيرة التي عايشها من القرن الحادي عشر الهجري، مصدراً لمعرفة ما عمر في بعض بقاع بلاد الشام، وفي دمشق خاصة.

فمن النماذج العمرانية التي طرحها، ووصفها ببعض التفصيل «مسجد السلطان أحمد» في القسطنطينية، الذي لا تزال له شهرته حتى اليوم، فقال عنه[3]: «الجامع الذي لم يعمل مثله في إنشائه وإحكام بنائه ودقة صنائعه وله ست منارات حسنة الوضع إلى الغاية، وداخله مزين بأنواع القناديل من البلور والقاشاني والصدف، وغير ذلك. وفيه كل أعجوبة لا نظير لها. ولما تم وضعه هادته ملوك الأقاليم بالتحف من قناديل الذهب وغيرها لتعلق فيه، وبلغت مصارف نفقته نحو نفقة عمارة جامع بني أمية في دمشق. فإنه يقال إن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي أنفق عليه أربعمائة صندوق من الذهب في كل صندوق أحد عشر ألف مثقال من الذهب. وفي خارجه المكان المعروف بآت

(١) جـ١/٣٨١ (أحمد باشا الحافظ) وجـ١/٤٢١ (أصلان دده).
(٢) جـ١/٢٥٩-٢٦١ (أحمد القاري الحلبي) - جـ١/٢٤٩ (أحمد العسالي).
(٣) جـ١/٢٩١.

ميداني وهو ميدان واسع، وبه رصد من نحاس على شكل أفعى قيل أنه كان رصداً للحيات لكن الآن بطل عمله، فإن السلطان مراد، ولد صاحب الترجمة، كان كسر منه قطعة فبطل عمله لذلك. ويروى أنه بعد تمام بنائه واستحكامه كان بقي في أحد جوانبه اعوجاج بسبب بيت صغير كان لعجوز، وقد أرغبت بالمال الكثير لتبيعه فأبت، فاتفق أنها ماتت من غير وارث وآل البيت الى بيت المال، فأضيف إلى الجامع وتناسب بذلك وضعه. ومما قيل فيه من التواريخ، تاريخ المولى «محمد بن عبد الغني»[1]، قاضي العسكر، وهو قوله:

ذا جامعٌ مؤسَّسٌ على تُقى الربِّ المتينْ
بناه سلطانُ الورى بعدله الجزل الرزين
سميُّ أحمد الهدى ظلُّ إله العالمين
حاولتُ تاريخاً له من نص قرآن مبين
فجاء فيه قولهُ لنِعم دارُ المتقين[2]

وفي الواقع لقد كانت العاصمة القسطنطينية مركز حركة عمرانية نشيطة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري/السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، إذ تبارى الوزراء والصدور العظام، وكبار الشخصيات الحاكمة، والمفتية وقضاة العسكر في بناء القصور، والدور، والمساجد، والمدارس. وقد اهتموا كذلك بإنشاء مدافن خاصة ضمن مدارس ينشؤونها لهذا الغرض. كما أسهم في بناء المدارس نساء القصر السلطاني كوالدة السلطان، وبناته. ولم ينصرفوا إلى التشييد في القسم الأوروبي للعاصمة فحسب، وإنما مدّوا نشاطهم العمراني إلى «اسكدار» القسم الآسيوي منها.

ومن بعض الأمثلة على تلك الفعالية العمرانية التي ذكرها المحبي في سياق

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر ج٤/٩-١١.

(٢) ج١/ ٢٩١. ترجمة (السلطان أحمد).

تراجمه، مجموعة المدارس المنشأة كمدرسة إبراهيم باشا الجديدة، ومدرسة علي باشا الجديدة، ومدرسة محمد باشا نيشاني القسطنطينية التي تمت سنة ١٠٠١هـ، ومدرسة محمد باشا باسكدار، ومدرسة والدة السلطان مراد الثالث باسكدار أيضاً، ومدرسة السلطان أحمد، و« دار الحديث » التي بناها « سنان باشا » عند تربته ومدرسة عثمان باشا الصدر الأعظم وقد تمت عام ٩٩٧هـ، ومدرسة مراد باشا (١) .

ومثلها المدرستان اللتان بناهما شيخ الإسلام « زكريا بن بيرام » قرب جامع السلطان سليم وحمامه، والمدرسة التي أنشأها قريباً من حمام السلطان سليم قاضي العسكر: «مصطفى بن عبد الحليم البروسوي » وكانت قبالة مدرسة شيخ الإسلام زكريا، وشيد فيها مدفناً له، وتم بناؤها في عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٦م، وكذلك مدرسة يحيى بن زكريا، ومدرسة «محمود قره جلبي زاده» التي أقامها بالقرب من جامع الشهزادة، وصرف عليها مالاً كثيراً، ومدرسة «حسن الطواشي» الصدر الأعظم التي شيدها «إمضاء للغيرة في النفوس » ـ كما ذكر المحبي ـ، لأنه لم يفعل ذلك إلا ليدرس فيها معلمه الذي لم يكن أهلاً للتدريس في المدارس المعروفة، وجعل فيها سقاية للسبيل (٢) .

وعلى شاكلة المدارس بنيت الجوامع فقد شيد « علي باشا كوزلجه » جامعاً

---

(١) يسير تسلسل التوثيق مع تسلسل الحقائق المذكورة في المتن:
جـ٢/٣٢٠ (ترجمة عبد الحليم أخي زاده) ـ جـ٢/١٥٨ (ترجمة درويش محمد باشا) ـ جـ٣/٥٢ (ترجمة عبد الله بن طورسون) ـ جـ٣/٤٧٣ (ترجمة محمد حكيمي الرومي) ـ جـ١/١٨٩ (ترجمة أحمد بن روح الله الأنصاري) وجـ٢/٣٢٠ (ترجمة عبد الحليم أخي زاده) ـ جـ٢/٤١٢ (ترجمة عبد الرحيم بن محمد) ـ جـ٣/١٤ (ترجمة عبد الكريم الوارداري) ـ جـ٣/٤٧٣ (ترجمة محمد حكيمي الرومي) ـ جـ٤/٣٥٨ (ترجمة مراد باشا).

(٢) جـ٢/١٧٥ (ترجمة زكريا بن بيرام) وجـ٢/٢٤٢ (ترجمة صالح الرومي) ـ جـ٤/٣٧٧ (ترجمة مصطفى بن عبد الحليم البروسوي) ـ جـ٣/٤٧٤ (ترجمة محمد بن سنان شيخ زاده) ـ جـ٤/٣٢٤ (ترجمة محمود قرة حلبي) ـ جـ٢/٧١ ـ ٧٢ (ترجمة حسن الطواشي).

في ينكي كوي قرب حصار روم إيللي وآخر في جزيرة ساقز، وعمر زاوية للشيخ أمير بقصبة قاسم باشا قبالة قسطنطينية، وبنى لالا محمد باشا الصدر الأعظم جامعاً في قصبة مرمرة، والمتصوف محمود الإسكداري جامعاً بزاويته باسكدار [1] وفي ترجمة « حسين الجنجي » قاضي العسكر ذكر لبنائه عدة أبنية في العاصمة، منها دار بالقرب من جامع محمود باشا، وقد بناها بناءً عظيماً، وخاناً، وحماماً، وأبنية أخرى [2] .

ومن نماذج الأبنية الدينية والتعليمية، والمدنية من قصور، وأسواق، وخانات، وسبل ماء، وحمامات، التي أشار إليها في بلاد الشام، وفي دمشق بالذات ما يلي:

ففي ترجمته لسنان باشا المتوفى ١٠٠٤هـ/١٥٩٥، وكان والياً لدمشق خلال ٩٩٤-٩٩٦هـ/ ١٥٨٦-١٥٨٨م، أي قبل أن يصبح صدراً أعظم، تأكيد لبنائه جامعه المعروف « بالسنانية » الذي لا يزال قائماً حتى اليوم، ليس بعيداً عن باب الجابية [3]، وأنه بنى أيضاً الحمام والسوق القريبين منه ويتابع فيقول: « وله مثل ذلك في كل من القطيفة [4]، وسعسع [5]، وعيون

(١)، جـ٣/١٤٠ (ترجمة علي باشا كوزلجه) - جـ٤/٢٨٤ (ترجمة لالا محمد باشا) - جـ٤/٣٣٨ (ترجمة محمود الاسكداري).

(٢) جـ٢/١٢٣ (ترجمة حسين الجنجي).

(٣) جـ٢/٢١٤. أنظر حوله أيضاً العلموي/ ٢٤٤، حيث يوضح أن الانتهاء من بنائه كان ٩٩٩هـ/١٥٩١م.

(٤) قرية إلى الشمال الشرقي من دمشق، تبعد عنها (٤١) كم، وكانت من المحطات الهامة في الطريق بين دمشق وحمص. وهي دون ثنية العقاب للآتي من الشمال إلى دمشق، وكان فيها خان في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد. أنظر محمد كبريت: رحلة الشتاء والصيف بيروت ١٣٨٥هـ/٢١٠.

(٥) قرية إلى الجنوب الغربي من دمشق، ومحطة على طريق القوافل المتجهة نحو حوران ففلسطين. وتبعد عن دمشق (٣٩) كيلومتراً.

التجار [1]، وعكا [2]، مع خانات ينزلها المسافرون. « ويتجاوز بلاد الشام فيتحدث عن أبنية في « اليمن والقسطنطينية وغيرها من البلاد، من جوامع ومساجد ومدارس، وخانات، وحمامات تنوف على المئة » [3].

وفي ترجمة « الأمير برويز » أحد أعيان العثمانيين بدمشق المتوفى ١٠١٥هـ/١٦٠٦م، ذكر أنه « عمر مسجداً بالقرب من داره فيها (أي بمحلة القيمرية جنوب جامع بني أمية)، ويعرف الآن (أي في عهد المحبي) به، ورتب له إماماً، ومؤذناً، وأجزاء » [4].

وفي ترجمتي « أحمد باشا المعروف بالكجك » و« أحمدالعسالي» ذكر لتعمير الأول « تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم (جنوبي دمشق) » لأحمد العسالي شيخ الطريقة الخلوتّية، وذلك سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م « ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعلبك، وكانت أملاكاً لفخر الدين. . . وبنى سبيلاً بالقرب من عمارته عظيم النفع » [5].

وفي ترجمة « إبراهيم آغا » متولي جامع بني أمية بدمشق المتوفى ١٠٢١هـ/١٦١٢م يشير إلى أنه « عمّر الحجرة المقابلة لحجرة الساعات في

---

(١) محطة في فلسطين قرب جبل الطابور، على الطريق بين دمشق ومصر. وقد بنت فيها الدولة العثمانية حصناً لصد هجمات البدو عن القوافل.

أنظر تفصيلاً أكبر في: Uriel Heyd, Ottoman Documents on Palestine 1552—1615 Oxford 1960. P.102, 111—113,187—8, 180

وفي ليلى صباغ: الفعاليات الاقتصادية في فلسطين من خلال مذكرات الفارس دارفيو. بحث في المجلة التاريخية المغربية. تونس جويلية ١٩٨٣ (٢٥٥ - ٣٢٢).

(٢) مدينة فلسطينية على الساحل، غنية عن التعريف. كان لها أهميتها الخاصة أثناء الحروب الصليبية. واحتفظت بقيمتها التجارية أيام العثمانيين.

أنظر حولها: Le Strange, op. cit. P. 328—334

وكذلك ليلى الصباغ: المصدر المبين أعلاه /٢٨٥-٢٩٢.

(٣) خلاصة الأثر جـ٨/٢١٤.

(٤) المصدر نفسه جـ١/٤٥١.

(٥) جـ ١/٣٨٨ و٢٤٩.

جهة باب جيرون ، (من أبواب جامع بني أمية) وكانت مهجورة لا يميل إليها أحد. . ولم يزل يتوسع في تعميرها حتى صارت من ألطف الأبنية، وفتح لها في حائط الجامع شباكاً، وأضاف إليها حانوتاً كان وراءها من سوق الذهبيين وجعله فيها مطبخاً » (١).

وفي ترجمة نائب الشام « صالح باشا الموستاري » (وكان نائباً فيها عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م) تأكيد أنه « أمر بعمارة خان حسية (٢)، ووكل في العمارة والصرف جماعة من أهل دمشق فعَمروه ووسعوه، ثم أمر بعمارة خان النبك (٣) فعمروه عمارة لطيفة ، وقلدوا في بنيانه بنيان عمارة القطيفة من السوق والجامع والحمام، ووقع هذا الخان في موقعه. . . وكان ذلك في سنة خمس وسبعين وألف. ثم عمروا له بأمره الحمام خارج باب الجابية بمحلة القماحين» (٤).

وفي ترجمة «حسن باشا» المعروف بشوربزه حسن، وكان من أعيان العثمانيين بدمشق (المتوفى ١٠٢٧ هـ/١٦١٧ م)، أتى أنه «عمر الخان المعروف بسوق جقمق»، و«بنى المسجد المعروف بالسياغوشية بالقرب من داره بحارة القصاعين، داخل باب الجابية، وأحسن بناءها (وذلك بأمر الوزير الأعظم سياغوش باشا الذي دفع له مالاً لهذا الغرض). « وعمر سوق المرادية (للوزير الأعظم مراد باشا) بباب البريد، والخان، وسوق الذراع، وجعله

---

(١) جـ١/٦٢-٦٣.

(٢) قرية من محافظة حمص اليوم، وتقع إلى جنوبها وعلى بعد ٣٧ كم منها. وهي على الطريق بين دمشق وحمص، وكانت محطة (منزلة) من محطات القوافل.

(٣) النبك: قرية في منتصف الطريق تقريباً بين دمشق وحمص. وتقع في منطقة مرتفعة ولذا هي باردة شتاء. تبعد عن دمشق شمالاً (٨١) كم.
أنظر معجم البلدان مجلده/٢٥٨ محمد كبريت المصدر السابق/٢١٠.

(٤) جـ٢/٢٤٢-٢٤٣.

وقفاً على الحرمين. . . وعمّر حمّام البزورية، وقف دار الحديث النورية، بأمر الوزير أحمد باشا الحافظ » [1].

وفي ترجمة « مراد باشا » الصدر الأعظم، الذي كان والياً في دمشق عام ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م، جاء تأكيداً لما ذكر أعلاه عن بناء «سوق المرادية» وملحقاته مع تفصيل أوسع. فقد أتى ما يلي: «عمّر بها السوق الذي عند باب البريد، وكان يعرف بسوق الطواقية، في أواخر سنة اثنتين بعد الألف، فهدم الحوانيت القديمة وجدد بناءها، ووسع الطريق، ورفع السقف، وبنى على

---

(١) جـ٢/٢٥.

وسوق جقمق يقع غرب التكة بالشاغور الجواني. وكان يباع فيه البز والثياب مما هو أدنى مما يباع في سوق الذراع وينسب السوق إلى بانيه. وحتى الآن مثل دارج على ألسنة أهل الشام يقولون فيه عن أي قماش أو لباس رديء القيمة بأنه « من سوق جقمق » وقد يصحفون الكلمه الى « سوق جعمع ».

أنظر حول السوق: يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد: نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق. نشر حبيب الزيات في الخزانة الشرقية. مجلة المشرق. السنة السابعة والثلاثون ١٩٣٩. العدد الأول (١٨ـ٢٨)/٢٣.

جامع السياغوشية: يدعى اليوم « جامع الياغوشية » وهو بحارة القصاعين إحدى حارات دمشق القديمة، داخل باب الجابية بالشاغور الجواني. أنظر أسعد طلس: ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد ملحق بثمار المقاصد لابن عبد الهادي. بيروت ١٩٤٣/٢٥٨ و«سياغوش باشا» هو صدر أعظم للسلطان مراد الثالث وقد تولى الصدارة العظمى ثلاث مرات: الأولى ٩٩٠ـ٩٩٢هـ، والثانية ٩٩٤ـ٩٩٧هـ، والثالثة ١٠٠٠ـ١٠٠١هـ أنظر حوله: المستشرق زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي. تعريب الدكتور زكي محمد حسن بك وزملاؤه. جزءان. مصر ١٩٥١. جـ١/٢٤٢، وأتى أسمه فيه (سياوش باشا).

أما سوق المرادية: فكما ورد في النص، يقع عند باب البريد غربي الجامع الأموي، إذ أن باب البريد هو الباب الغربي للجامع الأموي.

وسوق الذراع: هو السوق المعروف بهذا الاسم اليوم ويمتد من سوق الحميدية غربي الجامع الأموي حتى ينتهي بسوق العبجية من سوق مدحت باشا. وهو سوق مغطى بسقف وتباع فيه أقمشة، ولوازم الخياطة وعطورات. أنظر: العلاف. دمشق في مطلع القرن العشرين نشر علي جميل نعيسة. دمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م/١٣ـ١٤. وكان قبل بنائه هناك سوق بالاسم نفسه يقع جنوب الجامع الأموي ويسمى سوق النحاسين أيضاً. أنظر: نزهة الرفاق/٢٢، ٢٥، ٢٦. والدارس جـ٢/٤٠١.

مربعة باب البريد قبة عظيمة عالية، ملاصقة للعمودين العظيمين الباقيين عن يمين باب البريد وشماله، فجاءت قبة حسنة، وجاء البناء حسناً محكماً. وأخذ البيوت التي وراءة وعمّرها وكالة حسنة، وأمر أن يسكن فيه تجار «سوق السباهية»، فنقلوا إليه برهة حتى مات، وأعيدوا إلى السوق المعروف بهم الآن. ثم عمر إلى جانبه سوقاً آخر، ونقل إليه تجار سوق الذراع. والمتولي له على عمارة السوق الأول، والقهوة، والوكالة، الشيخ «أحمد المغربي»، متولي الجامع الأموي. وكان تمام عمارتها في سنة «خمس بعد الألف» [1]، وقد ورد في ترجمة المغربي نفسه هذا، أنه وسع باب البريد بتأخير تخوته إلى خلف، ووسع سوق السلاح [2].

وفي ترجمة «محمد بن تاج الدين المحاسني» إشارة إلى بناء السوق الجديد، والخان قرب باب الجابية لتكون وقفاً على درس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الأموي، وهي وظيفة حادثة بعد ١٠٥٠هـ/١٠٤٠، رتبها بهرام آغا كتخدا والدة السلطان [3].

= وحمام البزورية هو حمام نور الدين الشهيد في سوق البزوريين. وقد رمم مؤخراً وأعيد إلى حالته سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م. أنظر ابن عبد الهادي: عدة الملمات في تعداد الحمامات. نشر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه خطط الشام. بيروت ١٩٤٩/٩.

دار الحديث النورية: هي غير المدرسة النورية الكبرى والصغرى. وقد بناها نور الدين الزنكي المتوفى ٥٦٩هـ/١١٧٣م وتقع شرقي دار الحديث الأشرفية، وهي في سوق العصرونية اليوم. منتخبات التواريخ لدمشق/٩٤١.

(١) جـ٤/٣٥٦.

الوكالة: هي الخان في عرف المصريين، والقيسارية بعرف أهل دمشق.

أنظر الغزي. لطف السمر. جـ٢/٦٥٥.

سوق السباهية أي سوق الخيّالة أو الفرسان من جند العثمانيين. ويقع جنوبي قلعة دمشق تجاهها، وقد عمره أحمد باشا المتخلص بشمسي حوالي سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م. أنظر شرف الدين موسى الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر. مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم (عام ٧٨١٤) ق ٣٨٠ ب.

(٢) جـ١/٣٧٣. وسوق السلاح. يقع جنوبي الجامع الأموي بدمشق، وكان يباع فيه سائر الأسلحة. نزهة الرفاق/٢٢.

(٣) جـ٣/٤٠٨.

وفي ترجمة « أحمد بن سليمان القادري » (المتوفى ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) بيّن « المحبي » بأنه « انتقل إلى مدرسة الأمير سيف الدين قلج الأسفهلار المعروفة بالقلجية، وعزّل التراب الذي كان فيها من بقايا الخراب في فتنة تيمور وعمرها، وأنشأ سبيلاً بجوار تربتها » [١].

وفي ترجمة « محمد بن خصيب القدسي » أتى أنه « لما هدمت دار العدل التي كان قد عمّرها الملك العادل نور الدين بدمشق، وكان هدمها في أواخر سنة ألف، أخذ السيد المذكور حصة من أرضها وعمرها داراً له وسكن بها مدة » [٢].

وفي ترجمة « قاسم بن عبد المنان الكردي » أتى أنه « تملك دار العدل لنور الدين بالقرب من باب السعادة وعمرها عمارة متقنة »... كما « عمر ضريح سيدي سعد بن عبادة بقرية المنيحة (من قرى غوطة دمشق) تابع وقف السنانية، وبنى عليه قبة لطيفة، وأحدث إلى جانبه مسجداً، وبالجملة فقد صار من ألطف «المتنزهات»» [٣].

وفي ترجمة « أحمد باشا كوبري أو الفاضل » الصدر الأعظم، ووالي دمشق عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م. أتى بأنه « أمر بعمارة قاعة معظمة داخل دار الإمارة بدمشق، فبنيت على أسلوب عجيب ووضع غريب » [٤].

وفي ترجمة الأمير منصور بن فريخ أمير البقاع. ذكر أنه «شرع في عمارة

---

(١) ج١/٢٠٧. المدرسة القليجية أو القلجية: كانت تقع قرب قصر العظم اليوم. وقد أوصى بوقفها الأمير سيف الدين علي بن قليج النوري المتوفى ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، ودفن فيها. أنظر الدارس ج٢/٥٦٩.

(٢) جـ٤/١٥٤.

دار العدل: بناها نور الدين الشهيد جنوبي القلعة من الناحية الغربية، أي عند مدخل سوق الحميدية اليوم. وأصبحت في عهد المماليك مقراً لنواب دمشق. أنظر الدارس جـ١/٢٧١ (حاشية٣) وإعلام الورى (دهمان) ص٨/٢.

(٣) جـ٣/٢٩٣.

(٤) جـ١/٣٥٣.

دار عظيمة خارج دمشق لم يرسم مثلها، جعل بابها بالرخام الأبيض، والحجر المعدني الأحمر، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة»[1].

وفي ترجمة «إبراهيم باشا الدفتري» المتوفى ١٠٤٣هـ/١٦٣٣، «ذكر «المحبي» أنه بنى في داره قصراً مطلاً على الجامع الأموي، ولزم أنه نقب جدار الجامع القبلي (الجنوبي) لأجل الباب... وهُدم القصر المذكور عقيب قتله... وبنى حماماً بالقرب من تربة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولصيق داره التي كان يسكنها، ووقفه وجملة من أملاكه على تدريس فقه، وأجزاء رتبها في التربة المذكورة»[2].

وفي ترجمة «سنان باشا محمود»، متولي الجامع الأموي، أتى أنه «عمّر داراً قبالة «البيمارستان النوري» تعرف قديماً بدار الصابوني، والصابوني هو صاحب «جامع الصابونية»[3].

وفي ترجمة «محمد بن منجك» يوضح «المحبي» بأن «ابن منجك عمّر العمارات الفائقة، منها القاعة المشهورة في دارهم، بين باب جيرون وباب

---

(١) جـ٤/٤٢٧.

(٢) ج١/٣٠. تقع تربة صلاح الدين الأيوبي قرب الجامع الأموي شمالي الكلاسة. وقد بناها له ابنه الملك الأفضل وذلك سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥-١١٩٦م. أنظر الدارس في تاريخ المدارس جـ٢/٣٨٢-٣٨٥.

(٣) خلاصة الأثر جـ٢/٢٢٠ البيمارستان النوري أي دار الشفاء النوري، ويقع اليوم في زقاق البيمارستان في دمشق، على امتداد سوق العصرونية وقد تحول إلى متحف بعد ترميمه. وهو من بناء نور الدين الزنكي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤. أنظر أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام. دمشق ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م/٢٠٦.

والصابوني: هو أحد أعيان دمشق في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي واسمه أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري المعروف بالصابوني المتوفى ٨٧٣هـ/١٤٦٨م. أما جامعه فكان خارج دمشق جنوبي باب الجابية، وهو جزء من تربته وتربة أسرته وهي اليوم بيد بني البكري القاطنين بدمشق. أنظر الدارس جـ١/١٣-١٤، ذيل ثمار المقاصد/ ٢١٥، منادمة الأطلال/ ١٧، منتخبات التواريخ جـ٣/٩٣٨.

السلسلة. فإنه أنفق في عمارتها بالقاشان والرخام، وصرف عليها أموالاً كثيرة، وعمر القصر المعروف في الوادي الأخضر، أحد منتزهات دمشق. وانتهت عمارته في سنة إحدى عشرة وألف »[1].

وفي ترجمة والي دمشق حسين باشا المعروف بصاري حسين (تولى دمشق ١٠٩٠-١٠٩٤هـ/ ١٦٧٩-١٦٨٢م) إشارة بأنه « عمر القصر المعروف به الآن (في زمن المحبي)، في طرف الشرف، بالميدان الأخضر من دمشق. وكان مكانه يعرف قديماً بالخاتونية، وتأنق في وضعه، وغرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف، وعزّ عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلب من أماكن بعيدة »[2].

وعندما تحدث عن الشاعر « أحمد الشاهيني » ذكر أنه بنى قصراً بقرية « كفربطنا »[3] (من أعمال غوطة دمشق) وكذلك الأمر عند ترجمته لعم أبيه « عبد اللطيف بن محمد محب الدين »، وكان من الأثرياء، فقد أوضح أنه

---

(١) جـ٤/٢٣٠ ـ باب السلسلة: أحد الأبواب الشمالية الثلاثة في الجامع الأموي، قرب باب الكلاسة والفراديس. منتخبات التواريخ جـ٣/١٠١٩.
ـ الوادي الأخضر: مكان خارج دمشق قرب الربوة.

(٢) ج٢/١٢٤: الشرف: منطقتان خارج دمشق بين الأسوار، إحداهما الى شمال نهر بردى وتسمى بالشرف الشمالي (الأعلى) ومكانها اليوم مدرسة جودت الهاشمي، والثانية جنوبي نهر بانياس وتشرف عليه وتسمى بالشرف الجنوبي (القبلي أو الأدنى)، وهى اليوم تقابل شارع النصر (سابقاً شارع جمال باشا). أنظر إعلام الورى (دهمان)/٢٤ هـ١، ومنتخبات التواريخ جـ٣/١١٠٨.

الميدان الأخضر: أو المرجة، ويقع شرقي التكية السليمانية، وتقوم عليها اليوم ساحة الشهداء (المرجة)، وعدد من الأبنية الحديثة. أنظر إعلام الورى (دهمان)/٥١هـ١، ودمشق في مطلع القرن العشرين/٤١٩.

الخاتونية: هي الخاتونية البرانية. وهي مسجد سابق على الشرف القبلي، شمالي نهر بانياس، مطلة على الميدان الأخضر. وقد خربه وأخذ رخامه سيباي، والي دمشق في آخر العهد المملوكي، وبنى منه مدرسته بباب الجابية (السيبائية)، الملقبة بجمع الجوامع. أنظر منتخبات التواريخ/٩٥٣ والدارس ج١/٥٠٢ ـ ٥٠٦.

(٣) جـ١/٢١٢.

«عمر داره المعروفة به بسوق العنبرانيين عند باب الجامع الأموي، وكان محل البيت خاناً يعرف بخان الخرفان، وقف بعض المكاتب، فاشترى أقلاده من الشهاب أحمد الوفائي متولي المكتب، واحتكر أرضه بأجرة، ثم هدمه وعمره بيتاً [١]. وكذلك فإن «محمد بن عبد الباقي المحبي» من أبناء عمومة مؤلفنا، بنى قصراً على سوق الرصيف يشرف على المدرسة الأمينية وأتقن بناءه» [٢].

وفي كلامه عن «محمد الشهير بابن سعد الدين»، صاحب الزاوية في القبيباتية، تطرق إلى أن المترجم له قد جدد زاويتهم، **وعمل مجلسا اخر للضيافة،** وعمّر قبل ذلك بيته عمارة الملوك [٣].

ويبدو أن «الصالحية» [٤]، وفي أصلها قرية شمالي دمشق وفي سفح جبلها قاسيون، قد غدت خلال هذا القرن مقراً لطبقة أثرياء دمشق، الذين شرعوا يخرجون من داخل المدينة إلى ضواحيها، بدليل بنائهم قصوراً فيها. ومنهم على سبيل المثال: «مصطفى بن قاسم بن عبد المنان» متولي أوقاف السنانية، إذ «أنشأ قصراً فيها بالجسر الأبيض وصرف عليه مالاً كثيراً» [٥]. وكذلك «حسين بن قرنق» أحد أعيان دمشق وعلمائها، إذ «عمّر الأماكن البهية،

---

(١) جـ٣/١٩ **سوق العنبرانيين:** عند باب العنبرانيين وهو الباب الجنوبي للجامع الأموي. وكان يباع في هذا السوق العنبر بصفة خاصة. وسمي باب العنبرانيين أيضاً بباب «الزيادة» و«باب الساعات».
أنظر منتخبات التواريخ جـ٣/١٠١٩.
خان الخرفان: لم يستدل على شيء عنه.

(٢) جـ٣/٤٧٩.

(٣) جـ٤/١٦١ **القبيباتية:** أو القبيبات-وهي حي الميدان الفوقاني جنوبي دمشق. وكانت قرية صغيرة، بنيت سقوف منازلها على شكل «قبيبات». أنظر معجم البلدان جـ٤/٣٠٨- وإعلام الورى (دهمان)/١٨هـ١.

(٤) أنظر حول الصالحية: ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق محمد أحمد دهمان جزءان دمشق ١٣٦٨-١٣٧٥هـ/ ١٩٤٩-١٩٥٦م.
وابن كنان: المروج السندسية في تاريخ الصالحية. تحقيق محمد أحمد دهمان.

(٥) الجسر الأبيض: محلة من محلات الصالحية، وهي اليوم عامرة جداً وتقع على ضفاف نهر تورا في وسطه.

زمن جملتها قصره وقاعته بالصالحية وهو أبهى مكان»[1] . ومثله « أبو البقاء الدمشقي » الذي عمّر بالصالحية قصراً، وهو إلى الآن (أي إلى زمن المحبي)، من أحسن المتنزهات بها، ويعرف به [2] .

وكذلك يوسف بن يوسف كريم الدين الذي عمر قصراً بصالحية دمشق، وهو من أحسن المتنزهات[3] وقال فيه الشاعر منجك:

قصور الشام محكمة المباني ولا قصر كقصر بني الكريمي

وشبيه به كذلك «الشيخ جلال بن أدهم»، فقد بنى بيتاً خلف حمام العقيقي (داخل دمشق)... ولم يهدأ عيشه به ولا اطمأن خاطره فيه. وبنى بالصالحية بيتاً وقصراً، وغرس بستاناً لطيفاً على نهر يزيد. (قلت) وهو القصر المعروف الآن ببني عماد الدين[4] .

وفي ترجمة « مراد ابن الشريطي » ورد أنه تملك دار سنان باشا الوزير (في دمشق) قرب الجامع من ناحية سوق السلاح وذلك سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م «وجدد فيها عمارات وأتقنها غاية الإتقان»[5].

---

(١) جـ٢/١١٩

(٢) جـ١/١١٣.

(٣) ٢٨٣ جـ٤/٥٠٩.

(٤) جـ١/٤٨٩ حمام العقيقي: لصيق المدرسة الظاهرية من جهة الشمال. وينسب إلى بانيه الشريف أحمد بن الحسين العقيقي المتوفى ٣٧٨هـ/٩٨٨م. ويعرف اليوم بحمام العقيق، وما يزال عامراً أنظر الأربلي: مدارس دمشق وحماماتها تحقيق محمد أحمد دهمان. رسالة منشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢٢ عام ١٩٤٧/ (٢٤١-٢٤٦)، (٣٢٠-٣٣٣). وكذلك نشر مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق ١٩٤٧/٢٣ هـ٥.

نهر يزيد: أحد فروع نهر بردى السبعة. وهو الفرع الشمالي منها، ويخترق الصالحية من غربها إلى شرقها. أنظر منتخبات التواريخ جـ٣/١٠٩٦-١١٠٣.

(٥) ج٤/ ٣٣٤.

وفي ترجمة « فضل الله البوسنوي » ورد أنه بنى مسجداً بمحلة الحسودية خارج دمشق، بالقرب من جامع يلبغا، ورتب فيه مبرات، ووقف عليه حوانيت بسوق الرصيف قرب المدرسة الأمينية احتكرها من وقف المدرسة المذكورة [1].

وفي ترجمته لـ «عبد الله محمود زاده» قاضي دمشق عام ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، بين «المحبي» بأنه جدّد من ماله تعمير ثلاث قباب لزوجتي النبي ﷺ، المدفونتين بمقبرة باب الصغير، وهما أم سلمة، وميمونة على قول. . . وبنى على قبر «أُبَيّ بن كعب» رضي الله عنه خارج باب شرقي قبتين، ويليهما مسجد، وصرف على ذلك من خالص ماله ألف دينار»[2].

وهناك أبنية أخرى في دمشق يمكن تتبعها من تدقيق التراجم.

ولم يظهر « المحبي » الاهتمام بتتبع أخبار العمران في مدينة دمشق فحسب، بل مدّ ذلك إلى أنحاء بلاد الشام فأوضح أن « الأمير مصطفى بن باقي بيك » حفيد الصدر الأعظم « لالا مصطفى باشا »، والي دمشق السابق، قد جدد بجامع جده، بقرية « جينين » في فلسطين خلوة » [3]. وأن الشيخ «حسن بن زاهر المقدسي» (المتوفى عام ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م، دفن **بمدفنه الذي عمّره داخل جامعه**، الذي بناه بقرية «السيلة» من أعمال اللجون (وسيلة هذه بكسر السين المهملة، قرية من عمل اللجون)[4]. وكذلك فإن «الشيخ أحمد القادري» بنى **جامع المعرة، وجامع أريحا، ومسجداً في بيت المقدس**[5].

---

(١) ج٣/٢٧٦.

(٢) ج٣/٨١. انظر الحاشيتين (٥) و(٦) من الصفحة (٣٤٧) من هذه الدراسة من أجل زوجتي الرسول ﷺ. أما «أبي بن كعب» فهو صحابي أنصاري من أصل يهودي، له اسهامات كثيرة في دعم الإسلام. توفي عام ٢١هـ/٦٤٢م، ويقال أن وفاته كانت في المدينة. انظر الأعلام ج١/٧٨.

(٣) جـ١/١٤٥. ترجمة (أبو اللطف الحصكفي). وجينين مدينة صغيرة في فلسطين تقع بين نابلس وبيسان. أنظر معجم البلدان جـ٢/٢٠٢-٢٠٣، وLe Strange, op, cit. p.41,464

(٤) خلاصة الأثر جـ٢/٢١. واللجون مدينة في فلسطين إلى الجنوب الغربي من طبريا، وعلى طريق دمشق - مصر أنظر حولها Le Strange, p.492—493 .

(٥) ج١/٢٩٣. أريحا: مدينة في شمالي سوزية، وفي جبل الزاوية، جنوبي أدلب وهي من محافظة =

وفي البقاع عمل الأمير «منصور بن الفريخ» أميرها على تعمير عمارات عظيمة بقرية قب الياس(1).

وفي مدينة حلب هناك إشارة ضافية إلى إعمار زاوية « أبي بكر الحلبي ». فقد ورد في ترجمة « أحمد القاري الحلبي» أنه « أجرى لهم ـ أي للمقيمين فيها ـ « إسماعيل » نائب القلعة، الماء من قناة حلب، وعمّر لهم « حسن باشا ابن علي باشا » **ميدان الفقراء**، بالقبة الكبيرة تحتها العواميد العظيمة. وعمّر « حمزة الكردي » الدمشقي، **القاعة ذات البركة من الماء**، ولم يتمها، بل وصلت إلى السراويل فأتمها « أحمد باشا أكمكجي زاده » الوزير، والوزير الأعظم « محمد باشا » كبّر القبة التي على مرقد الشيخ، و« علي آغا » ضابط العسكر عمّر عمارات. والحاصل، فقد أنشأ فيها صاحب الترجمة بتدبيره وحسن رأيه أشياء عظيمة من حدائق لطيفة، ومطابخ للطعام، وصار هذا المزار لا يوجد له نظير بالنظر إلى مزارات الأولياء (2).

وفي ترجمة « محمود البيلوني » بيّن « المحبي » أن الوزير « إبراهيم باشا » قد بنى لمحمود البيلوني العالم الشافعي الكبير (المتوفى ١٠٠٧هـ/١٦٠٠م) جامعه الذى بجانب داره، وجعل فيه خطبة وبنى له منارة(3).

ومثلما أشار « المحبي » إلى بناء الأثرياء للقصور في مدينة دمشق، فإنه «ذكر ذلك بالنسبة لبعض أغنياء حلب إذ أتى في ترجمته مثلاً للشيخ « أحمد الكواكبي » قوله: « بنى داراً عظيمة بالجلوم »، إلى جانب زاوية جده، بها

= أدلب اليوم، وتبعد عن الأخيرة ١٥كم، وعن دمشق شمالاً، ٣٢٠كم ـ انظر أطلس العالم صنع عدد من الأساتذة، منهم نقولا زيادة ومصطفى الحاج ابراهيم وبمعاونة عدد من الناشرين بيروت. د.ت خريطة ١٧. وجدول المسافات للقطر العربي السوري الصادر من إدارة المساحة العسكرية بدمشق. عام ١٩٧٩/١٠٦، ١٠٧.

(1) جـ٤/ ٤٢٧ ترجمة « منصور بن الفريخ»..

(2) جـ١/ ٢٦٠.

(3) جـ٤/ ٣٢١.

مجالس عظيمة، وبنى مكاناً في دهليزها لطيفاً، له شباك مشرف على زاوية جده» (١)

وأوضح أيضاً «اهتمام « محمد الكوبري » الصدر الأعظم بالطريق بين القسطنطينية ودمشق، وبإعماره، فعمّر الخان المعروف به بين « اسكي شهر » و« أزنيق »، والخان والعمارة العظيمة بقصبة الثغور، والعمارات الكثيرة في إدلب» (٢).

ومن العمارات التي تحدث عنها أيضاً كتاب « خلاصة الأثر »، ما بني في الديار المقدسة الإسلامية في الحجاز وبيت المقدس في عهد السلطانين العثمانيين: أحمد ومراد الرابع. فالسلطان أحمد كسا البيت الشريف، وكذلك فعل بالحجرة النبوية، وكسا أضرحة جميع سكان البقيع، (مقبرة المدينة)

---

(١) جـ١/٢٨٣. الجلّوم: حي مشهور في حلب، لا يزال معروفاً إلى اليوم بهذا الاسم. وهو يقع في القسم الغربي من المدينة جنوبي باب أنطاكية. أنظر مخطط حلب في دائرة المعارف الإسلامية المعربة. مادة (حلب). المجلد ٤٦/٨ ـ ٤٧.

(٢) إسكي شهر: إحدى مدن آسيا الصغرى، تقع على نهر بورصوق جاي، وغربي مدينة أنقرة، وعلى الخط الحديدي بين استامبول والمدينة الأخيرة. يبلغ سكانها (١٣٥,٠٠٠) نسمة. وكانت محطة على طريق الحج. وفيها أحد عشر مسجداً. وقد قامت مكان مدينة « درولية » كما سماها العرب المسلمون أو « دورليون» البيزنطية.

أنظر حولها: مورتمان: دائرة المعارف الإسلامية المعربة. المجلد٢/١٤٨-١٤٩.

إزنيق: هي نيقية القديمة، وهي إحدى مدن آسية الصغرى وفي الشمال الغربي منها، قرب بحرمرمرة. كانت من المدن الكبرى في العهد البيزنطي. وقد استولى عليها السلطان العثماني أورخان عام ١٣٣١م، وقد تدهورت أحوالها في القرن السابع عشر. من آثارها الهامة، « الجامع الأخضر ».

أنظر حولها: معجم البلدان مجلد ٣٣٣/٥ـ و G.L.E vol. 6/ 290 Iznik.

إدلب: مدينة في الشمال من بلاد الشام، جنوب غربي حلب وتبعد عنها (٧٠) كم. ويبدو أن إدلب هذه هي التي أطلقت عليها وثائق المحاكم الشرعية في حلب اسم « أدلب الصغرى »، التي نمت وتوسعت في القرن الحادي عشر على حساب « أدلب الكبرى » المجاورة لها. وكانت مركز قضاء منذ ١٠٠٧هـ/١٥٩٨.

أنظر حولها: خضر أحمد عباس عمران: ريف حلب من وثائق المحاكم الشرعية. رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة دمشق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م تحت اشراف د. ليلى الصباغ ولما تنشر بعد/ ٣٤ ـ ٣٥.

وسكان المعلاة (مقبرة مكة) وكان أراد أن يجعل الكعبة الشريفة ملبسة واحدا بالذهب وواحداً بالفضة، فمنعه المولى « محمد بن سعد الدين » المفتي، وقال: هذا يزيل حرمة البيت، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت، فكفّ عن ذلك. وجعل ثلاث مناطق من الفضة محلّاة بالذهب أيضاً داخل الكعبة الشريفة صوناً لها من الهدم[1] وأرسل ميزاباً من الفضة مموهاً بالذهب ووضع موضع الميزاب العتيق، وتسلم أمير الحاج الميزاب العتيق وأرسله إلى السلطان ووضع في الخزانة العامرة تبركاً.

ومن آثاره أيضاً تجديد مولد السيدة فاطمة وتبييضه. ومنها عمارة مسجد البيعة « وهو بالقرب من عقبة منى، على يسار الصاعد، بينه وبين عقبة منى مقدار غلوة سهم، وفيهم من قال أنه من منى. ومنها عمارة العين، وأصلح مآثر كثيرة بمكة. وفي سنة أربع وعشرين وألف أرسل للحضرة الشريفة فصين من الألماس قيمتهما ثمانون ألف دينار، فوضعهما فوق الكوكب الدرّي. وهذا الكوكب تجاه الوجه الشريف في الجدار. وهو مسمار من الفضة مموه بالذهب، في رخامة حمراء، من استقبله كان مستقبل الوجه الشريف كذا قال « ابن حجر الهيتمي» في «الجوهر المنظم»، وأنشد بعضهم:

الكوكب الدريّ من شأنه يخفي مع الوجه السراج المنير
فكثّروا الجوهر أو قللوا فالجوهر الفرد عديم النظير

وبعث أيضاً للحجرة بشبابيك من الفضة المحلاة بالذهب، وأمر أن يرسل إليه بالشبابيك القديمة ليجعلها في مدفنه الذي أنشأه بقسطنطينية، لأجل التبرك، فمنعه المفتي واعترضه في نقل الشبابيك، فقال: نحن نرسلها من البحر، فإن كان النبي ﷺ يقبلها فهي تصل سالمة من غير غرق، وإلا فتغرق

---

(١) شرح « المحبي » المقصود من المناطق الثلاث في النص نفسه معتمداً على ما بينه « محمد بن عبد المعطي الاسحاقي » في كتابه « لطائف الأخبار الأول » فقال نقلاً عنه: « ومن جملة محاسنه (أي محاسن السلطان أحمد) أنه حصل في بناء الكعبة الشريفة ميلان في بعض أحجارها، فأرسل عمداً من فولاذ مطلّية بالذهب، ومموهة بالذهب، فطوّقت بها الكعبة الشريفة من الجهات الأربع، وحفظت الأحجار من السقوط » (جـ١ / ٢٩٠).

في الطريق. فأرسلها من البحر إلى الإسكندرية، فوصلت سالمة، ثم أرسلها من مصر إلى المدينة المنوّرة فوصلت سالمة أيضاً، وكذلك أمر أن يفعل بالشبابيك القديمة حين ترسل إليه، فوصلت إلى قسطنطينية دون أدنى مشقة، فجعلها في مدفنه كما أراد. وجدّد عمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة «عرفة» في سنة ثلاث وعشرين وألف على يد الباشا حسن المعمار... وعمل سحابة بطريق الحاج المصري يحمل بها الماء للفقراء والمساكين، ووقف عليها أوقافاً، وهي مستمرة إلى الآن، وبها النفع العام... وبعث إلى بيت المقدس من فضة مطلية بالذهب لتوضع على القدم الشريف بالصخرة، وهي إلى الآن موجودة... وفي شوال سنة ست وعشرين وألف أرسل لأحمد باشا محافظ مصر بأن يرسل مقداراً من الخزينة لأجل عمارة الحرم النبوي على حكم الحرم المكي، فامتثل، وأرسل. ومات السلطان أحمد قبل الشروع في ذلك [1].

وأضاف «المحبي» في ترجمة «شعبان البوسنوي» قاضي دمشق بأنه «حج ومعه حجر من الألماس محفوف بأحجار مختلفة مكفوفة بصفائح الفضة والذهب أرسله الوزير مصطفى السلاحدار ليوضع تحت الحجرين المشهورين بالحجرة النبوية اللذين كان أرسلهما السلطان أحمد كما سلف [2].

«وعندما وقع السيل العظيم بمكة المشرفة في سنة تسع وثلاثين وألف، ودخل المسجد الحرام وطاف بالبيت، ووافق تاريخه (رقي إلى قفل بيت الله)، وبسببه انهدمت الكعبة»[3]، قام السلطان مراد الرابع بإعادة بناء الكعبة. «ووقع بعد تمام العمارة بأربع سنين خلل في السطح المكرم، فعرض صاحب مكة وشيخ حرمها ذلك إلى وزير مصر، فعرض ذلك على السلطان

---

(1) جـ١/٢٨٨-٢٩٠.
(2) خلاصة الأثر جـ٢/٢٢٩.
(3) خلاصة الأثر جـ٤/٣٣٩ - ٣٤٠.

المذكور، فورد أمره بذلك، فعين وزير مصر لهذه الخدمة، من كان قائماً بها، ومتعاطياً لها قبل ذلك، وهو « الأمير رضوان الفقاري » وأضاف إليه « يوسف المعمار » مهندس العمارات السابق. فوصلا في موسم سنة أربع وأربعين. فلما كان العشر الأخير من ذي الحجة، جعل اجتماع الناس بمصلى الشريف « زيد بن محسن »، وحضر فيه هو وقاضي مكة الشيخ أحمد البكري، وقاضي المدينة المولى حنفي، والأمير رضوان وغيرهم من العلماء والأعيان، فقرأوا سورة الفتح، ثم وصلوا إلى الكعبة، وأشرفوا على بابها ثم تفرقوا. ثم في المحرم سنة خمس وأربعين شرع الأمير في تهيئة الحصى للمسجد، ففرشه به. ثم لما كان سابع عشر شهر ربيع الأول وصل إلى باب الكعبة، وفتح السادن بابها، فقلعوه، وركبوا عوضه باباً من خشب لم يكن عليه شيء من الحلية، وإنما عليه ثوب من القطني أبيض. وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر الشهر، وزنت الفضة التي كانت على الباب المقلوع، فكان مجموع ذلك مائة وأربعة وأربعين رطلاً خارجاً عن الزرافين، فوزنها وما شابهها مما كان على الباب ثمانية عشر رطلاً، ثم شرع في تهيئة باب جديد، فشرع فيه وأتمه، وركب عليه حلية الباب السابق، وكتب عليه اسم السلطان صاحب الترجمة ثم جيء به محمولاً على أعناق الفعلة، فمشى الناس أمام الباب إلى أن وصلوا إلى الحطيم، وبه الشريف جالس... ثم أدخلوا فردتي الباب إلى داخل الكعبة، ودخل الشريف ومعه الأمير وجماعة من الأعيان إلى الكعبة. وصعدوا السطح، وأشرفوا عليه، ثم انفض الجمع. فشرع الأمير بعد انفضاض الناس في تركيب الباب فركبه، وتم عند غروب الشمس من يوم العشرين من شهر رمضان»[1].

وفي ترجمة « سنان باشا » الوزير الأعظم المعروف بآثاره العمرانية الكثيرة في مصر واليمن والقسطنطينية والشام، أكد « المحبي » بأنه « أنشأ بمكة آثاراً

---

(١) المصدر نفسه ٣٤٠-٣٤١ أنظر حول رضوان الفقاري جـ٢/١٦٤-١٦٦ الزرافين: جمع زُرْفين: الحلق الصغيرة. المنجد/ ٢٩٧ بند (زرْفن).

حسنة، منها تعميره حاشية المطاف دائرة حوله، مفروشة بالحصى، يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية كالإفريز لها. فأمر أن تفرش هذه الحاشية بالحجر الصوّان المنحوت، ففرشت في أيام الموسم، وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف من بعد أساطينه، وصار ما بعد ذلك مفروشاً بالحصى الصغار كسائر المسجد الحرام. وهذا الأثر خاص به. ومنها تعميره «سبيل التنعيم»، أنشأه وأمر بإجراء الماء إليه من بئر بعيدة يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنورة، وعين لها خادماً يستقي من البئر ويصب في الساقية، فيصل الماء إلى السبيل، ليشرب منه ويتوضأ المعتمرون، وعين لمصارف ذلك من ريع أوقاف له ومنها آبار حفرها بقرب المدينة المنورة لقوافل الزوار في وادي مفرّع وغيرها، كثيرة النفع جداً[1]».

وفي ترجمة شريف مكة « بركات » نوّه « المحبي » أيضاً بأنه قد عمّرت في أيامه الخاصكيّة التكية المعروفة الآن بمكة، بين البزابيز والمدَّعى، وصرف عليها أموالٌ كثيرة، وقد وقعت موقعهاوعمَّ نفعها [2].

ولم يقتصر « المحبي » في متابعته للأخبار العمرانية أياً كان نوعها، على بلاد الشام، والحجاز، والقسطنطينية، وإنما أشار إليها في كل مكان تم إعماره، ووصلته أنباء عن ذلك. ففي ترجمته للسلطان « مراد الرابع » ذكر « المحبي » أيضاً إزالته « ما كان أحدثه الأرفاض (في بغداد) في مرقد الإمام الأعظم (أبي حنيفة النعمان) ومرقد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما، وأمر بتجديد عمارة محليهما وأحكم أمرهما غاية الإحكام»[3].. وفي ترجمته للسيد « حسن إمام اليمن »، بيَّن أنه اختط الجبل المسمى بضُوران

---

(١) جـ٢/٢١٥-٢١٦. التنعيم: موضع بمكة وهو بين مكة وسَرِف. وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم، وآخر عن شماله يقال له ناعم، والوادي نعمان. بالتنعيم مسجد عائشة، ومنه يحرم المكيون بالعمرة. انظر معجم البلدان جـ٢/٤٩-٥٠.

(٢) جـ١/٤٤٧.

(٣) جـ٤/٣٣٩.

ـ بضاء معجمة مضمومة ـ فبنى به حصناً مشيداً، واختط به مدينة عظيمة، وأحيا به أرضاً، وغرس بها فواكه، فصارت مدينة عظيمة بأسواقها، وحماماتها، ومساجدها. وأمر كل أمير من أمرائه أن يبني بها بيتاً فاتبعوا أمره، وعمر ما حول المدينة من القرى»[1].

وفي حديثه عن «محمد باجمال» الحضرمي إشارة إلى بنائه المسجد المعروف بالحمام في وسط مدينة الغرفة، وآبار كثيرة وقفها على المسلمين[2].

وفي ترجمته «لعز الدين المعلم» من علماء اليمن أشار إلى أنه «ابتنى بالطويلة جامعاً عظيماً ووقف عليه أوقافاً»[3].

وفي استعراضه لحياة «مراد باشا» الصدر الأعظم أكد بناءه جامعاً في قصر صنعاء، واجراءه له غيلاً من جبل نقيم، وكذلك تشييده قبة معظمة على قبور السادة بني الأهدل بزبيد[4].

وفي الواقع إن ما ذكر سابقاً هو نماذج فحسب مما ورد في «خلاصة الأثر» حول الأمور العمرانية ومن يدقق في مختلف التراجم يرى المزيد منها، وفي بقاع متفرقة من العالم الإسلامي، ومنها الهند، وأوروبا الشرقية.

ولم تقدم تراجم «المحبي» معطيات عن العمران المدني بصوره المختلفة فحسب، بل عن «العمران العسكري» أيضاً، كإنشاء القلاع مثلاً. ففي ترجمة «محمد بن الناشف» بيان عن عمارة «قلعة تبوك»، التي أمر المترجم بعمارتها... «فأسرع في الذهاب وأخذ معه جماعة من العسكر الشامي

---

(١) جـ٢/٤٠ وتقع «ضوران» إلى جنوبي صنعاء وإلى الشمال الغربي من ذمار. على خط عرض ١٤°,٤٥ شمالاً وخط طول ٤٤°,١٠ شرقاً تقريباً. أنظر خريطة الجمهورية العربية اليمنية نشر حسين عبد الله الذماري.

(٢) جـ٤/٢٢٨.

(٣) جـ٣/١١٠ الطويلة: إحدى مدن اليمن الكبيرة نسبياً، وتقع غربي صنعاء وجنوب شرق «حجة». أنظر المصدر نفسه.

(٤) جـ٤/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

وشرذمة من البنائين وعمّرها عمارة متقنة، وعاد إلى دمشق، وكانت عمارتها في سنة أربع وستين وألف [1].

وفي ترجمة « مراد الثالث » ذكر لبناء حصار عظيم (أي قلعة ضخمة) في أرض شروان في مركز « شماخي » حيث بناه « عثمان باشا » الذي حارب الصفويين وصاحب شروان، «في دور سبعة آلاف ذراع بذراع البناء، في مدة أربعين يوماً»[2].

وكذلك هناك إشارات إلى تعمير قلاع وترميم أسوار، أكان في « تبريز » وبلاد العجم [3] مثلاً، أو في بغداد بعد أن استردها السلطان مراد الرابع من الصفويين[4]، وغيرها كثير جرى ذكره في ثنايا التراجم.

وإذا بدا « المحبي » فيما تقدم الحديث عنه مهتماً بالناحية العمرانية من الحياة الفنية، فإن هذا لا ينفي تذوقه للفنون الأخرى، وبصفة خاصة فن الموسيقى. ويظهر من ترجمته لعدد ممن تميز في هذا الباب، ومن معالجته بعض أموره، أنه كان ذواقة للموسيقى، والغناء، والإنشاد، وكان له معرفة بالأنغام، بدليل إشارته في بعض تراجمه إلى تلك النواحي مع شرحها. وليس مستغرباً

---

(١) جـ٤/٢١٥. تبوك: إحدى محطات (منازل) قافلة الحجاج المنطلقة من دمشق إلى الديار المقدسة. وهي تقع اليوم في شمال المملكة العربية السعودية. ومن المعروف أن الرسول ﷺ قد توجه إليها في سنة تسع للهجرة بغزوة هي آخر غزواته، إذ علم أنه قد تجمع فيها الروم وبعض القبائل العربية المعادية له، إلا أنه وجدهم قد تفرقوا. وقد صالحه أهلها بعد أن مكث فيها بضعة أيام (أنظر معجم البلدان جـ٥/١٤ـ١٥). وقد أمر السلطان سليمان القانوني في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد بتعمير قلعة فيها إلى جانب قلاع أخرى على طريق الحج (النجم الغزي: الكواكب السائرة. جـ٣/١٥٧).

أنظر حول (تبوك) بالمجموع Encyclopédie de l'Islam 1er ed. T.IV. p. 593-594.

ودائرة المعارف الاسلامية (المعربة) مجلد ٤/٥٧٥.

(٢) جـ٤/٣٤٣

(٣) المصدر نفسه /٣٥٠، ٣٥٢.

(٤) جـ٤/٣٣٩ ترجمة (السلطان مراد فاتح بغداد).

أن يكون « المحبي » بهذه الصفة، وهو الشاعر المرهف، فروابط الشعر بالموسيقى لا تحتاج لتأكيد. وقد أبرز هو نفسه هذه الرابطة عندما ترجم « لخان أحمد الكيلاني » وقال عنه: « وكان إليه النهاية في الموسيقى والشعر الفارسي، وإذا نظم غزلاً ربطه في أصوات ونغمات »[١]. ولقد أظهر مؤرخنا في حديثه عن الموسيقى والغناء، بأن الناس في عصره كانوا يتهافتون على سماع الصوت الحسن، والأغاني، وأن المؤذنين عادة كانوا يؤخذون من أصحاب الصوت الجميل، وأن عدداً منهم كان عارفاً بالموسيقى.

ففي ترجمته للشيخ « حسن أمي سنان زادة » بيّن أن شخصاً يعرف بـ« شيخ زادة» «كان حسن الصوت جداً، عارفاً بالموسيقى، والأغاني، والضروب، والناس يتهافتون على سماع صوته وأغانيه»[٢]. وفي حديثه عن ابن عم أبيه «محمد بن عبد الباقي المحبي»، أكد أنه كان «له صوت يأخذ بمجامع القلوب، لم يكن أحسن منه، ولا أندى في عصره. وكان يعرف الأدب والموسيقى معرفة جيدة، وله في الضروب واصطناع الأغاني يد طائلة»[٣]. وفي ترجمته «لأحمد الشرباتي الدمشقي» رئيس المؤذنين بجامع بني أمية، أبرز بأنه «كان حسن الصوت عارفاً بالموسيقى»[٤]. وكذلك الأمر بالنسبة لـ «بعث الله المصري» نزيل دمشق، وشيخ المولد النبوي، وأحد المؤذنين بجامع بني أمية، فقد قال عنه بأنه «كان أعرف أهل زمانه بالموسيقى وأحسنهم صوتاً، وأقواهم ملكة. وله تصرف عجيب في صوته مع جهارته ونداوته»[٥].

ويبدو من تراجم « المحبي » بأن هذا الفن لم يكن ممجوجاً إجتماعياً في ذلك العصر، بدليل إسهام بعض الأدباء فيه، والمؤذنين، كما أشير سابقاً، بل

---

(١) جـ١/٣٧٣.
(٢) جـ٢/١٩.
(٣) جـ٣/٤٧٩.
(٤) جـ١/١٧٨.
(٥) جـ١/٤٥٣.

والعلماء. وها هو نفسه يفرد في كتابه حديثاً طويلاً عن الغناء والمغنين في عهدي بني أمية والعباس، ومجالس الطرب واللهو خلالها[1]. وعند ترجمته للقاضي «حسين الكفوي» من موالي الروم، لم يرغضاضة في وصفه بأنه «كان في علم الموسيقى نهاية، وله أغان ربطها مقبولة متداولة»[2]. وكذلك الأمر في كلامه عن العالم الرياضي والفلكي الشهير في عصره وهو «رجب بن حسين بن علوان الحموي»، حيث قال عنه: «وأما في الموسيقى على اختلاف أنواعه فهو فيه أعرف من أدركناه وسمعنا به. وله فيه أغان صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن. لكنه كان رديء الصوت جرياً على العادة في الغالب، من أنه لا يجتمع حسن الصوت مع المهارة الكلية في فن الموسيقى، كما امتحناه كثيراً في أرباب هذا الفن. وكان رحل في أول أمره إلى القاهرة، واستفاد هذه المعارف من أربابها المشهود لهم فيها بالتفوق»[3].

ومثله الخطاط «درويش محمد» المعروف بابن القاطر الذي «كان يعرف الموسيقى جدَّ المعرفة، وله شهرة بهذه المعرفة عند أرباب هذا الفن الحاذقين فيه. فإذا حضروا مجلساً عظموه، وتراخوا في العمل حتى يشير إليهم»[4]. وكذلك الأديب «أكمل الدين بن يوسف» المعروف «بابن كريم الدين الدمشقي» الذي «كان متقناً للموسيقى وتوابعها، وله أغان كان يصنعها وتنقل عنه. وكان يجلس وأصحابه للمفاكهة والغناء إلى منتصف الليل»[5]. وشبيه به أيضاً الشاعر «محمد الكريمي» الذي كان ينظم الشعر في اللغات الثلاث، وكان يعرف الموسيقى، وله أغان يسيرها في نغمات مقبولة»[6].

---

(١) جـ٢/٣٩٧-٤٠٥. ترجمة (عبد الرحمن النقيب).
(٢) جـ٢/١٢٢.
(٣) جـ٢/١٦١-١٦٢.
(٤) المصدر نفسه/ ١٥٥.
(٥) جـ١/٤٢٢.
(٦) جـ٤/٢٧٤.

وتظهر معرفة « المحبي » الموسيقية، وتذوقه لهذا الفن بشكل أوضح، في ترجمته « لعبد علي بن ناصر الحويزي » التي نقلها عن « ابن معصوم » في كتابه « سلافة العصر ». ومع أن ما ورد فيها منقول، إلا أنه يبين أن مؤرخنا كان واعياً دقائق ما أتى في الترجمة عن الموسيقى ونغماتها. فقد أتى في وصفه لتلك الشخصية بأنه « كان في فن الموسيقى من الأفراد، وله أغان متداولة ومقبولة، جارية على الصنعة البارعة. وأكثر أغانيه من نظمه المطرب، فمن ذلك ما ابتدعه في نغمة « السيكاه » من الثقيل

أما والهوى لولا العِذارُ المنمنمُ   لما اهتاج وجدي ساجعٌ يترنمُ
ولا اهتجعتْ عيناي من فيض أدمعي   قضى جريها أن لا يفارقها الدمُ
هو الحبُّ ما أحلى مقاساة خطبهِ   وأعذبه لو كانت العينُ تكتمُ

وله من نغمة « الحجاز » والضرب مخمَّس:

لا تطلعي في قمر إنني   أخافُ أن تغلط أهلُ السفر
أو طلعتْ شمسٌ فلا تطلعي   أخافُ أن تعمى عيونُ البشر

وله من هذه النغمة والضرب دارج:

لمن العيسُ عشيّاً تترامى   تركَتْها شقةُ البَيْن سهاما
كلما بَرْقعها نشرُ الصَبّا   لبستْ من أحمرِ الدمعِ لِثاما
شفَّها جذبٌ براها للحمى   فهي تصمي لربى نجدٍ زماما
في هواكم آل نجد زاد وجدي   وغدا القلب ولوعاً مستهاما

وله من الألحان الفارسية المشهورة « مسرت آباد » في نغمة العراق، وضربة ثقيل، و« جام جام » في نغمة « الحسيني » وضربه خفيف وغير ذلك » (١).

---

(١) جـ٢/٤٣٢.

وأخيراً قد يكون من الممكن تتبع بعض الفنون الزخرفية في تراجم « المحبي »، وردت إشارات عنها مبعثرة هنا وهناك، ولا سيما « الخط »، والقاشاني، والنقوش [1]، وكذلك بعض الفنون الصناعية كإشارته مثلاً إلى « تخت من الذهب مرصع بالجواهر العظيمة»[2]، وإلى « شبابيك من الفضة المحلاة بالذهب » [3]، وإلى « ميزاب من الفضة مموه بالذهب » [4]، إلى غير ذلك من فنون.

وخاتمة القول، إن كتاب « خلاصة الأثر » كنز زاخر وثمين بمعطيات شتى، وفي جميع الميادين، ومن ثمَّ فهو مصدر تاريخي خصب لا غنى للباحث في تاريخ العرب في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أو تاريخ الدولة العثمانية، بل وتاريخ العالم الإسلامي من الرجوع إليه. ويمكن أن نقفل حديثنا عن أهمية كتاب « خلاصة الأثر » بإثبات قول « المحبي » في مقدمة « ذيل نفحة الريحانة » عن مجموع إنتاجه، حيث افتخر قائلاً: « فثبَتُّ مدة عمري ثبات الصخر، وتناولتُ من الفوائد ما يفخر به الفخر. ولو جُمع ما قرَّرتُه، أو كتبته وحرَّرته، لبلغ ألف جلدٍ ضخام، وذلك مما يعز على الموجودين من قادةٍ فخام » [5].

---

(١) جـ٤/٣٤٩. ترجمة (السلطان مراد الأقدم).
(٢) جـ١/٦٠. ترجمة (إبراهيم باشا) الوزير الأعظم وقد صنعه للسلطان مراد.
(٣) جـ١/٢٨٩.
(٤) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.
(٥) ص٨.

الفصل الثالث

القيمة التاريخية العلمية لخلاصة الأثر

بعد ذلك العرض لبعض ما حواه كتاب « المحبي » التاريخي من معلومات في الميادين السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والفنية، ولبعض ما يمكن أن يستفيد منه الباحث التاريخي المعاصر، عند كتابته لتاريخ العرب والمسلمين في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أو لجزء منه، أو لتاريخ بلاد الشام بصفة خاصة أو لبعض مدنها بالذات كدمشق مثلاً (١)، قد يتساءل: أوَ هل كان « المحبي » الأديب والشاعر مؤرخاً بالمعنى العلمي الحق، ليكون كتابه مصدراً تاريخياً ثميناً؟ أو بتعبير أدق، هل اتبع منهجية سليمة في دراسة تراجمه تتلاءم مع شروط التأريخ العلمي الصحيح، الذي يتوخى الحقيقة، ويسعى إليها بشتى السبل، حتى يمكن النظر إلى كتابه وثيقة معتمدة؟

قد تختلف قيمة الكتاب التاريخي في الواقع من عصر إلى آخر، بحسب متطلبات كل عصر من الكتابة التاريخية، والاتجاهات الفكرية فيه. فإذا عدنا في تقويم كتاب « خلاصة الأثر » إلى عصر «المحبي» وما بعده بقليل، فإنه

---

(١) لقد قام السيد «ليون. شاركوديان» Leon Charkoudian «ببحث في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة في عام ١٩٦٨ عن «مدينة دمشق» من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية معتمداً «خلاصة الأثر» مصدراً أساسياً. وعنوان البحث:

The Damascus of Muhammad Muhibbi

وذلك لنيل درجة الدكتوراه في الآداب.

يلاحظ أن هذا الكتاب قد حظي بالقبول والتقدير في أوساط الأدباء والعلماء خلال حياة مؤلفه، وقرظته فئة منهم، كما أنه كان معروفاً ومتداولاً بعد وفاته وخلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، وأطري من بعضهم. ومع أن ذاك التقريظ والإطراء قد لا يكون صادقاً تماماً، ولا سيما ما قيل في حياة «المحبي» نفسه، ووجه إليه مباشرة ـ إذ قد يكون أصحابه قد فعلوا ذلك مجاملة ـ، فإن ما أتى به بعضهم من وصف لبعض محتويات الكتاب، يدل على القيم التي كان يطلبها أدباء ومؤرخو ذلك العصر من الكتابة التاريخية، وهي في أساسياتها الكبرى قد لا تختلف عن بعض ما يطلبه عصرنا منها، وأهمها الصدق والأمانة في نقل الخبر، وفي ضرورة التحقق منه، وفي التدقيق في أنساب المترجم لهم وأسمائهم، وفي الكتابة بأسلوب رصين وطليّ، وأخيراً في سعة ثقافة المؤرخ. ومن هؤلاء الأدباء الذين أثنوا على كتاب «خلاصة الأثر» في حياة «المحبي»، الأديب «عبد الرحمن بن محمد بن عابدي» من أهل المدينة المنورة، فقد أرسل إلى «المحبي» رسالة يمتدحه فيها نثراً وشعراً، ويذكر في شعره كتابه قائلاً[1]:

لك التاريخ طومار المعالي ... وفضّاحٌ محقّقهُ المشارُ
نسختَ به رقاعَ مناظريه ... وليس على حواشيه غبارُ
به الحِكمُ التي جُمعت فصحّتْ ... وقابلها قبولٌ واعتبارُ

إلا أن «عبد الرحمن الجيزي الطباطبي» من مصر ـ وهو من الذين أجازهم «المحبي» بمروياته ـ كان أكثر دقة وتفصيلاً في إيراد الأمور التاريخية المنهجية التي رأى أن كتاب «خلاصة الأثر» قد تميز بها. فقد قال عنه نثراً: «**فلقد صنف تاريخاً وأبدع في تصنيفه**، وألّف شتات الفضائل، **وجمع شمل ذكر علماء عصره في تأليفه**، فجاء بحراً طويلاً مبسوطاً، بمداد أمداده ذكرُ السادة العلماء،

---

(١) ذيل نفحة الريحانة/ ٣٠٩ـ وانظر ترجمة الأديب «ابن عابدي» في المصدر نفسه/ ٣٠٧.

محيطاً بكامل أسمائهم ووافر أنسابهم، حتى صار بأسانيدهم علماً حاوياً لكلِّ قولٍ مُحرَّرٍ وجيز، شاملاً لخلاصة المعنى، بموجز ألفاظ تعـرِّف القادر منه بالتعجيز. لِمَ لا وقد تكلَّم فيه عن نكاتٍ[1] يكاد المسموع منها لإشراقه أن يُرى وأتى بجوامع الكَلِم، فكان الصيد كل الصيد في جوف الفرا[2]. يدلُّ على صحة أخبار مؤلّفه عن علماء العصر طُرّاً، إنه من أهل البيت أولي العلم والمجد، وصاحب البيت أدرى. وينبه البحثُ باقتـدار جامعـه على تحقيق خُبْريّته بمواقع الأخبار وتسهيل صعابها، أنه ورث علمَ هذه الصناعة عن أصله المكّي، وأهل مكة أعرفُ بشعابها. فلّلهِ من مؤرخ أحرز بالجمع عن الأواخر ما أحرز بالسمع عن الأوائل، وأبرز للجمع عن الأوائل أخايـر الذخائر من فضائل الأفاضل. فصوصُ حِكمهِ مشتملة على أحسن الإشارات، وفتوحات حقائقه جاءت بالتلويحات إلى أفضل المقامات. فكم فيه من تنبيه على كلّ معنى مستصفى، ومُحْكمٍ من إحكام الأحكام يهدي تحصيل الشِّفا من استشفى؛ وفصيح من القول في إصلاح النطق، يقرِّب إلى أدب الكتّاب، ومهذّب من اللفظ الفائق يقطف من رَوْضِ المديح زهر الآداب، حتى وصَّع قلائد العقيان في نحر البلاغة مجملاً، ونظم عِقْـدَ دُررِ الصحيحين وغـررَ الصِحاحِ من نثره ونظمه مفصّلاً»[3].

ومن ثنائه عليه شعراً قوله[4]:

وألّف تـاريخـاً همى جـودُ مُـزنـه	على علماء العصر كالغيثِ هاطلُ
وأودع سـر الجمـع في طيّ نشـره	ففاحـت بروضـاتِ العلـومِ المنادلُ

---

(١) النكتة، والنكات، لا يقصد منها ما هو دارج اليوم من أنها القول الذي يضحك، وانما هي «المسألة الدقيقة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر (المنجد/ ٨٣٦ مادة: نكت).

(٢) الفرا: حمار الوحش أو فتيه.

(٣) نفحة الريحانة جـ٤/٦٦٢. وقد أورد في الفقرة الأخيرة تورية أسماء عدد من مؤلفات كبار الأدباء من سابقيه.

(٤) المصدر نفسه/٦٦٨.

وأفصح عن فرقٍ، وجمعٍ، وهيئة به فزهت غدواته والأصائل
وأعرب عن أسمائهم وصفاتهم وأنسابهم والأخذ عمن يخالِلُ
وقد صرَّح الأثباتُ عن خبْره بما يُحدِّث عن صدق الذي هو قائلُ
ومن أعجب الأشياء صحة نقله ولم يَرَهُم طُراً فكيف التواصلُ
وقد حارت الأشياخ في حسن صنعه وكلٌّ لميثاق المودة حاملُ
ولاذتْ به أهلُ العروض لأنّه خبيرٌ بما قد دوّنته الأوائلُ
عليمٌ بأقسام الكلام مؤرِّخٌ أمينٌ شريفٌ صادق الوعد عادلُ
له شرف يسمو السماكين رفعةً وأوصاف صدق حار فيها المجادلُ
إمام له في كل علم مكانة بصحة إسنادٍ عن التثبت ناقلُ
وحسبك تحقيق ما أنا ذاكرٌ فمن مثله في الناس تروى المسائلُ

أما من قرظ كتاب «خلاصة الأثر» بعد وفاة «المحبي»، فكان «ابن شاشو» حيث قال في تقويمه: «صنّف تاريخاً لم يسبق إلى حسن تنميقه... لم يبق للكتب، قبله ذكراً، فكأنها بالنسبة إليه إذا عدت صفراً.. حوى جميع محاسنها»[١]. و«المرادي» في كتابه «سلك الدرر» ولكنه كان مقتضباً جداً، وغير مبالغ في ثنائه كما فعل «ابن شاشو»، فقد اكتفى بقوله: «ترجم فيه ستة آلاف، وهو مشهور»[٢].

إلا أن الكتاب، على ما يظهر، كان متداولاً بين مثقفي القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، بدليل إلحاح الشاعر «سعيد السمان» على والد المؤرخ «المرادي» بإعارته ذلك الكتاب، ورجائه عدم رفضه تلك الإعارة[٣].

(١) تراجم بعض أعيان دمشق/١٠٠.
(٢) جـ٤/٨٦.
(٣) المرادي: مطمع الواجد في ترجمة الوالد الماجد-مخطوطة مصورة من المتحف البريطاني تحت الرقم OR. 4050. Sch 5501 ص ١٣٧. ويقول في ذلك:

ذاك تقويم الكتاب بالنسبة لعصر « المحبي » وما بعده بقليل، أما إذا أريد تقويمه التاريخي بالنسبة لعصرنا، فإنه لتبين قيمته التاريخية العلمية، لا بد من السعي لتطبيق معايير المنهجية العلمية المعاصرة عليه، أي لا بد من السعي لتتبع خطوات تلك المنهجية خطوة خطوة، والتعرف بمدى ما يحققه الكتاب من قواعدها. ويمكن حصر تلك الخطوات بما يلي:

- موضوع الكتاب.
- المصادر المعتمدة.
- نقد المصادر والوقائع.
- تركيب الحقائق وتعليلها.
- الأسلوب اللغوي المتبع في عرض الوقائع.

أولاً: موضـــوع الكتاب: مـن المعـروف منهجياً أن من شروط الموضوع المختار للبحث أن يكون جديداً وطريفاً لا في عنوانه فحسب، وإنما في محتواه أيضاً، وأن يكون له مغزاه ومعناه بالنسبة لأهل عصره، وبالنسبـة للحقبة المدروسة نفسها. وقد يتوهم القارىء لعنوان كتاب « المحبي »، ولأول وهلة، بأن مؤلفه، باختياره موضوعه العام في « التراجم الطبقية لقرن من الزمن »، لم يكن مجدداً. إذ اتضح مما ذكر سابقاً عند التعريف بالكتاب، أن « مدرسة التراجم » كانت هي المدرسة التاريخية السائدة في زمن « المحبي » وقبله، وأن كثيرين كتبوا في ميدانها، فهو بالتالي، وفي ظاهر الأمر، لم يخرج عن التقليد المتعارف عليه في كتب التراجم. ولكن المدقق في تراجم « خلاصة الأثر » يرى أنها بمسحها لتراجم أعيان القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر

= أتيت حماك المسعود أرجو ... من الألطاف تاريخ المحبي
فانعم لي به فضلاً وحاشى ... جنابك أن يريع بليس قلبي
فإني كلما رددت طرفي ... به، أدعو لمالكه بقرب
إلى حين القدوم بكل خير ... بما تهوى لك الدنيا تلبّي

الميلادي، بكل امتداده الزمني، وبكل الامتداد المكاني للعالم الإسلامي، وبترجمته لأناس عاصرهم فيه، وعايش بعضهم، طرق باباً جديداً في التراجم لم يطرقه أحد قبله. وقد يقول قائل إن « النجم الغزي » قد سبقه إلى ترجمة أعيان جزء من هذا القرن، وهم أولئك الذين توفوا خلال الثلث الأول منه، أي حتى ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م، وذلك في كتابه الذي ذيّل به « الكواكب السائرة » وأطلق عليه اسم « لطف السمر وقطف الثمر في أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر»، ومثله أيضاً « الحسن البوريني » في كتابه « تراجم الأعيان»، ووالد «المحبي» نفسه في تاريخه الذي كان مصدراً لابنه، فكلاهما ترجم لعدد من أعيان النصف الأول من القرن الحادي عشر. وشبيه بالاثنين مؤرخون آخرون من اليمن وبلاد المغرب العربي، ترجموا هم الآخرون لأعيان أقطارهم خلال ذلك القرن أو خلال جزء منه. إلا أن ثلث القرن أو جزءاً منه يبقى هو ثلث القرن، وجزءاً منه، لا القرن كله، والترجمة لأهل قطر أو بضعة أقطار عربية وإسلامية ليست هي ترجمة لأعيان كليّة العالم الإسلامي، كما نهج « المحبي » في « خلاصة الأثر ». كما أن تلك التراجم التي تناولها من تلك المصادر لم يأخذها كما أتت في تلك الكتب، وإنما انتقى منها وجدّد، وأضاف، وعلّق عليها، ناهيك عن الجديدة التي جمعها.

وفي الواقع، يظهر « المحبي » مؤمناً إيماناً تاماً بضرورة جدة الموضوع في التأليف، ومدركاً لأهمية هذا الشرط فيه، لا في سعيه لتطبيقه عملياً فحسب في كتبه، وإنما في تعبيره عن هذا الأمر، في أكثر من مناسبة وموضع في مؤلفاته، أكان ذلك تصريحاً أم تلميحاً. ففي مقدمة كتابه « نفحة الريحانة » وصف جملة ما أورده فيها بقوله: «ورقَّمت من الكلام المُصرَّع، والإنشاء السلس المرصَّع، ما استنبطته من ذوات الصدر، وألمعت به كالقمر في ليلة البدر، فقراً ابتدعتها وسجعتها، ومعاني آداب اخترعتها وألمعتها. ولم أودع إلا ما حسن إيداعه، ولطف مساغه وإبداعه...» ويستطرد فيضيف: « وكنت عزمت على ألّا أترجِمَ أحداً ممن ترجمه (أي الخفاجي في ريحانة الألبا)، ثم عَدَلْت، لأني

رأيت ألسنة النقاد عن زَيْف بعض تراجمه مُتَرجمة، **فإنه وإن نوَّه بحزْب، إلا أنه قصّر في الإطراء بشعارهم، وإن أطنب في آخرين، إلا أنه لم يذكر عيون أشعارهم.. فذكرت من أغفله ذكراً شافياً، وأعدتُ ممّا فوّته قدراً كافياً»**[1].

وبنفس الروح السابقة المتطلعة للإبداع والتجديد، وعدم التكرار والتقليد، قال بيت الشعر التالي، وذلك في مقدمة نفحة الريحانة، وقد اقتبس معناه من الباخرزي، وقد أتى فيه، وهو يتكلم عن نفسه وفعله[2]:

فعل امرىء جدَّ جِدُّه   وما رأيه إلا في مفخرٍ يستجدّه

وإن ما قدم به كتابه «خلاصة الأثر» يؤيد هو الآخر إيمانه بالتجديد، حيث قال: «فاقتصرت منه (أي من الكثير الذي جمعه) على أخبار أهل المائة التي أنا فيها، وطرحت ما يخالفها من أخبار من تقدمها وينافيها، **حرصاً على جمع ما لم يُجْمع، وتقييد شيء ما قيل إلا ليُسمع**»[3].

وإذا كان ما أشير إليه سابقاً هو تعبير صريح عن لزوم التجديد في موضوعات التأليف، فإن مما ألمح إليه في هذا الباب كثير. فعند حديثه مثلاً عن شعر ابن السمان في كتابه «خلاصة الأثر»، أبدى رفضه لوضع قصيدتين لذلك الشاعر كان قد أوردهما في «نفحة الريحانة»، وعلّق على ذلك بقوله: «فلا نطيل هنا الكلام بهما، فإنا نذكر له هنا غيرهما، **وكل جديد له لذة**»[4].

كما أنه أورد قول محمد الشمس البابلي[5] وهو من علماء مصر الكبار في القرن الحادي عشر الهجري (توفي عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م) عن التأليف وشروطه، حيث قال: «لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة لا يمكن

---

(١) ص١٢.

(٢) ص٧.

(٣) جـ١/٣.

(٤) جـ٢/٢٧١ ترجمة (عبد الباقي السمان).

(٥) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٣٩-٤٢.

التأليف في غيرها، وهي: إما أن يؤلف في شيء لم يُسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أن يخلّ بشيء من معانيه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، أو شيء مفرق يجمعه»، وقد علق المحبي على تلك الشروط بقوله: «ويجمع ذلك قول بعضهم: **شرط المؤلف أن يخترع معنى أو يبتكر مبنى**»[1].

وإذا كان من الواضح أن موضوع كتاب المحبي التاريخي، عنواناً ومحتوى، موضوع جديد بالنسبة للتاريخ في عصره، فإنه كان أيضاً موضوعاً ذا مغزى ومعنى: فعرب ذلك العصر ومسلموه كانوا يحنّون لوحدة العالم الإسلامي، ولانتصاره على أعدائه من «الكفار» الأوروبيين، ويتلهفون لمعرفة أحواله بكلّيتها في كليته، مع ربطها بالماضي، أي بالجذور العميقة. فالقرن الحادي عشر الهجري، كما لوحظ كان حافلاً بأحداث جسام شتى، وبظروف اقتصادية، واجتماعية، وفكرية متنوعة، سعى «المحبي» لإبراز أهمها، ولم يأخذها بسطحيتها مثلما يفعل أحياناً بعض مؤرخي الحوليات، وإنما عمل في كثير من الأمور، ولا سيما الأدبية والاجتماعية، إلى ربطها مع الماضي، أو الرجوع فيها إلى ذلك الماضي.

ومن ثمّ يمكن القول إن «المحبي» في اختياره لموضوع كتابه التاريخي، قد أظهر إدراكاً عميقاً لمهمة المؤرخ، بانتقائه على شاكلة المؤرخين المنهجيين المعاصرين، قضية ذات مغزى ومعنى لعصره، وفي الوقت ذاته طرق دراسة جديدة، تتلخص في جمعه تراجم شخصيات هامة، من كل قطر من الأقطار العربية والإسلامية، كان لها دور في حياة ذلك العصر، وفي ميادينه المختلفة.

ثانياً - مصادر خلاصة الأثر: إن المدقق في كتاب «خلاصة الأثر» يلاحظ

---

(١) المصدر نفسه /٤١.

أن مؤرخه لم يأل جهداً ـ وشأنه في ذلك شأن عديد من المؤرخين العرب الفحول السابقين له، وشأن المؤرخين المنهجيين العلميين المعاصرين ـ في البحث عن مختلف المصادر لدراسة موضوعه، والإحاطة بجوانبه. وكان في ذلك بحاثة حقاً، وخبيراً مدققاً ومستقصياً، وأميناً لرسالة المؤرخ الأصيل في البحث عن الحقيقة من شتى مظانها. فعندما أعوزته تلك المصادر في موطنه دمشق مثلاً، وكان يترجم لأعيان الحجاز ومصر، فإنه شد الرحال إليهما ليحصل في المكان ذاته، ومباشرة على ما يريد، وليكون شاهد عيان، وبتماس لصيق مع البقعة التي ظهر فيها أولئك الرجال ولا بد من التأكيد في هذا المجال، أن معرفته باللغتين التركية والفارسية إلى جانب العربية، قد ساعدته على الرجوع إلى مصادر أوفر وأوفى.

وقد بين « المحبي » **مصادره** في مقدمة كتابه، على عادة المؤرخ العلمي المعاصر الذي يضع في مقدمة بحثه أو في نهايته، قائمة بالمصادر التي اعتمد عليها. ولقد صنفها في أربع مجموعات: **المؤلفات التاريخية، والمجاميع، والمكاتبات، والتلقيات من الأفواه**[1]. أي أنه ميّز بين نوعين رئيسيين بالمضمون المعاصر للمصدر: **الوثائق الكتابية، والرواية الشفوية**. ولم يقتصر في الوثائق الكتابية على ما أشار إليه في المقدمة من مؤلفات، وإنما استند في الواقع إلى بعض «**الوثائق الرسمية**» التي توافرت لديه، والتي أشرنا إليها سابقاً[2]، مما يدل على إدراكه لقيمة تلك الوثائق الرسمية في الدراسة التاريخية.

أما « المؤلفات التاريخية »، أو ذات الطابع التاريخي، ككتب التراجم مثلاً، وهي النوع الثاني من « الوثائق الكتابية »، بعد الرسمية، فقد استخدم عديداً منها. وتتمثل في مؤلفات معاصرة للتراجم التي قدمها، بل إن بعض مؤلفيها قد عايش « المحبي » نفسه. فأكثر مؤلفي مصادره كانوا ممن توفوا في

---

(١) جـ١/٣.

(٢) انظر ص١٨٧ من هذا البحث، والهوامش (٢ ـ ٤) فيها.

القرن الحادي عشر الهجري، وترجم لهم « المحبي » ذاته في كتابه، وأحاط بشخصياتهم وميولهم وفكرهم، بل ونقدهم. كما كان بعضهم ممن توفي بعده، أو في مطلع القرن الثاني عشر للهجرة، ومن ثمَّ فإنه لم يترجم لهم، وإن كان قد ترجم لفئة منهم في كتابه « نفحة الريحانة » وذيلها.

و« المؤلفات التاريخية » التي أوردها في مقدمة كتابه، مصادر له، هي:

١ ـ كتاب ذيل النجم الغزي وهو المعروف بـ«لطف السمر وقطف الثمر في الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر»، وقد ذيّل به النجم الغزي [١] على مؤلفه « الكواكب السائرة في مناقب أعيان المائة العاشرة ».

٢ ـ « طبقات الصوفية » للمناوي [٢]، وهو الكتاب المعروف بـ« الكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفية ».

٣ ـ « تاريخ الحسن البوريني » [٣]، ويقصد بذلك كتابه « تراجم الأعيان في أبناء الزمان ».

٤ ـ « ذيل تاريخ البوريني » لفضل الله المحبي [٤]، والد مؤرخنا.

٥ ـ « خبايا الزوايا »، و«ريحانة الألبا »، والكتابان للشهاب الخفاجي [٥].

٦ ـ « ذكرى حبيب » للبديعي [٦]. وقد قال عنه « المحبي »: « أحسن وأبدع، وأطال وأطنب، وأعرب عن لطافة تعبيره، وحلاوة ترصيفه إلا أنه لم

---

(١) أنظر حوله الحاشية (٣) من الصفحة (٢٧) من مقدمة هذه الدراسة، وخلاصة الأثر ج٤/ ١٨٩ ـ ٢٠٠.

(٢) هو محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري، من كبار علماء مصر الموسوعيين في القرنين العاشر والحادي عشر الهجري (٩٥٢ـ١٠٣١هـ/ ١٥٤٥ـ١٦٢٢م). له نحو ثمانين مصنفاً في مختلف المعارف.

أنظر حوله خلاصة الأثر جـ٢/٤١٢ـ٤١٦، والأعلام جـ٧/٧٥ـ٧٦.

(٣) أنظر حوله الحاشية (٤) من الصفحة (٢٧) من مقدمة هذه الدراسة، وخلاصة الأثر ج٢/ ٥١ ـ ٦٢.

(٤) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٢٧٧ـ٢٨٦.

(٥) انظر حوله الحاشية (٢) من الصفحة (٢٠) من مقدمة هذا البحث. وخلاصة الأثر ج١/ ٣٣١ ـ ٣٤٣.

(٦) هو يوسف المعروف بالبديعي. أديب دمشقي عاش في حلب وتوفي في عام ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م. له عدة مصنفات منها: «ذكرى حبيب» وقد نسجه على منوال: «ريحانة الألبا» للخفاجي. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ ٤/ ٥١٠ ـ ٥١١.

يساعده الحظ في شهرته، فلا أعلم له إلا نسخة في الروم عند أستاذي الشيخ محمد عزتي ونسخة عندي»(١).

٧ ـ « منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الآداب » لعبد البر الفيومي (٢). ويصفه « المحبي » فيقول عنه: « جعله على طريقة الريحانة، إلا أنه رتبه على حروف المعجم، وجمع فيه بين شعراء الريحانة وشعراء « المدائح » الذي ألفه « التقي الفارسكوري » (٣)، وزاد من عنده بعض متقدمين وبعض عصريين. وهو مجموع لطيف » (٤).

٨ ـ « ذيل محمد الشليّ المكي » (٥)، وهو المعروف باسم « السنا الباهر بتكميل النور السافر عن أخبار القرن العاشر » وقد ذيّل به على كتاب « النور السافر في أخبار القرن العاشر » للشيخ عبد القادر العيدروس (٦).

٩ ـ «المشرع الروي في أخبار آل أبي علوي» للشليّ المذكور أعلاه.

١٠ ـ « عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر» للمؤلف الشلي نفسه

---

(١) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٢) عبد البر بن عبد القادر الفيومي أحد الأدباء المصريين، تنقل بين مصر ودمشق وحلب، والقدس وبلاد الروم. توفي سنة ١٠٧١هـ/١٦٦١م. له تآليف كثيرة أشهرها كتابه المذكور أعلاه. أنظر حوله خلاصة الأثر جـ٢/٢٩١-٢٩٨.

(٣) هو محمد بن عمر الفارسكوري تقي الدين، من القضاة والأدباء، أصله من مصر وعاش في القسطنطنية، وتوفي في دمشق عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م. جمع المدائح التي مدح بها أستاذه شيخ الإسلام « يحيى بن زكريا » في بلاد العرب، أثناء تولي هذا الأخير القضاء في حلب ودمشق ومصر.

أنظر حوله خلاصة الأثر جـ٤/٨٢-٨٩.

(٤) جـ٢/٢٩٢

(٥) انظر حوله الهامش (١) من الصفحة (٢٨) من مقدمة هذا البحث. وخلاصة الأثر ج٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨، والأعلام ج٦/ ٢٨٦.

(٦) انظر ترجمته في الهامش (٢) من الصفحة (٢٨) من مقدمة هذا البحث. وخلاصة الأثر ج٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢، والأعلام ج٤/ ١٦٤.

وقد استخدمه « المحبي » في بعض التراجم ومنها ترجمة « عبد العزيز الزمزمي » [1] .

١١ ـ « تراجم منقولة من تاريخ ألفه « أحمد الصفيّ بن أبي الرجال اليمني » [2] ، وتاريخه المشار إليه هو: « مطلع البدور ومجمع البحور ».

وقد عرّفه « المحبي » بأنه « تاريخ حافل في سبعة مجلدات، وذكر فيه معظم علماء اليمن وأئمتها ورؤسائها » [3] . وقرظه في كتابه « نفحة الريحانة » فقال عنه: « وله التاريخ الذي أبدع فيه، وأغرب، وأطْرب بحسن تعبيراته جدّما أطرب. استكمل فيه الفروع والأصول، واستوفى الأجناس برمتها والأصول. يأخذ الحق ويعطيه، ويرمي الغرض فلا يُخطيه، وهو إلى ما يريد أقرب من حبل الوريد » [4] .

ويبدو أن «المحبي» لم يطلع عليه كله وإنما وقف على تراجم منه بخط صاحبه الأديب «مصطفى بن فتح الله» [5] نزيل مكة، تتعلق بأهل هذه المائة الحادية عشرة أعجبه «حسن أسلوبها ولطف تعبيراتها، فأدرجها في محلها»[6].

١٢ ـ «سلافة العصر في شعراء أهل العصر» لابن معصوم[7]، وهو كتاب آخر ذيّل على «ريحانة الألبا» للخفاجي.

---

(١) جـ٣/٤٢٧

(٢) أنظر حوله الحاشية (٥) من ص ٢٧ من مقدمة هذا البحث. وخلاصة الأثر جـ١/٢٢٠ـ٢٢١، والأعلام جـ١/١٣٥ والبدر الطالع جـ١/٥٩ـ٦١.

(٣) خلاصة الأثر جـ١/٢٢٠.

(٤) جـ٣/٤٨٥.

(٥) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ١/٤٦٨ـ٤٧٨، وسلك الدرر جـ٤/١٧٨. والجبرتي جـ١/٧١ـ٧٢، والأعلام جـ٨/١٤٠ وهو حموي الأصل قطن مكة، وسافر إلى اليمن، وتوفي بمكة عام ١١٢٣هـ/١٧١١م، وله كتاب « فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر » في ثلاثة مجلدات.

(٦) خلاصة الأثر جـ١/٢٢٠.

(٧) هو علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني الشهير بابن معصوم. أديب ولد بمكة، =

١٣ ـ « ذيل الشقائق النعمانية » وهو باللغة التركية، ومؤلفه هو « ابن نوعي » [(١)]، وقد ضمنه تراجم معظم علماء الدولة العثمانية ابتداء من انتهاء دولة السلطان سليمان، ورتبه طبقات على تراجم حتى عهد السلطان مراد فاتح بغداد. وهو ذيل لكتاب طاشكبري زاده [(٢)] المسمى «الشقائق النعمانية»، واسم الكتاب الكامل هو: «حدائق الحقائق في تكملة الشقائق » وقد امتدحه « المحبي » بقوله: « وقد أحسن الصنيع فيه وأجاد. وقد طالعته مراراً آخرها بمكة المشرفة، وجردت منه تراجم لزمني إثباتها في كتابي هذا، لكن فاتني منها حلاوة التعبير، لاختلاف اصطلاح اللغتين، على أني سعيت جهدي في مراعاة تأدياته » [(٣)].

١٤ ـ قطعة من « تاريخ مدين القوصوني» [(٤)] المصري، الذي ذكر فيه تراجم كبار العلماء من أهل القاهرة.

وقد يعلّق الباحث المعاصر على تلك المصادر الواردة في مقدمة « خلاصة الأثر » بأنها قليلة. وفي الحقيقة يبدو أن « المحبي » لم يذكر إلا الأساسي من المصادر، أي ذلك الذي اعتمد فيه على عدد كبير من التراجم،

= وأقام مدة بالهند، وهو متشيع. وتوفي في شيراز (١٠٥٢-١١١٩هـ/١٦٤٢-١٧٠٧م) له عدة مؤلفات ومنها رحلة من مكة إلى حيدر آباد أسماها « سلوة الغريب »، ومنها أيضاً « الدرجات الرفيعة في طبقات الإمامية من الشيعة » أنظر حوله: نفحة الريحانة جـ٤/١٨٧-١٩٦، والبدر الطالع جـ١/٤٢٨ والأعلام جـ٥/٦٤.

(١) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٢٦٣-٢٦٤. واسمه « محمد بن يحيى نوعي زاده » (٩٩١-١٠٤٤هـ/ ١٥٨٣-١٦٣٥م) ويلقب بـ« عطائي ». وانظر حوله أيضاً الأعلام جـ٨/١٢.

(٢) أنظر حوله حاشية (٤) من ص ١٢ من مقدمة هذه الدراسة. والبوريني جـ١/٧٤-٧٦، والأعلام جـ١/٢٤١.

(٣) خلاصة الأثر جـ٤/٢٦٣.

(٤) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٣٣٣-٣٣٤. وهو مدين بن عبد الرحمن القوصوني. ويقول « المحبي » بأنه لم يعثر له على تاريخ وفاة، على الرغم من سعيه، إلا أن ما تحقق لديه من خبره أنه كان في سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٥م موجوداً في الأحياء كما يعلم ذلك من تاريخه الذي وضعه. ولا يذكر « المحبي » اسم تاريخه. وكان رئيس الأطباء في مصر وله باع في الأدب والتاريخ.

ويظهر هذا واضحاً للمتمعن في قراءة تراجمه، حيث يشير المؤرخ في عديد منها إلى مصدر أو مصادر لم يأت على ذكرها في مقدمته. ومن ثم فإنه يمكن أن يضاف إلى تلك المصادر من المؤلفات التاريخية الواردة آنفاً مجموعة أخرى، من أهمها:

١٥ - تاريخ علي الطبري [(١)]. وقد وصف «المحبي» ذلك التاريخ بقوله: «التاريخ الذي جمع فأوعى، وأقرَّبه به الناظر عيناً، وشنّف سمعاً، المتضمن من أخبار البلد الأمين، المسمى بـ«الأرج المسكي والتاريخ المكي» وهو تاريخ حافل، متضمن لأخبار الحرم والكعبة المشرفة والبيت الحرام، وما فيه من منابر، وقباب وأساطين، وغير ذلك مما يتعلق بمكة، وتراجم الخلفاء والملوك من زمن الصديق رضي الله تعالى عنه إلى زمنه» [(٢)].

١٦ - «تحفة الكرام بأخبار عمارة السقف والباب لبيت الله الحرام» للمؤرخ أعلاه [(٣)].

١٧ - «تاريخ البكري» الذي ألفه في الخلفاء والسلاطين وذيله بنواب مصر وقضاتها [(٤)].

---

(١) هو علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري، من علماء مكة ومفتيّها. له عدة تصانيف. توفي ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/١٦١ - ١٦٦، والأعلام جـ٥/١١٥ - ١١٦.

(٢) خلاصة الأثر جـ٣/١٦١، وقد استند إليه «المحبي» في ترجمة «الشيخ خالد الجعفري المغربي» جـ٢/١٢٩ (على سبيل المثال فقط).

(٣) اعتمده «المحبي» في الحديث عن عمارة البيت الحرام في عهد السلطان مراد الثالث، خلاصة الأثر جـ٤/٣٤١.

(٤) لا يوضح «المحبي» شيئاً عن «البكري» صاحب التاريخ، إلا أنه من المؤكد أن صاحب التاريخ هو «محمد بن أبي سرور البكري الصديقي» المشار اليه في الهامش (٣) من الصفحة (٢٠) من مقدمة هذه الدراسة. أما كتاب تاريخه المذكور فهو على الأغلب «عيون الأخبار ونزهة الأبصار» الذي يسميه «البكري» بتاريخه الكبير، ويضم (١٦) مقصداً، وينهيه بتاريخ الدولة العثمانية حتى عام ١٠٣٢هـ. ومنه نسخة في الجزائر لدى «الشيخ المهدي البوعبدلي» (أنظر بحثه في الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي المنعقد في ورجلة عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ومنه نسخة أيضاً في مكتبة برلين تحت=

١٨ ـ «تاريخ عمر العرضي»[١] ،«وقد ذكر فيه علماء اجتمع بهم، وأخذ عنهم، وصحبهم» ويضيف «المحبي» إلى ذلك قوله: «وقفت عليه وجردت منه تراجم أناس منهم أبو الوفاء الحموي»[٢].

١٩ ـ تاريخ « معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب» لأبي الوفا بن عمر العرضي [٣]. وقد «بيّن « المحبي » أنه رأى منه قطعة ونقل منها بعض تراجم لزمنه ذكرها » [٤].

٢٠ ـ تاريخ محمد بن مصطفى الشهير بـ كاني الرومي. وتاريخه كما وصفه « المحبي » هو باسم « بغية الخاطر ونزهة الناظر »، وقد جعله برسم الوزير « محمود باشا »، وابتدأ منه من أخبار النبي محمد ﷺ وأحواله من زمن ميلاده لهجرته، ووصل فيه إلى سنة ثلاث وثلاثين وألف. وذكر فيه الأئمة الدعاة من الزيدية وغيرهم، وملوك آل عثمان وحكامهم في اليمن[٥]. ولم يذكر « المحبي » تاريخ وفاته.

= رقم MSS 9473we 351 اعتمده المحبي مصدراً في ترجمة والي اليمن ومصر «جعفر باشا» (ج١/٤٨٨)، وفي ترجمة السلطان مراد الثالث (ج٤/٣٤٣).

(١) هو عمر بن عبد الوهاب بن إبراهيم العرضي (٩٥٠ـ١٠٢٤هـ/ ١٥٤٣ـ١٦١٥م). مفتي حلب ومحدثها، وفقيهها له عدة تصانيف، منها ذلك التاريخ. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٢١٥، والطباخ: إعلام النبلاء جـ٦/٢٠٠ وبروكلمان جـ٢/٤٤٨ (٣٤١)، والملحق الثاني/ ٤٧٠.

(٢) لم يشر « المحبي » صراحة إلى تأليف عمر العرضي تاريخاً في ترجمته له، إلا أنه ذكر بأنه ترجم لأستاذه «محمدبن مسلم» في « تاريخه ». وأورد العبارة المذكورة أعلاه في ترجمة « أبي الوفاء الحموي » جـ١/١٥٤.

(٣) هو أبو الوفاء بن عمر العرضي السالف الذكر. مفتي الشافعية بحلب (٩٩٣ـ١٠٧١هـ/ ١٥٨٥ـ١٦٦٠). له بعض تصانيف منها كتاب تراجمه المذكور أعلاه. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ١/١٤٨ـ١٥٢، إعلام النبلاء جـ٦/٣٠٨.
الأعلام: جـ٧/٢٠٨، بروكلمان جـ٢/٤١٩ (٣٢٢).

(٤) خلاصة الأثر جـ١/١٤٩. وقد استند عليه في بعض تراجم منها ترجمة « أبو الوفا السعدي الحلبي » جـ١/١٥٢.

(٥) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٢٢٥ـ٢٢٦، والأعلام جـ٧/٣٢٠، وبروكلمان الملحق الثاني/٥٥٠. وقد اعتبر الأعلام أن وفاته كانت نحو ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، ولعله استند إلى بعض كتبه.
=

٢١ ـ تراجم عبد الكريم سنان [1] أحد موالي الروم ومنشئيهم. ويقول « المحبي » عن تلك التراجم بأن صاحبها « ترجم بها بعض الوزراء، ومشايخ الإسلام، وبعض الموالي، والكتاب، والعلماء، وكلها لا تنوف على العشرين ترجمة. وهي مجموعة عندي في دفتر من أماكن متفرقة، وقد ذكرت منها في محالها بعضاً » [2].

٢٢ ـ « مواهب البر الرؤوف بمناقب الشيخ معروف » لمحمد بن عبد الرحمن بن سراج الحضرمي [3] الملقب بجمال الدين الحضرمي. وهو مؤلف من مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة. وقد جعل الخاتمة في مناقب الشيخ « أبي بكر بن سالم»، وسمى هذه الخاتمة وحدها بـ«بلوغ الظفر والمغانم في الشيخ أبي بكر بن سالم». وجعل خاتمة الخاتمة في تراجم بعض الأعيان، وسماها «بالدر الفاخر في تراجم أعيان القرن العاشر»[4].

٢٣ ـ « طبقات الحنفية » لتقي الدين التميمي [5]. ويذكر « المحبي » بأن تلك الطبقات هي « أحسن ما له من تآليف» وقد وقف مؤرخنا على حصة

= وقد اعتمد « المحبي » التاريخ المشار إليه في ترجمة « جعفر باشا » صاحب اليمن (جـ١/٤٨٥)، وفي ترجمة « محمد باشا » وولي اليمن أيضاً (جـ٤/٢٩٦).

(١) تركي مستعرب. تعلم بمصر ووليٌ قضاء حلب سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م، فقضاء القاهرة. وعمل منشئاً في الديوان، وعاش بين عامي ٩٧٠ـ١٠٣٨هـ/ ١٥٦٢ـ١٦٢٨م.
أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٣ـ٨، والأعلام جـ٤/١٧٧، وبروكلمان جـ٢/٣٧٥.

(٢) خلاصة الأثر جـ٣/٤

(٣) من فقهاء الشافعية في حضرموت، توفي ١٠١٩هـ/١٦١٠م. عمل في القضاء، ورحل إلى الهند. له بعض تصانيف. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر، جـ٣/٤٩٢، والأعلام جـ٧/٦٩.

(٤) خلاصة الأثر جـ٣/٤٩٢. وقد اعتمد المحبي هذا المصدر في ترجمة « أحمد بن عبد الرحمن الحضرمي » أخي المؤلف (جـ١/٢٣٣).

(٥) أصله من غزة، كان عالماً وأديباً، ورحّاله، عمل في القضاء. توفي في مصر في ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م بعد أن أقام فترة في بلاد الروم. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ١/٤٧٩ـ٤٨٠، والأعلام جـ٢/٦٨.

منها، وقد جمع فيها جملة من علماء الروم وعظمائها وأكابر سراتها ورؤسائها [1].

٢٤ ـ «الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين على الضروري من علم الدين» لمحمد بن أحمد بن محمد الشهير بميارة[2] وقد استخدمه «المحبي» في ترجمة «عبد الواحد بن عاشر الفاسي»، إذ أن الأخير هو أستاذ الأول[3].

٢٥ ـ «الأنفاس اليمنية في الدولة المحمدية» للسيد روح الله عيسى بن لطف الله [4]. وقد استخدمه «المحبي» في ترجمة «الإمام القاسم» إمام اليمن [5].

٢٦ ـ «ترويح المشوق في تلويح البروق» للسيد أحمد بن الحسين بن حميد الدين [6]. وقد قال «المحبي» عنه في «نفحة الريحانة» بأن صاحبه ذكر فيه من نُخب الأشعار ما هو ألذ من نظر العاشق في وجه

---

(١) خلاصة الأثر جـ١/٤٧٩. وقد رجع المحبي إلى هذا الكتاب في ترجمة المولى (أسعد بن حسن جان) جـ١/٣٩٨.

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد ميارة (٩٩٩-١٠٧٢هـ/ ١٥٩٠-١٦٦٢م) فقيه مالكي من أهل فاس.
أنظر ترجمته في الإفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. مطبوع على الحجر في المغرب. دون مكان أو تاريخ/١٤٠. والأعلام ج٦/٢٣٨.

(٣) خلاصة الأثر جـ٣/٩٦.

(٤) هو حفيد الإمام المطهَّر بن الإمام يحيى شرف الدين إمام اليمن. كان أديباً، وشديد الاطلاع على التاريخ وله كتاب «روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح»، ويقول عنه «المحبي» بأنه «صنفه في الظاهر للأروام، وأفاد فيه أيام سلفه (جـ٣/٢٣٦). خدم الإمام القاسم إمام اليمن وتوفي عام ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م.
أنظر ترجمته في البدر الطالع جـ١/٥١٦، وخلاصة الأثر جـ٣/٢٣٦-٢٣٩، ونفحة الريحانة جـ٣/٣٢٦-٣٢٩.

(٥) خلاصة الأثر جـ٣/٢٩٣.

(٦) هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن حميد الدين بن المطهَّر بن الإمام يحيى شرف الدين اليمني. من أشراف اليمن وأدبائها. وقد توفي عام ١٠٨٠هـ/١٦٦٩. أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ٣/٣٣١.

المعشوق » [1] . وقد اقتبس منه مؤرخنا بعضاً من ترجمة « عيسى بن لطف الله » [2] .

٢٧ ـ « تحفة الدهر في نسب الأشراف بني بحر، ونسب من حقق نسبه وسيرته من أهل العصر ». لمحمد بن طاهر البحر [3]. وقد استند إليه « المحبي » في ترجمة « علي بن إبراهيم بن عليان » اليمني، وفي ترجمة « عمر القديمي » [4].

٢٨ ـ « الأمم لإيقاظ الهمم » لإبراهيم بن حسن الكردي الكوراني [5]. وهو في ترجمة المشايخ الذين روى عنهم.

٢٩ ـ « لطائف الأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » لمحمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد الاسحاقي » [6].

٣٠ ـ« نصر من الله وفتح قريب » للسيد « محمد كبريت » [7]، وفيه تراجم بعض فضلاء المدينة.

٣١ ـ « الجواهر الثمينة في محاسن المدينة » لمحمد كبريت السالف الذكر أيضاً.

---

(١) جـ٣/٣٣١.

(٢) خلاصة الأثر جـ٣/٢٣٨.

(٣) أحد الأشراف اليمنيين العلماء، توفي عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٤٧٨.

(٤) أنظر على التوالي جـ٣/١٢٨، جـ٣/١٠٧.

(٥) أنظر هامش (٥) من الصفحة (١١٥) من هذه الدراسة، والمتن المرتبط بها، وص ١١٦. وقد استخدم «المحبي» هذا المصدر في ترجمة «السيد أبو بكر بن هداية الله الكوراني» المشهور «بالمصنف». ج١/١١٠.

(٦) مؤرخ وأديب مصري. ترجم له المحبي تحت اسم « عبد الباقي الاسحاقي » جـ٢/٢٨٩ ونسب له تاريخاً دون ذكر اسم ذلك التاريخ. إلا أنه أورد اسم ذلك التاريخ كما دوّن أعلاه عند ترجمته « للسلطان أحمد العثماني » جـ١/٢٩٠ وأسماه كما أتى في المتن. وهناك اختلاف حول الاسم وتاريخ الوفاة. أنظر ذلك في الأعلام جـ٧/١٢٥. وإن كان قد أدرج تاريخ وفاته كما أتى بها «المحبي» بعد ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م.

(٧) هو محمد كبريت ابن عبد الله بن محمد، من أشراف المدينة المنورة ومن علمائها وأدبائها (١٠١٢ـ١٠٧٠هـ/ ١٦٠٣ـ١٦٦٠م) قام برحلة إلى بلاد الروم سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م، وألّف فيها « رحلة الشتاء والصيف »، وزار دمشق والقاهرة. له عدة تصانيف. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٢٨ـ٣١، والأعلام جـ٧/١١٨.

وقد اعتمد « المحبي » المصدرين في ترجمته لـ« فتح الله البيلوني » [1].

٣٢ ـ تاريخ « مصطفى بن فتح الله [2]. ولا يسميه المحبيّ، وإنما يقول عنه في « نفحة الريحانة »: « سال فيه من طبعه معينه، ولم أظفر منه بالعيان. فلما رأيته تفتح لي في حينه صدق البيان. ورأيت جمعاً يجمع من دبّ ودرج حتى يقول من رآه: حدّث عن البحر ولا حرج. ماشيت من ترتيب غريب، وتطريب من بنان أريب، إلى جزالة مشرقة بحلاوة، وسهولة متدفقة الطلاوة. إذا قال لم يترك مقالاً لقائل. ونفسه فيه طويل إلا أنه لا يخلو من طائل. وهو بسبب سعة إطلاعه وشدة قيامه بالطريقة، واضطلاعه، لا يقتصر على ما ينبغي، ولا يمنع من الذكر المبتغي » [3].

وقد أخذ «المحبي» منه كثيراً نسبياً، ويبدو أن كتاب التاريخ هذا غير «المجموع» الذي كان للمؤلف نفسه. وكتاب التاريخ المشار إليه آنفاً يدعى «فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر» وهو بثلاثة مجلدات، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية تحت الرقم (١٠٩٣) تاريخ [4].

٣٣ ـ « الزهر الباسم من روض الأستاذ حاتم » لعبد القادر العيدروس [5].

وقد بيّن « المحبي » بأن المؤرخ العيدروس لم يورد هذه الرسالة ضمن مؤلفاته عندما تحدث عن نفسه في كتابه « النور السافر عن أخبار القرن العاشر »، وإنما أوردها « الشلّي ». وهي شرح رسالة من السيد « حاتم الأهدل » إليه وقد اعتمدها « المحبي » عند ترجمته لهذا الأخير [6].

---

(١) خلاصة الأثر جـ٣/ ٢٥٥.

(٢) أنظر هامش (٤) من الصفحة (١١٧) من هذه الدراسة ومتنه.

(٣) نفحة الريحانة جـ١/ ٤٦٩.

(٤) الأعلام جـ٨/ ١٤٠.

(٥) أنظر الحاشية (٢) من الصفحة (٢٨) من مقدمة هذه الدراسة. وانظر خلاصة الأثر ج٢/ ٤٤٠، والأعلام ج٤/ ١٦٤.

(٦) خلاصة الأثر ج١/ ٤٩٦.

٣٤ ـ مجموعة متفرقة من التراجم عثر عليها « المحبي » عند أصحابها أثناء استقصائه لمصادره، ومن هذه التراجم على سبيل المثال: ترجمة « أحمد بن مسعود » أحد أشراف مكة، التي خصّه بها « محمد بن العرضي الحلبي »[١] وهي كما وصفها « المحبي » من محاسن المقول، ولذا فإنه ذكرها تتمة للفائدة[٢]. وكذلك « التراجم » التي أعدها الإمام المحدث الشمس محمد الداوودي المقدسي ثم الدمشقي[٣] لبعض معاصريه وألحقها ببعض وقائع وقعت في الشام[٤].

ومن الواضح أن المؤلفات التاريخية، أو التاريخية ـ الأدبية المذكورة آنفاً، تدور كلها حول القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، أما ما يخص أحداث قبل ذلك القرن، أو تراجم تطرق إليها من تلك الحقبة، فقد عاد فيها إلى عديد من أمهات الكتب التاريخية العربية، التي كان يشير إليها هنا وهناك في تراجمه، ككتاب «الكواكب السائرة» للنجم الغزي، و«در الحبب» لرضي الدين الحنبلي، و«النور السافر» لعبد القادر العيدروس، و«الدرر الكامنة» لابن حجر العسقلاني[٥]، وكتب السيوطي[٦]

(١) هو أخو المؤرخ « أبو الوفاء العرضي »، وابن عمر بن عبد الوهاب » ولقد توفي مع أخيه في العام نفسة وهو ١٠٧١هـ/١٦٦١م. وقد عمل مفتياً للأحناف في حلب ومدرساً. وعاش فترة في القسطنطينية. كان أديباً شاعراً وكان المحبي معجباً جداً به. أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/٨٩ـ١٠٢.

(٢) خلاصة الأثر جـ١/٣٦٠.

(٣) محدّث وفقيه أصله من القدس ثم أقام في دمشق، ودرّس بالجامع الأموي، ومدارس أخرى، عاش بين عامي (٩٤٢ ـ ١٠٠٦هـ/١٥٣٩ ـ ١٥٩٨م). أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/١٤٥ ـ ١٥٢، وفي لطف السمر جـ١/١٤ ـ ٢٥، ولم يرد في ترجمته أنه ألف تراجم ما.

(٤) خلاصة الأثر جـ١/٤٨٩ـ٤٩٠، ترجمة (جمال الدين العجمي القدسي).

(٥) هو أحمد بن علي؛ أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة (٧٧٣ـ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢ـ١٤٤٩م) رحل إلى الحجاز واليمن. ولي قضاء مصر مرات. له تصانيف عديدة، من أشهرها: «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » أنظر حوله، ومصادر حياته: الأعلام جـ١/١٧٣ـ١٧٤.

(٦) هو عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي. عالم ومؤرخ وأديب. له ما يزيد عن

و«السخاوي»[1]، و«المقريزي»[2]، و«ابن الأثير»[3]، و«أبي الفدا»[4]، وعمر بن فهد[5]، وعبد العزيز بن عمر بن فهد المكي[6]،

= (٦٠٠) مصنف عاش بين (٨٤٩ـ٩١١هـ/ ١٤٤٥ـ١٥٠٥م) من مؤلفاته: تاريخ الخلفاء، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، والشماريخ في علم التاريخ أنظر حوله: الأعلام جـ٤/٧١ـ٧٣، والكواكب السائرة للغزي جـ١/٢٢٦، وشذرات الذهب جـ٨/٥١.

(١) هو محمد بن عبد الرحمن، مؤرخ وعالم بالحديث والتفسير والأدب. مصري، توفي في المدينة (٨٣١ـ٩٠٢هـ/ ١٤٢٧ـ١٤٩٧م)صنف زهاء مئتي كتاب أشهرها « الضوء اللامع في أهل القرن التاسع »، و«الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ».
أنظر حوله: الضوء اللامع، جـ٨/٢ـ٣٢ ـ الكواكب السائرة جـ١/٥٣، شذرات الذهب جـ٨/١٥ ـ الأعلام جـ٧/٦٧ـ٦٨.

(٢) هو أحمد بن علي، مؤرخ مصر، وأصله من بعلبك. كان من علماء عصره (٧٦٦ـ٨٤٥هـ/ ١٣٦٥ـ١٤٤١م)له مؤلفات عديدة وهامة أشهرها: « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » (خطط المقريزي). و«اتعاظ الحنفاء في أخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ».
أنظر حوله: الأعلام جـ ١/١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) هو علي بن محمد الشيباني الجزري. مؤرخ وإمام. ولد في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل، وتوفي بها. (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ/ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م). له عدة تصانيف منها: الكامل، وأسد الغابة في معرفة الصحابة.
أنظر حوله: الأعلام جـ ٥/١٥٣.

(٤) هو إسماعيل بن علي، الملك المؤيد الأيوبي صاحب حماة. مؤرخ وجغرافي. له كتاب « المختصر في أخبار البشر » وله « تقويم البلدان»، ومصنفات أخرى، عاش بين (٦٧٢ـ٧٣٢هـ/ ١٢٧٣ـ١٣٣١م).
أنظر حوله: الدرر الكامنة جـ١/٣٧١، والأعلام. جـ١/٣١٧.

(٥) هو عمر بن فهد القرشي الهاشمي المكي (٨١٢ـ٨٨٥هـ/ ١٤٠٩ـ١٤٨٠م) مؤرخ من بيت علم، ميلاده ووفاته بمكة، من كتبه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى » و« نور العيون بما تفرق من الفنون » أنظر حوله البدر الطالع جـ١/٥١٢، والضوء اللامع جـ٦/١٢٦ـ١٣١، والأعلام جـ٥/٢٢٥. والدراسة المعاصرة التي قدمها « ناصر بن سعد الرشيد » حول « بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة » في « دراسات مصادر تاريخ الجزيرة العربية ». الرياض ١٩٧٧/١٣٩٥ جـ٢/٦٩ـ٩٠. وقد استخدم « المحبي » تذكرة « نور العيون » في ترجمة « عبد القادر الطبري » جـ٢/٤٦٢.

(٦) إنه ابن المؤرخ السابق (٨٥٠ـ٩٢٠هـ/ ١٤٤٧ـ١٥١٥م). وهو مؤرخ وعالم بالحديث من أهل مكة. له عدة مصنفات منها « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام » و«بلوغ القرى لذيل

والإمـام الشرجـي[1]، وابـن خلكان[2]، والصلاح الصفدي[3]، وغيرهم كثير من فحول المؤرخين السابقين للقرن الحادي عشر، ممن يمكن تتبعهم في متن كل ترجمة.

والزمرة الثالثة من « المصادر الكتابية » التي اعتمدها المحبي في تأليف كتـابه، بعـد الوثـائق الرسميـة، والمؤلفات التـاريخية المتنـوعة، مـا أسمـاه بـ« المجاميع ». وهي مجموعات مـدونة من الأخبـار، واللطائف والتراجم، والأشعار، وغير ذلك من أمور، جمعها أصحابها خلال قراءاتهم المتنوعة. ومن هذه « المجاميع » ما عيّن « المحبي » أصحابها، ومنها ما أغفل الإشارة إليه. ومن المجاميع التي استند إليها والمعروفة الصاحب:

١ ـ مجمـوع الأديب عبـد الكـريم الـطيـراني أو الـطاراني البعـلي (المتـوفى ١٠٤١هـ/١٦٣٢م) [4] ، ويبدو أنه كان له أكثر من مجموع بدليل قول

= اتحاف الورى » الذي ذيّل به على كتاب أبيه السالف الذكر. ويبدو أن هذا الكتاب الأخير هو الذي عناه « المحبي » عندما أشار إلى « ذيل ابن فهد » (جـ١/٤٥٧. ترجمة القاضي تاج الدين بن يعقوب).
أنظر حوله الضوء اللامع جـ٤/٢٢٤، الكواكب السائرة جـ١/٢٣٨، وشذرات الـذهب جـ٨/١٠٠ والأعلام جـ٤/١٤٩.

(١) هـو أحمـد بن أحمـد الـزبيـدي الشرجي، محـدث اليمن في عصـره (٨١٢ـ٨٩٣هـ/ ١٤١٠ـ١٤٨٨م).من مؤلفاته: « طبقات الخواص في سير أولياء اليمن ». وقـد استخدمـه « المحبي » في ترجمة « الشيخ إبراهيم بن جعمـان اليمني » جـ١/٢٢ أنظر الضـوء اللامـع جـ١/٢١٤. الأعلام جـ١/٨٧.

(٢) أحمد بن محمد البرمكي الإربلّي أبو العباس. المؤرخ الحجة (٦٠٨ـ٦٨١هـ/ ١٢١١ـ١٢٨٢م) مؤلفه الكبير هو « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ». عمل قاضياً في مصر ودمشق. وتوفي في دمشق. أنظر حوله: مقدمة وفيات الأعيان ـ الأعلام جـ١/٢١٢.

(٣) هو خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي (٦٩٦ـ٧٦٤هـ/ ١٢٩٦ـ١٣٦٣م) مؤرخ وأديب تولى ديوان الانشاء في مصر وحلب. و«توفي بدمشق. له زهاء مئتي مصنف. منها الوافي بالوفيات « والتذكرة » وإلى الأخيرة أشار « المحبي » في ترجمته « لحسين صاري باشا » عندما تحدث عن ماء السمرمر. ج٢/١٢٥.
أنظر حوله الدرر الكامنة حـ٢/٨٧ـ الأعلام جـ٢/٣٦٤ـ٣٦٥.

(٤) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/١٠.

« المحبي »: « قرأت بخط الأديب عبد الكريم الطيراني في بعض مجاميعه » [1]، وفي ترجمة أخرى يقول: « في مجموع ترجم فيه بعض من أدركهم من العلماء » [2].

٢ ـ مجاميع مصطفى بن فتح الله. وقد قال عنها في « نفحة الريحانة »: « وقد أوقعني ـ أي صاحبها ـ على مجاميع بخطه، فاقتطفت منها ما حلا وطاب » [3]. وقد أخذ منها بعض التراجم كترجمة « الحسن بن أحمد الحيمي اليمني » و« الحسين اليمني » [4] وغيرها.

٣ ـ مجموع بخط « علي بن بجع » [5] المتوفى ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م، وقد قال عنه « فيه كل ذخيرة من نفائس الأدب ومحاسنه » [6].

٤ ـ مجاميع « القاضي محمد الأكمل » المتوفى ١٠١١هـ/١٦٠٢م [7]. وقد قال عنها: « ورأيت بخطه مجاميع كثيرة، ونقلت منها أشياء مستظرفة » [8].

٥ ـ مجموع عبد الحق المرزناتي المتوفى ١٠٧٠هـ/١٦٦٠ [9]، وقد وصفه بقوله: « ورأيت بخطه مجموعاً فيه كل معنى نادر، وحكاية مستلذة » [10].

٦ ـ مجموع محمد المناشيري المتوفى ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م [11]. ويبلغ ستين كراساً جمع فيه كل غريبة، ووقف عليه بعض الظرفاء، فكتب عليه « زنبيل

(١) خلاصة الأثر جـ١/٢٠٨، ترجمة (الشيخ أحمد القادري).
(٢) المصدر نفسه جـ٣/٦٥ ترجمة (عبد الله بن محمد المصري).
(٣) جـ١/٤٦٩.
(٤) جـ٢/١٦، جـ٢/٩٩.
(٥) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/١٤٦ـ١٤٧.
(٦) المصدر نفسه /١٤٧.
(٧) أنظر ترجمته في جـ٣/٣١٥. وللقاضي أكمل « كتاب تاريخ ترجم فيه معاصريه » إلا أن « المحبي » لم يشر لاستخدامه له.
(٨) المصدر نفسه /٣١٥.
(٩) أنظر ترجمته في جـ٢/٣١٦ـ٣١٨.
(١٠) المصدر نفسه /٣١٦.
(١١) أنظر ترجمته في جـ٤/٢٠٠ـ٢٠١.

الأعمال » فلما رأى الكتابة كتب تحتها الصالحة إن شاء الله تعالى » [1] .

٧ ـ مجموع محمد بن نعمان الايجي الدمشقي [2] وقد عرف بأنه كتب كتباً كثيرة وحواشي عديدة. وهذا المجموع ذكر فيه بعض وفيات. وقد اعتمده « المحبي » في ترجمة « جار الله ابن أبي اللطف الحصكفي» [3] .

أما المجاميع التي لم يشر إلى أسماء أصحابها فقد أتى على ذكر الكثير منها في تراجمه مكتفياً بالقول مثلاً: « ذكره بعض فضلاء مصر في جمعيته » [4] ، «ووقفت وأنا بالروم على مجموع بخط بعض الأفاضل لا يحضرني اسمه، أنشأ فيه تواريخ آل عثمان شعراً، ويستخرج التاريخ بطريق التعمية » [5] . « وعثرت بنبذ من أشعاره البهية النقية في بعض المجاميع » [6] ، وغيرها من نماذج.

ويمكن أن يضاف إلى تلك المجاميع المجهولة الهوية « ما رآه المحبي في بعض الأوراق» دون بيان صاحبها أو نوعها، وإن كانت أمثلة ذلك ليست بالكثيرة[7].

---

(١) المصدر نفسه /٢٠١.

(٢) أنظر ترجمته في جـ٤/٢٤٨ـ٢٤٩.

(٣) جـ١/٤٨١.

(٤) جـ١/١٨٦ ترجمة (أحمد السلموني).

(٥) جـ١/٢٨٥ ترجمة (السلطان أحمد). أما « تاريخ التعمية» فيكون بذكر تاريخ ولادة، أو وفاة، أو جلوس على العرش، أو أي تاريخ آخر، على شكل لغز حسابي. مثال على ذلك ما أورده « المحبي » عن تاريخ جلوس « السلطان أحمد » عام ١٠١٢هـ، وقد استقاه من ذلك المجموع، فقد قال فيه:

سلطاننا أحمد عزّت ولايتهُ ... تاريخها في اسمه للناس إن حَسبوا
أعداد مضروبه اضرب في الأصول وفي ... ثانيه رابعه يحصل لك الأربُ

(٦) جـ٣/٢٧٣. ترجمة (فضل الله العمادي).

(٧) أنظر على سبيل المثال جـ١/٣٤ ترجمة (إبراهيم الصمادي الواعظ)، وجـ١/١٦١ ترجمة (أحمد قعود) العالم المصري حيث يقول: « هكذا رأيته بخط بعض المصريين »، وجـ٣/١٢٤، ترجمة (علي القبردي) العالم الدمشقي حيث يقول: « على ما رأيته بخط بعض الفضلاء ».

ويمكن أن يلحق أيضاً بزمرة المجاميع المعلومة الصاحب، ما قرأه « المحبي » هنا وهناك في أوراق متفرقة لأناس معروفين. كقوله مثلاً في ترجمة « عبد القادر بن ميمي البصري الشاعر »[1]: « رأيت ترجمته الذي ترجمه بها في التأليف الذي أراد « عبد الله بن الحجازي الحلبي [2]، أن يذيل به على (الريحانة)». أو كقوله أيضاً « قرأت بخطه نقلاً عن خط والده أن مولده. . . » خلال ترجمته « لإبراهيم بن كسبائي » [3].

وقد يكون من أهمها ما أخذه من كتابات شخصية دمشقية أدبية لم يعثر لها على ترجمة، وهي شخصية « إبراهيم رامي » فقد ورد هذا الاسم في بضعة مواقع، كقوله مثلاً في « ترجمة حسن الأعوج »[4]: « رأيت بخط الأديب «إبراهيم رامي» كثيراً من أشعاره»، «ومع شهرته التامة وأدبه الغض لم يذكره أحد من المؤرخين ولم أظفر بشيء من خبره إلا في وريقات بخط إبراهيم رامي»[5]. وورد اسمه أيضاً في ترجمة السلطان «مراد الرابع» حيث قال «ولقد رأيت الواقعة بخط الأديب رامي الدمشقي»[6].

أما الزمرة الرابعة من الوثائق الكتابية التي اعتمدها « المحبي » مصادر له، والتي أشار إليها في «مقدمة» كتابه، هي «المكاتبات». فقد أجرى مراسلات مع أصدقائه من العلماء والأدباء البعيدين عنه مكاناً، يسألهم فيها عن معلومات لبعض الشخصيات التي يترجم لها، للتأكد من الحوادث، أو تواريخ الوفيات، أو مجموع الأخبار. وقد تكون هذه المراسلات عفوية، لا يقصد منها السؤال المباشر، وإنما هي رسائل عادية متبادلة بين زملاء وأصدقاء ولكنها تتضمن معلومات إخبارية.

---

(١) جـ٢/٤٦٩.
(٢) أنظر ترجمته في جـ٣/٧٠ـ٨٠ .
(٣) جـ١/٣٦.
(٤) جـ٢/٤٥ـ٥١ .
(٥) جـ٢/٤٧، ٥٠.
(٦) جـ٤/٣٣٨ .

ومن أمثلة هذه المكاتبات على سبيل المثال لا الحصر، مكاتباته مع شيخه « الحسن بن علي العجيمي الحنفي » [1]. وقد أوضح ذلك عند ترجمته «لأحمد بن عجيل » حيث قال «كذا ضبطه شيخنا علامة القطر الحجازي الحسن بن علي العجيمي الحنفي فيما كتبه إليّ» [2]. وكذلك مكاتبته مع « عبد الله الحجازي الشهير بابن قضيب البان الحلبي » [3]، وفي ذلك يقول خلال ترجمته «لأحمد ابن النقيب»: «رأيت خبره مفصلاً في بعض ما كتبه إليّ السيد عبد الله حجازي رحمه الله تعالى من تراجم الحلبيين» [4] ومثله ما قاله في مكاتباته مع «أحمد بن محمد الصفدي» [5]، إمام الدرويشية بالشام، حيث كتب له عن وفاة الصفديين [6].

وقد تكون المكاتبات ليست للمحبي ذاته، وإنما لبعض مصادره من الأحياء المعاصرين كمصطفى بن فتح الله مثلاً، ومثل على ذلك ما قاله في ترجمة (السيد عيسى بن لطف الله بن المطهر): « وذكر القاضي حسين بن الناصر المهلا [7] فيما كتبه إلى صاحبنا الفاضل الكامل مصطفى بن فتح الله، إن والده وجده بينهما وبين المترجم مكاتبات ورسائل بديعة نظماً ونثراً» [8].

ويلاحظ أن المحبي في مكاتباته المباشرة، وغير المباشرة، يبدو حريصاً جداً على استقصاء الخبر من موارده الأصلية، في المكان والزمان والصلة، وبذلك يثبت دقة تفكيره العلمي المتطلع إلى الحقيقة الصافية، وإن كان يعيبه أحياناً

---

(١) أنظر حوله الهامش (٢) من الصفحة (١١٥) من هذه الدراسة، والصفحة ١١٥ ـ ١١٦.
(٢) جـ١/٣٤٦.
(٣) أنظر ترجمته في جـ٣/ ٧٠ـ٨٠ (توفي مقتولاً عام ١٠٩٦هـ ـ١٦٨٤م).
(٤) جـ١/٣١٨.
(٥) أنظر ترجمته في جـ١/٣٥٦.
(٦) جـ١/١٧٧، ترجمة « أحمد بن أسد البقاعي الصفدي ».
(٧) عالم يمني كبير، ومن أشراف اليمن. توفي عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م أنظر ترجمته في البدر الطالع ج١/ ٢٣٢، وفي نفحة الريحانة ج٣/ ٣٧٦ ـ ٣٨١.
(٨) جـ٣/٢٣٩.

عدم ذكر الذي أو الذين كاتبهم أو كاتبوه، وإنما يكتفي بوصفهم أنهم من الفضلاء مع تحديد مكانهم كقوله مثلاً في ترجمة « أحمد القدسي العلمي »: «وقد ظفرت بتمام نسبهم بخط **بعض فضلاء** القدس فيما كتب إليّ منها من الوفيات»[1].

ولا يقتصر « المحبي » في مصادره الكتابية على تلك الزمر الاربع المشار إليها آنفاً، وإنما اعتمد مدونات متنوعة أخرى لتوثيق تراجمه وأخباره، ومنها المشيخات والأثبات، والإجازات، والتعاليق والرحلات.

الزمرة الخامسة: المشيخات والأثبات: وهي مدونات ثبت فيها بعض العلماء أسماء مشايخهم الذين أخذوا منهم، مع بعض سيرهم. ومن هذه المشيخات التي استند إليها « المحبي »، مشيخة « أحمد العجمي المصري » المتوفى ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. ويقول عنها أثناء ترجمته للشيخ المذكور: « وجمع لنفسه مشيخة رأيتها وعليها خطه، ونقلت منها في كتابي هذا كثيراً من وفيات علماء مصر الذين أخذ منهم. وهو في الغالب يستوفي أخبار أشياخه »[2]. ومن تلك المشيخات أيضاً على سبيل المثال لا الحصر، ثبت أو مشيخة الشيخ «محمد بن علي المكتبي» المتوفى ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م، التي يذكر «المحبي» بأنه وقف عليها بخطه، ونقل منها بعض تراجم أشياخه،ويعدد هؤلاء الأشياخ، وهم كثر[3]. وكذلك مشيخة « عبد القادر الصفوري » المتوفى ١٠٨١هـ/١٦٧١م التي قال عنها أثناء ترجمته له: « وجمع لنفسه مشيخة رأيتها وعليها خطه، وأكثر الرواية فيها عن ابن النقيب المذكور (محمد بن النقيب البيروتي نزيل دمياط) »[4].

---

(١) جـ١/٢١٩.

(٢) جـ١/ ١٧٦. وقد استخدم تلك المشيخة في ترجمة « إبراهيم الميموني » (جـ١/٤٦).

(٣) جـ٤/٧٣. واستفاد منها في ترجمة « محمد المنوفي » (جـ٣/٣٦٠).

(٤) جـ٢/٤٦٧. ومحمد بن النقيب أحد العلماء الكبار الذين تتلمذ الصفوري على يدهم. أنظر ترجمته في جـ٤/٣٠٦-٣٠٨.

الزمرة السادسة: الإجازات: والإجازة هي تصريح علمي مكتوب نثراً أو شعراً، يمنحه عالم لتلميذه، أو لعالم آخر، بتدريس كتاب أو مجموعة كتب، أو بتدريس معارف معينة، درسها هذا التلميذ عليه. وقد يمنحها أيضاً لمن ثبت لديه أنه قادر على روايتها أو تعليمها، ولو لم يتتلمذ عليه. وقد اتخذ « المحبي » الإجازات مصدراً للتحقق من نسب المترجم المجاز مثلاً، أو من العلماء الذين أخذ عنهم هذا المترجم له، أو للتأكد من تاريخ. ومن أمثلة هذه الإجازات إجازة « حسين بن النخالة »[١] التي منحها له الشيخ « عامر العزيـزي »[٢]، وإجازة المنلا « أبي بكر معلم الوزير »[٣] التي كتبها للعلاء « الحصكفي »[٤] مفتي الشام، وإجازة « فتح الله بن محمود البيلوني الحلبي »[٥]«لإبراهيم باشا بن عبد المنان »[٦] وغيرها.

الزمرة السابعة: التعاليق: وهي تعليقات دونها أصحابها هنا وهناك على بعض الكتب والمدونات التي وقعت في يد المحبي. وقد ذكر «المحبي» أحياناً أسماء هؤلاء المعلقين كقوله: « وقفت له (أي لعبد القادر الصفوري) على تحرير علقه على عبارة الغزالي المشهورة فذكرتها هنا»[٧]. وفي ترجمة « عبد القادر بن ميمي البصري » يقول: « ورأيت خبره في تعاليق الأخ الفاضل مصطفى بن فتح الله»[٨]. وفي معظم الأحيان أورد التعليقات دون ذكر لأسماء

---

(١) جـ٢/٩٤.

(٢) لم يعثر له على ترجمة، مع أن « المحبي » أشار في ترجمة « حسين ابن النخالة » بأنه سيأتي ذكره. إلا أنه عدّده ضمن مشايخ ابن النخالة، وهو مصري باسم « عـامر بن عبـد الله العزيزي». وقد يكون هو «عامـر بن شرف الـدين المعـروف بالشبـراوي» الفقيه الشافعـي المتـوفى ١٠٦٢هـ/ (خلاصة الأثر ج٢/٢٦٢ ـ٢٦٣) أو «علي العزيزي البولاقي» العالم الشافعي المتـوفى ١٠٧٠هـ/ وجرى تصحيف في الاسم (ج٣/٢٠١).

(٣) جـ١/٨٦ ترجمة (المنلا أبو بكر معلم الوزير) .

(٤) أنظر ترجمته في جـ٤/٦٣.

(٥) أنظر ترجمته في جـ٣/٢٥٤ـ٢٥٧.

(٦) جـ١/٢٩.

(٧) جـ٢/٤٦٨ .

(٨) جـ٢/٤٦٩ .

أصحابها، وقد تكون تراجم لشخصيات، أو ذكراً لبعض الأخبار، أو تعليقاً عليها، أو بياناً لبعض الولادات والوفيات، أو لبعض الصفات، أو لغير ذلك من الأمور. ففي ترجمته مثلاً للأمير « أبي بكر الأحسائي » يقول: « رأيت في بعض التعاليق ترجمته»[1]، وفي ترجمة «أبي السرور البكري الصديقي» «ووجدت في بعض التعليقات أنه عمل رسالة. . .»[2]، وفي ترجمة «الشريف ادريس بن الحسن»: «رأيت في بعض التعاليق ما نصه. . .»[3]، وفي ترجمة «السيد حسن بن الحجار»: «هكذا رأيته في بعض التعاليق فأدرجته كما رأيته، والله تعالى أعلم»[4]، وغير هذه الأمثلة كثير.

الزمرة السابعة: الرحلات: وهي التي دونها عدد من علماء عصره، وسجلوا فيها ملاحظاتهم ومشاهداتهم، ومن اجتمعوا به من العلماء والأدباء أثناء تنقلهم بين بلاد الشام والروم مثلاً أو بلاد الشام والحجاز، أو بلاد الشام ومصر، أو بين مدن بلاد الشام، إلى غير ذلك من أماكن. ومن هذه الرحلات رحلات جد أبيه «محمد بن أبي بكر» المصرية، والرومية، وأهمها « التبريزية » في عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، حيث كان على جد أبيه هذا أن يسلّم «مال عوارض» في قضاء تولاه، وحضر فتح السلطان مراد الثالث لتبريز، فوصف ذلك الفتح. وقد اعتمد « المحبي » هذه الرحلة في الحديث عن ذلك الفتح في ترجمة السلطان « مراد الثالث » [5] . وكذلك رحلتا أبيه: الحلبية، والمصرية والرومية [6]؛ ورحلة « إبراهيم الخياري » المعروفة باسم « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ». وقد عرّفها « المحبي » بقوله: « تشتمل على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من محاسن الأخبار ولطائف الآداب » [7]، وقد استخدمها مصدراً في

(١) جـ١/٩٠.
(٢) جـ١/١١٧.
(٣) جـ١/٣٩٣.
(٤) جـ٢/١٥.
(٥) جـ٤/٣٤٤، وجـ٣/٣٢٢ (ترجمة محمد بن أبي بكر محب الدين).
(٦) جـ٣/٢٧٨ ترجمة (فضل الله المحبي).
(٧) جـ١/٢٥ ترجمة (إبراهيم الخياري).

بعض التراجم كترجمتي « أبي السعود الشعراني » [1] ، و« الشيخ أحمد العجمي المصري» [2] ، على سبيل المثال لا الحصر. ثم رحلة « محمد كبريت » أيضاً، المعروفة « برحلة الشتاء والصيف » وأشير إليها سابقاً ضمن المصادر، وقال عنها « المحبي » بأنها « رحلة بديعة سماها رحلة الشتاء والصيف، وذكر فيها ما وقع له في سفرته هذه (إلى بلاد الروم) من الغرائب » [3] .

وإذا كانت الزمر السبع السابقة من مصادر « المحبي » مصادر كتابية، فإن قسماً من مصادره كان من **التلقيات الشفوية**: أي ما أخذه شفوياً من أناس معاصرين له. ويلاحظ أنه كان يأتي بها في معظم الأحوال دعماً، وإكمالاً لمعلومات استقاها من مصادر مكتوبة، أو من كونه هو نفسه شاهد عيان فيها. وقد حرص « المحبي » عند ذكر تلك التلقيات، أن يبين اسم صاحبها ووظيفته إذا وجدت ومدى صلته بالمترجم له أو بالخبر المنقول، قرابة، أو زمناً، أو مكاناً. كقوله مثلاً عند ترجمته « لمحمد الأمين الشرواني » المتوفى عام ١٠٣٦هـ/١٦٢٦م، « وحدثني حفيده المولى الفاضل صادق قاضي القضاة بمصر أن. . .» [4]. وكذلك عند ترجمته للشيخ «أحمد بن المؤذن»: «هكذا أخبرني **ولده** الشيخ صالح محمد في منزلي بدمشق» [5] ومثل ذلك أيضاً ما أورده في ترجمة « الشيخ حسن الصهراني النورديني » حيث قال: « وأخبرني صاحبنا الملّا محمد بن رستم الصهراني وهو من **أقاربه**» [6] ، وما أتى في ترجمة «حسن ابن‌عطيف» حيث قال: « وأخبرني **أخوه** شيخنا المذكور عن تاريخ الوفاة » [7] .

---

(١) جـ١/١٢٠.
(٢) جـ١/١٧٦.
(٣) جـ٤/٢٨.
(٤) جـ٣/٤٧٦.
(٥) جـ١/٣٦٧.
(٦) جـ٢/٦٣.
(٧) جـ٢/ ٦٤.

وقد يذكر صلة القرابة أو القرب دون ذكر الاسم، كقوله عند ترجمته لـ« فخر الدين المغني »: « كان بعض حفدة فخر الدين حكى لي » [1].

وفي كلتا الحالتين تأكيد من « المحبي » على قرب الخبر المتلقى أو المنقول من الصحة والثقة، لأن مصدره وثيق الرابطة بالمترجم له، ويعرف عنه ما لا يمكن أن يعرفه آخر.

وقد لا يذكر « المحبي » اسم من تلقى منهم ولا صفتهم بالنسبة للمترجم له، وإنما يقول فقط: « حكى لي بعض الثقات ناقلاً عنه أنه... » [2]، و« أخبر بعض الثقات » [3]، و« حكى بعض الثقات العدول » [4]، أو « حكى لي بعض من أعتمد عليه أنه سمعه مرة يقول » [5] أو « هكذا تلقيته من الأفواه » [6]. ويسمي من يعتمد عليه في نقل الخبر أحياناً بـ« المخبر » [7] أو يقول « حكى بعض من له إطلاع على أمره» [8]. وفي كل تلك الحالات يؤكد « المحبي » - كما هو واضح - أن المصدر الحيّ الذي استقى منه المعلومات تتوافر فيه الصفات التي تجعله مصدراً موثوقاً وعدلاً.

ويلاحظ أن « المحبي » قد اعتمد في أن يكون مصدره الحيّ الذي تلقى منه « الرواية الشفوية » ملامساً مباشرة للشخصية المترجم لها، أو للنبأ المنقول، كما ألمحنا أعلاه، ولتحقيق هذا الشرط في الراوي، لم يكن ضرورياً أن تكون الصلة صلة قرابة دم ونسب فحسب، بل اهتم بصلة العلم ومنها بالذات صلة

---

(١) جـ٣/٢٦٦.

(٢) جـ١/١٢١ ترجمة (أبو السعود الشعراني).

(٣) جـ١/٩٣، ترجمة (أبو بكر الزيلعي) - وجـ١/١٩٧ ترجمة (أحمد المنطقي) - وجـ١/٤٨٢ ترجمة (جعفر الصادق) وجـ٢/٤١ ترجمة (حسن باشا بن محمد باشا).

(٤) جـ١/٢٩٩ ترجمة (الشيخ أحمد بن خليفة).

(٥) جـ٣/٣٩٣ ترجمة (محمد بن أحمد العمري المعروف بابن عبد الهادي).

(٦) جـ٣/٢٢٩ ترجمة (عمر المعروف بنفعي).

(٧) جـ٣/٣٩٣ ترجمة (محمد بن أحمد العمري).

(٨) جـ٣/٢٢٩ ترجمة (عمر المعروف بنفعي).

المعلم بتلميذه، وبالمقابل. أي أنه كان يستقي المعلومات من تلامذة المترجم له إذا كان هذا الأخير قد توفي، كأن يقول مثلاً: « وذكر لي بعض الآخذين عنه » [1] أو أنه يحدد اسم التلميذ فيقول مثلاً: « كما نقلت عن شيخنا المرحوم عبد القادر بن عبد الهادي، وهو من أخذ عنه وسافر إلى الروم في صحبته وانتفع به » [2]. وبذلك تتشابه الرواية الشفوية مع المشيخات والأثبات.

ومن مصادر « المحبي » الحيّة أيضاً في التلقي الشفوي أخوانه، أو أساتذته، من العلماء، والأدباء، والشعراء أي من الفئة المثقفة، وقد يصرح أحياناً بأسمائهم وقد يغفلها. فممن ذكر أسماءهم على سبيل المثال لا الحصر صاحبه «إبراهيم الجينيني»[3]، وأستاذه العلامة «المنلا عبد الرحيم الكابلي الهندي»[4] وعند إغفاله الاسم يكتفي بالقول: «حدثني بعض الأخوان» أو « أخبرني بعض الأخوان » [5]. ولما يكون الخبر المروي بعيداً مكانياً عن أخوانه المقيمين معه، فإنه يشير إلى موقع ذلك الزميل من مكان الخبر، أو المترجم له: فعند ترجمته لإمام اليمن « المتوكل » قال مثلاً: « ذكر لي بعض الأخوان من دمشق، وكان رحل لليمن، أنه رآه » [6]. وكتأكيده عند ترجمته لأديب من

(١) جـ١/١٧٦ ترجمة (أحمد العجمي المصري).

(٢) جـ٤/٣٠٧ ترجمة (محمد بن محمد بن سليمان المغربي).

(٣) أنظر ترجمته في نفحة الريحانة جـ٢/٢٥٦-٢٦٣ ومن جملة ما قاله عنه « وهو ببركاته أعتد، وبأسباب فوائده أشتد ». وهناك في الواقع اختلاف في اسم أبيه فتارة يشير إليه بأنه « إبراهيم بن سليمان الجينيني نزيل دمشق » (جـ٣/٣٨٤)، وتارة « إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الجينيني ثم الدمشقي » (جـ١/١٧٦)وقد ترجم المرادي له على أنه « إبراهيم بن سليمان الجينيني»، وقد ولد ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، ورحل إلى مصر، وأكمل تاريخ « ابن عزم »، وتوفي عام ١١٠٨هـ/١٦٩٦م. (سلك الدرر جـ١/٩٠٧).

أما اتصالاته معه كمصدر فهناك مثل عنها في ترجمة (أحمد التجموعتي المغربي) جـ١/٣٤٨ وجـ١/٣٨٤ ترجمة (محمد بن الغصين).

(٤) جـ٣/٣٩٤ ترجمة (محمد العمري). وعبد الرحيم الكابلي الهندي، عالم من أصل هندي أفغانستاني، ولد بكابل ثم حج ودخل دمشق استقر بها، توفي ١١٣٥هـ/١٧٢٤م.. أنظر سلك الدرر جـ٣/٩ وكذلك جـ٣/٣٩٤ الترجمة السالفة الذكر.

(٥) جـ٣/٢٢٧ ترجمة (عمر بن نصوح).

(٦) جـ١/٤١١ ترجمة (الإمام إسماعيل بن القاسم).

القدس وهو « بشير القدسي » بأنه « سمع خبر فضائله كثيراً من أهل القدس »[1] أنفسهم بصفتهم قريبين منه بالمكان ومعايشين له. ومثل ذلك عند ترجمته لمولاي رشيد سلطان المغرب من الأشراف العلويين حيث قال في سبب موته: « وأخبرني بعض المغاربة في سبب موته »[2]. وبذلك يثبت « المحبي » مرة أخرى حرصه على استقاء معلوماته من المنابع القريبة من الخبر، زماناً ومكاناً، والوثيقة الصلة به، بل يمكن التعميم أن جميع المصادر التي اعتمدها المحبي في كتابه « خلاصة الأثر » كانت أصيلة، أي معاصرة للشخصيات التي ترجم لها، وللأحداث التي أوردها، ناهيك عن كونه هو نفسه مصدراً مباشراً لكثير من تراجمه، وبصفة خاصة تلك التي التقى بها أو صادقها، أو تتلمذ عليها، أو كان بينهما صلة قربى وتحاك.

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن «المحبي» قد استند إلى عديد من المؤلفات الأدبية والعلمية (لفروع العلوم المختلفة اللغوية والدينية والعقلية) والتصوفية، والجغرافية، غير التي أشير إليها وهي من عصره وما قبل عصره وقد يكون من الصعب حصرها. فهو على ما يبدو قد قرأ معظم مؤلفات من ترجم لهم وأشعارهم، أو اطلع عليها، وهذا يتضح في تقويمه لتلك المؤلفات، أو في بيانه صراحة بأنه قرأها، أو درسها، أو أخذ منها، أو في وصفها التفصيلي والتعريف بها. ومن تلك المؤلفات الغزيرة التي اطلع عليها، على سبيل المثال فقط لا الحصر، كتاب «كشف الالتباس فيما خفي على كثير من الناس» «لغرس الدين الخليل» (المتوفى ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م)، حيث قال عنه: «وهو كتاب ألفه في الأحاديث الموضوعة، وهو جم الفائدة رأيته ونقلت منه أشياء »[3]. وكتاب « الكشكول » لصاحبه « محمد البهاء العاملي » (المتوفى ١٠٣١هـ/١٦٢٢م) (وهو شيعي)، وقد قال فيه: « وقد جمع فيه كل نادرة من علوم شتى. وقد

---

(١) جـ١/٤٥٢. ترجمة (بشير القدسي).
(٢) جـ٢/١٦٤.
(٣) جـ٣/٢٤٦.

رأيته وطالعته مرتين، مرة بالروم ومرة بمكة، ونقلت منه أشياء غريبة »[1]، واعتمده « المحبي » مصدراً في بعض أخباره[2]. وكتاب « التقاويم » للشيخ « محمد المتبولي المصري »[3] الذي يشير إليه، مؤرخنا عند حديثه عن مقتل « علي بن الارنؤود »[4] عام ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م. وكتاب «سانحات دمى القصر» «للدرويش محمد الطالوي» (المتوفى ١٠١٤هـ/١٦٠٥م)[5]، و« تذكرة الشعراء » «لابن الحنائي » المتوفى ١٠١٢هـ/١٦٠٤م التي ألفها في شعراء الروم، وهي لهم كدمية القصر للباخرزي، وذكر فيها معظم شعرائهم من ابتداء الدولة العثمانية سلاطين زماننا إلى زمانه[6]. وكتاب « سرور السرائر وفسحة الأرواح وراحة القلوب » للشيخ « حسن الحضرمي » حيث يصفه بأنه «كتاب مفيد جداً»[7] و«التذكرة الحسينية» «لحسين بن النقيب»[8]، «التي ذكر فيها شعراء متقدمين كالشريف الرضى[9] ومن نحا نحوه، وختمه بذكر معاصريه من الشعراء ثم ذكر في آخره حصة وافية من نظمه »[10]. ومن

---

(١) جـ٣/٤٤٠.

(٢) جـ٣/٣١٦ ترجمة (القاضي محمد أكمل).

(٣) لم يعثر له على ترجمة.

(٤) جـ٣/١٥٦ وهو أحد كبراء الجند الشامي، قتله والي دمشق أحمد باشا المعروف بالسرجي. وقد تعرض محمد المتبولي المصري لذكره، كما قال المحبي، في تقويم تلك السنة بقوله: « يا سلام سلّم من قول يا علي كلّم ».

(٥) جـ٢/١٤٩، وقد قال عنه: « وهو كتاب حسن الوضع متداول في أيدي الناس، وقد جمع فيه الطالوي أشعاره وترسلاته».

(٦) جـ٢/٢٧ واسم ابن الحنائي هو « حسن القسطنطيني ». وقد اعتمد « المحبي » الكتاب في ترجمة « لمحمد حكيمي الرومي » جـ٣/٤٧٣.

(٧) جـ٢/١٥.

(٨) جـ٢/١٠٥ ـ ١٠٨. «وحسين النقيب» وهو من أشراف دمشق، وقد عمل في القسمة العسكرية والتدريس والقضاء وقد توفي ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م.

(٩) هو محمد بن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي (٣٥٩ـ٤٠٦هـ/ ٩٧٠ـ١٠١٥م). كان نقيب الأشراف في بغداد، وكان شاعراً فذاً، انظر حوله وفيات الأعيان جـ٢/٢ والأعلام جـ٦/٣٢٩ـ٣٣٠.

(١٠) جـ٢/١٠٥ـ١٠٦.

أمثلة مطالعاته الكثيرة أيضاً كتاب « محسن الفضائل بجمع الرسائل »«لشرف الدين بن حبيب الغزي »، ويعرّف به « المحبي » فيقول: « وهي ثلاث رسائل اثنتان له، وواحدة للحسن البوريني، رأيتها وطالعتها جميعاً » [1] . ومثله « التنبيهات الزينية على الغفلات العينية » « لزين الدين الاشعافي الحلبي »، التي بيّن فيها عروض أبيات من شواهد النحو سها فيها العلامة «العيني» [2] في «مختصر شرح الشواهد»، حيث يقول «المحبي»: «فإني قرأت بخطه (أي الأشعافي) في آخر رسالة التنبيهات أنه فرغ من كتابتها يوم...» [3] . ومن أمثال هذه الكتب الكثير حتى الطبية منها، فقد قرأ مثلاً كتاب «التذكرة» للحكيم «داود الأنطاكي» [4] .

ويجب ألا ينسى الوفير من دواوين الشعر المتنوعة السابقة لعصره، والمعاصرة، التي طالعها وأشار إليها أحياناً صراحة، أو التي دلت عليها معلوماته الشعرية الواسعة جداً عن الشعر والشعراء، ومنها على سبيل المثال فقط ديوان «السانحات» للطالوي، المشار إليه أعلاه، و«ديوان حسين بن الجزري » [5] ، و« ديوان حافظ » بالتركية، وقد قال عنه بأنه « أثر لطيف، رأيته وطالعته ونقلت منه أشياء » [6] ، وغيرها كثير.

وكان « المحبي » يأخذ من تلك المؤلفات الوفيرة ما يراه مفيداً لكتابه، ويهمل الباقي. وقد أبان عن ذلك عند ترجمته « لأحمد بن سالم الخلوتي » حيث

(١) جـ٢/٢٢٣. (لم يذكر المحبي تاريخ وفاة المترجم).

(٢) هو محمود بن أحمد بدر الدين العيني (٧٦٢ـ٨٥٥هـ/ ١٣٦١ـ١٤٥١م). مؤرخ ومحدث كبير. أصله من عنتاب عمل في القاهرة وتقرب من السلطان المملوكي المؤيد. له تصانيف عديدة أنظر الأعلام جـ٨/٣٨ـ٣٩. من كتبه « فرائد القلائد » وهو مختصر شرح شواهد الألفية المشار إليه في المتن.

(٣) خلاصة الأثر جـ٢/١٩٠.

(٤) جـ٢/١٤٤. ترجمة (داود الأنطاكي).

(٥) جـ٢/٨٤.

(٦) جـ٢/١٢١. ترجمة (حسين الكفوي).

قال: «وله رسالة الحسب، وقفت عليها ورأيته قد ذكر في آخرها مبدأ أمره وما انساق إليه حاله، فألزمني إثباته في ترجمته، وأعرضت عن غيره»[1].

ويلاحظ أن «المحبي» إذا لم يطلع على شيء من آثار المترجم، فإنه كان يذكر ذلك صراحة، ومثل على ذلك ما أورده في ترجمته «لأحمد السودي اليمني» حيث قال: «وأنا لم أطلع على شيء من آثاره فلهذا اقتصرت على ما رأيته في تاريخ الشلّي، والله تعالى أعلم»[2].

وخلاصة القول، إن «المحبي» بتقميشه لمعلوماته، كان باحثاً حقاً، إذ كان يستقصي الموارد بدأب وجلد، ويلاحقها في أماكنها مهما بعدت، ويتابع كل فئاتها: كتابية كانت أم شفوية، بل كان يدعم كل واحدة منها بالأخرى. ومع اهتمامه الذي يبدو متساوياً بكل أنواع المصادر، إلا أنه كان أكثر ثقة بالوثائق الكتابية مما هو عليه بالرواية الشفوية، شأنه في ذلك شأن كل مؤرخ علمي معاصر. ويتجلى هذا واضحاً في مقدمة كتابه حيث يقول: بأن التراجم التي تلقاها من الأفواه يسيرة، وكانت في التحصيل عليه عسيرة[3]. فكأنه بقوله هذا، يسعى لتسويغ اعتماده أحياناً على الرواية الشفوية، أو للاعتذار عن الاعتماد عليها، أو لإبراز قلة استناده إليها. وحتى في «الرواية الكتابية» أياً كان نوعها، فإن ثقته كانت منصبّة على المدوّن منها بخط صاحبه، لا بالمنسوخ عنه. ويتضح هذا في تأكيده المستمر عند إيراد الخبر أنه رآه أو قرأه «بخط صاحبه».

وقد يتبدى استقصاء «المحبي» للمصدر ودعمه بمصدر آخر، في ترجمته لـ«سليمان البوسنوي»، إذ يقول فيها: «حدثني بعض أصحابه عنه... وكنت وأنا بالروم أسمع خبره، وحرصت على الاجتماع به فلم أقدر، وتوفي

(١) جـ١/٢٥٤.
(٢) جـ١/٢٢٦.
(٣) جـ١/٣.

بعد ذلك »[1]. وكذلك في ترجمته لـ« أحمد التجموعتي المغربي » الذي نسب إليه «إبراهيم الجينيني» خبراً غريباً وهو أنه (أي التجموعتي) قرأ كتاباً بمصر جاء من ملك سنار يخاطب به قاضي المالكية بمصر، بأنه سقط عنده حجر ياقوت من السماء ووجد فيه مكتوب بقلم القدرة، لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم بعد ذلك بأيام وقع حجر آخر صغير مكتوب عليه لا إله إلا الله، وذكر أنه أرسل الحجر الساقط أولاً إلى الحجرة النبوية... ويظهر أن «المحبي» لم يصدّق النبأ المكتوب فسأل « الجينيني » عنه، فأخبره عن مصدر الحادثة، إلا أن « المحبي » عاد فسأله ثانية عن التجموعتي نفسه، ولعلّه أراد أن يجتمع به ليتأكد من الخبر[2] ويتعرف الشخصية بنفسه.

ومن أمثلة ملاحقته الخبر أيضاً من شتى مصادره قوله في وفاة « أبي السماع البصير المصري »: « ولقد سألت كثيراً ممن لقيته من أهل مصر وأهل بلدتنا عن وفاة أبي السماع فلم أظفر به، ولكن ذكر لي بعضهم على وجه الظن أن وفاته كانت في حدود سنة خمس أو ست وستين وألف »[3] ومثل هذا كثير في تراجمه.

ومع أن « المحبي » استند أحياناً في بعض تراجمه إلى مصدر واحد إذا لم يتوافر لديه آخر ـ وإن كان هذا قليلاً ـ فإن حسه التاريخي الأصيل كان لا يدعه في اطمئنان وراحة، ولذا فإنه كان يشير إلى ذلك بأمانة ووضوح. فعند ترجمته لـ« أبي الغيث القشاشي » مثلاً قال: « لم أر من ذكره إلا « ابن نوعي » في ذيله التركي، فجميع ما تراه إلا القليل مما ذكرته في ترجمته مترجم مما قاله في حقه »[4]. وكذلك الأمر عند حديثه عن الأمير « حسن الأعوج » أمير حماة

---

(١) جـ٢/٢١٣.
(٢) جـ١/٣٤٨.
(٣) جـ١/١٢٠.
(٤) جـ١/١٤٠.

إذ أكد ما يلي: « لم يذكره أحد من المؤرخين، ولم أظفر بشيء من خبره إلا في وريقات بخط إبراهيم رامي، وهذا أعجب العجب »[1].

ثالثاً: النقد عند المحبي: ولكن هل كان المحبي باستقصائه المصدر مجرد ناقل للخبر الذي يحمله ذلك المصدر، ومجمّعاً له فحسب؟ أم أنه حاول أن يسلّط فكره النقدي على ما جمع وقمّش؟.

قد ينبري موازن سريع لكتاب « المحبي » مع المصادر التي أخذ منها فيقول بأن « المحبي » ككثير من معاصريه والسابقين له، كان ناقلاً لبعض التراجم مع الاعتراف بمصدرها، وأنه كان أحياناً كثيراً ما ينقلها بحذافيرها وصيغتها. ومع أن بعض هذا القول صحيح، إلا أنه لا ينطبق كله على كتاب « خلاصة الأثر ». فالمدقق في الكتاب، والدارس له بتمعن، يتحقق، كلما أوغل فيه درساً وتمحيصاً، بأن صاحبه كان يتمتع بحس نقدي رفيع، وأنه حتى إذا ما نقل معلومات المصدر الذي استقى منه، فإنه لا بد أن يعلق هنا، أو ينتقي هناك، أو يعرّب بعض الكلمات الأعجمية، أو يصحح، أو يتجاوز عن بعض العبارات. فهو إذاً كان يعمل بحس نقدي.

ونمو « الفكر النقدي » عند « المحبي » أمر مرتقب ما دام يتمتع بذهنية ذكية، ومنفتحة لآفاق المعرفة الواسعة، ويحمل في ذاته خلفية ثقافية موسوعية، كوّنها عبر الأخذ من العلماء، ومن الكتب، ومن المطالعات الكثيرة والمتنوعة باللغات الثلاث، ومن الدراسة المستمرة، والسفر والترحال، والتجارب الحياتية المختلفة. ويجب ألا تُغفل في هذا المضمار دراسته لعلوم الحديث بصفة خاصة، وما تولده من دربة نقدية للرواة والأسانيد. ومع أن « المحبي » شاعر، فإن الخيال لم يطغ على محاكمته المنطقية الواقعية والدقيقة، التي نمتها دراسته للمنطق وللعلوم الدينية، واللغوية، والرياضية، والتي ظلت متحكمة في دراسته النقدية والمحققة للخبر.

---

(١) جـ٢/٥٠.

وتظهر قدرة « المحبي » على النقد الصحيح بعدة صور، أبرزها ثلاث: **النقد التاريخي** الممثل بنقد المصدر ونقد الخبر، **والنقد الأدبي** الموجه إلى الإنتاج الأدبي بشعره ونثره، **ونقد الشخصيات** التي ترجم لها. وجميع هذه الأشكال من النقد تتعاون في كتابه لتقود إلى الحقيقة وتسجلها.

أما **النقد التاريخي للمصدر** فقد تكون أولى خطواته عند « المحبي » لما قام باختيار مجموعات التراجم من المصادر التي اعتمدها. فمن المعروف أنه لم يأخذ جميع تراجم البوريني، أو الغزي في لطف السمر، ولا كل من ترجم له ابن معصوم، والشلّي، والخفاجي وغيرهم، بل قام **بعملية انتقاء**، والانتقاء عملية نقدية معقدة، وهي حرية بدراسة منفردة ليعرف منها ـ بعد الموازنة الدقيقة ـ ما أخذ من تلك التراجم وما أهمل، وليتعرف عن طريقها بفكر « المحبي » وقيمه، بل وبأسلوب نقده. وإذا كان من العسير إجراء هذه الدراسة في هذا البحث، لأنها تتطلب دراسة خاصة، ينصرف إليها الفكر دون غيرها، فإنه يمكن الجزم من إطارها العام بأن « المحبي » لم يأخذ كل التراجم الواردة في مصادره على علاتها، بل أمعن فيها تجريحاً وتعديلاً وانتقى ما رآه ملائماً، وإن كانت لا تعرف القواعد التي اعتمدها في ذلك النقد والانتقاء، هذا مع العلم أنه قد أشار في تلافيف كتابه إلى إحدى تلك القواعد، وهي « شهرة المترجم له » في الأوساط العامة. ويبين هذا في قوله التالي عند ترجمته لـ«زين العابدين بن عبد القادر الطبري»: «ونسب بني الطبري وشرفهم وقدم بيتهم سيأتي في ترجمة والد صاحب الترجمة الإمام عبد القادر، إذ هو أشهر هذا البيت من أبنائه المذكورين في كتابنا هذا. **والشهرة تقضي مزيد الاعتناء، والأفكار تنساق لنحو المشهور كثيراً**، ولم يتقدم منهم هنا إلا زين العابدين هذا، وهو ليس من الشهرة بمحل والده. والله أعلم » [1].

---

(١) جـ٢/١٩٦.

وتبدو «عملية الانتقاء النقدي» هامة جداً لا في التراجم فحسب، وإنما في المعلومات بدليل قوله في مقدمة نفحة الريحانة: «ولم أودع إلا ما حسن إيداعه، ولطف مساغه، وإبداعه، وأقنع من القول بطرفه واستجلب منه بدائع طرفه، إذ لا فخر للاقط تناول كل ساقط ولا فضل لمتخير هو في لمّ شعث ما يأتي به متحيّر»[1].

وإذا كان من الممكن النظر إلى عملية انتقاء التراجم من المصادر على أنها هي العملية النقدية التاريخية الأولى التي قام بها «المحبي» لمصادره، فإن ترجمته لغالبيه مؤلفي مصادره الذين عاصروا القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، هي العملية النقدية الثانية غير المباشرة. إذ كأنه بتقديم سيرة حياتهم مفصلة قد طبق عليهم «التجريح والتعديل» أو ما نسميه في عرف «المنهجية التاريخية العلمية الحديثة» بـ«النقد الباطني السلبي». ومع أنه حريص مبدئياً بأن «ينشر أخبار فضلاء العصر» أي لا يذكر سوى مناقبهم، فإن من يتابع تراجمه يرى أنه قد ضمنها المستحسن من الصفات والمكروه، وإن لم يطل في الأخيرة كثيراً. وقد طبق هذا الأمر على مؤلفي مصادره أنفسهم، على الرغم من تقديره العميق لهم ولمجموع شخصياتهم، وقد صبّ نقده بصفة خاصة على مؤلفاتهم التي اعتمدها فقد قال عن كتابي «النجم الغزي»: «وله التاريخ الذي ألفه في أعيان المائة العاشرة وسماه «بالكواكب السائرة» والذيل الذي سماه: «لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر»، والثاني أحد مادة تاريخي هذا. وكلا الأثرين جيد جزاه الله على صنعهما خيراً، إلا أنهما يحتاجان إلى تنقيح، وحسن ضبط، فإن فيهما الغث وتكرير بعض تراجم. وبعض سهو في الوفيات، وما أخاله إلا أنه أجاد كل الإجادة في هذا الجمع على كل حال. وأما ما فيهما من بعض الأغراض فقد عرف بها المؤرخون في الماضي».[2] ولا يفصح «المحبي» عن تلك الأغراض، إلا أنه يختم نقده ذاك بالانعطاف على نفسه، والتأكيد بأنه يبرأ من تلك الأغراض، فيقول: «ومن نظر في

---

(١) جـ١/١١-١٢.

(٢) جـ٤/١٩٧ ترجمة (محمد النجم الغزي).

كتابي بعين الرضا عرف إني أتلافى كثيراً مما مضى، وبالله أستعين وأستدفع المكروه، وأسأله أن يبيض وجهي يوم تبيض الوجوه»[1]. وكان قد ألح على هذه الناحية في مقدمة كتابيه: «خلاصة الأثر» و«نفحة الريحانة»، وبينّ بأنه قد التزم ما نسميه اليوم «بالموضوعية» وأنه لا يثبت إلا ما يتأكد من ثقته. فقد جاء في مقدمة «خلاصة الأثر»: «وما أقدمني على هذا الشأن (أي تأليف كتابه)... (إلا) لأمر يستحسنه اللبيب، ويحسن موقعه لدى كل أريب، لما فيه من بقاء ذكر أناس شنفت مآثرهم الأسماع، وجمع أشتات فضائل حكم الدهر عليها بالضياع. وليس غرضي إلا أداء حقهم المفترض، وأبرأ إلى الله من تهمة الغرض. وإني وإن قصرت فما قصرّت، وإن طوّلت فما تطوّلت، وغاية البليغ في هذا المضمار الخطير، أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير، فإن المرء ولو بلغ جهده، فالإحاطة في هذا الشأن لله وحده»[2].

ويتابع هذا الأمر فيقول: «ولا أورد من أحوال الرجل (المترجم له) إلا ما **تلقيته عن هذه التواريخ** (ويقصد مصادره)، أو سمعته من ثقة، أو **ضبطته عن عيان ومشاهدة**»[3] وبمعان مماثلة طرح هذه الناحية في مقدمة نفحة الريحانة، حيث قال: «**وإني محاسب لقلبي إذا مال، وللساني إذا قال. لا أمدح إلا ممدوحاً، ولا أقدح إلا مقدوحاً، ولا يستفزني رعد كل سحابة، ولا يستخفني طنين كل ذبابة**»[4].

ولم يكتف «المحبي» بهذا النقد العام لكتابي الغزي، بل إنه كان يظهر في كل مناسبة ترد، مواطن الغلط والنقص والتناقض فيهما. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ما ذكره في ترجمته لوالد جده «محمد بن أبي بكر

---

(١) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.

(٢) جـ١/٤.

(٣) جـ١/٣-٤.

(٤) جـ١/١١.

المحبي » فقد ذكر « الغزي » أثناء ترجمته لـ« محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي »[1] (أي رضي الدين الحنبلي صاحب درّ الحبب)، في كتابه « الكواكب السائرة »، أن والد جد « المحبي » (محمد بن أبي بكر) قد أخذ العلم عن الحنبلي في حلب. إلا أن مؤرخنا عندما وازن ما ورد في الكتاب الثاني « للغزي » وهو « لطف السمر » مع ما ورد في كتاب « الكواكب السائرة »، اتضح له أن « الغزي » وقع في التناقض، لما أكد أثناء ترجمته لـ« محمد بن أبي بكر المحبي »[2] أن هذا الأخير لم يلحق ابن الحنبلي. ويعلّق المؤرخ « المحبي » على ذلك بقوله: « وهذا أغرب الغريب منه. فإن لحوقه (أي لحوق والد جده) لابن الحنبلي لاشبهة فيه أبداً. وأما ما أخذه عنه فما أعرف حقيقته. على أن ابن الحنبلي قرظ له على شرحه لمنظومة ابن الشحنة»[3].

وإذا كان « النجم الغزي » بكل جلال علمه لم يفلت من نقد « المحبي »، فإن «الخفاجي» بكل موسوعيته، وبكل حب « المحبي » لأدبه، وإعجابه الشديد بريحانته، لم يخلص من وخزات مؤرخنا هنا وهناك. ففي مقدمة « النفحة » أوضح « المحبي » بأنه استمع لنقد النقّاد لتراجم الخفاجي وزيف بعض تلك التراجم وإن هذا الأخير (أي الخفاجي) «وإن نوّه بحزب

---

(١) الكواكب السائرة ج ٣/ ٤٢.

(٢) لطف السمر. جـ١/ ١١٤-١٢٣.

(٣) خلاصة الأثر ج ٣/ ٣٢٣ ترجمة «محمد بن أبي بكر بن داود محب الدين». أما ابن الشحنة، فهناك عدة علماء وفقهاء من هذه الأسرة في حلب. ولكن يبدو أن المقصود هنا هو: محمد بن محمد أبو الوليد محب الدين، ابن الشحنة الحلبي (٧٤٩ ـ ٨١٥ هـ/١٣٤٨ ـ ١٤١٢ م). وهو فقيه حنفي، عمل بالأدب والتاريخ والقضاء، وله عدة مصنفات، ومنها منظومات. ولا يبين «المحبي» أي تلك المنظومات فقد تكون «الموافقات العمرية للقرآن الشريف» أو «البيان» أو «عقيدة».

أنظر الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٥/ ١٦١، والضوء اللامع جـ ١٠/ ٣، والأعلام جـ ٧/ ٢٧٣.

إلا أنه قصّر في الاطراء بشعارهم، وإن أطنب في آخرين إلا أنه لم يذكر عيون أشعارهم » وأنه . . . أغفل من القوم حزباً نقايا، وكأنه أومأ إلى قولهم: «في الزوايا خبايا » [1]. ولم يقتصر على ذلك بل إنه وخزه بشدة لما أتى على ذكر ترجمة الخفاجي لـ« زين العابدين البكري » (المتوفى ١٠١٣هـ/١٦٠٤م) [2] إذ رأى فيها « المحبي » تحاملاً من « الخفاجي » وحسداً. فقد قال فيه: « قلت: ذكْرُه بهذا الأسلوب من الشهاب أسمج السمج. والحامل له على ذلك الحسد، لتصور ما كان عليه المترجم من الإقبال وإلا فالشهاب ليس من أقرانه بحسب الوجود، أما في حياة المترجم فمعلوم ضرورة أن الخفاجي كان إذ ذاك في ابتداء طلوعه وغضارته، وليس بالمشار إليه في أمر. وأما بعد موته، فإنه وإن ولي قضاء مصر، لكنه لم يبلغ بعض ما بلغ ذاك من الحرمة والهيبة، وأنّى له. ولو سلّم هذا، فما المقتضى لحسد رجل مات وولعت به أيدي الآفات » [3].

---

(١) جـ١/١٢.

(٢) قال الخفاجي في وصف « زين العابدين البكري »: « تعاطى حرفة الزهادة وفتح حانوت السجادة، وادعى الكرامات وقص منامات لها الكرى مات. ومما اتفق أن الناس خرجوا للدعا بالاستسقاء، وقد رعى القحط البلاد، فلم يدع ثمراً ولا ورقاً، والجو بالغمام مطبق، وجفن السحب بدمع القطر مغرق. فلما دعا تجلى وعبس وتولى، فقمت على ساق الارتجال وأنشدت أصحابي في الحال:

وولى قطب لرب السماء	أسرع الصحو إذ دعا بالماء
في صراخ وأدمع هو يُغْني	عن رعود منهلة الأنواء
فكأن السحاب كان مريضاً	مات لما دعا بالاستقساء

إن تلك الترجمة «لزين العابدين البكري» مغايرة في الواقع لترجمة «الخفاجي» له في «ريحانة الألبا» (جـ٢/٢٢٢)، حيث لا إشارة البتة إلى ما ورد في الترجمة السالفة. وقد ألصق «المحبي» هذه الترجمة الأخيرة الواردة في «ريحانة الألبا» بأخي «زين العابدين» وهو «أبو السرور البكري الصديقي» لا بزين العابدين (خلاصة الأثر جـ١/١١٨). أما الترجمة التي نقدها فقد نقلها من الكتاب الثاني للخفاجي وهو «خبايا الزوايا».

(٣) جـ٢/١٩٧-١٩٨.

وهكذا « فالمحبي » لم ينقل حرفياً عن الخفاجي دون استقصاء، بل أخذ ما وجده صادقاً فقط بعد موازنة ما أتى في كتابيه. ويؤكد هذا الأمر مرة ثانية أثناء ترجمته لـ« أبي الطيب الغزي » (المتوفى ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م). فيقـول: « وقد ترجمه الخفاجي في كتابيه، لكن اختلفت ترجمته له كثيراً، والذي حررته وصح، ما نقله والدي من خط الشهاب من نسخة الخبايا »[١].

ونقد « المحبي » أيضاً « البديعي » ـ وهو أحد مصادره الأساسية ـ وذلك من خلال ترجمته لشخصية « أبي بكر العمري »، وطعن في موضوعيته، وفي صدق نقله للخبر. فقد ذكر « البديعي » عن « أبي بكر العمري » بأنه كان يهيم ببعض الغلمان، وضبط معه في حالة « يقبح التصريح بذكرها القبيح » وأنه قد عوقب بأن شهّر به بأن «يطوّق عنقه بساقيّ ذلك الغلام، ويطاف به في الأسواق بمشهد الخاص والعـام»[٢]. ويعلّق « المحبي » على الخبر بعد أن يورده: « **ولقد فحصت هذا الخبر من كل من لقيته ممن أدرك العمري فلم أر له عند أحد أثراً. وفي ظني الراجح أنـه مفترى، والله أعلم بحقيقتـه**». ويضيف مؤرخنا حججاً منطقية ليدعم رفضه لرواية « البديعي » بالإضافة إلى الحجة المصدرية السابقة فيقول: « نعم، إن العمـري صاحب طبـع ميّال للجمال، والجمالِ عند من يبري الساحه فطنة الاحتمال، وبالجملة فمثل هذا الخبر لا ينقل إلا ليوهى، وبالخصوص عندي فإنه مما لا يُعنى بذكر. وحاصل القول إن العمريِ من كملاء عصره، ونبغاء دهره، **غير أنه أخرج نفسه من طريق العلم واحترف فصار عطاراً، ولو تزيا بزي العلماء لأدرك مرامه، وفاق أقرانه** »[٣].

وكما نقد المحبي» كـلاً من «الغزي»، و«الخفـاجي»، و«البديعي» من مصادره، فإنه نقد «البوريني» في بعض رواياته. ويظهر موقفه الحر هذا في

---

(١) جـ١/١٣٨.
(٢) جـ١/٩٩-١٠٠.
(٣) المصدر نفسه/ ١٠٠.

ترجمته لـ «نظام الدين السندي» الذي اتهم بالتشيع والجنون، فقد سعى لإنصافه بعد أن تابع المصادر المعاصرة له، وما قيل بشأنه[1].

والشيء نفسه يقال عن نقده اللاذع «لابن معصوم»، فقد طعن كما طعن كثير من معاصريه بموضوعيته، وبميله مع هواه الشيعي، هذا علماً بأن «المحبي» نفسه على الرغم من سنيته، لم يكن يحمل في ذاته تعصباً ما ضد الشيعة والتشيع، وقد ألمحنا إلى ذلك سابقاً، فمما قاله بشأن كتاب «سلافة العصر» «لابن معصوم»: «كثر فيها اللاغي والحاقد، وأهملت عن الاعتناء بشأنها، مع أنها أحرى من كل حريّ بالقبول. وأنت إذا اختبرتها عرفت لمؤلفها أغراضاً قديمة أراد بهذا التأليف تقييدها. ومن جملة أغراضه أنه إذا ترجم شيعياً يغالي في مدحه، ويبالغ في تعظيمه والإشارة إليه. وإذا ذكر سنياً لا يعطيه حقه بل ينكت عليه حتى أنه لما ترجم السيد الجليل المجمع على جلالته، وكمال علمه، «عمر بن عبد الرحيم البصري»[2]، رماه بسنان لسانه، وتكلم عليه بزوره وبهتانه. وبالجملة فالله يسامحه على ما ارتكبه من

(١) لقد قال «المحبي» حول هذا الأمر ما يلي: «والذي تلقيته من أحوال المنلا نظام، أنه كان من المحققين العظام، وأنه كان من أرباب الولاية، وممن أدركته عين العناية في البداية والنهاية، وهو من خواص تلامذة السيد صبغة الله نزيل المدينة المنورة، وكان السيد المذكور يحبه وينافس في ولايته المقررة. ووقع للسيد بسببه كرامة ذكرتها في ترجمته وألمعت فيها بذكر انتمائه إليه وتلمذته. وما وقع بدمشق من بعض التخاليط، فقد يقال أنه يموه بها عن حقيقة أمره حتى تعد من الأغاليط. ومما شاع أن وضعه في البيمارستان كان عن أغراض نفسانية، وأنه دعا على من كان السبب في ذلك من الفضلاء بأن يسلب رونق فضيلته البهية، فاستجيب دعاؤه فيهم، وحرموا لذة النفع بالعلوم، على أن كلاً منهم كان ممن برع على هذا الأستاذ في المنطوق والمفهوم. ولقد حكى بعض علماء الشام الكبار أنه حج فزار السيد صبغة الله في مدينة النبي المختار، فما استقر به الجلوس حتى سأله عن أحوال المنلا نظام، مبدياً للقائه غاية الشوق والغرام. فقال له ذلك العالم أنه جُنَّ ووضع في البيمارستان، ولم يتنبه بقرائن السؤال إلى ما تضمنه من الاعتناء لرفعة الشأن. فاضطرب السيد وقال لذلك العالم بلسان عاذل لاحٍ: ذا مليحٌ وعشاقه كلهم ملاح. ويكفي ما في هذه الكلمة من الإشارة إلى علو قدره، وأنه ممن يُغالى في التنويه بفضله، الذي سلّم له به أعظم أهل عصره» جـ٤/٤٥٢.

(٢) أحد كبار الفقهاء والمتصوفة. من نزلاء مكة المكرمة توفي ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م. انظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٢١٠-٢١٢.

الازدراء والامتهان فيمن ترجمه من الفضلاء والأعيان »[1]. وقد وجه إليه نقداً خاصاً كذلك من خلال بعض تراجمه: فقد دافع عن الشاعر « إبراهيم المهتار المكي » الذي ذمه « ابن معصوم» وذم شعره، فقال فيه: « وشعره كما رأيت إلى الإحسان أقرب، فما أدري أي شيء أبعده، وليس الداعي إلى ما قاله ابن معصوم إلا التحامل والغرض، **ونحن ننظر إلى الجوهر ونترك العرض**»[2].

وبالإضافة إلى نقد « المحبي » لصاحب المصدر، ولفحوى الرواية، فإنه وجه **نقداً دقيقاً للزمن في الخبر**. فقد كان يتمتع بحس زمني نامٍ جداً، ويتابع الزمن بالتحقيق والتدقيق، بل إنه إذا لم يعثر على تاريخ وفاة بعض الشخصيات بالدقة والتحقيق فإنه لا يفرد لها ترجمة خاصة. ومن أمثلة ذلك: ما ورد في ترجمته « لجعفر باشا » والي اليمن ومصر. فقد بيّن أن هناك « جعفراً باشا » آخر كان والياً لدمشق عام ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م ولكنه لم يترجم له مع أنه كان يتعين عليه ذلك، لأنه لم يظفر بخبر وفاته. وعقّب قائلاً: « فلهذا ذكرته بهذه المناسبة، واكتفيت بذلك عن ترجمته »[3]. ومشابه لهذا ما أتى في ترجمته « لأبي السعود الحلبي الكوراني » وذلك عند حديثه عن والد المترجم، حيث قال: « **سألت عن وفاته كثيراً من الحلبيين فلم أظفر بها**، فلم أفرده في هذا الكتاب بترجمة»[4]. والأمر نفسه يلاحظ في كلامه عن «الملاّ أحمد بن الملاّ حيدر الكردي السهراني» ضمن ترجمته «لأحمد بن عثمان المجروحي»[5] **فقد علّق قائلاً**: «وقد ذكرته هنا واكتفيت عن ذكره في ترجمة أفردها له، **لأن وفاته لم تبلغني عن يقين**»[5]، ومثل تلك الملاحظة تتكرر في عدد آخر من التراجم [6].

---

(١) جـ١/٤٧٦ ترجمة (تقي الدين السنجاري المكي).
(٢) جـ١/٥٦.
(٣) جـ١/٤٨٨.
(٤) جـ١/١٢٤.
(٥) جـ١/٢٤٢.
(٦) جـ٤/١٦٦ ترجمة (محمد بن الجوخي) والحديث عن ابنه « أبي اللطف » الذي لم يقف على تاريخ وفاته.

وهكذا كان « المحبي » شديد الانتباه إلى ما تورده مصادره عن تاريخ الوفيات، وكان لا يقبلها على علاّتهـا بل يوازن بينهـا، ثم يأخـذ ما يراه منسجماً مع المنطـق والأحـداث والمصـدر الأوثـق. ومـن أمثلـة تدقيقـة في الزمـن، تاريخ وفـاة العالـم «إبـراهيم بن الأحـدب»: فقـد جعلـه «البورينـي» عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م، بينما ثبته « الغزي » في ذيله بعام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م. أما « المحبي » فقد علّق على ذلك بقوله: « وترجح عندي هذا أولاً (أي ما ذكره الغزي)، ثم رأيت بعض تراجم بخط الشيخ (محمد المرزناتي الصالحي الأدهمي) [١]، وهو من معاصري ابن الأحدب، ذكر أن وفاته كانت نهار الاثنين ثالث عشر شهر رجب سنة عشرة بعد الألف » [٢]. ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره عن تاريخ وفاة « محمد الوسيمي المصري » المعمّـر الذي حدده بعام ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م إذ علّق على هذا التاريخ الذي وجده غير معقول كثيراً بقوله: « نقلت هذه الترجمة من خط صاحبنا المذكور (أي مصطفى بن فتح الله) كما وجدتها. وعلى روايته عن الحافظ (أي ابن حجر العسقلاني) يكون عمره فوق المائة والخمسين سنة، وهذا غريب جداً، والله تعالى أعلم » [٣]، ومن نماذج تدقيق الوفاة أيضاً ما أورده في ترجمة « عامر الشبراوي » حيث قال: « وكانت وفاته في سنة إحدى وستين وألف ودفن بتربة المجاورين؛ هكذا رأيته بخط بعض الأفاضل. ثم رأيت بخط صاحبنا الفاضل إبراهيم الجينيني أن وفاته كانت في غزة، المحرم سنة اثنتين وستين. ثم تحرر عندي من تاريخ الشلي، ووفيات الأخ الفاضل مصطفى بن فتح الله، أنه توفي يوم الجمعة ثاني المحرم سنة اثنتين وستين، فاعتمدت عليه لكون من تحرر عنهما أمس الناس بأحوال وفيات علماء مصر، والله أعلم » [٤]. وشبيه بذلك أيضاً تحديده لوفاة « حسين ابن الجزري » حيث قال: « توفي في سنة ثلاث وثلاثين وألف، هكذا

(١) انظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٤/١٥٨ـ١٥٩.
(٢) جـ١/٣٦ـ٣٧.
(٣) جـ٤/٢٨٦.
(٤) جـ٢/٢٦٣.

ذكر البديعي وفاته ثم رأيت نسخة من ديوان ابن الجزري بخط بعض الدمشقيين ذكر أنه أخبره الأمير « علي بن الأعوج » أن الجزري مات بعد إنشاد البيتين المذكورين بثلاثة أيام، ولم يقل بعدهما شعراً، وأن وفاته كانت في سنة أربع وثلاثين. وناقض « أبو الوفاء العرضي » في وفاته فذكر أنها في سنة اثنتين وثلاثين. ولست أدري أي المقولات أصح » (١).

ومن الأمثلة الأخرى على نقد « المحبي » لتاريخ الوفاة والتدقيق فيها، ما أتى به في تاريخ وفاة « محمد الحجازي ». فقد حددها « البوريني » بيوم الاثنين رابع عشري شعبان سنة عشرين بعد الألف، بينما جعلها « الغزي » في سنة تسع. وقد اعتمد « المحبي » تاريخ « البوريني »، لأن « النجم » قد ناقضه مناقضة ظاهرة بقوله في ترجمة ولده « عبد الحق »، أن هذا الأخير توفي لخامس عشر رمضان سنة عشرين، وعقب بقوله: « وبينه وبين والده أحد وعشرون يوماً » (٢).

ومثلما نقد « المحبي » مصادره الكتابية، فإنه سلطه أيضاً على مصادره الشفوية. ففي ترجمته لـ« روحي الشاعر البغدادي » يقول: « وكنت سمعت خبره قديماً من المرحوم الدرويش « عيسى العينتابي » (٣) وكان كثيراً ما يلهج بأخباره، ويورد ماجرياته، وينشد أشعاره، وأظنه لم يدركه إلا سناً لا اجتماعاً، فروايته لأخباره عن سماع » (٤).

وفي الواقع لقد كان « المحبي » يتبع أسلوب الموازنة بين المصادر في الخبر، والزمن، ومختلف المعطيات، ويقبل ـ كما يفعل المؤرخون المحدثون اليوم ـ ما توافقت حوله الروايات من مصادر مختلفة الأصول، ويشجب ما اختلفت عليه

---

(١) جـ٢/٨٤.
(٢) جـ٤/١٦٥.
(٣) لم يعثر له على ترجمة.
(٤) جـ٢/١٧٢.

إذ ثبت له ذلك، وإذا كان غير قادر على البت في الخلاف، فإنه كان يوضح الخطأ المرتكب، أو النقص القائم، دون أن يعطي الحل الصحيح لعدم وجود مصادر أخرى تفتيه في هذا المجال. ومن بعض مثال على الاختلاف في الخبر، ما أورده من خلاف بين « الطالوي » و« ابن معصوم » حول مكان ولادة « محمد بهاء العاملي » فالأول يقول إنه ولد «بقزوين»(١)، بينما يثبت الآخر الولادة في « بعلبك »، فعمل على ذكر ما جاء في المصدرين دون أن يؤكد إحدى الروايتين (٢). إلا أنه عاد فأكد مولده بالشام في « نفحة الريحانة » ووضعه ضمن أدبائها. فقال عنه: « إنه كان بالشام تكوّن خلقته، وبها بان رشده، وأحسبه من حين لفَّتْه قابِلَتُه في خرقته، ثم انتقل به أبوه إلى قزوين » (٣).

ومن أمثلة نقده لبعض الأخبار أيضاً، ما ورد في ترجمة « عبد الله بن محمود العباسي المعروف بمحمود زاده» قاضي القضاة في دمشق ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م ـ ولا يذكر هنا مصدره ـ، من أن هذا القاضي قد جدد من ماله تعمير ثلاث قباب لزوجتي النبي ﷺ، المدفونتين بمقبرة «باب الصغير»(٤) وهما: أم سلمة(٥) و«ميمونة»(٦) على قول. ويعلّق «المحبي» على ذلك فيقول: «وذلك

(١) مدينة إلى الشمال الغربي من «الري» في بلاد فارس، وجنوبي بحر قزوين. تقع على خط عرض ٣٦°,١٦َ شمالاً وعلى خط طول ٤٩°,٥٦َ شرقاً. جعلها الشاه طهماسب الأول عاصمة للصفويين. انظر عنها معجم البلدان. ج٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٤.

(٢) جـ٣/ ٤٤١.

(٣) جـ٢/ ٢٩١.

(٤) أحد أبواب دمشق، ويقع إلى جنوبها، وعنده مقبرة دمشق الكبيرة.

(٥) هي « هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ». وكانت قبل الرسول عند « أبي سلمة بن عبد الأسد » وشهد بدراً مع رسول الله، وكان فارس القوم. وأصابته جراحة يوم أُحد فمات منها، وكان ابن عمة رسول الله ﷺ، ورضيعه، وأمه « برة بنت عبد المطلب ». ولدت له عمر، وسلمة، وزينب، ودرة، تزوجها الرسول ﷺ قبل الأحزاب سنة ثلاث للهجرة، انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨ أجزاء. القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م. ج٢/ ٤١٤. وتوفي الرسول (ص) وهي حيّة، وتختلف المصادر في تاريخ وفاتها، وإن كانت تتراوح بين ٥٩ ـ ٦٢هـ/ ٦٧٨ ـ ٦٨١م. (الأعلام ج٩/ ١٠٤).

(٦) هي ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم، وكانت قبله عند « عمير بن عمرو »، =

قول شاذ مخالف لما أطبق عليه المؤرخون من أن زوجاته لم تمت أحد منهن خارج أرض الحجاز. وأما «ميمونة» فقد ذكر «الحافظ الباجي»[1]، أنها ماتت «بسَرِف»[2]، وهو ماء معروف على أميال من مكة. ودفنت من ثم بالأنفاق، وكان ﷺ بنى بها هناك أيضاً بعد عمرة القضاء»[3].

ومثلما سلّط نقده على مصادره، وعلى ما أتى فيها من زمن وخبر، فإنه وجهه أيضاً لبعض ما دونه معاصروه من مؤلفات متنوعة، مما يؤكد قراءته لمعظمها. ومن أمثلة ذلك ما قاله في كتاب « محمد بن عبد القادر الحادي » مفتي صيدا، وهو « ألحان الحادي بين المراجع والبادي »: « وقد وقفت على هذا الكتاب وطالعته مراراً، فلم أجد فيه كبير فائدة سوى أنه ذكر مشايخه الذين أخذ عنهم بالشام وأضاف إليهم بعض أدباء راسلهم وراسلوه. وقد استوعبت شعره الذي ذكره فيه فلم أر أجود من قوله. . »[4].ويدخل في نطاق هذا النوع من النقد أيضاً ما تحدث به عن مؤلفات « شرف الدين حفيد القاضي زكريا »، فقد قال عنها: « ألف مؤلفات عديدة، منها « الطبقات »، ذكر فيها شيوخه وعلماء عصره. وكان له **اعتناء تام بالأسانيد ومعرفة الشيوخ، ومواليدهم، ووفياتهم** »[5]، وبذلك يبين « المحبي » عن معيار من معايير

= وهو من ثقيف، لم تلد له شيئاً. وهي أخت أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب، فتزوجها رسول الله ﷺ بسرف في « عمرة القضاء » زوجها إياه العباس بن عبد المطلب. الطبري جـ٢/٤١٥. ويذكر « الأعلام » أنها آخر من مات من زوجات الرسول ويؤكد وفاتها في «سرف» ج٨/ ٣٠١ - ٣٠٢ وقد يكون في عام ٥١هـ أو ٦٣هـ، بينما يذكر صاحب «الروض المعطار»/٣١٢، عام ٣٨هـ.

(١) هو سليمان بن خلف التجيبي القرطبي (أبو الوليد) (٤٠٣-٤٧٤هـ/ ١٠١٢-١٠٨١م) فقيه مالكي كبير من رجال الحديث. مولده في «باجة» بالأندلس. رحل إلى الحجاز وبغداد والموصل، ودمشق، وحلب، وعاد إلى الأندلس، وتوفي بالمرية، من كتبه « السراج في علم الحجاج »، وله مؤلفات كثيرة الأعلام جـ٣/١٨٦.

(٢) سرف (فتح الأول وكسر الثاني انظر حوله معجم البلدان ج٣/٢١٢، والروض المعطار/٣١٢.

(٣) هي العمرة التي قام بها الرسول ﷺ بعد صلح الحديبية، وفي عام ٧هـ/٦٢٩م، وقد قام بها مكان عمرته التي صدّه عنها المشركون في العام الذي سبق. أنظر حولها الطبري جـ٢/٣٠٩-٣١١.

(٤) جـ٤/١٤.

(٥) جـ٢/٢٢٣.

النقد التاريخي آنذاك ولا سيما في كتابة التراجم. ومن نماذج نقد المؤلفات المعاصرة له أيضاً، بعد موازنتها بغيرها، ما ذكره عن كتاب « كشف الالتباس فيما خفي على كثير من الناس » في الأحاديث الموضوعة « لغرس الدين الخليلي »، فقد قال عنه: « وهو كتاب جم الفائدة، رأيته ونقلت منه أشياء. . . و« الغزي » ألف فيه، ولكن تأليف صاحب الترجمة أسهل مأخذاً من الجميع »[1].

أما حول النقد الأدبي للمحبي في كتابه « خلاصة الأثر » ، فهو نقد أديب، عميق المعرفة، واسع الاطلاع على الشعر الماضي وفنونه، وعلى ما قاله الشعراء السابقون والمعاصرون، ونقد شاعر موهوب يدرك خفايا الوزن الموسيقي في الشعر، وجمال جرس اللفظ، وإبداع المعنى، كما وأنه نقد لغوي ضليع يعرف دقائق معنى اللفظ وسلامة اللغة، ومن ثم كان قادراً أن يميز ببراعة بين المعنى المبدع في كل شعر والتقليدي، والمنقول عنه، والمختلس. والكتاب زاخر بتقويمه للشعر الذي يقدمه، وسنطرح بعض نماذج فقط منه تبين منحاه النقدي، وتؤيد ما ذكر، وتثبت أنه كان يسعى إلى تقديم أفضل ما وجد من شعر للشاعر، بحيث لا يضم كتابه إلا الجيد منه.

فقد قال عن « علي بن أحمد المعروف بابن القباني » بأن «له شعر متوسط لم أجد فيه ما هو من شرط كتابي »[2]. وفي ترجمة « عبد الحليم البهنسي »: « وكان ينظم الشعر، إلا أن شعره في غاية القلاقة والتعقيد، ولم أر له ما يحسن إيراده »[3]. وفي ترجمة « رجب الحريري » الزجّال قال: « كان صحيح التخيل في الأشياء إلا أنه يغلب عليه جانب الهجو في تخيله والإزراء حتى بنفسه. جيد النقد في الشعر مع أنه لا يعرف العربية، وزّاناً بالطبع، وإن عرف شيئاً من العروض. وأميل ما كان في أقسام الشعر إلى الهجاء، وله فيه

جـ٣/١٤٦.

جـ٣/١٣٥.

(٣) جـ٢/٣١٩.

نوادر عجيبة، وله كثير من الأزجال، والرباعيات، والمواليا، والموشحات، والتواريخ، والأحاجي. وكل ذلك كان يقع له من غير تكلف روية، بحيث أنه في ساعة واحدة ينظم مائة بيت، ومثلها قطعة أو قطعتين من الزجل والموشح، وقس على ذلك البواقي[1]». وبيّن في ترجمته للشاعر «إبراهيم الأكرمي» بأن «شعره جمع بين جزالة الألفاظ، وعذوبة المعاني». وأن «المحبي» يعتقد «أنه أحسن شعراء هذا التاريخ، لطول باعه في فنون الشعر بأجمعها، وحسن انسجام كلماته ورونقها»[2].

ومن نقده الشعري اللاذع ما قاله في شعر «القاضي إبراهيم بن الغزال»: «وله جامعية بنان وبيان، هو فيها سفينة نوح أو جامع سفيان[3]، إلا أنه كان في شعره متكلفاً، وعن أهل طبقته متخلفاً، لأنه ينبو عن السهل القريب، ولا يستعمل إلا المتنافر الغريب، وربما ندرت له أبيات في مدام فكانت كرمية من غير رام. أستغفر الله، نعم، هو في هجائه مجيد، ولو بازدراء هجائه، لعوب حتى بيأسه ورجائه، يطلع هزله جداً ويرهف حديدته حداً»[4]. وكذلك في شعر «محمد البهائي» حيث أورد ما يلي علماً أن «محمد البهائي» تركي يعرف العربية: «وشعر البهائي في الذروة العليا من المتانة، وحسن التخيل، والمضامين العجيبة، لكنه قلق التراكيب يستعمل فيه الألفاظ الغريبة، ولهذا كان يقول عنه المولى يحيى المذكور: من أراد أن يطالع شعر البهائي فليهيىء القاموس ولغة الدشيشة الفارسية ثم ينظر فيه»[5].

وهناك كثير من النماذج النقدية بالمدح والذم على السواء، مبيّنة معاييره الشعرية الدقيقة، وحسه الجمالي المرهف في الصنعة الأدبية، ومعرفته الغزيرة بالشعر والشعراء، وقد يبين ذلك بشكل أوضح عندما كان يعقد الموازنات بين

---

(1) جـ٢/١٦٠. (2) جـ١/٢١.

(3) التعبيران كناية عن جمع شتى الأمور في شعره كـ«سفينة نوح» التي حوت من كل شيء في الوجود، او «جامع سفيان» ولعلّه يقصد به كتاب «الجامع الكبير» لأمير المؤمنين في الحديث «سفيان الثوري» (٩٧ - ١٦١هـ/ ٧١٦ - ٧٧٨م).

(4) جـ١/٤٦. (5) جـ٤/٣.

شعر الشعراء، أو يرجع الشعر المعاصر إلى المعنى الذي أخذ منه في شعر السابقين، أو لما يدخل في نقد تفصيلي لقصيدة ما[1].

ولم يكتف بنقد الشعر، بل كان له رأيه في النثر أيضاً، وقد يكون من ألطف نقده في هذا المجال، تجريحه لبعض الصكوك التي كان يكتبها القضاة الأروام في وثائق المحاكم، تعليقاً في وثيقة وقف، أو إعتاق جارية أو غير ذلك. فقد قال عنها: «هذا أسلوب لطيف جرى عليه كثير من قضاة الروم، وتكلفه بعضهم ممن لا يعرف أساليب الإنشاء العربي، فجاء سمجاً مضحكاً والعجب العجب منه إمضاءات المولى «محمد بن حسن جان»[2] الذي كان ولي قضاء حلب ودمشق»[3].

ويبدو «المحبي» موضوعياً في نقده الأدبي، فهو لم يجد غضاضة مثلاً في تجريح خفي لشعر والده نفسه، حين قال في أدبه: «وشعره وإن كان جيداً، إلا أن نثره أجود، وألطف موقعاً، وأبدع صنعة»[4].

أما النقد الثالث في كتاب «المحبي» فهو تقويمه للشخصيات التي ترجم لها: وقد ينقل أحياناً تقويم مصادره التي أخذ عنها، ولا سيما إذا كانت الشخصيات بعيدة عنه، ولم يحصل على مصادر للموازنة، فهو في هذه الحالة ناقل، وفي الوقت نفسه متبنٍّ لما ذكرته تلك المصادر، ومن ثم فعنصر النقد ضعيف فيها. إلا أن نقده المباشر يبين فيمن عاصرهم هو بنفسه واحتك بهم.

---

(١) أنظر على سبيل المثال فقط لا الحصر موازنته بين شعر «فتح الله المعروف بابن النحاس» وشعر «الأمير منجك» (جـ٣/٢٥٧ـ٢٥٨) ترجمة «فتح الله المعروف بابن النحاس» وكذلك نقدة التفصيلي لشعر «محمد الصالحي الهلالي» جـ٤/٢٤٧ـ٢٤٨ وفي ترجمة «عبد الرحمن بن النقيب» جـ٢/٣٩٠، وترجمة «أبي بكر العمري» جـ١/٩٩، وترجمة المولى «أحمد بن المنلا المنطقي».

(٢) أنظر ترجمته في خلاصة الأثر جـ٣/٤١٨ـ٤٢٠.

(٣) جـ٢/١٦٣ ترجمة (رحمة الله الينكيشهري).

(٤) جـ٣/٢٧٨.

ومع أنه أكد في مقدمته بأنه يبغي نشر أخبار فضلاء عصره، إلا أنه في الواقع يشرِّح الشخصية، ويوضح الغث والسمين فيها، حتى تلك القريبة إلى قلبه، كأساتذته وأهله. فقد نقد شيوخه مع حبه وتبجيله لهم، كقوله مثلاً في شيخه «إبراهيم بن رمضان الدمشقي المعروف بالسقاء الواعظ»: «وكان يبالغ في التهديد والزجر، وكان لا يخلو من تعصب»[1]، وفي شيخه «محمد بن يحيى الفرضي»: «مع أنه كان رحمه الله تعالى، حاد المزاج، سريع الانفعال»[2]. بل هو يمزج إبراز الصفات الحسنة وغير المستملحة في الشخصية مزجاً بارعاً، ومتوازناً، ويظهر هذا مثلاً في حديثه عن «فتح الله النحاس» فيقول: «وكان مع ظهوره بزي الفقراء من الدراويش كثير الأنفة، زائد الكبرياء والعجب، ومن هنا حرم لذات المعاشرة، واستعرض أكدار المذمة، وهذا عندي من الحمق العظيم، مع أنه ينافيه جودة تخيله في الشعر. وقد يقال إن الشعر موهبة لا يتوقف أمره على وجود الصفات الكاملة بأسرها. وأما أمر التناقض في الأحوال فكثير من يبتلى بها، وهي وصمة لا راد للطعن فيها بحال. ومما يحسن إيراده في هذا الشأن ما يروى عن الإسكندر أنه رأى رجلاً عليه ثياب حسنة وهو يتكلم بكلام وضيع فقال له: يا هذا، إما أن تتكلم بقدر ثيابك أو تلبس ثياباً على قدر كلامك»[3].

ومن تقويمه لبعض الشخصيات السياسية المعاصرة، له والذي طرح فيها أيضاً الوجهين الحسن والقبيح، حديثه عن «مصطفى باشا» الوزير الأعظم. فقد قال عنه: «وكان في حقيقة أمره مدبراً، حازماً، وعاقلاً، ومتمولاً وجيهاً. وله محبة في العلماء والفضلاء، يحب المذاكرة العلمية، ويرغب في الفائدة، وربما اشتغل وذاكر في صنوف من الفنون. وكان ملتفتاً لأحوال الناس فيما ينظم أمرهم، إلا أنه كان شديد

---

(١) جـ١/٢٧.
(٢) جـ٤/٢٦٥.
(٣) جـ٣/٢٦٠.

الطمع في جمع المال، وعنده عجب وخيلاء ونفسانية»[1].

ومن قرصه اللاذع لبعض الشخصيات ما قاله في شخصية «إبراهيم بن الغزال» الشاعر «حيث وصفه بأنه فتى مداعبة ومجون، طبعه بالخلاعة معجون، إذا تكلم ببنت شفة فهي في حقه سفه. لا يستفزه قيل وقال، وكل عثرة منه تقال» [2].

وقد يعطي في الشخصية نقد المعاصرين لها إلا أنه يلتزم جانب الحياد في الحكم، كما فعلا مثلاً عند حديثه عن «محمد كبريت» حيث قال عنه: «وكان يصدر عنه قولات (في التصوف ووحدة الوجود) ربما أنكرها بعض معاصريه ونسبوه فيها إلى الإلحاد» [3].

وخلاصة القول، تظهر في تقويم «المحبي» للشخصيات التي يترجم لها، **معرفة عميقة بالنفسية الإنسانية، وقدرة على التحليل النفسي الدقيق، وملاحظة مستقصية وممحصة، وعلم غزير، واندفاع نحو قول الحق الذي يعتقده دون مواربة، مع توخي الموضوعية ما أمكن، وإن كان يغطي المؤذي من الصفات أحياناً بأسلوب أدبي يخفف من وقعها.**

وأخيراً من العسير في الحقيقة متابعة «المحبي» في كل مجالات فكره النقدي المتنوعة عبر «خلاصة الأثر»، فقد يطرح هنا كلمة أو كلمات، وهناك عبارة أو عبارات، وفي هذه الترجمة أو تلك حواراً، أو رأياً وكلّها قد تكوّن منمنمات نقدية تدل على فكر واع، لم يعتمد مجرد النقل والسرد له خطاً أبداً. ومن بعض تلك المنمنمات الموضوعية الجميلة في «النقد العام» مثلاً، ما أورده في حوار جرى بينه وبين بعض أدباء الروم حول «الشعر المعمّى». فقد

(١) جـ٤/٣٩٧.　(٢) جـ١/٤٦.　(٣) جـ٤/٢٩.

قال له ذلك الأديب الرومي مجابهاً بأن أبناء العرب لا يعرفون المعمى، فقال « المحبي »:« فأوردت له أشياء منه بالعربية، فاعترف بأن المتأخرين مشوا على نهج الأعاجم والأروام فيه، لكثرة اختلاطهم بهم، وأما المتقدمون فلا يعرفونه. فأخرجت له دفتراً من جمعياتي نقلت فيه عن « ابن قتيبة » اللغوي، قال: إن هذه الأنواع الثلاثة وهي الأحاجي، واللغز، والمعميات، من خصائص العرب، وكل من نظم فيها من أبناء فارس وأبناء الروم إنما أخذ ذلك عنهم، وتطفل على موائدهم، وانظر إلى تسمية هذه الأمور الثلاثة هل هي عربية أو فارسية: فالمعمى من التعمية وهي التغطية، والأحجية من الحجا وهو العقل، كأنه يختبر فيها العقل، واللغز، الاخفاء، انتهى ما قاله (أي ابن قتيبة)»[1]. إلا أن « المحبي » لم ينسق مع هذا القول المتحمس للعرب مع أنه منهم وفخور بعروبته ـ كما بيّنا سابقاً ـ بل إنه قال بموضوعية علمية، هادئة ورصينة، وبحكم سليم: «ولكن مع هذا فالحق أحق أن يتبع: إن تطفل الفرس والروم على العرب في هذه الأمور وإن كان واقعاً، لكنهم لجودة أفكارهم تصرفوا فيه تصرف الملاّك فاستحقوا أن يوصفوا بالتفرد به»[2].

ولكن قد يتساءل، وكيف يوصف فكر « المحبي » بأنه فكر نقدي، وهو يورد في كتابه عديداً مما كان يسمى بـ« كرامات المتصوفة » و« المجاذيب »؟ أفلا يبتعد بذلك عن الفكر العلمي الوضعي؟ إن مما لا شك فيه أن « المحبي » قد اعتقد بالكرامات شأنه في ذلك شأن معظم مفكري عصره، ولم يستطع ذهنه النقدي أن يرفضها، لأن مجموع الوسط الذي عاش ضمنه كان مستغرقاً فيها، ومؤمناً بها، ولكنه بالمقابل لم يأخذها كلها على علاّتها، بل قلص مداها، بمعنى أنه لم يورد منها إلا لمن كان لعلماء استعمقوا في أمور العلوم الدينية وأحياناً الدنيوية معاً. ويؤكد هذا ما أورده في مقدمة خلاصة الأثر، حيث قال: « ولا أثبت من الكرامات إلا ما تحققته »[3]. فـ« المحبي » لم يتخط فكر عصره

---

(١) جـ٢/٣٩٢ ترجمة (عبد الرحمن بن النقيب).

(٢) المصدر نفسه الصفحة ذاتها.

(٣) خلاصة الأثر جـ١/٥.

بشجبه لها وتجاوزها، إلا أنه مع ذلك ارتفع عنه أكثر من درجة عندما نقد ما يشاع عن تلك الكرامات، فلم يثبت إلا ما تحققه منها، بحسب قوله، وما رأى في بعضها استشفاف رؤية مستقبلية ممكنة، قد تكون نابعة من تفكير وتأمل عميقين. ومن ثم فإن إيراده للكرامات لا يعني تجرد فكره من روح النقد الموضوعي والواقعي، بل إنه في بعضها يظهر عجبه منها، ويحيل بعضها الآخر إلى راويها، كأن يقول مثلاً عن بعض المتصوفة: «وله كرامات خارقة كما أخبر من شاهدها من الثقات»[1]. ومع ذلك فهي لا تسيطر على مجموع كتابه ولا تطغى، وإنما تأتي مبعثرة هنا وهناك، ولوناً مكملاً لصورة العصر.

رابعاً: وإذا ما تجاوزنا النقد عند « المحبي » إلى « **التركيب** » وهو من أهم المراحل في البحث التاريخي، نرى بأن « المحبي » قد تمتع بعقل منظم، وقد ظهر هذا واضحاً ـ كما أشرنا سابقاً ـ في ترتيب تراجمه بحسب حروف المعْجم. وقد أشير أيضاً بأن هذه الطريقة التي اختارها، على الرغم من تنظيمها لمجموع موضوعه تنظيماً يسهل سبل الرجوع إلى جزئياته، ليست بالطريقة القادرة على إبراز مضمون التطور التاريخي، كما لو فعل إذا ما رتبها بحسب تسلسلها الزمني، أو صنفها بحسب الزمان والمكان أو النوعية: وقد فعل جزءاً من ذلك في « نفحة الريحانة »، حيث ركبها حسب المكان والزمان، وأفرد لكل قطر عربي شخصياته. ومن ثمَّ يلاحظ أن التراجم في خلاصة الأثر جاءت مبعثرة الأحداث بالنسبة للقارىء العادي، وقاصرة عن إعطائه مضموناً تاريخياً متواصلاً عن مجموع العصر.

ومع أن « المحبي » نظر إلى « ترجمة الشخصية » وحدة تركيبية قائمة بذاتها، إلا أنه في الواقع ربطها دائماً بالتراجم الأخرى التي تتواصل معها، أو

(١) جـ٣/٤٠٤ ترجمة (محمد بن بركات السقاف).

تكملها، أو تفصّل بما جاء فيها، أكانت تلك التراجم سابقة أو لاحقة. ويعجب القارىء لذاكرة « المحبي » ونباهته في هذا الشأن، لأن من النادر أن تفوته إحالة ما، مما يؤكد وضوح الصيغة التركيبية في ذهنه عن مجموع العصر، وتزامن شخصياته، بل وعناصر تطوره، ومن أمثلة تلك الإحالات الكثيرة ما أورده في ترجمة « محمد باشا » والي حلب وأدنة ودمشق حيث قال: « وصاحب الترجمة قد تم معرض في ذكر موته في حرف الهمزة في ترجمة أبي البقاء الصالحي، وهو كالتتمة لما ذكرناها هنا »[1]، ومثله ما أتى في ترجمة « سنان باشا » الوزير الأعظم، حيث أتى فيها على ذكر « الشيخ أدهم بن عبد الصمد العكاري » وكان من معتقدي سنان باشا، فقال حوله: « المقدّم طرف من أخباره في ترجمة ابنه «جلال»[2]. وفي ربط تلك التراجم ببعضها لا يسهى « المحبي » عن بيان صلة القربى بين المترجم لهم، فيشير إلى أن فلاناً هو والد فلان، أو حفيده، أو عمه، إلى غير ذلك. ففي ترجمة « محمد بن خصيب القدسي » على سبيل المثال فقط لا الحصر، يقول: « وقد تقدم حفيده محمد بن علي، وذكرت نسبه ثمة فليرجع إليه »[3]. وقضية ذكر نسب الشخصية قضية هامة لدى « المحبي » على ما يبدو، ولدى علماء العصر، إذ أنه في تقريظ كتب التاريخ آنذاك هناك إشارات دائماً إلى أن صاحبها قد أثبت النسب بدقة. ويلاحظ أن « المحبي » يضع نسب الشخصية في أول ترجمة يقدمها لأسرة ما، وقد تكون هذه الشخصية هي أصغر أفراد الأسرة عمراً، ثم يحيل إليها في تراجم الشخصيات الأخرى من الأسرة نفسها. والمثل السابق شاهد على ذلك، ومن النماذج أيضاً ما ورد مثلاً في ترجمة « محمد النجم الغزي » حيث يقول: « وتقدم تمام النسب في ترجمة أخيه أبي الطيّب»[4] ومثله كثير، بل إنه عند ترجمته للسلطان « إبراهيم ». وهو أول سلطان عثماني يترجم له،

---

(١) جـ٤/٢٩٦ أما ما ورد في ترجمة (أبي البقاء) فأتى في جـ١/١١٤.

(٢) جـ٢/٢١٥ وترجمة (جلال بن أدهم) جـ١/٤٨٩.

(٣) جـ٤/١٥٤.

(٤) ج٤/١٨٩. ترجمة (أبي الطيب الغزي) ج١/١٣٥.

تحـدث عن أصـل بنـي عثمان ونسبهـم[1]. وهـكذا «فالمحبـي» كان حريصاً جداً على ربط تراجمه ببعضها ما أمكن، مع توخي عدم التكرار في النسب، أو الحوادث، ففي ترجمة السلطان محمد مثلاً يشير بشكل سريع إلى تحرك الطغاة (أو زعماء الجلالية) في بلاد الأناضول، ويعدد أسماءهم تعداداً فقط من أمثال عبد الحليم اليازجي، وحسين باشا حاكم الحبشة، وحسن أخي عبد الحليم، ويختم الكلام بسرعة بقوله: « وقد ذكرنا تفصيل أحوالهم في ترجمة عبد الحليم فلا نطيل بإعادتها »[2]. ومن ثم إذا أعيد ترتيب تلك التراجم إلى جانب بعضها، ومزج ما ورد فيها، فإنه يمكن الوصول إلى وحدة تاريخية جديدة أوسع وأعمق من وحدة الترجمة الواحدة وحدها.

وإذا ما أخذت كل ترجمة على حدة بصفتها موضوعاً قائماً بذاته يمثل إحـدى صور العصر، فهـل اتبـع مؤرخنـا في تركيبهـا أسلوبـاً معينـاً يتسم بالعلمية؟ إن قضية « التركيب التاريخي » في الترجمة الواحدة تثير ما تثيره في أي موضوع تاريخي وهو « مشكلة انتقاء المعلومات » التي تكوّنها. وفي الواقع، لقد انتقى « المحبي » في أغلب تراجمه، حتى القصيرة أحياناً، من المعطيات حول الشخصية ما يكوّن صورة واضحة الملامح عنهـا. ولكن لا بد من التحفظ قليلاً في هذا الحكم، إذ من العسير أن يتبين بسهوله، ودون إجراء موازنة دقيقة، ما هو « للمحبي »، وما هو للمصدر الذي استقى منه، وإن كان بأمانته العلمية يشير في معظم التراجم إلى ما أخذه من كل مصدر. ومع ذلك فإنه يمكن القول بأنه طالما أورد « المحبي » تلك المعطيات في ترجمته، ولو كانت أحياناً بأسلوب مصدره، فإنها غدت من معطياته.

ويمكن إجمال نوعية المعلومات التي صاغها في كل ترجمة من تراجمه بما يلي:

١ ـ التعريف الأوّلي بالمترجم عن طريق طرح أسمه، ولقبه، فنسبه. وقد بيّنا

---

(١) جـ١/١٣.

(٢) جـ٤/٢١٩.

سابقاً أنه قد يسلسل النسب أحياناً إلى الجد الأربعين، ولا سيما إذا كان ذلك النسب يتصل بشخص النبي الكريم ﷺ [1]. أو بشخصية من شخصيات الصحابة، أو شخصية إسلامية كبيرة في الماضي. وقد لا يضع أحياناً تسلسل النسب ولكن يشير إلى الرابطة النسبية مع تلك الشخصية الكبيرة. كذكره مثلاً أن «جمال الدين الجنيد الدمشقي» ينتهي نسبه إلى «معاوية بن أبي سفيان» [2]. وكان يدقق في لفظ الأسماء والكنى فيشكلها لفظاً، ولا سيما إذا كانت غريبة نسبياً، كقوله مثلاً: «أبو بكر الأخرم على صيغة أفعل بالخاء والراء» [3] وبذلك تفادى تصحيف الاسم ما أمكن إذا ما تم نسخه عنه من قبل ناسخ ما. وكقوله: «الشُرُنْبُلالي بضم الشين المثلثة مع الراء وسكون النون وضم الباء الموحدة، ثم لام ألف، وبعدها لام» [4].

٢ ـ التعريف بالبلد الكبير الذي ينتسب إليه كقوله «الهندي»، «القرماني»، «الكرمياني»، «الكرجي»، «الحبشي»، «الجركسي»، الخ. ثم بالبلد الصغير أكان مدينة أو قرية، وهل هو أصيل فيها أم نزيل. كقوله مثلاً: (البتروني الأصل، الحلبي المولد) [5] أو (عبد الجليل بن محمد المعروف بالشامي، الدمشقي المولد) [6] أو (عبد الجواد المصري نزيل دمشق) [7] والأمثلة كثيرة جداً وبذلك فمن الممكن القيام بدراسة اجتماعية عن البنية السكانية لمدينة ما، أي من هم الأصلاء فيها ومن هم الغرباء، كما أشرنا إلى ذلك في «المعطيات الاجتماعية».

---

(١) أنظر على سبيل المثال نسب (الشاه عباس الصفوي) جـ٢/٢٦٧.
(٢) ج١/٤٩٠.
(٣) جـ١/٨٧.
(٤) جـ٢/٣٩ ترجمة (الشيخ حسن الشرنبلالي).
(٥) جـ١/١٠ ترجمة (إبراهيم البتروني).
(٦) جـ٢/٢٩٩.
(٧) جـ٢/٣٠٦.

٣ ـ التعريف بأصله العرقي كقوله مثلاً (رومي ويقصد عثماني)[1]، أو (كردي)[2]، أو (عجمي)[3]، أو (تركماني)[4] .. الخ. ولكنه لا يشير إلى الأصل العربي إلا نادراً جداً. ولعلّه رأى انه لما كان معظم من ترجم لهم عربي الأصل، فإنه لا ضرورة للعودة إلى ذلك في كل ترجمة، ولا سيما أنه قد حدد الغريب عن العروبة.

٤ ـ التعريف بالمذهب السني لصاحب الترجمة إذا كان من العلماء (حنفي، شافعي، مالكي، حنبلي) أما الشيعي، فقد تأتي إشارات في ترجمته تنبي عن ذلك، وقد لا تأتي، أي أنه لا يشير صراحة إلى هذا الأمر وكذلك الأمر بالنسبة للمذهب الدرزي، ما عدا بعض الشخصيات البارزة كفخر الدين الثاني على سبيل المثال.

٥ ـ التعريف بالطريقة الصوفية التي كان يسلكها إذا كان من متصوفة الطرق، كأن يقول عنه: (نقشبندي، كلشني، خلوتي، مولوي.. الخ).

٦ ـ التعريف بعمل المترجم، كأن يكون قاضياً، أو شيخاً للإسلام، أو قاضي عسكر، أو مفتياً، أو واعظاً، أو مؤذناً، أو مدرساً، أو مقرئاً، أو طبيباً، أو رئيساً للاطباء، أو أديباً، أو شاعراً، أو مؤرخاً، أو سلطاناً، أو وزيراً أعظم، أو نائباً لولاية محددة، أو أميراً للحج، أو أميراً على منطقة معينة، إلى غير ذلك من الأعمال الكثيرة والمتنوعة، الحرة أو المرتبطة بالدولة. ويلاحظ أنه عند تعريفه بعمل الشخصية فإنه يبين العمل الأخير الذي وصلت إليه، ثم يسلسل الأعمال السابقة له أثناء كلامه عن مجموع الحياة.

---

(١) على سبيل المثال فقط: (آدم الرومي) جـ١/٥.

(٢) على سبيل المثال فقط: (أحمد بن عثمان بن أبي بكر الكردي السهراني المعروف بالمجروحي). جـ١/٢٤٢، وكذلك « حسن الكردي » جـ٢/٧٨.

(٣) على سبيل المثال فقط: (محمد أمين الدفتري العجمي) جـ٤/٢٩٠.

(٤) على سبيل المثال فقط: (الأمير موسى بن محمد الشهير بابن تركمان) جـ٤/٤٣٤.

٧ ـ التعريف بمختلف صفات الشخصية، ومنها **الصفات الجسمية**، وهذه لا تشاهد دائماً، كأن يقول مثلاً « كان نيّر الوجه، نقي الشيبة »، أو « جم الطول ذا مهابة وجلالة »، أو « حسن الصوت »، أو « مشوه الخلقة قبيح المنظر »، أو « ربع القامة، نحيف الجسم » إلى غير ذلك من صفات جسمية حسنة أو قبيحة.

ومن الصفات التي تتضمنها الترجمة أيضاً، **الصفات الخلقية** كقوله: « طبع سليم وخلق دمث »، « لين العريكة فيه تواضع وانعطاف »، « لطيف الطبع كأنما امتزج مع الصهباء وخلق من رقة الماء » إلى غير ذلك من صفات خلقية كثيرة، وقد يمزج الصفات الخلقية بالفكرية في بعض الأحيان.

إلا أنه على الغالب يأتي **بالفكرية** وحدها فيقول مثلاً في بعض التراجم: « المشهور بلطف البداهة »، « إليه النهاية في الذكاء والبراعة »، « كثير التفكير »، « جيد الفهم »، « سريع الفهم »، له « حفظ جيد»، « وكان في الذكاء وقوة الحافظة مما يقضي منه العجب » وله « قريحة سيالة وفكرة نقادة ».

وإذا كان المترجم له عالماً فإنه كان يوضح إلى جانب صفاته العلمية مركزه العلمي وقيمته في هذا الحقل، كأن يقول عنه بأنه «الحجة» و« الثبت »، أو « أوحد وقته في فنون الحديث والفقه والأدب »، أو « جبل من جبال العلم» أو « غزير العلم » « وافر الاطلاع » « له المهارة القوية في اللغة »، وعن عالم نحوي مثلاً « وكان إذا أورد المسائل النحوية يورد لها شواهد عديدة لا يجدونها في الكتب المتداولة »، إلى غير ذلك من الصفات التي يصعب حصرها. ويلاحظ أن « المحبي » نادراً ما يسهو عن الصفات العلمية للمترجم حتى ولو كانت الشخصية المترجم لها سياسية. ففي ترجمته للسلطان أحمد العثماني أكد ميله للأدب والمحاضرات، ونظمه

للشعر العربي والتركي[1]، وكذلك الأمر عند حديثه عن السلطان أحمد المنصوري السعدي[2].

وإذا كانت الترجمة العالم مدرّس فإنه لا يغفل عن صفاته التعليمية، كأن يقول عنه مثلاً: «حسن التقرير» «يبالغ في تفهيم الطلبة ويكرر لهم تصوير المسائل»، و«كان إذا قرر المسألة لا يزال يكررها بعبارات مختلفة حتى تظهر بادي الرأي» إلى غير ذلك من الصفات التي تبين الطريقة التي كان يستخدمها المترجم في التعليم ومدى فائدتها..

ولم ينس «المحبي» في الترجمة أيضاً، «**الصفات الدينية**»، كقوله مثلاً في بعضها: «كان متقشفاً» «ملازماً للطاعات»، «كثير التلاوة للقرآن»، «سلك منهاج الصالحين من السلف من الزهد والتقوى والتقشف مع الورع الزائد»، وغيرها كثير.

وكان بالطبع يرفق مختلف تلك الصفات بإشارات كثيرة إلى الصفات **الاجتماعية ـ الأخلاقية**، كأن يقول مثلاً: «وكان له سخاء ومروءة وحمية»، و«له سخاء وإيثار»، «قانع بضنك العيش»، «محترم» «نافذ القول»، «للناس فيه اعتقاد عظيم»، «بذيء اللسان قليل التدبير، وليس عنده شيء ممتنع» وغيرها.

وفي الواقع، إن الصفات المتنوعة التي يطرحها «المحبي» عبر تراجمه، والمتلائمة مع كل شخصية ونوعية عملها، تكوّن مادة دسمة لدراسة قيم العصر المختلفة، وإن كان الأغلب فيها الصفات الجميلة والحسنة، وبعضها يحمل طابع الغلوّ .

---

(١) جـ١/ ٢٨٤.

(٢) جـ١/ ٢٢٣ـ٢٢٥.

٨ ـ وينتقل «المحبي» إثر ذلك إلى طرح النقاط الرئيسة في حياة المترجم، ويسعى كي تكون متسلسلة زمناً ما أمكن. أي يبدأ بها من ولادته إلى وفاته. وكان أكثر ما يهتم به في تراجم العلماء ـ وعلى عادة مترجمي عصره ـ بالمشايخ الذين أخذ العالم المترجم منهم، وكذلك الأمر بالنسبة لرجل السياسة إذا كان من المتعلمين. ويتعرض مؤرخنا لخصوصيات الشخصية إذا ما أثرت في حياتها أو عملها من: زواج، أو طلاق، أو نزاع بين الأخوة، أو نزاعات أسرية معينة، أو تعاط للمكيفات، أو للخمر، أو وله بالغلمان. كما يظهر تنقله في البلدان، ثم أعماله، أكان سياسياً، أو عالماً، أو مدرساً، أو غير ذلك، والتطورات التي طرأت على عمله خلال حياته. ولا يكتفي بمجرد السرد، بل قد يعلّق هنا وهناك، وعبر أحكامه الخاصة. وإذا كان المترجم من المنتجين في الميدان الثقافي، فإنه كان يعدِّد مؤلفاته المختلفة، ويقوِّم ما اطلع عليه منها. وقد يوثِّق ذلك الإنتاج الفكري الذي تحدث عنه مجملاً بنماذج من ذلك الإنتاج، وبصفة خاصة في ميداني الأدب بنثره وشعره، أو في ميدان الأحكام القضائية، أو المحاورات الفكرية. وإذا كانت الشخصية التي يعرض لها سياسية، فإنه كان يفصل بالأحداث السياسية التي اشتركت فيها، مع بيان نتائجها.

٩ ـ ويختم المحبي ترجمته دائماً بتاريخ وفاة المترجم، باليوم، والشهر، والسنة مع الإشارة أحياناً إلى المرض الذي توفي به. ويغلقها ببيان مكان دفنه، وبتحديد اسم « التربة » أو المقبرة التي تم فيها ذلك، ومن صلّى عليه إذا كان المترجم من مدينته دمشق ومعاصراً له. وإذا كان متأكداً من تاريخ ميلاد المترجم فإنه قد يورده موضحاً المصدر الذي استقاه منه. وكثيراً ما كان يشرح في خاتمة الخاتمة (كنية المترجم) إذا بدت له غريبة قليلاً، وإذا كانت ترجع إلى مدينة، أو مكان ما فإنه يقوم بتحديده، والتعريف به. وفي بعض التراجم قد يفرد في آخر الترجمة ترجمة خاصة لأسرة المترجم، إذا كانت من الأسر اللامعة بالعلم، أو المال، أو السلطان، أو التصوف.

ولا بد من الإشارة في نهاية المطاف في الحديث عن « آلية التركيب» عند « المحبي » ضمن « الترجمة الواحدة»، بأن عناصر التركيب المذكورة، آنفاً قد لا تأخذ الترتيب ذاته في مختلف التراجم، بل قد يقدم ويؤخر في بعضها، ويقلص في جزء منها، ويزيد في آخر، بحسب ما يتوافر لديه من معلومات، إلا أنه يسعى دائماً لتغطية النقاط المبينة ما أمكنه ذلك.

كما لا بد من التعليق بأن هناك سمة يتصف بها عدد من تراجم « المحبي » ألا وهي « الاستطراد ». وقد يبدو أنه جزء من « تركيب الترجمة »، ولكنه في الواقع زائد عنها، ويعرف « المحبي » هذا الأمر، ويسعى في كل مرة يدخل فيها هذا الباب، أن يعتذر عنه، تارة مسوّغاً وأخرى غير مسوّغ[1]. وهذا « الاستطراد » يكون إما لتعليق على أمر من صميم الترجمة، أو من حوافها، فيخرجه عن صلب الموضوع وسياق الترجمة، أو لشرح شعر، أو نثر، أو مثل، أو لموازنة بين أمرين، أو لأية معلومات إضافية، لغوية أو غيرها، استثارتها الترجمة في ذهن المحبي، وود أن يقدمها[2].

---

(١) كقوله مثلاً: « وقد خرجنا عن الصدد الذي نحن فيه لعلك لا تسأم» (جـ٢/٣٩٣) ترجمه «عبد الرحمن ابن النقيب». وكان استطراده بسبب حديثه عن «المعمى من الشعر» الذي اشتهر به الشاعر وفي ترجمة أخرى قال: «وقد أطلقنا عنان القلم في ميدان المداد، وإن كان ليس من شرطنا المراد، إذ الحديث شجون، والكلام يجر بعضه بعضاً» (ج٢/ ٤٦٤) ترجمة (عبد القادر الطبري) وكان الاستطراد لحديثه المطول عن «بيت الطبري» وفقههم.

وفي ترجمة (شرف الدين الغزي) (جـ٢/٢٢٤) كان استطراده بعد سؤال لغوي، وقال بعد ذلك الاستطراد، وقد أحس بعيبه المبدئي: « وقد تجاوزت الحد المضروب للتاريخ، ولكن ربما حسن هذا الاستطراد عند قوم، وبالجملة فالمقصود الفائدة، ولعل كتابنا هذا لا يخلو منها».

(٢) أنظر على سبيل المثال: جـ١/١١، وشرحه لمثل « الحديث شجون ». ترجمة (الشيخ إبراهيم الحصكفي) وجـ١/٢٠١، وشرحه مثل (أول شام وآخر شام) في ترجمة (أحمد المنطقي)، وجـ١/ ١٥٠ وشرحه (النفس خضراء تشتهي كل شيء) في ترجمة (أبي الوفاء العرضي) وكذلك في ج٢/١٩٨ ترجمة (زين العابدين البكري) حيث استطرد الى حديث ـ

إن مما لا شك فيه أن «استطرادات» المحبي تدل على اطلاع واسع، وثقافة متنوعة، وفوائد للقارىء، إلا أنها تبقى غريبة عن جسم الترجمة. ويمكن تشبيه استطراداته بالهوامش المفيدة في وقتنا الحاضر. أي بدل أن تكون التعليقات، والشروح، والإضافات ضمن الهامش كما هو عليه الأمر اليوم، فإن «المحبي» أدخلها في المتن، وبذلك قطعت السياق التركيبي للترجمة.

ومن النماذج على استطراداته المفيدة، ما طرحه في ترجمة الأديب الشاعر «أحمد بن شاهين القبرسي»[1]. فبعد أن عرّف به وبشعره، بيّن أنه امتحن باصطناع الكيمياء، وصرف عليها أموالاً جمة، ولم ينل منها طائلاً، وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات من جملة قصيدة «للطغرائي»[2] في هذا الفن (يقصد الكيمياء)، وهي:

يـا طـالبَ العلمِ عليـهِ يـدورْ   في كتب الرازي[3] وشرح الشذورْ[4]

= الاستسقاء في دمشق وما تم فيه موازنة مع الاستسقاء الذي جرى في مصر ودعا فيه المترجم. وفي جـ٢/١٤٨، في ترجمة (داود البصير) حيث أدخل «المحبي» نفسه في الرد على بعض أفكار مطروحة من «داود البصير» وغيره. وهنا أيضاً شعر بعيب الاستطراد الطويل فقال: «وتجاوزنا الحد في الإطالة، فلنرجع إلى تتمة الشيخ داود». وشبيه بما سبق استطراده في شرح قصيدة لـ(عبد الباقي السمان) جـ٢/٢٨١ وغيرها.

(١) خلاصة الأثر جـ١/٢١٠-٢١٧.

(٢) هو الحسين بن علي الأصبهاني الطغرائي (٤٥٥-٥١٣/ ١٠٦٣-١١٢٠) من الوزراء الكتاب عمل مع السلطان مسعود السلجوقي في الموصل. شاعر، وله ديوان شعر. وأشهر شعره لامية العجم ومطلعها: أصالة الرأي صانتني عن الخطل. وينسب إليه كتاب في الكيمياء الأعلام جـ٢/٢٦٧-٢٦٨.

(٣) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١-٣١١هـ/ ٨٦٥-٩٢٣م) فيلسوف، وعالم كبير في صناعة الطب والكيمياء. من أهل الري، انتقل إلى بغداد، وعمل رئيساً لأطباء البيمارستان العضدي فيها، له عدة مصنفات في الطب والكيمياء، منها «الحاوي» في الطب و«المنصوري» و«سر الصناعة» أو «سر الأسرار». دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٩/٤٥١-٤٥٧- الأعلام جـ٦/٣٦٤-٣٦٥.

(٤) كتاب في صناعة الكيمياء ينسب إلى «علي بن موسى أرفع رأس» الأنصاري الأندلسي، الذي كان أديباً وشاعراً وكيماوياً وتوفي عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م. أنظر حول مؤلفه: شذرات الذهب

وجابر[1] مع نجلِ وحشيةٍ[2] وخالد الأول[3] ذاك الحذورْ
إذا هو السهلُ القريبُ الذي أماتَ بالحسرةِ أهلَ القبورْ

ويسترسل «المحبي» بعد إيراد تلك الأبيات، فيعمل على شرحها ويترك تكملة ترجمة «أحمد بن شاهين» موقتاً. وفي ذلك يقول استطراداً: «كتب الرازي في هذا الفن كثيرة، أشهرها «سر الأسرار». و«شرح الشذور» الذي عناه (أي الطغرائي في شعره) هو «شرح الجلدكي»[4]، لأنه أشهر شروحه. وأما متنه فهو لسيدي علي بن موسى بن أرفع رأس المغربي[5]. وجابر هو ابن حيان الصوفي، عبد الإمام جعفر الصادق[6] رضي الله عنه، وفيه يقول صاحب الشذور:

= جـ٤/٣١٧. والكتاب ديوان مرتب على الحروف، خمّسه «محمد بن موسى القدسي» وشرحه الجلدكي. أنظر كشف الظنون/ ١٠٢٩، والأعلام جـ٥/١٧٨. ويبدو من تاريخ وفاة الطغرائي وابن أرفع رأس، بأن هذا البيت لا يمكن ان يكون للطغرائي.

(١) هو جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي أبو موسى، توفي حوالي ٢٠٠هـ/٨١٥م. فيلسوف كيميائي، يعرف بالصوفي، له تصانيف كثيرة قيل عددها (٢٣٢) كتاباً، ضاع أكثرها، وترجم بعضها إلى اللاتينية من كتبه «أسرار الكيمياء»، وكتاب في «السموم». له يد طولى في نشأة علم الكيمياء وتطوره باعتراف علماء الغرب، الأعلام جـ٢/٩٠.

(٢) هو ابن وحشية أبي أحمد بن علي بن المختار الكلداني. عالم بالكيمياء والفلاحة والسموم، توفي عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م. ابن النديم: الفهرست. جزءان ليبزيغ ١٨٧١. ج١/٤٣٣ - ودائرة المعارف الاسلامية المجلد ١/ ٣٠٠.

(٣) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى ٩٠هـ/٧٠٨م. كان عالم قريش في عصره. اشتغل بالطب والكيمياء والنجوم، وقد يكون من أول من اتجه إلى علم الكيمياء من العرب وترجم كتبه. اختلف في سنة وفاته، وبذلك «فالمحبي» واهم في جعله معاصراً «لجابر بن حيان» الفهرست/ ٢٤٢، الأعلام ج٢/٣٤٢ - ٣٤٣.

(٤) الجلدكي: هو علي بن محمد بن أيدمر الجلدكي عز الدين توفي بعد ٧٤٢هـ/١٣٤١م اختلفت المصادر في اسمه واسم أبيه، ونسبته إلى «جلدك» من قرى خراسان قرب مشهد الرضا. صنف بعض كتبه في دمشق والقاهرة. من كتبه «كنز الاختصاص في معرفة الخواص» و«البرهان في علم الميزان»، وينسب إليه شرح «شذور الذهب» أنظر حوله: دائرة المعارف الإسلامية جـ٧/٧٥، وكشف الظنون/١٠٢٩.

(٥) انظر هامش (٤) من الصفحة السابقة (٣٦٤).

(٦) جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر سادس الأئمة الاثنى عشرية عند فرقة الإمامية. كان من كبار التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم، اهتم بعلم الكيمياء. وله رسائل مجموعة في كتاب يقال أن جابر بن حيان هو الذي جمعها، وتوفي بالمدينة عام ١٤٨هـ/٧٦٥م.

حــكــمــةٌ أوْرثـنـَـاهــا جــابــرٌ   عن إمــامٍ صــادقِ القــولِ حَفيْ
بــوصــيٍ طــابَ مــن تــربــتــه   فهــو كــالمســكِ تــراب نجفي[1]

و«ابن وحشية» أستاذ كبير في هذا الفن، و«خالد بن يزيد» كان معاصراً لجابر، وهو أول من عرّب الكتب الحكمية إلى لغة العرب، وله الديوان المشهور «بالفردوس». وكون هذا الفن يوجب التحسر مما لا يحتاج إلى تفكر. وما أحسن قول محمد بن عبد السلام[2]:

قد نكّس الرأسّ أهلُ الكيميا خجلاً   وقـطّروا أدمعاً من بعـدمـا سهـروا
إنْ طــالعـوا كُتبــاً للدَّرسِ بينهمُ   صاروا ملوكاً وإن همُ جرَّبوا افتقروا
تعلقوا بحبالِ الشمسِ من طمعٍ   وكم فتىً منهمُ قــد غـرَّهُ القمــرُ

وللشهاب الخفاجي:

مـولايَ مثـلُ الكيميـاءِ وليس من   إكسيـرهِ نفـعٌ لكَسْـري جـابـرُ
فـإذا تصـورنـاه فهـو لنـا غِنى   وإذا نـجـرِّبــهُ ففـقـرٌ حـاضـرُ

والإكسير شيء يوضع قليله على النحاس فيصير ذهباً، وعلى الرصاص فيصير فضة، وقد اشتهر في الكيميا، وقال «ابن عربي»[3] بصحته، وكذا

---

(١) نجفي نسبة إلى مدينة النجف، وهي مدينة في العراق قرب الكوفة، فيها قبر علي بن أبي طالب. معجم البلدان مجلد ٥/٢٧١.

(٢) لا يعرف من المعنيّ بالضبط لوجود عدة شخصيات علمية بهذا الاسم، ولكن الأقرب هو «محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري المارديني (٥١٢ـ٥٩٤هـ/ ١١١٨ـ١١٩٨م)، إذ كان عالماً بالحكمة والطب، واقرأ الطب في دمشق، واستقر في ماردين. له شرح قصيدة ابن سينا. الأعلام جـ٧/٧٧.

(٣) محمد بن علي بن محمد ابن العربي (٥٦٠ـ٦٣٨هـ/ ١١٦٥ـ١٣٤٠م)، وهو المعروف بمحيي الدين بن عربي من كبار المتصوفة المتأملين، استقر في دمشق وفيها توفي. وهو من القائلين بوحدة الوجود. له كتب عديدة، وعديد منها مطبوع. الأعلام جـ٧/١٧٠ـ١٧١.

«الشيخ البوني»[1]، وكثير من العلماء. ومن جوّز تعاطيه، شرط أن لا تنقلب عينه عن معدن النقدين بعد ذلك. وأنكره أبو حيان[2]، والحافظ السيوطي[3]. **والتحقيق، إن تعاطيه من غير علم يقيني عبث وضلال وفساد، وعن مشاهدة من أستاذ عارف، واختبار لمعدنه، بحيث يبقى ذهباً أو فضة لم يتغير، وإذا عرض على أرباب الخبرة أجمعوا على أن معدنه صحيح جائز.** (وهنا يبين مرة أخرى فكر المحبي العلمي والدقيق). ونقل ابن شاكر[4] عن العلامة عبد الرحيم بن علي الشهير بابن برهان[5]، وكان رحلة في علوم شتى، وكان عريان الرأس، أنه قال: لو كان علم الكيميا حقاً لما احتجنا إلى الخراج، ولو كان علم الطلاسم حقاً لما احتجنا إلى الجند، ولو كان علم النجوم حقاً لما احتجنا للرسل والبريد». ويختم المحبي استطراده الطويل ذاك

---

(١) قد يكون هو أحمد بن علي بن يوسف البوني، متصوف مغربي الأصل، ونسبته إلى بونة (عنابة في الجزائر اليوم)، وتوفي بالقاهرة عام ٦٢٢هـ/١٢٢٥. له مصنفات في علم الحروف، ومنها «شمس المعارف الكبرى» الأعلام جـ١/١٦٩.

(٢) علي بن محمد بن العباس التوحيدي: متصوف معتزلي، وأديب كبير. اتهم بالزندقة، وصحب ابن العميد والصاحب ابن عباد. لوحق فاستتر، وتوفي نحو٤٠٠هـ/١٠١٠م. له عدة كتب منها (الامتاع والمؤانسة). الأعلام جـ٥/١٤٤-١٤٥.

(٣) أنظر هامش (٦) من الصفحة (٣١٨) من هذه الدراسة.

(٤) هو محمد بن شاكر صلاح الدين الكتبي الدمشقي مؤرخ وأديب، توفي بدمشق ٧٦٤هـ/١٣٦٣م. هو صاحب (فوات الوفيات). وله أيضاً (عيون التواريخ). الأعلام جـ٧/٢٦.

(٥) هناك عبد الواحد بن علي المعروف بابن برهان الأسدي. وقد كان عالماً بالأدب والنسب وتوفي في بغداد عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وكان قبل أن يعمل في النحو منجماً. (الأعلام جـ٤/٣٤٦).

ولكن لا يبدو من الصفات المغدقة عليه بأنه هو، ومن ثم قد يكون ذلك العلامة هو عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار (٥٦٥-٦٢٨هـ/ ١١٧٠-١٢٣٠)، وكان طبيباً مقرباً للملك العادل الأيوبي، والمعظم. وقد ولي البيمارستان النوري في دمشق، وعلّم الطب، وإليه تنسب «المدرسة الدخوارية» للطب في دمشق. وله عدة مصنفات في الطب. ولكن لم يشر إلى أنه كان يعرف بابن برهان.

الأعلام جـ٤/١٢١-١٢٢.

بقوله مستدركاً: «وقد خرجنا عما يعني إلى ضده، فلنرجع إلى ما نحن بصدده»[1].

ومهما تكن الفائدة التي توخاها «المحبي» من استطراده، فإن ذاك الإستطراد، أياً كان نوعه، يبقى مخلاً بتوازن الترجمة، وصارفاً الذهن عنها، وعيباً كبيراً فيها، ومضعفاً في كثير من الأحيان للعنصر التاريخي في محتواها. وهو في ذلك غير مبتدع أو مجدد، وإنما مقلد لكثير من مؤرخي العرب وأدبائهم، إلا أن الفرق بينه وبينهم هو إحساسه بعيب ما فعل، على الرغم من تسويغاته.

وأخيراً، إذا كان مجمل المعلومات التي تضمها الترجمة هي التي أشير إليها سابقاً، وهي كافية لرسم صورة عن الشخصية ككل، فهل تبدو تلك المعلومات متلاحمة ومترابطة فيما بينها، أو بتعبير أدق هل تتلاحم تلاحم السبب بالنتيجة، والنتيجة بالسبب؟ أم تأتي مرصوفة رصفاً دون ملاط يدعم بنيتها، ويخرجها متماسكة؟

يغلب على تراجم «المحبي» كما هو الحال عند مؤرخي التراجم بصفة عامة، طابع السرد في المعلومات المطروحة ودون ترابط متين فيما بينها، وإن كانت بمجموعها ترسم خطوطاً متصلة، تتضح من خلالها صورة الشخصية. إلا أن هذا لا يعني أبداً افتقاد عنصر التحليل السببي، والمنطقية، والتعليل فيها؛ بل إنه يلاحظ أن التعليل لديه تام، فهو لا يصدر حكماً إلا ويتبعه بتعليل، ولا يذكر حقيقة دون سبب، وإن كان في الواقع من الصعب التمييز فيما إذا كان التعليل من عمله، أو من عمل مصدره. إلا أن إيمانه بالسبب واضح، ويطرحه كمبدأ مسلَّم به، حين يقول في قصيدة له[2]:

ولكن الأمور لها دواعي ... وأسباب بقاء أو زوالا

---

(١) جـ١/٢١٤.

(٢) جـ١/١٩٢ ترجمة (الشريف أحمد بن زيد).

ومن ثم فالقارىء لمعظم تراجمه اليوم يخرج منها وهو مرتـاح فكريـاً، لإرضاء «المحبي» لتساؤلات فكره، ما عدا اللهم في قضية كرامات الأولياء. ولا يتبع «المحبي» في تعليله مدرسة واحدة في التفسير، بل قد يفسر الحادث بسبب نفسي، أو إقتصادي، أو اجتماعي، أو سياسي، أو ميتافيزيقي أو غيرها، وتلك التفسيـرات بمجملها منـطقية وعلميـة، والربط بـين السبب والنتيجة مقبول، كقوله على سبيل المثال فقط لا الحصر: «كان نحيفاً جداً لملازمته على أكل الأفيون»[١] و«له أشعار كثيرة مسبوكة في قالب الرقة جارية على وصف الشوق والحب، وذكر الصبابة والغرام، فلهذا علقت بالقلوب ولطف مكانها عند أكثر الناس ومالوا إليها وتحفظوها وتداولوها بينهم»[٢]. ومن أمثلة بعض تعليلاته السياسية الصادقة، عزوه تحرك الطغاة في بلاد أناطولي في عهـد السلطان محمد (ويقصـد حركـات الجلاليـة)، «لخلوها من العسـاكر واشتغالهم بمحاربة الكفار»[٣]؛ وإرجاعه ظلم «حسين باشا جانبولاذ» لاحتياجه إلى علوفات السكبانية»[٤]. وخروج حسين باشا أمير لواء الحبشة، إلى أنه «لما تولى إمارة الحبشة أخذ منه أكابر الدولة مالاً جزيلاً استدان غالبه، ثم عزلوه سريعاً، فشق عصا الطاعة مغاضباً لهم»[٥]. ومن تلك الأمثلة كثير، مما يدل على الفكر العقلاني الواقعي «للمحبي». بل يلاحظ هذا الفكر العقلاني والموضوعي في آن واحد في التعليل في عدة زوايا من تراجمه، ومنها على سبيل المثال تعليله لحادث مقتل صديقه «عبد الله الحجازي». فبعد أن استعرض ما يقال من أسباب، أقرَّ سبباً إقتصادياً نفسياً وجيهاً، قد يكون معارضاً نفسياً لالتزامات الصداقة، إلا أنه رآه بأنه هو الأقوى. فمما قاله بهذا الصدد: «**ويروى خبر قتله على أنحاء شتى، والذي اعتمدته** أنه كان سعر القمح بحلب قد نهض،

---

(١) جـ٤/٢٩٤ ترجمة (محمد أمين الدفتري).
(٢) جـ١/٤٠٦ ترجمة (الشيخ إسماعيل الحجازي).
(٣) جـ٤/٢١٩.
(٤) جـ٢/٨٦.
(٥) جـ٢/٨٥ ترجمة (حسين باشا جانبولاذ).

ولم يزل يترقى، حتى بيع الإردب بخمسة وعشرين قرشاً. وشاع الخبر أن السيد عبد الله ارتشى هو وقاضي حلب من المحتكرين بألف قرش ليبيعوه بهذا الثمن، فبلغ ذلك حاكم العرف، فنادى بأن يباع الإردب بخمسة عشر قرشاً، وتقيد بنفسه في إخراج المحتكر من الحَبّ. فأسر له ابن الحجازي المكيدة. واتفق في ذلك الغضون أن بعض أعيان حلب دعا «المتسلم» وبعض أعيان البلدة ومنهم ابن الحجازي. فلما تفرقوا، صحب ابن الحجازي المتسلم ودعاه لداره. فيقال إنه أثناء المجلس أتاه بمشروب مسموم فلما تناوله أحس بالسم، وتمت عليه المكيدة، فخرج واستمر ثمانية أيام يعالج نفسه فلم يفد. ثم إنه مات في اليوم الثامن، وأخرجوا جنازته، وخرج ابن الحجازي في جملة من خرج إلى الجنازة. وكان الناس قد كرهوه وسئموا أحواله، وهم يترقبون لقتله فرصة، فلما دفنوا المتسلم ركب فرسه، وأراد الانصراف، فنادت امرأة: هذا قاتل المتسلم فتبعها رجل من العوام، واتصل ذلك بالرجال والصبيان والنساء، فضربه رجل بحجرٍ، فأصاب رأسه، وعثرت به الفرس، فانكب على وجهه، فهجم الناس عليه وقتلوه، ولم يبقوا فيه عضواً صحيحاً»[1].

ومثل هذا تعليله الاقتصادي لضعف قوة العلماء في الشام في مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، بقطع الدولة عنهم «جوالي السلطان»[2]، وتعليله سقوط الدولة وتدهورها بتسلط الجهلاء على رئاسة الحكم[3]؛ وأمور أخرى كثيرة مماثلة.

إلا أنه مقابل التعليلات الواقعية العقلانية عند «المحبي»، هناك أيضاً انسياقه أحياناً وراء التعليلات الميتافيزيقية. ويظهر هذا واضحاً في طرحه هنا وهناك أثر الكرامات في الأحداث، وفي ربطه بعض الأحداث بقوى إلهية،

---

(١) جـ٣/٨٠.
(٢) جـ١/٤٠٣ ترجمة (اسكندر الكاتب).
(٣) جـ٣/٢٣٣. ترجمة (عبد العزيز فتح خان).

كالنصر في الحرب أو الهزيمة[1]، وإن كان في مناسبة أخرى يربط **النصر بالوحدة الدينية**، عندما يدع أمير المجر الذي يسميه «المحبي» «الملك البابا» يوازن بين قوته وقوة المسلمين العثمانيين فيقول: «أرى أمر هؤلاء العثمانية قد بلغ النهاية في الغلبة علينا، ومن أعظم ما يغمني من أمرهم طاعة نوابهم وأمرائهم لهم، فإذا طلبوهم بأدنى خطاب من أقصى البلاد، لا يمكن أن يتخلفوا ويبادرون إلى الحضور إليهم، وامتثال أمرهم. وأما أنا إذا أرسلت إلى أمراء المجار مراسيل أطلبهم لأمر فلا يطيعون أوامري ولا يحضرون إليّ. فقالت له (زوجته إذ كان يشرح الأمر لها): إنما يطيع حكام المسلمين «أمر سلطانهم **لأنهم كلهم أهل ملة واحدة ومذهب واحد**»[2]. ومثل هذا ربطه الهزيمة بعامل نفسي هام وهو استحكام الغرور والطمع[3].

وزبدة القول، تختلط في فكر «المحبي» المضمونات الميتافيزيقية والعلمية الوضعية اختلاطاً كبيراً، فتارة هو عقلاني يناقش الأمور بواقعية تدهش، وبموضوعية بحتة، وتارة أخرى ينساق وراء الأفكار الدينية والميتافيزيقية، وبذلك يبقى ممثلاً لعصره، وإن كان يتجاوزه بنسبة العلمية في فكره، وبسعيه للتدقيق، والتحقيق بطريقة عقلانية، تخرج الفكر من تجمده حول مفهومات معينة مسيطرة تشلّ حركته، وتقلص إبداعه.

وفي ختام المطاف عن التركيب في «خلاصة الأثر»، وفي نطاق «الترجمة الواحدة»، يمكن القول أن تلك الترجمة تبدو وحدة تاريخية كاملة بحد ذاتها، ومتكاملة بغيرها، تنبي عن الشخصية من جميع جوانبها، وعن العصر الذي

---

(١) جـ٤/٢١٨ ترجمة (السلطان محمد الثالث). والحديث كان عن انتصاره على الانكروس (الهنغار)، حيث قال: «إن ما وقع له من هذه النصرة لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي، وإمداد رباني غير متناه». وفي جـ٤/٤٠١ يقول عن الهزيمة التي مني بها العثمانيون أيام الوزير مصطفى باشا (زمن السلطان محمد الرابع) أمام الأنكروس: «ونفذ أمر العلي الكبير، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير».

(٢) جـ٤/٣٩٩-٤٠٠ ترجمة «مصطفى باشا».

(٣) المصدر نفسه، والترجمة ذاتها ص٤٠٣.

عاشت فيه، وتلمّ بأهم أحداثها، وتحدد مكانتها في مجتمعها المحلي، وأحياناً الإسلامي. وبذلك تظهر عاكسة لصورة من صور المجتمع الإسلامي والعربي خلال المرحلة الزمنية التي عاشتها من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، أو أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

خامساً: وأخيراً **ما هو الأسلوب** الذي صاغ «المحبي» به تراجمه؟ لقد كان «المحبي» واعياً تماماً لمضمون التاريخ عندما فرق في الأسلوب بين ما خطّه في «نفحة الريحانة»، وما خطّه في «خلاصة الأثر». ففي الأول استخدم ذلك الأسلوب المسجع والمنمق الذي كان تقليداً لدى أدباء ذلك العصر، أما في الثاني فإنه لم يدع ذلك الأسلوب يطغى البتة على كتابه، بل إنه كان يترجم للشخصية نفسها في الكتابين، فيظهر بون كبير في الأسلوبين. وقد أفصح هو نفسه عن ذلك عندما قال في ترجمة «أبي السعود الشعراني»: «وكنت ترجمته في كتابي النفحة وغيرت ترجمته إلى قالب آخر حسبما التزمته فيها من الإلتزامات، فما عليّ أن أذكر المعدول عنه إذ فيه على كل حال تطرية»[1].

وحيث يستخدم «المحبي» في «خلاصة الأثر» أسلوبه الخاص ولغته دون أسلوب مصادره ولغتها، فإنه يبدو دقيقاً جداً في انتقائه لألفاظه، بحيث تؤدي المعنى المطلوب دون زيادة أو نقصان، مبتعداً عن الصور الأدبية ما أمكن، التي قد تخلّ بالحقيقة، وإن كان يستعملها أحياناً دون إخلال. وقد يكون إدخاله الشعر الكثير في تراجمه، كنماذج لعطاءات شعرائه وعلمائه، مما يشعر القارىء العادي، والباحث بضيق إذ يشعران بتقطع الحديث عن الشخصية، ولا سيما إذا أضيف ذلك إلى الاستطرادات المشار إليها آنفاً. ولكن المدقق والممحص يتبين له أن ذلك الشعر المطروح وتداخله مع النثر هو سمة من سمات فكر ذلك العصر، وأسلوبه في الإنشاء التاريخي.

---

(١) جـ١/١٣١.

ولا بد من التأكيد ثانية في مجال الأسلوب أن ليس كل ما ورد في «خلاصة الأثر» من أسلوب «المحبي»، إذ ـ كما أسلفنا القول ـ قام «المحبي» أحياناً بنقل كامل لما أورده مترجمون آخرون، مع الإعتراف بذلك، كالنجم الغزي، وابن معصوم، والبديعي، وغيرهم. والاثنان الأخيران استخدما إلى حد كبير أسلوبه الذي اتبعه في «نفحة الريحانة». ومن ثم «فالإنشاء التاريخي» في «خلاصة الأثر» مزيج من أسلوب تاريخي واقعي عندما يكون أسلوب «المحبي» ذاته، وأسلوب أدبي مسجع ومنمق، بل وغامض الألفاظ والعبارات أحياناً، عندما يكون لابن معصوم مثلاً. وفي أسلوب «المحبي» التاريخي جملة، طلاوة وحلاوة، مع رصانة ودقة، وتشويق. وإذا ما استخدم ألفاظاً غير عربية فإنه كان يسعى لشرحها، ولا سيما المصطلحات الإدارية العثمانية، أو أنه كان يعرّبها، كما بيّنا ذلك سابقاً. وحتى عند طرحه بعض الشعر الذي يبدو بألفاظه وتراكيبه غير بيّن المعنى، فإنه كان يعمل على تفسيره.

وبذلك يمكن القول أن أسلوب المحبي التاريخي بمجمله أسلوب أقرب إلى الأسلوب الأدبي ـ العلمي منه إلى الأسلوب الأدبي البحت، وهو واضح العبارة، نيرّ الفكرة، مبرز للواقعة والحقيقة بشكل جليّ، ودون حشو فكل لفظة تحمل معناها الدقيق دون لبس أو إبهام أو تكرار. هذا، ولم يغفل «المحبي» الصيغ الأحصائية المختلفة في كتابته، وبعقلانية، وروية، وتمحيص.

وزبدة القول، إن «الصياغة التاريخية» عن «المحبي» ـ عندما يكون هو الصائغ المباشر ـ هي تكثيف لجوهر الحقائق التي جمعها، فيه من العلم دقته ووضوحه، ومن الأدب رقته وسلاسته.

الخاتمة

وبعد كل هذا السير الطويل مع « المحبي » في حياته، وبعد التوغل الجزئي، ولا أقول الكلي، في حنايا كتابه « خلاصة الأثر »، وبعد هذا التحليل لمنهجيته التاريخية، فإنه يمكن القول إثباتاً، بأن «المحبي» مؤرخ عربي، وابن عصره. وهذا العصر، كما عكسه في مؤلفاته المتنوعة، وفي كتابه « خلاصة الأثر » بالذات، لم يكن عصر جدب، ومحل، في الفكر العربي، أو عصر موت، بل ولا ركود نسبي، في مسرى « الحضارة العربية الإسلامية »، كما يحلو للكثيرين أن يصوّروه. إنما كان عصراً زاخراً بالتموجات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية الملوّنة، مثلما كان غنياً بعطاءاته الفكرية المتنوعة. وقد قدّم « المحبي » ذلك العصر عبر تراجمه بكل زخمه المشار إليه، ولم يقدمه **وحدة تاريخية منفردة ومنعزلة عن العصور السابقة له، بل مرتبطاً ومتواصلاً معها**. أي أنه لم يضمّن كتابه « خلاصة الأثر »، انطباعاته عن القرن الذي عاش فيه فحسب، وتأثر بتياراته المختلفة بصورة مباشرة، وإنما سعى أن يتجاوز حدوده الزمنية الأولى، وأن يتوغل في العصور السالفة، فحمل منها إلى عصره الكثير، مما جعل كتابه « خلاصة الأثر » بالذات، استمراراً للتواصل الحضاري العربي الإسلامي، وربطاً محكماً بين قرون سبقت وقرن تلاها. فـ« المحبي » إلى جانب إبرازه لجنبات كثيرة من حياة عصره بالذات في تراجمه، ربط في الواقع بين عصره والقرون التي سبقته، عبر استطراداته الكثيرة، وثقافته العربية الواسعة والعميقة، وموازناته الفكرية عامة، والأدبية خاصة،

مع ما كان في الأزمنة العربية الإسلامية السالفة. وبذلك جعل قارئه في عصره، وفي القرون التي تلت، وحتى الوقت الحاضر، على صلة شبه دائمة بعمق الحضارة العربية الإسلامية وسعتها، مع تأكيد للعنصر العربي فيها، وإبراز له في كل مناسبة كانت تأتي. وبذلك أكد، وفي عنفوان السلطة السياسية الحاكمة لبلاد العرب في عصره، والغريبة عنهم، والممثلة بالأتراك العثمانيين، السيادة الحضارية العربية ضمن الحضارة الإسلامية، تلك السيادة التي كانت تظهر واضحة للعيان بنفوذ اللغة العربية، لا بل وسيادتها في جزء كبير من العالم الإسلامي. هذه اللغة التي لم تتمكن أية لغة دخيلة، أن تستوعبها أو تتغلب عليها، ولو على المستوى الثقافي على الأقل. فقد أبرز في عدة مجالات نطق علماء الفرس، والأتراك، والهنود، والسودان، لها، وكتابتهم مؤلفاتهم الغزيرة بها، بل ورعايتهم لها، هذا في الوقت الذي كان يسعى فيه إلى إثبات السبق العربي في عدة مجالات فكرية يدعي بعض الأروام التقدم والتفوق فيها. وبذلك كان «المحبي» في مؤلفاته مدعماً لمفهوم الأصالة العربية في الحضارة العربية الإسلامية، وممكّناً له في نفوس قارئيه. وهكذا يمكن وضع «المحبي» ضمن الرواد الأول الطليعيين في حركة عربية وليدة، تنادي بشكل غير صريح وغير مباشر، بضرورة صيانة العنصر العربي في كيان الحضارة العربية الإسلامية وتنميته. أي أن القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، الذي أبرزه مؤرخنا، كان فيه رؤى من المفهوم القومي العربي، الذي رأى القرن الثالث عشر إنتاشه وترعرعه التدريجي، إنما ليس بأطره الضيقة المتزمتة قومياً، وإنما بمفهومه الذي وسّعه الإسلام وأغناه بحيث يستوعب حضارياً العالم بأسره.

ويرتبط بتلك الفكرة، وبرباط قوي ووثيق، أن «المحبي» أبقى فكر قارئيه في عصره، والقرون التي تلت وحتى وقتنا الحاضر، على تواصل مع مفهوم « وحدة العالم الإسلامي » على الرغم من الانقسام السياسي والفكري الذي أصاب بعض أجزائه في عصره، وأصابه كله في وقتنا الحاضر. كما أبقى ذلك الفكر على ترابط مع مضمون الانتشار الواسع المدى للحضارة العربية الإسلامية. فقد قدّم في كتابه إذاً، بطريق غير مباشر، فكراً سياسياً ضمنياً بتجاوز حدود القطر الواحد إلى عالم إسلامي واسع، موحّد بالتيارات الفكرية

الواحدة التي تجوسه، وبعطائه الفكري المتشابه على الرغم من تجزئه إلى وحدات سياسية متنافرة. فـ« المحبي » المؤرخ إذاً عالج في كتابه، عبر التراجم الكثيرة التي قدمها، والتي تبدو في ظاهرها مشتتة ومبعثرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، مشكلة ذات مغزى، وذات معنى لا لعصره فحسب، بل بالنسبة للعصر الذي تلا، وهي: كيف لم تستطع وحدة الفكر النسبية في العالم الإسلامي الواسع أن تعيده ثانية إلى الوحدة السياسية الكاملة؟ وقد يستشم القارىء الممحص، ودون أن يفتئت على حرفية ما ورد في نصوص «خلاصة الأثر» ، أن «المحبي» قد طرح بطريقة مباشرة أحياناً، وغير مباشرة أخرى، بعض حلول لتلك المشكلة، تتبين في بعض العوامل التي رأى أنها هي وراء القضية. وقد يكون من أبرزها العودة الى الأصالة العربية الإسلامية بفكرها، وإنتاجها، وجميع قيمها، مع إسقاط وإبعاد لطغيان المصالح الخاصة التي استبدت بفئة الحكام، والمتأثرة بالدرجة الأولى بنزوات طبيعتهم الفردية، واهتماماتهم الذاتية، ومطامعهم المادية المتنوعة، أكثر من ارتباطها بعرقهم وجنسهم.

وأخيراً، يتبين مما طرح سابقاً، أن « المحبي » كان مدركاً بعمق قضايا عصره المختلفة على المستوى العربي والإسلامي، ولذلك أرخ الكثير من خفاياه ودقائقه، عبر تراجمه ومؤلفاته الأخرى. وكان في تأريخه، مؤرخاً حقاً، وبالمعنى العلمي الحديث. فمنهجيته في جمع مصادره، وملاحقتها بدأب وصبر، ووفرة تلك المصادر وتنوعها، وأسلوبه في نقدها، وموازنته لها ببعضها، واستخلاصه الوقائع الأقرب إلى الحقيقة منها، وأمانته في طرح تلك الوقائع مع الاعتراف بمصادرها، وطريقته الدقيقة في استقصائه الخبر مهما كان نوعه، وشرحه المستفيض للمشكل من الأمور، وإحاطته الشمولية بالشخصية من جميع جوانبها، مع رسمه المقصود أو غير المقصود لملامح العصر فيها، ورصده للتحركات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية فيه عبرها، ومحاولاته النقدية المتنوعة للمعلومة، وتعليلاته العقلانية دون الميتافيزيقية، كل هذه الأمور تجعله يدخل من باب عريض في مصاف المؤرخين المعاصرين الكبار. ولا سيما إذا لوحظت ضخامة العمل الذي قدمه، بمسحه في الزمن

قرناً كاملاً، وبتغطيته في المكان العالم الإسلامي كله من الهند شرقاً وحتى المغرب الأقصى غرباً وحتى السودان جنوباً بغرب. ويبقى مؤلفه « خلاصة الأثر » مصدراً تاريخياً غنياً جداً، وموثوقاً، عن تاريخ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، على امتداد البلاد العربية والعالم الإسلامي، والامبراطورية العثمانية بالذات.

الوجيز في تاريخ العالم الإسلامي
في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي

مــن خــلال

تراجم المؤرخ العربي الشامي «محمد الأمين المحبي»

فــي كـتـابــه

«خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»

المقدمة

بعد ذلك التعريف المطوّل نسبياً بالمؤرخ العربي «المحبي»، وبكتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، اللذين يمثلان نموذجاً من «الفكر التاريخي العربي» في «العصر العثماني الأول»، يرى الدارس التاريخي نفسه مسوقاً بالضرورة لتوثيق ذلك التعريف توثيقاً أوفى، وذلك بطرح بعض «صور كاملة من التراجم» التي حواها ذلك السفر العربي الضخم والثمين. لأن المقتطفات الجزئية من التراجم المقدّمة سابقاً، لا توضح «التركيب الكليّ» لترجمة الشخصية، ولا الإطارات الاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية، والسياسية، التي مارست فعالياتها ضمنها. فالنماذج الكاملة من التراجم تجعل رؤية القارىء أعمق تاريخياً، لأنها تعرض له الواقع الماضي عرضاً أكثر تشخيصاً، ووضوحاً، وشمولاً، مما ذكر سالفاً. ولذا فقد أُتبع ذلك التعريف بهذا «الملحق» المطوّل الذي يضم في أساسه، عيّنات كاملة من بعض التراجم، مع بعض شروح وتعليقات عليها.

ولكن قبل بيان الخطوات المنهجية التي اتبعت في هذا «الملحق المطوّل» في تقديم بعض النماذج الكاملة من التراجم، لا بد من تنبيه القارىء إلى الأمرين التاليين الرئيسيين:

أولاً: من المحتّم على القارىء العربي إذا ما أراد أن يحيط بأصل من أصول التراث، وأن يدرك مضمونه بعمق، وأن يقوّمه، أن يقرأه برمته، ومن ألفه إلى

يائه، حتى تكون نظرته إليه أشد شمولاً وعمقاً، وتقويمه أقرب إلى الصحة، والسلامة، والدقة. فالعيّنات المقتطعة من مجموع كل ترجمة، والتي استدلّ بها في هذه الدراسة، تبقى «جزءاً»، وما كان الجزء يوماً كالكلّ. هذا بالإضافة إلى أن تكرار مطالعة تلك النصوص الكاملة قد يكشف له كل يوم جديداً فيها.

ثانياً: إن عملية انتقاء نصوص من مؤلَّف ما، عملية عسيرة جداً على المنتقي، مهما سعى كي يضع لها من روائز وضوابط، تهدف إلى المحافظة على الكتاب مضموناً وروحاً، ومهما حرص على ألا يلحق به أي تشويه، أو انتقاص، أو أي أذى آخر. إذ قد يتأثر أثناء انتقائه بعوامل مختلفة، فيخرج دون قصد عن الغرض الذي توخاه صاحب الأصل من مؤلفه، وربما هو نفسه عن القواعد التي التزمها. وقد يكون اختيار تراجم محدودة العدد من مجموع ألف وثلاثمائة (١٣٠٠) ترجمة تقريباً، يضمها كتاب «خلاصة الأثر» أمراً أكثر صعوبة وتعقيداً، لأن مجال الاختيار واسع أولاً، ولأن التراجم المنتقاة قد لا ترسم صورة صحيحة عن هذا الأصل التراثي القيّم، وقد تضعفه في ذهن القارىء أو تقلص من قيمته، ولكن لا بدَّ مما ليس منه بدّ، ويُرجى أن تكون «المختارات» بعض فتح لشهية القارىء، يتبعه نهم لمطالعة الكتاب.

وقد انتهج في هذا «الملحق»، حتى تتجنب بعض معائب الانتقاء المشار إليها سالفاً، وحتى تتحقق الموضوعية ما أمكن، وحتى يُجلى بعض ما أتى في التراجم، وضع بعض الصُّوى الهادية التالية:

أولاً ـ لقد عمل على طرح قسم من المحاور الكبرى التي أدار «المحبي» حولها تركيب تراجمه، ومنها بالذات: «محور المكان» الذي تنتمي إليه الترجمة، و«أصالتها العرقية»أحياناً، و«نوعية فعاليتها». وفي ضوء ذلك صنفت «التراجم بمجموعها»، ثم «التراجم المنتقاة» بحسب «الأقاليم» و«الأقطار» التي تنتمي إليها تلك الشخصيات بأصالتها، لا بحسب الحروف المعجمية كما فعل

«المحبي». وقد استوحي هذا التصنيف من الأسلوب نفسه الذي اتبعه المؤرخ في كتابه، «نفحة الريحانة»، إذ صنف الشعراء الذين ترجم لهم، بحسب الأقاليم، والأقطار، التي انتسبوا إليها، أصالة أو إقامة، ولم ينتقص من تلك الأماكن الواردة في «خلاصة الأثر» سوى «بلاد الهند»، و«بلاد ما وراء النهر و«خوارزم» و«بلاد الأكراد» «السودان». ولعلّه لم يعثر على شاعر في كل من تلك البقاع ينسجم مع من انتقاه من الشعراء في المناطق التي مسحها. فـ«نفحة الريحانة» يبقى تاريخاً اختصاصياً بالأدب، والشعر منه بالذات.

وهذه الأقاليم والأقطار التي تم تصنيف التراجم في نطاقها هي، بحسب تسلسلها الاصطلاحي، ومن أقصى شرقي العالم الإسلامي إلى غربيه:

١ ـ بلاد الهند.

٢ ـ بلاد ما وراء النهر وخوارزم.

٣ ـ بلاد العجم.

٤ ـ بلاد الأكراد.

٥ ـ الدولة العثمانية وامبراطوريتها في أوروبا (بلاد الروم).

٦ ـ البلاد العربية. وقد شعبت بدورها إلى أقطارها المعروفة، ومن الشرق إلى الغرب:

أ ـ بلاد العراق.

ب ـ بلاد الشام.

جـ ـ شبه الجزيرة العربية، وتضم المناطق التالية:

جـ/١ ـ الحجاز.

جـ/٢ ـ اليمن.

جـ/٣ ـ حضرموت.

جـ/٤ ـ البحرين.

جـ/٥ ـ الأحساء.

جـ/٦ ـ عمان.

د ـ مصر.

هـ ـ بلاد المغرب العربي، وفرّعت إلى الأقطار الآتية:

هـ/١ ـ طرابلس الغرب (ليبيا اليوم).

هـ/٢ ـ تونس.

هـ/٣ ـ الجزائر.

هـ/٤ ـ المغرب الأقصى.

٧ ـ السودان الغربي.

ثانياً ـ قُدِّمت مسارد كاملة لتراجم شخصيات كل إقليم من الأقاليم الآنفة الذكر توضح: أسماء تلك الشخصيات مسلسلة بحسب أحرف المعجم، أي كما وردت في كتاب «المحبي»، والأماكن الأصلية التي تنتمي إليها، والأماكن التي استقرت فيها، مع وضع إشارة استفهام عند المجهول منها أي الذي لم يشر إليه «المحبي»، ثم أهم فعالياتها، وتاريخ وفاتها، وأخيراً موقعها من كتاب «خلاصة الأثر». والهدف من تلك المسارد مساعدة الباحث والقارىء على تعرّف موجز وسريع عن تراجم كل إقليم، والرجوع بيسر إلى ما يريده منها.

ثالثاً ـ قُدِّم للتراجم المنتقاة بنبذة موجزة عن أحوال كل إقليم في القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، وأحياناً ما قبل ذلك القرن، حتى يتضح للقارىء ما جاء في الترجمة من أمور مقتضبة أو غير بيّنة. وهذه الفكرة مستوحاة إلى حد ما من «المحبي» نفسه، إذ افتتح الحديث عن شعراء كل إقليم في «نفحة الريحانة» ببعض حديث مقتضب عن ذلك الإقليم، وإن كان ذلك بأسلوب أدبي. وقد صدّرت تلك النبذة الموجزة بنبذة «المحبي» المطروحة في نفحة الريحانة.

رابعاً ـ زودت تلك النبذة ـ المقدمة «بخرائط تاريخية» للإقليم، توضح مجموعه، ومختلف المدن الواردة في النصوص، وذلك حتى يكون مضمون التراجم المختارة جليّاً، وحتى يتثبت مفهوم المكان في ذهن القارىء، وهو

مفهوم أساسي في التاريخ لا يمكن الاستغناء عنه أو التغاضي، ولا سيما أن «المحبي» نفسه قد أدرك أهميته الكبيرة فألـحَّ عليه إلحاحاً شديداً في تراجمه، وعرّف بكثير من المدن والأماكن كما أسلفنا القول.

خامساً - طرح تعليق موجز على تراجم كل إقليم من حيث عددها، وعدد الأصلاء والنـزلاء فيه منهـا، ونوعيـة الفعاليـات التي مارستهـا تلك التراجم، ولا سيما تراجم بلاد الشام.

سادساً - إن القاعدة الكبرى التي استند إليها في اختيار التراجم من كل إقليم، هي تقديم نماذج من الشخصيات العاملة في ميدان السياسة والإدارة الزمنية، ومن الشخصيـات العلمية العـاملة في الإدارة الدينيـة والثقافيـة، كالإفتاء، والقضاء، والتدريس، والإمامة، والخطابة، والوعظ وغيرها، ومن الشخصيات العلمية والأدبية والصوفية، بحيث تحيط تلك التراجم ما أمكن بمختلف جوانب المجتمع في ذلك الإقليم، خلال القرن الحادي عشر. ووضعت أحياناً مسارد خاصة في بعض البلاد العربية بتراجم الشخصيات التي مارست فعاليات معينـة، كولاية الإيالة، والدفتردارية، والقضاء، والإفتاء وغيرها. وسعي الى ترتيبها بحسب تاريخ وفاة صاحبها لا معجمياً، حتى يستطيع القارىء أن يكوّن التسلسل والربط الزمنيين.

وأخيراً، يمكن القول إن هذا «الملحق»، الذي هو في أساسه عيّنات من تراجم خلاصة الأثر، غدا تحليلاً تاريخياً أكثر تركيزاً على كل إقليم من الأقاليم الإسلامية والعربية، وأكثر تفصيلاً، مما ورد في الدراسة العامة السابقة، بل غدا عرضاً موجزاً لتاريخ معظم أقطار العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، مقتبساً من تراجم «خلاصة الأثر»، ومدعمًا بها.

ومع الاعتراف بأن هذا الوجيز المتواضع لا يفي بالغرض التاريخي الحق، شاقولياً وأفقياً، إلا أنه يعطي الملامح الكبرى للقضايا الأساسية التي كان يعيشها معظم العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر

الميلادي، ومدى التواصل بين أجزائه، وموقع الوطن العربي منه، ولذا فقد رؤي إعطاء هذا «الملحق» عنوان:

«الوجيز في تاريخ العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي».

مــن خـــلال

تراجم المؤرخ العربي الشامي «محمد الأمين المحبي»

فــي كـتــابـــه

«خلاصة الأثــر»

وسيكون في جزئين: **الجزء الأول** الملحق مباشرة بهذه الدراسة العامة، ويتضمن بعض تراجم من بلاد الهند، ومن بلاد ما وراء النهر وخوارزم، ومن بلاد العجم، وبلاد الأكراد، **والجزء الثاني** ويضم بعض تراجم لشخصيات من بلاد الدولة العثمانية، والبلاد العربية قطراً قطراً، والسودان.

١ ـ بلاد الهند

لم يغفل «المحبي» في كتابه «خلاصة الأثر» بلاد «الهند» في أقصى شرقي العالم الإسلامي، على الرغم من بعد الشقة بينه وبينها. وقد لا يكون في هذا مجدداً، إذ سبقه إلى ترجمة بعض الشخصيات الهندية في القرنين السابقين له، مؤرخون عرب آخرون، كـ«السخاوي» في «الضوء اللامع»، حيث ترجم لثمان وثلاثين شخصية من الهند، و«الغزي» في «الكواكب السائرة» و«لطف السمر»، و«البوريني» في «تراجم الأعيان». ويرجع هذا إلى إيمانه وإيمان أولئك المؤرخين بأن الهند جزء أساسي وهام من العالم الإسلامي لا يمكن تجاوزه، ولا سيما أنها كانت في عصرهم تعيش أحداثاً سياسية مثيرة، كان لها أثرها الكبير في توسع انتشار الإسلام في ربوعها، وفي ازدهار الحياة الفكرية الإسلامية في كثير من مناطقها، وفي نقل ذلك الأثر الفكري، وبصفة خاصة التصوفي منه، إلى كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، عن طريق انتقال شخصيات فكرية منها إليها، وبالمقابل انتقال شخصيات عربية إسلامية عديدة إليها.

وقد ترجم «المحبي» لخمس عشرة شخصية من الهند[١]، من مناطق ومدن إسلامية متفرقة فيها: كالسند، وأحمد آباد، وبروج (منطقة كجرات)، ودلهي (دهلي)، وبرهانبور، وجونبور، وغيرها[٢]. ومن هذه الشخصيات أربع

(١) انظر المسرد المرافق.

(٢) أنظر المواقع في الخرائط المرافقة.

ذات طابع سياسي[1] والباقي من العلماء والمتصوفة[2].

وبعض هذه الشخصيات الفكرية عاش حياته كلها في الهند، وبعضها الآخر وفد إلى المشرق العربي، وبصفة خاصة إلى الحجاز. والغاية من ذلك في الدرجة الأولى الحج، أو طلب العلم ونشره، أو الأمران معاً؛ وقد يكون لنفي بعض السلاطين لهم، كما حدث في عهد السلطان التيموري «أكبر»[3] الذي كان يأمر بإخراج العلماء إلى الحجاز أو بلاد أخرى[4]، لمعارضتهم له في آرائه، والدين الجديد الذي ابتكره.

وفي الواقع لم يقتصر اهتمام المحبي بالهند على طرحه تراجم لشخصيات منها.، وإنما قدّم تراجم لعلماء من المشرق العربي انتقلوا إلى الهند طلباً للتجارة، أو العلم، أو الاثنين معاً، أو للتعليم، أو لاستدعاء أمراء الهند من المسلمين وعلمائها لهم، وقد عمل بعضهم في مناصب إدارية رفيعة كالوزارة أو ما يقاربها. ويلاحظ هذا بصفة خاصة في «حضرموت»، حيث أن معظم

---

(١) وهذه الشخصيات هي:
- الأمير جوهر المتوفى ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م (جـ١/٤٩٦).
- الملك عنبر المتوفى ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥-١٦٢٦) ج٣/ ٢٣٠ - ٢٣٢).
- عبد العزيز فتح خان (لم يذكر تاريخ وفاته) (ج٣/ ٢٣٢-٢٣٣).
- السلطان محمود (والأصح محمد) بن إبراهيم عادل شاه المتوفى ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦-١٦٥٧.

(٢) أنظر بقية التراجم في المسرد المرافق.
ولقد عاب المؤرخ الهندي «عبد الحي الحسني» المعاصر (١٢٨٦-١٣٤١هـ/ ١٨٦٩-١٩٢٣م) على «المحبي» بأنه اقتصر على هذا العدد القليل من التراجم مع أن هناك شخصيات هندية هامة جداً في القرن الحادي عشر الهجري غير التي ترجم لها، كان من الضروري الإحاطة بها وهي: الشيخ أحمد السرهندي المجدد، وابنه الشيخ معصوم، والشيخ آدم البنوري، والشيخ محمد رشيد العثماني، والشيخ محمود الجونبوري، والشيخ فريد الدين الدهلوي، والشيخ بير محمد الكهنوي، والشيخ عيسى بن قاسم السندي.
أنظر حول ذلك كتابه: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر. ٨ أجزاء حيدر آباد الهند ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .جـ١/ مقدمة - ص يد - يه.

(٣) أنظر اللمحة الموجزة التالية عن الهند في عهد الأمبراطور «أكبر».

(٤) أنظر عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر جـ٥/١٨٢.

علمائها قد ذهبوا إلى الهند، لفترة محدودة من الزمان أو للإقامة الدائمة، مما يوضح الصلة الوثيقة والعميقة بين هذا الإقليم من جنوب شبه الجزيرة العربية وبين الهند. ويبدو مما ورد في بعض تراجم الحضارمة، بأن رحلة عدد منهم كان لطلب العلوم العقلية[1]. وكان ذلك الانتقال يتم في معظم الحالات إما إلى مدن كجرات (الإقليم الشمالي الغربي من الدكن) كأحمد آباد، وميناء سورت، أو إلى دويلة «أحمد ناغار الإسلامية» أو «بيجافور» أو إلى الدويلات الأخرى الإسلامية، أو إلى بلاد امبراطور الهند التيموري المسلم. وقد ترك العلماء والمتصوفة الحضارمة أثراً فكرياً كبيراً في الهند الاسلامية، حتى إنه انتشرت في بلاد الهند الطريقة الصوفية «العيدروسية» نسبة الى «عفيف الدين عبد الله العيدروس» الكبير الحضرمي، ومدارها على إحياء علوم الدين للغزالي[2].

ولم تقتصر الهجرة المشرقية إلى الهند على الحضارمة فحسب، بل إن عدداً من الشخصيات الحجازية وجد طريقه إليها، وكذلك الشامية، وبصفة خاصة المتشيعة منها، التي كانت تجد ترحيباً في الدويلات الإسلامية الهندية الشيعية كدولة أحمد ناغار؛ والأمر نفسه يقال عن عدد من الفرس السنّة الذين وجدوا ملاذاً لهم في الدويلات الإسلامية الهندية السنية. هذا مع العلم أن الصلات الثقافية ظلت قوية بين بلاد العجم وبلاد الهند، بل إن عدداً من السلاطين الهنود، والتيموريين بالذات، استعانوا بوزراء وإداريين من بلاد العجم. وكل هذا يدل على أن العلاقات الفكرية بين الهند وبقية أجزاء العالم الإسلامي كانت وثيقة، وكان السلاطين الهنود يرسلون الهبات إلى الحرمين وكذلك المدرسين، وينشئون المدارس في الحجاز[3].

---

(١) أنظر خلاصة الأثر جـ١/٤٨٢. ترجمة (جعفر الصادق العيدروسي).

(٢) أنظر عبد الحي الحسني: الثقافة الإسلامية في الهند (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف). دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. الطبعة الثانية/ ١٨٦.

(٣) أنظر عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر. جـ٥/٣٦١ ترجمة الشيخ «محمد بن عمر الأصنعي الكجراتي».

وحتى تدرك تراجم «المحبي» الهندية، وتوضع في مناخها السياسي والفكري، عمل على التقديم لها بلمحة موجزة عن الأوضاع العامة في الهند، ما قبل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وخلاله؛ وقد أرفقت تلك اللمحة بالخرائط الضرورية للإيضاح.

مسرد بتراجم الشخصيات الهندية الأصل المقيمة في الهند والمهاجرة

الإسم	موطن الأصل	مكان الإقامة	الفعالية التي تميزت بها الشخصية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
أبو بكر السندي	السند	نزيل دمشق	عالم في المعقولات ومدرّس	١٠١٨ هـ	ج ١/٦١٢
احمد البسكري	الهند	أحمد آباد (كجرات)	من أهل العلم والتاليف	١٠٠٩ هـ	ج ١/٢٤٣
آله بخش	الهند	نزيل مكة	متصوف على الطريقة العشقية	١٠٠٢ هـ	ج ١/٤٢٣ - ٤٢٤
تاج الدين النقشبندي	الهند (سنبل)	نزيل مكة	متصوف نقشبندي كبير	١٠٥٠ هـ	ج ١/٤٦٤ - ٤٧٠
الأمير حوهر	عبد قائد لسلطان احمد ناغار	دولة بيجافور	أمير مجاهد	١٠٥٦ هـ	ج ١/٤٩٦
صبغة الله البروحي	بُروج (كجرات) (واصله من أصفهان)	نزيل المدينة المنورة	عالم ومتصوف ومؤلف	١٠٣٧ هـ	ج ٢/٢٤٣
الملاّ عبد الحكيم السلكوتي	سلكيوت	أغرا (عاصمة الامبراطورية التيمورية)	علاّمة الهند	بعد١٠٦٠هـ	ج ٢/٣١٨-٣١٩
عبد الحميد السندي	السند	نزيل مكة المكرمة	عالم وصاحب معارف	١٠٠٩ هـ	ج ٢/٣٢٧
الملك عنبر	عبد حبشي من الأحرة	دولة بيجافور وأحمد ناغار (دولة آباد)	وزير أعظم ومجاهد	١٠٣٥ هـ	ج ٣/٢٣٠-٢٣٤
عبد العزيز فتح خان	ابن الملك عنبر السابق	دولة أحمد ناغار	وزير	؟	ج٣/٢٣٢-٢٣٣
محمد البرهانبوري الهندي	برهانبور (بيرار)	برهانبور	سلطان الصوفية	١٠٢٩ هـ	ج ٤/١١١
الخوجة محمد الباقي النقشبندي	كابل (افغانستان الحالية)	دهلي	متصوف نقشبندي	١٠١٤ هـ	ج٤/٢٨٨-٢٨٩
السلطان محمد بن إبراهيم عادل شاه	أحمد آباد (بيجافور)	بيجافور	سلطان بيجافور	١٠٦٧ هـ	ج٤/٣١٦-٣١٧
موسى السندي	السند	نزيل المدينة المنورة	متصوف	١٠١٢ هـ	ج٤/٤٣٥
نظام الدين السندي	السند	نزيل دمشق	متصوف	١٠١٦ هـ	ج٤/٤٥١-٤٥٣

مسرد بنزلاء الهند من الأقطار الإسلامية الأخرى

من حضرموت

الإسم	موطن الأصل	الإقامة	فعالية الشخصية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
الشيخ ابو بكر بن احمد العيدروس	تريم (حضرموت)	نزيل دولة اباد (احمد ناغار)	عابد ناسك تقرب من خرّم .شاهجهان	١٠٤٨ هـ	ج١/٧٠-٧١
أبو بكر بن حسين العيدروس	تريم (حضرموت)	نزيل بيجافور وبندرسورت	متصوف	١٠٧٤ هـ	ج١/٨٢
ابو بكر الخفري	قسم (حضرموت)	الهند (إقامة موقتة)	عالم - زاهد	١٠٨٨ هـ	ج١/٨٤-٨٥
ابو طالب بن محمد العلوي	مريمة (حضرموت)	الهند (إقامة موقتة)	عالم بالفرائض والحساب	١٠٥٥ هـ	ج١/١٣١
احمد بن أبي بكر الشليّ	تريم (حضرموت)	الهند (إقامة موقتة)	عالم بالفرائض والحساب	١٠٥٧ هـ	ج١/١٦٢-١٦٣
احمد بن شيخ العيدروس	تريم (حضرموت)	الهند (بروج) إقامة دائمة	متصوف ولي	١٠٢٤ هـ	ج١/٢١٨
احمد بن محمد با جابر	حضرموت	لاهور (الهند) إقامة دائمة	من الفضلاء	١٠٠١ هـ	ج١/٢٧٤
جعفر الصادق العيدروس	تريم	سورت، فاحمد ناغار (إقامة كاملة)	من العلماء الموسوعيين	١٠٦٤ هـ	ج١/٤٨٢-٤٨٣
زين بن عبد الله جمل الليل	روعة	أحمد ناغار (إقامة موقتة)	من الفضلاء العالمين	١٠٥٨ هـ	ج٢/١٨٦-١٨٧
زين بن عمر الحديلي	تريم	الهند (إقامة موقتة)	عالم بالفقه والحديث	١٠٨٩ هـ	ج٢/١٨٧-١٨٨
زين بن محمد الحديلي	تريم	الهند (إقامة موقتة)	بارع بعلم النحو والصرف	١٠٧٢ هـ	ج٢/١٨٨-١٨٩
سعيد بن عبد الرحمن القيدوني	قيدون	الهند (إقامة موقتة)	من كبار علماء الشافعية	١٠١٧ هـ	ج٢/٢٠٩-٢١١
شيخ بن عبد الله العيدروس	تريم	دولة آباد (إقامة دائمة)	فقيه ومتصوف ومؤلــف	١٠٤١ هـ	ج٢/٢٣٥-٢٣٦
شيخ بن علي الجُفري	تريس	الهند (إقامة موقتة)	عالم جليل	١٠٦٣ هـ	ج٢/٢٣٦-٢٣٧
عبد الرحمن جمل الليل	تريم	الهند (إقامة موقتة)	فقيه وقاص	١٠٧٠ هـ	ج٢/٣٦٣
عبد الرحمن اليمني	تريم	الهند (إقامة موقتة)	من كبار المتصوفة	١٠٥٩ هـ	ج٢/٣٦٤-٣٦٥

عبد القادر العيدروس	ولد بالهند	أحمد أبـاد (إقامة دائمة)	عالم ـ مؤرخ ـ ومؤلف	١٠٣٨ هـ	ج٢/٤٤١ـ٤٤٢
عبد الله باقفيه	تريم	كنور (كنانور)(بيجافور)	عالم في الهيئة والكيمياء ووزير	؟	ج٣/٣٩ـ٤٠
عبد الله بن زين	تريم	بيجافور (إقامة دائمة)	عالم ومتصوف	؟	ج٣/٤٠ـ٤١
عبد الله بن شيخ عيدروس	تريم	أحمد أباد (إقامة موقتة)	عالم متضلع وصوفي	١٠١٩ هـ	ج٣/٤٩ـ٥٠
عبد الله بن شيح بن شيخ العيدروس	تريم	كجرات وبيجافور (موقتة)	عالم ووزير	١٠٧٣ هـ	ج٣/٥١
عبد الله بن علي اليمني	تريم	الهند (موقتة)	عالم ومتصوف	١٠٣٧ هـ	ج٣/٦١ـ٦٢
عقيل باعلوي	تريم	الهند (موقتة) ٠	عالم أديب	١٠٢٢ هـ	ج٣/١١٤
علوي بن عمر جمل الليل	روغة	الهند (دائمة)	فقيه مطالع ورع	١٠٥٤ هـ	ج٣/١٢٠ـ١٢٢
علوي الجُفري	قسم	الهند (موقتة)	تاجر فاضل وتقي	١٠٦١ هـ	ج٣/١٢١ـ١٢٢
علي بن عمر با عمر	ظفار	الهند (موقتة)	مدرس ـ صاحب نفوذ	١٠٩٦ هـ	ج٣/١٧٨
عمر بن عبد الله سا شيبان	ولد بالهند	الهند (دائمة)	عالم فقيه	١٠٦٦ هـ	ج٣/٢١٤ـ٢١٥
عمر بن علي بن باعلوي	ظفار	الهند (دائمة) بيجافور	متصوف ولي	١٠٦٣هـ	ـ٣/٢١٩ـ٢٢٠
محمد الشليّ الحضرمي	تريم	الهند (موقتة)	عالم كبير ومؤرخ	١٠٩٣ هـ	ج٣/٣٣٦ـ٣٣٨
محمد بن بركات ابن السقاف	تريم	الهند (موقتة)	ولي له كرامات وتسلط على الحكام	١٠٤٨ هـ	ج٣/٤٠٣ـ٤٠٤
محمد بن عبد الرحمن الحضرمي	تريم	الهد (موقتة)	قاض وفقيه ومدرس ومؤلف	١٠١٩ هـ	ج٣/٤٩٢
محمد العيدروس بن عبد الله	تريم	بندرسورت (دائمة)	عالم ومتصوف	١٠٣٠ هـ	ج٤/٢٦ـ٢٧
محمد بن علوي السقاف	الشحر	الهند (موقتة)	صوفي متفقه	١٠٧١ هـ	ج٤/٤٢ـ٤٣
محمد الباقر حسن	تريم	الهند (موقتة)	أديب متصوف	١٠٢٦ هـ	ج٤/١٠٣ـ١٠٤

من بلاد الحجاز

الإسم	الوطن الأصلي	مكان الإقامة	فعالية الشخصية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
أحمد الجوهري	مكة	الهند (دون تحديد)	أديب شاعر وعالم	١٠٦٩ هـ	ج١/٣٢٧ـ٣٣١
الأمير أحمد بن معصوم	الطائف	حيدر آباد	عالم شيعي وزير في الهند	١٠٨٦ هـ	ج١/٣٤٩ـ٣٥٢
السيد حسن بن شدقم	المدينة	الهند	عالم صاهر أحد ملوك الهند	١٠٤٦ هـ	ج٢/٢٣ـ٢٤
السيد عمر بن بركات	مكة	الهند	من أشراف مكة	١٠٦٩ هـ	ج٣/٢٠٤ـ٢٠٦
السيد محمد يحيى بن معصوم	المدينة	الهند	شاعر أخو صاحب السلافة	١٠٩٢ هـ	ج٣/٢٩١ـ٢٩٣

من بلاد الشام

الإسم	الوطن الأصلي	مكان الإقامة	فعالية الشخصية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
السيد جعفر	دمشق	الهند (دائمة)	أديب شاعر	١٠٩٨ هـ	ج١/٤٩٤ـ٤٩٥
أمين الحسيني		حيدر آباد	سفير السلطان في حيدر آباد		
السيد محمد بن علي	دمشق	حيدر آباد(١)	أديب شاعر سفير	١٠٥٩ هـ	ج٤/٤٩ـ٥٤
الحريري العاملي		بلاد العجم	من الهند إلى العجم		
السيد محمد بن علي	جبل عامل	بلاد الهند	أديب شاعر	بعد ١٠٩٠هـ	ج٤/٦٥ـ٧٣
خشري العاملي					

من بلاد العجم

الإسم	الوطن الأصلي	مكان الإقامة	فعالية الشخصية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
محمد بن أحمد	فارسي مستوطن	الهند	عالم اضطهد من الشريف	١٠٥٠ هـ	ج٣/٣٦١ـ٣٦٦
حكيم الملك	جدة مكة		محسن ـ أديب		
نعمة الله الكيلاني	كيلان	الهند ثم مكة	عالم متصوف	١٠٤٦ هـ	ج٤/٤٥٥ـ٤٥٨

(١) انظر حول عمله في الهند (نزهة الخواطر) ج٥/٣٥٨ـ٣٥٩، إذ لم يشر المحبي إلا في بلاد العجم.

نبذة تاريخية موجزة عن الهند قبل العصر الحديث:

من المعروف أن العرب المسلمين فتحوا وادي السند منذ العصر الأموي (عام ٩٣ - ٩٥ هـ/٧١١ - ٧١٣ م)، ونشط التجار المسلمون في هذا الإقليم، إلا أن التوسع في بلاد الهند لم يتم إلا منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وذلك على يد الدولة الغزنوية التركية (٣٦٦ - ٥٨٢ هـ /٩٧٧ - ١١٨٦ م) التي نشأت في أفغانستان، واتخذت عاصمة لها «غزنة». فقد قام سلطانها الكبير «محمود» (٣٨٨ - ٤٢١ هـ /٩٩٨ - ١٠٣٠ م) بالجهاد في شمالي الهند، واستطاع بعد سبع عشرة غزوة من تثبيت قدمه في «البنجاب»، كما نجح في دعم امبراطوريته في بلاد الغور (بين هراة وغزنة)، وفي بلاد ما وراء النهر، وعمل حثيثاً لنشر الدين الإسلامي في المناطق الهندية التي افتتحها.

وتابعت «الدولة الغورية» (٥٧١ - ٦٠٣ هـ /١١٧٥ - ١٢٠٦ م) التي حلّت محل الدولة الغزنوية، الطريق الجهادية في الهند التي افتتحها السلطان محمود، فتمكنت من الامتداد على كل شمالي الهند، ووادي الغانج حتى البنغال، كما ضمت «غوجرات» (كجرات)[1] في الشمال الغربي من الهند.

ولما تأسست دولة المماليك في «الهند وأفغانستان» برئاسة «قطب الدين أيبك» الذي كان مملوكاً للسلطان «معز الدين الغوري» على أثر تكليف سيده له بنيابة الهند عام ٥٩٢ هـ /١١٩٥ م، وعلى أثر ضعف الدولة الغورية، فإنه

---

(١) تكتب بالاملاءين: (غوجرات)، و (كجرات).

اتبع خطة سيده في غزو الهند، ومدّ ملكه والإسلام فيها، وجُعلت «دلهي» عاصمة للدولة الجديدة. وبقيت «**سلطنة دلهي**» تحكم شمالي الهند حتى ٩٣٢هـ/١٥٢٦م بسلالات مختلفة. وكان من حكامها البارزين «**شمس الدين ايلتوتميش**» (٦٠٨ - ٦٣٤ هـ /١٢١١ - ١٢٣٦ م) صهر أيبك، وقد توسع في شمالي الهند، واعترف به الخليفة العباسي سلطاناً عام ٦٢٧ هـ /١٢٢٩ م.

وبعد وفاته انتقلت «**سلطنة دلهي**» إلى يد (٤٠) من القادة الأتراك تقاسموا المناصب العليا فيها، فيما بينهم، ما عدا منصب السلطان الذي بقي لأسرة «ايلتوتميش». إلا أنه استطاع أحد المماليك وهو «**بلبان شاه**» من السيطرة على الحكم في دلهي عام ٦٦٥ هـ /١٢٦٦، وتكوين «**سلالة بلبان**» (٦٦٥ - ٦٨٩ هـ /١٢٦٦ - ١٢٩٠ م). وقد استطاعت هذه الأسرة أن تبعد المغول عن غزنة، التي كانوا قد استقروا فيها منذ ٦١٧ هـ /١٢٢٠ م، ورأت «دلهي» في عهدها ازدهاراً.

وتلا «أسرة بلبان» على الحكم في «سلطنة دلهي» **أسرة خلجي** التي أسسها «فيروز» وهو من قبيلة «خلجي» التركية التي أقامت طويلاً بين الأفغان، ودام حكمها (٦٨٩ - ٧٢٠ هـ /١٢٩٠ - ١٣٢٠ م). وقد قامت هذه السلالة الحاكمة بغزوات بعيدة المدى في الهند، وفي منطقة الدكن بصفة خاصة، حتى وصلت إلى أقصى جنوبها. وفي الشمال ثبتت قدمها في «غوجرات» و«مالوا» كما تمكنت هذه السلالة الحاكمة من القضاء على الجيوش المغولية المهاجمة للهند في عامي ٧٠٤ هـ /١٣٠٤ م، و٧٠٦ هـ /١٣٠٦ م. وفي عهد هذه الدولة نشط العمران في بلاد الهند نشاطاً كبيراً، وازدهرت الحياة الفكرية الإسلامية، إذ قرب سلاطينها إليهم الأدباء والشعراء والعلماء، الوافدين إليهم من بلاد فارس، وبدت الهند بمجموعها في قبضتهم.

وسيطر على الحكم في «دلهي» بعد «الأسرة الخلجية» **الأسرة الطُغْلُقية** (٧٢٠ - ٨١٦ هـ /١٣٢٠ - ١٤١٣ م). وقد أسسها «غياث الدين طُغْلُق»

المتوفى ٧٢٦ هـ /١٣٢٥ م. وهو تركي أصيل، وقائد فـذ، حقق (٢٩) انتصاراً على المغول. ونقل أحد سلاطينها وهو «محمد طغلق» العاصمة من «دلهي» إلى « دفكري » في وسط الدكن، وأسماها «دولة آباد»، وذلك في عام ٧٢٨ هـ /١٣٢٧ م، وألزم سكان دلهي على سكناها. وخلال حكم هذه الأسرة قام الرحالة العربي «ابن بطوطة» بزيارة الهند (٧٣٦ هـ /١٣٣٤ م).

ومع أن هذه الأسرة مدت سيادتها على معظم أجزاء الهند، إلا أن سياسة «محمد طغلق»، وسعة الأراضي المفتوحة، والتنافس بين الحكام المسلمين، أدى إلى تجـزؤ بـلاد الهند وظهـرت مجموعـة من الدويـلات المستقلة: كـدويلة «مادورا» في أقصى جنوب الهند حيث ثارت تحت حكم سلالة إسلامية، كما استقلت «البنغال» تحت حكم آل بلبان (٧٣٩ - ٩٤٦ هـ /١٣٣٨ - ١٥٣٩ م) و «جونبور» على نهر الغانج، التي حكمتها «السلالة الشرقية» وقـد أسسها «ملك سارفار»، ويعتقد أنه من أصل أفريقي زنجي، وكان أميرها «إبراهيم شاه»، (٧٧٩ - ٨٨٤ هـ /١٣٩٤ - ١٤٧٩ م) من أكثر المشجعين للأدب والعلم. و «مـالـوا» وسط الهنـد وجنـوب نهر الغـانـج (٨٠٤ - ٩٣٨ هـ /١٤٠١ - ١٥٣١ م)، و «غوجرات» شمال غربي الهند، وقد ازدهرت تحت حكم «سلالة راجبوت» (٧٩٩ - ٩٨٠ هـ /١٣٩٦ - ١٥٧٢م)، والتي كان من أبرز سلاطينها «أحمد شاه» بـن «مظفر خان»، وقد حكم مدة طويلة (٨١٤ - ٨٤٦ هـ /١٤١١ - ١٤٤٢ م)، ودعم خلالها مملكته وبنى عاصمته «أحمد آباد» ونشر الإسلام في كل أنحاء مملكته، كما بنى الجامع الكبير في عاصمته، الذي يعتبر من أجمل الأبنية وأفخمها في العالم.

وبالإضافة إلى تلك الدول المستقلة، تكونت دولة إسلامية في «كشمير» وقد أقامها «الشاه ميـرزا» ودامت (٧٤٦ - ٩٩٨ هـ /١٣٤٦ - ١٥٨٩ م) وكذلك الدولة الباهمانية في الدكن، التي أسسها «باهمان شاه» أحد قادة «محمد طغلق» وضمت إليها أربع مقاطعات هي «غولباركة» و «دولة آباد» و «بيرار»

و«بيدار». وقد ظلت الدولة الباهمانية قائمة من (٧٤٨ ـ ٩٣٤ هـ /١٣٤٧ ـ ١٥٢٨ م)، ولم تسع الدولة الطغلقية لإزالتها، إلا أنها انقسمت بدورها إلى خمس ممالك إسلامية في أواخر القرن الخامس عشر.

وفي هذا الجو من التجزئة في الهند، انقض «تيمورلنك» عليها في ٨٠١ و٨٠٢ هـ /١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ م فاجتاح «سلطنة دلهي». وبعد أن عاد أدراجه، كانت البلاد تعاني حالة شديدة من الاضطراب، والأوضاع السيئة. وتسلّم السلطة بعد السلالة الطغلقية «دولة الأسياد» (٨١٧ ـ ٨٥٥ هـ /١٤١٤ ـ ١٤٥١ م)، التي اقتصر حكمها على منطقة البنجاب ووادي جومنة (وهو الرافد الجنوبي لنهر الغانج) وسميت بهذا الاسم، لأن حكامها ادعوا اتصال نسبهم بآل الرسول ﷺ . وقد استطاع «آل بهلول لودي» (٨٥٥ ـ ٩٣٢ هـ /١٤٥١ ـ ١٥٢٦ م) أن ينتزعوا الحكم منها وأن يسيطروا على دلهي، وامتدت السلطنة في عهدهم حتى «بيهار» في أقصى شمال شرقي وادي الغانج، وعلى راجبوتانا. ولما لم يكن بعض النبلاء الأفغانيين راضين عن الحكم، فقد استنجد بعضهم «ببابر التيموري» من بلاد فرغانة، الذي قضى على سلالة لودي الحاكمة في دلهي عام ٩٣٢ هـ /١٥٢٦ م.

وهكذا ففي مطلع القرن العاشر الهجري / أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إذاً، كانت الهند مجزأة إلى دول إسلامية وهندية متنافسة: فالإمارات الهندية لم تكن راضية عن السيادة الإسلامية؛ وبصفة خاصة «راجبوتانا» في الشمال الغربي من الهند. وفي منطقة الدكن برزت السلطنات الإسلامية الخمس التي تفتتت إليها الدولة الباهمانية وهي: «**دويلة بيدار**» وكان يحكمها **آل بريد** وهي دولة سنية، و«**دويلة أحمد ناغار**» ويحكمها **آل نظام الملك (نظام شاهي)** وكانت هي الأخرى سنية المذهب حتى عهد «برهان الأول»، الذي اعتنق المذهب الشيعي في عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م. و«**دويلة بيجافور**» وعلى رأسها **آل عادل خان (عادل شاهي)** و«**دويلة غولكندة**» وحكامها من **آل قطب الملك (قطب شاهي)**، والدولتان شيعيتا المذهب، إلا أن «إبراهيم عادل شاه» سلطان «بيجافور» تبنى المذهب السني

بعد غام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م وأخيراً **«دويلة بيرار»** السنية، وكان على رأسها **«آل عماد الملك (عماد شاهي)»**.

وخلاصة القول، على الرغم من أن الهند الإسلامية قد عاشت خلال الفترات السابقة، مراحل من الاضطراب السياسي، إلا أن الإسلام فيها كان يكسب كل يوم أتباعاً، والحضارة العربية الإسلامية تتفاعل مع أناس جدد، وحضارة هندية سابقة، وتأخذ وتعطي، وتترسخ جذورها. وبالفعل فقد ظهر عديد من كبار علماء الدين، والمؤرخين، والشعراء، الذين كتبوا باللغة العربية أو الفارسية، وقربهم السلاطين إليهم. كما يرجع إلى هذه الفترة تأثر الموسيقى الهندية بالموسيقى الإسلامية.

وقد سعى «المتصوفة» السنة في هذه الأثناء سعياً جاهداً لرد إسماعيلية السند إلى المذهب السني، ولنشر الإسلام بين غير المسلمين. وكانت الطرق الصوفية البارزة في الهند آنذاك هي: «الجشتية» و«القادرية» و«السهروردية» و«النقشبندية» و«العيدروسية» (نسبة الى عفيف الدين عبد الله العيدروس الكبير الحضرمي)، وقد عملت كلها لزيادة عدد الجماعة الإسلامية السنية. ولكن المسلمين في الهند لم يكونوا من سكان البلاد الذين اعتنقوا الإسلام فحسب، وإنما كان هناك سيل من المسلمين المهاجرين إليها من المناطق الأخرى وبصفة خاصة من فارس، وأواسط آسيا، وبلاد المشرق العربي، وجنوب شبه الجزيرة العربية. وكان المذهب السني الذي حبّذ أكثر من غيره هو «المذهب الحنفي».

الهند في العصر الحديث:

يتميز تاريخ الهند في العصر الحديث (أي من القرن العاشر إلى أوائل الثالث عشر للهجرة/ السادس عشر إلى أواخر الثامن عشر الميلادي) بظاهرتين أساسيتين:

أولاهما: نشأة الأمبراطورية المغولية الإسلامية بزعامة «بابر التيموري»، التي سعت إلى توحيد الهند تحت جناحيها.

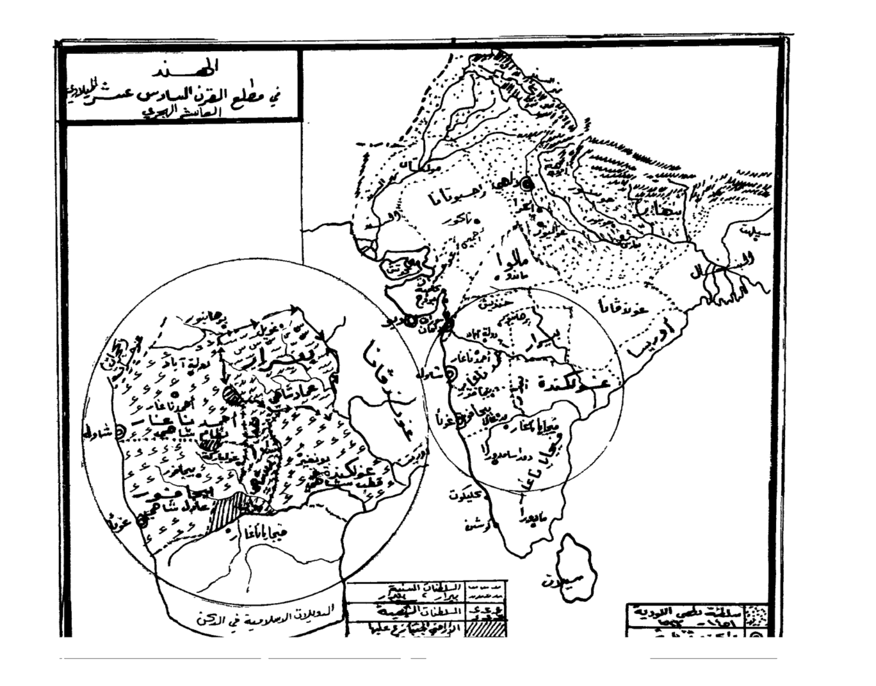
وثانيتهما: تسلل أوروبا إلى الهند بتكوين مراكز تجارية لدولها الكبرى فيها، ثم سيطرة انكلترا عليها.

أولاً: الإمبراطورية المغولية الإسلامية: ففي الثلث الثاني من القرن العاشر الهجري / مطلع الربع الثاني من القرن السادس عشر، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تثبت ضمها لبلاد الشام ومصر، والدولة الصفوية الفارسية تدعم مواقعها في بلاد إيران وما وراء النهر، وتشتبك مع الدولة العثمانية في حروب طويلة، ظهر على المسرح السياسي في منطقة فرغانة، شرقي بلاد ما وراء النهر، «بابر التيموري» (٨٨٩ - ٩٣٧ هـ / ١٤٨٣ - ١٥٣٠م). و«بابر» هو من سلالة تيمورلنك (الجيل الخامس)، وكان وارثاً لحكم فرغانة، إلا أنه كان يطمع بمد نفوذه على سمرقند وبلاد ما وراء النهر، إلا أنه اصطدم بالأتراك من الأوزبك[١]. وعندما أخفق في تحقيق أمنيته غرباً، صرف همته إلى بلاد الهند. وقد وجهه إليها «حاكم لاهور» الذي لم يكن راضياً عن حكم «سلطان دلهي» من آل لودي، فاستنجد به. وفي معركة «بانيبات» شمال غربي الهند انتصر،«بابر» عام **٩٣٢** هـ /**١٥٢٦** م على سلطان دلهي، وذكر اسمه في الخطبة على أنه سلطان هندستان. وبذلك تكونت «الامبراطورية المغولية الإسلامية» التي عاشت من (٩٣٢ - ١٢٧٤ هـ /١٥٢٦ - ١٨٥٧ م). وقد عمل «بابر» على تثبيت نفوذه في شمالي بلاد الهند، ووقع اتفاقاً مع ملك البنغال. ولم يكن «بابر» قائداً حربياً قادراً فحسب، وإنما كان أيضاً كاتباً، وشاعراً مجيداً. وقد خلّف وراءه «مذكراته الشهيرة» باللغة التركية.

---

(١) الأوزبك: هم من التركمان الذين كانوا يقطنون شمال بلاد ما وراء النهر. وفي مطلع القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، تقدم زعيمهم «محمد شيباني خان» نحو بلاد ما وراء النهر ليمنح خدماته للحكومة التيمورية في بخارى.

أنظر المقدمتين التاليتين عن بلاد خوارزم وبلاد فارس.

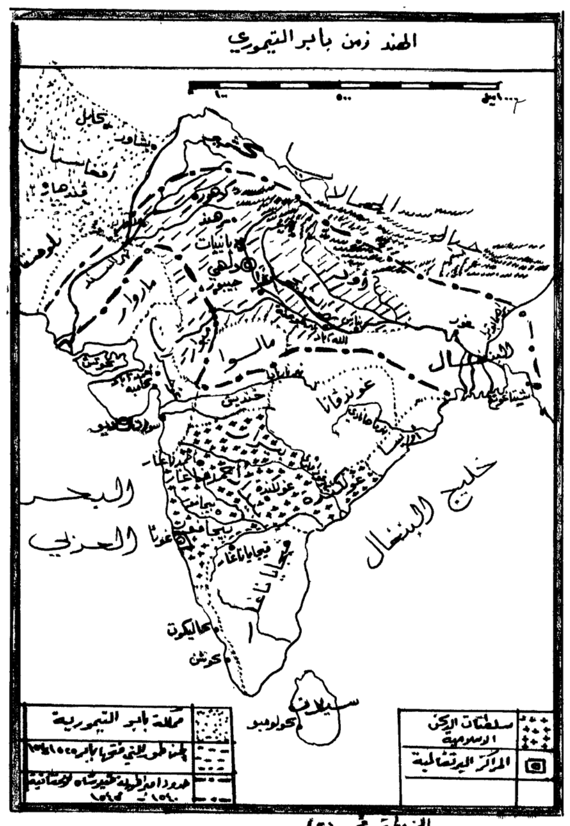


الهند
في مطلع القرن السادس عشر الميلادي
العاشر الهجري
دلهي
راجبوتانا
ملتان
مالوا
ماندو
البنغال
سيلهت
جونبور
عوندوانا
أوريسا
بيرار
عولكندة
أحمدناغار
شاول
غوا
بيجابور
بيجانغار
كاليكوت
سيلان
السلطنات الإسلامية في الدكن
السلطنات الخمسة
المنطقة المتنازع عليها

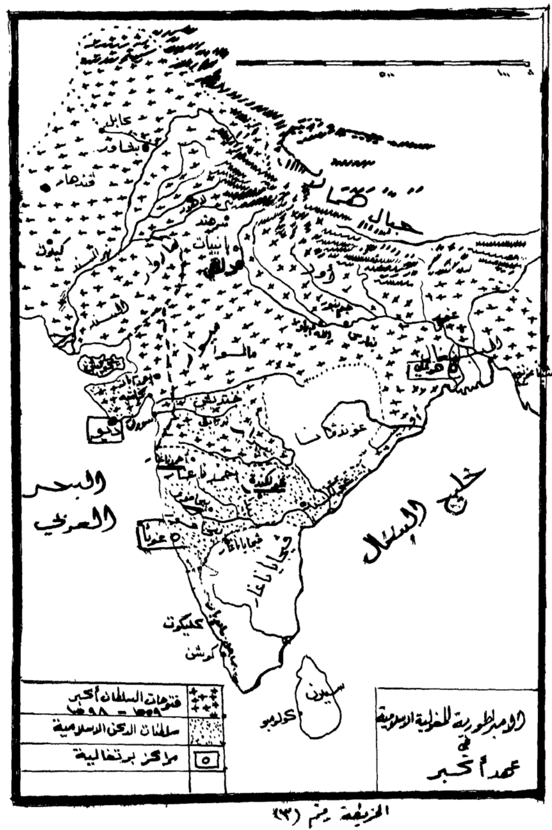
وقد توالى على العرش بعد «بابر» ابنه «همـايون» الذي حكم على فترتين: الأولى (٩٣٧ ـ ٩٤٧ هـ / ١٥٣٠ ـ ١٥٤٠ م) وانتهت بإبعاده عن السلطنة وفراره إلى فارس، إذ اصطدم «بسلالة شيرشاه الأفغانية» (٩٤٦ ـ ٩٦٣ هـ / ١٥٣٩ ـ ١٥٥٥ م) التي دعمت سلطتها في «بيهار» قرب المجرى الأدنى لنهر الغانج، ومدت سيطرتها على جزء كبير من شمالي بلاد الهند (أنظر الخريطة رقم (١)) والفترة الثانية (٩٦٣ ـ ٩٦٤هـ/ ١٥٥٥ ـ ١٥٥٦م) حيث عاد بمساعدة من الفرس (الشاه طهماسب)، وانتزع ثانية السلطنة في دلهي، حيث توفي عام ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٦/ م.

وخلف «همايون» ابنـه السلطـان «أكبـر» (٩٦٤ ـ ١٠١٤ هـ/ ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م). وقد تمكن من إعادة الإمبراطورية وتقويتها لا في شمال الهند فحسب، وإنما مدّ سيطرته إلى الجنوب. فقد قام بعدة حملات ضم فيها بلاد السند، وماروار، ومالوا، وغوجرات، والبنغال، وبيرار، وخنديش، وكشمير، (أنظر الخريطة رقم ٣) وسـاد «غوندڤانـا» المملـكة الهنـدية، وقضى على سلطـة «فيجـايا ناغـار» (٩٧٢ هـ/ ١٥٦٥ م)، واحتل دويلة أحمد ناغار (١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م)، وبـذلك جعل بقية السلطنات الإسلامية في الدكن تدرك أنه من العسير عليها أن تقف في وجه المغول المسلمين.

توفي أكبر عام ١٠١٤ هـ /١٦٠٥ م؛ ولم يكن قائـداً حربيـاً متميزاً فحسب، حوّل مملكته الصغيرة إلى إمبراطورية واسعة، ولا ملـكاً فقـط دعم تلك الإمبراطورية بتنظيم إداري متين، وجيش قوي، وموارد مالية ضخمة، وإنمـا كان أيضـاً مفكراً دينيـاً. فلقد سعى أن يقـرب بين الـديانـات في إمبراطوريته، وتأثر بالأفكار الهندوسية والمسيحية، وعقد مجالس نقـاش في الأمور الدينية بين مسلمين، وهندوس، ومبشرين دينيين نصـارى وزراداشـتيين. ويبدو أنه اعتقد بقواه الفكرية والروحية الخاصة، فأخذ يجمع حوله عديداً من الأتباع المناصرين لأفكاره الدينية الجديدة التي هي مزيج من أفكار مسيحية، وزرادشتية، وإسلامية. وأطلق على دينه الجديد المعتمد على مفهوم «وحدة الوجود» إسم «الدين



الخريطة رقم (٥)



الخريطة رقم (٣)

الإلهي»، الذي يبدو بعيداً عن أصول الدين الإسلامي.

وتلا السلطان «أكبر» على العرش إبنه «جهانكير» (١٠١٤ ـ ١٠٣٧ هـ /١٦٠٥ ـ ١٦٢٧ م) وقد حافظ على إمبراطورية أبيه، إلا أن السلطة الحقيقية كانت بيد زوجه الفارسية «نـورجاهان». واصطدم أثناء حكمه بثورة «الملك عنبر» في «دويلة أحمد ناغار» ـ وقد ترجم له «المحبي»[1] ـ، إذ جند هذا الأخير ضده «المهراتا» من الهنود على شكل جيش شعبي، ليقوموا بما يشبه حرب العصابات، وتمكّن بذلك أن يكتسب قسماً مما أخذه المغول المسلمـون من دويلته. وقاد العمليات العسكرية ضد الملك عنبر، «خرّم» بن جهانكير. فرأى الملك عنبر من الحكمة أن يتنازل عن الأرض التي ضمـها، لأنه لا قبل له بالقوة المغولية. وقد منح «جهانكير» ابنه «خرّم» بعد ذلك النصر لقب «شاه جاهان».

وفي زمن «جهانكير» أيضاً تدخـل **«الشاه عبـاس الكبير»** شـاه الفرس للاستيلاء على «قندهار» من ممتلكات الإمبراطورية المغولية في الغرب. كما ثار ابنه «شاه جاهـان» عليه. وكذلك أحـد قادتـه العسـكريين، وانتهـى أمـره بوفاته عام ١٠٣٧ هـ /١٦٢٧ م. وقد عرف عنه بأنه ملك مسلم محافظ على الرغم من ميله إلى الخمرة. وكان مشجعاً كبيراً لفن الرسم، الذي كان عارفاً له، وكان يود أن يظهر أنه نافع للشعب. وفي عهده قوي المذهب السني، بفضل جهود الشيخ **«أحمد السرهندي»** النقشبندي المسمى «بالمجدد». والذي دعا إلى «وحدة الشهود» (شعور الفرد «بالاتحاد مع الله» عبر التجربة الصوفية، ودون أن يفقد إحساسه بهويته الذاتية)، مقابل «وحدة الوجود» (وهي الشعور بالاتحاد التام مع الله في لحظة يفقد فيها المتصوف شعوره بذاته). وقد انتشر فرع «المجددية» من النقشبندية لا في الهند فحسب، وإنما في بلاد الدولة العثمانية وفي غرب أندونيسيا.

---

(١) أنظر ترجمته في الصفحات التالية.

وجاء إلى عرش الإمبراطورية المغولية الإسلامية بعد «جهانكير» **«شاه جاهان»** (١٠٣٧ - ١٠٦٧هـ /١٦٢٨ - ١٦٥٨م). وفي عهده وصلت الإمبراطورية إلى أقصى توسعها، إذ استطاع أن يتم فتح بقية بلاد الهند، وأن يسحق دويلة «أحمد ناغار» (١٠٤١ هـ /١٦٣١ م)، وأن يهزم «غولكندة» (١٠٤٤ هـ /١٦٣٥ م) بعد أن ألزمها على الامتناع عن الدعاء في الخطبة للشاه الصفوي الشيعي، وكذلك «بيجافور» (١٠٤٥ هـ /١٦٣٦ م). وبين عامي (١٠٤١ - ١٠٦١ هـ /١٦٣٢ - ١٦٥٣م)، بنى لزوجه «ممتاز محل» ذلك الضريح الشهير في «أغرا»، الذي يعد من روائع العمارة في العالم، كما بنى لها قصرها (خاص محل) في المدينة نفسها.

وعندما مرض «شاه جاهان» (١٠٦٦ هـ /١٦٥٧ م) ثار عليه أولاده الأربعة: فأعلن **«مراد بخش»** نفسه إمبراطوراً في «غوجرات»، وتقدم **«شاه شجاع»**، وكان حاكماً في البنغال، نحو العاصمة، وكذلك ابنه الثالث **«أورانغ زيب»**. واستطاع هذا الأخير أن يستولي على «أغرا» في ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٨م من أبيه وأن يعلن نفسه فيها إمبراطوراً بعد أن سجنه (سجن أباه) (وتوفي سجيناً عام ١٠٧٥ هـ /١٦٦٦ م)، وقتل اثنين من أخوته (داراشيكوه، ومراد بخش).

وقد رأى عهده (١٠٦٨ - ١١١٨ هـ /١٦٥٩ - ١٧٠٧ م) بداية انحطاط الإمبراطورية. لقد كان مسلماً متحمساً وحاكماً أراد أن يجمع كل السلطات في يده، ولذا فقد ظهر له أعداء كثيرون، ولا سيما بين الهندوس، حيث منعهم من ممارسة شعائر دينهم. وقد قمع عدة ثورات، إلا أن أكثر الثورات ضده كانت ثورة «المهراتا» الذين تزعمهم «شيفاجي» وابنه من بعده «شامبوجي». وقد بذل جهداً كبيراً في ملاحقتهم في جميع حصونهم بين (١١١١ - ١١١٧ هـ /١٦٩٩ - ١٧٠٥ م)، وفي تبديد قوتهم، إلا أنه لم يستطع أن يقضي عليهم نهائياً، إذ عادوا إلى الظهور قوة يخشى بأسها بعد وفاته.

وقد ترك امبراطورية بدأ الوهن يدب إليها، وتحط من قواها الصراعات

حول وراثة العرش، والثورات التي تزعمها عدد من الحكام المحليين، ويهددها بالخطر، الفرس الذين هاجموها في عهد نادر شاه (عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م)، هذا وقد تمكن «المهراتا» من السيطرة على الدكن والبنجاب.

وبينما كان المغول المسلمون منشغلين بصراعاتهم الأسرية، كان الإنكليز والفرنسيون يستفيدون من ذلك الاضطراب ليوجدوا لهم مراكز في بلاد الهند؛ وتبعهم المبشرون الدينيون، ولم يدرك «الشاه عالم» الخطر إلا متأخراً فهزم أمام الإنكليز عام ١١٧٩ هـ /١٧٦٥ م. وانتزعت «معاهدة الله آباد» معها، التي وقعت في العام نفسه، كل سلطة منه مقابل تعويض مالي يمنحه. وإذا كانت الإمبراطورية المغولية قد بقيت حتى ١٢٧٥ هـ /١٨٥٨ م، وتوالى على عرشها عدة أباطرة، فإنه لم يكن لها أي وجود سياسي، إذ أن هذا الوجود غدا بقبضة انكلترة.

ثانياً ـ تسلل أوربا إلى الهند:

لقد أشير سابقاً إلى أن تاريخ الهند في العصر الحديث ليس تاريخ الإمبراطورية المغولية الإسلامية فحسب، وإنما هو أيضاً ـ كما اتضح مما ذكر أعلاه ـ تسرب أوروبا إليها بعد أن وصل «ڤاسكو دوغاما» البرتغالي إلى شاطئها الغربي عام ٩٠٤ هـ /١٤٩٨ م، وإلى مدينة كليكوت بالذات. وسعت دولته «البرتغال» جاهدة بعد ذلك، لاحتكار التجارة في الهند وطرقها، وإبعاد العرب المسلمين عنها، والحصول على خيرات الهند. ومن المعروف أن «الدولة المملوكية» في مصر والشام قد تصدت لهذا الخطر، وتحالفت مع «محمود الأول» سلطان «غوجرات» (٨٦٢ ـ ٩١٧ هـ /١٤٥٨ ـ ١٥١١ م)، وتلاقى أسطولا الطرفين مع الأسطول البرتغالي، في ميناء «شاول» على ساحل سلطنة «أحمد ناغار» الإسلامية، وهزماه في عام ٩١٣هـ/١٥٠٨م إلا أن البرتغاليين أتوا بقوة أكبر في العام التالي، وحققوا نصراً على المسلمين قرب «جزيرة ديو» الهندية. وبقيت دويلة «غوجرات» بحرب مع البرتغاليين، إلا أن سلطانها «بهادور شاه» (٩٣٢ ـ ٩٤٣ هـ /١٥٢٦ ـ ١٥٣٧ م) لم يستطع التصدي وحده للقوة

البرتغالية، ولا سيما أنه كان بحرب مع السلطان المغولي «همايون» ولذا فقد حصلت البرتغال على معاهدة عام ٩٤١ هـ /١٥٣٥ م تسمح لها بتحصين ميناء ديو. وقد استنجد السلطان الغوجراتي بالسلطان العثماني «سليمان القانوني»، فأرسل له هذا الأخير حملة بحرية، إلا أن الأسطولين العثماني والغوجراتي أخفقا في مهاجمة «ديو» عام ٩٤٤ هـ /١٥٣٨ م، كما أخفقت الجهود الأخرى التي بذلت لطرد البرتغاليين عام ٩٥٣ هـ /١٥٤٦ م. ومن ثم استولى البرتغاليون عام ٩٦٧ هـ /١٥٥٩ م على «دامان» جنوبي «سورت» في غوجرات.

ومثلما ركّز البرتغاليون أنفسهم في ساحل «غوجرات» السلطنة الإسلامية، فإنهم انتزعوا منذ مطلع القرن العاشر الهجري ميناء «غوئا» من سلطنة بيجافور المسلمة، وذلك في عام ٩١٥ هـ /١٥١٠م، واتخذوها عاصمة للإمبراطورية البرتغالية في الهند وملحقاتها.

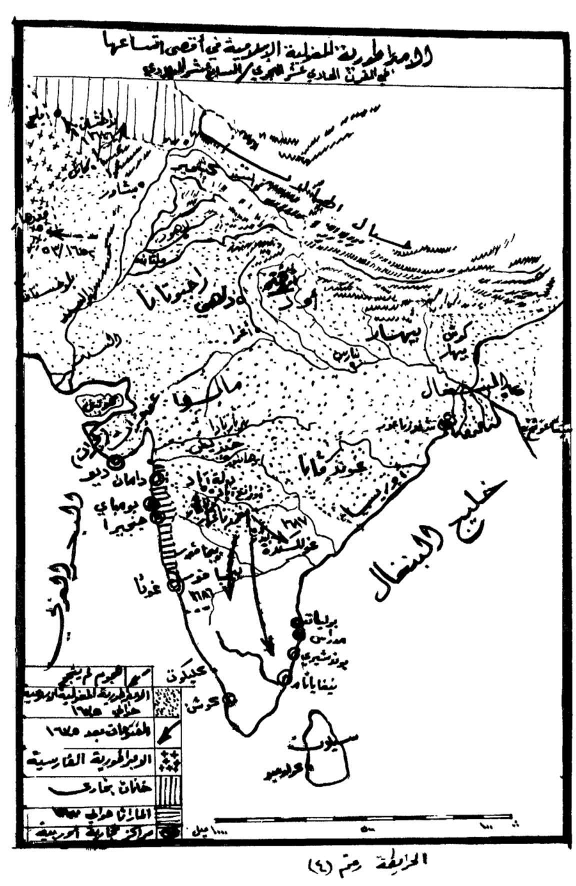
ولم يقتصر الأمر على النشاط الاستعماري البرتغالي، وإنما شرعت «هولاندة» تسعى لتثبيت قدمها أيضاً على الساحل الشرقي لهضبة الدكن، فأنشأت على ساحل «غولكندة» السلطنة الإسلامية مركز «مازولبياتام Masulipatam»، وذلك في ١٠٢٤ هـ /١٦١٥ م.

ودخلت انكلترة الساح منذ مطلع القرن السابع عشر، فقد وصل ممثل «شركة الهند الشرقية االإنكليزية» - التي أسست عام ١٦٠٠ - إلى أغرا عام ١٦٠٣، ليحصل على امتيازات تجارية من الإمبراطور المغولي إلا أن جهوده أخفقت. وفي ١٦٠٩ - ١٦١١، لم ينجح مبعوثها في الحصول على معاهدة للملكه «جيمس الأول»، وكذلك كانت نتيجة سفارة ثانية جرت عام ١٦١٥ - ١٦١٩. ولكن الإنكليز استطاعوا أن يكسبوا حقوقاً تجارية في «سورت» ميناء غوجرات، بعد أن هزموا أسطولاً برتغالياً. وفي عام ١٦٣٩، تمكن لهم الأمر في «مدراس».

وقد استولى أورانغ زيب على «سورت» عام ١٠٩٧ هـ /١٦٨٥ م ليطرد الإنكليز منها. إذ أن قوتهم البحرية هددت التجارة المغولية، وشعر أورانغ زيب بالخطر عندما عملت انكلترة على الاستيلاء على «شيتاغونغ» ميناء البنغال، مما أدى إلى انتزاع حقوقهم التجارية في البنغال منهم. (عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م). ومع ذلك فقد فرضوا ذاتهم على البنغال ثانية، عندما أسسوا «كلكوتا» عام ١١٠٢ هـ/١٦٩٠م.

وفي الواقع ازداد الإنكليز قوة مع ضعف البرتغاليين، ومع سيطرتهم على مدينة «بومباي» عام ١٠٧٢ هـ /١٦٦١ م، وبعد انصراف اهتمام الهولانديين إلى جزر الهند الشرقية. إلا أنهم اصطدموا بالمطامع الفرنسية، بعد تأسيس «شركة الهند الشرقية الفرنسية» عام ١٦٦٤، وتأسيس فزنسا عدة مراكز لها على ساحل الهند، مثل «بونديشيري» (عام ١٠٨٥ هـ /١٦٦٤ م). وبذلك بدأ التنافس الإنكليزي ـ الفرنسي في الهند ، الذي تحول إلى صراع حربي خلال القرن الثامن عشر، وانتهى بانتصار انكلترة، وخروج فرنسا من الهند.

وأخيراً لا بد من كلمة موجزة عن السلطنات الإسلامية الخمس في الدكن، التي أشير إليها سابقاً، لأنها كانت على صلة وثيقة بكثير من الشخصيات التي ترجم لها «المحبي» ولا سيما الحضرمية منها. ويلخص تاريخ هذه السلطنات في العصر الحديث بأنه كان صراعاً دائمًا فيما بينها. كما أن تاريخها الداخلي كان صراعاً حزبياً بين العناصر المحلية من السكان الأصليين، والعناصر الإسلامية الوافدة إليها من الخارج، ويضاف إليها ذلك النزاع المذهبي بين السنة والشيعة، «فشاهات بريد» في «بيدار» و«شاهات عماد» في «بيرار» كانتا من السنة، ومثلها كان «شاهات نظام» في «أحمد ناغار» حتى اعتنق «برهان الأول» المذهب الشيعي عام ٩٤٤ هـ /١٥٣٧ م. وقد حدث صدام بين سلطنة «شاهات بيدار» في الشمال والغرب وبين «بيجافور»، فعملت على عقد تحالفات مع السلطنات الأخرى. هذا بينما كانت «بيجافور» تخضع لضغط مستمر في الجنوب من قبل مملكة «فيجايا ناغارا» الهندية غير المسلمة. والفرصة



الخارطة رقم (٤)

الوحيدة التي عملت فيها تلك السلطنات معاً، ما عدا «بيرار»، كانت ضمن ذلك التحالف الذي تم فيه هزيمة «فيجايا ناغار» في معركة «تاليكوتا» عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤ ـ ١٥٦٥م. وأخيراً ضمت «شاهات عادل» في بيجافور «بيدار» عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م إليها.

أما «شاهات عماد» في «بيرار» فكانت بعيدة نسبياً ولذلك لم تقع تلك الصراعات مع بقية السلطنات على الرغم من بعض الصدامات المحلية مع «شاهات نظام». إلا أنه بعد معركة «تاليكوتا» المشار إليها سابقاً، وعندما عملت «بيجافور» على توسيع ممتلكاتها بضم ممتلكات «فيجايا ناغار» السابقة، سعت «أحمد ناغار» هي الأخرى لتوسيع نفوذها، ولذا فإنها اجتاحت «بيرار» في ٩٨١ ـ ٩٨٢ هـ /١٥٧٤ ـ ١٥٧٥ م، وقضت على قوة «شاهات عماد»، بل واحتوتها.

إن «شاهات نظام» كانت بصورة عامة بصراع شبه دائم مع السلطنتين الواسعتين: «بيجافور» و«غولكندة». وكانت كل سلطنة من السلطنات الثلاث في الواقع ملزمة دائماً على التدخل في الحرب بين السلطنتين الأخريين المتصارعتين حتى لا تنتصر واحدة منهما وتخلّ بتوازن القوى، مما يضر بالسلطنة غير المحاربة في البدء. وبهذه الطريقة استطاعت هذه السلطنات في الحقيقة من البقاء بينما السلطنة الباهمانية الواحدة سقطت. ففي عام ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م قام صراع بين «بيجافور» و«أحمد ناغار» بسبب حصن على الحدود رفضت بيجافور أن تتنازل عنه. وفي ٩٣٧ هـ/ ١٥٣١ م تحالف برهان الأول «سلطان» «أحمد ناغار» مع «بهادور شاه» سلطان «كجرات» (غوجرات) خشية منه، إذ ضم هذا الأخير «مالوا»، وتحالف مع «خنديش» وكان هدف «بهادور شاه» أن ينال عون «أحمد ناغار» ضد الإمبراطور المغولي، ولكن «برهان الأول» اقترح سراً على «همايون» أن يهاجم «كجرات». وحدث تحالف بين «أحمد ناغار» و«بيجافور» لضم «بيرار» إلى الأولى، و«غولكندة» للثانية، في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م إلا أن ذلك لم يؤت أكله، إذ جاءت وفاة سلطان بيجافور «إسماعيل» لتقضي عليه فقد أعلن خليفته «إبراهيم» المذهب السني مذهباً

رسمياً لسلطنته، وطرد معظم «الغرباء»، واستخدم «البرهمانيين» في الإدارة. وساءت العلاقات بين السلطنتين عندما أعلن «برهان الأول» تشيعه. وقد اصطدمت بيجافور أيضاً بثورة في مقاطعات «كونكان» حيث ألب السكان عليها البرتغاليون في «غوئا» التي استولوا عليها من بيجافور عام ٩١٥هـ/ ١٥١٠م.

وفي عام ٩٦٠ هـ /١٥٥٠ م وجه «شاهات عادل» أنظارهم نحو «فيجايا ناغار» كي تساعدهم على منافسيهم، بل إنها غدت محط أنظار السلطنتين الأخريين «بيجافور» و«غولكندة». إلا أن الإهانات التي كانت توجهها للإسلام، واشتطاطها في مطالبها من السلطنات، مقابل مساعدتها بالسلاح لهم، دفعت السلطنات الإسلامية للتحالف وهزيمتها في معركة «تاليكوتا» الآنفة الذكر.

وقد عانت «أحمد ناغار» في أواخر القرن العاشر من اضطرابات حول وراثة العرش، ومن صراعات حزبية أدت إلى طلب النجدة من المغول، وكان إمبراطور المغول يستعد في الواقع لاجتياح الدكن عندما وصله نداء الاستغاثة، فحوصرت مدينة «أحمد ناغار» من قبله، ولم تنل السلطانة الوصية على العرش «جاند بيبي» حريتها إلا بالتنازل عن «بيرار». إلا أن الإمبراطور المغولي لم يكتف بذلك، بل أراد السلطنة كلها. وبالفعل سقطت المدينة في يده عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م. وفي بحر عشر سنوات قام الوزير الحبشي «الملك عنبر» (الذي ترجم له المحبي)، بإخراج المغول، وبإعادة سلالة «شاهات نظام» ولكن الدولة بقيت تحت ضغط المغول الثقيل، ومضايقات «بيجافور» الطامعة بأراضيها الجنوبية. ولذلك عاد الإمبراطور المغولي لمهاجمتها عام ١٠٣٩ هـ /١٦٣٠ م، وسقطت السلطنة نهائياً بيده بعد ثلاث سنوات.

وفي عام ١٠٤٦ هـ /١٦٣٦ م، أجبر الإمبراطور المغولي «بيجافور» على عقد صلح تعترف فيه بتبعيتها له. ونعمت البلاد بالسلام لعشرين عاماً، أي حتى بدأت هجمات «المهراتا» بقيادة «شيفاجي» على الشمال والغرب. ولكن

هذا لم يمنع «بيجافور» من الاحتفاظ بمركزها الفكري، إذ بقيت بؤرة مشعة ولا سيما في عهد آخر سلاطينها الأقوياء «محمد عادل شاه» المتوفى ١٠٦٧ هـ /١٦٥٦ م، وهو الذي ترجم له «المحبي» تحت اسم «محمود عادل شاه». إلا أنها فقدت استقلالها من الوجهة السياسية عندما ضمها الإمبراطور المغولي «أورانغ زيب» إليه في ١٠٩٧ هـ /١٦٨٦ م.

إن دولة «شاهات قطب» في «غولكندة» كانت أقل اضطراباً من جاراتها ولم تعرف ذلك الصراع الحزبي الداخلي بالعنف الذي عرفته السلطنات الأخرى. وقد استقبلت مدينة «حيدر آباد» التي بنيت بناءً رائعاً في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ولست سنوات بعثة فارسية من «الشاه عباس»، وكانت مركزاً رائداً للدراسات الشيعية. إلا أن التدخل الهولاندي والإنكليزي أقلق أحوال هذه الدولة. ففي عام ١٠٢٤هـ/١٦١٥م أقام الهولانديون مقراً لهم في «مازوليباتام Masulipatam». على ساحل مدراس وكذلك فعل الإنكليز بعد سبع سنوات. وفي عام١٠٤٠هـ/١٦٦٠م، وسعت «غولكندة» ممتلكاتها نحو الجنوب، إلا أن الإمبراطور المغولي كان يضغط من الشمال، وتمكن «شاه جاهان» عام ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥ - ١٦٣٦ م من إلزامها على دفع جزية له. وعندما عمل وزير «غولكندة» «مير جُمْلة» على الاستقلال في الشرق والتوسع، فإن السلطان استنجد بأورانغ زيب فحاصر هذا الأخير «غولكندة» في ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م. وعاد إلى هجومه عليها ثانية وسقطت غولكندة نهائياً في ١٠٩٨هـ. /١٦٨٧م.

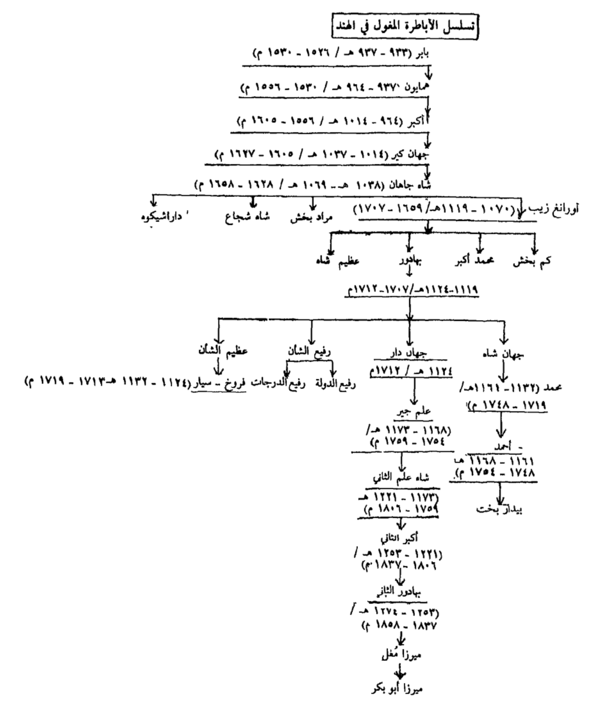
وأخيراً على الرغم من الحروب التي خاضتها الإمبراطورية المغولية الإسلامية، وعلى الرغم من مختلف الصراعات التي عاشتها سلطنات الدكن الإسلامية، والسلطنات الإسلامية الأخرى كغوجرات مثلاً، فإن المدن الهندية الإسلامية كانت مراكز ثقافية براقة ومشعة، ازدهرت فيها العلوم الدينية والصوفية، والأدب، والموسيقى، والرسم خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. وقد يكون عاملاً هاماً في ذلك، تشجيع الأباطرة

المغول، والسلاطين المسلمين العاملين في تلك الحقول. فقد ظهر عدد كبير من الشعراء المقربين من الأباطرة من أمثال «عُرفي» و«ناظري» و«ظهوري» و«طالب عمولي» ووزير أكبر «عبد الرحيم» وغيرهم. ونشطت الكتابة التاريخية حتى أن مذكرات بابر التيموري في القرن العاشر / السادس عشر و«جهان كير» من أفضل ما يعطي أضواءً على عصريهما[1].

وفي ميدان الفن، فإن ما عمر من أبنية فخمة دليل على ارتقاء فيه، ويكفي «تاج محل» ليكون مثلاً بارزاً على ذلك. هذا بالإضافة إلى الاهتمام بالتصوير، فقد أحضر فنانون من إيران وكان لجهان كير نفسه مرسم خاص يعمل فيه. وقد رسم الفنانون الأشخاص، والحيوانات، والنباتات، وقدموا نماذج رائعة من فن «المنمنمات Miniature».

لقد تم اختيار خمس تراجم من تراجم «المحبي» لشخصيات بلاد الهند الخمس عشرة، وترجمة واحدة لنزيل عربي حضرمي أقام في الهند وكان له أثره الفكري فيها. أما الشخصيات الهندية الخمس فهي ثلاث سياسية، وهي «الملك عنبر» الذي أُشير إليه وإلى عمله الهام في دولة «أحمد ناغار الإسلامية» وابنه «عبد العزيز فتح خان»، ثم السلطان «محمود عادل شاه» سلطان بيجافور. واسمه الحقيقي «محمد عادل شاه» الذي شرعت السلطنة تميل إلى الانحدار بعد وفاته عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م، إذ أن ابنه الصغير «علي عادل شاه» عجز عن إدارة المملكة، وعرضها للهجوم الأول للإمبراطور المغولي «شاه جاهان». أما الشخصيتان الأخريان فأولهما لمتصوف كبير هاجر من الهند إلى الحجاز، وكان له أثره في متصوفة المشرق وهو «تاج الدين النقشبندي»؛ وثانيتهما لعالم كبير هو «الملا عبد الحكيم السلكوتي» الذي لقبه «المحبي» بـ«علامة الهند». أما العربي نزيل الهند فهو «عبد القادر العيدروس» العالم والمؤرخ الحضرمي؛ والمتصوف الكبير الذي عمل على تلقين «الطريقة العيدروسية» محل والده في مدينة «أحمد أباد»، تلك الطريقة التي تعتمد على «إحياء علوم الدين» للغزالي.

(١) انظر حول ذلك: عبد الحي الحسني: الثقافة الاسلامية في الهند (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف). طبعة ثانية منقحة، دمشق ١٤٠٣/ ١٩٨٣م.
Camb. His. of Islam. vol II. P. 52- 66_



تسلسل الأباطرة المغول في الهند
بابر (٩٣٣ - ٩٣٧ هـ / ١٥٢٦ - ١٥٣٠ م)
همايون ٩٣٧ - ٩٦٤ هـ / ١٥٣٠ - ١٥٥٦ م)
أكبر (٩٦٤ - ١٠١٤ هـ / ١٥٥٦ - ١٦٠٥ م)
جهان كير (١٠١٤ - ١٠٣٧ هـ / ١٦٠٥ - ١٦٢٧ م)
شاه جاهان (١٠٣٨ هـ - ١٠٦٩ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٥٨ م)
أورانغ زيب (١٠٧٠ - ١١١٩هـ/ ١٦٥٩ - ١٧٠٧)
مراد بخش
شاه شجاع
داراشيكوه
كم بخش
محمد أكبر
بهادور
عظيم شاه
١١١٩-١١٢٤هـ/١٧٠٧-١٧١٢م
جهان شاه
جهان دار
١١٢٤ هـ / ١٧١٢م
رفيع الشان
عظيم الشان
رفيع الدولة
رفيع الدرجات
فروخ - سيار (١١٢٤ - ١١٣٢ هـ-١٧١٣ - ١٧١٩ م)
محمد (١١٣٢- ١١٦١هـ/
١٧١٩ - ١٧٤٨ م)
علم جير
(١١٦٨ - ١١٧٣ هـ/
١٧٥٤ - ١٧٥٩ م)
- أحمد
١١٦١ - ١١٦٨ هـ
١٧٤٨ - ١٧٥٤ م).
شاه علم الثاني
(١١٧٣ - ١٢٢١ هـ
١٧٥٩ - ١٨٠٦ م)
بيدار بخت
أكبر الثاني
(١٢٢١ - ١٢٥٣ هـ /
١٨٠٦ - ١٨٣٧ م)
بهادور الثاني
(١٢٥٣ - ١٢٧٤ هـ /
١٨٣٧ - ١٨٥٨ م)
ميرزا مُغل
ميرزا أبو بكر

التراجم الهندية المختارة

اسم الشخصية	موقعها من خلاصة الأثر
ـ الملك عنبر	جـ٣/ ٢٣٠ـ٢٣٢
ـ عبد العزيز فتح خان	جـ٣/ ٢٣٢ـ٢٣٣
ـ السلطان محمود (محمد) بن إبراهيم عادل شاه	جـ٤/ ٣١٦ـ٣١٧
ـ تاج الدين النقشبندي	جـ١/ ٤٦٤ـ٤٧٠
ـ عبد الحكيم السلكوتي	جـ٢/ ٣١٨ـ٣١٩
ـ عبد القادر العيدروس (نزيل الهند)	جـ٢/ ٤٤١ـ٤٤٢

ـ الملك عنبر ـ

(الملك عنبـر)* شنبـو سنجس خان[1]، وزير الهنـد ومدبـره، ومرجع أهلـه. هو في الأصـل حبشي من الأمحـرة[2]، وتسمـى قبيلتـه مايه. ويقال إنـه من عبيد القـاضي حسـين[3] المشهـور بمـكة، ثم اشتـراه بعض التجار. وجلبـه إلى الهنـد، فاشتـراه الـوزير سنجس خـان. ولما مات سنجس خان، تنقلـت به الأحـوال إلى أن صار من عسـاكر عادل شـاه[4] صاحب

(*) أنظر حوله: نزهة الخواطر ج٥ ترجمة رقم ٤٨٣/ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣.
ـ إحسان حقي. تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ـ بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص ١٧٢.
ـ وانظر (Anber Habashi) دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية ـ الطبعة الأولى جـ١/٢١٧.
ـ حياته (... ـ ١٠٣٥هـ/ ... /١٦٢٥ ـ ١٦٢٦).

(١) لم يعثر له على ترجمة أوفى مما أورده النص عنه.

(٢) مقاطعة في شمالي الحبشة تضم وادي نهر عطبرة وبحيرة تانا. ويطلق على اللغة الحبشية اسم (اللغة الأمهرية) نسبة إليها: G.L.E. Vol I p.345 art (Amhara)

(٣) يبدو أنه القاضي الرومي «حسين الكفوي»، وكان قاضياً لمكة عام ثمان بعد الألف/ ١٥٩٩ـ١٦٠٠م، وعزل عنها في ١٠١٠هـ/١٦٠٢م، وعرف عنه العلم، والتأليف، وحب الموسيقى.
أنظر خلاصة الأثر جـ٢/١٢١ـ١٢٢.

(٤) إبراهيم بن طهماسب بن إبراهيم بن إسماعيل بن يوسف عادل شاه البيجافوري، السلطان الحنفي. قام بالملك في بيجافور بعد عمه علي الأول بن إبراهيم عادل شاه سنة ٩٨٨هـ/١٥٨٠م وهو ابن تسع سنين، وأحسن سيرته في الناس. كان محباً للموسيقى وعارفاً بها. توفي عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦ـ١٦٢٧م. وقام بعده بالملك ابنه «محمد»، فعلي، =

بيجـافـور[1]، من إقليم الدكن[2]. وكان المال الذي يعطاه لا بكفيه لكثرة سماحته وانفاقه، فاستزاده من الوزير الأعظم فلم يزده. فخرج الملك عنبر من حينه خائفاً يترقب. وكان السيد الجليل، علي حدّاد باعلوي[3]، قد وعده بأنه سيصير ملكاً عظيماً.

فكان له ظهور عجيب، يحتاج إلى تاريخ مستقل، ولعذوبته ذكرته، لكني لخصته من ملخص ما ذكره الشلي[4] في ترجمته. قال: وحاصله أنه خرج من عند عادل شاه، سنة ست بعد الألف، وهو يومئذ مفلس، وخرج معه السيد علي. ثم وصل به الحال إلى أنه لم يقدر على نفقة يومه. ثم أعلم السيد علياً بما هو فيه من ضيق الحال فدعا الله تعالى، فوجدوا ركازاً[5] جاهلياً. فاتسع أمره، وأكثر من العساكر والأتباع، ولا زال أمره يعظم إلى أن ملك بلاداً

= فالاسكندر. ثم انقرض ملكه، حيث ألحقت بيجافور نهائياً بالأمبراطورية التيمورية الإسلامية عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٦م.

أنظر. نزهة الخواطر جـ٥/ ترجمة (٦)/ ص٦

ودائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية ـ الطبعة الثانية الجديدة ج١/ ٢٠٤ مادة: (Adil Shahs)

(١) إحدى الدويلات الإسلامية في الدكن من الهند، وتقع إلى جنوبها الغربي. (أنظر الخريطة رقم (١)).وكانت تحكمها سلالة «عادل شاهي» وهي أسرة شيعية في الأصل إلا أن «إبراهيم عادل شاه» تبنى المذهب السني بعد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م. ومن مدن هذه الدويلة «بيجافور»، و«غوئا» التي استولى عليها البرتغاليون.

ـ أنظر: المقدمة عن الهند السابقة.

ـ The Camb History of Islam, vol II, P64—65

ـ ودائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ـ الطبعة الثانية ج١/٢٠٤.

(٢) الجزء الجنوبي من الهند الذى يمتد على شكل مثلث، ويمثل شبه الجزيرة الهندية الحقة، أي الذي يقع جنوبي واديي السند والغانج.

(٣) لم يعثر له على ترجمة، إلا أنه من كنيته يظهر أنه من أسرة «باعلوي العيدروسية الحضرمية» وهم من آل علي بن أبي طالب. وأصلهم من العراق ثم استوطنوا حضرموت (أنظر حولهم خلاصة الأثر جـ١/٧٤ـ٧٨). ويظهر كذلك أنه من الأولياء الصوفيين أصحاب الكرامات والتنبؤات.

(٤) هـو محمد الشليّ الحضرمي المؤرخ الـذي اعتمد عليـه «المحبي» في متابعـة الشخصيات الحضرمية. أنظر عنه الهامش (١) من ص ٢٨ من هذا الكتاب

(٥) ما دفن من ذهب وفضة في الأرض.

كثيرة. وكان كلما ملك بلداً أو قرية أحسن إلى الرعايا، وأظهر العدل والإحسان، ونصب قاضياً للأحكام، وحاكماً للسياسة. ثم استدعاه السلطان **حسين نظام شاه**[1] من سلاطين الدكن، فانحاز إليه، وهو من أعظم سلاطين الهند، لكن مذهبه في الاعتقاد مذهب الرفض. وكان مقر سلطنته دولة آباد[2] وكان وزيره الأعظم كافراً شجاعاً فاتكاً، صاحب جيوش وأموال، مستولياً على المملكة، وكان الملك عنبر يعجز عن مقاومته، فصار يداريه ويترصد له فرصة، حتى قتله على حين غفلة، وولي مكانه الوزارة العظمى. ورأى السلطان محبته، وجدَّه، فأمدّه. واتفقت له وقائع كثيرة، وفتح قلاعاً، ونفذت كلمته، واتسعت مملكته، وأخرب الكنائس، وعمر شعائر الإسلام. ثم مات السلطان حسين نظام شاه، وكان ولده برهان صغيراً. فعقد له البيعة. ولم يكن له من السلطنة إلّا الإسم، وجميع الأمور بيد الملك عنبر، كما كان الخلفاء العباسيون ببغداد، ثم استبدّ الملك عنبر بالأمور، واستمر في القتال والجلاد، وأزال المظالم من تلك

---

(١) هو «حسين بن مرتضى الثاني» من سلاطين دويلة «أحمد ناغار» المسلمة، شمالي دويلة «بيجافور». وقد أتى على سلطنة «أحمد ناغار» في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي بعد أن كان سلطان الهند التيموري «أكبر» قد سيطر على دولته في عهد «بهادر نظام شاه» عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م. وكان قد قرر مقاومة الإمبراطورية المغولية والعودة إلى الاستقلال. وكان «الملك عنبر» من المساعدين له. وقد أطلق على السلالة الحاكمة اسم «نظام شاه» نسبة إلى مؤسسها الأول «أحمد بن نظام الملك بحري» وزير محمد شاه البهمني، الذي استطاع أن يقيم حكومة مستقلة في مدينة «أحمد ناغار»، وقد انشأها حديثاً، وقد توفي عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة جـ١/٤٨٢، وجـ٤/٢٤٢ (بهادر شاه) وأنظر المقدمة عن الهند وزامباور. ج٢/٤٣٩، ٤٤٠.

(٢) من مدن الهند الإسلامية الكبيرة، وتقع في شمال غربي دويلة «أحمد ناغار» على خط عرض ٢٠° شمالاً، و٧٥°,١٠′ شرقاً. وكانت تعرف قديماً باسم «دئِكِري» أو «ديوغَر» وقد أعاد بناءها «محمد بن طغلق» (١٣٢٥-١٣٥١) بعد فتوحه الإسلامية في الدكن، وأطلق عليها اسم «دولة آباد» وجعلها قصبة امبراطوريته ثم غدت من مدن سلالة نظام شاهي في «أحمد ناغار».
أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة جـ٩/٣٢٧-٣٢٨.

الجهة، وعمرها، وأخمد الفتنة والبدعة، وعمّر المساجد والمآثر. وكان مؤيداً في حروبه ومغازيه، مسدّداً في رأيه، مسعوداً في أحواله. وكان كثير الإحسان إلى السادة، وأهل العلم. وقصدته الناس من جميع البلدان، فغمرهم بإحسانه، خصوصاً أهل تريم[١] من السادات. وكان يحسن لمشايخ الطريق، والصوفية. وكان عصره أحسن الأعصار، وزمانه أنضر الأزمنة. وكان يحمل كل سنة إلى حضرموت، من الأموال والكسوات للسادة والمشايخ والفقراء ما يقومبهم سنة. وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم، والقصاد. ووقف ربعة قرآن بمدينة تريم، ووقف بمكة والمدينة مصحفين، واشترى في الحرمين دوراً، ووقفها على من يقرأ فيها ويهدي ثواب القراءة إليه. ومن آثاره الحسنة أنه عقم[٢] نهر الكركي[٣] وهو نهر عظيم يمر تحت البلاد ولا تنتفع به. وسبب ذلك أن بعض وزراء عادل شاه وهو المنلا محمد الخراساني[٤] استبعد وقوع ذلك لسعته وكثرة مائه، وظن أنه يحتاج إلى عمل كثير لا يقدر عليه أحد من المخلوقات، وغرم مالاً كثيراً للملك عنبر إن قدر على ذلك. فشرع فيه، وساعد القدر فكمل العمل في خمسة أشهر وجعل له قنوات تجري إلى البساتين، والزراعات وكثر به النفع. وجمع من في ذلك المكان من السادة والأعيان وأنعم عليهم، وأجزل

---

(١) مدينة في حضرموت، جنوبي شبه الجزيرة العربية على خط عرض ١٦°,١٦′ شمالاً وخط طول ٤٩°,٢٩′ شرقاً.

(٢) تابع الحفر سهلا.

(٣) لم يعثر في الأطالس والخرائط المتوافرة على نهر بهذا الاسم في بلاد الهند، إلا أن هناك مدينة في دويلة أحمد ناغار السابقة وفي جنوبها الغربي تدعى «كركي» Kirkee وقد يكون النهر المشار إليه تحت هذا الاسم هو نهر «كريشنه» أو «كيستنا» بحسب التسمية الجديدة. وهذا النهر من الأنهار الكبيرة في الدكن، ويبلغ طوله ١٢٨٠ كم، وينبع من سلسلة الغات الغربية، ويتجه جنوباً شرقاً، ويصب في خليج البنغال بدلتا واسعة. ومن المعروف أنه قد بنيت عليه سدود وزعت الماء ضمن شبكتي ري. أما مدينة «كركي» فتقع قريبة جداً من مجراه الأعلى، وإلى الجنوب الشرقي من بومباي، وعلى بعد ٣ كم شمالي «بونا Poona» وهي مركز عسكري وصناعي.

أنظر:

.G.L.E, vol (6), P.480, 482 (Kirkee, Kistna)

(٤) لم يعثر له على ترجمة.

الصدقات، وكانت عمارته في سنة أربع وعشرين وألف[1]، واخترع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان. ومن ألطف ما قيل فيه: (خير جاري)[2]، وأكثر من شراء الحبوش[3]، وكانت التجار تجلبهم إليه، ويتغالون في أثمانهم، إلى أن كثروا جدّاً. يقال إنّ جملة ما اشتراه من الذكور نحو ألفي حبشي، وكان الجلب، أوّل ما يشتريه، يسلمه إلى من يعلمه القرآن، والخط، ثم إلى من يعلمه الفروسية، واللعب بالسيف، والعود، والسهام، إلى أن يتفرّس في أنواع الحرب والحيل والخداع. ثم يترقى، وصاروا يترقون في المراتب، ويتفاضلون في المناصب، كلٌ بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته. وكان لهم اعتناء بإقامة الجماعة، وأمور الدين، وكان لكل أمير منهم فقيه، يتعلم منه الفقه وأمور الدين، وإمامٌ يصلي به، ومؤذن، وجماعة يتدارسون القرآن، وجماعة يذكرون الله تعالى ليلة الجمعة والاثنين. وكان لكل أمير سماط مملوء بأنواع الأطعمة الفاخرة. وبالجملة، فإنهم وإن كانوا عبيداً حبشة، فلم تكن العرب تفوقهم إلّا بالنسب. وقصده جماعة من مشاهير شعراء عصره من البلاد الشاسعة، ومدحوه بأحسن المدائح. وكان السلطان إبراهيم عادل شاه أظهر له العداوة والحسد، وبلغ غاية جهده في اضمحلال هذا الرجل، وبذل أموالاً كثيرة لمن يقتله أو يسمه فلم يقدر له ذلك. ومن عداواته أنه عزم جهان كير[4] أعظم سلاطين الهند لمقاتلته، وعهد إليه أن يبذل له في كل مرحلة مائة

---

(1) أي ١٦١٥م.

(2) خير جاري تعادل بحساب الجمّل:

خير= ٦٠٠+١٠+٢٠٠= ٨١٠

جاري= ٣+١+٢٠٠+١٠= ٢١٤

١٠٢٤

(3) أي العبيد الأحباش، وقد توصل هؤلاء لنفوذ كبير في الدويلات الإسلامية الهندية، وكان منهم عديد من الوزراء.

أنظر حول ذلك مادة «حبشي Habshi» في دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ جـ٣/١٦.

(4) ابن السلطان (أكبر) الذي دعم الأمبراطورية المغولية المسلمة شمالي الهند، وقد حكم جهان=

ألف هُن، والـهُن، بضم الهاء، نحو دينار ذهباً. فأرسل جهان كير بعساكر وخيل وأفيال ضاق عنها الفضاء، وجرى على مراد الله القـدر. وأقبل عادل شاه بعساكر من الجانب الثاني، وأيقن كل من عند الملك عنبر بالهلاك. فجمع من عنده من السادة الأشراف، والعرب، وطلب منهم أن يجتمعوا للدّعاء كل يوم، وبذل الخزائن للعساكر، وأقبل بعساكره على القتال، ثابتين ثبات الجبال. وحمل بمن معه، فقتلوا خلائق لا يحصون، وأسروا من وزراء جهان كير وعادل شاه أربعين، أو يزيدون، ورجع الملك عنبر ظافراً منصوراً[1]. ثم بعد ذلك جرد الحمام سيفه عليه، ومزق جلباب ملكه، وتوفي في سنة خمس وثلاثين وألف[2] وأكثرَ الناس، والضعفاء، والفقراء، والأرامل، والأيتام، من البكاء حول جنازته، ويقال أنه لم يعهد عند أهل الهند مثل ذلـك اليوم، ودفن بالروضة، وهي موضع بالقرب من دولة آباد. وعمل على قبره قبة عظيمة، وللناس فيه اعتقاد عظيم، وتحترمه الملوك والسلاطين. ومن استجار بقبره لا يقدر أحد أن يناله بمكروه. ورثاه الشعراء والفضلاء بأحسن المراثي، وعمل الأدباء لعام وفاته تواريخ نظماً ونثراً. ومن أحسنها نثراً قول بعضهم: (الجنة مثواه)[3]. وكان موته بالسم.

---

* كير من (١٠١٤-١٠٣٧هـ/١٦٠٥-١٦٢٧م).
أنظر دائرة المعارف الإسلامية جـ٧/١٩٣-١٩٥.
إحسان حقي. المصدر السابق/ ١٧١-١٧٦.

(١) كانت المعركة بين ابن «جهان كير» «خرّم شاه» وعنبر، عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م، وقد هزم فيها الملك عنبر إلا أن الأمر انتهى بين الطرفين بعقد صلح تدخل فيه أحمد ناغار في طاعة السلطنة التيمورية وتؤدي لها الخراج، وتتنازل عن مناطقها الشمالية.
أنظر إحسان حقي، المصدر السابق/ ١٧٢.

(٢) أي عام ١٦٢٥-١٦٢٦م.

(٣) الجنة مثواه بحساب الجمّل:
الجنة= ١+٣٠+٣+٥٠+٤٠٠= ٤٨٤
مثواه= ٤٠+٥٠٠+٦+١+٥= ٥٥٢
١٠٣٦

وبعد موت الملك عنبر، فوّض السلطان برهان نظام شاه، تدبير مملكته إلى **عبد العزيز فتح خان**[1]، أكبر أولاد الملك عنبر، وجعله أمير الأمراء. وكان شجاعاً مقداماً كبيراً سخياً، لكنه قليل التدبير، مبذِّر، لا يصغي لقول مشير. وارتكب الأمر الفظيع، فكانَ حجَّـاجَ[2] زمانه، ووقع بسببه فتن[3]. ثم تضعضـع الزمان، وآل ذلك إلى حصاد العلم والدين، إلى أن رماه الدهر عن قـوس وزارته. ثم خـربت تلك الـديـار، وذهبت بهجتهـا، وخَلِقَت ديباجتها. قال الشلّـي قلت: وقد تكرر ذكر **الدكن** في هذه الترجمة، وقد يتشوق إلى الوقوف على معرفته من لا له معرفة بحقيقته. وتفاصيل أمره تحتاج إلى تأليف كبير، ولا يحتمل هذا المحل إلاّ اليسير، فلنذكره بطريق الإجمال لضيق المجال. ومجمل ذلك إنه إقليم عظيم من أقاليم الهند التي هي أم الدنيا، كثير الحصون والقلاع، حسن الهواء، كثير الأمطار والأنهار والبساتين، أعدل الأقطار. وفيه حصون وقلاع في غاية الإستحكام والإتقان، وكل قصر شامخ له شرف في السماء باذخ، تحاكي الأهرام في أحكام البنيان. عالية البناء، تسامي السماء. وهي الروضة المورقـة، والغيضة المـونقة، وقـلاعها

---

(١) أنظر حوله نزهة الخواطر جـ٥/٢٣٥ ترجمة رقم (٣٦٣).

(٢) يقصد بذلك: «الحجاج بن يوسف الثقفي» القائد العربي الداهية في عهـد عبد الملك بن مروان، وقد عرف بشدته وحزمه وبطشه في قمع الثورات، وأبرزها ثورة عبد الله بن الزبير. عاش (٤٠ـ٩٥هـ/ ٦٦٠ـ٧١٤م).
أنظر حوله: وفيات الأعيان جـ١/١٢٣.
ـ وابن الأثير. الكامل جـ٤/٢٢٢.
ـ الأعلام جـ٢/١٧٦ ـ وما يتضمن من مصادر.

(٣) قتل فتح خان «مرتضى نظام شاه الثاني» أمير البلاد ونادى بولده حسين نظام شاه الثالث ملكاً. وقد تظاهر فتح خان بخضوعه للسلطان «شاه جهان» المغولي وكانت دولة بيجافور تود اقتسام الإمارة النظامية بينها وبين المغول، وبذلك أفسد لها خطتها. وعندما أرادت مهاجمة فتح خان استنجد بالامبراطور المغولي. ولكن ما إن وصل هذا الأخير حتى عاد فتحالف مع بيجافور. إلا أنه اضطر إلى التسليم في عام ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م، وقبض على السلطان حسين نظام شاه آخر أمراء هذه الأسرة.
أنظر ـ إحسان حقي. المصدر السابق/ ١٨٠.
ودائرة المعارف الإسلامية المعرّبة جـ٩/٣٢٨. مادة (دولة آباد).

مشحونة بآلات الحرب، والمدافع الكبار، مملوءة بالمكاحل الكثيرة، حصينة الحصار. وأهل حرفه أحذق الفطناء، وأفطن الحذاق: فما من صنعة إلاَّ ومن مشربهم مطلعها، وما من حكمة إلاَّ وعندهم شرفها وإليهم منزعها، وما من حرفة توجد إلا وجدتها فيهم، وما من عمل يعرف إلا اجتُنِي من مغانيهم.

ومن أحسن بلاد الهند بلدة بيجافور[1]، وفيها وقف «عليّ عادل»[2] للسادة والعرب، أوقف عليها أراضي، تصرف غلتها للسادة والعرب. وفي هذه البلدة وهي محل السلطنة، مكان عظيم الشان، محكم البنيان، تحته بركة كبيرة، كأنما عناها الشاعر بقوله:

وبركةٍ للعيونِ تبدو في غايةِ الحسنِ والصفاءِ
كأنَّها إذْ صَفَتْ وراقتْ في الأرضِ جزءٌ من السماءِ[3]

خفيفة الماء العذب، لطيفة الهواء الرطب، وبستان معروف الأشجار، مونق الثمار. وهو متنزه بديعي حسن، وبمحاسنه يذهب عن القلب الحزن:

عليهِ منْ بهاءِ البدرِ نورٌ ووصفُ الشمسِ يكْسوهُ الشعاعا[4]

وفي هذا المكان خزانة من الخشب، وعليه ستور، وداخل الخزانة

---

(١) أو «مدينة النصر» وهي عاصمة دويلة بيجافور الإسلامية حيث كانت تحكم سلالة «عادل شاه»، وتقع على خط عرض ٥٠َ,١٦° شمالاً و٥٠َ,٧٥° شرقاً، وقد ضم الإمبراطور المغولي أورانغ زيب هذه المدينة نهائياً إليه عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م. وتضم كثيراً من القصور والمساجد والمقابر الفخمة، ومن آثارها الجميلة روضة إبراهيم عادل شاه المتوفى ١٠٣٦هـ/١٦٢٦م و«كل كمباز» محمد عادل شاه المتوفى ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م.
ـ دائرة المعارف الإسلامية المعربة جـ٣/٣٤٥.

(٢) هو والد إبراهيم عادل شاه الثاني المشار إليه سابقاً. وقد تزوج من الأميرة «جاندبيبي» ابنة أمير أحمد ناغار. وقد توفي ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، وابتدأ حكمه في ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.
أنظر ـ إحسان حقي. المصدر السابق/ ١٥٩، ١٦٢.

(٣) الأبيات من بحر مخلّع البسيط.

(٤) البيت من البحر الوافر.

قبضة من ذهب. فيها من الآثار الشريفة: أعني آثار النبي ﷺ، شعرات من شعره.وفي كل ليلة جمعة وليلة اثنين، يجعل للعرب خبز، وحلوى.

ومن أعظم حصونه[1] حصن دولة آباد، الذي ضاهى إرَم ذات العماد[2]. وهو عجيب الوضع والبناء، بحيث يزعم الناظر إليه أنه من وضع الجنّ لغرابة أمره.

ومن عادة سلاطينها، وملوكها، ووزرائها، أنهم يعتنون بالليالي الفاضلة: كليلة العيدين، وليلة عاشوراء، والمولد، والمعراج، والنصف من شعبان، وليالي رمضان، يحيونها بالذكر، وتلاوة القرآن، وتنشد المدائح النبوية السائر بها الركبان. ويجتمع عندهم في تلك الليالي، العلماء، والصلحاء، والقراء، والكبراء، والفقراء، ويمدون لهم الأسمطة العظيمة، ويفرغ على كواهلهم التشاريف الجسيمة. وقد سبقهم إلى تعظيم بعض هذه الليالي كثير من الملوك. فقد ذكر المؤرخون أن الملك المظفر[3] صاحب إرْبِل[4]، كان ينفق ليلة المولد النبوي ألف دينار. وقد قيل فى سماطه في

---

(١) أي حصون (الدكن).

(٢) مدينة قديمة من مدن شبه الجزيرة العربية، لا يعرف موقعها بالضبط وإن كان يتكهن في أن تكون قرب عدن أو بين صنعاء، وحضرموت. وكانت لقوم (عاد) من العرب. وقد غارت تلك المدينة في الرمل ـ بحسب الأخبار الأسطورية ـ عندما كذب قوم عاد بما دعاهم إليه النبي «هود» من الإيمان بالله، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة الفجر، الآية السادسة: ﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾.
أنظر حولها: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة جـ١/٦٣٣-٦٣٥ وما ورد فيها من مصادر عنها.

(٣) هو مظفر الدين أبو سعيد كوكبري، ابن زين الدين علي، أحد كبار الأمراء المتحالفين مع صلاح الدين الأيوبي لامتلاك منطقة الجزيرة، وقد تزوج من أخت صلاح الدين. وكان تقياً ورعاً، وأميراً على مدينة «اربل»، شرقي الموصل في العراق، كما ينسب إليه بناء الجامع المظفري بسفح قاسيون بدمشق. وقد توفي عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م.
أنظر ـ ابن كثير. البداية والنهاية ١٤ جزءاً مكتبة المعارف بيروت. د. ت. جـ١٣/١٣٦-١٣٧.
ابن خلدون جـ٥/٢٥٩، ٢٦٣، ٢٧٥.
ـ معجم البلدان جـ١/١٣٨ (إربل).

(٤) مدينة في شمال شرقي العراق وجنوب شرقي الموصل، بين الزابين الأعلى والأسفل، وعلى خط ـ

بعض المواليد، فيما حكاه «سبط ابن الجوزي»[1] في «مرآة الزمان»، خمسة آلاف رأس غنم مشوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية حامضة، وثلاثون ألف صحن حلوى. ويخص أعيان العلماء بالخلع والكرامات، ويطلق لهم عنان العطيات. انتهى. ثم حصل لهاتيك الديار تغير واضمحلال بسبب أنهم اتخذوا رؤساء جهلاء والله أعلم.

---

* عرض ٣٦,١٦َ° شمالاً و٤٣,٥٨َ° شرقاً. وكان فيها قلعة حصينة، وتعزى عمارة المدينة الى مظفر الدين كوكبري، وسكانها أكراد استعربوا.
- معجم البلدان. جـ١/١٣٧ـ١٤٠.
- دائرة المعارف الاسلاميه المعربة ج١/ ٥٧٠ ـ ٥٧٨

(١) أبو المظفر يوسف بن قز أوغلو (٥٨١ـ٦٥٤هـ/ ١١٨٥ـ١٢٥٦م). حفيد عبد الرحمن بن الجوزي من جهة أمه. كان أبوه مملوكاً تركياً في بغداد، وقد رباه جده، أبو الفرج بن الجوزي. ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها وتوفي فيها. له عدة مؤلفات منها: «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» وهو مؤرخ وواعظ.
أنظر:
- ابن كثير: المصدر السابق جـ١٣/١٩٤.
- شذرات الذهب جـ٢/٢٢٦.
- داتره المعارف الإسلاميه إلمعرّبة جـ ١/١٢٦.
- الأعلام جـ٩/٣٢٤.

السلطان محمود بن إبراهيم عادل شاه

(**السلطان محمود**)* بن إبراهيم، عادل شاه، سلطان الدكن، الملك الموفق، الناصر للشريعة. كان ملكاً كثير الفضل، حسن التدبير، سار في ولايته أحسن سيرة. تولى الملك بعد وفاة والده، وتوفي هو في سنة سبع وستين وألف. وفي هذه السنة أصيب خرم شاه جهان، بن جهانكير شاه[1] أكبر ملوك الهند، بفالج عطله عن الحركة، وحصل بين أولاده حروب كثيرة. ولما أراد الله تعالى بالهند خيراً وإحساناً، وقدّر ظهور العدل فيهم كرماً وامتناناً، أظهر في خافقها شموس السلطنة بلا ريب، وأنار في سماء

(*) ورد اسمه في المصادر الأخرى «محمد» لا محمود. وهو المسمى بمحمد عادل شاه الغازي، قام بالملك بعد والده ابراهيم الثاني عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م وهو في الخامسة عشرة من عمره، أي كان سلطاناً على «بيجافور» فقط من الدكن لاعلى الدكن كلها. قاتل كفار الهنود ببلاد «كرناطك»، ففتحها سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م، وبنى بها المساجد، وهو أول من فتحها من ملوك الدكن، ولذلك لقبوه «بالغازي». وقد لقبه بذلك «شاهجان بن جهان كير» الإمبراطور المغولي، توفي ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م، في بيجافور، ودفن في مقبرة بناها في حياته. وقد ضعفت دولته بعده، وسيطرت عليها الامبراطورية المغولية ١٠٩٧هـ/١٦٨٦م.

أنظر: نزهة الخواطر جـ٥/ ترجمة ٥٤٦/ ص٣٣٦-٣٣٧.

أنظر: ـ Camb History. vol II p.48 ـ وزامباور: ج٢/ ٤٣٩، ٤٤١.

(١) أنظر حول: «جهانكيرشاه» و«خرم شاه جهان» مقدمة التراجم الهندية في هذه الدراسة.

وإحسان حقي المصدر السابق / ١٧١ ـ ١٩١.

ونزهة الخواطر جـ٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣، ١٦٥ ـ ١٦٧.

ودائرة المعارف الإسلامية جـ٧/ ١٩٣ ـ ١٩٥ (جهانكير) وج١٣/ ١٢٠ ـ ١٢٢ (شاه جهان)

سلطنتها أنوار بدور الملك السلطان أورنك زيب[١]. وطوى بساط إخوته، ونتف حللهم، ومزق وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق، وقتل أخاه، **داراشكوه**[٢]، واقتلعه هو وأصحابه. وكان داراشكوه ذا ذوق وفطنة بهية، وصفات مستحسنة، إلا أنه في آخر عمره صارت سيرته مذمومة، وأحدث مظالم كثيرة. وقتل أخاه الثاني، **مراد بخش**[٣]، وفر **محمد شجاع**[٤] أخوه الثالث ولم يعرف أين ذهب. وأورنك زيب ممن يوصف بالملك العادل الزاهد، وبلغ من الزهد مبلغاً أناف فيه على ابن أدهم[٥]. فإنه مع سعة سلطانه، يأكل في شهر رمضان رغيفاً من خبز الشعير، من كسب يمينه، ويصلي بالناس التراويح[٦]. وله نعم بارّة، وخيرات دارّة جداً. وأمر من حين ولي السلطنة برفع المكوس والمظالم عن المسلمين، ونصب الجزية،

---

(١) ـ انظر مقدمة (التراجم الهندية) في هذه الدراسة.
ـ إحسان حقي المصدر السابق/ ١٩٢ ـ ١٩٨.
ـ دائرة المعارف الاسلامية المعربة ج٣/ ١٣٣ ـ ١٣٦. والبحث لـ «ايرفين» ـ

(٢) كان من قادة أبيه «شاه جهان» البواسل. وقد ثار مع أخوته على أبيه. وقد فر إلى كجرات ثم إلى الشمال بعد أن توج أخوه «أورانغ زيب» امبراطوراً في «أغرا» فلوحق، وحوكم بتهمة الخروج عن الدين وأعدم. Camb. Hist. vol II. P.49.

(٣) اعلن نفسه امبراطوراً في «كجرات» عندما مرض أبوه عام ١٠٦٨ هـ/ ١٦٥٧ م وقد اتفق أولاً مع أورانغ زيب، ثم لاحقه هذا الأخير وأعدمه.

(٤) كان من الإداريين القادرين، وكان حاكماً للبنغال، وتقدم نحو العاصمة أغرا لانتزاع العرش إلا أنه هزم، ولوحق في البنغال، فهرب إلى أراكان، حيث قتل عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م.
Ibid.

(٥) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي. زاهد مشهور. كان أبوه ثرياً في بلخ، رحل إلى بغداد وتنقل في بلاد الشام والحجاز وأخذ من علمائها. كان يعمل بالزراعة ويجاهد الروم، وكان زاهداً في الدنيا، ولم يأخذ من ثروة أبيه شيئاً. أخباره كثيرة، وهناك اختلاف في نسبه. وموطنه ومتوفاه. توفي عام ١٦١هـ/٧٧٨م.
ـ البداية والنهاية جـ١٠/ ١٣٥.
ـ دائرة المعارف الإسلامية جـ١/ ٣٣.
ـ الأعلام جـ١/ ٢٤.

(٦) صلاة وهي سنة عين مؤكدة للرجال والنساء. وعدد ركعها عشرون ركعة ووقتها من بعد =

بعد أن لم تكن على الكفار. وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه، أخذ الجزية منهم لكثرتهم، وتغلبهم على إقليم الهند. وأقام فيها دولة العلم، وبالغ في تعظيم أهله. وعظمت شوكته، وفتح الفتوحات العظيمة. وهو مع كثرة أعدائه، وقوتهم، غير مبال بهم، مشتغل بالعبادات، وليس له في عصره من الملوك نظير، في حسن السيرة، والخوف من الله تعالى، والقيام بنصرة الدين رحمه الله تعالى.

= صلاة العشاء وتنتهي بطلوع الفجر، وتصلى عادة في شهر رمضان.
أنظر: عبد الرحمن الجزيري: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ٥ أجزاء بيروت. د.ت. جـ١/٣٤٠-٣٤٣.

الشيخ تاج الدين العثماني النقشبندي(*)

(الشيخ تاج الدين) بن زكريا بن سلطان، العثماني، النقشبندي، الهندي، شيخ الطريقة النقشبندية(١)، ورابطة الإرشاد إلى المنازل للسالكين في السلوك، وواسطة الإمداد للمواهب الرحمانية من ملك الملوك. كان شيخاً كبيراً مهاباً حسن التربية والدلالة على الوصول إلى الله تعالى صحبه خلق كثير من المريدين(٢) وممن صحبه ولازمه

(*) أنظر أيضاً نزهة الخواطر جـ٥/ ترجمة ١٤٢/ ١٠٠-١٠٤ تحت عنوان «تاج الدين السنبهلي».
حياته: (...-١٨ جمادى الأولى ١٠٥٠هـ/ ...-٥ تموز ١٦٤٠م

(١) طريقة صوفية أسسها الشيخ بهاء الدين محمد نقشبند البخاري (٧١٧-٧٩١هـ/ ١٣١٧-١٣٨٩م). ومدارها على تصحيح العقائد، ودوام العبودية، ودوام الحضور مع الحق سبحانه وقالت إن طريق الوصول إلى الله سبحانه ثلاث: الذكر، والمراقبة، والرابطة بالشيخ، الذي سلوكه بطريق الجذبة. أما الذكر فمنه النفي والإثبات بحبس النفس، وأما المراقبة فهي التوجه بمجامع الإدراك إلى المعنى المجرد والبسيط الذي يتصوره كل واحد عند إطلاق اسم الله تعالى، ولكن قلّ من يجرده عن اللفظ، فينبغي للمراقب أن يجرد هذا المعنى عن الألفاظ. وأما الرابطة بالشيخ فإذا صحبه خلّى نفس كل شيء إلا محبته، وينتظر لما يفيض منه، فإذا أفاض فليتبعه بمجامع قلبه، وإذا غاب عنه الشيخ يتخيل صورته بين عينيه بوصف المحبة والتعظيم، فتفيد صورته ما تفيد صحبته.

وقد تفرع عن النقشبندية طرق أخرى كالباقية، والعلائية، والمجددية (الأحمدية)، والزبيرية، والمظهرية، والأحسنية، والعلمية، والمحمدية، والمنعمية، والأفضلية.

أنظر: عبد الحي الحسني معارف العوارف/ ١٨٢-١٨٣.

- الشقائق النعمانية/ ١٥٤.

- محمد أمين الكردي. الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية. مطبعة الحبانية ١٣١٦هـ.

(٢) هو من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار، وتجرد عن إرادته، إذا علم أنه ما يقع في الوجود =

الأستاذ أحمد أبو الوفاء العجل العجيل [1] المقدم ذكره وولد أحمد المذكور الشيخ موسى [2]، والشيخ محمد ميرزا [3] والأمير يحيى بن علي باشا [4]، وغيرهم. وألف كتباً منها تعريب النفحات للعارف عبد الرحمن الجامي [5] وتعريب الرشحات [6] ورسالة في طريق السادة النقشبندية جمع فيها الكلمات

= إلا ما يريده الله تعالى لا ما يريده غيره، فيمحو إرادته في إرادته، فلا يريد إلا ما يريده الحق وهذا التعريف هو للشيخ محيي الدين ابن عربي في الفتوحات المكية، ونقله عنه الجرجاني في «تعريفاته»/ ١٨٤.

(١) عابد من بيت الفقيه في اليمن، أخذ عن تاج الدين النقشبندي عندما وفد هذا إلى زبيد. وهو متصوف كبير. ولد ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م وتوفي ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م.
أنظر: خلاصة الأثر جـ١/٣٤٦-٣٤٧.

(٢) لم يعثر على ترجمة للشيخ موسى بن أحمد أبي الوفاء العجل.

(٣) هو محمد ميرزا بن محمد المعروف بالسروجي الدمشقي. أخذ العلم الديني والصوفي من كبار علماء دمشق، واتصل بتاج الدين النقشبندي في مكة، وجاور بالمدينة أربعين سنة، كان كثير المطالعة في كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي والمتصوفة. توفي بمكة عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م.
أنظر: خلاصة الأثر جـ٤/٢٠٢-٢٠٣.

(٤) يحيى بن علي باشا: إنه ابن «علي باشا» والي الاحساء. وقد ولد بالأحساء، وتأدب بأكابر علماء بلده، وعينه والده أميراً على القطيف. وكان زاهداً ميالاً إلى التصوف ولما اغتصب أخوه «محمد» ولاية الأحساء من أبيه علي باشا، طلب هذا الأخير، مع ابنه يحيى، وبقية أبنائه تجهيزهم إلى الحرمين وتعيين مصروف لهم، وجاوروا بالمدينة. وتوفي الأمير يحيى سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م.
خلاصة الأثر جـ٤/٤٧٥-٤٧٦.

(٥) عبد الرحمن بن أحمد نور الدين. ولد في جام من بلاد ما وراء النهر، وانتقل إلى هراة وساح في كثير من بلدان المشرق الإسلامي، وتوفى بهراة(٨١٧-٨٩٨هـ/ ١٤١٤-١٤٩٢م) مفسر، وصوفي. له مؤلفات كثيرة بالعربية منها (تفسير القرآن)، و(شرح الرسالة العضدية) وله مؤلفات بالفارسية منها «نفحات الأنس».
- شذرات الذهب جـ٧/٣٦٠.
- الشقائق النعمانية/ ١٥٩-١٦٠.
- الأعلام جـ٤/٦٧.

(٦) الرشحات قد تكون «رشحات عين الحياة». وهو كتاب فارسي في مناقب النقشبندية ورسوم طريقتهم.وهوللحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي المشتهر بالصفي (غير معروف تاريخ الوفاة) وقد انتهى منه في ٩٠٩هـ/١٥٠٣م.
كشف الظنون جـ١/٩٠٣م.
وقد ورد اسمه في كتاب عبد المجيد الخاني: الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية مصر ١٣٠٨هـ/ ١٧٢ «فخر الدين علي بن حسين الصفي الواعظ». وقد توفي في ظاهر هراة عام ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢ - ١٥٣٣م.

القدسية المأثورة المروية عن حضرة الخوجة عبد الخالق الغجدواني[1] المبني عليها الطريق، وشرحها بأحسن بيان، **والصراط المستقيم، والنفحات الإلهية في موعظة النفس الزكية، وجامع الفوائد**. وقد أفرد ترجمته تلميذه السيد محمود ابن أشرف الحسيني [2] في رسالة سماها «تحفة السالكين في ذكر تاج العارفين»، وقال فيها: سمعته يقول إنه قبل أن يصل إلى الشيخ آله بخش[3] في بداية أمره في غلبة الجذبات، بعد توفيق التوبة، بواسطة الخضر عليه السلام [4] كان اشتغاله غالباً بالسياحة في طلب الشيخ، وكان ألزم نفسه الأمور المقررة في كتب المشايخ، أنه ينبغي للمريد أن يجعلها على نفسه قبل وصوله إلى الشيخ، ثم بعد وصوله إليه لا يختار إلا ما اختاره وكانت تحضر له أرواح المشايخ وحصل له الكشف [5] . فلما وصل إلى بلدة أجمير [6] التي فيها

---

(١) صوفي ينسب إلى «غجدوان» وهي قرية كبيرة شمال شرقي بخارى. إلا أن أصله من «ملطية» في آسيا الصغرى. ولا يعرف عنه الكثير سوى أنه التقى في شبابه بالشيخ أبي يعقوب يوسف الهمداني المتوفى ٥٣٥هـ/١١٤٠م، وبفضله دخل الطريقة الغجداونية التي عرفت فيما بعد بالنقشبندية، اختلف في تاريخ وفاته بين ٥٧٥هـ/١١٧٩م وبين ٦١٧هـ/١٢٢٠م، إلا أن الرقم الأخير هو الأرجح. وتوفي في «غجدوان»، وله مؤلف بالفارسية يدعى «وصية نامه».
أنظر: Ency de l'Islam 2ème éd T.II p.1102—1103

(٢) هو محمود بن أشرف الأمروهي الحسيني أحد أفاضل الصوفية ولد ونشأ بأمروهة شمالي الهند، وسافر إلى الحجاز، وصحب تاج الدين النقشبندي وأخذ عنه الطريقة وتزوج بابنته. وكتب في ترجمته كتاباً أسماه «تحفة السالكين في أحوال تاج العارفين». وتوفي عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م.
أنظر: نزهة الخواطر جـ٥/٤٠٧ـ٤٠٨.

(٣) شيخ هندي نقشبندي ومن المتصوفة أصحاب الكرامات. نزيل مكة، وكان من مشايخ تاج الدين النقشبندي، عاش بين ٩٢٠ـ١٠٠٢هـ/١٥١٤ـ١٥٩٣م.
أنظر: خلاصة الأثر جـ١/٤٢٣ـ٤٢٤.

(٤) شخصية دينية مختلف حولها: فمن قائل إنه نبي وإنه حي معمّر موجود دائماً ومحجوب عن الأبصار إلا لبعض الخواص وهذا قول كثير من المتصوفة، ومنهم من يقول بعدم وجوده في الحاضر. أنظر حوله: البداية والنهاية جـ١/٣٢٦ـ٣٣٧ ومنتخبات التواريخ جـ٣/١٠٤٠ـ١٠٤١.

(٥) آخر مرحلة في طريق المريد، وفيها يتم كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم.
أنظر الثقافة الإسلامية في الهند/ ١٧٧ـ١٧٨.

(٦) مدينة في الهند، إلى الجنوب الغربي من دلهي، وعلى خط عرض ٣٠َ ٢٦° شمالاً و٧٠َ,٧٤°=

قبر قطب[1] وقته الشيخ معين الدين الجشتي[2] حضرت له روحه وعلَّمَهُ طريق النفي والإثبات على كيفية مخصوصة في طريق الجشتية، يسمونها **حفظ الأنفاس**، وأمره أن يجلس ويستعمل الذكر بهذه الطريقة في بلدة ناكور[3]، التي فيها قبر الشيخ حميد الدين الناكوري[4] وهو من أجل أصحابه وقال إني ما جئت إلا اليوم بعد مدة مديدة لأجلك، وإلا فأنا بمكة لكثرة البدع التي يعملونها على قبره. فسافر بموجب أمره إلى ناكور وجلس بها يشتغل بالذكر

= شرقاً. وقد اشتهرت بآثارها الإسلامية كقصر «أكبر» وجامعها الفخم الذي بناه قطب الدين إيلتوتميش حوالي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، وضريح «معين الدين الجشتي»، الذي يقدسه المسلمون في الهند.

أنظر دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة ج١/ ٤٤٠.

(١) هو الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، يسري في الكون سريان الروح في الجسد ـ بحسب قول المتصوفة. ويفيض روح الحياة على الكون. فهو إنسان مختص بما لم يختص به غيره من الكمال.

أنظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف الدكتور شفيق غربال. مؤسسة فرانكلن ـ القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٥.

(٢) هو الشيخ معين الدين حسن السجزي المتوفى ٦٣٣هـ/١٢٣٦م صاحب الطريقة الجشتية، التي سميت بذلك نسبة إلى «جشت» في الهند قرية شيوخه. ومدار الطريقة: الذكر الجلّي بحفظ الأنفاس، وربط القلب بالشيخ، ودوام الصيام والقيام، وتقليل الكلام والطعام والمنام والمواظبة على الوضوء، وغيرها من أمور. وهذه أول طريقة أخذها أهل الهند حتى انتشرت في كل البلاد. ولها فرعان: النظامية والصابرية.

ـ أنظر ـ الثقافة الإسلامية في الهند/ ١٨٠-١٨١.

Ency de l'Islam, 2ème ed Vol II P.50—51 (art Cishti)

ـ نزهة الخواطر جـ١/١٠٤.

(٣) ناكور: مدينة هندية تقع إلى الجنوب الغربي من دلهي في مقاطعة راجبوتانا. (nagaur).

أنظر الخريطة رقم (١).

Historical Atlas of Muslim People Djambatan- Amsterdam. P.25

خريطة: India in the early 16 th century

(٤) حميد الدين الناكوري: أحد كبار متصوفة الهند، وخليفة معين الدين السجزي الجشتي مؤسس الطريقة الجشتية. توفي ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م.

أنظر: Encyclopedie de l'Islam, 2ème éd. Vol II. P.52

ضمن سلسلة الطريقة الجشتية.

المذكور، ويزور أحياناً قبر الشيخ حميد الدين، ويعلمه آداب الطريق فكانت تظهر عليه الأنوار، والتجليات[1]، والأحوال، على طبق سلوك الجشتية. وقال: إني في تلك السنة كنت أدخل في خلوة كانت داخل ثلاثة بيوت، في ليلة مظلمة وأصك الأبواب كلها فكان يظهر لي نور مثل الشمس، ثم يزيد، ثم يحيط بالبيت، ويصير ضوؤه مثل ضوء النهار، فكنت أقرأ القرآن في ذلك الضوء. فحصل لي الأنس بذلك النور حتى إني يوماً من الأيام، كنت أمرُّ ببعض الطرق فإذا رجلٌ عنده رسالة مكتوب فيها أن بعض الناس يحصل لهم في أوان الذكر نور فيغترون به، وأخذ الرسالة وغاب وما رأيته بعد فانتبهت وزاد تعلقي به. ثم يوماً كنت جالساً عند قبر الشيخ حميد الدين فحضرت روحه، وأراد أن يعطيني خرقة الإجازة[2] وكان مراده أن يأمر في النوم والواقعة لبعض من كانوا على سنده من الخلفاء، ليعطيني الخرقة، فقلت لا أريد أن تعطيني إلا بيدك فقال الشيخ هذا خلاف سنة الله، فاطلب منه. فاستأذنت منه وخرجت في طلب الشيخ، وكنت أسيح في الجبال والبراري والأغوار والأنجاد، وكنت أصل إلى المشايخ كثيراً، فلم يحصل لي الاعتقاد لأحد منهم. وكان وصل في هذه المدة إلى الشيخ نظام الدين الناكوري[3] وكان من المشايخ الجشتية فأراد الشيخ كثيراً أن يجلس عنده فما جلس عنده. ورأى كثيراً من مشايخ الوقت حتى وصل إلى الشيخ آله بخش فلما رآه حصل له فيه أقصى ما يكون من الاعتقاد.

(١) التجليات: هناك التجلي الرباني وهو ظهور ذات الألوهية وصفاتها، والتجلي الروحاني وهو صفاء القلب واطمئنانه، ولكن لا يحصل لصاحبه التذوق الكامل للمعرفة وذلك بخلاف تجلي الحق. التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع. وتراجم النصوص الفارسية للدكتور عبد النعيم محمد حسنين. راجعه أمين الخولي. جزءان ـ القاهرة ١٣٨٢/١٩٦٣ جـ١/٣٨٤.

(٢) الخرقة تعبير صوفي يعني اللباس الذي يلبسه الصوفية. وهو قسمان: الأول: الذي يلبسه المشايخ للسالك بعد تربيته تماماً ويسمونه «خرقة الإرادة والتصوف»، والثاني: اللباس الذي يلبسونه في أول خطوة حتى ينجو ببركته من المعاصي ويسمونه خرقة التشبه والتبرك. والمريد في خرقة التشبه مريد رسمي وفي خرقة التصوف مريد حقيقي.
أنظر التهانوي: المصدر السابق جـ٢/٢٢٤.

(٣) نظام الدين الناكوري: لم يعثر له على ترجمة ولكن لعله نظام الدين بن عبد الشكور التهانيسري انظر: نزهة الخواطر ج٥/٤٣١.

والشيخ رضي الله عنه تلقاه بحسن القبول، وأظهر له أنه كان منتظراً له. وكان من طريقة الشيخ أن لا يلقن أحداً إلا بعد إدخاله في الخدمات، والرياضات الشاقة، التي تنكسر بها النفس، وتحصل بها التزكية، فإن التزكية[1] مقدمة على التصفية عند أكثر المشايخ بخلاف النقشبندية فإن طريقتهم على العكس، قالوا بعد ما يتوجه الإنسان إلى التصفية والتوجه الحق بالصدق، فيحصل له من التزكية بإمداد جذبة من جذبات الرحمن في ساعة، ما لا يحصل لغيره من الرياضات والسياسات في سنين، بناء على تقدم الجذبة عندهم على السلوك فإن سلوكهم مستدير لا مستطيل، وإن أوّل قدمهم في الحيرة والفناء، كما قاله الخوجه بهاء الدين النقشبندي[2] بدايتنا نهاية الطرف الآخر. وقال أيضاً معرفة الحق حرام على بهاء الدين إن لم تكن بدايته نهاية أبي يزيد البسطامي[3]. وقال الخوجه عبيد الله أحرار[4] إن اعتقاد السلف قد يذهب بالبعض إلى

---

(١) طهارة نفس بلغت حد الكمال بإفاضة ما فضل من حاجتها من الفيض الرباني على المحتاجين إليه.
التهانوي. طبعة كلكتا ١٨٦٢ مجلدان جـ١/٦٢٣.

(٢) هو محمد بن محمد بهاء الدين البخاري نقشبند (٧١٧-٧٩١هـ/ ١٣١٧-١٣٨٩م) ولد في قرية قرب بخارى، وأخذ التصوف عن «محمد بابا السماسي»، وتنقل في مدن بلاد ما وراء النهر وتوفي بقرية «باقيدين» على بعد ميلين من بخارى حيث دفن. وهو مؤسس الطريقة التصوفية الشهيرة المعروفة بالنقشبندية.
أنظر: Encyclopedie de l'Islam 1ère éd. leiden 1936 vol III p.899 «Nakshband»

(٣) هو طيفور بن عيسى البسطامي (١٨٨-٢٦١هـ/ ٨٠٤-٨٧٥م) أبو يزيد، زاهد مشهور، أخباره كثيرة نسبته إلى بسطام بلدة في بلاد العجم. ويذكر عنه أنه كان يقول بوحدة الوجود، وبالفناء (النيرڤانا) بمفهوم الهنود.
أنظر:
- دائرة المعارف الإسلامية جـ٣/٣٣١.

(٤) عبيد الله أحرار: هو عبيد الله السمرقندي، المولود في «طاشكند»، ويدعي صلة نسبه بعمر بن الخطاب. وقد انتقل إلى سمرقند. اخذ عن نظام الدين خاموش التصوف، والطريقة، وكذلك عن «يعقوب الجرخي» وهو من أقطاب الطريقة النقشبندية، ومن سلسلتها توفي عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩-١٤٩٠م.
- أنظر - الشقائق النعمانية/ ١٥٥-١٥٩.
الحدائق الوردية/ ١٥٦ - ١٧٤.

إنكار هذا الكلام مع أنه لا ينافي أمراً امن أمور الشرع، بل حديث [مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره][1] يدل على خلاف ذلك. رجع إلى تتمة الكلام السابق. قال تلميذه في رسالته: فقال له الشيخ آله بخش في الواقعة: يا شيخ تاج طريقنا أن لا نلقن الذكر أحداً حتى يحمل الحطب والماء، فاشتغل أنت بحمل الماء إلى المطبخ ثلاثة أيام. قال فكان يحمل فوق طاقته، وكانت تظهر منه الخوارق في تلك الأيام. وأخبرت أن أهل تلك البلدة يقولون إن الشيخ حين كان يحمل الجرَّة على رأسه، ويمشي كنا نرى الجرة منفصلة عن رأسه مقدار ذراع، إلا أنني سمعته يقول مالي علم بهذا الأمر. فبعدما تم له ثلاثة أشهر، قال له الشيخ آله بخش اليوم قد تم أمرك بسم الله اشتغل بالذكر، وكان أمره بالخدمة المذكورة بالباطن، وقال له هذا الكلام بالظاهر فلقنه ذكر العشقية[2] فاشتغل بها. ولا زال في خدمته حتى وصل إلى الكمال والتكميل. ثم قال: إن سيدي الشيخ تاج خدم سيدي الشيخ آله بخش عشر سنين خدمة خارجة عن طوق البشر، وأجازه بإرشاد المريدين، وما كان يناديه إلا بقوله يا تاج الدين. قال سيدي الشيخ تاج الدين: وحصل لي ما كان بشرني به الشيخ آله بخش، إلا أن حصوله بالتدريج، وبعد أمور منتظرة. قال

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل والترمذي. أنظره في السيوطي: الجامع الصغير من حديث البشير النذير. حققه محمد محيي الدين بن عبد الحميد. جزءان. القاهرة ١٣٥٢هـ. جـ٢/ ٤٦٠ (الحديث ٨١٦١).

(٢) العُشّقية: طريقة صوفية تنسب إلى «عشق» مدينة في آسية الصغرى، وفي لواء كوتاهية. وهي تنتسب إلى الولي «حسن حسام الدين» وأصله من بخارى. وكان تلميذ الشيخ أحمد السمرقندي. وقد أقام في عُشق، فالقسطنطينية تحت حكم سليمان القانوني، توفي في قونية عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م ودفن في القسطنطينية قرب المسجد والتكية اللذين أقامهما في «قاسم باشا». وهذه الطريقة ينسبها بعضهم إلى السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦)، وقد تأثرت بالطريقة الكبروية، وبالتالي فهي فرع من الأحمدية المرتبطة بالخلوتية.

أنظر Ency de l'Islam 1er ed vol IV 1109

- وهناك طريقة باسم مشابه وهى «العشِقية» وهي فرع من «الطريقة الشطارية» الهندية. وتنسب إلى «أبي يزيد عشقي» المتوفى في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

أنظر: Ibid: p. 705

الشيخ تاج الدين: وكانت خدمته أنفع لي من الذكر، وإني كلٌ ما وجدته من الأحوال وجدته من الخدمة. ثم قال (فصل) في ذكر نبذة من خوارقه ومعارفه: سمعت من غير واحد من أصحاب الشيخ أن سيدي الشيخ كان جالساً يوماً في بلدنا أمروهة[1] بالمراقب[2] فرفع رأسه فانفصل منه نور وقع على شجرة رمان، فبعد ذلك اليوم كانت تلك الشجرة كلها ثمرها وورقهاوخشبها درياقاً مجرباً للناس، يستشفون به. وكانت هذه الكرامة ظاهرة حتى فنيت تلك الشجرة. وسمعت أيضاًمنهم أن الشيخ دخل يوماً في بيت وقت القيلولة فرقد على سريره وخرج الأصحاب ثم رجعوا ولم يجدوا الشيخ مكانه، فتحيروا ثم ظهر الشيخ مكانه على السرير، وقام واشتغل بالصلاة وما استطاع أحد أن يسأله عن ذلك. وسمعت أيضاً أن بنتاً صغيرة للشيخ كانت مريضة وكان الشيخ يتوضأ، فألهمها الله أن شربت من غسالة رجليه عند الوضوء فشفيت بإذن الله. وسمعت أيضاً واحداً من أصحابنا الصالحين يذكر أن الشيخ كان يوماً جالساً في مكان يتكلم في المعارف والحقائق، وفي أثناء ذلك الكلام يمزح مع أصحابه، ويضحك، فخطر لبعضهم أن مقام المشيخة لا يناسب المزاح، أو نحو ذلك، فاطلع على خاطره، وقال إن المزاح من سنّة سيد المرسلين فإنه كان يمزح مع أصحابه، ولا يقول إلا حقاً. وذكر قصة وقوع ابن أم مكتوم[3] في حضرته، وضحك الأصحاب في الصلاة. ومنها أن واحداً من المكاشفين كان

---

(١) مدينة هندية إلى الشمال الشرقي من دلهي.
أنظر: Historical Atlas of the Muslim peoples. Jambatan Amsterdam. P.28
خريطة The Khalji Dynasty ، وانظر أيضاً الخريطة رقم (٤) في هذه الدراسة.

(٢) إن المراقبة في الطريقة الصوفية المشار إليها هي التأمل. وكان بعضهم يخلو في كهف، أو في مكان خلّي ويبدو أنه كان يطلق على هذا المكان (المراقب).

(٣) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (المتوفى ٢٣هـ/٦٤٣م). من صحابة رسول الله محمد ﷺ. كان ضرير البصر، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة، وكان يؤذن لرسول الله مع بلال. وقاتل في القادسية وهو أعمى. وتوفي في المدينة. ونسبته إلى أمه «أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله من بني مخزوم بن يقظة» وفيه نزلت السورة الكريمة ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ (سورة ٨٠)
أنظر: طبقات ابن سعد جـ٤/١٥٣.
- الأعلام جـ٥/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

بشَّر بعض أصحاب سيدي الشيخ بأشياء فلما وصل إلى مكة كان مع الشيخ فخطر له أن الأمور التي كان بشَّره بها ذلك المكاشف ما ظهرت أسبابها، وكان يختلج في سرّه أن ليس لقول ذلك المكاشف أثر وإلا كيف الحال. ثم توجه إلى نحو الشيخ، فقال له. قبل أن يظهر شيئاً: إن أحداً من أولياء الله لو بشرَّ أحداً بشيء لا بدّ أن يظهر ولو بعد عشر سنين، أو اثنتي عشرة سنة ففهم وحصل له السكون، وسمعت من الشيخ أنه خرج إلى سفر ووصل إلى بلدة وكان جالساً فيها مع أصحابها بالمراقبة، فحضر في حلقته رجل لا يعرفه فقرب الرجل، وقبل يده ورجله، وقال إني من الجنّ وهذا مكان سكنانا، وإنا بعد ما رأينا طريقتكم أحببناكم فأريد أن آخذ منكم الطريق. فلقنه الطريقة النقشبندية وكان يحضر عنده في الحلقة وكان يراه ولا يراه أحد غيره. وقال للشيخ كل وقت أردتم أن أحضر عندكم فاكتبوا إسمي على ورقة، وضعوها تحت أرجلكم أحضر عندكم تلك الساعة. وسمعت أيضاً منه أنه حين سافر إلى كشمير[1] حضر عنده واحد من الجنّ وأخذ عنه الطريقة، وأراد أن يعرض على الشيخ كثيراً من خواص النباتات، فلم يقبل الشيخ منه ذلك. وكان يلازم صحبة الشيخ إلا أن الشيخ قال إنه كان يحصل لي النفرة من صحبته، فإن الجزء الناري غالب على مزاجهم فيحصل من صحبتهم الأوصاف غير المرضية التي نشأت من الجزء الناري، من الغضب والكبر، فأردت أن أفعل به حيلة تنفره مني فسألته أن يزوّجني بواحدة منهم، فقال إن لي أختاً بديعة الجمال عديمة المثال إلا أني أعرض عليكم أوّلاً حكاية، ثم الرأي رأيكم، فإن الإلفة والأُنس بين الجني والإنسي متعسر، فإن الجنّ يصدر منهم كثير من الحركات

---

(١) المقاطعة المعروفة في الهند، الواقعة في أقصى شمالها الغربي، وقد نفذ إليها الإسلام في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وبعد نيل بلاد الهند استقلالها عن انكلترة، ١٩٤٧، وقسمتها إلى الهند، والباكستان، قام صراع بين الدولتين حول كشمير ووزعت أراضيها بينهما.
أنظر: G.L.E. vol II p. 478 art (Cachemire)

— The cambridge History of Islam. vol II p.115—116

وإحسان حقي. المصدر السابق / ٣٤٧-٣٤٨.

التي لا تعرف الإنْس حقيقتها، فلا تستطيع الصبر عليها. قال إنه كان هنا واحد من الصالحين زوّجناه واحدة منا فولد لها منه ولد، وكان يوقد ناراً فرمت الجنية ولدها في النار فصبر الرجل، ثم ولد لها ولد فأعطته الكلبة فأكلته، فصبر الرجل، ونسيتُ الثالثة. فتعب الرجل وما استطاع الصبر، وغضب عليها، وقال لها أهلكت الأولاد الثلاثة، فأحضرت الثلاثة، وقالت: كنت أعطيتهم للتربية لإخواننا فخذ أولادك من بعد اليوم، ولا أجلس عندك، وطارت من عنده. ثم سافر الشيخ من تلك البلدة وسمعت أن الشيخ كان في أمروهة فمرضت امرأة صالحة من المشرق، وكانت معتقدة له فالتجأت إليه فذهب إليها الشيخ يعودها فلما رأى حالها أخذته الشفقة عليها، والرحمة لها، وكانت قد أشرفت على الموت فأخذها في ضمنه، فبرأت كأن لم يكن بها شيء فإن الأخذ في الضمن شيء مقرّر عند الأكابر النقشبندية، إلا أنه لا يتصوّر إلا قبل نزول ملك الموت، فبعد نزوله لا بدّ من بدل. كما أن الخوجه الخاموش (١) قدّس الله سرّه كان أخذ واحداً من العلماء في ضمنه فشفي ساعتئذ وقال إني دعوت الله سبحانه في وقت لا يرد بثلاثة أشياء، وقد استجيبت: أوّلها أن لا يصل إلى أحد ضرر مني وإن غضبت بمقتضى البشرية، والثاني أن يزول مني الكشف، والثالث أن كل من أخذ الطريق مني تكون خاتمته خيراً، أو يجعله الله منكراً عليّ، ومعرضاً عني، ثم يفعل الله به ما يشاء انتهى. واعلم أنه وإن دعا بزوال الكشف، وكذلك يظهر من كلامه، فإنه يقول كثيراً للأصحاب: إن الشيخ إما أن يكون صاحب كشف فلا ينبغي للمريد أن يعرض عليه حاله، بل العرض عليه حينئذ سوء أدب، أو لا يكون صاحب كشف، فينبغي أن يعرض عليه فيهم، بسؤال أحوال المريدين فيفهم منه أنه يظهر أنه ليس بصاحب كشف. إلا أن الظاهر أن له اطلاعاً تاماً

---

(١) هو نظام الدين خاموش، أحد متصوفة سمرقند البارزين في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد وقد أخذ عنه المتصوف النقشبندي «عبيد الله السمرقندي» المتوفى ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م. وتوفي نظام الدين خاموش عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م.
أنظر: الشقائق النعمانية/ ١٥٦ ـ الحدائق الوردية/ ١٥٠ ـ ١٥١.

وإشراقاً عظيمًا على الخواطر، والأحوال، فقد جرى لنا معه أحوال وأمور كثيرة، وكان هذا من قسم الفراسة التي هي أقوى وأرفع منزلة من الكشف انتهى. واعلم أنه قرأ في فنون العلم كتباً كثيرة كالكافية[1] ونحوها ثم غلب عليه الجذب حتى لم يبق منه أثر. والآن ليس فن من فنون العلم إلا وهو واقف على دقائقه، التي يتحير أرباب ذلك الفن في إدراكها، وليس قسم من أقسام المدركات إلا أدركه على الوجه الأتم الألطف. وله رسالة في **أنواع الأطعمة وكيفية طبخها** ورسالة في **كيفية غرس الأشجار**، وأخرى في **أنواع الطب**، ودخل تام في معرفة **أوضاع الكتابة** وغير ذلك. ودخل إليه أحد الأفاضل، وكان له وقوف تام في الطب، فتكلم معه بدقائق المنطق وغيره من العلوم، حتى صار متحيراً وكان ذلك سبب سعادته ودخوله في الطريق. ومن مشايخه السيد علي بن قوام الهندي النقشبندي[2] مولده ومسكنه ومدفنه جانبور[3] من بلاد الهند شرقي دهلي[4] على مسيرة شهر منه. كان من أكابر أولياء الله تعالى

---

(١) الكافية في النحو للشيخ جمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي المتوفى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م. وقد شرحها المولى عبد الرحمن الجامي المتوفى بهراة سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م بعنوان (الفوائد الضيائية).
أنظر: ـ كشف الظنون جـ٢/ ١٣٧٠، و١٣٧٢.
ـ الشقائق النعمانية/ ١٦٠.

(٢) متصوف هندي، وهو مشهور باسم «علي عاشقان السراي ميري» وقد توفي ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م.
أنظر نزهة الخواطر جـ١/ مقدمة (ب).

(٣) مدينة هندية تقع شمال شرقي الهند، وإلى شمال غربي بنارس وشرقي دلهي. وتقوم على خط عرض ٥َ, ٢٥° شمالاً وخط طول ٥٥َ, ٨٢° شرقاً. وتعرف أيضاً باسم «جونبور». وقد ازدهرت في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي فيها آثار إسلامية هامة وبخاصة من المساجد. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ٧/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) المدينة الكبرى في بلاد الهند، وتقع شمال غربي الهند، على خط عرض ٣٥َ، ٢٨° شمالاً و٥َ, ٧٧° شرقاً. وهي عاصمة ملوك الهند المسلمين الأول من عام ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، وعاصمة الامبراطورية المغولية التيمورية من عام ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م. وتنتصب على الضفة اليمنى لنهر جومنة. وقد بنت السلالات الحاكمة الإسلامية قربها مدناً، وجملت المدينة نفسها بعدد من المباني الرائعة، ومنها المنارة الفخمة وبرج النصر ومسجد قطب الإسلام وغيره وعديد

صاحب تصرّفات عجيبة وجذب قوي. قال بعض الصالحين ما ظهر في الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأتم السلام من أحد بعد القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني[1] رضي الله عنه من الخوارق والكرامات والتصرّفات مثل ما ظهر منه. (حدثنا) شيخنا، قال حدثني رجل أنه كان من طريقة السيد أن لا يدخل عليه أحد إلى وقت الضحى، وكان في هذا الوقت يغلب عليه الجذب، والناس كلهم قد عرفوا هذا الأمر، فما كان يدخل عليه في هذا الوقت أحد،، فجاء واحد من الأعراب كأنه كان من أولاد شيخ السيد قدّس الله سرّه، فمنعه الخادم من الدخول عليه، فلم يقبل قوله، وأراد أن يدخل فلما قرب، وسمع السيد صوته، قال: من أنت؟ قال: أنا فلان، قال: أهرب إلى وراء الشجرة، وكان هناك شجرة كبيرة، وإلا احترقتَ. فهرب الرجل واستتر بالشجرة، فخرجت نار من باطن السيد أخذت الشجرة كلها فأحرقتها، وبقي أصلها، وسلم الرجل. وكفى بهذه إشارة إلى كمال تصرّفاته. ثم قال صاحب الترجمة: إعلم أن شيخنا مجاز من الشيخ آله بخش بالطريقة العشقية وبالطريقة القادرية وبالجشتية والمدارية[2] وله بحسب الباطن إجازة من

= من القصور والأضرحة. وعندما اتخذها شاه جاهان عاصمة له أطلق عليها اسم شاه جاهان أباد. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية جـ٩/٣٤٣-٣٤٧

- ابن بطوطة: رحلة. دار صادر بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤/ ٤١٥.

(١) هو عبد القادر بن موسى الحسني محيي الدين الجيلاني أو الجيلي أو الكيلاني (٤٧١-٥٦١هـ/ ١٠٧٨-١١٦٦م) مؤسس الطريقة القادرية أو الكيلانية، ومن كبار المتصوفة. عاش في بغداد وتوفي فيها، ومدفنه مزار مشهور فيها له عدة مصنفات.
أنظر:
- ابن الأثير: الكامل ١٢ جزءاً مصر ١٣٠٣هـ ج١١/ ١٢١.
- شذرات الذهب جـ٤/ ١٩٨.
- الأعلام جـ٤/ ١٧١-١٧٢.

(٢) نسبة للشيخ المعمر بديع الدين المدار المكنبوري أو شاه مدار المتوفى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. ومدار هذه الطريقة التحاشي عن مخالفة ظاهر الشريعة، وإفشاء أسرار التوحيد في الدرجة القصوى. وقد اكتفى خلفاء هذه الطريقة بستر العورة والطعام يأكلونه كل يوم مرة، وكانوا يتحاشون عن جميع أجناس اللباس، والمأكول ويعملون بمقتضى «يوم جديد ورزق جديد.» ومع الأيام عمّ الجهل بينهم. أنظر: الثقافة الهندية/ ١٨٥.

رئيس كل طريق. وكذلك سمعت منه أنه سلك طريق الكبروية[1] من روحانية **الشيخ نجم الدين الكبري**[2] في ربع النهار، وأجازه. وله رسالة في بيان سلوكهم، ذكر فيها أن سلوكهم يتم بتمام الأطوار السبعة في كل طور يطوي عشرة آلاف حجاب، حتى يطوي في تمام الأطوار السبعة تمام السبعين، ويصل إلى الله تعالى، ولهذا تفصيل. إلا أنه ليس مقيداً إلا بالتسليك بسلوك النقشبندية/ فإني رأيت في مكتوب له إلى بعض أصحابه ينصحه أنّ الأكابر النقشبندية هم أرباب الغيرة. ثم ذكر أني بعد ما أجازني الخوجة، ورخص لي، واشتغلت بالتربية على طريق الأكابر النقشبندية، لو كان يأتيني طالب يريد الطريقة العشقية أو غيرها، ألقنه فيها، وأربيه، حتى أن يوماً حضرت روحانية الغوث الأعظم الخوجة عبيد الله أحرار للخوجة **محمد الباقي**[3] وقال له إن الشيخ تاج يأكل من مطبخنا، ويشكر غيرنا فأخرجناه من النسبة. فقال الخوجة محمد الباقي اعف عنه هذه المرة حتى أخبره. فكتب إليّ الخوجة محمد الباقي هذه الواقعة فتركت كل ما كان غير هذه السلسلة، وحصرت التربية والتلقين فيها. انتهى كلامه. فله طريق النقشبندية، من الخوجة محمد الباقي، وله من الخوجة الإمْكَنَكي[4] وله من مولانا درويش محمد[5] وله من مولانا

---

(١) نسبة إلى مؤسسها الشيخ نجم الدين أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي المعروف بالكبري.
ولها شعبتان: الهمدانية وتنسب إلى علي بن الشهاب الحسيني الهمداني، والفردوسية.
ـ المصدر نفسة /١٨٤ـ١٨٥.

(٢) الشيخ نجم الدين الكبري: هو أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي، من المتصوفة المعاصرين لعبد القادر الجيلاني، ولمعين الدين الجشتي. وقد توفي ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، أو٦١٧هـ/ ١٢٢٠ وولد عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م.
انظر: دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية (بالفرنسية). ج٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠١ مادة: «Kubra».

(٣) من كبار متصوفة الهند، وكان صديقاً لصيقاً لتاج الدين النقشبندي، وقد أخذ هذا الأخير عنه. أصله من كابل وتوطن دلهي، وتوفي ١٠١٤هـ/ ١٦٠٤م. وإليه ينسب فرع (الباقية) من الطريقة النقشبندية. أنظر: خلاصة الأثر جـ٤/ ٢٨٨.

(٤) وردت في الأصل «الأملتكين» صححت من كتاب «الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية» لمحمد أمين الكردي الإربلي/ ٥ حيث ورد اسمه ضمن السلسلة النقشبندية «محمد الخواجكي الإمكنكي». وهو من شيوخ عبد الباقي النقشبندي الدهلوي وهو الذي أجازه بالطريقة.
أنظر ـ نزهة الخواطر ج٥/ ٢٠١ ـ ٢٠٢ (ترجمة عبد الباقي النقشبندي) والحدائق الوردية/ ١٧٧.

(٥) درويش محمد: والد «محمد الإمكنكي» السالف الذكر. وقد عرف بالدرويش وليّ لا يعرف تاريخ =

محمد زاهد[1] وله من الغوث الأعظم عبيد الله أحرار وله من الشيخ يعقوب الجرخي[2] وله من حضرة الخوجة الكبير بهاء الحق والدين المعروف بنقشبند، وله من أمير سيد كلال[3] وله من الخوجة عبد الخالق الغجدواني وله من قطب الأقطاب الخوجة محمد بابا السماسي[4]، وله من حضرة الخوجة علي الراميتَني[5] وله من حضرة الخوجة محمد الجرنفوري[6] وله من الخوجة عارف ريوكري[7] وله من الشيخ يعقوب بن أيوب الهمذاني[8] وله من الشيخ أبي

= الوفاة إلا أنه عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. انظر: الحدائق الوردية/ ١٧٧.

(١) محمد زاهد هو محمد الزاهد القاضي السمرقندي. من اعظم اصحاب عبيدالله أحرار. توفي ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م انظر: الحدائق الوردية/ ١٧٤ - ١٧٦.

(٢) يعقوب الجرخي: متصوف كبير عاش في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد وكان شيخ «عبيد الله السمرقندي» في طريقة النقشبندية.
انظر الشقائق النعمانية/ ١٥٦. والحدائق الوردية/ ١٥٦ - ١٧٤.

(٣) أحد مشايخ الخوجة بهاء الدين نقشبند وأحدخلفاء المتصوف «محمد بابا السماسي» الأستاذ الأول لبهاء الدين نقشبند وقد عاش خلال القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.
أنظر: دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بالفرنسية جـ٣/ ٨٩٩ (مادة Nakshband).

(٤) نسبة إلى «سماس» قرية قرب بخارى من مدن ما وراء النهر. وهو متصوف، تتلمذ عليه «بهاء الدين نقشبند» صاحب الطريقة النقشبندية أول ما تتلمذ.
أنظر المصدر نفسه. والصفحة ذاتها. - الحدائق الوردية/ ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) علي الراميتني: ولد في راميتن قرب بخارى، وانتقل الى خوارزم، وأخذ الطريق عن «محمود الإنجير فغنوي»، توفي عام ٧١٥ أو ٧٢١ هـ/ ١٣١٥ أو ١٣٢١م.
أنظر: الحدائق الوردية/ ١٢٠ - ١٢٢.

(٦) محمد الجرنفوري: ورد الاسم في رسالة «الهداية الخيرية» المشار إليها آنفاً «محمود الانجير فغنوي». أما محمد الجرنفوري، فهو متصوف هندي توفي ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م. ولعل الأمر التبس على «المحْبي» مع متصوف معاصر له أي للمحبي. واسمه ايضاً «عبد الرشيد».
أنظر - إيضاح المكنون جـ٢/ ٥٤٧ ومعجم المؤلفين جـ٥/ ٢٢٥.

و«محمود الإنجير فغنوي» هو أحد أقطاب السلسلة النقشبندية. وهو شيخ «علي الراميتني». ولا يعرف تاريخ مولده أو وفاته. إلا أنه من المتوقع أن يكون قد عاش خلال القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. انظر: الحدائق الوردية/ ١١٩ - ١٢٠.

(٧) عارف الريوكري: أصله من إحدى قرى بخارى «رِيوكُر». لا يعرف تاريخ ميلاده ووفاته. خليفة الهمذاني بالطريقة. انظر الحدائق الوردية/ ١١٩.

(٨) يبدو أن الاسم الصحيح هو «الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمذاني» وقد ورد على هذا الشكل في =

علي الفارمذي[1] وله من الشيخ أبي الحسن الخرقاني[2] ومن سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي وله من الإمام جعفر الصادق [3] وله من قاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق[4] رضي الله عنه ومن سلمان الفارسي[5] ومن أبي بكر

= رسالة «الهداية الخيرية» السالفة الذكر (ص٥)، وكذلك ضمن شيوخ «عبد الخالق الغجدواني»، إلا أن «جمال الدين عبد الله بن سالم البصري المكي» من علماء القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، أورده ضمن سلسلة النقشبندية، في كتابه «الإمداد بمعرفة علو الإسناد» كما أتى به «المحبي» (يعقوب بن يوسف بن أيوب الهمذاني). وهو متصوف توفي عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م. أخذ منه «عبد الخالق الغجدواني» الطريقة «الخواد جكانية» التي أصبحت الطريقة النقشبندية انظر الشعراني : الطبقات الكبرى، جزءان. القاهرة. د. ت. ج١/ ١٨.

- دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى (بالفرنسية) ج٤/ ٧٠٤ مادة (طريقة Tarika) - والطبعة الثانية جـ٢/ ١١٠٢-١١٠٣ - وكتاب «الإمداد» المشار إليه والمطبوع مع كتاب «الأمم لإيقاظ الهمم» لإبراهيم الكوراني في مجلد واحد. حيدر آباد ١٣٢٨هـ/ ٧٥ - والحدائق الوردية/ ١٠٦ - ١١٠.

(١) أبو علي الفارمذي: نسبة إلى «فارمذ» قرية من قرى طوس. وهو أبو علي الفضل بن محمد، شيخ خراسان، وصاحب الطريقة في تربية المريدين، ومحدث توفي بطوس عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م.

أنظر: السمعاني: الأنساب (المحقق ١٠ أجزاء فقط) بيروت ١٤٠١/ ١٩٨١ جـ٩/ ٢١٨-٢١٩.

(٢) أبو الحسن الخرقاني: متصوف خراساني الأصل توفي ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م أنظر: دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية جـ٢/ ١١٠٢ (ترجمة عبد الخالق الغجدواني).

(٣) هو ابن محمد الباقر، بن علي زين العابدين، بن الحسين بن علي بن أبي طالب. سادس الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية. كان عالماً جليلاً، ومن كبار التابعين، أخذ عنه الإمامان مالك بن أنس، وأبو حنيفة. كان له معرفة بعلم الكيمياء وله «رسائل» ولد وتوفي بالمدينة المنورة (٨٠- ١٤٨هـ/ ٦٩٩-٧٦٥م).

أنظر: - اليعقوبي: تاريخ ٣ أجزاء النجف ١٣٥٨هـ/ جـ٣/ ١١٥.

الأعلام جـ٢/ ١٢١

(٤) وكان يكنى بأبي محمد. أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وقد ولد فيها، وتوفي بقديد بين مكة والمدينة معتمراً أو حاجاً. وكان صالحاً ثقة ومن سادات التابعين عاش (٣٧-١٠٧هـ/ ٦٥٧-٧٢٥م).

- وفيات الأعيان جـ١/ ٤١٨.

- أبو الفرج بن الجوزي. صفة الصفوة. جزءان. حيدر آباد ١٣٥٥. جـ٢/ ٤٩.

- الأعلام جـ٦/ ١٥.

(٥) صحابي، أصله من أصبهان، استعبد قبل أن يدين بالدين الإسلامي. أسلم على يد النبي =

الصديق رضي الله عنه[1] ومن سيد الكائنات ﷺ. والنسبة الى الإمام جعفر عن أبيه الى علي[2] كرّم الله وجهه. وكانت وفاته قبل غروب يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى سنة خمسين وألف ودفن صبح يوم الخميس في تربته التي أعدّها له في حياته في سفح جبل قعيقعان[3] وضريحه ظاهر يقصد للزيارة. وقعيقعان كزعيفران جبل بمكة وجهه إلى أبي قبيس[4] لأن جرهم[5] كانت تضع فيه أسلحتها فتقعقع فيه أو لأنهم لما تحاربوا قعقعوا بالسلاح والله تعالى أعلم.

= ﷺ. كان عارفاً بكتب الفرس والروم واليهود، وزاهداً. توفي عام ٣٦هـ/٦٥٦م. قدم خدمات جلّى للدعوة الإسلامية.
- طبقات ابن سعد جـ٤/٥٣-٦٧.
- صفة الصفوة جـ١/٢١٠.
- الأعلام جـ٣/١٦٩-١٧٠.

(١) غني عن التعريف وهو عبد الله بن عثمان أبي قحافة، ولقبه العتيق. وهو من بني تيم من قبيلة قريش. كان من أول من آمن بالدعوة الإسلامية من الرجال، وسيداً من سادات قريش، وأحد أثريائها. عالم بأنساب القبائل وأخبارها. وكان الساعد الأول للنبي محمد ﷺ في نشر دعوته. كان أول الخلفاء الراشدين وبويع بالخلافة عام ١١هـ/٦٣٢م، وحارب المرتدين، وافتتح بلاد الشام وجزءاً من العراق.
- طبقات ابن سعد جـ٩/٢٦-٢٨.
- أخباره كثيرة في مختلف كتب التاريخ الإسلامي. أنظر دائرة المعارف الاسلامية ج١/ ٣١١ - ٣١٥.

(٢) علي بن أبي طالب، غني عن التعريف، فهو ابن عم رسول الله محمد ﷺ، وصهره زوج ابنته، ومن أوائل المسلمين عاش بين (٢٣ق.هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م) رابع الخلفاء الراشدين. في عهده قامت الفتن بين المسلمين، فحدثت معركة الجمل (٣٦هـ)، ثم معركة صفين (٣٧هـ)، وظهر الخوارج، وحاربهم في معركة النهروان (٣٨هـ)، وقتل على يد «عبد الرحمن بن ملجم» غيلة عام ٤٠هـ.
- مصادره كثيرة كمصادر ابي بكر الصديق، انظر على سبيل التركيز فقط:
- البداية والنهاية ج٧/٢٢٢ - ٣٦١، وج٨/٢ - ١٣ - الأعلام ج٥/١٠٧ - ١٠٨.

(٣) أنظر حوله معجم البلدان جـ٤/٣٧٩.

(٤) جبل بمكة، ويسمى أيضاً (أبو قابوس). الروض المعطار/ ٤٥٢.

(٥) جرهم: قبيلة عربية من أصالة يمنية في العصر الجاهلي. كان لها ملك الحجاز، ولما بني البيت الحرام بمكة كانت هي السائدة. إلا أن «خزاعة» غلبتها على أمرها فهاجرت عائدة إلى اليمن.
أنظر: - البداية والنهاية جـ٢/١٨٤-١٨٦.
- الأعلام جـ٢/١١٠.

الملاّ عبد الحكيم السلكوتي*

(الملا عبد الحكيم السلكوتي) بن شمس الدين الهنـدي السلكوتي[1]، علامّة الهند، وإمام العلوم، وترجمان المظنون فيها والمعلوم. كان من كبار العلماء وخيارهم، مستقيم العقيدة، صحيح الطريقة، صادعاً بالحق، مجاهراً به الأمراء والأعيان. وكان رئيس العلماء عند سلطان الهند «خرّم شاه جهان»[2] لايصدر إلا عن رأيه. ولم يبلغ أحد من علماء الهند في وقته ما بلغ من الشأن والرفعة، ولا انتهى واحد منهم إلى ما انتهى إليه. جمع الفضائل عن يد، وحاز العلوم وانفرد، وأفنى كهولته وشيخوخته في الانهماك على العلوم، وحل دقائقها، ومضى من جليها وغامضها على حقائقها. وألف مؤلفات عديدة، منها: **حاشية على تفسير البيضاوي على بعض سورة البقرة**[3]، رأيتها وطالعت فيها أبحاثاً دقيقة. وله **حاشية على مطوّل السعد ومختصره**[4]، وحاشية على

(*) أنظر أيضاً ترجمته في نزهة الخواطر جـ٥/٢١٥-٢١٦ (ترجمة رقم ٣٢١).
حياته: (... - بعد ١٠٦٠هـ/ ...-١٦٥٠م).

(١) نسبة إلى مدينة «سلكوت» في أقصى الشمال الغربي من الهند. وتقع على خط عرض ٣٠َ,٣٢° شمالاً وخط طول ٣٠َ,٧٤° شرقاً في منطقة البنجاب، إلى الجنوب الشرقي من «راول بندي».

(٢) أنظر حوله ما أتى في المقدمة، وفي إحسان حقي: تاريخ شبه الجزيرة الباكستانية/ ١٧٧-١٩١.

(٣) السورة الثانية من القرآن الكريم.

(٤) المطوّل: هو شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م على كتاب «تلخيص المفتاح في المعاني والبيان»، للشيخ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م أما «المختصر» فهو مختصر اختصر به ذلك الشرح المطوّل.
أنظر: كشف الظنون جـ١/٤٧٣-٤٧٤.

شرح العقائد النسفية للسعد[1] وحاشية على تصريف العزي[2] للسعد أيضاً، وله غير ذلك. وفضله أشهر من أن يزاد في وصفه. وكانت وفاته في نيف وستين وألف. رحمه الله تعالى.

---

(١) كتاب: «العقائد النسفية» هو للعلامة «عمر بن محمد النسفي»: العالم بالتفسير والأدب والتاريخ، ولد بنسف وإليها نسبته، وتوفي بسمرقند عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م. له عديد من المؤلفات أبرزها الكتاب المشار إليه. وقد قام السعد التفتازاني بشرحه.
أنظر الأعلام جـ٥/٢٢٢.

(٢) «تصريف العزي» كتاب في الصرف لعبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجي الزنجاني المتوفى ٦٥٥هـ/١٢٥٧م من علماء العربية، وقد عرف بعز الدين أبي المعالي. وقد قام السعد التفتازاني بشرحه أيضاً في كتاب «شرح التصريف العزّي».
أنظر: كشف الظنون جـ١/٤١٢ وجـ٢/١١٣٨.
والبغدادي: هدية العارفين. جزءان طهران ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م (تصوير) ج١/١٢. يختصر الى (هدية العارفين).
الأعلام جـ٤/٣٣٠.

عبد القادر العيدروس*

(**عبد القادر**) بن شيخ، بن عبد الله، بن شيخ، بن عبد الله العيدروس، الملقب محيي الدين. الشيخ الإمام، أبو بكر، اليمني، الحضرموتي[1] الهندي. أحد أكابر علماء الحضارمة. ذكره الشلي[2] في تاريخه[3] وقال في ترجمته: قد ترجم نفسه هو في تاريخ «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» فقال: ولدت في عشية يوم الخميس لعشرين خلت من شهر ربيع الأوّل، سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، بمدينة أحمد أباد[4] من بلاد الهند. وكان والدي،

---

* أنظر ترجمته أيضاً في نزهة الخواطر جـ٥/٢٤١-٢٤٣ رقم الترجمة (٣٧٧).
حياته: (٢٠ ربيع الأول ٩٧٨-١٠٣٨هـ / ٢٢ آب ١٥٧٠-١٦٢٨م).

(١) نسبة إلى حضرموت الإقليم العربي المعروف الممتد شرقي اليمن وجنوبي شبه الجزيرة العربية والمطل على البحر العربي. وهو اليوم جزء من جمهورية اليمن الشعبية. معظم سكانه من الأسياد، وعلى المذهب الشافعي، ومن مدنه الهامة تريم، وسيون، وشيبام، والمكلا.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني الشلي الحضرمي باعلوي. مؤرخ وفلكي ورياضي، عاش (١٠٣٠-١٠٩٣/ ١٦٢١-١٦٨٢م). ولد في تريم ورحل إلى الهند والحجاز. له عدة مؤلفات منها «السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر» و«المشرَع الروي في مناقب آل باعلوي».
أنظر: - خلاصة الأثر جـ٣/٣٣٦.
- الأعلام جـ٦/٢٨٦.

(٣) أي في الكتاب المشار إليه في الهامش السابق وهو «السنا الباهر». وهو ذيل على كتاب «النور السافر» للمترجم له «عبد القادر العيدروس».

(٤) مدينة في الهند على نهر «سابرمتي» في منطقة كجرات (غوجرات) شمال غربي الهند وتقع على خط عرض =

رأى في المنام قبل ولادتي بنحو نصف شهر، جماعة من أولياء الله تعالى منهم الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ أبو بكر العيدروس[1]. وكان الشيخ عبد القادر يريد حاجة من الوالد، فذلك هو الذي حمله على تسميتي بهذا الاسم، وكناني أيضاً أبا بكر، ولقبني محيي الدين، وتقرر عنده أنه سيكون لي شأن. وكان قلّ أن يسلم له ولد بأرض الهند، فما عاش له منهم غيري. وكان يحبني جدّاً، وقال لي مرّة: إذا وقع زمانك أفعل ما شئت. وحكى بعض الثقات، قال: جاء بعض الوزراء الكبار إلى والدك يطلب منه الدعـاء في أمر من الأمور، وكنت إذ ذاك صغيراً جدّا، وكنت جالساً بين يديه، فقرأت في الحال هذه الآية، ﴿وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتح قريب﴾[2]، فقال الشيخ: يكفيكم هذا المقال، هذا مثل الوحي. قال: ثم قضيت تلك الحاجة. وكانت أمي أم ولد هندية، وهبتها بعض النساء من بيت الملك، المشهورة بالصدقات لأبي، وأعطتها جميع ما تحتاج إليه من أثاث. وأخدمتها جملة من الجواري، وكانت تنظرها مثل ابنتها، وتزورها في الشهر مرات. وكانت هي إذ ذاك بكراً ولم تلد له من الأولاد غـيري، وكانت من الصالحات. وقرأت القرآن حتى

= ٢٣° شمالاً، و٤٠،٧٢° شرقاً. وهي من أجمل مدن الهند الإسلامية، فيها كثير من المساجد والأضرحة. أنشأها أحمد شاه الأول سلطان كجرات (٨١٤-٨٤٦هـ/ ١٤١١-١٤٤٣م)، ونقل مقر حكمه إليها. وقد ازدهرت المدينة في عهده وعهد أباطرة المغول، ولم يضعف أمرها إلا في القرن الثامن عشر. وقد احتلها الإنكليز عام ١٨١٨م.

- دائرة المعارف الإسلامية ج١/ ٤٥٢ - ٤٥٣.

(١) هو أبو بكر بن عبد الله العيدروسي الشادلي من آل باعلوي، مبتكر القهوة المتخذة من البن (٨٥١-٩١٤هـ/ ١٤٤٧-١٥٠٩م). ولد بتريم وساح كثيراً وأقام مدة طويلة في عدن وتوفي بها. له بعض مؤلفات.

أنظر النجم الغزي:

- الكواكب السائرة جـ١/ ١١٣.
- النور السافر/ ٨١.
- شذرات الذهب جـ٨/ ٣٩.
- الأعلام جـ٢/ ٤١.

(٢) الآية (١٣) من سورة الصف (٦١).

ختمته على يد بعض أولياء الله في حياة الوالد. ثم اشتغلت بالتحصيل، وقرأت عدّة متون على جماعة من العلماء، وتصديت لنشر العلم، وشاركت في كثير من الفنون، وتفرغت لتحصيل العلوم النافعة. وأعملت الهمة في اقتناء الكتب المفيدة، وبالغت في طلبها من أقطار البلاد مع ما صار إليّ من كتب الوالد، فاجتمع عندي جملة. ولما بلغني أن سيدي الشيخ عبد الله العيدروس[1] قال: من حصل كتاب «إحياء علوم الدين»[2] وجعله في أربعين مجلداً ضمنت له على الله بالجنة، فحصلته كذلك بهذه النية. ووفقت لاستماع الأحاديث، وإشغال الأوقات بها. وطالعت كثيراً من الكتب، ووقفت على أشياء غريبة، مع ما تلقيته عن المشايخ. فلم تفتني بحمد الله إشارة صوفية، أو مسألة علمية، أو نكتة أدبية، ولكني مع ذلك أظهر التجاهل في ذلك. لأن الكلام على إشارات التصوّف، ومقامات الصوفية، لا ينبغي للشخص أن يقدم عليها، إلا إن كان متحققاً بها. ومع ذلك فلا يجوز له أن يخوض فيها مع غير أهلها، لأنها مبنية على المواجيد والأذواق[3]، لا يطلع على بيان حقيقتها بالألسنة والأوراق. ثم منّ الله عليّ بما لا كان لي قط في حساب، حتى سارت بمصنفاتي الرفاق، وقال بفضلي علماء الآفاق، ورزقت محبة أرباب القلوب من

---

(١) قد يكون جدّ المترجم له، أو جد جدّه.

(٢) كتاب مشهور ومعروف للإمام أبي حامد الغزالي الطوسي (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١١م)، حجة الإسلام والمتصوف والمفكر الكبير الذي له ما يقارب مائتي مصنف.
أنظر:
- وفيات الأعيان جـ١/٤٦٣.
- شذرات الذهب جـ٤/١٠.
- الأعلام جـ٧/٢٤٧-٢٤٨.

(٣) المواجيد من «الوجد» وهو مصادفة الباطن من الله تعالى، وقد يغير هذا الحال الصوفي عن هيئته ويغيبه عن أوصافه بشهود الحق. أنظر: التهانوي جـ٢/١٤٥٤.
أما الأذواق فجمع «ذوق» وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الصوفية، وهو أول درجات شهود الحق بالحق عند التجلي. وله درجات.
أنظر المصدر نفسه جـ١/٥١٤.

أولياء الله[1] تعالى، وحظيت بدعواتهم الصالحة. وعظمني العلماء شرقاً وغرباً، وخضع لي الرؤساء طوعاً وكرهاً. وكاتبني ملوك الأطراف، وأرفدوني بصلاتهم الجميلة. ووصلت إليَّ المدائح من الآفاق، كمصر وأقصى اليمن وغيرهما، وأخذ عني غير واحد من الأعلام، ولبس مني خرقة التصوّف جم غفير من الأعيان. وألفت جملة من الكتب المقبولة التي لم أسبق إلى مثلها، ككتاب **الفتوحات القدوسية في الخرقة العيدروسية**، وهو كتاب نفيس لم يؤلف قبله أجمع منه، وهو مجلد ضخم، وقرظه جماعة من العلماء الأعلام حتى بلغت تقاريظه كراريس. ومن غريب الاتفاق أنّ تاريخه جاء مطابقاً لموضوعه، وهو (لبس خرقة)[2]. وكتاب **الحدائق الخضرة في سيرة النبي عليه السلام وأصحابه العشرة**. وهو أوّل كتاب ألفته وسنيّ إذ ذاك دون العشرين. وكتاب **إتحاف الحضرة العزيزة بعيون السيرة الوجيزة**، وهو على نمط الحدائق، إلا أنه أصغر. وكتاب **المنتخب المصطفى في أخبار مولد المصطفى**. وكتاب **المنهاج إلى معرفة المعراج**. وكتاب **الأنموذج اللطيف في أهل بدر الشريف**. وكتاب **أسباب النجاة والنجاح في أذكار المساء والصباح**. وكتاب **الدر الثمين في بيان المهم من الدين**. وكتاب **الحواشي الرشيقة في العروة الوثيقة**[3] وكتاب **منح الباري بختم البخاري**. وكتاب **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**. وباعثه أن سيدي الشيخ عبد الله العيدروس قال: غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي، فرجوت أن يتناولني دعاؤه. وأردت إسعاف والدي بتحقيق رجاه، فإني سمعته

---

(١) ولي الله: العارف بالله، والمواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصي، والمرتقي لمشاهدة الحق. المصدر نفسه جـ٢/١٥٢٨-١٥٢٩.

(٢) «لبس خرقة» تعادل بحساب الجمّل/ ٩٩٧هـ/١٥٨٨-١٥٨٩م.
لبس= ٣٠+٢+٦٠= ٩٢
خرقه= ٦٠٠+٢٠٠+١٠٠+٥= ٩٠٥.
٩٩٧هـ

(٣) العروة الوثيقة: قصيدة لبحر بن محمد بن محمد الحضرمي في الأسرار النبوية وقد شرحها صاحبها وسماه «الحديقة الأنيقة».
أنظر: كشف الظنون جـ٢/١١٣٣.

يقول إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي في كتـاب، وأسميه **الجوهر المتلالي في كلام الشيخ عبد الله في الغزالي**. وكتاب **عقد اللآل بفضائل الآل**. وكتاب خدمة السادة بني علوي[١] **باختصار العقد النبوي**، وأرجو أن يوفقني الله لإتمامه. وكتاب **بغية المستفيد بشرح تحفة المريد**[٢]، وهو مختصر جداً. وكتاب **النفحة العنبرية في شرح البيتين العدنية**[٣]. وكتاب **غاية القرب في شرح نهاية الطلب**[٤]، اعتنى به الناس كثيراً وحصلوا منه نسخاً عـديدة نحـو الأربعين فيـما علمت. **وشرح عـلى قصيدة الشيـخ أبي بكر العيدروس، صاحب عدن، النونية**. وكتاب **إتحاف إخوان الصفاء بشرح تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء**[٥]. وكتاب **صدق الوفاء بحق الإخاء**. وكتاب **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**. **وتقريظ على شرح قصيدة البوصيري**[٦]، التي عارض بها «بانت سعاد»[٧]، لشيخنا شيخ الإسلام عبد الملك بن عبد

(١) إن بني علوي هم آل العيدروس، أي أسرة عبد القادر. وهم من الأشراف في حضرموت ظهر منهم عديد من العلماء والمتصوفة، ويرجع أصلهم إلى العراق، وهاجروا إلى حضرموت في القرن الرابع للهجرة. أنظر حولهم خلاصة الأثر جـ١/٧٥ـ٧٦ (ترجمة الشيخ أبـو بكر باعلوي).

(٢) تحفة المريد: قصيدة لشيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس التريمي الصوفي اليماني المتوفى ٩٩٠هـ. أنظر: إيضاح المكنون جـ١/٢٥٨.

(٣) لم يعثر في «كشف الظنون»، ولا في «إيضاح المكنون» على إشارة إلى «البيتين العدنية»، إلا أنه ورد ذكر «النفحة العنبرية» دون شرح في إيضاح المكنون ج٢/٦٧٠.

(٤) نهاية الطلب: لم يعثر على كتاب بهذا الاسم وإنما هناك «نهاية الطلاب في علم الحساب» لبدر الدين محمد بن الخطيب الاربلي. أنظر كشف الظنون جـ٢/١٩٨٨.

(٥) «تحفة الظرفاء بأسماء الخلفا» لجلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١هـ/١٥٠٥م انظر المصدر نفسه ج١/ ٣٦٩.

(٦) قصيدة البوصيري هي المعروفة باسم (البردة)، وهي قصيدة مدح فيها «محمد بن سعيد بن حماد البوصيري» (٦٠٨ـ٦٩٦هـ/ ١٢١٢ـ١٢٩٦م) وأصله من المغرب استوطن أهله مصر، مدح فيها الرسول محمد ﷺ، وعارض فيها «بانت سعاد».

(٧) مطلع قصيدة «كعب بن زهير بن أبي سلـمى المازني» المتوفى ٢٦هـ/٦٤٥م في مدح النبي الكريم محمد ﷺ، والاعتذار له. وهو شاعر من أهل نجد، اشتهر في الجاهلية، وهجا النبي في بادىء الأمر. والقصيدة من (٥٧) بيتاً، وقد خلع عليه النبي عند إنشادها بردته..

أنظر: ـ البغدادي (عبد القادر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٤ أجزاء مصر ١٢٩٩هـ =

السلام دَعْسَينْ الأموي اليمني الشافعي[1] وآخر على رسالة صاحبنا الشيخ العلامة أحمد بن محمد بن علي البكري[2]، في تنزيه الإمام مالك[3] عن تلك المقالة الشنيعة التي نسبها إليه من لا خلاق له. وإجازة للفقيه الصالح أحمد بن الفقيه محمد باجابر[4]. وديوان شعر اسمه الروض الأريض والفيض المستفيض. انتهى كلامه في حق نفسه. قال الشلي: ومن مؤلفاته التي لم يذكرها، الزهر الباسم من روض الأستاذ حاتم. وهو شرح رسالة من

= جـ٤/ ١١، ١٢.
- الأعلام جـ٦/ ٨١.

(١) من أئمة علماء اليمن (٩٥٢-١٠٠٦هـ/ ١٥٤٥-١٥٩٧م). كان عالماً بالكتاب والسنة، والتاريخ والأدب والتصوف له عدة مصنفات. وقد شرح قصيدة البوصيري في مؤلف أسماه: «اعداد الزاد بشرح ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد». وتوفي بمخافي اليمن.
أنظر: - خلاصة الأثر جـ٣/٨٨-٩٠.
- الأعلام جـ٤/٣٠٥.

(٢) قد يكون المقصود هو «زين العابدين أحمد بن محمد بن علي البكري» الصديقي القاهري، العالم والأديب والمتصوف الكبير، والمتوفى قتلاً على يد والي مصر «إبراهيم باشا» عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.
أنظر:
- خلاصة الأثر جـ٢/١٩٧-١٩٩.
- ريحانة الألبا جـ٢/٢٢٢
- محمد توفيق البكري - بيت الصديق. القاهرة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠ - ١٩٥.
- العصامي: سمط النجوم العوالي ٤ مجلدات القاهرة ١٣٧٩هـ. جـ٤/٣٩٣.

(٣) هو مالك بن أنس الأصبحي الحميري (٩٣-١٧٩هـ/ ٧١٢-٧٩٥م) أحد الأئمة الكبار الأربعة عند السنة، وإليه ينسب «المذهب المالكي» ولد في المدينة وتوفي فيها. له عدة مؤلفات، أشهرها «الموطأ».
أنظر: - صفة الصفوة جـ٢/٩٩.
- الأعلام جـ٦/١٢٨.

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحيم المقلب شهاب الدين باجابر الحضرمي. من علماء حضرموت الذين استوطنوا الهند؛ وقد اخذ عن عبد القادر العيدروس وتوفي في مدينة لاهور الهندية سنة ١٠٠١هـ/١٥٩٣م،وقد ألف عبد القادر العيدروس فيه كتابه المشار اليه في المتن وهو «صدق الوفاء بحق الإخاء».
أنظر خلاصة الأثر جـ١/٢٧٤.

السيد حاتم[11] إليه. وهو مطول نحو مجلدين. وكتاب **قرة العين في مناقب الولي عمر بن محمد باحسين**[1]. قال في الزهر الباسم: وشيخنا وإمامنا في هذا الشأن، شيخ الإسلام العالم الرباني المربي شيخ بن عبد الله العيدروس[2]، فإنه رباني بنظره وغذاني بسره، وصدرني في مكانه. وشيخنا الثاني، الشيخ الذي هو الأخ، وابن العم، الإنسان الكامل والجزء الذي هو الكل شامل، أبو الأرواح، وشيخ الأشياخ، حاتم بن أحمد الأهدل. وهو الذي أسرع بأسرارنا حتى لحقت، وفتق ألسنتنا حتى نطقت. وشيخنا الثالث، قطب الوجود، وإمام أهل الشهود، وشمس الشموس، الشيخ عبد الله بن شيخ العيدروس[3]، صنوي ووالدي. فإنه حكّمني، وألبسني الخرقة، ونصبني شيخاً. وذكر صورة إجازته له، وتحكيمه. وشيخنا الرابع، درويش حسين الكشميري[4]. وشيخنا الخامس، موسى بن جعفر الكشميري[5]. وذكر ترجمة هذين وإجازة الثاني له. وشيخنا السادس الولي الكبير القدوة الشهير محمد بن الشيخ حسن جشتي[6]. انتهى. ولم يزل في أحمد أباد مستمراً على نفع العباد، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى. وكانت وفاته في سنة ثمان وثلاثين وألف بمدينة أحمد أباد، وعمره ستون سنة وقبره بها مشهور معروف يزار ويتبرك به.

---

(١١) هو حاتم بن أحمد بن موسى الأهدل الحسيني، عالم يمني موسوعي، وأديب، ومتصوف رحل الى كثير من البلاد، ثم استوطن مخا واشتهر أمره، وله كرامات. أنظر خلاصة الأثر جـ١/٤٩٦-٥٠٠.

(١) لم يعثر له على ترجمة.

(٢) قد يكون المقصود به والد المترجم له.

(٣) قد يكون هو «عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروسي، المكنى بأبي محمد، والمولود عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، والمتوفى ١٠١٩هـ/ ١٦١١م. وكان عالماً متضلعاً بالتفسير والحديث والأصول، والتصوف. ولكن لم يذهب إلى الهند، وإنما اكتفى بزيارة الحرمين وعاد إلى تريم. أما وصفه بـ«والدي»، فلعلّ ذلك كناية عن قدر ذلك العالم ومكانته من قلبه. انظر: خلاصة الأثر ج٣/ ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) أحد علماء الهند ومتصوفتها. لم يذكر تاريخ وفاته. أنظر نزهة الخواطر جـ ٥/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٥) شيخ صالح، وأحد العلماء العاملين في بلاد الهند، أخذ عنه شيخ بن عبد الله العيدروسي اليمني بمدينة عدن سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٨م. انظر: نزهة الخواطر ج٥/ ٤٢٧.

(٦) هو محمد بن الحسن الكجراتي (٩٥٦ ـ ١٠٤١هـ/ ١٥٤٩ ـ ١٦٣١م). من كبار المشايخ الجشتية في أحمد أباد. له عدة مصنفات. أنظر: نزهة الخواطر ج٥/٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٢ ـ بلاد ما وراء النهر وخوارزم(*)

لم يفت «المحبي» المؤرخ، في مسحه للعالم الإسلامي في عصره، «بلاد ما وراء النهر» و«خوارزم» بل إنه ترجم لثلاث شخصيات منها كان لها نشاطها الفكري، وهي: «قاسم الخوارزمي» (المتوفى ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م)(١)، و«ميرماه البخاري»(٢) المتصوف (المتوفى ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢ ـ ١٦٥٣م) وعبد الله البخاري(٣) (المتوفى ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) الذي كان مفتياً للحنفية بدمشق. ويلاحظ أن ترجمته لهؤلاء قصيرة ومقتضبة وكلهم من نزلاء المشرق الإسلامي: الإثنان من نزلاء دمشق والثالث نزيل المدينة المنورة..

نبذة عن أحوال المنطقتين خلال العصر الحديث: لقد سيطر على منطقة بلاد ما وراء النهر منذ ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، أي منذ أن ظهر «الشاه إسماعيل الصفوي» على مسرح الأحداث، تركمان **الأوزبك** وحكامهم من آل **الشيباني**. وقد تمكن زعيمهم «محمد شيباني خان» من ضم بخارى، وسمرقند، وانتزاعها من يد السلالة التيمورية. وعندما أراد «بابر التيموري» الذي غدا امبراطوراً للهند فيما بعد ـ كما بينّ سابقاً ـ أن يستعيد ملك آبائه، فإنه لم ينجح، وفي

* انظر الخريطة رقم (٥)، في مقدمة (التراجم العجمية).
(١) خلاصه الأثر جـ٣ ص٢٩٧.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٤٤٣.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ـ ص٨٥ وانظر ترجمته أيضاً في المرادي: عرف البشام/ ٦٤ وقد أتت وفاته في خلاصة الأثر عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م، ولكن يبدو أن فيها تصحيفاً وكذلك في لطف السمر جـ٢/٤٨٦.

٩١١ - ٩١٤هـ/ ١٥٠٥ -١٥٠٨، غزا الشيبانية خوارزم، وخراسان، واصطدموا مع الشاه إسماعيل، الذي هزمهم، واستولى على بلاد ما وراء النهر، ومنح سمرقند «لبابر». إلا أن الشيبانية عاودوا هجومهم على الشاه إسماعيل وبابر وانتصروا فيه. ووقع اتفاق بين الشاه إسماعيل والأوزبك، توقف على إثره التيموريون من الصراع من أجل ممتلكاتهم في آسيا الوسطى، التي أصبحت للأوزبك. إلا أن هؤلاء الأخيرين لم يكفوا عن مهاجمة خراسان.

وقد اشتهر من زعمائهم «عبد الله الشيباني»، الذي اتخذ لقب «خان» في ٩٩١هـ/ ١٥٨٣، وتحالف مع السلطان العثماني «مراد الثالث»، و«السلطان أكبر» امبراطور الهند. بينما تحالف شاه فارس مع آل هابسبورغ النمسويين ضد العثمانيين. وقد أصيبت الدولة بعد وفاة «عبد الله» عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٨م بالانحطاط، نتيجة الصراع الأسري بين أفرادها، مما سمح للقازاق أن يصلوا حتى أبواب طاشقند وسمرقند.

وعندما انقطع فرع الذكور من السلالة الشيبانية. توالت الأسرة عن طريق نسل أميرة منها. وسميت السلالة الجديدة باسم «**الجنيد**»، الذي كان هو زوج الأميرة، كما أسميت «**بالاسترخانية**» نسبة إلى موطنها التتري الأول في استراخان. وقد حكمت خلال القرن الحادي عشر الهجري كله، الذي نحن بصدده، والجزء الأكبر من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. إلا أنه حوالي ١١٢١هـ/١٧١٠ خرج عنها «وادي فرغانة» إلى الشرق، وشكل دولة «**خوكند**». كما أنها تعرضت في ١١٥١-١١٥٢هـ/ ١٧٣٨-١٧٣٩ لهجمات «نادر شاه» حاكم بلاد فارس الفعلي.

وفي ١١٩٩هـ/١٧٨٥م، حلّ محل الأسرة الجنيدية في الحكم، «سلالة مانجيت Mangit» بزعامة «مراد معصوم شاه» (١١٩٩-١٢١٥/ ١٧٨٥-١٨٠٠م). وفي عهد هذه الأسرة، اندلعت الثورة الداخلية، وانشغلت بحروب طامعة مع جيرانها «الخوكند» و«خيوه»، واستقلت مدن عنها، وبعضها انضم إلى الأفغان.

وكان الأنكليز والروس يراقبون الأمور فيها، فأرسلوا ممثليهم إلى بلاطها في القرن التاسع عشر، واضطرت للاعتراف بالحماية الروسية عليها عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م.

لقد عاشت بلاد ما وراء النهر، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية، عصراً ازدهرت فيه الزراعة والصناعة والتجارة. وغدت **بخارى** أهم مخزن للمواد الغذائية في كل وسط آسيا. وكانت منطقة فرغانة منها (قبل انفصالها) لها نظام ري خاص عرف بـ«طريقة فرغانة». وقد ازدهرت فيها صناعة الخزف المصقول، والمنمنات من الرسم، والنسيج الحريري، والصياغة، والتزيين بالخزف. بل إن فن صناعة السجاد ورسومه ترك أثراً كبيراً في الذوق الأوروبي والأمريكي[1] وقد نشطت التجارة مع روسيا، ومع فارس، والهند، وحوض تاريم.

ورافق هذا الإزدهار الإقتصادي نشاط ثقافي ديني إسلامي سني، فبنيت المدارس والمساجد التي زينت بالخزف المصقول، وكذلك الزوايا والتكايا. وظهر فيها علماء ومتصوفة. ومن أشهر الفرق الصوفية التي انتشرت فيها: النقشبندية، والكبروية. كما ازدهر التدوين التاريخي، وإن لم يكن قد بحث كله بعد. وقد هاجر عدد من العلماء السنة في فارس إليها هرباً بمذهبهم من الاضطهاد الصفوي الشيعي، وكذلك عدد من الأدباء.

أما خوارزم: فعندما تراجع الصفويون عن بلاد ما وراء النهر (٩١٦-٩١٨هـ/ ١٥١٠-١٥١٢م) تجزأت البلاد، ففي ٩١٨هـ/١٥١٢م، توصل فرع من **سلالة الأوزبك الشيبانية** إلى الحكم في خوارزم، وهم **الإيلبار**، وسموا باسم العاصمة **«خيوه»**. وكانت «خيوه» أو بلاد خوارزم خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر

(1) B. Spuler «Central Asia from the sixteenth century to the Russian Conquests. in the Cambridge History of Islam 2 vols. Ca U.P. 1970. Vol.I P.483.

الميلاديين، مركزاً من المراكز الإسلامية السنية المشعة. وفي الوقت ذاته، منطقة تنطلق منها الهجمات إلى المناطق الفارسية المجاورة. وقد صمـدت «خيوه» لجميع الهجمات التي سعت لإخضاعها في ذينك القرنين. إلا أن الروس تمكنوا من إخضاعها لهم في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.

التراجم من خوارزم وبلاد ما وراء النهر

الاسم	موقع الترجمة من خلاصة الأثر
عبد الله البخاري	جـ٣/٨٥
قاسم الخوارزمي	جـ٣/٢٩٧
ميرماه البخاري	جـ٤/٤٤٣

عبد الله البخاري*

«عبد الله البخاري»: الحنفي، مفتي الحنفية بدمشق، ومدرس السليمانية[1] بها. كان عالماً صالحاً، متواضعاً، صوفي المشرب توفي بدمشق نهار السبت سابع ذي الحجة سنة عشرة وألف[2] بسوء القنية[3]، ودفن بمقبرة باب الصغير.

---

* أنظر ترجمته أيضاً في لطف السمر جـ٢/٤٨٦ـ٤٨٧ وفي عرف البشام/ ٦٤.
ـ حياته (. . .ـ ٧ ذي الحجة ١٠١٩هـ/ . . .ـ٢٠ شباط (فبراير) ١٦١١م.

(١) هي المدرسة التي أنشأها السلطان سليمان القانوني في مدينة دمشق، وتمت عمارتها عام ٩٦٧هـ/١٥٦٠م وقد عمرت موضع القصر الأبلق بالوادي الأخضر بدمشق. وقد شرط التدريس فيها للمفتي الحنفي بدمشق. وقد بنيت على الطراز التركي، وأنشىء إلى جانبها التكية. وقد نسبت خطأ إلى السلطان «سليم الثاني» بن السلطان سليمان.
انظر:
ـ الكواكب السائرة جـ٣/١٥٧.
ـ العلموي. مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس. دمشق ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م/ ٢٣٩ـ٢٤٠.
ـ الحصني: منتخبات التواريخ جـ٣/٩٦٧.
ـ ليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني/ ٢٢١ـ٢٢٢.

(٢) يبدو أن هناك تصحيفاً في التاريخ إذ أن تاريخ الوفاة المصحح كما ورد في عرف البشام للمرادي/٦٤، هو عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م، وهو الأصح.

(٣) سوء القنية: هو مقدمة الاستسقاء، وسببه ضعف الكبد وسوء مزاجها فيصيِّر اللون ويبيِّض، وينهج الأطراف والوجه والأجفان خاصة، وربما نشأ في البدن كله حتى صار كالعجين. ويخص هذا المرض باسم فساد المزاج.
أنظر: التهانوي جـ١/٦٢٦.

قاسم الخُوارزمي*

«قاسم الخُوارزمي» أصله من بخارى[1]، من قرية فَشْلان جوبان[2]. رحل إلى خوارِزْم[3]، وسلك عند الشيخ حسين الخوارزمي

(*) لم يعثر له على ترجمة في مؤلّف آخر.
حياته: (. . .-١٠٠٥هـ)/ . . .-١٥٩٦-١٥٩٧م).

(١) من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر (تركستان الروسية حالياً). تقع على خط عرض ٤٠° شمالاً وخط طول ٦٧,٣٠° شرقاً وهي كثيرة البساتين، وتحوي كثيراً من المخلفات الإسلامية، وينسب إليها الإمام البخاري المشهور.
انظر:
- معجم البلدان جـ١/٣٥٣.
- صبح الأعشى جـ٤/٤٣٣.
- الروض المعطار/ ٨٢-٨٤.
- دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة جـ٣/٤٠١-٤١٩.

(٢) إن القرية باسمها المركب لم يعثر لها على تعريف. إلا أن «جوبان» وحدها أتت في معجم البلدان على أنها من قرى مرو، وبالطبع هذا لا ينسجم مع ما ذكر عن أن القرية هي إحدى قرى بخارى، كما أن هناك جبلاً باسم «جوبان آتا» قرب سمرقند.
أنظر: - معجم البلدان جـ٢/١٧٦.
- دائرة المعارف الإسلامية ج٧/١٥٨ - ١٥٩.

(٣) هي المنطقة الممتدة شرقي بحر قزوين وغربي ما وراء النهر في الحوض الأدنى لنهر جيحون (أموداريا)، ومركزها «الجرجانية»، وسكانها من الترك. وقد تكونت فيها دولة هامة في عهد السلاجقة الأتراك، إلا أنها انهارت تحت ضربات جنكيزخان. وزارها ابن بطوطة في رحلته. وفي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حكمها «الأوزبك» مع بلاد ما وراء النهر الأخرى.
أنظر: - دائرة المعارف الإسلامية جـ٩/١٣-١٤.

النقشبندي[1]، ولازم عنده مدة، وصار من جملة خلفائه. فلما دخل شيخه إلى الشام، نقل هو أيضاً إلى بخارى، وتوطن بها مشتغلاً بإرشاد الطالبين إلى أن توفي. وكانت وفاته في سنة خمس بعد الألف. (قلت) والشيخ حسين الخوارزمي المذكور هو المدفون في الحديقة قرب تربة الصوفية[2] بالوادي الغربي. وله في الكواكب السائرة للغزي ترجمة، فليرجع إليها ثمة في الطبقة الثانية[3]

= - معجم البلدان جـ٢/٣٩٥.
- القاموس الإسلامي جـ٢/٢٩٣.

(١) هو حسين بن أحمد الخوارزمي الشيخ الصوفي كان شيخاً معمراً، وقد ذكر أنه كان له من الأتباع مئة ألف جاء دمشق في طريقه إلى الحج، واستقر بها، وعمر بها خانقاه للفقراء، وكان متمولاً جداً، وعمر خوانق في بلاد عديدة. توفي في حلب عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م، ونقلت جثته إلى دمشق.
أنظر: - الكواكب السائرة جـ٢/١٣٨.
- در الحبب جـ١/٥٦٠.

(٢) مقابر الصوفية أو تربة الصوفية، وهي الواقعة الآن في حديقة الإدارة المركزية لجامعة دمشق والمستشفى الوطني على نهر بانياس عند محطة البرامكة غربي دمشق.
أنظر: عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ولد سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م) نزهة الأنام في محاسن الشام. القاهرة ١٣٤١هـ/٣٧٩ الحاشية (١).

(٣) في الأصل (الثالثة)، صححت لأن الترجمة قد أتت فعلاً في «الطبقة الثانية» وفي جـ٢/١٣٨ من كتاب الكواكب السائرة.

السيد ميرماه الحسيني البخاري*

السيد ميرماه الحسيني البخاري المدني، العلامة، صاحب الذهن الوقاد، والفكر النقاد. كان آية باهرة في العلوم بأسرها، وله اليد الطولى في كلام سيد الشيخ الأكبر ابن عربي[1] قدّس سره، وغيره من أرباب المعارف. وكان شيخ هذا الشأن في عصره. توطن المدينة المنورة، وكان من أصحاب العالم الرباني «عبد الرحمن بن علي الخياري»[2]، وأخذ عنه الحديث، ولزمه ولده شيخنا إبراهيم[3] وانتفع به، وقرأ عليه التفسير، والعربية، والمعاني، والكلام، وكثيراً

(*) حياته (. . .-١١ شوال ١٠٦٣هـ/١٤ أيلول سبتمبر ١٦٥٣م).

(١) هو محمد بن علي بن محمد ابن العربي الأندلسي، الملقب بالشيخ الأكبر. من كبار المتصوفة والمفكرين المسلمين (٥٦٠-٦٣٨هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م). ولد في مرسية بالأندلس، وانتقل إلى اشبيلية، وزار بلاد المشرق العربي وبلاد الروم، واستقر بدمشق وتوفي فيها. وهو من القائلين بوحدة الوجود. له نحو أربعمائة مصنف بين كتاب ورسالة أبرزها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار».
أنظر: المقرّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب . ٤ مجلدات القاهرة ١٣٠٢هـ. ج١/٤٠٤.
- شذرات الذهب جـ٥/ ١٨٠.
- الأعلام جـ٧/١٧٠-١٧١.

(٢) مصري الأصل، درس على كبار علماء مصر، وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر. ثم هاجر إلى المدينة المنورة عام ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م وتوطنها، وانتفع فيها من علمه كثيرون. توفي عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م.
- أنظر - خلاصة الأثر جـ٣/٣٦٧-٣٦٨.

(٣) إبراهيم بن عبد الرحمن بن علي الخياري . عالم فذ في الحديث، والمعارف، والأدب والتاريخ، ساح إلى بلاد الروم، ومرّ بدمشق. والقدس والخليل وغزة، كما زار القاهرة. توفي١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م.
أنظر - خلاصة الأثر جـ١/٢٥-٢٨.

من «الفتوحات»[1]، و«وصايا ابن عربي»، وجانباً من «الفصوص»[2]، وكثيراً من رسائله، وكتبه، سيما «المحاضرة»[3]، وكثيراً من كتب القوم. وذكره في رحلته[4] في محلات منها، وقال في وصفه: كان إمام أرباب الطريقة، والجامع بين الشريعة والحقيقة. سمعته غير مرة يقول إنه لا مخالفة بينهما، ومن أدّعى ذلك فعليه الجواب. ثم ألف مؤلفاً في ذلك سماه مرج البحرين، والجمع بين المذهبين، يعني مذهب أهل الظاهر وأهل الباطن. قال: وكانت وفاته يوم الخميس حادي عشر شوال سنة ثلاث وستين وألف. ورثاه شيخنا المذكور بقصيدة طويلة ذكرها في رحلته، ومطلعها:

يا عــينُ جُودي بدمــعٍ رائــحٍ غادٍ لِـهَـوْلِ خطــبٍ عظيمٍ فادحٍ عادِ[5]

---

(١) أي «الفتوحات المكية» وهو كتاب هام لابن العربي كما أشير في ترجمته.

(٢) أي «فصوص الحكم» لابن العربي أيضاً.

(٣) أي: «محاضرة الأبرار ومسّامرة الأخيار» لابن العربي.

(٤) وعنوانها: «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء»وهي مطبوعة بثلاثة أجزاء وقام بتحقيقها رجاء محمود السامرائي. انظر ج١/ ١٣٦.

(٥) القصيدة من البحر البسيط.

الخريطة رقم (٥)

٣ - بلاد العجم

نبذة عن تاريخ بلاد الفرس في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

كان على رأس بلاد الفرس خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، الذي مسحه «المحبي» «**الدولة الصفوية**»، التي حكمت من (٩٠٦ـ١١٤٨هـ/ ١٥٠٠ـ١٧٣٦م). وعلى الرغم من البحوث التي أجريت حول هذه الدولة، فإن أصول سلالتها الحاكمة لا تزال غامضة. ولكن من المؤكد أنها ترجع في أصولها المكانية على الأقل، إلى شمال غربي بلاد فارس، أي إلى أذربيجان، حيث استقر جدها الأول «فيروز شاه» الذي يُدَّعى اتصال نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب (انظر شجرة النسب التالية كما أوردها «المحبي»). وكان يعمل في الزراعة، وعرف بتقواه وورعه، ويبدو أنه استقر في مدينة «أردبيل» شرقي أذربيجان. وسميت هذه الأسرة «بالصفوية» نسبة إلى جدها الثاني «صفي الدين» (٦٥٠ـ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢ـ١٣٣٤م) الذي عرف عنه بأنه كان عابداً، زاهداً. وقد التحق بالشيخ الصوفي «زاهدي الكيلاني» واعتنق طريقته (الزاهدية). وعند وفاة شيخه، غدا خليفته في الطريقة، التي سميت منذ ذلك الوقت «بالصفوية» ومركزها أردبيل.

وعمل شيوخ أردبيل، ولقرن ونصف من (٧٠٠ـ٨٥٠هـ/ ١٣٠١ـ١٤٤٧م)، بإصرار وجد على نشر نفوذهم، ومد دعوتهم إلى البلاد

المجاورة، وبصفة خاصة الأناضول وبلاد الشام. وقد احتضنت هذه الطريقة الصوفية المبادىء الشيعية الاثنتي عشرية، ونظمت الدعوة لها. ويبدو أن هذا التحول الشيعي قد تم في عهد حفيد صفي الدين وهو «سلطان خوجه علي» (٧٩٤-٨٣٠هـ/ ١٣٩١-١٤٢٧م). وبالفعل فقد اعتنقها عديد من قبائل التركمان في آسيا الصغرى. وفي عهد «الشيخ جنيد» (٨٥١-٨٦٤هـ/ ١٤٤٧-١٤٦٠م) وهو جد «الشاه إسماعيل» غدت الطريقة الصفوية قوة زمنية عسكرية، إذ كوّن من المريدين فرقة عسكرية مدرّبة من عشرة آلاف جندي، وأطلق عليهم أسم «غزاتي الصوفية»؛ وتحالف مع دولة «الآق قوينلو» السنية ضد دولة «القره قوينلو» الشيعية، وذلك للتخلص من سيادة الأخيرة على بلاد إيران.

وفي عهد والد إسماعيل «حيدر»، تم إعطاء أولئك الجنود لباسهم الذي عرفوا به، وهو القلنسوة الحمراء على الرأس، ذات الاثنتي عشرة ثنية رمزاً للإمامية الاثنتي عشرية، ومن ثمَّ أطلق عليهم اسم «القزل باش» أي أصحاب الرؤوس الحمراء. كما أنه في عهد «حيدر» بدأ التحرك الفعلي نحو التوسع، وعلى حساب المناطق المجاورة ولا سيما «شروان». ومع أن «حيدر» قتل في العمليات الحربية إلا أن الدعوة الشيعية ظلت سائرة بقوة وجدية.

وخشيت دولة «الآق قونيلو»، التي استلمت السيطرة على إيران والعراق بعد هزيمتها لجارتها دولة «القره قوينلو»، من القوة الصفوية الجديدة، ولذا عملت على سجن «علي بن حيدر» ثم قتله. إلا أن هذا الأخير كان قد أوصى بأن يكون أخوه «إسماعيل» هو القائد من بعده.

وعمل إسماعيل لخمس سنوات (٨٩٩-٩٠٥هـ/ ١٤٩٤-١٤٩٩م) سراً مع أنصاره في أذربيجان والأناضول وبلاد الشام، على نشر الدعوة، وفي ٩٠٥-٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، تقدم بجنده في أذربيجان ضد قوات الآق قوينلو

(القطيع الأبيض)، وانتصر عليهم في معركة حاسمة هي معركة «شرور» قرب نخجوان، وفي ٩٠٦ـ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، دخل «تبريز»، وأعلن نفسه «الشاه إسماعيل الأول»، الحاكم الأول من الأسرة الصفوية، وأن دولته «شيعية اثنتا عشرية»، وهذا يعني فرض مذهبه الشيعي هذا بكل الوسائل على الأكثرية السنية السائدة. وخلال عشر سنوات من دخوله تبريز، تمكن أن يضم إليه بلاد فارس كلها ومنها خراسان، وكذلك بلاد العراق، وديار بكر. وامتد شمالاً بشرق فاصطدم بالتركمان «الأوزبك»، الذين كانوا قد اجتاحوا بلاد ما وراء النهر واستقروا فيها بقيادة «محمد الشيباني»، وانتصر عليهم ومنح مدينة «سمرقند» لـ«بابر التيموري» الذي أسس فيها بعد الأمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند - كما بينا في مقدمة الحديث عن تراجم بلاد الهند -. إلا أن «الأوزبك الشيبانيين» عادوا فتغلبوا على الصفويين واستعادوا ما فقدوه في معركة جرت عام ٩١٨هـ/١٥١٢م، وقامت هدنة قلقة بين الطرفين.

وفي الواقع كان على الدولة الصفوية الفتية، أن تحارب في جبهتين لتحافظ على مكتسباتها ووجودها: الجبهة الشرقية ضد الأوزبك الشيبانيين، والجبهة الغربية والشمالية الغربية ضد الدولة العثمانية السنية المذهب. وحدث الصراع مع الدولة الأخيرة في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤. وسبق الصدام المسلح الكبير بين الدولتين تحرشات، واستثارات قامت بها الدولة الصفوية، كفرض المذهب الشيعي بالقوة في بلاد الفرس والعراق مما كان في نظر الدولة العثمانية تهديداً لها، ولا سيما أن عديداً من القبائل التركمانية شرقي الأناضول قد تشيعت، وأيدت الصفويين. وقد قام السلطان «سليم الأول» عندما أحس بخطر تمرد القبائل التركمانية المتشيعة، بإعمال السيف في رقابهم، وأتبع ذلك بتوجيه جيوشه لملاقاة الجيش الصفوي. وكان اللقاء الحربي في معركة «جلديران» شمال غربي أذربيجان، في ٢ رجب ٩٢٠هـ/ ٢٣ آب ١٥١٤م. وكان النصر فيه للعثمانيين، ودخل «السلطان سليم الأول» مدينة «تبريز». ولكنه لم

يبق طويلاً فيها إذ غادرها مع جنده بعد أسبوع، لأن جنده تمردوا عليه ورفضوا أن يقضوا الشتاء في بلاد العجم.

وكان لجلديران نتائج خطيرة على علاقة الشاه إسماعيل بجنوده التركمان القزل باش. إذ أن هزيمته أفقدته هيبته في أعينهم ولا سيما أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه شخص مقدس بل وكأنه الرب نفسه. وهذا أدى بالتالي إلى ازدياد نفوذهم في البلاط الصفوي وفي الحكم عامة، وأرادوا أن تكون السلطة بأيديهم وحدهم، وعلى حساب الشاه، الذي تقوقع بدوره بعد تلك الهزيمة، ولم يعرف عنه أنه خاض معركة بعد جلديران، خلال السنوات العشر التي عاشها بعدها. بل إنه عندما توفى عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م. كانت بوادر الحرب الأهلية بين فرق الجند القزل باش قد ظهرت، وكذلك ملامح الصراع بين القزل باش والعناصر الفارسية المحلية الحاكمة.

وقد توالى شاهات السلالة الصفوية على حكم بلاد العجم حتى بداية الثلث الثاني من القرن الثامن عشر. وقد تميز عهدها خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وبعد وفاة «الشاه إسماعيل» بالصراعات الداخلية المشار إليها آنفاً، وبصراعات خارجية مع الأوزبك في الشرق، ومع الدولة العثمانية في الغرب: ففي عهد «طهماسب الأول» بن «الشاه إسماعيل» (٩٣٠-٩٨٤هـ/ ١٥٢٤-١٥٧٦م) قام الأوزبك بخمس هجمات على خراسان، ولا سيما في عهد ملكهم «عبيد الله خان»، كما قام السلطان «سليمان القانوني» بأربع هجمات شديدة على أذربيجان وممتلكات الدولة الصفوية الأخرى وتمكن من السيطرة على بغداد عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، ودخل تبريز عدة مرات، حتى اضطر «الشاه طهماسب» إلى نقل عاصمته منها إلى «قزوين»، وإلى توقيع «صلح أمازيا» عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م. الذي افتتح هدنة مع العثمانيين دامت ثلاثين عاماً.

ويضاف إلى تلك القضايا التي اصطدمت بها الدولة الصفوية الفتية قضية الصراع على العرش بين الأخوة، ذلك الصراع الذي أسهمت فيه أمهات

الأمراء من تركمانيات أوجراكسة. وظهر هذا واضحاً في الاضطراب الذي قام حول وراثة العرش بعد وفاة «طهماسب الأول». وأخيراً توصل إلى العرش «إسماعيل الثاني» عام ٩٨٤هـ/١٥٧٦م. وهو ابن طهماسب، إلا أن والده كان قد سجنه لعشرين عاماً، وكان يشكو من بعض اضطراب في عقله. وما أن وصل إلى العرش حتى قتل جميع من كان يمكن أن ينافسه على العرش، أو سمل أعينهم، وكان لا يظهر ميلاً قوياً للتشيع، فقرر القزل باش قتله بمعاونة أخت له، في عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م. وأعلن الولد الوحيد المتبقي من أولاد طهماسب التسعة وهو «محمد خدابندة» شاهاً في سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧، على الرغم من عماه. وقد أسلم هذا الشاه أمور الدولة إلى زوجه «مهدي عُليه».

واغتنم السلطان «مراد الثالث» العثماني ذلك التبلبل والاضطراب ليخرق الهدنة عام ٩٨٦هـ/ ١٥٨٧م وليشن الحرب على بلاد العجم. فأخضع «جورجيا» له، واحتل تبريز عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، وكذلك فعل «عبد الله خان» سلطان الأوزبك، الذي هاجم خراسان، وحاصر هراة.

وأمام تلك المخاطر، قرر «القزل باش» تسليم الحكم إلى «الشاه عباس» ابن الشاه «سلطان محمد شاه خدابنده»، ونزعه من هذا الأخير، وذلك عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

والشاه «عباس الأول»، أو «عباس الكبير» الذي حكم بين (٩٩٦ـ ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٧ـ ١٦٢٩ م) يعتبر أكبر شاهات الأسرة الصفوية، وهو الذي ترجم له مؤرخنا «المحبي» في كتابه «خلاصة الأثر». فقد تمكن هذا الشاه الشاب من القضاء على تسلط «القزل باش» التركمان ونفوذهم، بأن أوجد فرقاً عسكرية من العبيد أو الغلمان، وقد اتخذهم من أسرى جورجيا الذين دانوا بالإسلام بعد أن كانوا من النصارى. وبذلك أنشأ جيشاً جديداً على نمط الجيش الإنكشاري العثماني، وزوده بالمدفعية. واستخدم الأفراد النابهين من هؤلاء الجركس في وظائف الدولة المختلفة. ونقل عاصمته من

«قزوين» إلى «أصفهان»، وعمّرها عمراناً فخمًا، بأن بنى فيها العديد من المساجد، والحمامات، والمدارس، والخانات، حتى غدت واحدة من أجمل مدن العالم. وبنى مقام الإمام «علي الرضا» في مشهد، ونظم شؤون الدولة الإدارية والمالية.

ثم التفت إلى علاقاته الخارجية، فبعد أن كان قد عقد صلحاً موقتاً مع العثمانيين في بداية حكمه (عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م) تنازل فيه عن كثير من المناطق للعثمانيين وذلك ريثما تتاح له فرصة تنظيم أموره الداخلية، فإنه عمد إلى مهاجمتها، وهزيمتها عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥ قرب تبريز، واستعاد معظم المناطق التي كان قد فقدها وانتزع منها بغداد، والموصل، وديار بكر، والعراق كلها في ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م. وقد أخفقت محاولة العثمانيين لاستردادها في ١٠٣٤هـ/١٦٢٥م. وكذلك حارب الأوزبك في الشرق وانتصر عليهم عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨، وحرر هراة، وتوقفت حربه معهم عام ١٠١١هـ/١٦٠٢م.

وتوددت إليه الدول الأوروبية، فأرسلت كل من اسبانيا، والبرتغال، وانكلترة سفراء لها إلى بلاطه، وكذلك فعلت فرنسا، إلا أن سفيرها حجز في استامبول. وقد استفاد الشاه عباس من هذا التقارب. فتحالف مع انكلترة لطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز، ونجح في ذلك عام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م. وسمح للبعثات التبشيرية الأوروبية بالإقامة في أصفهان، كالكرمليين، والكبوشيين، والأوغوستونيين.

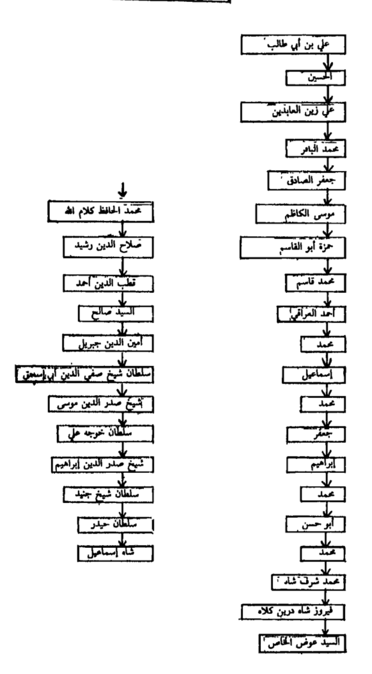
وخلاصة القول أقام الدولة الصفوية على أساس جديد، وكان عهده عهد انتعاش للفنون، وللرسم بصفة خاصة، أكان ذلك الرسم على الخزف (القاشاني)، أو في الصناعة النسيجية، أو على السجاد حتى تحولت الصناعة الأخيرة إلى صناعة فنية راقية. وفي الواقع، ازدهرت في عهده المدرسة الفنية التي كونها «بهزاد»، الفنان الكبير الذي نقله «الشاه إسماعيل» من هراة إلى تبريز، وجعله قيّم المكتبة الملكية فيها. وقد ترك النسيج الحريري الفارسي

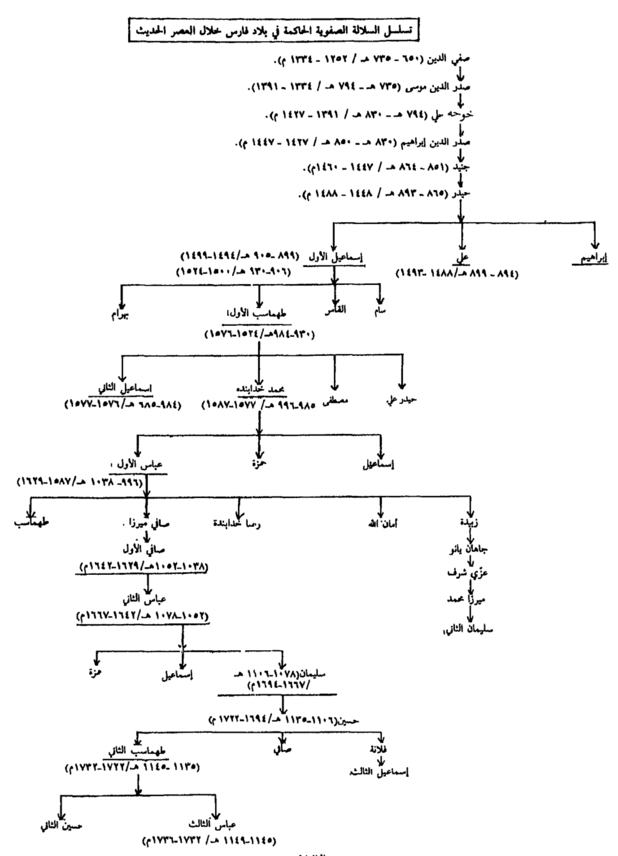
الثمين، برسومه وألوانه، وكذلك صناعة السجاد الفخمة، أثرها الكبير في أوربا آنذاك.

ولم يكن عهده عهد ازدهار فني فحسب، وإنما رافق ذلك الإيناع الفني نشاط أدبي وعلمي، واستقطبت بلاد فارس هجرة عدد من العلماء والمفكرين الشيعة إليها، وافدين من أنحاء الامبراطورية العثمانية، ولا سيما من بلاد الشام.

ولم تحافظ «الدولة الصفوية»، على القوة التي بثها الشاه «عباس الأول» في حناياها، بل مالت إلى انحدار بعد وفاته. ففي زمن حفيده «الشاه صافي» (١٠٣٨-١٠٥٢هـ/ ١٦٢٩-١٦٤٢) تمكن السلطان «مراد الرابع» العثماني من الاستيلاء على همذان، وإريفان (روان)، وتبريز (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م)، ومن استعادة بغداد في ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م. ومع أن الشاه «عباس الثاني» (١٠٥٢-١٠٧٧هـ ١٦٤٢-١٦٦٦) عرف بقوته وشدة بأسه وحزمه، إلا أنه لم يستطع إيقاف انحطاط الدولة. إذ انصرف الشاهان اللذان أتيا بعده، وهما «شاه سليمان» (١٠٧٧-١١٠٥هـ/ ١٦٦٦-١٦٩٤م) و«شاه سلطان حسين» (١١٠٥-١١٣٥هـ/ ١٦٩٤-١٧٢٢م)، إلى أمورهما الخاصة، ولهوهما، فدب الفساد إلى مرافق الدولة المختلفة، وتعرضت للانقسامات الداخلية، واستفاد من ذلك «الأفغان»، فقام «المير محمود» بالسيطرة على بلاد الفرس، ودخل «أصفهان» العاصمة عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م، وألزم الشاه على التنازل عن العرش. وظلت بقايا الدولة الصفوية لأربعة عشر عاماً أخرى ظلاًّ، وليس لها من الأمر شيئاً. إلا أن أحد أفراد الأسرة الحاكمة وهو «طهماسب الثاني» استنجد «بنادر قولي» من قبيلة الأفشار فتقدم هذا إلى أصفهان، وأجلى الأفغان عنها في ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، ونصّب «طهماسب الثاني» على العرش إلا أنه ما لبث أن أعلن هو نفسه شاهاً في ١١٤٨هـ/١٧٣٦، باسم «نادر شاه» وبذلك زالت الدولة الصفوية، التي انعدم وجودها الفعلي في الواقع منذ ١١٣٥هـ/١٧٢٢م.

شجرة نسب السلالة الصفوية




تسلسل السلالة الصفوية الحاكمة في بلاد فارس خلال العصر الحديث
صفي الدين (٦٥٠ - ٧٣٥ هـ / ١٢٥٢ - ١٣٣٤ م).
صدر الدين موسى (٧٣٥ هـ - ٧٩٤ هـ / ١٣٣٤ - ١٣٩١).
خوجه علي (٧٩٤ هـ - ٨٣٠ هـ / ١٣٩١ - ١٤٢٧ م).
صدر الدين إبراهيم (٨٣٠ هـ - ٨٥٠ هـ / ١٤٢٧ - ١٤٤٧ م).
جنيد (٨٥١ - ٨٦٤ هـ / ١٤٤٧ - ١٤٦٠م).
حيدر (٨٦٥ - ٨٩٣ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٨٨ م).
إبراهيم
علي
(٨٩٤ - ٨٩٩ هـ/١٤٨٨ -١٤٩٣)
إسماعيل الأول (٨٩٩ -٩٠٥ هـ/١٤٩٤-١٤٩٩)
(٩٠٦-٩٣٠ هـ/١٥٠٠-١٥٢٤)
سام
القاس
طهماسب الأول
(٩٣٠-٩٨٤هـ/١٥٢٤-١٥٧٦)
بهرام
حيدر علي
مصطفى
محمد خدابنده
٩٨٥-٩٩٦ هـ/ ١٥٧٧-١٥٨٧)
اسماعيل الثاني
(٩٨٤-٩٨٥ هـ/١٥٧٦-١٥٧٧)
إسماعيل
حمزة
عباس الأول
(٩٩٦- ١٠٣٨ هـ/١٥٨٧-١٦٢٩)
زبيدة
أمان الله
رضا خدابندة
صافي ميرزا
طهماسب
جاهان يانو
عزّي شرف
ميرزا محمد
سليمان الثاني
صافي الأول
(١٠٣٨-١٠٥٢هـ/١٦٢٩-١٦٤٢م)
عباس الثاني
(١٠٥٢-١٠٧٨ هـ/١٦٤٢-١٦٦٧م)
سليمان(١٠٧٨-١١٠٦ هـ
/١٦٦٧-١٦٩٤م)
إسماعيل
حمزة
حسين(١١٠٦-١١٣٥ هـ/١٦٩٤-١٧٢٢ م)
فلانة
إسماعيل الثالث
صافي
طهماسب الثاني
(١١٣٥ -١١٤٥ هـ/١٧٢٢-١٧٣٢م)
عباس الثالث
(١١٤٥-١١٤٩ هـ/ ١٧٣٢-١٧٣٦م)
حسين الثاني

وقد ترجم المؤرخ «المحبي» لعدد من الشخصيات ذات الأصل الأعجمي، بلغ (٤٣) ثلاثاً وأربعين شخصية (أنظر المسرد المرافق التالي). وكان لاثنين فقط من تلك الشخصيات دورها السياسي في حياة بلاد العجم، بينما ما تبقى كان لعلماء وإداريين، أكثريتهم الساحقة تركت موطنها بلاد العجم لتقيم في المشرق الإسلامي: أكان ذلك في مدن الدولة العثمانية، أو في مكة المكرمة، أو المدينة المنورة، أو دمشق، أو القاهرة، أو مدن بلاد الهند. وقد انخرط عدد واف في سلك الدولة العثمانية، وتسلم مناصب إدارية فيها، دينية وزمنية، كالإفتاء، والقضاء والدفتردارية، والكتابة، وغيرها، ومنها بالذات أسرة «حسن جان التبريزي» الذي تسلسل منها عدد كبير من مفتيّي السلطنة العثمانية. ويبدو أن عديداً ممن هاجر من بلاد العجم إلى بلاد المشرق الإسلامي، كان هرباً من المذهب الشيعي فيها، واضطهاد السلطة الحاكمة للسنة.

إلا أنه مقابل هجرة السنة إلى بلاد المشرق الإسلامي، فإنه كان هناك هجرة من بلاد المشرق العربي الإسلامي إلى بلاد العجم، وهذا ينطبق بصفة خاصة على شيعة بلاد الشام، أو من اتهم منهم بالتشيع. وقد ترجم «المحبي» للعلماء من الشيعة، كما ترجم للسنّة منهم، أكانوا أعاجم مقيمين في بلادهم، أم مهاجرين إلى بلاد العجم، ودون أن يشير إلى مذهبهم صراحة.

وقد اختير من تلك التراجم الثلاثة والأربعين خمس شخصيات: اثنتان لرجلين سياسيين هما: أحمد خان سلطان كيلان (جيلان)[1] (المتوفى ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م)، والذي ضم الصفويون بلاده «كيلان» إليهم، والشاه «عباس الصفوي»[2]، أو «عباس الأول الكبير» (المتوفى ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٩م)، والذي أشير إليه في المقدمة السالفة. ويلاحظ أن «المحبي» في ترجمته «لعباس الأول الكبير» قد قدم نبذة عن الأسرة الصفوية قبله، وكان متتبعاً دقيقاً

(١) خلاصة الأثر جـ١/٣٧٣-٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه جـ٢/٢٦٧-٢٦٩.

للأخبار. أما التراجم الثلاث المتبقية، فواحدة لعالم شيعي شامي، استقر في بلاد العجم أيام «الشاه عباس»، وغدا رأس علمائها، وزار موطنه بلاد الشام خفية، وكان له اتصالاته مع علمائها ومناقشاته في مجلسهم، وهو «محمد البهاء العاملي الهمداني»[1] (المتوفى ١٠٣١هـ/١٦٢١م)، والثانية لطبيب فارسي كيلاني، كان نزيل مكة المكرمة، وهو «صفي الدين الكيلاني»[2]. (المتوفى ١٠١٠هـ/١٦٠١م)، والثالثة لعجمي نزل مدينة دمشق، والتحق بالدولة العثمانية، وتولى منصب «الدفتردار» (أي المشرف على الشؤون المالية ودفاترها) وكان كذلك متولي وقف، ولعب دوراً ثقافياً هاماً بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلامي إذ كان مكلفاً من السلطان «أحمد المنصور السعدي» سلطان المغرب الأقصى بجمع الكتب الهامة في المشرق وإرسالها إليه، وهو «محمد أمين الدفتري العجمي» المتوفى ١٠١٩هـ/١٦١٠م[3].

---

(١) المصدر نفسه جـ٣/٤٤٠-٤٥٥.

(٢) المصدر نفسه جـ٢/٢٤٤-٢٤٥.

(٣) المصدر نفسه جـ٤/٢٩٠-٢٩٤.

مسرد بتراجم الشخصيات التي هي من أصل أعجمي فارسي

الاسم	الموطن الأصلي	محل الإقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
إبراهيم بن المنلا زين الدين النخجواني	نخجوان	مستوطن دمشق وولد فيها	رئيس الأطباء بدمشق ـ نائب قاض	١٠٥٨ هـ	ج١/٢١
إبراهيم الهمذاني	همذان	بلاد العجم	عالم شيعي كبير	١٠٢٦ هـ	ج١/٦٣ ـ ٦٤
أبو سعيد بن أسعد بن سعد الدين حسن جان	تبريز	استوطنت الأسرة القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٧٢ هـ	ج١/١٢٧ـ١٢٩
أحمد نظام الدين الشيرازي	شيراز	بلاد العجم	عالم شيعي كبير ـ سلطان الحكماء	١٠١٥ هـ	ج١/١٥٧
أحمد بن توفيق الكيلاني	كيلان	استوطنت الأسرة القسطنطينية	قاضي مصر، والشام ـ مدرس	١٠٥١ هـ	ج١/١٧٩
أحمد بن زوح الله الأنصاري	بردعة (كنجة)	تنقل بين مدن الدولة العثمانية للعمل	قاضٍ ـ فقاضي عسكر	١٠٠٨ هـ	ج١/١٨٩ـ١٩٠
أحمد النخجواني المنطقي	نخجوان	الأسرة مستوطنة دمشق	قاضي الشام وحلب	قتل ١٠٤٥هـ	ج١/١٩٧ـ٢٠١
أحمد بن محمد بن نعمان الايجي	إيج	الأسرة مستوطنة دمشق	نائب قاض ـ مدرس	١٠٦٣هـ	ج١/٣٢٤
أحمد خان	كيــلان	كيلان ـ نزيل بغداد	سلطان كيــلان	١٠٠٩ هـ	ج١/٣٧٣ـ٣٧٤
أسعد بن سعدالدين بنحسن جان	تبريز	الأسرة مستوطنة القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٣٤ هـ	ج١/٣٩٦ـ٣٩٨
أسعد البلخي	بلخ	نزيل المدينة المنورة	متصوف نقشبندي شاعر	١٠٤٦ هـ	ج١/٤٠٢
إسماعيل الهمذاني	همــذان	قاطن دمشق	متولي وقف الجامع الأموي	١٠٠٦ هـ	ج١/٤١٠ـ٤١١
منلا توفيق الكيلاني	كيلان	القسطنطينية ـ آمد	عالم إلهيات ورياضيات	١٠١٠ هـ	ج١/٤٨٠ـ٤٨١
حبيب الله الشيرازي	شيــراز	نزيل بغداد ـ مصر ـ البصرة	عالم سني قادري	١٠١٤ هـ	ج١/٥٠٠ـ٥٠١
حبيب بن محمود النخجواني	نخجوان	نزيل دمشق ـ الصالحية	أحد الكتاب المشهورين بجودة الخط	١٠١٦هـ	ج١/٥٠٠
رجب بن عماد الدين	بلاد العجم	نزيل دمشق	نسّاخ ـ يدّعي الموسيقى	١٠١٢ هـ	ج٢/١٦٢

الاسم	الموطن الأصلي	محل الاقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
روح الله الشرواني	شــروان	متنقل في مدن الدولة العثمانية	قاضي حلب ومصر والقسطنطينية قتل ـ مدرس	١٠٧١ هـ	ج٢/١٧١ـ١٧٢
صالح بن اسحاق الشرواني	شــروان	مستوطن القسطنطينية	قاضي مصر ـ مدرس	١٠٣٨ هـ	ج٢/٢٣٧ـ٢٣٨
صفي الدين الكيلاني	كيلان	نزيل مكة المشرفة	طبيب بارع	١٠١٠ هـ	ج٢/٢٤٤ـ٢٤٥
الشاه عباس الأول	قـزويـن	قزوين ـ أصفهان	شاه الفرس من الصفويين	١٠٣٨ هـ	ج٢/٢٦٧ـ٢٦٩
عبد العزيز بن سعد الدين بن حسن جـــان	تبريز	القسطنطينية	قاضي عسكر الأناطولي	١٠٢٧ هـ	ج٢/٤٢٤ـ٤٢٥
عبد الله اليزدي	أصفهان	أصفهان	من كبار العلماء الشيعة المؤلفين	١٠١٥ هـ	ج٣/٤٠
علي الشيرازي	شيــراز	مقيم في مكة وولد فيها	عالم وأديب	١٠٥١ هـ	ج٣/١٧٨ـ١٧٩
علي الهروي	هــراة	نزيل مكه المشرفة	من كبار علماء السنة المؤلفين	١٠١٤ هـ	ج٣/١٨٦
محمد بن أحمد حكيم الملك	بلاد العجم	مقيم في مكة ـ فالهند	أديب الحجاز وشاعره	١٠٥٠ هـ	ج٣/٣٦١ـ٣٦٦
محمد بن حسن جان	تبريز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٠٨ هـ	ج٣/٤١٨ـ٤٢٠
محمد بن زين الدين النخجواني	نخجوان	مقيم في دمشق	قسام عسكري ـ قاض	١٠٥٦ هـ	ج٣/٤٦٤ـ٤٦٥
محمد بن سليمان الكيلاني	كيلان	الهند ـ مدن الدولة العثمانية	عالم سني ومدرس	١٠٢٦	ج٣/٤٧٣
محمد الأمين بن صدرالدين الشرواني	شــروان	نزيل القسطنطينية	عالم كبير سني ـ ومدرس مرموق	١٠٣٦ هـ	ج٣/٤٧٥ـ٤٧٦
محمد البهائي بن عبدالعزيزحسن جان	تبريز	أسرته مقيمة في القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٦٤ هـ	ج٤/٢ـ٩
محمد الاسترابادي	استراباذ	نزيل مكة المشرفة	عالم شيعي ومؤلف	١٠٢٨ هـ	ج٤/٤٦ـ٤٧
محمد بن محمد سعد الدين حسن جان	تبريز	أسرته في القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٢٤ هـ	ج٤/١٦٨ـ١٦٩
محمد بن محمد بن نعمان الإيجي	إيج	مقيم بدمشق	مدرس فاضل	١٠٣٩ هـ	ج٤/٢٤٨ـ٢٤٩
محمد أمين العجمي الدفتري	قزوين	نزيل دمشق	متولي وقف ـ ودفتر دار في الدولة العثمانية	١٠١٩ هـ	ج٤/٢٩٠ـ٢٩٤

الاسم	الموطن الأصلي	محل الاقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
السيد محمد باقر الدمادي	أصبهان	أصبهان	رئيس العلماء الشيعة ببلاد العجم	١٠٤١ هـ	ج٤/٣٠١-٣٠٢
محمد أمين اللاري	اللار	متنقل بين بغداد - الموصل - حلب - دمشق	متصوف عالم	١٠٦٦ هـ	ج٤/٣٠٨-٣٠٩
مراد بن هداية الله	بلاد العجم	مقيم بدمشق	رئيس الكتاب بدمشق	١٠٤٤ هـ	ج٤/٣٥٤-٣٥٥
معين الدين بن أحمد البلخي	بلـخ	نزيل مكة بعد مصر	أديب شاعر وفاضل	١٠٤٠ هـ	ج٤/٤٠٦-٤٠٧
نعمان بن محمد الإيجي	إيج	مستوطن دمشق	متصوف	١٠١٦ هـ	ج٤/٤٥٣-٤٥٥
نعمة الله الكيلاني	كيـلان	مقيم بالهند	عالم ومتصوف	١٠٤٦ هـ	ج٤/٤٥٥-٤٥٨
هداية الله العجمي	بلاد العجم	متنقل بين حلب فدمشق فمصر فالروم فدمشق	جندي - صنجق - أمير الحج التامي والد مراد السابق	١٠٣٣ هـ	ج٤/٤٦١
يحيى بن محمد الإيجي	إيـج	مستوطن دمشق	قاضٍ بالقدس ومكة	١٠٦٦ هـ	ج٤/٤٨٥-٤٨٦
يوسف القرة باغي	قرة باغ (من قرى همذان)	همذان	عالم محقق	بعد ١٠٣٠ هـ	ج٤/٥١٠

جدول بتوزع الشخصيات الأعجمية الأصل في المدن والبلاد الإسلامية

التوزع العام			توزع المهاجرين في البلاد الاسلامية					
العدد الكلي	المقيمون في بلاد العجم	المهاجرون	بغداد	دمشق	القسطنطينية	المدينة المنورة	مكة المكرمة	الهند
٤٣	٦	٣٧	٢	١٤	١٣	١	٦	١

مسرد بالشخصيات الأعجمية المقيمة في بلاد العجم

الإسم	الموطن الأصلي	محل الإقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
الميرزا ابراهيم الهمذاني	همذان	بلاد العجم (دون تحديد)	عالم شيعي كبير	١٠٢٦ هـ	ج١/٦٣-٦٤
أحمد نظام الدين الشيرازي	شيراز	بلاد العجم	عالم شيعي كبير ـ سلطان الحكماء	١٠١٥ هـ	ج١/١٥٧
الشاه عباس الأول	قزوين	قزوين ـ أصفهان	الشاه من الصفويين	١٠٣٨ هـ	ج٢/٢٦٧-٢٦٩
عبد الله اليزدي	يزد	أصفهان	من كبار العلماء المؤلفين	١٠١٥ هـ	ج٣/٤٠
السيد محمد باقر الدمادي	أصفهان	أصفهان	رئيس العلماء ببلاد العجم	١٠٤١ هـ	ج٤/٣٠١-٣٠٢
يوسف القرة باغي	قره باغ (من قرى همذان)	همذان	عالم محقق	بعد١٠٣٠هـ	ج٤/٥١٠

مسرد بالشخصيات الأعجمية المقيمة في القسطنطينية

الإسم	الموطن الأصلي	محل الإقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
أبو سعيد بن أسعد حسن جان	تبريز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٧٢ هـ	ج١/١٢٧-١٢٩
أحمد بن توفيق الكيلاني	كيـلان	القسطنطينية	قاضي مصر والشام ـ مدرس	١٠٥١ هـ	ج١/١٧٩
أحمد بن روح الله الأنصاري	بردعة (نخجة)	القسطنطينية	قاض ـ قاضي عسكر	١٠٠٨ هـ	ج١/١٨٩-١٩٠
أسعد بن سعد الدين حسن جان	تبريز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٣٤هـ	ج١/٣٩٦-٣٩٨
منلا توفيق الكيلاني	كيـلان	القسطنطينية	عالم إلهيات ورياضيات	١٠١٠ هـ	ج١/٤٨٠-٤٨١
روح الله الشرواني	شـروان	القسطنطينية	قاض متنقل ومدرس	١٠٧١ هـ	ج٢/١٧١-١٧٢
صالح بن إسحاق الشرواني	شـروان	القسطنطينية	قاضي مصر ـ مدرس	١٠٣٨ هـ	ج٢/٢٣٧-٢٣٨
عبد العزيز بن حسن جان	تبريـز	القسطنطينية	قاضي عسكر الأناطولي	١٠٢٧ هـ	ج٢/٤٢٤-٤٢٥
محمد بن حسن جان	تبريـز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٠٨ هـ	ج٣/٤١٨-٤٢٠
محمد بن سليمان بن محمد الكيلاني	لاهجان ـ كيلان	القسطنطينية	قاض ومدرس	١٠٢٦ هـ	ج٣/٤٧٣
محمد الأمين بن صدر الدين الشرواني	شـروان	القسطنطينية	عالم كبير ومدرس مرموق	١٠٣٦ هـ	ج٣/٤٧٥-٤٧٦
محمد البهائي بن عبد العزيز (حسن جان)	تبريـز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٦٤ هـ	ج٤/٢-٩
محمد بن محمد سعد الدين حسن جان	تبريز	القسطنطينية	مفتي السلطنة العثمانية	١٠٢٤ هـ	ج٤/١٦٨-١٦٩

مسرد بالنزلاء الأعاجم في المدن العربية

أولاً - في بغداد

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
أحمد خان الكيلاني	كيلان	سلطان كيلان - وعالم	١٠٠٩ هـ	ج١/ ٣٧٣ - ٣٧٤
حبيب الله الشيرازي	شيراز	عالم سني قادري	١٠١٤ هـ	ج ١/٥٠٠ - ٥٠١

ثانياً - في دمشق

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
إبراهيم بن المنلا زين الدين النخجواني	نخجوان	رئيس الأطباء بدمشق - نائب قاض	١٠٥٨ هـ	ج ١/ ٢١
أحمد النخجواني المنطقي	نخجوان	قاضي الشام، وحلب	قتل ١٠٤٥ هـ	ج ١/ ٢٠١
حبيب بن محمود النخجواني	نخجوان	أحد الكتاب المشهورين بجودة الخط	١٠١٦ هـ	ج ١/٥٠٠
محمد بن زين الدين النخجواني	نخجوان	قسام عسكري - قاض	١٠٥٦ هـ	ج٣/٤٦٤-٤٦٥
أحمد بن محمد بن نعمان الإيجي	إيج	نائب قاض - مدرس	١٠٦٣ هـ	ج١/٣٢٤
محمد بن محمد بن نعمان الإيجي	إيج	مدرس	١٠٣٩ هـ	ج٤/٢٤٨ - ٢٤٩
نعمان بن محمد الإيجي	إيج	متصوف	١٠١٦ هـ	ج٤/٤٥٣-٤٥٥
يحيى بن محمد الإيجي	إيج	قاض بالقدس ومكة	١٠٦٦ هـ	ج٤/٤٨٥-٤٨٦
إسماعيل الهمذاني	همذان	متولي وقف الجامع الأموي	١٠٠٦ هـ	ج١/٤١٠-٤١١

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
رجب بن عماد الدين	؟	نسّاخ ـ يدّعي الموسيقى	١٠١٢ هـ	ج٢/١٦٢
محمد أمين العجمي الدفتري	قزوين	متولي وقف ودفتردار	١٠١٩ هـ	ج ٤/٢٩٠ ـ ٢٩٤
محمد أمين اللاري	اللار	متصوف عالم	١٠٦٦ هـ	ج ٤/٣٠٨ـ٣٠٩
مراد بن هداية الله	؟	رئيس الكتاب بدمشق	١٠٤٤ هـ	ج ٤/٣٥٤ ـ ٣٥٥
هداية الله العجمي	؟	جندي ـ صنجق ـ أمير حج	١٠٣٣ هـ	ج ٤/٤٦١

ثالثاً ـ في المدينة المنورة

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
أسعد البلخي	بلخ	متصوف نقشبندي شاعر	١٠٤٦ هـ	ج ١/ ٤٠٢

رابعاً ـ في مكة المكرمة

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
صفي الدين الكيلاني	كيلان	طبيب	١٠١٠ هـ	ج ٢/٢٤٤ ـ ٢٤٥
علي الشيرازي	شيراز	عالم وأديب	١٠٥١ هـ	ج ٣/١٧٨ ـ ١٧٩
علي الهروي	هراة	من العلماء الكبار	١٠١٤ هـ	ج ٣/ ١٨٦
محمد بن أحمد حكيم الملك	؟	أديب الحجاز وشاعره	١٠٥٠ هـ	ج ٣/٣٦١ ـ ٣٦٦
محمد الاسترابادي	استراباذ	عالم شيعي ومؤلف	١٠٢٨ هـ	ج ٤/٤٦ ـ ٤٧
معين الدين بن أحمد البلخي	بلخ	أديب شاعر	١٠٤٠ هـ	ج ٤/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧

مسرد بالنزلاء الأعاجم في الهند

الاسم	الموطن الأصلي	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
محمد بن أحمد حكيم الملك (نزل مكة فالهند)	؟	أديب شاعـــر	١٠٥٠ هـ	ج ٣/.٣٦١ ـ ٣٦٦
نعمة الله الكيلاني	كيـــلان	عالـم متصوف	١٠٤٦ هـ	ج ٤/ ٤٥٥ ـ ٤٥٨

مسرد بالنزلاء العرب في بلاد العجم

الاسم	الموطن الاصلي	محل الاقامة	العمل	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
محمد بهاء الدين العاملي	بعلبك (بلاد الشام)	قزوين فأصفهان	عالم موسوعي	١٠٣١ هـ	ج ٣/٤٤٠ ـ ٤٤٥
محمد بن علي العاملي الدمشقي	دمشق	أصفهان	عالم وأديب	١٠٥٩ هـ	ج ٤/ ٤٩ ـ ٥٤
محمد الحر العاملي	جبل عامل (مشغر)	مكة فطوس	أديب شاعر	١١٠٤ هـ (هناك خطأ في تاريخ وفاته عند المحبي)	ج٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٥

التراجم المختارة من التراجم الأعجمية أو نزيلة بلاد العجم

الاسم	موقع الترجمة من خلاصة الأثر
أحمد خان سلطان كيلان	ج ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤
الشاه عباس	ج ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩
محمد البهاء العاملي الهمذاني	ج ٣/ ٤٤٠ ـ ٤٥٥
صفي الدين الكيلاني	ج ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥

سلطان كيلان
أحمد خان الكيلاني*

(خان أحمد) الكيلاني الشريف الحسيني، سلطان بُلاد كيلان[1]، من بيت السلطنة أباً عن جد. وكان مع كونه من الملوك، أحد أفراد العالم في العلوم الرياضية والحكمية. حصّل علم الهيئة[2]، والهندسة، والفلك، وكان يدرس القَوْشَجي[3] في الهيئة وكان إليه النهاية في الموسيقى، والشعر الفارسي، وإذا

(*) أنظر ترجمته في البوريني: تراجم الأعيان جـ١/١٥٦ـ١٥٨.
ـ حياته (...ـ١٠٠٩هـ/ ...ـ١٦٠٠ـ١٦٠١م).

(١) «كيلان» أو «جيلان» وهو إقليم من بلاد الفرس، يقع جنوبي بحر قزوين وشمالي جبال ألبروز، ويحده من الشرق طبرستان أو مازندران. أهم مدنه «رشت» و«لاهجان» وتعرف المنطقة الجبلية فيه باسم «الديلم». ويشتهر بإنتاج الحرير الطبيعي وصناعته. وقد ظلت بلاد جيلان مستقلة أمداً طويلاً، ثم ألحقها الصفويون ببلاد فارس.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٢/١٧٩.
ـ دائرة المعارف الإسلامية جـ٧/٢٢٢ـ٢٢٣.

(٢) علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة. ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك، لزمت عنها لهذه الحركات المحسوسة، بطرق هندسية. كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس، ويبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب الواحد بتعدد الميول له. وتتم معرفة تلك الحركات بالرصد. ومن فروع هذا العلم علم الأزياج.
أنظر: ابن خلدون مقدمة ٤٨٧ـ٤٨٩.

(٣) علي بن محمد علاء الدين القوشجي المتوفى ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م.. أصله من سمرقند، وكان أبوه من خدام ألغ بك ملك ما وراء النهر. أما هو فقد كان فلكياً رياضياً، ومن فقهاء الحنفية، وقد قام بإتمام «مرصد سمرقند»، ثم رحل إلى تبريز، وأكرمه سلطانها «أوزون حسن»، وأرسله سفيراً له إلى محمد الفاتح العثماني فاستبقاه محمد الفاتح عنده، وألف له رسالة في الحساب سماها «المحمدية» ورسالة في علم الهيئة سماها «الفتحية» وتوفي ـ

نظـم غزلاً ربطـه في أصـوات ونغمات. وكان طهماسـب شاه[1] قد اعتقله في قلعـة دهقهـه[2] في بلاد العجـم، ومـكث بهـا معتقـلاً سنـين عديدة وكان ولـد طهماسـب، شاه إسماعيل[3] محبوساً عنـده فقـال له إن أطلقنـي الله من الحبس وولاّنـي أمـر النـاس فلّله عليّ أن أطلِقك وأولّيك بلادك. فاتفق أن الله تعـالى أطلقـه، وأعطـاه سلطنـة العراقـين[4] وأذربيجان[5]

= بالقسطنطينية. وله عدة مصنفات بالعربية والفارسية.

أنظر:

- كشف الظنون جـ١/٣٤٨.
- هدية العارفين جـ/٧٣٦.
- الشقائق النعمانية/ ٩٧-٩٩.
- الأعلام جـ٥/١٦٢.

(١) «طهماسب الأول» بن «الشاه إسماعيل الصفوي» الذي حكم بلاد فارس من (٩٣٠-٩٨٤هـ/ ١٥٢٤-١٥٧٦م).

أنظر: المقدمة لهذه التراجم.

(٢) قلعة دهقهه: لم يعثر لها على ترجمة. وقد أتت في البوريني: «قهقه» وهي الأخرى لم يعثر لها على ترجمة. ووردت «قهقهه» أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية جـ٢/١٧٦ في ترجمة «إسماعيل الثاني».

(٣) هو الشاه إسماعيل الثاني: وقد حكم بعد أبيه «طهماسب الأول» بين (٩٨٤-٩٨٥هـ/ ١٥٧٦-١٥٧٧م). وكان طهاسب أبى أن يخلع عليه ولاية العهد، لما عرف عنه من قسوة وغلظة، وسجنه ما يقارب العشرين عاماً، إلا أن «القزل باش» وهم العسكر التركمان، أخرجوه وأجلسوه على العرش. وكان يميل إلى السنة. وانتهى أمره بسم أخته له.

أنظر: - دائرة المعارف الإسلامية جـ٢/١٧٦.

- مقدمة هذه التراجم.

(٤) المقصود بالعراقين: «العراق العربي» (أي العراق الحالي) «والعراق العجمي»، وهو الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الفرس اليوم المسمى خوزستان. وكان يطلق في العهود الإسلامية السابقة على البصرة والكوفة اسم «العراقين»

- أنظر معجم البلدان جـ٤/٩٣-٩٥.
- المنجد في الأدب والعلوم/ ٣٤٦.

(٥) هي المنطقة الشمالية الغربية من بلاد فارس، المتدة غرب بحر قزوين ومركزها تبريز، وهي منطقة جبلية تعج بالقلاع.

انظر - معجم البلدان ج ١/١٢٨ - ١٢٩.

- الروض المعطار/ ٢٠ - ٢١.

وشروان[1] وشيراز[2] وخراسان[3] وهمذان[4] وبلاد الجبال[5] فأخرجه من دهقهة، لكن وضعه في قلعة اصطخر[6] وقال له أريد أن أرسلك إلى بلادك مع مزيد التعظيم. فلم تطل مدة إسماعيل ومات. ثم استخرجه الشاه أعمى أخو إسماعيل المسمى

---

(١) شروان: مقاطعة تقع غربي بحر قزوين جنوب داغستان، وكانت مملكة في القرن الخامس عشر، ومن مدنها «باكو»، وعاصمتها «شماخي» ضمها اسماعيل شاه الصفوي الى ملكه عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م.
انظر: - الخريطة رقم ٥ - القرماني/ ٤٥٨ - معجم البلدان ج٣/ ٣٣٩ - الروض المعطار ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) شيراز: قصبة إقليم فارس من بلاد العجم، وتقع جنوب غربي تلك البلاد، على خط عرض ٣٠َ,٢٩° شمالاً، وخط طول ٥٢° شرقاً. وهي مدينة اسلامية جدد بناءها «محمد بن القاسم بن أبي عقيل» ابن عم الحجاج. ومعنى «شيراز» جوف الأرض، وقيل سميت كذلك لأنه تجلب إليها الميرة من سائر البلاد، ولا تخرج منها الميرة بتاتاً وهي قائمة في منطقة غنية بالحدائق، والبساتين، والورود، وفيها عديد من المساجد والأضرحة.
انظر: - معجم البلدان ج٣/ ٣٨٠ - ٣٨١ - الروض المعطار/ ٣٥١.
G.L.E. vol 3.P.63. (Chiraz)-

(٣) هي المنطقة المعروفة الممتدة وسط بلاد الفرس وإلى شمالها الشرقي حتى حدود نهر جيحون (أموداريا). ومن مدنها الكبرى نيسابور، وبلخ، وهراة.
انظر: دائرة المعارف الاسلامية المعرّبة ج٨/ ٢٨٢ - ٢٨٥.
- معجم البلدان جـ٢/ ٣٥٠-٣٥٤.
- الروضْ المعطار/ ٢١٤-٢١٥.
- المنجد في الأدب/ ١٧٤.

(٤) همذان: أكبر مدينة فارسية في منطقة الجبال الواقعة غربي بلاد فارس. وهي كثيرة المياه، شديدة البرد لارتفاعها، غنية بالبساتين والزروع. تقع على خط عرض ٤٤َ,٣٤° شمالاً، وخط طول ٤٨,١٨° وهي المركز التجاري الأول في غربي بلاد الفرس.
- انظر معجم البلدان جـ٥/ ٤١٠-٤١٧.
- الروض المعطار - ٥٩٦.
. G.L.E. vol 5 — P.765 (Hamadhan) -

(٥) اسم علم يطلق على المنطقة الممتدة في بلاد فارس على ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والري أي غربي إيران إلى وسطه الشمالي. ويسميها العجم خطأ «بالعراق».
- أنظر معجم البلدان جـ٢/ ٩٩.

(٦) مدينة في جنوبي غربي بلاد الفرس، ومن مدن فارس، وهي تقابل «برسوپوليس» المدينة القديمة. كانت عاصمة للدولة الساسانية، وقد بنيت شيراز قربها عام ٦٤هـ/ ٦٨٤م مما أدى بها -

بخداي بنده محمد[1] عندما تولى السلطنة باتفاق أمراء قزل باش. وكانت إقامته في زمن سلطنة أبيه، وأخيه الشاه إسماعيل، في شيراز، فلما مات أخوه إسماعيل لم يجدوا في بيت السلطنة ذكراً قابلاً للملك سوى هذا فقالوا هو من بيت السلطنة، ليس إلا، فنحن نوليه ملك أبيه ولو كان أعمى. فلما تولى السلطنة أرسل إلى خان أحمد واستخرجه من اصطخر، وولاه بلاد كيلان كما كان. فلم يزل بها إلى أن أخذ سلطان الإسلام السلطان مراد بن سليم[2] غالب عراق العجم وكل عراق العرب وأذربيجان وشروان وبلاد الكرج[3] فلزم أن شاه

= إلى الضعف والانحطاط، إذ أخذت شيراز مكانتها. بالقرب منها آثار قديمة كثيرة.
ـ انظر: ـ معجم البلدان جـ١/٢١١ـ٢١٢.
ـ الروض المعطار/ ٤٣ـ٤٥
ـ المنجد في الأدب / ٢٤.
ـ دائرة المعارف الإسلامية جـ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٥٩.

(١) هو الشاه «سلطان محمد شاه» بن طهماسب الأول. وقد خلف أخاه إسماعيل الثاني على عرش بلاد فارس (٩٨٥ـ٩٩٥هـ/ ١٥٧٨ـ١٥٨٧م) وتميز عهده بمؤامرات القزل باش، وبتسلم زوجه «مهدي عليه» الحكم الفعلي، وبهزيمة قواته أمام العثمانيين في عهد السلطان مراد الثالث. وقد قامت ثورة ضده نصبت السلطان عباس الأول بن السلطان محمد شاه واضطر هو للتنازل عن العرش. وقد كان ضريراً كما أشار المحبي.
انظر: ـ مقدمة هذه التراجم.
ـ و Camb. Hist vol I p.41()—412

(٢) هو السلطان مراد الثالث العثماني، وهو ثاني عشر سلاطين بني عثمان (٩٨٣ـ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ـ١٥٩٥م). تميز عهده بالحرب الطويلة مع بلاد فارس التي انتهت بصلح ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م. وبحربه للنمسا والمجر. وفي عهده حدثت ثورة الإنكشارية في استامبول وتبدت واضحة علائم الانحطاط في الدولة.
انظر: القرماني/ ٣٢٨ـ٣٣١ ولطف السمر جـ٢/٦٤٨ـ٦٥١، وخلاصة الأثر جـ٤/٣٤١ـ٣٥٤. وGreasy p. 224—231

(٣) بلاد الكرج هي «جورجيا» أي المنطقة الجنوبية الغربية من قفقاسيا المطلة على شرقي البحر الأسود. وقد عرفها «معجم البلدان» بهذا المعنى حينما قال «الكرج جيل من الناس نصارى، لهم ملك ولغة، ويسكنون جبال القَبَق (أي القوقاز)»، ومن مدنهم تفليس. وقد ترسخ فيها الإسلام خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. =

عباس[1] بن خداي بنده الضرير المذكور، أرسل عسكراً وافراً فأخذوا كيلان من يد خان أحمد، فهرب مع جماعة معدودين إلى جانب السلطان محمد بن مراد[2] فدخل عليه وامتدحه بقصيدة عظيمة يحثه فيها على أخذ كيلان من يد شاه عباس، وأهدى له شمعداناً مرصعاً قيل أنه خُمِّن بثمانين ألف دينار، ولم يحصل على مراده من العسكر، وذهب إلى بغداد، بإذن السلطان، فمات بها في سنة تسع بعد الألف[3].

= أنظر ـ معجم البلدان جـ ٤/ ٤٤٦.
ـ المنجد في الأدب/ ٤٣٥.
ـ G.L.E. vol 5. p.452–453.

(١) هو الشاه عباس الأول أو الكبير، وقد حكم بلاد فارس ٩٩٦ ـ ١٠٣٨ هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م).
أنظر ـ المقدمة.
ـ خلاصة الأثر جـ ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩. ـ والترجمة التالية.

(٢) هو السلطان محمد الثالث العثماني (١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ م)، وهو السلطان العثماني الثالث عشر، وابن السلطان «مراد الثالث» المذكور آنفاً، كان في حرب دائمة مع النمسا. وقد استفحل أمر الجلالية المتمردين في الأناضول في عهده، واندلعت ثورة السباهية في استامبول. وقد تعدد الصدور الأعاظم في أيامه وكان يعمل تحت تأثير والدته البندقية الأصل (بافا).
أنظر ـ لطف السمر جـ ١/ ١٥٢ ـ ١٥٦.
ـ القرماني/ ٣٣١.
ـ لطائف أخبار الأول/ ١٤٩.
ـ خلاصة الأثر ج٤/ ٢١٦ ـ ٢٢٣.
ـ Creasy, op. cit, p.231–238

(٣) ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ ـ ١٦٠١ م.

الشاه عباس*

(الشاه عباس) بن سلطان محمد خدابنده، بن طهماسب، بن شاه إسماعيل، بن سلطان حيدر، بن سلطان شيخ جنيد، بن سلطان شيخ صدر الدين إبراهيم، بن سلطان خواجه علي، بن شيخ صدر الدين موسى، بن سلطان شيخ **صفي الدين أبي إسحق**، بن شيخ أمين الدين جبريل، بن السيد صالح، بن السيد قطب الدين أحمد، بن السيد صلاح الدين رشيد، ابن السيد محمد الحافظ كلام الله، بن السيد عوض الخّاص، بن السيد **فيروز شاه درين كلاه**، بن محمد شرف شاه، بن محمد، بن أبي حسن، بن محمد، ابن إبراهيم، بن جعفر، بن محمد، بن إسماعيل، بن محمد، بن أحمد العراقي، بن محمد قاسم، بن أبي القاسم حمزة، بن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، بن الإمام محمد الباقر، بن الإمام علي زين العابدين، بن الإمام الحسين، بن الإمام علي بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم. هذا نسب سلاطين العجم، الذين منهم صاحب الترجمة. وأول من بالغ في التشيع وأظهره سلطان حيدر، وكان ذلك في سنة ست وتسعمائة[1].

(*) حكمه (٩٩٦ - جمادى الأولى ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٧- كانون أول ١٦٢٨، كانون الثاني ١٦٢٩ م).
- حياته (٩٦٥-١٠٣٨هـ/ ١٥٥٧-١٦٢٨-١٦٢٩م).

(١) إن التاريخ المبينّ لا يتفق مع الفترة الزمنية التي عاشها «شيخ حيدر» وتمتد بين ٨٦١-٨٩٣هـ/ ١٤٥٦-١٤٨٨م. ففي العام الذي ذكره «المحبي» أعلاه وهو ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م تحرك «الشاه إسماعيل» ضد دويلة «الآق قوينلو» وهزمها في معركة «شرور» - كما بيّنا في المقدمة -، أي بعد وفاة «شيخ حيدر» بثلاث عشرة سنة، ويبدو كأن في النص نقصاً بعد «سلطان حيدر». مهما يكن، إن العام الذي حدّده «المحبي» هو العام الصحيح الذي برزت فيه الدولة الصفوية شيعية قوية.

وقيل في تاريخه: (مذهبنا حق)[1]. ويروى أن بعض أهل السنة سمع هذا التاريخ، فقال: (مذهب ناحق) على النفي. فإن (نا) في الفارسي أداة نفي. ومن ذلك العهد، هاجر كثير من أهل السنة الذين في بلادهم إلى كثير من البلاد. وتغلبت سلاطين بلادنا العثامنة[2] على ملوكهم، من عهد السلطان سليم الأول[3] فإنه ركب على شاه إسماعيل وأخذ منه بلاداً وقهره. وكذلك فعل السلطان سليم الثاني[4] فإنه جهز عليهم جيشاً، فأخذوا منهم

---

(١) (مذهبنا حق) بحساب الجمّل:

مذهبنا= ٤٠+٧٠٠+٥+٢+٥٠+١= ٧٩٨

حق= ٨+١٠٠ = ١٠٨

٩٠٦هـ

(٢) أي بني عثمان.

(٣) هو السلطان العثماني التاسع، وقد حكم (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م) بعد أبيه السلطان «بيازيد الثاني». وفي عهده انعطفت الدولة العثمانية نحوالمشرق الإسلامي، فحارب الصفويين وانتصر عليهم في معركة «جلديران» ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، وحارب المماليك في معركة مرج دابق ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وهزمهم، ودخل القاهرة بعد معركة الريدانية ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وقدم له شريف مكة آيات الولاء.

أنظر: - الكواكب السائرة جـ١/٢٠٨-٢١١.

- القرماني/ ٣١٤ - ٣١٦.

- Greasy,op.cit, p.127—155

- ليلى الصباغ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر. دمشق ١٩٨١-١٩٨٢/ ٧٦-٩٨.

(٤) ابن السلطان «سليمان القانوني»، والسلطان العثماني الحادي عشر. حكم بين (٩٧٤-٩٨٢هـ/ ١٥٦٦-١٥٧٤م). وقد بدأت إمارات انحطاط الدولة العثمانية في عهده بعد عصر الإزدهار الذي عاشته زمن أبيه. وفي عهده تم فتح جزيرة قبرص (٩٧٩هـ/١٥٧١م)، وبلاد تونس ٩٨١هـ/١٥٧٤م. إلا أنه في زمنه أيضاً منيت الدولة بهزيمتها البحرية الكبيرة تجاه إسبانيا والبندقية والبابا في معركة «ليبانتو» (٩٧٩هـ/١٥٧١م). ولم يعرف أنه حدثت حرب بينه وبين الصفويين، سوى أن حكام شروان، وجيلان طلبوا المساعدة من وزيره «محمد الصقلي» ضد شاه فارس. ولذا لا تبدو معلومات «المحبي» في هذا الباب دقيقة. فالمناطق التي يشير إلى استيلاء العثمانيين عليها، تمت السيادة عليها في عهد السلطان «مراد الثالث» بن السلطان «سليم الثاني» الذي اغتنم فرصة الاضطراب في الحكم الصفوي بعد وفاة «طهماسب الأول» ليخرق صلح أمازيا (٩٦٢هـ/١٥٥٥م) الذي أوجد هدنة طويلة بين العثمانيين والصفويين، وكان ذلك عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨ عند وصول الشاه محمد خدابنده الى العرش. وحتى معاهدة استامبول =

تبـريز(1)،وشروان، وكيلان وروان(2)،وكثـيراً من القصبـات والـولايات. واستمروا مغلوبين إلى أن ظهر شاه عباس صاحب الترجمة، فولي السلطنة بخراسان في سنـة خمس وتسعين وتسعمئـة(3)، مكان والـده في حياتـه. وكان جلوسـه بقزوين(4) لكون والده كان أعمى. وقد استولت في أيامه أمراء قزل باش على الدولة، واتخذوها حصصـاً فَسفـك فيهم، واستقـل بالأمـر(5). وكان في ابتـداء أمره

* ٩٩٨هـ/ ١٥٩٠، كان العثمانيون قد استولـوا على جورجيا، وشروان، وداغستـان، وتبـريز، ولورستان.
أنظر: - الكواكب السائرة جـ٣/١٥٦.
- القرماني/ ٣٢٤-٣٢٨
- Creasy, of, cit: P.212—223

(١) عاصمة أذربيجان، وتقع على خط عرض ٣٨,٨ً شمالاً و٤٦,١٢ً° وهي مدينة حصينة تقع في إقليم خصيب، وشتاؤها قاسي البرودة. وقد تعرضت عدة مرات للزلازل. تأريخها الإسلامي حافل، وتعرضت في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لهجمات العثمانيين، وتخلى عنها الشاه عباس عام ٩٩٨هـ/١٥٩٠ للعثمانيين، ثم أعادها إليه. فيها عديد من من المساجد والآثار الإسلامية الأخرى. ويقال لها أيضاً «توريز».
أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ج٤/ ٥٣٦ - ٥٦٢.
- القرماني/ ٤٤٠
- معجم البلدان جـ٢/ ١٣

(٢) هي «اريوان» «أريفان» وبالأرمنية «هرستان» مدينة من مدن ما وراء القوقاز. تقع على خط عرض ٤٠,١٤° شمالاً، وعلى خط طول ٤٤,٣٨ً° شرقاً وعلى ارتفاع (١٠٠٠)م. ويبدو أنها بنيت في مستهل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وقد ضمها الشاه إسماعيل إليه ثم استولى عليها مراد الثالث، واستعادها الشاه عباس عام ١٦٠٤. وفي الواقع كان العثمانيون والصفويون يتبادلونها. فيها عدد من المساجد المحلاة بالقيشاني من القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد.
أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ج٢/ ٣١ - ٣٢ (اريوان).

(٣) ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦-١٥٨٧م.

(٤) قزوين: مدينة فارسية تقع على خط عرض ٣٦,١٦ً شمالاً وخط طول ٥٦ً, ٤٩ شرقاً، وإلى الجنوب الغربي من بحر الخزر، وإلى الشمال الغربي من طهران. وهي مركز بلاد الديلم. وفيها عدة آثار إسلامية. اتخذها الشـاه طهماسب الأول عاصمة لملكه بدل مدينة تبريز.
أنظر: - معجم البلدان جـ٤/ ٣٤٢-٣٤٤ و(G.L.E. Vol 8 P.933 (Qazvin.

(٥) أنظر مقدمة هذه التراجم حول النزاع بين فرق القزلباش التركمان ورغبة كل فرقة في السيادة والتسلط، وكيف تخلص الشاه عباس من نفوذهم.

يداري طرف آل عثمان، ويرسل ابن أخيه حيدر[1] بالهدايا والتحف، إلى أن مات ملك الأوزبك[2]، أوزبك خان[3]، وولده عبد المؤمن[4] في سنة عشر بعد الألف. وكان ملوك الأوزبك أخذوا من خراسان بلاداً، فاستخلصها واحدة بعد واحدة. ثم قصد جدال آل عثمان لما كان وقع من الاختلال بسبب الجلالية[5]

---

(١) لم يعثر له على ترجمة أكثر فيضاً مما ورد في المتن. إلا أن من المعروف. أن أخا الشاه عباس «وهو حيدر ميرزا» أرسل رهينة إلى استامبول لضمان المعاهدة التي وقعت بين الشاه عباس والعثمانيين عام ٩٩٨هـ/١٥٩٠ والمسماة بمعاهدة استامبول انظر: Camb Hist, I p.338.

(٢) قبائل تركمانية كانت في غربي سيبيريا، ثم تقدمت في القرن الخامس عشر نحو السهوب الأوراسية فهاجموا المنطقة بين غربي ألطاي وشرق المجرى الأدنى لنهر الفولغا. وكان على رأسهم في أواخر القرن الخامس عشر «محمد الشيباني». وقد هاجم بلاد ما وراء النهر عام ١٥٠٠م. واستولى على بخارى وسمرقند، وتغلب على بابر التيموري في فرغانه، وضم خوارزم، وهاجم خراسان، إلا أنه هزم أمام الشاه إسماعيل الصفوي قرب مرو عام ١٥١٠. إلا أن خلفه «عبد الله الشيباني» تمكن من هزيمة الصفويين المتحالفين مع بابر التيموري عام ١٥١٣، ووقع صلحاً مع الشاه إسماعيل يحتفظ فيه ببلاد ما وراء النهر، وتبقى خراسان للصفويين.

ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية ج١٣/٤٥٩ ـ ٤٦١ (شيباني).

— Camb Hist I.P. 173, 399 , 432—3,445 _

— Toynbee (A), A Study of History vol I London 1945, P. 372—377

(٣) إن المقصود «بأوزبك خان» هنا؛ «عبد الله بن اسكندر الشيباني» أكبر أمير من «الأسرة الشيبانية» الحاكمة للأوزبك. وقد ولد عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣-١٥٣٤م، وتوفي في ١٠٠٦هـ/١٥٩٨م. وقد سعى للتوسع نحو الغرب، واستولى على خراسان، وجيلان، وخوارزم. وهو الذي أوصل أباه «اسكندر» إلى عرش الأوزبك: وقد غدا خاناً مكان أبيه عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م. وقد حدث صراع بينه وبين ابنه «عبد المؤمن»، وحرب أهلية. وعرف عنه أنه نظم الإدارة، والنظام النقدي، وبنى الجسور والخانات، وأقام الآبار.

أنظر ـ Ency de. L'Islam. 1re ed. T.I. P. 25—26.

(٤) هو ابن عبد الله بن اسكندر الشيباني، السالف الذكر طمع بالعرش في حياة أبيه ووقع في صراع معه وعند وفاة والده عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٨ استلم السلطة مكانه إلا أن رعاياه قتلوه بعد ستة أشهر فقط، وانتقل الحكم في بلاد ما وراء النهر إلى أسرة أخرى. Ibid.

(٥) هم من الجند المرتزقة المسلحين بالبنادق، والمسمين «بالسكبان» (أي حراس كلاب الصيد). وكان يستخدمهم ولاة المقاطعات العثمانية، ولا سيما خلال الحروب التي يخوضونها. وعندما كانت تنتهي الحرب فإنهم كانوا يتفرقون في آسيا الصغرى باحثين عمن يشتري منهم خدماتهم الحربية، كأن يكون والياً متمرداً على السلطنة مثلاً وكانوا يفرضون ضرائبهم ـ

الـذين ظهـروا في زمـن السلطـان أحمـد[1]. ونقض العهـد الـذي بينه وبينهـم، وحـاصر مملـكة تبـريز، وروان، واستـولى عليها. ثم أخـذ قندهار[2]

- الخاصة، ويأخذون الجزية من المدن. وقد انضم إليهم عدد من الفرسان الناقمين، وأفراد من القبائل الكردية والتركية، وقد أقلقوا أمن الدولة، بتعاونهم مع الثائرين من أمثال «علي جنبلاط»، و«عبد الحليم اليازجي» وغيرهما. وقد تمكنوا من السيطرة على مقاطعات بأكملها في وسط الأناضول كسيواس وذي القدر. وقد ظلت «الجلالية» تعيث فساداً في آسيا الصغرى خلال القرن الحادي عشر كله / السابع عشر الميلادي.

انظر: Camb. Hist. Vol I . P.346—350

- البوريني جـ٢/٢٥٩
- ليلى الصباغ. تاريخ العرب الحديث والمعاصر/ ١٠٦ والحاشية.
- لطف السمر جـ١/٩٦ حاشية (٦).

(١) هو السلطان العثماني الرابع عشر. وهو الابن الأكبر للسلطان محمد الثالث. وقد حكم بين (١٠١٢-١٠٢٧هـ/١٦٠٣-١٦١٧م). وتميز عهده بالحرب مع بلاد فارس وبالهزيمة أمامها عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م، تم بتوقيع صلح مع الشاه عباس الأول عام ١٠٢٧هـ/١٦١٨م على أساس صلح أمازيا السابق (الموقع ٩٦٢هـ/١٥٥٥) وفي عهـده جرت الحـرب مع المجـر والنمسـا، وانتهت بعقد صلح «ستفـاتوروك» في ١٠١٥هـ/١٦٠٦م كـما أنه أثنـاء حكمه استشرى أمر الجلالية، وظهرت الثورات في بلاد الشام والأناضول كثورة علي جنبلاط، وفخر الدين المعني الثاني. وقد تمكن من القضاء على الثورة الأولى، وإخماد ثورات آسيا الصغرى، وقد رتب القوانين وجمعها بعنوان «قانون نامه» وهو الذي بنى جامع الأحمدية في استامبول في «آت ميداني» بناء فخماً عام ١٠١٨هـ، واهتم بشؤون الحرمين في الحجاز.

أنظر:

- دائرة المعارف الإسلامية ج١/٤٤٨ - ٤٥٠.
- البوريني جـ١/٢٢٣-٢٣٣
- لطف السمر جـ١/٢٧١-٢٧٤
- خلاصة الأثر جـ١/٢٨٤-٢٩٢
- لطائف أخبار الدول/ ١٥٠-١٥١
- القرماني/ ٣٣٢ - ٣٣٦ - تحفة الناظرين/ ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) ولاية في أفغانستـان اليوم ومـركز ولاية. والمدينـة تقـع على خط عرض ٣١,٤٠° شمالاً وخـط طول ٦٥,٥٠° شرقاً. وهي مدينة واسعة ومركز تجاري هام. وقد ضمها الصفويون إليهم منذ عام ٩٤٣هـ/١٥٣٧م. إلا أن الامبراطورية التيمورية الهندية استولت عليها عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠ - ١٥٩١م. ثم استعادهـا الصفـويون، ثم فقدوهـا، واستردهـا مرة أخـرى الشـاه «عبـاس الثانـي» عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م. واستولى عليها الأفغانيون في ١١٢٠هـ/ ١٧٠٩م واعترف الشاه الصفوي بذلك للسلطان محمود الأفغاني. أنظر: - معجم البلدان جـ٤/٤٠٢-٤٠٣

من بلاد الهند، واستولى على خوارزم، وكيلان، وسجستان[1]، ثلاثاً وأربعين سنة. وكان سلطاناً صاحب جأش، وقوّة مكر، غداراً محتالاً، فاستردّ بعض البلاد. وتقوى في العسكر والعدّة، فأخذ بغداد من يد آل عثمان. وقد قدّمنا سبب أخذه لها، وأنه كان الفاعل لذلك بكر[2]، كبير عسكرها، وأن الشاه دخلها بمخامرة منه، ومن ابنه محمد[3]، وفعل ما فعل فيها، وفي أهلها. وكان أخذه لها في ثالث شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين وألف[4]. واستمرت في يده إلى سنة ثمان وأربعين[5]، فأخذها من يده السلطان مراد[6]. وسنذكر

- الروض المعطار/ ٤٧٤-٤٧٥
- المنجد في الأدب/ ٤٢٤.
- Camb. Hist I. P.417, 424—426

(١) هي المنطقة الممتدة جنوبي خراسان وشمالي مكران، ومركزها «زرنج» جنوبي هراة. ويعني اسم سجستان بلد السكان أو السكبان» أي «بلد الجند».
انظر:
- معجم البلدان جـ٣/١٩٠-١٩٢
- الروض المعطار/ ٣٠٤-٣٠٥
- دائرة المعارف الإسلامية جـ١١/٢٨٢-٢٩٥.

(٢) هو بكر الصباشي أحد أجناد بغداد المتسلطين الذي قتل الوالي يوسف باشا واستولى على بغداد عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢-١٦٢٣م. واستنجد بالشاه عباس ضد العثمانيين، وأرسلت الدولة العثمانية «أحمد حافظ باشا» لقتاله. إلا أن الشاه عباس تقدم نحو بغداد وحاصرها، وسلمها له «محمد علي» بن بكر الصباشي عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م ولم تستطع الدولة العثمانية أن تستردها مباشرة. وقد قتل الشاه كلاً من بكر وابنه.
أنظر: - خلاصة الأثر جـ١/٤٥٥ ترجمة (بكر البغدادي).
- خلاصة الأثر جـ١/٣٨٢-٣٨٥ ترجمة (أحمد حافظ باشا).

(٣) انظر الهامش السابق.

(٤) ٣ ربيع الثاني ١٠٣٢هـ/٤ شباط ١٦٢٣م

(٥) ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م.

(٦) السلطان «مراد الرابع» السلطان السابع عشر من سلاطين بني عثمان حكم سبع عشرة سنة (١٠٣٣-١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣-١٦٤٠م). ويتميز عهده بثورة السباهين في القسطنطينية، وقضائه عليها، وبإصلاحه للجيش، وبسياسة الحزم والشدة التي اتبعها مع كبرائه، وبإصلاحه بعض الفساد المنتشر في الوظائف الإدارية، وأخيراً باستعادته لمدينة بغداد من الصفويين في ١٨ شعبان ١٠٤٨هـ/ ٢٥ كانون الأول ١٦٣٨م. وكان له موقف عنيف من مفتي السلطنة حيث أمر بقتله، وقتل بعض العلماء الآخرين، كما راقب ولاة المقاطعات.

خبر أخذها إن شاء الله تعالى في ترجمة السلطان مراد المذكور. ومن ذلك العهد لزم شاه عباس حدّهم الأصلي الذي كان في زمن الشاه إسماعيل، ولم يتجاوزه، لا هو ولا أبناؤه، إلى يومنا هذا. وطال عمره في السلطنة وبلغ من العزة والحرمة نهاية أمانيه. وخدمه أجلاء العلماء في مناصبه، منهم الشيخ الأستاذ محمد بهاء الدين بن حسين الحارثي الهمداني الشامي[1]، فإنه كان مفتيه ومشيد أركان دولته، باسمه ألف كثيراً من كتبه، ورسائله ونوّه به. وقد رأيت في بعض كتبه غريبة، حكاها في سياق ذكره. قال: إن سلطان زماننا خلد الله ملكه، وأجرى في بحار التأبيد فلكه، عرض له يوماً في مصيده خنزير عظيم الجثة، طويل السن الخارج، فضربه بالسيف ضربة نصفه بها نصفين. ثم أمر بقلع سنه، والاتيان بها إليه، فوجد مكتوباً عليها لفظ الجلالة، بخط بيّن مثبت ناتىء منها. فحصل له، ولنا، ولمن حضر المصيدة من العسكر المنصور، نهاية العجب فإن ذلك من أغرب الغرائب. ولما أرانيها، أدام الله نصره وتأييده، قال لي: كيف يجتمع هذا مع نجاسة الخنزير؟ فقلت له: إن السيد المرتضى[2] قائل بطهارة ما لا تحلُّه الحياة من نَجِس العين.

= أنظر: ـ خلاصة الأثر جـ٤/٣٣٦ـ٣٤١.
Greasy: op. cit. p. 246—257 ـ
ـ تحفة الناظرين/ ١٥٥.

(١) أحد كبار علماء الشيعة. وأدبائها أصله من بعلبك (٩٥٣ـ ١٠٣١هـ/١٥٤٧ـ١٦٢٢م) وانتقل إلى بلاد فارس واستقر بأصفهان، وجعله الشاه عباس رئيساً للعلماء. قام برحلة إلى مصر والشام، ودفن بطوس. له عدة مؤلفات أشهرها «الكشكول» في الأدب المرسل، و«العروة الوثقى» في التفسير. ستأتي ترجمته مباشرة بعد الشاه عباس في هذه الدراسة.
أنظر: ـ خلاصة الأثر جـ٣/ ٤٤٠.
ـ محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني: روضات الجنات في أصول العلماء والسادات ٤ أجزاء في مجلد واحد. الطبعة الأولى ١٣٠٧هـ/ والثانية على الحجر ١٣٤٧هـ/٥٣٢.
ـ العباس بن علي الموسوي: نزهة الجليس، ومنية الأديب الأنيس. مجلدان مصر ١٢٩٣هـ/ جـ١/٢٤٩.
ـ الأعلام جـ٦/٢٣٤ـ٢٣٥.
ـ دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية الطبعة الثانية جـ١/٤٤٧ـ٤٤٨.

(٢) يقصد «علي بن أبي طالب» ابن عم الرسول محمد (ص)، والصحابي الجليل، ورابع الخلفاء =

ووجود هذا الخط على هذا السن، ربما يؤيد كلامه، طاب ثراه. فإن السنَّ مما لا تحلُّه الحياة انتهى. ومن المقربين إليه من الحذاق، الحكيم شفائي[1]. وكان حكيمه وطبيبه ونديمه الخاص. وكان شاعراً مطبوعاً، مليح التخيل. وكان عند الشاه في المكانة المكينة. ثم غضب عليه، فحمى ميلاً حديداً وكحله به، فأعماه، وأبعده عن مجلسه، وأحواله. وأموره غريبة جداً. ومما يحكى عنه في باب اللطائف والنكات مما يستظرف، وأبدعها، ما كان يقع له مع الرسول المرسل إليه من طرف سلطاننا السلطان مراد المسمى بانجيلي جاويش[2]. وكان طلق اللسان، حاضر الجواب، نهاية في اللطائف والأعاجيب. وكان الشاه يبتدره بمخترعٍ من الفعل أو القول، ويقصد بذلك الإزراء بجانب سلطاننا. فيجيبه عنه بأحسن جواب، يدفع به ذلك الإزراء، وربما قلب عيانه فأزرى بطرف الشاه. وكان الشاه يعجب من تيقظه، وينتقل معه انتقالات عجيبة، خارجة عن الإزراء. ومن جملتها، أنه جلس الشاه يوماً على حرف جبل في الصحراء، والجاويش المذكور عنده. فقال له الشاه: أتحبني؟ فقال له: نعم. فقال: إن كنت تحبني، فارم بنفسك من هذا الجبل إلى تحت. فقام ومشى مسافة بعيدة إلى ظهر الجبل، ثم رجع وهو يركض حد الركض، حتى انتهى إلى طرف الجبل، ثم وقف. فقال له الشاه: ما لك؟ فقال: محبتي لك انتهت إلى هذا المحل، وأراها لا تتجاوزه. وله من هذا القبيل أشياء أخر. وللشاه عباس في سياسة الرعية والرعاية لجانبهم، والذب عنهم، وإكرام التجار الواردين إلى بلاده من أهل السنة، أحوال مستفيضة شائعة. وبالجملة فلم يجيء من سلسلتهم مثله. وكانت وفاته

= الراشدين (٢٣ ق.هـ-٤٠هـ/ ٦٠٠-٦٦١م).
المصادر حوله لا تحصى. انظر الأعلام جـ٥/١٠٧-١٠٨.

(١) الحكيم شفائي :- طبيب الشاه عباس الأول. كان عالماً وأديباً انشأ مثنويات على نمط السنائي، والخاقاني، وكان مجدداً بالنسبة للأدب السائد. توفي ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م.
انظر: دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الثانية بالفرنسية. ج٤/ ٧٢ - ٧٣ مادة (Iran).

(٢) انجيلي جاويش: لم يعثر له على ترجمة.

في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وألف[1]، بدار ملكه، مدينة أصفهان[2] ودفن بأردبيل[3]، في تربة الشيخ صفي الدين[4]، وكان عمره ينيف عن السبعين.

---

(١) جمادى الأولى ١٠٣٨هـ/ كانون الأول ١٦٢٨ ـ كانون الثاني ١٦٢٩.

(٢) مدينة كبيرة في وسط بلاد فارس تقع على خط عرض ٤١,′٣٢″ شمالاً و٣٥,′٥١″ شرقاً. وهي أهم مدن العراق العجمي. وكانت في العهد العباسي حاضرة إقليم كبير، ومركزاً صناعياً وتجارياً، وتقع على نهر زندة. وقد اختارها (الشاه عباس الأول) لتكون حاضرة ملكه، وقد جمّلها، واكتظت بالسكان حتى قيل فيها المثل الفارسي «اصفهان نصف جهان» أي أنها نصف الدنيا. وقيل أنه كان فيها عند وفاة الشاه عباس: ١٦٢ مسجداً، و٤٨ مدرسة و١٨٠٢ خاناً، و٢٧٣ حماماً. وقد ضعف أمرها بعد نقل العاصمة إلى طهران في عهد القاجار.

ـ Camb. Hist I p.420

أنظر: ـ معجم البلدان جـ١/٢٠٦ـ٢١٠

ـ القرماني ٤٢٢

ـ المنجد في الأدب/ ٢٤.

ـ دائرة المعارف الإسلامية ج٢/ ٢٥٨ ـ ٢٦٣.

(٣) مدينة في أذربيجان، إلى غربي بحر قزوين، تقع على خط عرض ٣٨,′٢٨″ شمالاً وخط طول ٤٨,′١٨″ شرقاً. وترتفع عن سطح البحر ١٥٢٠م، وتحيطها الجبال من جميع الجهات. أعيد بناؤها بعد تهديم المغول لها، وازدهرت في عهد الصفويين، إذ أن سلالتهم انبثقت منها. وأهم آثار المدينة قبر «صفي الدين» جد الأسرة الصفوية المتوفى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وهو في الجامع الكبير، ومحل تقديس الشيعة في الماضي والحاضر. والمدينة تجارية، إلا أنها فقدت أهميتها منذ القرن التاسع عشر.

ـ دائرة المعارف الإسلامية ج١/ ٥٨٤ ـ ٥٨٧.

ـ معجم البلدان جـ١/١٤٥ـ١٤٦

ـ الروض المعطار/ ٢٦.

(٤) أنظر حول (صفي الدين) (مقدمة التراجم). ويعتبر قبره من أعجب آثار مدينة أردبيل، ويوجد في الجامع الكبير فيها. وقد أصبح في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين محجاً للشيعة، وقد أصيب بتلف نتيجة نهب الروس للمدينة عام ١٨٢٧ ونتيجة الزلزال. ولكن لا تزال توجد منه بقايا من الخزف الصيني والفارسي الرائع.

انظر: بند (اردبيل) دائرة المعارف الإسلامية ج١/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦.

محمد بهاء الدين العاملي*

(محمد) بن حسين، بن عبد الصمد، الملقب بهاء الدين، بن عز الدين، الحارثي العاملي[1] الهمداني[2] صاحب التصانيف، والتحقيقات، وهو أحق من كل حقيق بذكر أخباره، ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله، وبدائعه. وكان أمة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلع بدقائق الفنون وما أظنّ الزمان سمح بمثله ولا جاد بندِّه وبالجملة فلم تتشنف الأسماع، بأعجب من أخباره. وقد ذكره الشهاب[3] في كتابيه[4] وبالغ في الثناء عليه. وذكره السيد علي بن معصوم[5] وقال ولد ببعلبك عند غروب شمس يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقين

(*) أنظر ترجمته في ـ أحمد الخفاجي. ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا جزءان تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٧م. جـ ١/٢٠٧ ـ ٢١٤.
ـ روضات الجنات/ ٥٣٢.
ـ الأعلام جـ ٦/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
ـ الهامش رقم (١) من الصفحة (٤٩٥) من هذا الكتاب.

حياته: (ثلاث عشرة بقين من ذي الحجة ٩٥٣هـ ـ ١٢ شوال ١٠٣١هـ/٧ شباط ١٥٤٧ ـ ٢٠ آب ١٦٢١م).

(١) نسبة إلى «جبل عامل»، وهو جبل في جنوبي لبنان وشمالي فلسطين وينتسب سكانه إلى «بني عاملة» من عرب الجنوب، وكانوا قد أقاموا في الحيرة، وعملوا تحت لواء زنوبية ملكة تدمر. المنجد في الأدب/ ٣٣١.

(٢) نسبة إلى «همدان» القبيلة العربية اليمنية التي كانت تقيم شمالي صنعاء وغربي مأرب ونجران وشرقي ساحل أبي العريش المنجد/ ٥٥٣.

(٣) أي «أحمد الشهاب الخفاجي». أنظر ترجمته في الهامش (٢) من الصفحة (٢٠) من مقدمة الكتاب.

(٤) المقصود بالكتابين: كتاب «ريحانة الألبا»، و«خبايا الزوايا». والأول محقق من قبل الدكتور عبد الفتاح الحلو ومطبوع في جزئين. القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧ والثاني لا يزال مخطوطاً.

(٥) أنظر ترجمته في الهامش (٧) من الصفحة (٣١٠) من هذا الكتاب.

من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة[1] وانتقل به أبوه إلى بلاد العجم، وأخذ عن والده وغيره من الجهابذة كالعلامة عبد الله اليزدي[2] حتى أذعن له كل مناظر ومنابذ. فلما اشتدّ كاهله، وصفت له من العلم مناهله، ولّي بها مشيخة الإسلام. ثم رغب في الفقر[3] والسياحة، واستهب من مهاب التوفيق رياحه، فترك المناصب ومال لما هو لحاله مناسب، فحج بيت الله الحرام، وزار النبي عليه الصلاة والسلام. ثم أخذ في السياحة فساح ثلاثين سنة، واجتمع في أثناء ذلك بكثير من أهل الفضل، ثم عاد، وقطن بأرض العجم. وهناك همى غيث فضله، وانسجم، فألّف وصنّف وقرّط المسامع، وشنف، وقصدته علماء تلك الأمصار، واتفقت على فضله أسماعهم، والأبصار. وغالت تلك الدولة في قيمته، واستمطرت غيث الفضل من ديمته، فوضعته على مفرقها تاجاً، وأطلعته في مشرقها سراجاً وهاجاً، وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس[4] واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس، فكان لا يفارقه سفراً وحضراً، ولا يعدل عنه سماعاً ونظراً، إلى أخلاق لو مزج بها البحر لعذب طعمًا وآراء لو كحلت بها الجفون لَم يلْفَ أعمى، وشِيمَ هي في المكارم غـرر وأوضاح، وكرم باق، جودُه لشائمه[5] لامع وضاح، تتفجر ينابيع السماح من نواله، ويضحك ربيع الأفضال من بكاء عيون آماله. وكانت له دار مشيدة البناء، رحبة الفناء، يلجأ إليها الأيتام

---

(١) الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة ٩٥٣هـ/ الأربعاء في ٧ شباط ١٥٤٧م

(٢) عبد الله اليزدي: من كبار علماء العجم، ولا سيما في العلوم اللغوية والمنطق، والفقه الشيعي. أصله من «يزد»، وعاش في أصفهان، وتوفي ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م.
له عدة مؤلفات.
أنظر: ـ خلاصة الأثر جـ٣/ ٤٠
ـ روضات الجنات/ ٣٦٣.
ـ الأعلام جـ٤/ ٢٠٩ ـ وBrock. S. 2/ 588

(٣) المقصود بالفقر هنا أي السير بطريق الدراويش المتصوفة.

(٤) أنظر عنه مقدمة هذه التراجم، والنص السابق لهذا النص الذي يترجم فيه «المحبي» لحياة (الشاه عباس).

(٥) شائمه: المتطلع نحوه ببصره. المنجد مادة (شام) ٤١٢.

والأرامل، ويفد عليها الراجي والآمل: فكم مهد بها وضع، وكم طفل بها رضع، وهو يقوم بنفقتهم بكرة وعشياً، ويوسعهم من جاهه جناناً مغشياً، مع تمسك من التقى بالعروة الوثقى، وإيثار الآخرة على الدنيا والآخرة خير وأبقى. ولم يزل أنِفاً من الإنحياز إلى السلطان، راغباً في الغربة عن الأوطان، يؤمل العود إلى السياحة ويرجو الإقلاع عن تلك الساحة، فلم يقدَّر له حتى وافاه حِمامُه، وترنم على أفنان الجنان حَمامه. وقد أطال أبو المعالي الطالوي[1] في الثناء عليه، وكذلك البديعي[2]. ونص عبارة الطالوي في حقِّه: ولد بقزوين فانظره مع قول ابن معصوم ببعلبك، وأخذ عن علماء تلك الدائرة، ثم خرج من بلده، وتنقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى أصفهان فوصل خبره إلى سلطانها شاه عباس، فطلبه لرئاسة علمائها فوليها. وعظم قدره وارتفع شأنه إلا أنه لم يكن على مذهب الشاه في زندقته لانتشار صيته في سداد دينه، إلا أنه غالى في حب آل البيت. وألف المؤلفات الجليلة، منها التفسير المسمى **بالعروة الوثقى والصراط المستقيم**، والتفسير المسمى **بعين الحياة**، والتفسير المسمى **بالحبل المتين في مزايا الفرقان المبين، ومشرق الشمسين، وشرح الأربعين، والجامع العباسي** فارسي، **ومفتاح الفلاح، والزبدة في الأصول، والتهذيب في النحو، والملخص في الهيئة، والرسالة الهلالية، والاثني عشريات الخمس، وخلاصة الحساب، والمخلاة، وتشريح الأفلاك، والرسالة الاسطرلابية، وحواشي الكشاف، وحواشي البيضاوي، وحاشية على خلاصة الرجال، ودراية الحديث، والفوائد الصمدية في علم العربية، وحاشية الفقيه**، وغير ذلك من الرسائل المختصرة، والفوائد المحررة. وأمّا أشعاره فسأورد لك منها ما يعظم عندك موقعه، وتقف أمانيك عنده ولا تتجاوزه. قال: ثم خرج سائحاً فجاب البلاد، ودخل مصر، وألف بها كتاباً سماه **الكشكول** جمع فيه كل نادرة من

---

(١) هو درويش محمد بن أحمد الطالوي. والده رومي الأصل، وأمه من سكان دمشق. شاعر فذ، وعالم فاضل (٩٥٠-١٠١٤هـ/ ١٥٤٣-١٦٠٦م) درّس في عدة مدارس في استامبول ودمشق، وعمل قسّاماً. له ديوان شعر مشهور هو «سانحات دمى القصر».
أنظر: - خلاصة الأثر جـ٢/١٤٩-١٥٥.

(٢) انظر الحاشية (٦) من الصفحة (٣٠٨).

علوم شتى. (قلت) وقد رأيته، وطالعته مرتين، مرة بالروم، ومرة بمكة ونقلت منه أشياء غريبة. وكان يجتمع مدّة إقامته بمصر بالأستاذ محمد بن أبي الحسن البكري[1] وكان الأستاذ يبالغ في تعظيمه فقال له مرة يا مولانا أنا درويش فقير كيف تعظمني هذا التعظيم؟ قال شممت منك رائحة الفضل. وامتدح الأستاذ بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

يا مصر سقياً لك من جنَّةٍ	قطوفُها يانعةٌ دانيَهْ
ترابهُا كالتِّبْر في لُطْفِهِ	وماؤها كالفضَّة الصافيَهْ
قد أخجل المسكَ نَسيمٌ لها	وزهرُها قد أرْخَص الغاليَهْ
دقيقة أصنافُ أوصافِها	وما لَها في حُسنها ثانيَهْ
منذ أنَخْتُ الركْبَ في أرْضِها	أُنسيتُ أصحابي وأحبابيهْ
فيا حماها اللّهُ من روضةٍ	بهجتُها كافيةٌ شافيهْ[2]
فيها شِفاءُ القلبِ أطْيارُها	بنغمةِ القانونِ كالداريهْ
ومنها مَنْ شاءَ أن يحيا سعيداً بها	منعَّماً في عيشةٍ راضيهْ
فلْيَدَعِ العلْم وأصحابَه	وليجعلِ الجهلَ له غاشيهْ
والطبَّ والمنطقَ في جانبٍ	والنحو والتفسير في زاويَهْ
ولْيتركِ الدرسَ وتدريسَه	والمتن والشرحَ مع الحاشيَهْ
إلامَ يا دهرُ وحتَّى متى	تَشْقى بأيامِك أياميَهْ

(1) محمد بن أبي الحسن البكري: هو محمد بن علي وعرف أيضاً بمحمد بن محمد البكري الصديقي، أبو المكارم شمس الدين. من علماء آل البكري المصريين المتصوفين (٩٣٠-٩٩٤هـ/ ١٥٢٤-١٥٨٦م). مولده ووفاته بالقاهرة. له عدة مؤلفات.

انظر:

- الكواكب السائرة جـ٣/٦٧-٧٢
- شذرات الذهب جـ٨/٤٣١
- النور السافر/ ٤١٤
- الخطط التوفيقية جـ٣/١٢٦
- الأعلام جـ٧/٢٨٩-٢٩٠.

(2) القصيدة من البحر السريع.

تحقـقُ الآمـالَ مَسْتَعطفاً وتوقـعُ النقصَ بآماليَهْ
وهـكذا تفعـلُ في كلٍّ ذي فضيلـة أو همَّـة عاليَهْ
فـإن تكنْ تحسبني منهمُ فهـي لَعُمْـري ظِنـةُ واهيَهْ
دعْ عَنْـكَ تعذيبـي وإلا فأشكوك إلى ذي الحضرة العاليهْ

ثم قدم القدس وحكى الرضي بن أبي اللطف المقدسي[1] قال: ورد علينا من مصر رجل من مهابته محترم، فنزل من بيت المقدس بفناء الحرم، عليه سيما الصلاح، وقد اتسم بلباس السياح. وقـد تجنب الناس، وأنس بِالوحشة دون الإيناس، وكان يألف من الحرم فناء المسجد الأقصى[2]، ولم يسند إليه أحد مدة الإقامة إليه نقصاً فألقي في روعي أنه من كبار العلماء الأعاظم، وأجلة أفاضل الأعاجم فما زلت لخاطره أتقرب، ولما لا يرضيـه أتجنب، فإذا هو ممن يرحل إليه للأخذ عنه، وتُشدّ له الرحال للرواية عنه، يسمى بهاء الدين محمد الَهمْداني الحارِثي، فسألته عند ذلك القراءة في بعض العلوم، فقال بشرط أن يكون ذلك مكتوماً. وقرأت عليه شيئاً من الهيئة، والهندسة، ثم سار إلى الشام قاصداً بلاد العجم، وقد خفي عني أمـره، واستعجم. (قلت) ولما ورد دمشق نزل بمحلة الخراب[3] عند بعض تجارها،

---

(١) محمد بن يوسف بن أبي اللطف الملقّب رضي الدين المقدسي الحنفي، من آل بيت أبي اللطف، وهم من كبراء بيت المقدس وعلمائها. كان شافعياً وتحول حنفياً، وعمل كـاتباً للقاضي فيها ونائباً. توفي ١٠٢٨هـ/١٦١٩م.
- أنظر - لطف السمر جـ١/١٦٤-١٧٢.
- خلاصة الأثر جـ٤/٢٧٢.
- الأعلام جـ٨/٣١.

(٢) المسجد الأقصى: هو ثالث الجوامع الهامة في الإسلام بعد حرمي مكة والمدينة. يقع في الطرف الشرقي الجنوبي من القدس. وفي هذا الحرم الكبير مسجد الصخرة الذي بناه عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/٦٩١م. وهو من الجوامع الرائعة العمران إذ بني على أعمدة من الرخام الملون، والفسيفساء. وهو يضاهي جامع دمشق. وعمل أكثر ملوك الإسلام، الذين توالوا على حكم بلاد الشام على ترميمه وإصلاحه، وآخرهم بنو عثمان.
أنظر: - معجم البلدان جـ٥/١٦٨-١٧٠ مادة (المقدس).
- خطط الشام جـ٥/٢٥٠-٢٥٧.

(٣) محلة الخراب: من محلات دمشق بين الأسوار، وإلى جنوبها، تقع بين «باب شرقي» إلى =

واجتمع به الحافظ الحسين الكربلائي القزويني أو التبريزي[1] نزيل دمشق صاحب الروضات الذي صنفه في مزارات تبريز فاستنشده شيئاً من شعره. وكثيراً ما سمعت أنه كان تطلب الإجتماع بالحسن البوريني[2] فأحضره له التاجر الذي كان عنده بدعوة وتأنق في الضيافة، ودعا غالب فضلاء محلتهم. فلما حضر البوريني إلى المجلس رأى فيه صاحب الترجمة بهيئة السياح، وهو في صدر المجلس، والجماعة محدقون به، وهم متأدبون غاية التأدب، فعجب البوريني، وكان لا يعرفه، ولم يسمع به، فلم يعبأ به، **ونَحَّاهُ** عن مجلسِه وجلس، غير ملتفت إليه وشرع على عادته في بث رقائقه[3] ومعارفه إلى أن صلّوا العشاء ثم جلسوا. فابتدر البهائي في نقل بعض المناسبات، وانجر الى الأبحاث، فأورد بحثاً في التفسير عويصاً، فتكلم عليه بعبارة سهلة فهمها الجماعة كلهم، ثم دقق في التعبير حتى لم يبق يفهم ما يقول إلا البوريني، ثم أغمض في العبارة، فبقي الجماعة كلهم، والبوريني معهم صموتاً جموداً لا يدرون ما يقول، غير أنهم يسمعون تراكيب واعتراضات، وأجوبة تأخذ بالألباب. فعندها نهض البوريني واقفاً على قدميه، وقال: إن كان ولا بدّ فأنت البهائي الحارثي إذ لا أجد في هذه المثابة[4] إلا ذاك. واعتنقا، وأخذا بعد ذلك في إيراد أنفس ما يحفظان. وسأل البهائي من البوريني كتمان أمره، وافترقا

= الشرق و«الشاغور الجواني» إلى الغرب، وتقوم على الطرف الجنوبي من سوق الطويل اليوم (الطريق المستقيم في الماضي)، وتتصل بحي اليهود، وباب شرقي، وكانت من مراكز الشيعة في المدينة.

(١) الحافظ الحسين الكربلائي القزويني أو التبريزي: عالم من علماء تبريز ومن حفاظ القرآن الكريم فيها. وفد إلى دمشق حاجاً عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، ثم عاد إليها ليسكنها مع أسرته. وكان صديقاً للحسن البوريني، وتعلم هذا الأخير منه اللغة الفارسية. وكان شاعراً بالفارسية، ويتقن التاريخ ولا سيما التاريخ الفارسي، توفي في دمشق سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٩م.
- تراجم الأعيان جـ٢/١٦٥-١٦٩.

(٢) الحسن البوريني: أنظر الحاشية (٤) من الصفحة (٢٠) من المقدمة.

(٣) رقائق جمع رقيقة، وهي في اصطلاح الصوفية كل وسيلة يتقرب بها العبد إلى الحق، من العلوم، والأعمال، والأخلاق السنية، والمقامات الرفيعة، ويطلق «علم الرقائق» على علوم الطريقة والسلوك. وبصورة عامة الرقيقة: هي اللطيفة الروحانية. التهانوي جـ١/٥٨٢.

(٤) المثابة: مجمع الناس. المنجد/ ٧٥ مادة (ثاب).

تلك الليلة. ثم لم يُقِم البهائي فأقلع إلى حلب. وذكر الشيخ أبو الوفا العُرْضي[1] في ترجمته، قال: قدم حلب مستخفياً في زمن السلطان مراد بن سليم، مغيِّراً صورته بصورة رجل درويش، فحضر دروس الوالد يعني الشيخ عمر[2] وهو لا يظهر أنه طالب علم، حتى فرغ من الدرس فسأله عن أدلة تفضيل الصدِّيق[3] على المرتضى[4]، فذكر حديث [ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر][5] وأحاديث مثل ذلك كثيرة فرد عليه، ثم أخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضي تفضيل المرتضى. فشتمه الوالد،

---

(١) أبو الوفا بن عمر العرضي الشافعي الحلبي. مفتي الشافعية بحلب (٩٩٣-١٠٧١هـ/ ١٥٨٥-١٥٦٠م). كان أحد أعيان العلماء في تلك المدينة وابن فقيهها. وقد أرخ لمدينة حلب وأعيانها في كتاب سماه «معادن الذهب في الأعيان المشرّفة بهم حلب». وكان أديباً شاعراً، وله مصنفات.

انظر: خلاصة الأثر جـ١/١٤٨-١٥٢.

- الطباخ: إعلام النبلاء جـ٦/٣٠٨.

- الأعلام: جـ٧/٢٠٨. وقد أسماه «محمد بن عمر» بينما محمد هو أخوه. وقد وردت ترجمة محمد في خلاصة الأثر جـ٤/٨٩-١٠٣، توفي في نفس العام الذي توفي فيه أخوه.

(٢) هو عمر بن عبد الوهاب العرضي الحلبي الشافعي القادري (٩٥٠-١٠٢٤هـ/ ١٥٤٣-١٦١٥) والد أبي الوفاء. مفتي حلب وفقيهها في زمنه وشاعر من شعرائها. له بعض مؤلفات.

- أنظر - خلاصة الأثر جـ٣/٢١٥-٢١٨

- إعلام النبلاء جـ٦/٢٠٠

- الأعلام جـ٥/٢١٣-٢١٤.

(٣) هو أبو بكر الصديق.

(٤) هو علي بن أبي طالب.

(٥) الحديث: [ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر].

ورد هذا الحديث بعدة صيغ، ومنها: «أتمشي أمام من هو خير منك؟ ألم تعلم أن الشمس لم تشرق على أحد، أو تغيب، خير من أبي بكر إلا النبيين والمرسلين» والأقرب صيغة إلى ما أتى في النص هو «يا أبا الدرداء، أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة؟ ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر».

أنظر: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (المتوفى ٩٧٥هـ/١٥٦٧م) كنز العمال. ١١ جزءاً. بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. (وقد صحح ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوة السقا، وضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حباني جـ١١/٥٥٦-٥٥٧ (رقم الحديث ٣٢٦٢١-٣٢٦٢٣).

وقال له رافضي شيعي، وسبَّه فسكت. ثم إن صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة ويجمع فيها بين الوالد وبينه. فاتخذ التاجـر وليمـة ودعاهما فأخبره أنّ هذا هو المنلا بهاء الدين، عالم بلاد العجم. فقال للوالد: شتمتونا فقال له: ما علمت أنك المنلا بهاء الدين، ولكنِ إيراد مثل هذا الكلام بحضور العوام لا يليق. ثم قال أنا سنّي أحب الصحابة، ولكن كيف أفعل؟ سلطاننا شيعي، ويقتل العالم السني. قال وكان كتب قطعة على التفسير باسم شاه عباس، فلما دخل بلاد السنة قطع الديباجة وبدلها وذكر أنه كتب ذلك باسم السلطان مراد. ولما سمع بقدومه أهل جبل بني عامل، تواردوا عليه أفواجاً أفواجاً، فخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب انتهى. وسياق كلام العُرضي يقتضى أنّ دخوله إلى حلب كان في قدمته من العجم قاصداً الحج والله أعلم. وأملى لبعض الأدباء بالشام لَغْزه الذي جعله لامتحـان أفكار الأذكياء من فحول العلماء، وهذا يدل على تبحره في العلوم، وقد أوردته برمته في كتابي هذا نظرية وتنشيطاً لمن يعرف مزية الكلام. وهـو: «يا أصحـاب الفطنة القويمة، والفطرة المستقيمة، والطبيعة الألمعية والروية اللوذعية، أخبروني عن كتاب بعضه من الحروف النورانية[1]، وأكثره من حروف الزيادة[2]، وبأحد نصفيه يكمل الرجل، وبالنصف الآخر تتم الشهادة. ثانيه قابل لأنواع النقط، وأوله لا يقبل إلا واحدة فقط. تالي أوّله معروف، ومتلو ثانيه بالاستحداب موصوف. مضعَّفُه لوسـطيه كمـال شعوري، ومضعَّفُ آخـره لثالثـه كمال ظهوري. التحسين من مقارنة طرفيه معلوم، والتجـرب من مقايسـة ذلك

---

(١) الحروف النورانية هي حروف فواتح سور القرآن الكريم ومجموعها: «صراط علي حق نمسكه» وباقي الحروف (ظلمانية).
أنظر: التهانوي جـ١/ ٣٢٠ مادة (حرف).

(٢) حروف الزوائد عشرة وهي الهمزة، والألف، والواو، والميم، والنون، والسين، والياء، والتاء والـلام، والهاء، ويجمعها قول «اليوم تنساه» أو «هويت السمان».
ـ لسان العرب جـ٣/ ٢٠٠ مادة (زود).
ـ التهانوي جـ١/ ٣٢٤.

مفهوم. ثاني كل حرف منه بهيولانية الحروف مشهور، وهو فيما بينها بالقطبية مذكور. إن أعطى أوّله حليته لثانيه تساويا في العدّ، وإن انعكست القضية زاد التفاضل بينهما عن الحد. ثالثه أسم فاعل، ورابعه من أسماء الأفعال، وكلاهما أسماء العدد الموصوف بالكمال. إن ضربت أعظم وسطيه في مجموعهما، حصل عدد جمع الأفلاك المحدبة بمحدَّد الجهات. وإن نقصت من ربعه الرابع عقيمَ ضروب الشكل الثالث، بقي عدد القضايا الموجهات. أحد نصفيه فرد، يعادل عدد الأعراض، والنصف الآخر زوج يعادل العقول، وهذا مما لا ريب فيه، وإن كان بحسب الظاهر غير معقول. كلٌّ يساوي انحطاط الشمس من الأفق في آخر غروب الشفق، وأوّل الصبح الكذوب، ومضروب صدره في ضعف عجزه يعادل عَرَضاً يتحقق فيه معكوس الطلوع والغروب. إن أضفت ثانيه إلى مضعَّف ثالثه ساوى الحروف المهموسة[1]، وإن طرحت منه مكعب ثانيه عادل المنازل المنحوسة. حرفان منه متقاربان يعادلان طبقات العين، وحرفان متعانقان يساويان أركان حساب الخطأين. مكرّر نصفه في ضروب الموسيقى معدود، فإن قلبته فهو طائر معهود. وإن زدت على مربع أوّله مهملَه إلا نصف ثانيه، عادل عظام بدن الإنسان، وإن نقصت من مكعب ثالثه مضعَّف أوّله بقي دية كل من مقاديم الأسنان. مضعف أوّله بعدد أنواع الخيار، ومكعب آخره كعدد التكبيرات في فرائض الليل والنهار. مضروبه في طرفه يساوي فريضة أب وثلاث بنات، ومضروب وسطيه في ثانيهما كفريضة الأخوة العشرة، والثمانية مع ست زوجات. إن أضفت آخره إلى أوّله ساوى أحوال المسند إليه، وإن جمعت ثانيه مع ثالثه عادلَ مَنْ يُحَجُّ في الشرع عليه. وإن ضعَّفت رابعه ساوى كلم المجازات، وإن زدت على مربع ثالثه نصفه، عادل علاقات المجازات. وإن نقصت من مربع أوّله خمس آخره بقي

---

(١) هي (س، ش، ح، خ، ث، ت، ص، ف، هـ، ك،) والأحرف المتبقية هي المجهورة وهي (ض، ز، ع، غ، ب، ق، ج، ط، د).
أنظر التهانوي جـ١/٣٢١.

عدد صور الكواكب المرصودة، وإن زدت ثانيه على طرفه حصل المشهور من العروق المفصوده. مجموع آخريه يساوي عدد مقادير النبضات، وثلث أوّليه يعدل الأجناس العالية للحميات. وإن ضممت إلى طرفيه مربع بعضه ساوى بعض الأعداد التامة، وإن زدت عليها وسطه عادل ألوف القوائم، كما اشتهر على ألسنة العامة. شكله شكل العقلة بين الأشكال الرملية، وإن نصفت ثالثه لم تكذب القضية. إن زدت على مضعَّف آخره مسطَّح طرفيه ساوى رقم المربع الميمون، وعادل ارتفاعاً يساوي فيه الظل للشاخص أينما يكون. مهمل أوّله رمزٌ إلى ما يوجب للثلج الاشتعال، ومعجمه إلى ما هو في زراعة الذهب كثير الاستعمال. إن نقصت من آخره نصف ثانيه ساوى الباقي أنواع الترجيح، وعادل عدد المخصصات الموصولات. وفي كل من نصفيه، إيماء إلى برهان الزوج والفرد، على امتناع تسلسل العلل والمعلولات. إن نقصت من سطح طرفيه ثاني مبانيه، ساوى عرض بلد يساوي غاية ارتفاع أوّل الجدي فيه. بعض حروفه يشير شكله إلى البرهان السلمي على تناهي الأبعاد، فإن جعلت زاويته قائمة دل على ما فوق المراد، وإن وضعت خروج ضلعها العالي إلى غير النهاية، ومن طرف السافل آخر مثله مقاطعاً له متحركاً عليه، تم الدليل على ذلك المطلب بطريق لم يسبقنا أحد إليه. وإن جعلتها ثلثي قائمة أشارت إلى البرهان الترسي على ذلك المرام، وإن انطبقت على مركز العالم دلت على أن التباعد بين الرؤوس أزيد من التباعد بين الأقدام، وإن أممْتها وجعلت كلاً من ضلعها عدداً فرداً، أومت إلى الاستدلال على نفي الجزء بشكل العروس، وإمكان إثبات ذلك بالبرهان السلمي الغير مأنوس، وإن زاد كل منهما على غاية الانفراج وتفارقت أجزاؤهما بالاتصال، أمكن أيضاً إثبات ذلك بدليل خطر لنا بالبال. وإن جعلتها قائمة حصلت الإشارة إلى بعض براهين استعلام المرتفعات، وإن أومأت ما تريد معرفَة بُعده عنك منتهياً مبْلغُها الأعلى إلى بصرك، حصل الإيماء إلى طريق معرفة عروض الأنهار وسائر الأبعاد المتعسرات. وإن أوترها نصف قطر الأرض، وبينها وبين مركز الشمس

تماس، ظهر عليك أن بعد الشمس عنا وهي عليه أزيد بكثير منه حال كونها على سمت الرأس، ولاح لديك أن تراكم البحار هوالموجب للإحساس بما لا يقتضيه القياس. وإن وصلت بين ضلعها بخط مواز لآخر مماسٍ لهما مخرجٍ من الجهتين، أمكن إقامة أدلة عديدة على مساواة زوايا مثلث لقائمتين. وفيه حروف على صورة شكل إن أخرجت قطريه أشار إلى نفي الجزء الذي لا يتجزى بوجه سنح لنا وهو لزوم مفسدتين، أعني تلاقي القطرين، قبل المرور بالمركز وعلى نقطتين. إن ألصقت وتريه بقطره أشار إلى نفيه أيضاً بوجه ما وجد أعظم منه قط، وهو لزوم جواز كون قطر الفلك الأعلى ثلاثة أجزاء فقط، وإن ماس محيطه وسط ثاني حروفه أشعر بدليل المتكلمين على إثبات الجزء كما هو مشهور، وأومأ إلى شبه الظفر من لزوم انفراج الحادة قبل قيامها، كما هو على الألسنة مذكور. وإن وازاه أعظم منه، وتحرك حتى ماسَّه تبين لك غلط صاحب المواقف(1) في قدر غلط المتممات، وتعجبت من موافقة المحقق الدواني(2) له في أمثال هذه التوهمات. وإن تحرّك الداخل ضعف الخارج، حصلت الإشارة إلى أصل الكبيرة والصغيرة الذي اخترعه سلطان المحققين، ولم يسبقه إليه أحد من المتقدمين والمتأخرين. وإن ساويت بين وتري قوسين

(1) صاحب المواقف: هو عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي. متكلم وفيلسوف، وعالم بالاصول والعربية من أهل «إيج» بفارس، له عدة مؤلفات، ومن أهمها «المواقف في علم الكلام» و«العقائد العضدية». توفي ٧٥٦هـ/١٣٥٥م.
انظر: الدرر الكامنة جـ٢/٣٢٢
- دائرة المعارف الإسلامية ج٣/١٨٧.
- الأعلام جـ٤/٦٦.

(2) الدّواني: هو محمد بن أسعد الصديقي الدّواني جلال الدين (٨٣٠-٩١٨هـ/ ١٤٢٧-١٥١٢). ولد في دوّان من بلاد فارس وسكن شيراز، وكان قاضياً. يعد من الفلاسفة. له عدة مؤلفات منها: «أنموذج العلوم»، و«شرح العقائد العضدية» وغيرها.
انظر:
- البدر الطالع جـ٢/١٣٠.
- شذرات الذهب جـ٨/١٦٠.
- دائرة المعارف الإسلامية جـ٩/٣٠٧
- الأعلام جـ٦/٢٥٧.

منهما ظهر لك أن سهم قوس الخارج أقصر، وأن الطاس تسع من الماء في أعلا المنارة أقل، وفي أسفلها أكثر. وفيه حرف إن فرضت خروج ذيله إلى غير النهاية، أشار إلى برهان امتناع اللاتناهي في جهة أو جهتين. وإن أقمت على طرفه عموداً ووصلت بينهما أشار إلى طريق وزن الأرض بذي العمودين. وفيه حرف إن فَصَلْتَ بين عمود المخرجين بخط مخرج إلى ألف فرسخ فما زاد، حصل لك الإذعان، بأن مساحة ظفرك أزيد بكثير من مثلث قاعدتهُ بسمرقند، ورأسه ببغداد. ولنقتصر على هذا المقدار من الإطناب في ذكر أوصاف ذلك الكتاب والعاقل تكفيه الإشارة، والجاهل لا ينتفع بألف عبارة».

وكتب إليه والده حسين هذا اللغز القريب فأجابه عنه، ورأيت السيد محمد كبريت المدني[1]، قد بين السؤال والجواب في بعض تعاليقه فذكرت الجميع ولعل بما بيَّن السيد أن يحتال على اللغز المذكور آنفاً والسؤال هو هذا* أيها الولد المؤيد بالإكرام والإعزاز الموفق في حل المعميَّات والألغاز أخبرني عن أسم آخر أوله آخر الحروف، وآخر ثانيه بهذا الوصف معروف. قلبا آخريه يتوافقان، وقلبا أوّليه متعانقان. لولا ثالثه لصار الأسم حرفاً، ولولا ثانيه لصار الفعل ظرفاً، ولولا رأسه لصارت الرجل من النجاسات، ولولا رابعه لم يتحقق رابع القياسات. بعضه قاتل، وبعضه الآخر نصف قاتل، طرفا أوّله فعل أمر بطرفين، وطرف ثانية ما نهيت عن قوله للأبوين. وإن نقص ربعه من ربعه بقي ربعه، وإن زيد ربعه على ربعه حصل ربعه. صدره علامة قلب العاشق، وثانيه علامة الرقيب المنافق، لولا ربعه لم تتميز القبلية عن القابلية، ولم تفترق المعاني عن علة الفاعلية. بعضه يمين، والبعض في اليسار كمين، وبطرف آخره

---

(١) انظر حوله ص ٣١٦ من هذه الدراسة. وهو محمد بن عبد الله بن محمد الحمزي الحسيني. أديب مولده ووفاته بالمدينة (١٠١٢-١٠٧٠هـ/ ١٦٠٣-١٦٦٠م). له عدة مؤلفات منها «رحلة الشتاء والصيف» وهي التي قام بها إلى بلاد الروم، و«نصر من الله وفتح قريب»، و«الزنبيل» وفيه اختصر «الكشكول» للعاملي أي للمترجم له هنا.
أنظر: خلاصة الأثر جـ٤/٢٨-٣١.
- الأعلام جـ٧/١١٨.

يبتدىء المقام، وبطرفه الآخر ينتهي الكلام. فأجابه بقوله: «يا سيدي، وأبي وأستاذي، ومن إليه في العلوم استنادي: هذا اسم رباعي الأعضاء ثلاثي الأجزاء أثنا عشري الأصول، عديم الحرف المفصول، من الأسماء معدود، وإلى الأفعال مردود. لولا ثلث أوّله لصار السخيف بالكرم موصوفاً، ولكان كل فقير بسواد الوجه معروفاً. ولولا رابعه لاتحدت الماهية بالوجود، ولم يتميز الحاسد من المحسود. لو عدم ثانيه لم يكن جمع الثمر ثماراً، ولصارت قرية بالري[1] حماراً، ولو عدم ربعه لم يكن القلب في الجسد، وتبدلت السكينة بالغلّ والحسد، ولصارت الهرة بعض الأزهار، ولم تتميز الحنطة عن بعض الثمار. أوّله بالعراق، وآخره بالشام، وبثلثي ربعه يتم الإيمان والإسلام. وبثلث ثالثه يبتدي السؤال، وبثاني ثانيه ينتهي القيل والقال **(شرح ألفاظ السؤال)** (قوله) آخر أوله الخ: أوّل الاسم قاف، وآخره بالنظر إلى بسطه مسمى الفاء، وهو آخر حروف، كما ترى. وآخر ثانية، وهو الألف كذلك الفاء، وهو موصوف بهذا الوصف لأنه هو هو. (قوله) قلبا آخريه، وهما السين والميم، يتوافقان، لأن حقيقتهما الياء، وقلبا أوّليه، وهما الألف واللام، من قاف وألف حرفان متعانقان. لولا ثالثه وهو مسمى السين لصار الاسم حرف عطف، وهو أم أي بعد حذف السين من الاسم، ولولا ثانيه وهو الألف لصار الفعل ظرفاً، ولولا رأسه وهو القاف ولولا رابعه وهو الميم لم يتحقق القياس التمثيلي وهو رابع القياسات. بعضه قاتل، وهو سم، وبعضه وهو، قا، نصف قاتل. طرفا أوله وهما القاف والفاء أمر بحرفين، وطرفا ثانيه الذي هو ألف، أف (قوله) وإن نقص ربعه الذي هو السين، من ربعه الذي هو القاف بقي ربعه وهو الميم،

---

(١) مدينة في إيران، تقع في منطقة الجبال جنوبي بحر قزوين، وهي «راغا» القديمة. وقد جدد بناءها محمد المهدي العباسي، وأطلق عليها اسم المحمدية في منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد. وكان لها دورها في مختلف العصور الإسلامية، الاقتصادي، والسياسي والثقافي.

انظر: ـ دائرة المعارف الإسلامية ج١٠/ ٢٨٥ ـ ٢٩٢.

ـ الروض المعطار/ ٢٧٨-٢٧٩

ـ معجم البلدان جـ٣/١١٦-١٢٢.

لأن الباقي بعد طرح ستين من مائة أربعون، وإن زيد ربعه عكس القضية (قوله) صدره علامة قلب العاشق، أي ثاني حروفه وهو ألف والمراد منه جوهر لفظه وهو فعل من الألفة ولم يزل قلب العاشق يألف المعشوق، وكذا الرقيب المنافق. (قوله) لولا رابعه الذي هو الألف، لم تتميز القبلية عن القابلية لأن به الفرق بين هذين اللفظين، ومثله الفعلية والفاعلية (قوله) بعضه يمين يعني الميم، لأنه يقال م الله في أيمن الله، أو المراد ما عدا القاف وهو اسم، وبعضه وهو السين في لفظ اليسار كامن (قوله) وبطرف آخره الأوّل أو الآخر يبتدي المقام بل ويختم، وبطرف آخره كذلك ينتهي الكلام، لأن الميم نهاية لفظ الكلام.

شرح ألفاظ الجواب: (قوله) رباعي الأعضاء أي حروف **قاسم** أربعة. ثلاثي الأجزاء أي جملته تنقسم ثلاثة من غير عكس، اثنا عشري الأصول لأن كل حرف يشتمل على ثلاثة حروف (قوله) عديم الحرف المفصول لأنه مركب من حرفين فحرفين. وهو معدود من الأسماء لأنه اسم وضع لمسمى بعينه، ومردود إلى الأفعال باعتبار أنه مشتق من القسم. (قوله) لولا ثلث أوّله الذي هو القاف والمراد الفاء، لصار لفظ السخيف بعد حذف الفاء سخياً والسخي موصوف بالكرم. (قوله) وإذا حذف الفاء من لفظ فقير بقي قير وهو أسود الظاهر والباطن (قوله) ولولا رابعه الذي هو الميم لاتحدت الماهية بالوجود لان وجود الشيء هيئته، فكأنه قال لاتحدت الهيئة بالماهية، وفيه تسامح، لأن المراد من الميم مسمّاها، وهو مفرد، فكيف يطلق على المركب من الميم والألف. ويمكن أن يقال تعدد المراد في هذا الباب كثير وهو أدخل في الألغاز (قوله) ولم يتميز الحاسد من المحسود كالأوّل لأنه لا فرق بين الحسود والحاسد في أصل المعنى. (قوله) لو عدم ثانيه الذي هو الألف من لفظ الثمار، بقي ثمر فلم يبق الجمع. (قوله) قرية بالري وهي خار[1]، وإذا لم تكن الألف فيه بقي خر، وهو بالفارسية اسم للحمار. (قوله) ولو عدم ربعه الذي هو السين، لم يكن ذلك

---

(١) خار: موضع بالري ينسب إليها بعض المحدثين.
أنظر معجم البلدان جـ٢/٣٣٦.

الربع قلب الجسد لسقوطه، وتبدلت السكينة فصارت كينه من قوله تعالى﴿فما استكانوا﴾[1] وفي الصحاح[2]: وبات فلان بكينة سوء بالكسر، أي بحالة سوء والإستكانة الخضوع (وقوله) الهرَّة المراد به سنور بعمل الترادف، وإذا لم تكن فيه السين كان نَوْراً (قوله) الحنطة المراد منه سُلْت[3] على التسامح (قوله) أوّله بالعراق يعني القاف في لفظ العراق وآخره وهو الميم في لفظة الشام (قوله) وثلثا ربعه وهما السين والنون من بسط الربع الذي هو السين يتم به الإيمان لأنه تم بالنون والإسلام لأن تمامه بالسين ولا يلزم أن يكون آخراً (قوله) وثلث ثالثه، الذي هو السين وهو المراد من بسطه، يبتدي السؤال حقيقة كما ترى. وبثاني ثانيه وهو اللام من ألف، ينتهي القيل والقال. انتهى. وأشعار البهائي كثيرة وأشهرما له قصيدته الكافية التي سارت مسير المثل ومطلعها.

يا نَديمي بُمهْجتي أفْديكْ ... قُمْ وهاتِ الكؤوس من هاتيكْ

خَمْرَة إن ضَلَلْتَ ساحتَها ... فسنانور كأْسِها يهديكْ

يا كَليمَ الفؤادِ داوِ بها ... قلْبَكَ الُمبتلى لكي تشفيكْ

هي نارُ الكليمِ فاجْتلِها ... واخلع النعلَ واتركِ التشكيكْ

صاحِ ناهيك بالمدام فدُمْ ... في احتِساها مخالفاً ناهيكْ

من جملتها

لستُ أنساهُ سَحَرا ... وحدَه وحدَه بغَيْرِ شَريكْ

طَرَقَ الباب خائفاً وجِلاً ... قلتُ من؟ قال كلُّ ما يُرضيكْ

---

(١) إن الآية هي ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾
وهي الآية (٧٧) من سورة (المؤمنون)، وهي الثالثة والعشرون من سور القرآن. وقد علّق محقق «خلاصة الأثر» في الهامش على كلمة «كينة» بأنها كلمة فارسية معناها الغلّ والحقد. وأتبع ذلك بقوله «لا يلتفت إلى ما قاله الشارح».

(٢) أي معجم (الصحاح) لإسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م. وهو لغوي، ومن أول من حاول الطيران.
ـ الأعلام جـ١/ ٣٠٩ـ٣١٠.

(٣) السلْت هو الشعير المنجد في اللغة/ ٣٤٣.

قلتُ صرِّحْ فقالَ تجهلُ مَنْ ... سَيْفُ ألحاظِه تحكَّم فِيكْ
قالَ خُذْها قد ظفِرْتَ بها ... قلتُ زدني فقال: لا وأبيكْ
ثُمَّ وسَّدته اليمينَ إلى ... أن دنا الصبحُ قال لي يَكفيكْ
قلتُ مهلاً فقال قُمْ فلقد ... فاحَ نشرُ الصَبا وصاحَ الديكْ[1]

وقد عارض بها أبياتاً لوالده، وذلك هو المخترع لهذا الرويّ، وأبيات والده هي قوله:

فاحَ عَرْفُ الصَّبا وصاحَ الديكْ ... وانثنى البانُ يشتكي التحريكْ
قُمْ بنا نجْتلي مُشعشعةً ... تاه من وَجْدِهِ بها النسيكْ
لو رآها المجوسُ[2] عاكفةً ... وحَّدوها وجانبوا التشريكْ
إن تَسِرْ نَحْوَنا نُسرّ وإن ... مُتَّ في السَّيْر دونَنا نُحييكْ[3]

وكتب إلى والده وهو بهراة[4].

يا ساكني أرْضَ الهراةِ أما كفى ... هذا الفراقُ بلى وحقِّ المصطفى
عودوا عليَّ فرَبْعُ صبري قد عفا ... والجفنُ من بعدِ التباعدِ ما غفا[5]
وخيالكم في بالي ... والقلبُ في بلبالِ
إنْ أقْبَلتْ مِنْ نحوكم ريحُ الصَّبا ... قُلْنا لها أهلاً وسهلاً مَرْحَبا
وإليكُمُ قلبُ المتيم قد صَبا ... وفِراقُكم للروحِ منه قدْ سبا

---

(١) الأبيات من البحر الخفيف.

(٢) المجوس: هم فئة من الكهان الفرس، كان لهم دورهم الكبير في الديانة الفارسية القديمة ولا سيما في العهد الساساني، تلك الديانة المعتمدة على عبادة إلهين، وبصفة خاصة عبادة النار ثم عممت التسمية على كل من دان بعبادة النار. انظر المنجد في الأدب/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٣) الأبيات من البحر السالف الذكر نفسه.

(٤) هراة: مدينة في أفغانستان اليوم، ويصفها ياقوت الحموي بأنها من أمهات مدن خراسان وأجلها. ينسب بناؤها إلى الاسكندر المقدوني. وتقع على خط عرض ٣٤,٢٥ شمالاً و٦٢,١٢ شرقاً، وهي إلى الجنوب الغربي من بلخ.
أنظر ـ معجم البلدان جـ٥/٣٩٦ـ٣٩٧.
ـ الروض المعطار/ ٥٩٤ـ٥٩٥.
ـ المنجد/ ٥٥٠.

(٥) الأبيات من البحر الكامل ومجزوئه.

والـقلبُ لـيس بــخــالي   مـن حبِّ ذاتِ الـخــال
يـا حبَّذا ربْـعُ الحمى من مَرْبَعِ   فغـزالُـه شبُّ الغضـا في أضْلعي
لـم أنسَــه يـوم الفِــراقِ مــودِّعي   بمـدامـعَ تجـري وقلبٍ مـوجـعِ
والـصبُّ لـيس بــســالي   عـن ثـغــره الـسَّـلْســالِ

وكتب إليه:

بقـزوينَ جسمي وروحي ثَـوتْ   بــأرْض الـهــراةِ وسُكَّــانـهــا
فــهــذا تـغَــرَّبَ عــن أهْــلهِ   وتلك أقــامتْ بــأوطــانِهــا[(١)]

وسأله بعض أصحابه أن يعارض قصيدة رثى بها والده مطلعُها:

جـارتـا كيف تحسنين مــلامي   أيُـداوى كَلْمُ الحشا بكـلامِ[(٢)]

فقال:

خليَّانــي ولَوْعتــي وغَرامي   يا خليلــي واذْهبـا بسلامِ
قـدْ دعاني الهـوى فلبَّـاه قلبي   فـدَعـاني ولا تُـطيلا مــلامي
إنَّ مَنْ ذاقَ نشـوة الحبِّ يومـاً   لا يـبــالي بـكَـثْـرةِ الـلُّوّامِ
خـامَـرَتْ خَمـرةُ المحبَّـةِ قلْبي   وجَـرتْ في مفاصلي وعِـظامي
فـعلى الـعلم والوقــارِ صــلاةٌ   وعلى العقـلِ ألْفُ ألفِ سلامِ
هــل سبيل إلى وقـوفي بـوادي الجـزْع[(٣)] يـا صـاحبي أو إلمـامي
أيُّهـــا الســائــرُ الملحُّ إذا مــا   جئتَ نجداً[(٤)] فعُجْ بوادي الخَزَام[(٥)]

---

(١) الأبيات من البحر المتقارب.

(٢) القصيدة من البحر الخفيف.

(٣) وادي الجزع: هناك واديان بهذا الاسم أحدهما «جزع بني كوز» بنجد، وثانيهما «جزع بني حمّاز» باليمامة، والأرجح أن يكون المقصود هو الأول لانتقاله إلى «نجد» في البيت التالي.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٢/١٣٤

(٤) نجد: هي المنطقة المتوسطة الشمالية المرتفعة من شبه الجزيرة العربية. وهي تقع إلى شرقي الحجاز. وتمثل اليوم إقليماً في المملكة العربية السعودية، ومركزه الرياض
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٥/٢٦١-٢٦٤.
ـ الروض المعطار/ ٥٧٢

(٥) واد بنجد، نسب إلى الخزام، وهو نبت زهره طيب الرائحة، ويبخَّر به لازالة الرائحة النتنة.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٢/٣٦٧.

وتجاوزْ عن ذي المجاز[1] وعرِّجْ	عــادلاً عن يمين ذاك المقام
وإذا مـا بَلَغْتَ حُـزْوى[2] فبلِّغْ	جيـرة الحي يـا أخي ســلامي
وانْشُدَنْ قلبيَ المعنَّى لَـدَيْهم	فلقـد ضـاعَ بينَ تلك الخيـام
وإذا مـــا رثـوا لحـــالي فَسَلْهُمْ	أن يَمُنُّـــوا ولـو بــطيفٍ منـام
يا نُزولاً بذي الأراك[3] إلى كم	تنقضي فيَ فــراقِكم أعــوامي
ما سَرَتْ نسمةٌ ولا ناح في الدَوْ	حِ حمـامٌ إلا وحـانَ حِمــامي
أيْنَ أيــامُنــا بشـرقي نـجـدٍ	يــا رعـاهــا الإلــهُ من أيــام
حيث غصنُ الشبابِ غضٌ وروضُ الـ	ـعيش قد طَرَّزَتْــه أيدي الغمام
وزمـــانـي مـســاعــدٌ وأيــادي	اللّهْـوِ نحو المُنى تجـرُّ زِمامي
أيها المرتقي ذرى المجدِ فَرْداً	والمـرجى للفـادحـاتِ العـظام
ياحليفَ الندى الـذي جُمعتْ فيـ	ـه مزايـا تفـرقت في الأنـام
نلت في ذروة الفخـارِ محــلاً	عسرَ المُـرْتقى عـزيـزَ المـرام
نسبٌ طــاهــرٌ ومـجـدٌ أثيـلٌ	وفخـــارٌ عـالٍ وفضـــلٌ سامي
قَـدْ قَــرَنَّـا مقــالَكُمْ بمقــالٍ	وشَـفَعْنـا كــلامَكم بكَــلام
ونَظَمْنا لها مع الـدرِّ في سِمْـ	ـطٍ وقلنا العبيـرُ مثــلُ الـرُّغـام
لــم أكنْ مُقْدِمــاً علــى ذا ولكن	كانَ طَوْعــاً لأمــرِكمْ إقدامي
عَمْرَكَ الله يـا نــديمي أنْشِـدْ	جـارتـا كيْفَ تُحسنين مــلامي

---

(١) ذي المجاز موضع سوق في العصر الجاهلي، عند عرفة، وكانت تقوم لثمانية أيام وهو قريب من عكاظ. وكان ينعقد في بداية ذي الحجة.
أنظر ـ معجم البلدان جـ٥/٥٥
ـ الروض المعطار/ ٤١١ مادة (عكاظ) و٥٢٣ مادة (مجنّة).

(٢) حُزوى: موضع بنجد في ديار تميم.
ـ معجم البلدان جـ٢/٢٥٥.
ـ الروض المعطار/ ١٩٥.

(٣) ذو الأراك: وادٍ قرب مكة.
ـ معجم البلدان جـ١/١٥٣.
ـ مراصد الأطلاع ج١/٤٩.
ـ الفيروز ابادي: القاموس المحيط ٤ أجزاء مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م مادة (أرك).

وله يرثي والده وقد توفي بالمصلى[1] من قرى البحرين[2] لثمان خلون من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وثمانين وتسعمائة عن ست وستين سنة وشهرين وسبعة أيام ومولده أوّل يوم من محرّم سنة ثماني عشرة وتسعمائة[3].

قفْ بالطلول وسَلْها أيْن سَلْماها ... وروِّ مِنْ جَرْعِ الأجفانِ جَرْعاها

وردِّد الطَرْفَ في أطرافِ ساحتِها ... وأرِّج الوَصْلَ من أرواحِ أرْجاها

فإن يَفُتْكَ مِنَ الأطلالِ مُخبِرُها ... فلا يفوتنّك مرآها وريّاها

ربوعُ فَضْلٍ تباهي التِبْرَ تُرْبتُها ... ودارُ أُنْسٍ يُحاكي الدرَّ حَصْباها

عَدا على جيرةٍ حلّوا بساحتِها ... صَرْفُ الزمانِ فأبْلاهُمْ وأبْلاها

بُدورُ تمٍّ غمامُ الموتِ جلَّلَها ... شموسُ فضلٍ سَحابُ التُربِ غشّاها

فالمجدُ يبكي عليها جازعاً أسِفاً ... والدينُ يندبُها والفَضْلُ ينعاها

يا حبَّذا زمنٌ في ظِلِّهِمْ سَلَفَتْ ... ما كان أقْصَرَها عُمراً وأحلاها

أوقاتُ أنسٍ قضيناها فما ذُكِرتْ ... إلّا وقَطَّعَ قَلْبَ الصَبِّ ذِكراها

يا جيرةً هجروا واستوْطنوا هَجَرا[4] ... واهاً لقلبي المعنّى بَعْدكم واها

رعياً لليلاتِ وصلٍ بالحمى سَلَفَتْ ... سُقياً لأيامِنا بالَخْيفِ[5] سقياها

---

(1) لم يعثر على معلومات أوفى عنها، مما ورد في المتن.

(2) البحرين: ليس المقصود منها «جزر البحرين» في الخليج العربي كما هي معروفة اليوم، وإنما كانت «البحرين» هي المنطقة الممتدة شرقي شبه الجزيرة العربية، مطلة على الخليج العربي، وجوفها متصل باليمامة، وشمالها بالبصرة، وجنوبها بلاد عمان. وكانت قاعدتها «هجر»، وأهلها عبد القيس. ومن البحرين الأحساء والقطيف، والخط، والجزر.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ١/٣٤٦ـ٣٤٩.
ـ الروض المعطار/٨٢.
ـ دائرة المعارف الإسلامية ج٣/ ٣٩٤.

(3) الفاتح من محرم ٩١٨هـ ـ ٨ ربيع الأول ٩٨٤هـ/ ١٩ آذار ١٥١٢م ـ ٥ حزيران ١٥٧٦م.

(4) هَجَر: هي عاصمة البحرين السابقة. وهي مدينة فيها ومشهورة بالتمر.
أنظر ـ معجم البلدان جـ٥/٣٩٣ـ
ـ الروض المعطار/ ٥٩٢.

(5) الخَيْف: الوادي. وهناك خيف بني كنانة وهو المُحصَّب بطحاء مكة. كما هناك خيف بني كنانة في «منى» وخَيف سلّام بقرب عُسفان على طريق المدينة.
أنظر: معجم البلدان جـ٢/٤١٢.

لِفقدِكُمْ شُقَّ جَيْبُ المجدِ وانصدعتْ أركـانُه وبِكُم مـا كـان أقْـواهـا
وخرَّ مِنْ شامخاتِ العِلْمِ أرفعُها وانهدَّ من باذخاتِ العلم أرْساها
يا ثاوياً بالمُصلَّى مِنْ قرى هَجَرٍ كُسيتَ من حُلل الرضوانِ أصفاها
أقَمْتَ يا بحرُ بالبحرَيْن فاجتمعت ثـلاثـةٌ كنَّ أمثـالاً وأشبـاهـا
ثـلاثـةٌ أنت أنـداهـا وأغـزرُهـا جواداً وأعذبُهـا طعماً وأصفـاها
حَوَيْتَ من دُررِ العلياءِ ما حَوَيا لكنَّ دُرَّكَ أعـلاهـا وأغـلاهـا
يا أعظماً وطِئَتْ هَام السهى[1] شرفاً سقاكَ من ديمِ الوسميِّ أسماها
وَيا ضِريحاً على هامِ السِماكِ علا عليكَ من صَلَواتِ اللّهِ أزكاهـا
فيكَ انطوى مِنْ شموسِ الفضلِ أضواُهَا ومِنْ معـالِم دينِ اللّهِ أسنـاهـا
ومن شوامخِ أطـوادِ الفُتـوةِ أر ساهـا وأرفعُهـا قَـدْراً وأبهـاهـا
فاسحب على الفلكِ الأعلى ذيول عُلًى فقد حَوَيْتَ مِنَ العلياءِ عَلْيَاهـا
عليكَ منا صلاةُ اللّهِ ما صَدَحَتْ على غُصونِ أراكِ الدوحِ وَرْقَاها[2]

وله وقد رأى النبي ﷺ في منامه:

ولـيـلةٍ كـان بـهـا طـالـعـي في ذروةِ السعـدِ أوجِ الكمالْ
قَصَّرَ طيبُ الوَصْلِ مِنْ عُمْرهـا فلم تكُن إلاَّ كحـلِّ الـعقـالْ
واتَّصَـلَ الفجـرُ بهـا بـالغـاً وهكـذا عُمْـرُ ليالي الـوصـالْ
إذْ أخَـذَتْ عَيْني في نـومِهـا وانتبهَ الـطالـعُ بعد الـوبـالْ
فـزرتُـه في الليـلِ مستعـطفـاً أفـديـه بـالنفْسِ وأهْلي ومـالْ
وأشتكي مـا أنـا فيـه من البَلْوى ومـا ألقـاهُ من سـوءِ حـالْ
فـأظْهـرَ العـطفَ على عَبْـدهِ بمنـطقٍ يُـزري بنـظْمِ الـلآلْ
فيـا لهـا مـن ليـلةٍ نلتُ في ظـلامها مـا لم يكُنْ في خيالْ
أمستْ خفيفـاتٍ مطايـا الـرجـا بهـا وأضْحَتْ بـالعـطايـا ثِقـالْ
سُقيتُ في ظَلْمـائِهـا خمـرةً صافيـةً صِـرْفـاً طَهوراً حـلالْ

---

(١) السُّهى: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، والناس يمتحنون به أبصارهم المنجد/ ٣٦٠ مادة (السهى).
(٢) القصيدة من البحر البسيط.

وأبتهجَ القلبُ بأهْلِ الحِمى ... وقُرَّتِ العينُ بذاك الجمالْ

ونِلتُ ما نِلتُ على أنني ... ما كنت أسْتوجبُ ذاك النوالْ[1]

ومن بدائعه قوله في الغزل:

وأهْيفَ القدِّ لَدْنِ العِطْفِ معْتدلٍ ... بالَطْرفِ والُظْرفِ لا يَنْفكُّ قتّالا

إنْ جالَ أهدى لنا الآجالَ ناظرُهُ ... أوْصالَ قطَّعَ بالهجرانِ أوْصالا

وإن نَظرْتَ إلى مِرآةِ وَجْنتِه ... حَسبْتَ إنسانَ عَيْني فوقها خالا

كأنَّ عارضَه بالمسكِ عارضني ... أولَيلَ طُرَّتِهِ في خدِّه سالا

أوْطافَ من نور خدَّيْهِ على بصري ... فخطَّ بالليل فوق الصُبْح أشكالاً[2]

وقوله:

أسِحْرُ بابلَ[3] في جَفْنيكَ معْ سَقَمِ ... أم السيوفُ لقتل العُرْبِ والعَجَمِ

والخالُ مركزُ دورٍ للعِذارِ بدا ... أم ذاك نَضْحُ عثار الخطِ بالقلمِ[4]

هذا أصله للراميني الاستراباذي[5] في قوله:

هلْ عثَرتْ أقْلامُ خطِ العِذارْ ... في مَشْقِها فالخالُ نَضْحُ العِثارْ

(١) الأبيات من البحر السريع.

(٢) الأبيات من البحر البسيط.

(٣) بابل: مدينة قديمة أقامها الأكاديون، في الجنوب الغربي من بلاد الرافدين. تقع على نهر الفرات قرب الحلّة وعلى مسافة ١٦٠ كم جنوب غربي بغداد. حكمتها السلالة الأكادية حوالي ٢١٠٥ ق. م، وكان سادس ملوكها الملك المشهور بشرائعه «حمورابي» وقد جعلها بختنصر الكلداني عاصمة له في القرن السادس ق.م، وجعلها الاسكندر المقدوني عاصمة الشرق. وتقع على خط عرض ٣٢,٣٠ شمالاً وخط طول ٤٤,٢٣ شرقاً. وفيها آثار كثيرة. وقد اشتهرت بالسحر والخمر.

انظر: ـ معجم البلدان جـ١/٣٠٩-٣١١.

ـ الروض المعطار/ ٧٣.

ـ دائرة المعارف الاسلامية ج٣/٢٤٧ ـ ٢٥١.

(٤) البيتان من البحر البسيط.

(٥) هو أبو حنيفة محمد بن محمد الراميني الاستراباذي ـ شاعر. لا يعرف تاريخ وفاته، إلا أنه من شعراء ما قبل ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م لأن «الباخرزي» المتوفى في ذلك العام ترجم له.

انظر: الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر ٣ أجزاء تحقيق الدكتور محمد التونجي. دمشق ١٩٧١/١٣٩١هـ. جـ١/٦٢٢-٦٢٧. ترجمة رقم (٢٦٥).

أم اسْتدار الخدُّ لما غدَتْ نقطتُه مركزَ ذاك المدارْ[1]

(رجع)

أمْ حبةٌ وُضعتْ كيما تصيدَ بها حَبَّ القلوبِ فصادَت كل ملتثمِ

أحسن منه قول صاحبنا الأديب اللبيب إبراهيم بن محمد السفرجلاني[2] جمَّل الله به الأدب وأهله:

لا يخْدَعَنَّكَ تحت عِطْفَةِ صَدْغِه خالٌ فذاك الخالُ حبَّةُ فخِّهِ[3]

(رجع)

أم كالفراشِ هوى طيرُ الفؤادِ على نارٍ بخدِّكَ حتى صار كالفَحْمِ

وهذا قول مأخوذ من قول عون الدين العجمي[4]:

لهيبُ الخدِّ حينَ بدا لعيني هوى قلبي عليهِ كالفراشِ

فأحرقَه فصارَ عليه خالاً وها أثرُ الدخانِ على الحواشي[5]

وللبهاء:

لعينيك فضلُ كثيرٌ عليَّ وذاكَ لأنَّك يا قاتلي

تعلمتَ من سِحْرِها فَعَقَدْتَ لسانَ الرقيبِ مع العاذلِ[6]

---

(١) البيتان من البحر السريع

(٢) إبراهيم بن محمد السفرجلاني شاعر دمشقي توفي ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م. وكان بارعاً في الرياضيات، وله ديوان شعر.

انظر: ـ الحصني منتخبات التواريخ لدمشق/ ٦١٤.

ـ هدية العارفين جـ١/ ٣٧ـ الأعلام جـ١/ ٦٥.

(٣) البيت من البحر الكامل.

(٤) لعلّه أحمد بن عبد العزيز العجمي (٦٢٠ـ٦٦٦هـ/ ١٢٢٣ـ١٢٦٨م) من أعيان الكتاب، كتب للناصر صلاح الدين الأيوبي. وكان شاعراً فاضلاً. ولد بحلب ومات بظاهر صور، ودفن في دمشق.

انظر ـ الأعلام جـ١/ ١٤٧.

أو لعله ابنه «محمد بن أحمد عز الدين العجمي» المتوفى ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م. في القاهرة. وكان قد خلف أباه في كتابة الإنشاء، وله نظم كثير.

ـ الأعلام جـ٦/ ٢١٨.

(٥) البيتان من البحر الوافر.

(٦) البيتان من البحر المتقارب.

ومن رباعياته وهي كثيرة قوله:

كَمْ بِتُّ مِنَ المسا إلى الإشراقِ   من فرقتكم ومُطربي أشواقي
والهمُّ منادمي، ونقلي ندمي   والدمعُ مدامتي وجفني الساقي

وقوله

لما نَظَرَ الجفنُ ضعيفاً نَهكا   من فِرقتهِ رقّ لضعفي وبكى
وارتاح وقال لي أما قلتُ لكا   ما يمكنك الفراق ما يمكنُكا

وقوله

لا تبكِ معاشراً نأواً أو إلْفا   القومُ مضوا ونحن نأتي خَلْفا
بالمُهْلَةِ أو تعاقبٍ نتبعُهمْ   كالعطفِ بثُمَّ أو كعطفٍ بالفا

وقوله

قُمْ وامْضِ إلى الديرِ ببَخْتٍ وسعودْ   لا يَحْسُنُ في المدرسَةِ اليومَ قُعودْ
واشرَبْ قَدَحاً وقل على صوت العود   العمرُ مضى وليسَ من بعدُ يعودْ

وقوله

يا ريحُ إذا أتيتَ دارَ الأحباب   قبِّلْ عني ترابَ تلك الأعتابْ
إن همْ سألوا عن البهائي فقلْ   قد ذاب من الشوق اليكم قد ذابْ

وقوله

يا عاذلُ كَمْ تُطيل في إعتابي   دَعْ لومَك وانصرفْ كفاني ما بي
لَوْلَام إذا همتُ مِن الشوقِ فلي   قلبٌ ما ذاقَ فرقةَ الأحبابِ

وقوله

يا غائبُ عن عينْي لا عن بالي   القربُ إليك مُنتهى آمالي
أيام نَواك لا تَسلْ كيفَ مضَتْ   واللَّهِ مَضَتْ بأسوأ الأحوالِ

وقوله

لا بأسَ وإنْ أذْبتَ قلبي بهواكْ   القلبُ وَمنْ سَلَبْتَه القَلبَ فداك
وَلَّيتَ وقلتَ أنْعمَ اللَّهُ مساكْ   مولاي وهلَ ينْعَمُ من ليس يراكْ

وقوله

أغتصُّ بريقتي كَحَسْيِ الحاسي — إذْ أذْكُرُه وهو لعهدي ناسي

إن مِتُّ وجمرة الهوى في كبِدي — فالويل إذاً لساكني الأرماسِ

وقوله

إنْ كانَ فِراقُنا على التحقيقِ — هذي كبدي أحقُّ بالتمزيقِ

لَوْ دامَ لي الوصالُ ألفي سنة — ما كان يفي بساعة التفريقِ

وقوله

أهوى رشأ عرَّضني للبلْوى — ما عَنْه لقلبي المُعنَّى سلْوَى

كم جئتُ لأشتكي فَمُذْ أبصرني — من لذة قُرْبِهِ نَسَيْتُ الشكْوى

وقوله

يا بَدْرَ دجىً بوصْله أحياني — إذ زارَوكم بهجره أفناني

باللَّهِ عليْك عجِّلَنْ سَفْكَ دمي — لا طاقة لي بليلةِ الهجرانِ

وقوله

يا بدر دجىً فراقُه الجسمَ أذابْ — قد ودّعني فغاب صبري إذ غابْ

باللهَ عليْكْ أيُّ شيء قالت — عيناك لقلبي المعُنَّى فأجابْ

وكتب لبعض أحبابه بالمشهد[1]:

يا ريحُ إذا أتيتَ أرضَ الجمْعِ — أعني طوساً[2] فقل لأهْلِ الرَبْعِ

---

(١) المشهد: مدينة في شمال شرقي بلاد فارس ومن مدن خراسان، فيها قبر الإمام الثامن علي الرضا بن موسى الكاظم المتوفى ٢٠٣هـ/٨١٨م. وهي أعظم مزار لأهل الشيعة. وهي اليوم من أكبر المدن الإيرانية، وفيها مسجد علي الرضا. وقد اتسعت على حساب «طوس» التي خربت ويؤمها سنوياً ما يزيد عن (١٠٠,٠٠٠) من الحجاج الشيعة، ويزيد عدد سكانها عن ربع مليون.

أنظر: المنجد/ ٤٩٩.

G.L.E. Vol 7.P.201—202 (Mechhed)

(٢) طوس: مدينة بخراسان وبينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. دفن فيها علي الرضا بن موسى الكاظم، وهارون الرشيد. وقد حلّت محلّها مدينة «مشهد» السالفة الذكر. فيها آثار أبنية إسلامية جليلة. ينتمي إليها عدد من مفكري المسلمين.

أنظر: ـ معجم البلدان جـ٤/ ٤٩ـ٥٠

مـا حـل بـروضـةٍ بهـائيكم إلا وسقى رياضَها بـالـدمـعِ

وكتب لبعض إخوانه بالنجف الأشرف[1]:

يا ريحُ إذا أتيتَ أرْضَ النَجَفِ فـالثُم عنِّي تـرابَهـا ثم قِـفِ

واذكُر خبري لدى عُرَيبٍ نـزلوا واديـه وقصَّ قصتي وانصـرفِ

وقال أيضاً:

للشَوْقِ إلى طيبة[2] جفنيَ باكي لـوْ صارَ مُقـامي فَلَكَ الأفـلاكِ

أسْتنكفُ إن مشيتُ في روضِتها فـالمشيُ على أجنحةِ الأمـلاكِ

وقال:

يا مَنْ ظَلَم النفسَ وأخطا وأسا هذا حَرمٌ يغْسِـلُ عنكَ الـدَنَسا

هـذا حـرمٌ مقـدَّسٌ يخـدمُـه جبريل[3] وميكالُ[4] صباحاً ومسا

وقال:

يا قومُ إلى مكَّة هذا أنا ضيفُ ذي زمزمَ[5] ذي مُنى[6] وهذاك الخيفُ

ـ الروض المعطار ٣٩٨ـ٤٠٠

(١) مدينة في العراق قرب الكوفة. وهي ذات أهمية دينية لوجود قبر علي بن أبي طالب قربها. وهي مزار كبير للشيعة، يحجون إليها وفيها جامعة لهم.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٥/٢٧١
ـ الروض المعطار/ ٥٧٧ـ٥٧٦
ـ المنجد/ ٥٣١.

(٢) هو اسم من أسماء «المدينة المنوّرة».

(٣) جبريل: ملك من ملائكة السماء، حمل الوحي إلى النبي محمد (ص).. وهو ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم.
أنظر: ـ ابن كثير جـ١/٤٣ـ٤٥.

(٤) ميكال: ملك آخر من ملائكة السماء. وهو موكل إليه القطر والنبات يحمل فيهما الأرزاق.
أنظر المصدر نفسه جـ١/٤٦ـ٤٧.

(٥) هي بئر الماء المعروفة في مكة التي حفرها عبد المطلب جد النبي (ص)
ـ الروض المعطار/ ٢٩٢ـ٢٩٣
ـ معجم البلدان جـ٣/١٤٧ـ١٤٩.

(٦) هي القرية قرب عرفات، وفيها يقيم الحجاج المسلمون بعد عرفات ثلاثة أيام لرمي الجمار.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٥/١٩٨ـ١٩٩.
ـ الروض المعطار/ ٥٥١ ـ ٥٥٢.

كم أعـركُ عيني لأستيقنَ هـلْ في اليقظةِ ما أراه أمْ هذا طيفُ

وقال:

إنّ هــذا الـمـوت يـكـرهُـه كـلُّ مَنْ يمشي على الغَبْـرا

وبَـعْـيـنِ الـعـقـلِ لـو نـظروا لـرأوْه الـراحـة الـكُـبْـرى

وكانت وفاته لاثنتي عشرة خَلَوْنَ من شوّال سنةَ إحدى وثلاثين وألف بأصْفَهان ونقل إلى طوس قبل دفنه فدفن بها في داره قريباً من الحضرة الرضوية. وحكى بعض الثقات إنه قصد قبل وفاته زيارة القبور في جمع من الأخلاء الأكابر، فاستقر بهم الجلوس، حتى قال لمن معه إني سمعت شيئاً فهل منكم من سمعه؟ فأنكروا سؤاله واستغربوا مقاله، وسألوه عما سمع، فأوهم، وعمّى في جوابه وأبهم، ثم رجع إلى داره وأغلق بابه، فلم يلبث أن أهاب داعي الردى فأجابه.

والحارثي نسبة إلى حارث همدان، قبيلة. وجده هو الذي خاطبه أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله يا حارِ، يا حارث تارة بالترخيم، وأخرى بالتفخيم، وقصته على التفصيل مذكورة في كتاب الأمالي لابن بابويه[1].

---

(١) ابن بابويه: محمد بن علي بن الحسين القمّي، ويعرف بالشيخ الصدوق. محدث إمامي كبير، اشتهر أمره في خراسان. وهو من علماء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. توفي عام ٣٨١هـ/ ٩٩١م. له حوالي (٣٠٠) مصنف و«الأمالي» أحد كتبه، ولا يزال مخطوطاً.

أنظر: ـ روضات الجنات/ ٥٥٧ ـ ٥٦٠.

ـ دائرة المعارف الاسلامية ج١/ ٩٤.

ـ الأعلام ج٧/ ١٥٩.

الملا صفي الدين الكيلاني*

(**الملا صفي الدين**) بن محمد الكيلاني، نزيل مكة المشرفة. الشافعي، الأديب، الطبيب، فريد عصره، كان أعجوبة في الذكاء، والفهم. اشتغل بالطلب، حتى أتقن العلوم العربية، والمنطق. ثم تعانى الطب، حتى رأس فيه. وأخذ بمكة عن عبد الرؤوف المكي[1] عدّة علوم، وروى عنه كثيراً. وله مؤلفات عديدة في الطب، وغيره. وشرح القصيدة الخمرية[2] لابن الفارض[3] شرحاً حسناً، وجعله باسم الشريف حسن بن أبي نمي[4]، وأجازه

(*) حياته (... - ١٠١٠هـ/ ... - ١٦٠١ - ١٠٦٢م).

(١) عبد الرؤوف المكي: لم يعثر له على ترجمة ولكن يبدو أنه من علماء القرن العاشر للهجري، وقد ترجم «المحبي» لأحد أحفاده وهو محمد بن عبدالله. ج ٤/ ٢٤.

(٢) وهي قصيدة قالها ابن الفارض في وصف خمرة الحب الإلهي التي انتشى بها بصفته متصوفا وهي التي مطلعها:

شَرِبْنا على ذِكْرِ الحبيبِ مُدامةً ... سَكِرْنا بها من قبل أن يُخْلَقَ الكَرْمُ

وفيها يصف تلك الخمرة بقوله:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوا ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم

(٣) ابن الفارض: هو عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة عاش خلال الفترة (٥٧٦-٦٣٢هـ/ ١١٨١-١٢٣٥م). من كبار المتصوفة، ومن شعرائهم البارزين وقد لقب بـ«سلطان العاشقين». آمن بوحدة الوجود، وكان سيد شعراء عصره، له ديوان شعر شرحه الكثيرون. ومن قصائده المشهورة (التائية الكبرى) وعدد أبياتها (٧٦٠) بيتاً، (والقصيدة الخمرية) الآنفة الذكر.

أنظر: - وفيات الأعيان جـ١/ ٣٨٣.

- شذرات الذهب جـ٥/ ١٤٩-١٥٣

- الأعلام جـ٥/ ٢١٦-٢١٧.

(٤) هو الشريف حسن بن أبي نمي محمد بن بركات. من أشراف مكة في أواخر القرن العاشر =

عليه إجازة عظيمة وكان يحسن إليه. وانتفع به جماعة في الطب وغيره.
ويحكى عنه في الطب غرائب، منها: أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء الفقراء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئاً نفخه في أنف الطريح، فجلس، وعاش مدّة، فتعجب الناس من ذلك. وسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة، فعلمت أنه حيّ. ومنها أنّ بعض التجار كان يطعن فيه، ويتكلم عليه. فلما بلغه، أرسل بعض الفقراء بغصن من نبات له رائحة طيبة، فلما شمَّه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه. فاضطر إلى صاحب الترجمة، فأرسل إليه واستعطفه. فأعطاه سفوفاً من ذلك النبات فعوفي مما به. ونظير ذلك ما وقع لابن البيطار المشهور[1]، أن بعض معاصريه امتحنه عند السلطان. فجاء السلطان بنبات، وقال إذا طلع إليك ابن البيطار مُرْهُ أن يشم من هذا المحل، يتبين لك معرفته وجهله. فلما طلع إليه أمره أن يشمه من المحل المعين، فشمه منه فرعف لوقته رعافاً شديداً، فقلبه وشمه من الجانب الآخر فسكن رعافه لوقته. ثم قال للسلطان: مُرْ الذي جاء به أن يشمَّه من الموضع الأوّل، فإن عرف أنّ فيه الفائدة الأخرى فهو طبيب، وإلا فهو متشيع بما لم يعط. فلما طلع، أَمَرَه بشمه

= الهجري وأوائل الحادي عشر/ السادس عشر ومطلع السابع عشر (٩٣٢-١٠١٠هـ/ ١٥٢٥-١٦٠١م). شارك أباه في إمارة مكة أولاً، ثم انفرد بها بعد وفاته عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م.
أنظر: - خلاصة الأثر جـ٢/٢-١٤.
- الأعلام جـ٢/٢٣٥.

(١) هو عبد الله بن أحمد المالقي المتوفى ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، الملقب بضياء الدين. ولد في مالقة بالأندلس، وتعلم الطب، وتنقل في كثير من البلاد، ومنها بلاد اليونان والرومان باحثاً عن الأعشاب. ثم أصبح «رئيس العشابين» لدى السلطان الأيوبي الكامل. وله بعض مؤلفات، من أبرزها «الأدوية المفردة» في مجلدين، وتوفي بدمشق.
أنظر: أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ٤ مجلدات - مصر ١٣٠٢هـ/ جـ٢/٦٨٣.
- دائرة المعارف الاسلامية ج١/ ١٠٤.
- الأعلام جـ٤/١٩٢.

من الموضع، فرعف رعافاً شديداً، فقال له: اقطعه. فعجز، وحار في أمره، وكاد أن يهلك. فأمره أن يقلبه، ويشمه، ففعل. فانقطع رعافه. فمن يومئذ زادت مكانة ابن البيطار عند السلطان. ومنها أنّ بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة، فأمر صفي الدين أن يعمل له كوفية[١] من العنبر[٢]. ففعل له: فزالت العلة. وأصابت تلك العلة بعض الرعية، ففعل له كوفية من ضَّفْع[٣] لبقر، فعوفي. فقيل له: أليست علة الرجلين واحدة؟ فقال: نعم. ولكن ولد الشريف نشأ على الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضَّفْع لزادت علته، والآخر بعكسه، فداوينا كلاً بما يناسبه. وكان يأمر مَنْ مرض، أن يخرج من مكة، ولو إلى المنحنى، لأن هواء مكة في غاية الاعتدال، لكن رائحة البالوعات تفسده. ولهذا بنى بيتاً بالُمحَصَّب[٤]، يسكنه من به مرض. وبالجملة فقد كان من أعاجيب الدنيا؛ وكانت وفاته في سنة عشر بعد الألف.

---

(١) غطاء للرأس يضعه الرجال.

(٢) العنبر نوعان: «العنبر الرمادي» وهو مادة معطرة تفرزها أمعاء بعض الحيوانات البحرية، أو بالأحرى بعض الحيتان. ويشاهد طافياً على سطح البحر على شكل كتل كثيفة شمعية، لونها رمادي. وله رائحة تشبه المسك. والنوع الثاني من العنبر هو «العنبر الأصفر» وهو نوع من الصمغ «المتحجر» قاسٍ وشفاف إلى حد ما، ويتراوح لونه بين الأصفر والأحمر الفاتح، ويوجد في طبقات الأرض، ويرى بصفة خاصة على سواحل بحر البلطيق. واسمه باليونانية «إلكترون»، وقد أعطى أسمه هذا للكهرباء، لأن من صفاته أنه يجذب الأجسام الخفيفة. وهو غالي الثمن. والمقصود هنا النوع الأول من العنبر أي الرمادي.
أنظر: G.L.E. vol I p.327 art (Ambre)
ـ دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية. الطبعة الثانية جـ١/٤٩٨.

(٣) الضفع: نجو الفيل أي روثه.
أنظر لسان العرب ج٨/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٤) مكان معروف بمكة المكرمة، وهو مأخوذ من الحصباء. وهذا الموضوع يقع بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب. والمحصَّب هو أيضاً موضع رمي الجمار بمنى، وسمي كذلك لتراكم الحصى فيه من الرمي.
أنظر ـ معجم البلدان جـ٥/٦٢.
ـ الروص المعطار/ ٥٢٥.

محمد أمين الدفتري العجمي*

(محمد أمين) الدفتري[1] العجمي الأبهري[2] محتداً القزويني مولداً الدمشقي سكناً، السابقي الطياري نسبة إلى الإمام جعفر الطيار[3] فيما ادّعاه.

(*) وردت ترجمته في تراجم الأعيان للبوريني - مخطوطة فينا Cod Arab 1190— Mix 346 ق ١٢٦آ-١٢٨آ.
- وفي لطف السمر جـ١/١٩٧-١٩٨ رقم الترجمة (٦٣).
- حياته ٩٥٧ - ٩ ربيع الأول ١٠١٩هـ/ ١٥٥٠ - الفاتح من حزيران ١٦١٠.

(١) الدفتري أي «الدفتردار» وهو الذي تحت إمرته جميع الدفاتر الخاصة بجميع الواردات إلى خزينة الدولة، أكانت نقداً أم نوعاً ومجالات صَرفها الضرورية، وادخار واستخدام الفائض منها، والحصول على مصادر أخرى مالية في حالة وقوع عجز ما. وكان له دائرة خاصة به أشبه بدائرة الصدر الأعظم. وقد كان هناك لكل ولاية دفتردار تشبه أعماله أعمال الدفتردار الأول في القسطنطينية.
انظر - Gibb and Bowen OP.cit, Part I p. 128—130

(٢) أبهري: نسبة إلى أَبْهَر: وهي مدينة فارسية قديمة بين قزوين وزنجان وهمذان محصنة بقلعة منذ عهد الساسانيين. وقد انحطت الآن. ويسميها العجم (أوهر) وينسب إليها كثير من العلماء المسلمين والفقهاء. وهناك (أبهر) أخرى من نواحي أصبهان.
انظر: - دائرة المعارف الاسلامية ج١/٣٠٥.
- الروض المعطار/٧
- معجم البلدان جـ١/٨٢-٨٤.

(٣) هو جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم، أخو «علي بن أبي طالب» وابن عم الرسول(ص). وكان أسن من علي بعشر سنين. وهو من السابقين إلى الإسلام ولذا يوصف بالسابقي. هاجر إلى الحبشة، وحضر موقعة مؤتة بالبلقاء من أرض الشام، وأبلى بلاءً حسناً، ووقع شهيداً. وقيل إن الله قد عوضه عن يديه المقطوعتين في القتال بجناحين في الجنة ولذا لقب بالطيّار. =

أحد ذوي النباهة والشأن العالي، والأدب الوافر، والكرم الباهر. وقد رزق الحظوة في الإقبال، وتوفرت له دواعي الآمال. وكان في الأصل من أرباب العراقة والمجد، لأن والده كان وزيراً في خراسان من جانب سلطان العجم شاه طهماسب، ثم مات والده فتفرق أولاده فوقع كل واحد منهم في جانب من الأرض فكان محمد أمين واقعاً بدمشق. ورد إليها في سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، على صورة فقراء العجم الذين يقال لهم الدراويش وكانت له كتابة حسنة، ونظم رائق بالفارسية، ثم خدم في دمشق دفتريها محمد بن كمال الدين التبريزي[1] فأرسله إلى قسطنطينية في بعض مصالح السلطنة فتعلق بخدمة معلم السلطان مراد[2] المولى سعد الدين[3] ورجع إلى دمشق بشيء من مرتب الجزية[4] بدمشق. ولم يزل يتردّد إلى قسطنطينية حتى اتصل بالمولى سعد الدين أشدّ اتصال، فعلا شأنه، وارتفع مكانه، وتولى على أوقاف عمارة السلطان بايزيد[5] وتأثل، وبنى، وعمّر، وتردّد إليه أكابر المدرسين، وأرباب

= والحديث يقول: «دخلت الجنة فرأيت جعفر يطير مع الملائكة، وجناحاه مضرجان بالدم».
أنظر: ـ صفة الصفوة جـ١/٢٠٥.
ـ طبقات ابن سعد جـ٤/٢٢
ـ الأعلام جـ٢/١١٨.

(١) لم يعثر له على ترجمة أوفى مما ورد في المتن من أنه كان دفترياً في دمشق. وقد ورد في الكواكب السائرة جـ٢/١١٧، وفي ترجمة «أحمد العاتكي» أن والده «الكمال التبريزي» كان ناظر النظار بدمشق.

(٢) أي السلطان «مراد الثالث».

(٣) هو محمد بن حسن جان التبريزي مربي السلطان مراد الثالث أو خوجاه أي معلمه، ومربي ابنه السلطان محمد، أصبح مفتياً للسلطنة العثمانية وتوفي عام ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م، وكان من المؤرخين للدولة العثمانية وكتابه يدعى «تاج التواريخ» وقد اشتهر تحت لقب «خوجه أفندي».
انظر: ـ خلاصة الأثر جـ٣/٤١٨
ـ دائرة المعارف الإسلامية جـ٩/٣١-٣٤ بند (خوجه أفندي).

(٤) هي الضريبة الرأسية المعروفة المفروضة على أهل الذمة. وكانت تسمى أيضاً ضريبة «الجوالي». وكانت تنفق في بعض الولايات كولاية الشام على العلماء بصفة خاصة.
انظر ـ خلاصة الأثر جـ١/٤٠٣ ترجمة (اسكندر بن يوسف).

(٥) هو السلطان بايزيد الثاني ثامن السلاطين العثمانيين ووالد السلطان سليم الأول. حكم بين =

الحوائج ممن يريد من الأوقاف. ثم إنه ورد إلى دمشق في أوائل سنة تسعين وتسعمائة[1] في بعض الخدم السلطانية فمكث نحو سنة، وسافر إلى قسطنطينية، ورسخ بها، وبلغ الحظوة التامة، وراجعه الناس. وكاتبه ملك المغرب مولاي أحمد المنصور[2] وقد ذكر أبو المعالي الطالوي الكتاب الوارد إليه من مولاي أحمد في «سانحاته» وذكر في إثره جوابه الذي كتبه أبو المعالي على لسانه. وعنَّ لي أن أذكرهما لئلا يخلو كتابي مما يخاطب به أمثال هذا الملك، ويخاطب به، وصورة الكتاب هذا* بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وسلم تسليماً. من عبد الله تعالى، المجاهد في سبيله، الإمام المنصور بالله، أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، الشريف الحسني، أيَّد الله أمره، وأعزَّ نصره بمنِّه ويُمْنه آمين. المنزلة التي لاحت من محبتنا لهذا الجناب العلوي من سماء الطروس، واتضح من شواهد ولائها، وأمثلة خلوصها، ما أشرق شروق الشموس، وأركضت في الاعتلاق بحبلنا الحسن

---

* عامي (٨٨٧ـ٩١٨هـ/١٤٨٠ـ١٥١٢م) وقد عرف بميله إلى الزهد والتقى حارب المماليك في بلاد الشام، وحلفاً مسيحياً تكوّن ضده، وانتصر على البندقية وجردها من موانئها على سواحل شبه جزيرة المورة. وفي زمنه سقطت غرناطة بيد الاسبان، وبدأ الصدام مع الصفويين وقد خلعه ابنه السلطان سليم عن العرش في عام ٩١٨هـ/١٥١٢ وحلّ محله. بنى جامعاً في القسطنطينية وجامعاً ومدرسة في أدرنة.

انظر ـ القرماني ٣١١ـ٣١٤.

ـ Greasy ,Op. cit p.114—126

ـ دائرة المعارف الإسلامية ج٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣١ مادة (بايزيد الثاني).

(١) ٩٩٠هـ/١٥٨٢م.

(٢) هو أحمد المنصور السعدي بن محمد الشيخ المهدي (٩٥٦ـ١٠١٢هـ/ ١٥٤٩ـ١٦٠٣م) ويعرف بالذهبي. رابع سلاطين الدولة السعدية في المغرب الأقصى، تولى الملك سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٩ بعد معركة وادي المخازن الشهيرة ضد البرتغاليين. وكان من الحكام الدهاة. وقد ازدهرت المغرب في عهده، ومدّ نفوذه إلى السودان الغربي. وكان واسع الإطلاع وأديباً ومحباً للعلم.

انظر ـ السلاوي· الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٤ أجزاء مصر ١٣١٢. جـ٣/٤٢ـ٩٥

ـ البوريني جـ١/ ٢٢٠ـ٢٢٢

ـ خلاصة الأثر جـ١/٢٢٢

ـ الأعلام جـ١/٢٢٤ـ٢٢٥.

طَرْف الصفا غيرحرون، ولا شموس، مثابة الفقيه المعتبر، الأمين، الرضي المكين، الأحظى، الماجد الحسيب، الأصيل، العريق النسيب، الزعيم، الملاحظ، الأثير، الوجيه، الأديب، الفهامة، النحرير، المثيل أبي عبد الله محمد الأمين، بالقسطنطينية العظمى، زاد الله رتبته علاء، ومصاعدته لمراتب الكمال ارتقاء. سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حَمْداً الله مؤلِّف القلوب المتنائية، تأليف الشرطية في الالتئام للجزائية، والصلاة والسلام على الرسول الأمين سيدنا ومولانا محمد، النور الذي أنقذ الله به من غياهب الهلاك، وأزاح بهَدْيه ما للزيغ والضلال من مدلهمات الأحلاك، وعلى آله ذوي الفضل الباهر، والسؤدد الظاهر، والشرفِ الذي عز عن المساجل والمفاخر، وصحبه الذين أجروا جداول السيوف في رياض الحتوف، لاجتناء ثمر نصرة الشريعة، وفتحوا أبواب الجهاد سدّاً لكل سبيل من النفاق، وذريعة، والدعاء لهذه الخلافة الحسنة البناء بالتأييد لهدّ قواعد الكفر هدّاً، وسوق عَبَدةِ الصليب إلى ساقط سحائب المنايا ورداً، فإنا كتبناه إليكم من دارنا العلية، بحضرتنا المراكشية[1]، حاطها الله، ومواهب الله مع الآناء متهللة الأسرة، وصنائعه الجميلة كفيلة بنيل كل مسرّة، فشكراً لله سبحانه وتعالى. هذا، وقد انتهى لمقامنا العليّ من كتابكم المرعي الذي ثجَّ من سماء بلاغته كلُّ وسمي وولي، ما أقام لكم بنادينا الكريم سوق الولاء على ساق، ورفع لخلوصكم على صعدة الاحتفال اللواء الخفاق، وتمكن ودّكم بهذا الجناب العلوي أيّ تمكين، واستقر من وافر القبول عليه بربوة ذات قرار ومعين، وأدلى بحجج تسفر عن الاعتلاق بمحبتنا إسفار الصباح، وأدلةٍ هي في مقام الجلاء والظهور، كالشمس

---

(١) نسبة إلى «مراكش» عاصمة الدولة السعدية في المغرب الأقصى آنذاك وهي مدينة بناها يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م وقيل ٤٥٩هـ/١٠٦٦م. وهي في جبال الأطلس الأعلى، كثيرة البساتين. وقد جمّلها المنصور بعدد من القصور، وفيها مدافن السعديين، وتقع على خط عرض ٣١,٣٥ شمالاً وخط طول ٨ غرباً.
أنظر: ـ معجم البلدان جـ٥/٩٤
ـ الروض المعطار/ ٥٤٠ـ٥٤١
ـ G.L.E. vol 7 p.119. art (Marrakesh)

في الاتضاح، فتقرر لدينا من حسن اعتقادكم، وصريح ودادكم على ألسنة الأرسال والأقلام، ما لا يحتاج بعد إلى دليل يقام، والتحف الأدبية التي انتقتها أيدي عنايتكم لخزانتنا العلمية قد وافت إلينا، فألفت من الهش لها والترحاب بها ما لا يقدر على تكييفه، ولا تمدّ أيدي الاسترابة إلى تحويله وتحريفه، نتيجة عن مقدمة في شكل المضاهاة معملة، غير معارضة بما يناقضها ولا مهملة، والقدر الذي تتصورونه من المبالاة بكم، والاعتناء بشـأنكم، لكم عندنـا أضعافه مبرّة مسيرة إليكم إن شاء الله تعالى أنواع الجذل والمسرة، وحظكم لدينا مـلاحظ بعين الإيثـار، مرعيٌّ من عـلائنا بكـل اعتبار، والله يتـولى حراستكم بمنِّه ويمُنه والسلام. وكتب في أواسط جمـادى الآخرة سنـة تسع وتسعين وتسعمائة[1] وهذا هو الجواب أدام الله تعالى جلالَ أقبال الدولـة الإمامية الحسنية الشريفة، وضاعف كل حين حلاها، وعقد رايات النصر والظفر بألويتها العلوية المجاهدية المنصورية، وأسبغ في العالمين ظلالها، ولا زال مقامها الشريف المكان والمكانة في الخلافة محموداً، ولواؤها الخفاق بالنصرة الكاملة على الأعداء معقوداً، مضروباً سرادق مجدها الشامخ على هام المجرّة والنجم والسماك، منوطاً شرفها الباذخ بمستقر الأفلاك، فرع الدوحة الهاشمية العلوية، المتفرع من الأغصان الزكية المرتضوية، فيـا لها دوحة زكا غصنها الرطيب في الخلافة، ونما من شجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، مهبط الوحي ومتنزل الروح الأمين. مقام عصمة الإمام أبي عبد الله أمير المؤمنين، منزع الهمم، وملاذ الإسلام، ومفزع الأمم، ومصار الأنام، مقر السيادة، والعز المكين، وقرار السعادة والنصر والتمكين. كتاب صدر عن ساحةٍ، علاَ مجدُها هامَ الكواكب، وزاحم شرفُها الجوزاء بالمناكب، طلع في سماء الخلافة كوكبها السيار، ونار، ولمع نوره فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. نسب طاهر، وحسب ظاهر، فللّهِ كم جلت سواد الكفر عن المغرب، بـامراههـا بيض صفاحه، وارتشفت من ثغوره اللميـاء بأفواهها سمر رماحه. وأيم الله لقد

---

(١) أواسط جمادى الآخرة سنة ٩٩٩هـ/ ١٠ نيسان ١٥٩١م.

تبسمت ضاحكة تلك الثغور، من ذلك العزم الناصري والرأي المنصور، لا زالت هام الأعداء لسيوفه غمداً، يسوقهم القدر كل حين لمشرع الردى ورداً، منوّهاً باسم من تشرف بانتمائه إلى ذلك الجناب اسمه، وقد شام من مخائل تلك الحضرة بارق الولاء، فصدق توسُّمه، فداخله بذلك مسرّة وجذل، كادا يردّان عليه شبابه المقتبل، حيث كان من النعم الجسام التنويه بذكره في ذلك المقام، فشكراً على نعمائه الظاهرة، وآلائه المتظاهرة. وأما التنويه بذكر ما خدم به ذلك القيطون[1] الشريف برسم الخزانة العلمية، والقمطر المنيف، على يد أخينا ذلك الفاضل الأديب، والكامل الأريب، مَنْ نور الفضل في جبينه متلألىء، أبو عبد الله محمد الفشتالي[2] خادم السدّة الشريفة العلياء، والعتبة المنيفة القعساء، فأمر لا تفي الألسنة بشكره والأقلام على توالي الأزمنة ومر الأيام، حيث وقع الموقع من ذلك الجناب المضمخة سوحه الشريفة بالأناب[3]. وهذا وما زال العبد رافلاً كل آن في حلل الامتنان والإحسان، معلناً في كل نادي، بشكر تلك الأيادي، التي وصلت من المقام الرفيع ناديه، الفائز بالسعادة حاضره وباديه، فلها على السندس والإستبرق مزية، حيث وافقت شعار السادة العباسية، على يد قاصد الحضرة عبد العزيز[4] ذلك الشيخ

---

(١) القيطون: قد تكون من قطن وقطين وتعني الخدم والحاشية ولعلّه يقصد أنه هو «محمد الأمين العجمي» هو من (حاشية) المنصور السعدي. انظر مادة (قطن) في لسان العرب، والمنجد.

(٢) محمد الفشتالي: وزير أحمد المنصور السعدي، وأديب كبير من أدباء فاس أرسله أحمد المنصور رسولاً إلى السلطان العثماني. وكان له مع القاضي العالم «أحمد الخفاجي» صلات ومطارحات شعرية ويسميه في « خبايا الزوايا» «محمد بن علي الفشتالي».
انظر: ريحانة الألبا جـ١/٣٠٩ـ٣٣٢.

(٣) ضرب من العطر يضاهي المسك. لسان العرب جـ٢/١٢٩ مادة (أنب).

(٤) هو عبد العزيز بن محمد الفشتالي أبو فارس، وزير المنصور أحمد السعدي (٩٥٦ـ١٠٣١هـ ١٥٤٩ ـ ١٦٢١م من الأدباء البارزين، والمؤرخين لعهد المنصور السعدي. وقد نوّه به كل من الخفاجي في كتابه «ريحانة الألبا» وابن معصوم في «سلافة العصر». له مؤلفات منها «مناهل الصفا في أخبار الشرفا».
انظر: خلاصة الأثر جـ٢/٤٢٥
ـ سلافة العصر/ ٥٨٢ـ٥٨٣
ـ ريحانة الألبا جـ١/٣٦٥ـ٣٦٦
ـ الأعلام جـ٤/١٥٢.

الجليل، فكانت جملاً أغنت عن التفصيل، وفي الأعتاب الهاشمية، والأبواب العلوية العلية، مكارم أخلاق، إن شاءت قامت بعذر خدّامها في التقصير عما كان اللائق بمقامها، من إرسال نفائس الكتب الأدبية، لتتشرف بانحيازها الى تلك الخزانة الشريفة العلمية، لعارضٍ جرٍّ حرماني بالجوار، سلب معه عن الجفن الفرار والقرار. ومولى بابها، وعبد جنابها مولانا عبد العزيز على ذلك شاهد عدل، وحكمه في امتثال هذه القضية هو الفصل، سيصدق الحضرة المقال، حيث شاهد بالعيان حكاية الحال، والعبد ما زال في تدارك ما فرط في حب مولاه في العام القابل إن شاء الله موصلاً لثم بساط الثرى، متضرعاً لإله يسمع ويرى، أن يخلد ذكر الدولة المنصورية على صفحات الأيام، ويربط أطناب معدلتها بأوتاد الخلود والدوام الى قيام الساعة، وساعة القيام، بمحمد وآله وعترته الطاهرين وصحبه المنتخبين، قاصراً على فاتحة ثنائه بنفسه في خاتمة دعائه وهذا آخرها. (قلت) وكان صاحب الترجمة يجمع نفائس الكتب ويرسلها الى مولاي المنصور المذكور، فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة. ثم طلب بنت منلا آغا التبريزي[1] نزيل دمشق، وهو الذي كان معتمداً على العمارة السليمانية[2]. وكان من وجوه الأعيان أصحاب الوجاهة، فتزوج بها وقطن بدمشق في دار المنلا المذكور، المشهورة بمحلة القيمرية[3]، وتولى خدمة

= وقد يكون هو «عبد العزيز الثعالبي» الوزير الأديب الذي وفد إلى القسطنطينية رسولاً من المغرب الأقصى، وترجم له الخفاجي في ريحانة الألبا جـ١/٣٥١-٣٥٦.

(١) لم يعثر على ترجمة له أوفى مما ورد في المتن.

(٢) أي كان مشرفاً على المدرسة والتكية اللتين بناهما السلطان سليمان الأول. في دمشق. وقد يكون هو المتولي لأوقافها.

(٣) حي من أحياء دمشق داخل الأسوار، يقع شرقي الجامع الأموي وكان يسمى (سوق الحريميين). وينسب إلى الأمير ناصر الدين الحسين بن عبد العزيز القيمري الكردي المتوفى ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. وكان فيه «المدرسة القيمرية» التي يطلق عليها العوام اسم (المدرسة العتيقة) و(مدرسة القطاط). ويبدو أن هذا الحي كان مقراً لدفتردارية الشام.
انظر: - الدارس جـ١/٤٤١.
- خطط الشام جـ٦/٨٨
- منادمة الأطلال/ ١٤٠
- دمشق في مطلع القرن العشرين/ ٤٠٢

الدفاتر السلطانية بالشام[1]. ومات منلا آغا، واستمر ساكناً في بيوته، وباشر خدمة الدفتر باستقامة، وصرامة، ودقة نظر. ثم أنه عزل عنها، فسعى لنفسه في أن يكون متقاعداً بدمشق على قاعدة أركان الدولة العثمانية إذا أراد رجل منهم أن يتخلى عن المناصب السلطانية، ويقنع أن يرتب له شيء من بيت المال، فأعطاه السلطان في دمشق كل يوم مائة وخمسين قطعة يأكلها وهو جالس في بيته. ثم إنه تشكّى من مماطلة من يحُال عليهم من المباشرين لقبض الأموال السلطانية، فعرض ذلك على الوزير سنان باشا بن جغال[2] لما ورد إلى دمشق حاكماً بها، فعرض ذلك لحضرة السلطان محمد[3]، فأعطاه قرية في الغوطة بدمشق يقال لها الحُرْجُلَّة[4]. فكان يتناول مرتبه من محصولها. وكان فاضلاً في التاريخ جداً، وفي اللغة الفارسية والعربية ناظماً، كاتباً فيهما. وكان حسن الخط، منشئاً للمكاتيب الحسان مداعباً، كريماً، عارفاً، يقدر الأفاضل، معرّفاً لهم عند أرباب الدولة. وكان نحيف الجسم لملازمته على أكل الأفيون. وكان غالب فضلاء دمشق يترددون إليه ويعاشر منهم من تطيب عشرته، وتصفو له مودته، منهم أبو المعالي الطالوي، والحسن البوريني، وغيرهما، ولهم فيه المدائح الزاهرة، ذكر الطالوي منها كثيراً. وبالجملة، فقد كان من محاسن عصره، الذين يتزين بهم وجه مصره. وكانت ولادته في سنة سبع وخمسين وتسعمائة

---

(١) أي منصب الدفتردارية.

(٢) كان قبطاناً في البحر، ثم اشترك في غزو العجم عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥-١٥٨٦ وتم فتح تبريز على يديه. ووولي دمشق سنة ١٠٠٦هـ١٥٩٨م، ولم يبق فيها سوى سبعة أيام. ثم عيّن سرداراً لغزو بلاد العجم ١٠١٣هـ/١٦٠٥م إلا أنه هزم. وتوفي عام ١٠١٤هـ/١٦٠٦م.
انظر: - لطف السمر جـ٢/ ٧١٢-٧١٣ ترجمة (يوسف بن جغال القبطان).
- القرماني/ ٣٣٠، ٣٣٢.
- ولاة دمشق في العهد العثماني/ ٢٦.

(٣) السلطان محمد الثالث العثماني.

(٤) الحرْجُلَّة: إحدى قرى غوطة دمشق الجنوبية، وعلى طريق السويداء. وتقع على بعد ٢٧ كم من دمشق وعلى بعد ٧ كم من الكسوة.
أنظر: - جدول المسافات للقطر العربي السوري . إدارة المساحة العسكرية دمشق د.ت. ص١٢
- معجم البلدان جـ٢/٢٣٩.

تقريباً، وتوفي يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة بعد الألف. ودفن من الغد، في تربة منلا آغا، قبلي الصابونية[1]، في الصف الشرقي. وخلّف من الكتب نحو ثمانمائة كتاب من أنفس الكتب.

---

(1) المدرسة الصابونية وتقع خارج دمشق القديمة، جنوبي باب الجابية، ومقابل مقبرة باب الصغير انشأها أحمد بن سليمان البكري المعروف بالصابوني سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣. وقد تحولت إلى مسجد.

الدارس جـ١/ ١٣ ـ منتخبات التواريخ جـ٣/ ٩٣٨

العلموي/ ٨

٤ - بلاد الأكراد

إذا كان «المحبي» قد ترجم لعدد من أعيان السياسة والعلم في الهند، وبلاد خوارزم وما وراء النهر، وبلاد العجم، فإنه ضمَّن كتابه أيضاً عدداً من أعيان علماء «الأكراد» ومتصوفتهم، ومن كان له دور سياسي منهم. وهو في الواقع لا يحدد دائمًا مواطن هؤلاء الأكراد، وإن كان يشير بين حين وآخر إلى «بلاد الأكراد»، وإلى بعض مدنهم كـ«كوران»، و«صهران»، و«حرير» وغيرها. ولعلّه كان يقصد بـ«بلاد الأكراد» ما يسمى اليوم «كردستان»، وهي المنطقة الجبلية المرتفعة، التي تمتد بين جنوبي شرقي بلاد الأناضول وأرمينيا وأذربيجان في الشمال ومنطقة ما بين النهرين في العراق في الجنوب، وكانت تتقاسمها آنذاك كل من الدولة العثمانية، وبلاد العجم، أو بتعبير أدق بلاد العراق وشمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول، وأرمينيا من الأمبراطورية العثمانية، وأذربيجان من بلاد العجم[1].

وفي الواقع، إن معظم من ترجم لهم «المحبي» من الأكراد كانوا قد غادروا مواطنهم الأصلية، ونزلوا في البلاد الإسلامية الأخرى، وبصفة خاصة بلاد الدولة العثمانية. ويبدو أنه في هذه المرحلة أي خلال القرن الحادي عشر الهجري/ وما قبله في القرن العاشر الهجري/ أي السابع عشر الميلادي

(١) أنظر_ Encyclopédie de l'Islam, 1er éd T.II p.1196–1219 (Kurdes) و p.1220–1222 (Kurdistan).

والسادس عشر، كان هناك «هجرة كردية»، وقد وفد قسم منها إلى بلاد الشام، وإلى دمشق بالذات، حيث أقام المهاجرون في «الصالحية» منها، وحيث كوّنوا مع الزمن في سفح جبل قاسيون حياً قائماً بهم، لا يزال يسمى باسمهم إلى الآن. أما سبب الهجرة، فيبدو أن من كان يقيم منهم في أذربيجان، أو بلاد العراق، فإن فرض الصفويين للمذهب الشيعي الاثني عشري في تلك البقاع، قد اضطر كثيراً منهم ـ وهم من السنة ـ إلى ترك مواطنهم واللجوء الى البلاد السنية المجاورة، أي الى بلاد الإمبراطورية العثمانية، وبصفة خاصة البلاد العربية المشرقية ذات الصفة الإسلامية المقدسة كبلاد الحجاز والشام. كما أنه يجب ألا تنسى الحرب شبه الدائمة التي كانت دائرة بين العثمانيين والصفويين في مناطقهم، وتعرضهم لويلاتها.

وكان من هؤلاء الأكراد المهاجرين علماء محققون كبار، وعمل بعضهم في المناصب الدينية في الدولة العثمانية، كالإفتاء، والقضاء، والتدريس، والإمامة، وتولية الأوقاف. وانصرف بعضهم إلى التصوف، وكان منهم شيوخ أجلاّء، لهم مريدوهم ومعتقدوهم. ويتضح من التراجم أنه كان لهم أثرهم الكبير في الفكر الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي عن طريق مؤلفاتهم الدينية، وطرائق تعليمهم، واهتمامهم بمختلف المؤلفات العربية والفارسية، وآرائهم الصوفية. كما أن الدولة العثمانية قد اعتمدت على بعضهم فأسلمتهم أعمالاً هامة في ولاياتها ولا سيما التدريس والقضاء والأوقاف كما بينا ذلك.

وإذا كانت أغلبية (فئة العلماء) من الأكراد، من المهجرين من موطنهم إلى البلاد المشرقية الإسلامية، فإنه كان هناك بالمقابل أكراد لعبوا وهم في مواطنهم في المشرق العربي الإسلامي دوراً سياسياً هاماً. ومثل على ذلك (آل جنبلاط) في شمالي بلاد الشام، وفي منطقة كلِّز المجاورة لحلب، حيث توصل بعض أمرائهم وهو «حسين باشا جنبلاط» إلى ولاية إيالة حلب، وأظهر التمرد فكان مصيره القتل من الدولة العثمانية، وحيث عمل ابن أخيه من بعده «علي

جنبلاط» إلى الثورة هو الآخر على الدولة العثمانية بعد أن تحصن في حلب وما حواليها، ومدّ نفوذه حتى مدينة دمشق.

ولا بد من الإشارة إلى أن السلطان سليم الأول حينما ضم «ديار الأكراد» إلى الإمبراطورية العثمانية، أي شمالي العراق وشمالي بلاد الشام، وجنوبي الأناضول نصحه «العالم إدريس بن حسام الدين البدليسي»[١] وهو من المفكرين والحكماء الأكراد أن يترك للقبائل الكردية في تلك المناطق أنماط حياتها السابقة، ودون أن يطبق عليها الحكم المركزي، شريطة أن يقدم أمراء تلك القبائل الولاء للدولة العثمانية، على صورة عون عسكري، أو تكاليف مادية محددة، وبذلك تضمن الدولة العثمانية الهدوء في المنطقة، وتبعيتها لها. وهذا ما تم، إذ قسمت الدولة العثمانية تلك المناطق إلى سناجق، وثبتت عليها أمراءها الإقطاعيين السابقين، أو عينت من تراه منهم عليها، ومن هؤلاء «جان بلاط»[٢]، الجد الأكبر للعائلة الكردية التي أقلقت الدولة العثمانية في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي في شمال بلاد الشام، والتي انتقل أفراد منها إلى لبنان، ولا تزال تلعب دورها فيه.

إن عدد التراجم التي صرّح «المحبي» بأصالتها «الكردية» هي(٢٩) تسع

---

(١) قائد كردي ومؤرخ من مدينة «بدليس» أو «بتليس» (مدينة بأرمينية التركية وحاضرة ناحية كردستان قريبة من بحيرة وان). وفد إلى الدولة العثمانية في عهد السلطان «بايزيد الثاني»، وكان في خدمة السلطان سليم الأول، وصحبه في حربه في بلاد فارس؛ وهو الذي استولى له على كردستان، وكان له شأن في ضم الرها والموصل، واستقرار الأحوال الداخلية في المنطقة. واشترك في فتح بلاد الشام ومصر. وتوفي عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، أي السنة التي توفي فيها السلطان سليم الأول. وترك «البدليسي» تاريخاً بالشعر الفارسي في (٨٠,٠٠٠) بيت عن السلاطين الثمانية الأول من آل عثمان وعنوانه «الهشت بشت» أي «الجنان الثمان».
- أنظر - أنظر دائرة المعارف الإسلامية ج٣/ ٤٦٤ - ٤٦٥.
- الشقائق النعمانية/ ١٩٠-١٩١.

(٢) انظر ترجمته في:
- رضي الدين الحنبلي: در الحبب جـ١/٤٣٨-٤٤٥
- الكواكب السائرة. جـ٣/١٣٨-١٣٩.

وعشرون (أنظر المسرد المرافق)، إلا أنه قد يكون هناك أخرى لا إشارة صريحة عنها، وقد نُظر إلى نسبة بعضها إلى بعض المدن الكردية «ككوران» مثلاً، على أنها من تلك التراجم.

ويلاحظ أن الأغلبية من العلماء الأكراد هي على المذهب الشافعي. كما يبدو من بعض التراجم أن بعضها كان من المماليك الأرقاء ثم أعتق، ونال حظه من العمل الحر والدنيا. وكانت ترجمة «المحبي» لبعض الشخصيات الكردية مقتضباً جداً، حتى أنه سها عن ذكر موطنها الأول أو الثاني.

توزع الشخصيات الكردية في المكان

العدد الكلي	الحجاز	بلاد الروم القسطنطينية	دمشق	ديار بكر	كلّس وحلب	الموصل	المكان غير واضح
٢٩	١	١	١٨	١	٢	١	٥

وقد تم اختيار خمس تراجم تمثل خمسة أنواع من الفعاليات التي مارستها «الشخصيات الكردية» المترجم لها. وهذه الشخصيات هي:

الشيخ أحمد العسالي	حرير من بلاد الأكراد	نزيل بلاد الشام	شيخ الخلوتية	١٠٤٨هـ	ج١/٢٤٨-٢٥٠
المنلا أبو بكر معلم الوزير	حرير من بلاد الأكراد	نزيل دمشق	محقق ـ معلم الوزير الفاضل أحمد باشا	١٠٧٧ هـ	ج١/٨٦-٨٧
قاسم بن عبد المنان الكردي	مملوك معتق	نزيل دمشق	ناظر وقف سنان باشا بالشام	١٠٥٧ هـ	ج٣/٢٩٢-٢٩٣
محمد ملا جلبي الكردي	؟	نزيل بلاد الروم (القسطنطينية)	عالم مؤلف ـ قاضي الشام ١٠٦٥هـ	١٠٦٦هـ	ج٤/٣٠٨
المنلا محمود الكردي	؟	نزيل دمشق	عالم متضلع في العلوم ومحقق	١٠٧٤هـ	ج٤/٣٢٩-٣٣٠

أما الشخصيتان السياسيتان الكرديتان الكبيرتان اللتان كان لهما دورهما في تاريخ بلاد الشام في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ـ كما أسلفنا القول ـ فقد تركتا لتبرزا في موطنهما الأصلي، وفي المنطقة التي نشطتا فيها، وهي بلاد الشام.

مسرد بالتراجم الكردية الأصل

الاسم	الموطن الأصلي	مكان الإقامة	الفعالية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
المنلا أبو بكر الكردي الحريري	؟	نزيل دمشق	محقق ـ معلم الوزير الفاضل أحمد باشا مدرس بالجامع الأموي	١٠٧٧ هـ	ج ١/٨٦ - ٨٧
السيد أبو بكر بن هداية الله الحسيني	كوران	؟	امام علامة ـ له مؤلفات	١٠١٤هـ	ج ١/ ١١٠
أبو بكر الكردي العمادي	؟	نزيل دمشق	فاضل ـ مدرس في بقعة من الأموي	١٠٠٦ هـ	ج ١/١١٠ - ١١١
أحمد بن عثمان بن أبي بكر السهراني	سهران	نزيل دمشق	عالم ـ محاسب أوقاف ـ مدرس	١٠٦٩ هـ	ج ١/٢٤٢ - ٢٤٣
أحمد بن الملا حيدر الكردي السهراني	سهران	نزيل دمشق	عالم شافعي مؤلف	في السبعينيات	ج ١/٢٤٢
الشيخ أحمد العسالي	حرير	نزيل قرية عسال (ضواحي دمشق) فدمشق فحلب	شيخ الخلوتية بالشام	١٠٤٨ هـ	ج ١/٢٤٨ - ٢٥٠
الشيخ حسن الكردي النورديني	صهران	نزيل دمشق ـ الروم	من العلماء الأجلاء	١٠٧٨ هـ	ج ٢/٦٣ - ٦٤
الشيخ حسن الكردي العمادي	؟	نزيل دمشق	متبحر في العقليات ـ مدرس ـ ناسخ كتب	١٠٤٨ هـ	ج ٢ / ٧٨
حسين باشا بن جانبولاذ	كِلّس	حلب	أمير الأمراء بحلب ـ ثائر على الدولة قتل	١٠١٤ هـ	ج ٢ / ٨٤ - ٨٧

الاسم	الموطن الأصلي	مكان الاقامة	الفعالية	تاريخ الوفاة	موقع الترجمة
السيد حسين الخلخالي	؟	؟	عالم محقق	١٠١٤ هـ	ج ٢ / ١٢٢
عبد الحي الكردي	؟	نزيل دمشق	أحد أعيان العلماء ـ قاضي الحضرة	١٠٢٥ هـ	ج ٢/ ٣٤٤
عبد الرحمن بن ابراهيم الكردي الصهري	صهران	نزيل ديار بكر	عالم شافعي له مؤلفات	١٠٦٤-١٠٦٦هـ	ج ٢ / ٣٤٥
عبد الرحمن بن أويس الكردي	؟	نزيل دمشق ـ مصر ـ الحج	معلم أولاد الوزير حسن باشا مدرس	١٠٦٣ هـ	ج ٢ / ٣٥١
عبد الكريم بن أبي بكر الشهير بالمصنف التاهوي	؟	؟	رحلة في طلب العلم	١٠٥٠هـ	ج ٢/ ٤٧٤
المنلا عبد الكريم الخالدي	؟	نزيل دمشق	عالم متصوف له كرامات	؟	ج ٢/ ٤٧٤-٤٧٥،
عبد الله الكردي البغدادي	بغداد	نزيل دمشق	من السالكين ـ له أثره في أصحاب السلطة	١٠٠٣هـ	ج ٣/ ٨٥
عبد الله الكردي الشافعي العلواني		جاور بدمشق ـ لفترة	من العلماء المتصوفة	١٠٠٦هـ	ج ٣/ ٨٥
الأمير علي بن أحمد بن جانبولاذ	كِلِّس	حلب	ثائر على الدولة	قتل ١٠٢٠هـ	ج ٣/ ١٣٥-١٤٠
الملا علي الكوراني	كوران	الموصل	إمام مسجد النبي جرجيس بالموصل	١٠٩٤هـ	ج ٣/ ٢٠٣
المنلا قاسم الكردي	؟	نزيل دمشق	مدرس إمام خادم مزار يحيى بن زكريا	١٠٦٨هـ	ج٣/ ٢٩٢
قاسم بن عبد المنان الكردي	مملوك معتق	نزيل دمشق	ناظر وقف سنان باشا بالشام	١٠٥٧ هـ	ج٣/ ٢٩٢-٢٩٣
المنلا محمد شريف بن المنلا يوسف الكوراني	؟	حج وجاور ـ ذهب لليمن وفيها توفي	صدر من صدور الأئمة الشافعية	١٠٧٨ هـ	ج ٤/ ٢٨٠-٢٨١
محمد الكردي صائم الدهر	؟	نزيل دمشق	شيخ فاضل صالح	١٠١٤هـ	ج٤/ ٢٨٧-٢٨٨
المنلا محمد الأخلاقي	؟	نزيل دمشق	كاتب ماهر في صناعة الكتابة	١٠٢١هـ	ج ٤/ ٢٩٤
محمد ملا جلبي الكردي	؟	نزيل بلاد الروم (القسطنطينية)	قاضي الشام ١٠٦٥هـ مؤلف	١٠٦٦ هـ	ج ٤/ ٣٠٨
المنلا محمود الكردي	؟	نزيل دمشق	متضلع في العلوم ومحقق	١٠٧٤هـ	ج٤/ ٣٢٩-٣٣٠
مصطفى بن قاسم بن عبد المنان	ابن مملوك معتق	مقيم بدمشق مع أسرته	من السابق متولي أوقاف السنانية بالشام	١٠٧٩ هـ	ج ٤/ ٣٨٥-٣٨٧
يوسف بن القاضي محمود الكوراني	؟	؟	عالم له مؤلفات	لا ذكر للوفاة	ج٤/ ٥٠٨
يوسف الأصم الصفراني الكردي	بلاد الأكراد	؟	له تفسير للقرآن ومؤلفات في الفقه	بعد الألف بقليل	ج٤/ ٥٠٩

المنلا أبو بكر المعروف أبوه بمنلا جامي*

(المنلا أبو بكر) بن عبد الرحمن المعروف أبوه بمنلا جامي[1]، الشافعي، الكردي، الحريري[2]. نزيل دمشق، المعروف بمعلم الوزير، المحقق البارع. كان إليه النهاية في العلوم والتحقيق، وكان فيه ورع وانعزال عن الناس، وكف عن مخالطة الحكام، مع ما كان عليه من الحظوة التامة عند الوزير الأعظم «الفاضل أحمد باشا»[3]. وأول وروده إلى دمشق كان معه، وذلك لما ولي حكومتها في سنة إحدى وسبعين وألف؛ وكان إمامه، وقرأ عليه كثيراً في أنواع العلوم. وهو ممن أخذ

(*) حياته (...-١٠٧٧هـ/ ...-١٦٦٦-١٦٦٧م).

(١) ورد في الكواكب السائرة جـ١/١٠٩ عند التعريف بأحمد بن محمد الحصكفي المعروف بابن المنلا، (والمتوفى عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م) بأن جده لأبيه كان قاضي قضاة تبريز، وشهرته بمنلا جامي (وردت في در الحبب جـ١/٢٠١ منلاحاج) ومن الواضح أنه ليس هو المقصود هنا، لأن البعد الزمني كبير بين الاثنين. ولكن قد يكون والد «المنلا أبي بكر» قد أعطي هذا اللقب، نسبة إلى أن اسمه هو «عبد الرحمن»، تشبيهاً له «بعبد الرحمن الجامي» المتصوف الكبير المتوفى عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م.

(٢) نسبة إلى بلدة باسم «حرير».

(٣) هو أحمد باشا «الكوبريلي» بن الصدر الأعظم «محمد باشا الكوبريلي» (١٠٤٥-١٠٨٧هـ/ ١٦٣٥-١٦٧٦). كان صدراً أعظم في سلطنة السلطان العثماني محمد الرابع (١٠٥٩-١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨-١٦٨٧م). وكان قبل وصوله إلى الصدارة العظمى في عام ١٠٧٢هـ-١٦٦١-١٦٦٢، والياً على الشام (عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠-١٦٦١). وقد عرف بحزمه، واتباعه نهج أبيه في إصلاح الأحوال المتدهورة للدولة العثمانية، كما عرف عنه حبه للعلم والعلماء والأدب والأدباء، إذ أنه ابتدأ طريقه من سلك المدرسين لا سلك الإداريين.
انظر: خلاصة الأثر جـ١/٣٥٢-٣٥٦.
Ency de l'Islam 1er ed... art (Kuprilli)..

عن الصدر العالم المحقق «عبد الرحمن الصهري»[1]، كما قرأته بخطه في إجازة كتبها «للعلاء الحصكفي»[2] مفتي الشام. ولما عزل الوزير عن الشام صحبه إلى قسطنطينية. وكان قد رغب في توطن دمشق، وطلب من الوزير بعض جهات تقوم به، واتفق إذ ذاك وفاة العلامة «محمد بن أحمد الأسطواني»[3] الآتي ذكره، وكان مدرس السليمية، فوجهها إليه، وأضاف إليها قضاء صيدا، وبعض جوالي، فقدم دمشق وتديّرها. وكان مداوماً على الإفادة، ودرّس بالجامع الأموي، في التفسير. وكان فضلاء الأكراد إذ ذاك يحضرون درسه، ويتأدبون معه جداً. وبالجملة فإنه آخر من أدركناهم بدمشق من محققي الأكراد. وكانت وفاته في سنة سبع وسبعين وألف، ودفن بمقبرة الفراديس المعروفة بمرج الدحداح[4]. رحمه الله.

(١) هو عبد الرحمن بن إبراهيم الكردي الصهري، الشافعي، نزيل ديار بكر، والمتوفى بين ١٠٦٤ و١٠٦٥هـ/ ١٦٥٣-١٦٥٤م. وكان من كبار العلماء الدينيين المحققين، وقد توافد عليه طلبة العلم من بلاد العجم وما وراء النهر. وله عدة مؤلفات.
انظر - خلاصة الأثر جـ٢/٣٤٥.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن الملقب بـ«علاء الدين الحصكفي» (١٠٢٥هـ-١٠ شوال ١٠٨٨هـ/ ١٦١٦-٦ كانون الأول ١٦٧٧م). من علماء دمشق الأحناف. نال إفتاء الشام عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م وبقي فيه حتى ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م، ثم عمل مدرساً في الجامع الأموي، والمدرسة السليمية، وقاضياً في قارة، وعجلون، وحماة، وصيدا.
انظر - خلاصة الأثر جـ٤/٦٣-٦٥، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام/ ٨١-٨٤. هدية العارفين جـ٢/٢٩٦، الأعلام جـ٧/١٨٨، معجم المؤلفين جـ١١/٥٦

(٣) هو محمد بن أحمد الأسطواني الدمشقي. فقيه، وواعظ، وأخباري. تنقل بين المذاهب السنية الثلاثة الحنبلي، فالشافعي، فالحنفي. أخذ العلم عن كثير من علماء دمشق ومصر، وارتحل إلى بلاد الروم حيث عمل واعظاً بجامع السلطان محمد الفاتح باستامبول. ثم عاد إلى دمشق وعمل بالتدريس في الجامع الأموي والسليمية، وكان يعمل على إزالة كل ما يراه منكراً. عاش خلال الفترة (١٧ محرم ١٠١٦هـ - ٢٦ محرم ١٠٧٢هـ/ ١٤ أيار ١٦٠٧م - ٢١ أيلول ١٦٦١م).
انظر - خلاصة الأثر جـ٣/٣٨٦-٣٨٨.

(٤) أكبر مقابر دمشق الشمالية وأشهرها، تقع في مرج أبي الدحداح. وهي معروفة اليوم في شارع بغداد. انظر: محمود العدوي. الزيارات دمشق ١٩٥٦/١٩.
صلاح الدين المنجد خطط دمشق. نشر مجلة المشرق بيروت ١٩٤٩/١١٧.

الشيخ أحمد العسالي*

(الشيخ أحمد) بن علي الحريري، العُسالي، الشافعي، **شيخ الخلوتية بالشام**، البركة، الولي، العابد، الزاهد، نزيل دمشق، وأحد الأفراد المتفق على صلاحه، وزهده، وورعه. وكان له في طريق القوم كلمات من النمط العالي. وشاع أمره، وطار صيته. وكان والده كردي الأصل، قدم من بلدة حرير، ونزل بقرية عسال[1] من ضواحي دمشق، فولد له بها أحمد هذا. فدخل في صباه دمشق، وأخذ بها عن بعض الصوفية. ثم ارتحل إلى حلب، وأخذ بها عن العارف بالله تعالى أحمد الدرعزاني[2]، من قرية دير عزة[3] تابع

---

* حياته (...-١٨ ذي الحجة ١٠٤٨هـ/ ...-٢٢ نيسان ١٦٣٩م).

(١) وتسمى بـ«عسال الورد» وهي قرية تقع إلى الشمال من دمشق، وتبعد عنها (٦١) كم. فهي ليست من ضواحي دمشق القريبة كما قد يفهم من النص.
انظر: جدول المسافات للقطر العربي السوري/ ٢٠.

(٢) أحد المتصوفة الخلوتية في قرية «دار عزة» قرب حلب وهو خليفة المتصوف الشيخ يعقوب من القرية نفسها، وقد توفي في اواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد أو أوائل الحادي عشر/ السابع عشر.
أنظر: ـ خلاصة الأثر جـ٤/٤٦٢ ترجمة (ولي المعروف بشاه ولي).

(٣) قرية تقع إلى الغرب من حلب، وعلى طريق حلب ـ إدلب القديم، وتبعد عن حلب ٣٢ كم.
أنظر ـ سالنامة ولاية حلب ـ تقويم ١٣٢٤هـ/٣٦٨
ـ كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٣ اجزاء ١٣٤١-١٣٤٥هـ/ ١٩٢٢-١٩٢٦م. ج١/٩٤٢ أوردها (دارت عزة).
ـ جدول المسافات/ ١١٥ وقد أتت فيه (دار تعزة).

حلب. وسافر إلى عينتاب[1]، واجتمع بالشيخ شاه ولي[2] الخلوتي، وعنه أخذ طريق الخلوتية. ورجع إلى دمشق، وسكن بصالحيتها مدة مديدة. وكان نواب الشام، وقضاتها، وأعيانها يسعون إليه، ويلتمسون دعواته، ويتبركون به، وربما أخذ بعضهم الطريق عنه. وقد أخذ عنه من أهالي دمشق وغيرها خلق لا يحصون كثرة وكانت علامات الولاية ظاهرة عليه، وهو في كل حال مَرْضيُّ السمت. وحدث بعض الثقات من أهل دمشق، أنه سافر إلى مصر في حياة العسالي، فاجتمع ببعض الخبيرين بفن الزايرجا، فسأله عن قطب ذلك الوقت فاستخرج أبياتاً باسم العسالي صاحب الترجمة، وسكنه، وشكله، وقريته. وما زال في إقبال من الناس، وشهرة تامة، حتى عمَّر له محافظ الشام أحمد باشا المعروف بالكجك[3] عمارته بالقرب من مسجد القدم[4]، وكان

---

(١) مدينة إلى الشمال من حلب، في البلاد التركية اليوم. وكانت مدينة كثيرة المياه والبساتين، وذات أسواق هامة، وبها قلعة حصينة. وكانت تعرف بدلوك.
انظر معجم البلدان جـ٤/١٧٦
- القلقشندي جـ٤/١٢١
- القرماني/ ٤٦٦.

(٢) هو ولي المعروف بين الناس «بشاه ولي» العيني الحنفي الخلوتي؛ كان أولاً جندياً في الجيش العثماني ثم سلك طريق التصوف، وأصبح له مريدون. وتوفي في ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.
انظر - خلاصة الأثر جـ٤/٤٦٢.

(٣) هو والي الشام ثلاث مرات: (١٠٣٨ - ١٠٣٩/١٦٢٨ - ١٦٣٠م) ثم في (١٠٤٢ - ١٠٤٤ هـ/١٦٣٢ - ١٦٣٤م)، وأخيراً عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م. وهو الذي حارب «فخر الدين المعني الثاني» وانتصر عليه، وأخذه أسيراً.
انظر: خلاصة الأثر ج١/ ٣٨٥ - ٣٨٨ - ولاة دمشق/ ٣١ - ٣٣.

(٤) القدم قرية من قرى غوطة دمشق الغربية، وعلى بعد خمسة كيلومترات منها أما مسجد القدم فهو مسجد قديم جدده أبو البركات محمد بن الحسن بن طاهر القرشي المعروف بابن المرار عام ٥١٧ هـ/١١٢٣م وبه قبره وقبر ابنته أسماء أم الشيخ فخر الدين بن عساكر. وقد دفن هناك طائفة من العلماء.
- جدول المسافات/١١.
- أنظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ٢/٣٦٢
وبالقرب منه اليوم ما يسمى «بمسجد العسالي» وهو الذي أنشأه أحمد كجك باشا للشيخ أحمد ابن علي العسالي شيخ الخلوتية، وشرط في وقفيته النظر لمن يكن مفتي دمشق.
أنظر: منتخبات التواريخ جـ٣/١٠٤٤.

ذلك في سنة خمس وأربعين وألف، وتقله إليها في سنة ست وأربعين وألف[١] فازداد اشتهاره، وشاع خيره. وممن أخذ عنه وبايعه من مشايخ دمشق الأستاذ الكبير أيوب[٢]، والسيد محمد العباسي[٣] شيخنا، وغيرهما. وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وألف. وصلي عليه تجاه قبة الحاج[٤]، عقب صلاة الجمعة. وكانت جنازته حافلة جداً ودفن بالعمارة المذكورة. والعُسالي بضم العين المهملة وبعدها سين مهملة وألف ولام، نسبة إلى قرية من قرى الجبة[٥] من نواحي دمشق. والقطب معروف وقد ورد فيه

---

(١) ١٠٤٥هـ، ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٥-١٦٣٦، ١٦٣٦-١٦٣٧.

(٢) هو الشيخ أيوب بن أحمد الحنفي الخلوتي الصالحي، عالم متصوف متضلع بكتب الشيخ ابن عربي. له عدة مؤلفات صوفية منها «الرسالة الأسمائية في طريق الخلوتية» عمل إماماً بجامع السلطان سليم بالصالحية (جامع الشيخ محيي الدين بن العربي)، كان شاعراً. عاش خلال (٩٩٤- فاتح صفر ١٠٧١هـ/١٥٨٦-٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٦٠م).
- انظر - خلاصة الأثر جـ١/ ٤٢٨ - ٤٣٣.
- الأعلام جـ١/ ٣٨٠.

(٣) هو محمد بن عمر العباسي الخلوتي الدمشقي الصالحي الحنبلي شيخ المحبي بالطريقة الخلوتية عالم متصوف كان له مريدون كثيرون. توفي عام ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥-١٦٦٦.
انظر - خلاصة الأثر جـ٤/ ١٠٣،

(٤) قبة الحاج: قبة قائمة قرب «باب الله» جنوب الميدان الفوقاني بدمشق، وهو الباب الذي كانت تخرج منه قافلة الحاج باتجاه الديار المقدسة. وكان باشا دمشق يستعرض قافلة الحج قبل انطلاقها عندها. ويبدو أن العثمانيين قد أقاموا هذه القبة على أنقاض «قبة النصر» أو «قبة يلبغا» المملوكية، حيث كان النائب المملوكي القادم من مصر ينزل فيها للراحة، ويلبس الجنود الثياب، والأمراء الخلع، ثم ينطلق الجميع بموكب حافل إلى داخل دمشق. وهي قائمة قرب زاوية العسالي.
أنظر - محمد أحمد دهمان دمشق في عهد المماليك. دمشق ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م. ص ١٣٦ - ١٣٧.
- عبد القادر الريحاوي في مجلة الحوليات الأثرية مجلد ١٥، جـ ٢/ ١٠.
- إبراهيم الخياري، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق رجاء محمود السامرائي ٣ أجزاء. بغداد ١٩٧٣ - ١٩٨٠، جـ٣/ ٩٦.
- Burckhardt J.L., Travels in Syria and the Holy Land London 1822. p.52-53

(٥) الجبّة: قرية في محافظة دمشق تبعد عن العاصمة شمالاً (٧٠) كم، وعن (عسال الورد) تسعة كيلومترات. ويذكر معجم البلدان بأنها تعرف «بجبّة عُسَيْل»، وأنها ناحية بين دمشق وبعلبك وتشتمل على عدة قرى.
- أنظر - جدول المسافات/ ٢٠.
- معجم البلدان جـ٢/ ١٠٨.

بعض الآثار. ونقل النجم الغيطي[1] عن شيخه القاضي زكريا[2] أن القطب موجود في كل زمان. كلما مات قطب أقام الله مكانه آخر، وهذا أمر معلوم مشهور، والمنكر لذلك محروم من بركة الأقطاب، معترف بأن منة الله تعالى لم تواجهه، وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها انتهى. وأما الوصف بالغوث، المشتهر بين الصوفية فلم يثبت. لكن أخرج الخطيب البغدادي[3]، وابن عساكر[4]، من طريق عبيد الله بن محمد العيشي[5] قال: سمعت

---

(١) هو محمد بن أحمد نجم الدين الغيطي (٩١٠-٩٨١هـ/ ١٥٠٤-١٥٧٣م) السكندري المصري، الشافعي انتهت إليه الرئاسة في علم الحديث والتفسير والتصوف. له عدة مؤلفات.
أنظر: الكواكب السائرة جـ٣/ ٥١-٥٣ وفيها وفاته في ٩٨٣ أو ٩٨٤هـ.
- الأعلام جـ٦/ ٢٣٤.

(٢) زكريا الأنصاري بن محمد (٨٢٣-٩٢٦هـ/ ١٤٢٠-١٥٢٠م) قاض من حفاظ الحديث ومفسري القرآن. اشتهر بعلمه وصلاحه. له مؤلفات عديدة.
- أنظر - الكواكب السائرة جـ١/ ١٩٦.
- الخطط التوفيقية جـ١٢/ ٦٢
- الأعلام جـ٣/ ٨٠-٨١.

(٣) هو أحمد بن علي أبو بكر البغدادي، المعروف بالخطيب (٣٩٢-٤٦٣هـ/ ١٠٠٢-١٠٧٢م). أحد كبار حفاظ الحديث، ومن المؤرخين نشأ وتوفي ببغداد. له عدة مؤلفات أشهرها تاريخ بغداد.
أنظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٧ أجـزاء مصر ١٩٠٧ - ١٩٢٥ ج١/ ٢٤٨.
- الأعلام جـ١/ ١٦٦ (أنظر مصادره عنه، أيضاً).
- دائرة المعارف الإسلامية ج٨/ ٣٩١ - ٣٩٣.
- وفيات الأعيان: ج١/ ٢٧.

(٤) هو علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم. ابن عساكر الدمشقي (٤٩٩-٥٧١هـ/ ١١٠٥-١١٧٦م). محدث الشام، والمؤرخ الحافظ الرحالة. مولده ووفاته بدمشق. له «تاريخ دمشق الكبير»، وهو في طريق التحقيق، وصدر منه ثلاثة أجزاء. كما له مؤلفات أخرى.
أنظر: - وفيات الأعيان ج١/ ٣٣٥.
- البداية والنهاية جـ١٢/ ٢٩٤
- دائرة المعارف الاسلامية ج١/ ٢٣٧.
- الأعلام جـ٥/ ٨٢-٨٣.

(٥) عبيد الله بن محمد العيشي: عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر أبو عبد الرحمن المعروف بالعيشي والعائشي. محدث في البصرة توفي ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م وكان عالماً بأنساب العرب وحافظاً لها.
- أنظر ابن حجر العسقلاني. تهذيب التهذيب ١٢ جزءاً حيدر آباد ١٣٢٦هـ. جـ٧/ ٤٥-٤٦
- الأنساب جـ٩/ ١٠٦-١٠٧.

الكناني[1] يقول: النقباء ثلاثمئة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد. فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سائحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة. فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل بها النقباء ثم النجباء، ثم الأبْدال، ثم الأخْيار، ثم العُمُد، فإن أجيبوا، وإلا ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته. والخلوتية معروفون، ونسبوا إلى الخلوة لأنها من لوازم طريقتهم. قال الأستاذ أيوب في رسالته «الأسمائية»: وليدخل الخلوة السرية، وهو التفريد بالله ذكراً في وجوده، والغيبة به عما سواه. فإن تيسر مع ذلك خلوة الشخص عن الخَلْق، بأن يجلس في مكان طاهر، والأفضل أن يكون مسجد جماعة، وأن ينوي الاعتكاف والصوم الشرعي. والأولى أن يتجرد عن كثرة الأكل والشرب إذا أفطر، وإذا ترك الشرب فإن ذلك أولى، فإن العطش في الطريق أمر عظيم، بل هو مسرع الفتح إذا ساعد التوفيق والعناية. ويشرب شيئاً من الماء، والدبس، أو العسل. ويكون ذكره في الخلوة لا إله إلا الله، فإن عجز عن ذكرها في الظاهر، فيرجع إلى اسمه في الباطن، فيذكره. ولا ينام في الليل قليلاً ولا كثيراً بل بعد صلاة الإشراق، لتنجلي له وقائعه. وإن كانوا جماعة فكذلك، إلا أنهم يذكرون الله جميعاً بقوة عزم. وإن وجد حادٍ ينشد لهم من كلام السادة الصوفية، فلا بأس ليروّحهم. فإن المجاهدة لها كرب على النفوس. والخلوة بالجماعة لا تتجاوز الثلاثة أيام. وخلوة الواحد ما شاء من

---

* وقد ورد الاسم في ابن عساكر: تاريخ دمشق المجلدة الأولى تحقيق صلاح الدين المنجد جـ١/٢٨٨ «عبيد الله بن محمد العيسي» إلا أنه لم يرد ضمن المحدثين من يحمل هذا الأسم مع اسم الأب محمد. ويبدو أن «عبيد الله بن محمد العيشي» هو الأصح.

(١) الكناني: ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر، المجلدة المشار إليها أعلاه«الكتّانـي». ولكن يبدو أن «الكناني» أصح، لأنه إذا ثبت أن المقصود بالكناني هو «أبو النضر هاشم بن القاسم بن الكناني الملقب بالقيصر» وهو محدث ثقة، توفي ببغداد عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، فإن «العيشي» و«الكناني» يكونان من طبقة واحدة.

أنظر حول الكناني: الأنساب جـ١٠/٤٧٧.

ثلاثة، وسبعة، وخمسة عشر، وثلاثين، شهراً كاملاً، وسبعين، وعاماً، ثم العمر كله، وهو الخلوة المطلقة بالسر المطلق. قال بعضهم: لا يتخلص الإنسان من أحكام النفس، إلا إذا توالت مجاهدته، وتتابعت حولاً كاملاً، فلا تعود أوصافها إليه. وإن عادت لا تستولي على الإنسان، بل تزول بأدنى توجه بعد ذلك. وأما عندنا فإن فعل ذلك فلا يأمن، بل يجمع بين المجاهـدة والأدب في عدم الركون إلى النفس. والسادة الخلوتية اختاروا في السلوك اثني عشر اسمًا، تذكر بالترتيب، شيئاً بعد شيء، على حسب الوارد. فلا يذكر الثاني حتى ترد موارده على الأول، ويقع الإذن بذكر الثاني، فيذكر مع قوة الاجتهاد، وثبات الجأش وعلو الهمة، والثالث، والرابع، إلى الثاني عشر. وذِكْرُها له ثلاثة شروط: الأول كتمانه عن سائر الناس. الثاني الطهارة في الحس بالوضوء، أو الغسل، والمعنى بالأخلاق الحسنة النافية للأخلاق السيئة. الثالث المداومة عليها في كل حال، وعدم المبالاة بالخلق في الإقبال والإدبار. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿واذكُرِ اسمَ ربِّك وتبتَّلْ إليه تبتيلاً﴾[1]. وقال تعالى ﴿وَذَكر اسمَ ربه فصلَّى﴾[2] وإن أراد السالك أن يسرع إليه الخير فليلزم الذِكْر، وليخلص فيه إخلاصاً يُحَقِّر السَريَّ في عينه، كأنه باق على عدميته الأصلية، وهو كذلك فلا وجود لشيء مع الحق جلَّ وعلا.

---

(١) الآية (٨) من سورة المزمّل (السورة ٧٣).

(٢) الآية: ﴿قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلّى﴾. وهي الآية (١٥) من سورة الأعلى (السورة ٨٧).

قاسم بن عبد المنّان*

(قاسم) بن عبد المنّان، الكردي الأصل، نزيل دمشق، **ناظر وقف**[1] **سنان باشا**[2]، **بالشام**، وأحد الكبراء الصدور، هو في الأصل من عتقيّ الوزير الأعظم «سنان باشا» المذكور، خدمه في صغره، ثم خدم ابنه «محمد باشا»[3] وهو نائب حلب؛ وكان وكيل خرجه[4]، وغضب عليه آخر أمره بسبب أن سوقة حلب

(*) حياته، (. . .-٢٢ ربيع الأول ١٠٥٧هـ/ . . .-٢٧نيسان (أبريل) ١٦٤٧م.

(١) أي المفتش على الوقف. فقد كان لكل وقف خيري متولٍ وناظر. والناظر هو الذي يراقب المتولي Gibb and Bowen op. cit Part II p. 170

(٢) هو يوسف بن عبد الله الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، والمتوفى في ٥ شعبان ١٠٠٤هـ/ ٥ نيسان ١٥٩٦م. كان والياً لدمشق لسنة وسبعة أشهر (٩٩٤-٩٩٦هـ/ ١٥٨٦-١٥٨٨). وعرف عنه حب العمران فقد أنشأ عديداً من المساجد، والجسور والخانات وغيرها في أنحاء الدولة العثمانية، وعمر بدمشق جامع السنانية خارج باب الجابية، وجامعاً بسعسع، وآخر بالقطيفة، ورابعاً في عيون التجار مع تكايا مضمومة إليها. وإلى جانب جامع السنانية عمر سوقاً وقهوة. وهو الذي كلّف بإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية، وهو أيضاً الذي فتح تونس وحلق الواد.

- انظر - لطف السمر جـ٢/ ٧١٤-٧١٦؛ خلاصة الأثر جـ٢/ ٢١٤-٢١٧. ولاة دمشق/ ٢٠.

(٣) ولي الشام مرتين مرة في حياة أبيه (٩٩٨هـ-٩٩٩هـ/ ١٥٩٠-١٥٩١م)، ومرة بعد وفاته سنة ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٤م. وكان عاتياً وجباراً - كما وصفه النجم الغزي - وعندما عزل عن الولاية بالوالي «عثمان باشا» بعد خمسة أشهر تقريباً، فإن الأخير قبض عليه بموجب حكم سلطاني وأخرج من دمشق، ثم قتله السلطان في أوائل جمادى الأولى عام ١٠١٤هـ/ أواسط أيلول ١٦٠٥م.

- انظر - لطف السمر جـ١/ ١٢٥-١٢٩.

(٤) الخَرْج: أي الصرف والنفقة. وكيل الخرج: أي وكيله في الانفاق على مختلف شؤونه.

طالبوه بما لهم عنده من المصرف، وكان مقداره تسعة آلاف قرش، فطلبه من مخدومه، فطرده، وألزمه بإعطاء المبلغ من ماله، فأعطاه، ولم يبق عنده بعد ذلك إلا ثياب بدنه.

وخرج من حلب إلى دمشق، وأقام عند «يوسف آغا»(١) ناظر وقف السنانية. واتفق أن مخدومه ولي نيابة الشام، فصيّره أيضاً وكيل خرجه، وفعل معه فعلته الأولى؛ فبقي بعده بدمشق. ولما مات «يوسف آغا» المذكور، ولي النظارة مكانه، ونجحت آماله، وأخذ في تنمية الوقف، وعمارة مسقفاته. وشاع أمره، وتملك دار العدل(٢) المنسوب تعميرها إلى السلطان نور الدين الشهيد(٣) بالقرب من باب السعادة(٤)، وعمرها عمارة متقنة. ثم سافر إلى الروم في سنة ثلاث وثلاثين

---

(١) لم يعثر له على ترجمة أوفى مما ورد في النص.

(٢) كانت في مدخل سوق الحميدية اليوم جنوبي غربي قلعة دمشق، وغربي جامع الأحمدية بناها «نور الدين الشهيد» (٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م) ملك الشام والجزيرة ومصر، وأسماها «دار العدل» وجعلها المكان الذي يجلس فيها في الأسبوع أكثر من مرة لإقامة العدل وإحقاق الحق هو والقاضي والفقهاء من سائر المذاهب وفي عهد المماليك أصبحت مقراً لنواب دمشق، وعممت التسمية على جميع مقرات النواب في النيابات الشامية. ثم غدا الاسم «دار السعادة». وظلت التسمية الأخيرة قائمة في العهد العثماني، بل وانتقلت إلى استامبول نفسها، حيث أطلقت أولاً على قصر السلطان، ثم على العاصمة نفسها، التي أسميت (در سعادت). ويبدو أنها هدمت بعد عام ألف للهجرة، وحلّت محلها دور خاصة.

- انظر - ابن كثير جـ١٢/ ٢٧٩-٢٨٠؛ الدارس جـ١/ ٢٧١ الحاشية (٣)، إعلام الورى (تحقيق دهمان) ص٨ الحاشية (٢)، و(تحقيق خطاب) ص٩ الحاشية(١)؛ منتخبات التواريخ جـ٣/ ١٠٧٨، ١٠٩٢.

(٣) هو محمود بن زنكي عماد الدين ابن اقسنقر، نور الدين الملقب بالملك العادل (٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م) ملك الشام والجزيرة مصر. ولد في حلب، وورث إمارتها من أبيه، وضم دمشق إلى ملكه مدة عشرين سنة، وامتدت سلطته على بلاد الجزيرة ومنها الموصل وديار بكر، وعلى مصر بفضل صلاح الدين الأيوبي جاهد الصليبيين، وحصّن مدن الشام، وبنى المدارس الكثيرة. كان محباً للعلم، والعدل، والجهاد. توفي في دمشق وقبره في المدرسة النورية التي بناها للأحناف.

انظر - وفيات الأعيان جـ٢/ ٨٧؛ ابن كثير جـ١٢/ ٢٧٧-٢٨٦؛ الدارس جـ١/ ٩٩ و٣٣١، و٣٦١، و٤٤٧، و٦٠٧-٦١٥؛ الأعلام جـ٨/ ٤٦-٤٧.

(٤) المقصود من «باب السعادة» أي مقر الولاة العثمانيين في دمشق. ويبدو أن هذا المقر قد بني بالقرب من «دار السعادة» أو «دار العدل» السابقة.

وألف[1] ، وحجّ مرتين. وصار وكيلاً عن نواب الشام مرات. وعمّر ضريح سيدي «سعد بن عبادة»[2] الصحابي، رضي الله تعالى عنه، بقرية المنيحة[3] ، تابع وقف السنانية، وبنى عليه قبة لطيفة، وأحدث إلى جانبه مسجداً، وبالجملة فقد صار من ألطف المتنزهات. وله غير ذلك من المآثر الدالة على متانة رأيه، وحسن تصرفه. والحاصل إنه كان كبير الجاه والعقل، وله التصرف التام في الأمور.

وكانت وفاته نهار الأحد ثاني وعشرين شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين بعد الألف، ودفن بمقبرة باب الصغير. وسيأتي ابنه مصطفى[4] حرف الميم إن شاء الله تعالى.

---

(١) ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣-١٦٢٤م.

(٢) هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي أبو ثابت (...-١٤هـ/ ٦٣٥م) من أهل المدينة، وكان سيد الخزرج فيها. وكان من أول من أسلم من الأنصار، وشهد أحداً والخندق وغيرها. لما توفي رسول الله ﷺ، هفت نفسه إلى الخلافة، ولم يبايع أبا بكر، ولم يرتح لعمر بن الخطاب، فهاجر إلى بلاد الشام.
- انظر - صفة الصفوة جـ١/٢٠٢؛ طبقات ابن سعد جـ٣/١٤٢- ابن كثير جـ٧/٣٣، ٤٩. وفيه يرجح أن وفاته كانت عام ١٣هـ/٦٣٤م، وأن موته كان بأرض الشام والمشهور أنه بحوران. إلا أنه يضيف أنه عند كثير من أهل زماننا أنه دفن بقرية من غوطة دمشق يقال لها «المنيحة» وبها قبر مشهور به ويعلّق على ذلك بقوله: «ولم أر الحافظ ابن عساكر تعرض للذكر هذا القبر في ترجمته بالكلية فالله أعلم».

(٣) وتسمى أيضاً «المليحة» وهي من قرى غوطة دمشق الغربية، وتبعد (١٠ كم) عن مدينة دمشق. جدول المسافات/ ١٨.

(٤) هو مصطفى بن قاسم بن عبد المنان (١٠٢٧- أوائل شعبان ١٠٧٩هـ/١٦١٨ - أوائل كانون الثاني (يناير) ١٦٦٩م). أخذ مكان أبيه في تولي أوقاف «سنان باشا» وانحاز إلى كبراء «جند الشام»، وعاش في بحبوحة. وعرف بنكاته، وظرف مجلسه.
انظر - خلاصة الأثر جـ٤/٣٨٥-٣٨٧.

محمد ملّا جلبي الكردي*

(محمد) الشهير بملا جلبي[1] الكردي، **قاضي القضاة بدمشق**. محقق الزمان، وأستاذ الأساتذة، ورأس الجهابذة. أخذ ببلاده عن الجلّة من المحققين، ثم دخل الروم، فملأت شهرته أرجاها، وقصرت عليه مهرة الطلاب رجاها، واشتغل عليه جلٌّ من نبل بعد السبعين وألف[2] من علماء الروم ورؤساء صدورها، وأجلّهم أستاذي المرحوم «شيخ محمد عزتي»[3]

(*) انظر عنه ولاة دمشق في العهد العثماني/ ٣٧ هامش (١)، وفيه وفاته عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤-١٦٥٥م.
حياته (...-١٠٦٦هـ/ ...-١٦٥٥-١٦٥٦م.

(١) جلبي: كلمة تركية لم يتثبت من معناها الأول، إلا أنها استخدمت في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد لقباً لمن هم في مرتبة الأمراء، ولكبار رجال الدين في الدولة ولكبار العلماء والمتصوفة. وأول من عرف بهذا اللقب «جلبي حسام الدين» المتوفى ٦٨٣م، الذي خلف «جلال الدين الرومي» في مشيخة المولوية. ويبدو أنه كان يقصد من الكلمة المثقف والمبدع، وقد استخدم مكانها أحياناً لفظة «أفندي» المستعارة من اليونانية، وقد تكون الكلمة مستعارة من اللغة الكردية «ضلبي» وتعني الشرف و(ضلب) وتعني (إله).
انظر - دائرة المعارف الإسلامية ج٧/ ٧٠ - ٧٤.

(٢) ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩-١٦٦٠م.

(٣) هو محمد بن لطف الله بن زكريا بن بيرام الشهير بشيخ محمد عزتي (صفر ١٠٣٩هـ - ١٣ شوال ١٠٩٢هـ/ أيلول - تشرين الأول (سبتمبر - اكتوبر) ١٦٢٩-٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٨١م، من علماء الأتراك العثمانيين وأدبائها الكبار، تولى مناصب قضائية حتى وصل إلى قضاء عسكر الروملي. كان أستاذ «المحبي» في القسطنطينية، وله مجالسه العلمية والأدبية فيها.
انظر - خلاصة الأثر جـ٤/ ١٣١-١٤٢.

قاضي العسكر، والمولى «صالح الشهير بإسحق زاده»[1] المقدم ذكرهما ثم درّس بمدارس الطريق المعتبرة عندهم، وألف نفائس التأليف. وقد وقفت له على كتاب سماه الأنموذج، أحسب أنه ذكر فيه سبعة مباحث من سبعة علوم، أبان فيها عن تحقيق باهر. وهذه التسمية مسبوقة «للشمس الفنري»[2]، فإنه ألف كتاباً سماه «الأنموذج»، ذكر فيه مائة وعشرين علمًا، ثم تلاه «الجلال الدوّاني» في تسميته كتابه، ذكر فيه عشرة مباحث من عشرة علوم[3]. ولصاحب الترجمة تأليف ورسائل غير ما ذكر. وله في التفسير ومتعلقاته باع طويل.

ثم ولي قضاء الشام بعد أستاذي «عزتي» المذكور في غرة رجب سنة خمس وستين وألف[4]، ومات بها في سنة ست وستين وألف، ودفن بمدفن السنانية[5].

---

(١) هو صالح بن إسحاق الشرواني الأصل، القسطنطيني المعروف بظهوري، واسحاق زادة. من أجل علماء الدولة العثمانية وأدبائها. له عدة مؤلفات. وقد عمل في التدريس في استامبول، وفي القضاء، وعيّن قاضياً لمصر. وبها توفي عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢-١٦٧٣.
- أنظر - خلاصة الأثر جـ٢/٢٣٧-٢٣٨.

(٢) هو محمد بن حمزة بن محمد شمس الدين الفناري أو الفنري الرومي (٧٥١-٨٣٤هـ/ ١٣٥٠-١٤٣١م) عالم بالمنطق والأصول، وكان مقربا من السلطان «بايزيد خان الأول». ولي قضاء بروسه، وزار مصر واجتمع بعلمائها، وكذلك الديار المقدسة له عدة مؤلفات منها «شرح إيساغوجي» في المنطق و«أنموذج العلوم».
- أنظر - الفوائد البهية/ ١٦٦؛ شذرات الذهب جـ٧/٢٠٩؛ الشقائق النعمانية/ ١٦-٢١؛ الأعلام جـ٦/٣٤٢.

(٣) ورد في هامش الترجمة، تعليق من محقق الكتاب على كتاب «الأنموذج» ذكر فيه ما يلي: «الكتب المسماة بالأنموذج تزيد على العشرة» أنظر «كشف الظنون المطبوع».

(٤) غرة رجب ١٠٦٥هـ/ حوالي ٧ أيار (مايو) ١٦٥٥م.

(٥) قد يكون «جامع السنانية» نفسه.

المنلا محمود الكردي*

(المنلا محمود) الكردي، نزيل دمشق، وأعلم العلماء المحققين بها، الأستاذ العلامة، المحقق المدقق. كان أعجوبة الزمان في التضلع من العلوم، والاستحضار العجيب، وقوّة الحافظة، التي لم تشاهد في غيره من أبناء جنسه. فإنه كان كثيراً ما يُقرأ عليه الكتب المطوّلة، فإذا تصحف شيء من عباراتها أملاها كما هي. وكثيراً ما يؤتى بنسخ مصححة، فيطابقها ما يسرده من غير روية ولا فكر. وقد أقام بدمشق نحو ستين سنة، منهمكاً على إقراء العلوم. وأكثر قراءته لكتب الأعاجم، وهو أوّل من عرّف طلبة الشام تلك الكتب، وقوّاهم على قراءتها وإقرائها، ومنه انفتح باب التحقيق في دمشق؛ هكذا سمعنا مشايخنا يقولون. وكان نَفَسُه مباركاً، وكان في غاية الصلاح، والزهد، والتغفل، والتواضع وأقام هذه المدّة ساكناً بالقرب من المدرسة الجقمقية[1]. ولم يحصل له من الوظائف، والمعاليم إلا النزر القليل. وكان إذا أتم الدرس، وتوجه لنحو بيته، يسأل عن البيت من يلقاه لتغفله. وأما فيما يتعلق بالعلم، فكان أبلغ مستحضر سُمع، وهذه كرامة له بلا شك ولا مرية. وكان إذا سئل

(*) حياته (...-١٠٧٤هـ/ ...-١٦٦٣-١٦٦٤م).

(١) مدرسة بناها الناصر حسن بن محمد قلاوون الصالحي حوالي سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م، شمالي الجامع الأموي بدمشق وأصابها الحريق عند هجوم تيمورلنك، فجددها سيف الدين جقمق ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م فنسبت اليه. وهي من مدارس الحنفية. وقد حوّلت في الوقت الحاضر الى متحف للخط العربي، وتقع شرقي حديقة ضريح صلاح الدين الأيوبي.
انظر: الدارس: ج١/ ٤٨٩ ـ العلموي/ ٨٢ ـ خطط الشام ج٦/ ٩١ ـ منادمة الأطلال/ ١٦٠.

عن عمره، يقول: مائة وخمسة وثلاثون ظنّاً، ومائة وخمسة وعشرون قطعاً. ولما ورد دمشق، كان في عداد أساتذة الأكراد المتبحرين، «كالخلخالي»[1] وأضرابه. وحكى المولى المحقق «محمد الكردي الشهير بملا جلبي»، قاضي قضاة الشام، أن صاحب الترجمة كان في ابتداء أمره، أجلَّ من نوّه بقدره بين المحققين. وكان في أيام اشتغاله مشاراً إليه. وغالب المشايخ يلزمون طلبتهم بالتلمذة له، والأخذ عنه، ويقولون إنه فهّامة الزمن، وملّا جلبي المذكور أحد من أخذ عنه. ولما ورد الشام قاضياً كان يعظّمه ويجلّه. وأكثر الفضلاء المشهورين بدمشق أخذوا عنه، وانتفعوا به، أجلّهم شيخنا العلامة «إبراهيم بن منصور الفتال»[2]، وسيدنا المفضال «أبو الصفا محمد بن أيوب»[3]، ومشايخنا الأجلاء: «عبد القادر بن عبد الهادي»[4]، و«عثمان بن محمود المعيد»[5]، و«إسمعيل بن علي الحائك»[6]، وغيرهم ممن لا يحصى. وكانت وفاته في سنة أربع وسبعين وألف، ودفن بمقبرة باب الفراديس. رحمه الله تعالى.

---

(١) هو السيد حسين الحسيني الخلخالي، من مشاهير العلماء والمحققين، له عدة مؤلفات توفي ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥-١٦٠٦م. أنظر خلاصة الأثر جـ٢/١٢٢.

(٢) انظر حوله ص(٧٠-٧١) من هذه الدراسة وخلاصة الأثر جـ١/٥١-٥٣.

(٣) محمد بن أيوب بن أحمد الخلوتي الحنفي الدمشقي، من أدباء دمشق ومتصوفتها (١٠١٦-١٠٧٢هـ/ ١٦٠٧-١٦٠٨- ١٦٦١- ١٦٦٢م،
انظر خلاصة الأثر جـ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٤) ، (٥)، (٦)، أنظر الصفحات ٨١ - ٨٢، ٨٦، ٨٧ من هذه الدراسة.

فهرس معجمي عام

[أ]

[ب]

[ت]

[ح]

[خ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ز]

[س]

[ش]

[ص]

[ض]

[ط]

[ظ]

[ع]

[غ]

[ف]

[ك]

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

الفهرس المعجمي
لأسماء المؤلفات ومؤلفيها
الواردة في متن الكتاب وهوامشه

إسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
ديوان شعر	المتنبي	١٣٦
ديوان شعر	محمد الأمين المحبي	١٣٥، ١٣٦
ديوان الفردوس	حالد بن يزيد بن معاوية	٣٦٦
[ذ]		
ذكرى حبيب	يوسف البديعي	٣٠٨
ذيل ابن فهد: انظر: بلوغ القرى لذيل إتحاف الورى لعمر بن فهد	عبد العزيز بن عمر بن فهد	٣٢٠
ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان	حسين خوجة	١٧
ذيل تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني	فضل الله المحبي	٣٠٨
ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد	أسعد طلس	٢١٠، ٢٧٨
ذيل الشقائق النعمانية لطاشكبري زاده انظر: (حدائق الحقائق).	ابن نوعي	٣١١، ٣٣٥
ذيل على تاريخ عبد القادر العيدروس: انظر المسنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر	محمد الشلي	٣٠٩
ذيل قضاء دمشق حتى سنة ألف للهجرة في كتاب (قضاة دمشق)	شرف الدين موسى الأنصاري	٥٠
ذيل مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس	عبد الباسط العلموي	٣٣
ذيل نفحة الريحانة	محمد الأمين المحبي	٤٢- ٤٥، ٦٣، ٧٦- ٧٨، ١٠٧، ١١١، ١٢٨، ١٢٩- ١٣٤، ١٤١، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣٢١
ذيل يتيمة الدهر للثعالبي انظر: دمية القصر	الباخرزي	٩١
[ر]		
راحة الأرواح وجالبة السرور والأفراح	محمد الأمين المحبي	١٤٢، ١٤٣
الرحلة التبريزية	محمد بن أبي بكر المحبي	٩٢، ٢٦٣، ٣٢٧
الرحلة الحجازية	محمد نجم الدين الغزي	٩٢
الرحلة الحلبية	الحسن البوريني	٩٢
الرحلة الحلبية	فضل الله المحبي	٦٠، ٩٢، ٢٦٤، ٣٢٧
الرحلة الرومية	فضل الله المحبي	٦٠، ٩٢، ٣٢٧
الرحلة الرومية	محمد بن أبي بكر المحبي	٩٢، ٢٦٣، ٣٢٧
رحلة الشتاء والصيف	محمد كبريت	٣٥، ٩٢، ٢٦٤، ٢٧٥، ٣١٦، ٣٢٨، ٥٠٩
الرحلة الطرابلسية	الحسن البوريني	٩٢
الرحلة في سورية والأرض المقدسة (بالانكليزية)	بوركهاردت	٥٤٦، ٥٤٨
الرحلة المصرية	محمد بن أبي بكر المحبي	٩٢، ٢٦٣، ٣٢٧

اسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
رسائل في الكيمياء	جعفر الصادق	٣٦٥، ٤٤٤
الرسالة الأسمائية في طريق الخلوتية	أيوب بن أحمد الخلوتي	٧٤، ٥٤٦
الرسالة الاصطرلابية	محمد البهاء العاملي	٥٠٠
رسالة الحسب	أحمد بن سالم الخلوتي	٣٣٤
رسالة الربع		١٠١
الرسالة العضدية	العضد الإيجي	٨٢
رسالة في الاصطرلاب	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
رسالة في أنواع الأطعمة وكيفية طبخها	تاج الدين النقشندي	٤٤٠
رسالة في تنزيه الإمام مالك	أحمد بن محمد البكري	٤٥٣
رسالة في الربع المقنطر	عبد الجليل عبد الهادي	٢٥٥
رسالة في سلوك الكبروية	تاج الدين النقشبندي	٢٦١، ٤٤٠
رسالة في طريقة السادة النقشبندية	تاج الدين النقشبندي	٤٣١
رسالة في علم المجيب	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
رسالة في علم المساحة	رجب بن حسين الحموي	٢٥٦
رسالتان في علم الميقات بلا آلة	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
رسالة في كيفية غرس الأشجار	تاج الدين النقشبندي	٤٤٠
رسالة في معرفة اتفاق المطالع واختلافها	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
رسالة في معرفة ظل الزوال كل يوم لعرض مكة	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
رسالة في المقنطر	محمد الشلي الحضرمي	٢٥٥
الرسالة الهلالية	محمد البهاء العاملي	٥٠٠
رسالة في الهندسة	عبد الجليل بن عبد الهادي	٢٥٥
رشحات عين الحياة	الحسين بن علي الواعظ البيهقي	٤٣١
رشف الضرب من لسان العرب	عبد الله الطبلاوي	١٢٨
رفع الإصر عن كلام أهل مصر	يوسف المغربي	٢١
روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح	روح الله بن عيسى لطف الله	٣١٥
الروض الأريعين والفيض المستفيض	عبد القادر العيدروس	٤٥٣
الروض المعطار في خبر الأقطار	عبد المنعم الحميري	٥١، ٥٢، ١٤٨-١٥٠، ٤٨٥- ٤٨٧، ٤٩٤، ٤٩٧، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢٢، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٣٠
الروضات	الحافظ الكربلائي	٥٠٣
روضات الجنات في أصول العلماء والسادات	الخوانساري	٤٩٥، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٢٣
الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية	أبو شامة عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي	١٢٣

إسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
ريحانة الألبا	أحمد شهاب الدين الخفاجي	٢٠، ٢١، ٢٩، ٣١، ٤٥، ١٢٩، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٥، ٢٠٢، ٣٠٤، ٣٠٨- ٣١٠، ٣٢٣، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٥٣، ٤٩٨، ٥٣٢، ٥٣٣
ريف حلب في النصف الأول من القرن الحادي عشر من وثائق المحاكم الشرعية	خضر أحمد عمران	٢٨٧

[ز]

إسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
الزبدة في الأصول	محمد البهاء العاملي	٥٠٠
زعماء الاصلاح في العصر الحديث	أحمد أمين	١٩
الزنبيل (مختصر الكشكول لمحمد البهاء العاملي)	محمد كبريت	٥٠٩
زنبيل الأعمال	محمد المناشيري	٣٢٢
الزهر الباسم من روض الأستاذ حاتم	عبد القادر العيدروس	٣٠١، ٣١٧، ٤٥٣، ٤٥٤
الزيارات	محمود العدوي	١٢٣، ٥٤٣

[س]

إسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
سالنامة ولاية حلب	حكومة الدولة العثمانية	٥٤٤
سانحات دمى القصر	درويش محمد الطالوي أبو المعالي	٣٣٢، ٥٠٠، ٥٢٩
السراج في علم الحجاج	الحافظ الباجي	٣٤٨
سر الأسرار (سر الصناعة)	أبو بكر الرازي	٣٦٤
سرور السرائر وفسحة الأرواح وراحة القلوب	حسن الحضرمي	٣٣٢
سلافة العصر في محاسن الشعراء في كل مصر	علي بن معصوم	٤٥، ١٣١، ١٤١، ٢٩٦، ٣١٠، ٣٤٣، ٣٩٤، ٥٣٢
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر	المرادي	١٦، ٢٣، ٢٨، ٤٢- ٤٤، ٦٤، ٦٥، ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٨٥- ٨٧، ١٠٦، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٥٥، ٣١٠، ٣٣٠
سلوة الغريب	علي بن معصوم	٣١١
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي	عبد الملك العصامي	١١٧
السموم	جابر بن حيان	٣٦٥
السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر	محمد الشلي	٢٨، ٣٠٩، ٤٤٨

اسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
السيرة النبوية	محمد بن إسحاق	١٤٦
السيف الشهير على من جوّز استبدال الوقف بالدراهم والدنانير	حنيف الدين المرشدي	٢٢١

[ش]

[ص]

[ق]

[ن]

اسم المؤلَّف	المؤلِّف	الصفحة
نزهة الخاطر وبهجة الناظر	شرف الدين موسى الانصاري	٢٧٩
نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر	عبد الحي الحسني	٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣٢- ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٥٤،
نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق	يوسف بن عبد الهادي	٢٧٨، ٢٧٩.
النزهة الزكية في ولاة مصر والقاهرة المعزية والقاهرة المعزية	محمد بن أبي السرور البكري الصديقي	٢٠
نشأة الأتراك العثمانيين وخلفيتهم التاريخية	لانغر وبليك	٨
نشأة الامبراطورية العثمانية	ويتيك	٨
نصر من الله وفتح قريب	محمد كبريت	٣١٦، ٥٠٩
نصيحة الأخوان باجتناب شرب الدخان	إبراهيم اللقاني	٢٠٥
النفحات الإلهية في موعطة النفس الزكية	تاج الدين النقشبندي	٤٣٢
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب	المقرّي	٤٦٢، ٥٢٥
نفحات الأنس	عبد الرحمن جامــي	٤٣١
نفحات الأزهار على نسمات الأسحار	عبد الغني النابلسي	٧٨
نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة	محمد الأمين المحبي	٢١، ٢٩، ٣١، ٤٢- ٤٥، ٤٧، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٨، ١٠٥، ١٠٧، ١١٣- ١١٥، ١١٧- ١٢٠، ١٢٦، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١- ١٤٥، ١٥٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣٨- ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٣٥، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨٤.
النفحة العنبرية في شرح البتين العدنية	عبد القادر العيدروس	٤٥٢
نهر الذهب في تاريخ حلب	كامل الغزي	٥٢، ٥٤٤
نهاية الطلب	؟	٤٥٢
نهاية الطلاب في علم الحساب	بدر الدين محمد الإربلي	٤٥٢
النور السافر عن أخبار القرن العاشر	عبد القادر العيدروس	٢٨، ٣١٧
نور العيون بما تفرق من الفنون	عمر بن فهد المكي	٣١٩
نيل الاهتداء في فصل الارتداء	أحمد المتبولي	١٩٩

إسم المؤلَّـف	المؤلِّـف	الصفحة
	[هـ]	
الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية	محمد الامين الكردي الأربلي	٤٣٠، ٤٤٢، ٤٤٣
الهداية في شرح البداية	علي بن أبي بكر المرعيناتي	٧٣
هدية العارفين	إسماعيل باشا البغدادي	٤٤٧، ٤٨٥، ٥١٩، ٥٤٣
الهشت بشت (الجنان الثمان)	إدريس البدليسي	٥٣٨
	[و]	
الوافي بالوفيات	صلاح الدين الصفدي	٣٢٠
واقعتنامة	المولى أويس	١٧٩، ١٨٠
الوثائق العثمانية عن فلسطين (بالانكليزية)	أوريل هيد	٢٧٦
وثائق محاكم دمشق الشرعية وأهميتها في كتابة تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني	عبد الكريم رافق	٦٩
وصايا	محيي الدين بن عربي	٤٦٣
وصية ثامة	عبد الخالق الغجدواني	٤٣٢
وفيات الأعيان وأبناء أناء الزمان	ابن خلكان	٨٢، ٩٦، ١٠٣، ١٤٧، ١٨٠، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٢، ٤٢٣، ٤٤٤، ٤٥٠، ٥٢٤، ٥٤٧، ٥٥١،
ولاة دمشق في العهد العثماني	ابن جمعة المقـار ـ رسـلان القاري ـ (صلاح الدين المنجد)	١٦، ٥٥٠، ٥٥٣.
	[ي]	
يتيمة الدهر	الثعالبي	٩١

المصادر والمراجع العربية

آصاف (يوسف بك): تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن. هولاندة ١٩١٩.

ابن الأثير ـ (عز الدين بن محمد الشيباني): الكامل في التاريخ. ٩ أجزاء بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ٥ مجلدات. مصر ١٢٨٠ هـ.

ابن إياس ـ (محمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور. ٣ أجزاء القاهرة ١٣١٢هـ.

والجزء الثالث والرابع والخامس، تحقيق محمد مصطفى. القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد): رحلة ابن بطوطة. دار صادر بيروت ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

ابن جمعة المقار ـ (محمد): الباشات والقضاة. نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه: ولاة دمشق في العهد العثماني ـ دمشق ١٩٤٩م.

ابن حجر العسقلاني ـ (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق. الطبعة الثانية ٤ أجزاء حيدر آباد ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠. ومنه طبعة ثانية بخمسة أجزاء القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م. تحقيق سيد جاد الحق.

ـ الإصابة في تمييز الصحابة. ٤ مجلدات مصر ١٣٥٨/ ١٩٣٩.

ابن حمادوش الجزائري (عبد الرزاق): لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعدالله. الجزائر ١٩٨٣.

ابن الحنبلي ـ (رضي الدين محمد بن إبراهيم): در الحبب في تاريخ أعيان حلب. تحقيق محمود فاخوري ويحيى عبارة. جزءان في أربعة مجلدات. دمشق ١٩٧٢-١٩٧٤م.

ابن خلدون ـ (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر. ٧ مجلدات. بيروت د.ت. المقدمة الجزء الأول.

ابن خلكان ـ (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. مجلدان. مصر ١٣١٠. وطبعة

دار صادر بيروت ١٩٦٨ بثمانية مجلدات. تحقيق د. إحسان عباس.

ابن شاشو - (عبد الرحمن بن محمد الذهبي): تراجم بعض أعيان دمشق من علمائها وأدبائها في القرن الحادي عشر الهجري - بيروت ١٨٨٦م.

ابن طولون - (محمد شمس الدين).

(آ) إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام. تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م. وتحقيق عبد العظيم حامد خطاب. عين شمس ١٩٧٣.

(ب) حارات دمشق القديمة. نشر حبيب الزيات في مجلة المشرق. السنة الخامسة والثلاثون سنة ١٩٣٧ (٣٣ - ٣٥).

(جـ) ضرب الحوطة على جميع قرى الغوطة. نشر أسعد طلس مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢١ سنة ١٩٤٦ (ص٣-٨). وعلق عليه الناشر في المجلد ٢٤٥/٢١. ونشره أيضاً حبيب الزيات في الخزانة الشرقية بمجلة المشرق. المجلد الثاني/٣٩.

(د) ضوء السراج فيما قيل في النساج. رسالة نشرتها وعلقت عليها ليلى الصباغ، في كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (٢٧ ذي الحجة ١٣٩٨-٣ محرم ١٣٩٩هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨-٣ كانون الأول ١٩٧٨) جزءان. دمشق ١٩٧٩: جـ١/٣٥-٩٢.

(هـ) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية - تحقيق محمد أحمد دهمان. جزءان - دمشق ١٣٦٨-١٣٧٥هـ/ ١٩٤٩-١٩٥٦م.

(و) المعزة فيما قيل في المزة. دمشق ١٩٤٨.

(ز) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى. جزءان القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٤.

ابن عبد الهادي (يوسف):

(آ) الإعانات في معرفة الخانات. نشر حبيب الزيات في مجلة المشرق. السنة السادسة والثلاثون. بيروت ١٩٣٨/٦٦-٧٠.

(ب) ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق أسعد طلس. بيروت ١٩٤٣م.

(جـ) عدة الملمات في تعداد الحمامات. نشر صلاح الدين المنجد في كتابه «خطط دمشق» بيروت ١٩٤٩.

(د) نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق. نشر حبيب الزيات. في الخزانة الشرقية بمجلة المشرق السنة السابعة والثلاثون سنة ١٩٣٩/١٨ - ٢٨.

ابن عساكر - (علي بن الحسن): تاريخ مدينة دمشق. المجلدتان الأولى والثانية تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥١، ١٩٥٤، والمجلدتان الثالثة والرابعة، تحقيق لجنة في المجمع العلمي العربي بدمشق تحت إشراف شكري فيصل.

ابن العماد الحنبلي (عبد الحي العكري): شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

ابن غلبون (أبو عبد الله محمد): تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان لها من الأخبار. نشر الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي القاهرة ١٣٥٤هـ.

ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في مسالك الأمصار تحقيق أحمد زكي باشا. الجزء الأول - القاهرة ١٣٤٢هـ.

- التعريف بالمصطلح الشريف مصر ١٣١٢هـ

ابن كثير (إسماعيل بن عمر أبو الفداء الدمشقي): البداية والنهاية في التاريخ ١٤ جزءاً. مكتبة المعارف. بيروت. د. ت.

ابن كنان (محمد بن عيسى):

(آ) الحوادث اليومية في تاريخ إحدى عشر وألف ومية. مخطوطة بجزئين في مكتبة برلين. أرقامها: 9479. We (II) 1114, 9480. we (II) 1115.

(ب) المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. مخطوطة في مكتبة برلين تحت الرقم 6088. we 1116. قام بتحقيقها حكمت إسماعيل في رسالة ماجستير قدمت إلى قسم التاريخ، كلية الآداب بجامعة دمشق. ١٩٨٢. تحت إشراف د. ليلى الصباغ (في طريق النشر).

ابن معصوم (صدر الدين علي الحسيني الحسني): سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر. القاهرة ١٣٢٤ هـ.

ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب - ١٥ مجلداً - بيروت دار صادر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

ابن يحيى (صالح): تاريخ بيروت مع ملحق ابن سباط. بيروت ١٩٢٧م.

أبو حاكمة (أحمد مصطفى): محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة. القاهرة ١٩٦٨م.

أبو الفدا الحموي (إسماعيل بن علي): تقويم البلدان باريس ١٨٥٠م.

إدارة المساحة العسكرية بمصر: الأطلس العربي - القاهرة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

الاربلي (الحسن بن أحمد): مدارس دمشق وحماماتها. تحقيق محمد أحمد دهمان. رسالة منشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢٢ سنة ١٩٤٧/٢٤١ - ٢٤٦

و٣٢٠ - ٣٣٣. وطبعت وحدها نشر مكتب الدراسات الإسلامية في دمشق.
الإسحاقي (محمد بن عبد المعطي): لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. مصر ١٣٠٤هـ.
الأنصاري (شرف الدين موسى):
(آ) ذيل قضاة دمشق حتى سنة ١٠٠٠ هـ. نشره صلاح الدين المنجد في كتابه «قضاة دمشق».
(ب) نزهة الخاطر وبهجة الناظر. مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم (عام ٧٨١٤).
أنيس (محمد أحمد): مدرسة التاريخ المصري في العهد العثماني نشر معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة ١٩٦٢.
باغ (أديب) وزملاؤه: جغرافية بلاد الشام. دمشق ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
بدران (عبد القادر): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. طبع تحت رعاية الأمير الكويتي. بيروت. د.ت.
البديري الحلاق (أحمد): حوادث دمشق اليومية بين سنتي ١١٥٤ - ١١٧٦هـ تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي وتحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٥٩م.
بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الاسلامية تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. ٥ أجزاء. بيروت ١٩٤٨ - ١٩٥٠.
البغدادي: (إسماعيل باشا).
(آ) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون الطبعة الثالثة جزءان طهران ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م (أوفست).
(ب) هدية العارفين . أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. الطبعة الثالثة جزءان. طهران ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م (أوفست).
البغدادي - (عبد المؤمن بن عبد الحق): مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع تحقيق علي محمد البجاوي ٣ أجزاء مصر ١٣٧٣-١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤-١٩٥٥م.
البكري الصديقي: (محمد بن أبي السرور): عيون الأخبار ونزهة الأبصار. مخطوطة في مجموعة برلين تحت الرقم MS 9473, We. 351 . ونسخة في دار الكتب المصرية (تاريخ ٧٢م).
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. مخطوطة في المكتبة الوطنية في الجزائر تحت الرقم ١٦٥١.

البكري الصديقي (محمد توفيق): بيت الصديق. مصر ١٣٢٣هـ.

البوريني (الحسن): تراجم الأعيان من أبناء الزمان جزءان تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥٩-١٩٦٦. وللكتاب بقية. وتراجع مخطوطة المكتبة الوطنية في فيينا . Cod Arab 1190 Mixt 346

بيهم (محمد جميل): فلسفة التاريخ العثماني. بيروت ١٩٢٥.

التهانوي (محمد أعلى بن علي): موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون ٦ أجزاء. بيروت ١٩٦٦م.

توتل (فرديناند): المنجد في الأدب والعلوم. ملحق بالمنجد في اللغة للويس معلوف. الطبعة الثامنة عشرة بيروت ١٩٦٥.

جامعة دمشق - كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام المنعقد في دمشق بين ٢٧ ذي الحجة ١٣٩٨-٣ محرم ١٣٩٩هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨-٣ كانون الأول ١٩٧٨، جزءان ١٩٧٩.

جب - هاملتون، وبوين هارولد: المجتمع الإسلامي والغرب. ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومراجعة عزت عبد الكريم. جزءان القاهرة ١٩٧١. وهما يمثلان القسم الأول من الكتاب. أما القسم الثاني فهو في طريق النشر.

الجبرتي (عبد الرحمن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٤ أجزاء بولاق ١٢٩٧هـ.

حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - الطبعة الثالثة جزءان - طهران ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

حسن (أحمد يوسف): تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية حلب ١٩٧٦.

الحسني (عبد الحي): الثقافة الإسلامية في الهند. راجعه وقدم له أبو الحسن علي الحسني الندوي الطبعة الثانية دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الحصني (محمد أديب آل تقي الدين): منتخبات التواريخ لدمشق. الطبعة الأولى - ٣ أجزاء دمشق ١٩٤٦هـ/١٩٢٧م تصوير حديث. بيروت د.ت في مجلد واحد.

الحمصي (نعيم): نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه - جزءان جامعة تشرين اللاذقية (سورية) ١٩٧٨ - ١٩٧٩م.

الحميري (عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار - تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٧٥.

الحموي (ياقوت بن عبد الله) معجم البلدان - ٥ أجزاء بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

الحنبلي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. الطبعة الثانية. جزءان النجف الأشرف ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
الحنبلي (أبو المواهب محمد): شيوخ أبي المواهب الحنبلي. مخطوط في الظاهرية بدمشق تحت الرقم (عام - ٣٦٧٢).
الخالدي الصفدي (أحمد): تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني - تحقيق أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني - بيروت ١٩٦٩.
الخفاجي (أحمد شهاب الدين):
(آ) خبايا الزوايا فيها في الرجال من البقايا - مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق - (رقم ٧١٠٩).
(ب) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا. تحقيق عبد الفتاح الحلو، جزءان، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.
خوجة (حسين): ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان. تحقيق الطاهر المعموري تونس ليبيا ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
الخياري (إبراهيم): تحفة الأدباء وسلوة الغرباء مخطوط في مكتبة برلين رقم 125 (II) we .6135 وقد نشر بثلاثة أجزاء بتحقيق رجاء محمود السامرائي بغداد ١٩٦٩ م - ١٩٨٠.
دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وأحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس. طبع منها خمسة عشر مجلداً - مصر ١٩٣٣-١٩٧٥.
دوزي (رينهارت): المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب. تعريب الدكتور أكرم فاضل. بغداد ١٩٧١م.
الدويهي: (أسطفان): تاريخ الأزمنة (١٠٩٥-١٦٩٩). نشره الأب فرديناند توتل - بيروت ١٩٥١.
رافق (عبد الكريم):
(آ) بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٩) - الطبعة الأولى - دمشق ١٩٦٧م.
(ب) العرب والعثمانيون. الطبعة الأولى دمشق ١٩٧٤م.
(جـ) وثائق محاكم دمشق الشرعية وأهميتها في كتابة تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني، سمنار جامعة عين شمس ١٩٧٧م.

الريان (خالد): فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ التاريخ وملحقاته ـ دمشق ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

الريحاوي (عبد القادر): (آ) مدينة دمشق ـ دمشق ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

(ب) ـ التكية السليمية. نشرة مديرية الآثار بدمشق عن الأبنية الأثرية دمشق. د.ت.

(ج) ـ التكية السليمانية. في مجلة الحوليات الأثرية الصادرة عن مديرية الآثار بدمشق. دمشق. المجلد السابع ١٩٥٧.

زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. ترجمة الدكتور زكي محمد حسن بك وزملائه جزءان مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١م.

الزركلي (خير الدين): الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ـ الطبعة الثالثة ٩ أجزاء وثلاثة ملاحق، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

زكريا (وصفي):

(آ) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دمشق ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

(ب) الريف السوري، محافظة دمشق، جزءان ـ دمشق ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧م.

زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية. ٤ أجزاء في مجلدين ـ بيروت ١٩٦٧.

السباعي (بدر الدين) : أضواء على قاموس الصناعات الشامية دمشق ١٩٧٧.

الزين (أحمد عارف): تاريخ صيدا. صيدا ١٩١٣.

السبكي (عبد الوهاب بن علي): طبقات الشافعية الكبرى. الطبعة الثانية ـ بيروت ـ د.ت.

السخاوي (علي بن أحمد): تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات. مصر ١٣٥٦هـ

السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءاً القاهرة ١٣٥٣ـ١٣٥٥هـ.

ـ السراج (محمد الأندلسي): الحلل السندسية في الأخبار التونسية الجزء الأول تحقيق ـ محمد الحبيب الهيلة. تونس ١٩٧٠.

ـ سعدالله (أبو القاسم):

(آ) ـ تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (١٦ ـ ٢٠م) جزءان. الجزائر ١٩٨١.

(ب) ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال. في مجلة الأصالة. الجزائر. العدد ٣٨. السنة الخامسة شوال ١٣٩٦هـ/ أكتوبر ١٩٧٦ (ص٢ ـ ٢٤).

السنهوتي: (ياسين بن ابراهيم): الأنوار القدسية في مناقب النقشبندية. مصر ١٣٤٤هـ

الشرقاوي (عبد الله): تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين. مطبوع على هامش « أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » للإسحاقي. مصر ١٣٠٤هـ.

الشرواني (أحمد بن محمد): حديقة الأفراح لإزالة الأتراح - مصر ١٣٠٢هـ.

الشطي (محمد جميل): مختصر طبقات الحنابلة - دمشق ١٩٣٩.

الشطي (شوكت): (آ) موجز تاريخ الطب عند العرب - دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

(ب) تاريخ الطب. السفر الرابع. دمشق ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

الشلبي (أحمد بن عبد الغني): أوضح الإشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم القاهرة ١٩٧٨م.

الشناوي (عبد العزيز محمد): الدولة العثمانية دولة مفترى عليها. جزءان القاهرة ١٩٨٠.

الشهابي (الأمير حيدر أحمد): الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان - ٣ أجزاء - مصر ١٩٠٠ - نشر نعوم مغبغب.

الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع. الطبعة الأولى جزءان القاهرة ١٣٤٨هـ.

الصابوني (أحمد) تاريخ حماة - حماة - ١٣٣٢هـ - الطبعة الثانية ١٩٥٦م.

الصباغ (ليلى):

(آ) بين «جامع الزيتونة وجامع بني أمية في دمشق». بحث قدم في ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس جامع الزيتونة. في ندوة عقدت في تونس بين ٢٥ محرم - ٢ صفر ١٤٠٠ هـ/ ديسمبر - ٢١ ديسمبر ١٩٧٩.

(آ مكرر) الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني، في القرنين السادس عشر والسابع عشر - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة ١٩٦٦ (لما تنشر بعد).

(ب) الجديد في العسكر الجديد، مجلة الفكر العسكري، العددان الثالث والرابع، السنة الرابعة - دمشق شوال ١٣٩٦هـ/ أيلول ١٩٧٦ (ص١٨٨ - ٢٠٦) وذو الحجة ١٣٩٦هـ/ كانون الأول ١٩٧٦ (ص ٧٣ - ٨٨).

(جـ) المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق ١٩٧٣م.

(د) الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها. رسالة ماجستير

جامعه القاهرة ١٩٦١ . نشر جزء منها في كتاب «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني» .

(هـ) فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ـ البنية الطبيعية والبشرية . بحث قدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام . المنعقد في جامعة عمان بين ٤ـ٩ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/١٩ـ٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

(و) الفعاليات الاقتصادية في فلسطين من أواخر العقد السابع وحتى منتصف الثامن من القرن الحادي عشر الهجري / من أواخر العقد السادس وحتى منتصف السابع من القرن السابع عشر الميلادي . من خلال مذكرات الفارس دارفيو . المجلة التاريخية المغربية ـ السنة العاشرة ـ العدد ٢٩ـ٣٠ تونس جويلية ١٩٨٣ ـ (٢٥٥ـ٣٢٢) .

(ز) نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني . مجلة (أوراق) الصادرة عن المعهد الإسباني العربي ـ مدريد العدد الثالث ١٩٨٠ (٤٩ ـ ٦٣) .

(ح) الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث . في المجلة التاريخية المغربية العددان السابع والثامن . تونس ـ جانفي (يناير) ١٩٧٧ .

(ط) وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، عن الصناعة النسيجية والنساج . تحقيق وتعليق على رسالة «ضوء السراج فيما قيل في النساج » للمؤرخ الدمشقي محمد بن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ هـ . في كتاب « المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام» المنعقد في دمشق بين ٢٧ ذي الحجة ١٣٩٨هـ ـ ٣ محرم ١٣٩٩هـ/٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ ـ ٣ كانون الأول ١٩٧٨م .

الصليبي (كمال) : تاريخ لبنان الحديث ـ بيروت ١٩٦٧ .

الصيادي (محمد عز الدين عربي كابتي) : كتاب الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية ـ دمشق ١٣٣٠هـ .

طاش كبري زاده (أحمد بن مصطفى) :

(آ) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ـ بيروت ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م .

(ب) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ الطبعة الأولى ـ ٣ أجزاء ـ حيدر آباد الدكن (الهند) ١٣٢٩ ـ ١٣٥٦هـ .

الطباخ (محمد راغب) : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ ٧ أجزاء حلب

١٣٤٢ ـ ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦م.

الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك. ٨ أجزاء. القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م.

طلس (أسعد): ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد. ملحق بثمار المقاصد لابن عبد الهادي ـ بيروت ١٩٤٣م.

العارف (عارف): تاريخ غزة. القدس ١٩٤٣.

العبد (حسن آغا): تاريخ حسن آغا العبد. قطعة من حوادث ١١٨٦ ـ ١٢٤١هـ/ في دمشق. نشره وعلق عليه يوسف جميل نعيسة دمشق ١٩٧٩م.

عبد الرحيم (عبد الرحيم عبد الرحمن):

(آ) القضاء في مصر العثمانية ـ بحث مستخرج من كتاب:

«بحوث في التاريخ الحديث» جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٧٦ م.

ب ـ مقدمة كتاب أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، لعبد الغني الشلبي القاهرة ١٩٧٨.

جـ ـ الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ ـ ١٢٣٣ هـ/١٧٤٥ ـ ١٨١٨. القاهرة ١٩٧٩.

عبد الكريم (أحمد عزت): مقدمة حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق. القاهرة ١٩٥٩

عبد اللطيف (ليلى):

(آ) الإدارة في مصر العثمانية ـ جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٨ م.

(ب) ابن أبي السرور البكري. عصره ومؤلفاته في كتاب «بحوث في التاريخ الحديث» ـ جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٦.

العبيدي المالكي (إبراهيم): قلائد العقيان في مفاخر آل عثمان ـ مصر ١٣١٧ هـ.

العدوي (محمود):الزيارات ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥٦.

العزاوي (عباس):

(آ) تاريخ العراق بين احتلالين ـ ٨ أجزاء ـ بغداد ١٣٥٣ـ١٣٧٦هـ/ ١٩٣٥ـ١٩٥٦م.

(ب) تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهد العثماني ٩٤١ـ١٣٣٥هـ/١٥٣٤ـ١٩١٧م. في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢٨ ـ عام ١٩٥٣ (٧٩، ٢٥٧، ٤٢١) والمجلد ٢٩ عام ١٩٥٤ (٨٩، ٢١٩، ٢٣٨، ٥٥٣) وما يلي كل صفحة.

العش (يوسف): فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية. التاريخ وملحقاته دمشق ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
العطار (نادر): تاريخ سوريه في العصور الحديثة (١٥١٦ - ١٩٠٨) - دمشق - د.ت.
العفيفي (أبو العلا): الملامتية والصوفية وأهل الفتوة. القاهرة ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ م.
العلاف (أحمد حلمي): دمشق في مطلع القرن العشرين. نشر علي جميل نعيسة. دمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
العلموي (عبد الباسط): مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس. تحقيق صلاح الدين المنجد - دمشق ١٣٢٦هـ/١٩٤٧م.
عيسى بك (أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام - دمشق ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م.
غرايبة (عبد الكريم): مقدمة تاريخ العرب الحديث - دمشق ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.
الغزي (كامل): نهر الذهب في تاريخ حلب - ٣ أجزاء - حلب ١٣٤١-١٣٤٥هـ/ ١٩٢٢-١٩٢٦م.
الغزي (نجم الدين):
(آ) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - ٣ أجزاء - نشر جبرائيل جبور - بيروت ١٩٤٥ - ١٩٥٩.
(ب) لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر. تحقيق محمود الشيخ - جزءان - دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢.
الغزي (كمال الدين محمد بن محمد): الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمه العارف عبد الغني النابلسي مخطوطة (خاصة بمحمد رياض المالح) - دمشق.
فريد (محمد): تاريخ الدولة العلية العثمانية - مصر ١٨٩٦ .
الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز): مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا - دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم الكريم - الرباط د.ت.
القاري (رسلان): الوزراء الذين حكموا دمشق - في كتاب «ولاة دمشق في العهد العثماني» نشر صلاح الدين المنجد - دمشق ١٩٤٩.
القاسمي (محمد سعيد): قاموس الصناعات الشامية - جزءان - الجزء الأول دونه محمد سعيد القاسمي، والثاني جمال الدين القاسمي بالاشتراك مع خليل العظم - ونشر الجزئين ظافر القاسمي - باريس - لاهاي ١٩٦٠.
القرماني (أحمد يوسف): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ - بغداد ١٢٨٢هـ.

القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الأنشا ـ ١٥ جزءاً ـ بيروت (أوفست. دون تاريخ).
القساطلي (نعمان): الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ـ بيروت ١٨٧٩.
القنوجي البخاري (صديق بن حسن): أبجد العلوم ـ ٣ أجزاء ـ بهوبال (الهند) ١٢٩٥هـ .
القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة (إدارة المساحة العسكرية): جدول المسافات للقطر العربي السوري دمشق ١٩٧٩ .
كاهن (كلود): تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. المجلد الأول ـ تعريب بدر الدين قاسم. بيروت ١٩٧٢ .
كبريت (محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي): رحلة الشتاء والصيف. تحقيق محمد سعيد طنطاوي بيروت ١٣٨٥ هـ.
كحالة (عمر رضا):
(آ) معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية) ـ ١٥ جزءاً دمشق ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
(ب) أعلام النساء. ٣ مجلدات ـ دمشق ١٣٥٩ هـ.
كرد علي (محمد):
(آ) خطط الشام ٦ مجلدات ـ دمشق ١٣٨٩ ـ ١٣٩٢هـ/١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م.
(ب) غوطة دمشق ـ دمشق ١٩٥٢.
كيال (منير): الحمامات الدمشقية وتقاليدها دمشق ١٩٦٦ .
لبيب (حسين): تاريخ الأتراك العثمانيين ـ ٣ أجزاء مصر ١٩١٧.
مبارك (علي): الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ـ ٢٠ جزءاً ـ القاهرة ١٣٠٦هـ .
منق (علي بن بالي): العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ـ ذيل على الشقائق النعمانية لطاش كبري زادة ـ ومطبوع في آخره ـ بيروت ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م.
المحبي (محمد الأمين):
(آ) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٩م. نسخة مصورة عنها ـ دار خياط ـ بيروت ـ د.ت.
(ب) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ـ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ـ ٥ أجزاء ـ القاهرة ١٣٨٧ـ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٧ـ ١٩٦٩م.
(د) ذيل نفحة الريحانة ـ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ـ ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

مختار (محمد): كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية. دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمد عمارة. جزءان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

المرادي (محمد خليل):
(آ) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٢٩٥-١٣٠٦هـ/ ١٨٧٤-١٨٨٣م. صوّر في بغداد مكتبة المثنى ١٩٦٦.
(ب) عرف البشام ممن ولي فتوى دمشق الشام ـ دمشق ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ـ تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد. وأتبع به ذيلان حتى ١٣٩٩هـ. أولهما من زيادات ألحقت من كتاب القرماني «تاريخ الدول وآثار الأول»، والثاني من صنع محمد مطيع الحافظ المحقق.
(د) مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ـ مخطوط في المتحف البريطاني رقم Or 4050.

مرزوق (محمد عبد العزيز): الفنون الزخرفية في العصر العثماني ـ القاهرة ١٩٧٤.

المعلوف (عيسى اسكندر): تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٦٦م.

معلوف (لويس): المنجد في اللغة، الطبعة الثامنة عشرة ـ بيروت ١٩٦٥.

المعموري (الطاهر): مقدمة كتاب ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان. تونس ليبيا. ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

المقريزي (أحمد بن علي):
(آ) إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ نشر محمد مصطفى زيادة والشيال ـ القاهرة ١٩٢٣-١٩٢٤.
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٣٤-١٩٧١.
(د) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٦٧-١٩٦٨.

المكتب المركزي للإحصاء: التقسيمات الإدارية في الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ١٩٦٨م.

المكي (عبد الملك العصامي): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

المنجد (صلاح الدين):

(آ) أبنية دمشق الأثرية المسجلة ـ في مجلة المشرق ـ بيروت السنة الثانية والأربعون. سنة ١٩٤٨ ـ المجلد الثاني ثم نشرت بشكل مستقل من قبل المجلة سنة ١٩٤٩م.

(ب) خطط دمشق نشرت تباعاً في مجلة المشرق ـ بيروت ١٩٤٨، ثم نشرت بشكل مستقل من قبل المجلة سنة ١٩٤٩م.

(جـ) دمشق القديمة (أبوابها، أسوارها، أبراجها) ـ دمشق ١٩٤٥.

(د) مسجد دمشق ـ دمشق ١٩٤٨.

(هـ) معجم المؤرخين الدمشقيين ـ بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(و) المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ـ بيروت، ١٩٦٤.

(ز) ولاة دمشق في العهد العثماني. دمشق ١٩٤٩.

موسى باشا (عمر): محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ـ دمشق ١٩٧٩ـ١٩٨٠.

الموسوعة العربية الميسرة: تحت إشراف شفيق غربال ـ القاهرة ١٩٦٥.

النابلسي (عبد الغني):

(آ) العلم والفلاحة ـ دمشق ١٢٩٩هـ.

(ب) الصلح بين الأخوان في حكم إباحة الدخان ـ نشر محمد دهمان دمشق ١٣٤٢هـ.

(د) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ـ مخطوطة في الظاهرية تحت الرقم ٣٢٢٦.

الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ٤ أجزاء الدار البيضاء ١٩٥٥.

النعيمي (عبد القادر):

(آ) الدارس في تاريخ المدارس ـ تحقيق جعفر الحسني ـ جزءان ـ دمشق ١٣٦٧ ـ ١٩٧٠هـ/ ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م.

النهروالي (قطب الدين محمد): البرق اليماني في الفتح العثماني ـ تحقيق حمد الجاسر ـ الطبعة الأولى الرياض ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

هانتس (فالتر): المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري. تعريب الدكتور كامل العسلي الجامعة الأردنية. عمان. د.ت.

الهيلة (محمد الحبيب): مقدمة كتاب ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية لمحمد الأندلسي الشهير بالسراج. الجزء الأول بأربعة مجلدات. تونس ١٩٧٠.

الورثلاني (الحسين بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورثلانية بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

اليمني (محمد بن محمد): التابع للبدر الطالع، ملحق بكتاب البدر الطالع للشوكاني ـ القاهرة ١٣٤٨هـ.

المستدرك من المصادر والمراجع

- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): تهذيب التهذيب ١٢ جزءاً.حيدر آباد ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.
- ابن الجوزي (أبو الفرج): صفوة الصفوة. جزءان.حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ـ ١٨٦٢ م.
- ابن سعد (محمد) الطبقات الكبرى. ٨ مجلدات.ليدن ١٣٢١ هـ.
- ابن طولون (محمد بن علي): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان.تحقيق محمد مصطفى.جزءان: القاهرة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢م.
- ابن كنان (محمد): المروج السندسية في تاريخ الصالحية.تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م.
- ابن معروف (تقي الدين): الطرق السنية في الآلات الروحانية.تحقيق وتقديم أحمد يوسف حسن. نشر تحت عنوان «تقي الدين والهندسة الميكانيكية». حلب ١٩٧٦.
- الإربلي (محمد الأمين الكردي): الهداية الخيرية في الطريقة النقشبندية: مطبعة الحبانية ١٣١٦ هـ.
- الإفراني (محمد الصغير): صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر: مطبوع على الحجر في المغرب. د. م. د. ت.
- أمين (أحمد): زعماء الإصلاح في العصر الحديث: مصر ١٩٤٨.
- الباخرزي (علي بن حسن): دمية القصر وعصرة أهل العصر،٣ أجزاء. تحقيق الدكتور محمد ألتونجي. دمشق: ١٩٧١/ ١٣٩١ هـ.
- البدري (عبد الله): نزهة الأنام في محاسن الشام. القاهرة ١٣٤١ هـ.
- البصري (عبد الله بن سالم): الامداد بمعرفة الاسناد. حيدر آباد: ١٣٢٨ هـ.
- البغدادي (عبد القادر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. ٤ أجزاء. مصر ١٢٩٩ هـ.
- البكري (محمد توفيق): بيت الصدّيق. القاهرة ١٣٢٣ هـ.
- جامعة الرياض: مجلة كلية الاداب. مجلد ٦،١٩٧٩.
- جامعة عين شمس: بحوث في التاريخ الحديث. القاهرة ١٩٧٥.
- الجرجاني (علي): التعريفات.
- حاطوم (نور الدين). عاقل (نبيه) طربين (أحمد) المدني (صلاح): المدخل إلى التاريخ: دمشق. ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥.
- حسن (علي إبراهيم): مصر في العصور الوسطى. القاهرة ١٣٤٧.
- حقي (إحسان): تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية. بيروت ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.
- الحكومة العثمانية: سالنامة ولاية حلب. تقويم ١٣٢٤ هـ.
- حمادوش (عبد الرزاق): لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. تحقيق د. أبو القاسم سعد الله. الجزائر. ١٩٨٣.

ـ الحموي (ياقوت): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ٧ أجزاء مصر ١٩٠٧ ـ ١٩٢٥.
ـ الخاني (عبد المجيد): الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية. مصر ١٣٠٨ هـ.
ـ الخوانساري (محمد باقر): روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. ٤ أجزاء في مجلد واحد. ١٣٠٧ هـ.
ـ دهمان (محمد أحمد): دمشق في عهد المماليك. دمشق: ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م.
ـ الرشيد (ناصر بن سعد): بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة. في كتاب دراسات مصادر تاريخ الجزيرة العربية. الرياض: ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٧م.
ـ السمعاني (عبد الكريم): الأنساب المحقق ١٠ أجزاء. بيروت: ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.
ـ السيوطي (جلال الدين): الجامع الصغير من حديث البشير النذير. حققه محمد محيي الدين/ابن عبد الحميد. جزءان.القاهرة: ١٣٥٢ هـ.
ـ الشعراني (عبد الوهاب): الطبقات الكبرى لواقح الأنوار في طبقات الأخيار جزءان القاهرة. د. ت.
ـ طربين (أحمد): انظر (حاطوم).
ـ عاقل (نبيه): انظر (حاطوم).
ـ العرشي (حسين أحمد): بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام. مصر: ١٩٣٩.
ـ عطية الله (محمد): القاموس الإسلامي: جزءان.القاهرة: ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م.
ـ عمران (خضر أحمد): ريف حلب في النصف الأول من القرن الحادي عشر، من وثائق المحاكم الشرعية. رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة دمشق عام ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢. تحت إشراف د. ليلى الصباغ.
ـ الغزي (محمد كمال الدين): المور الأنسي والوارد القدسي. مخطوط منه نسخة لدى أديب النابلسي من ٢٩٦ ورقة.
ـ الفيروز آبادي (محمد): القاموس المحيط ٤ أجزاء. مصر ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.
ـ الكتاني (محمد عبد الحي): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات مجلدان. فاس: ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ هـ.
ـ الكوراني (إبراهيم): الأمم لإيقاظ الهمم (مطبوع مع مجموعة من كتب في مجلد واحد). حيدر آباد: ١٣٢٨ هـ.
ـ اللكنوي (محمد بن عبد الحي): الفوائد البهية في تراجم الحنفية، مصر: ١٣٢٤هـ.
ـ مجموعة من الأستاذة منهم (مصطفى الحاج إبراهيم ونيقولا زيادة): أطلس العالم. بيروت: د. ت.
ـ المدني (صلاح): انظر (حاطوم).
ـ محمدين (محمد محمود): تساؤلات حول قضية إرشاد ابن ماجد لفاسكو دوغاما إلى طريق الهند في مجلة كلية الآداب ـ جامعة الرياض: مجلد ٦ ١٩٧٩.
ـ المقرّي (أحمد): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ٤ مجلدات. القاهرة: ١٣٠٢ هـ.
ـ الموسوي (العباس): نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس. مجلدان. مصر: ١٢٩٣ هـ.
ـ النخلي (أحمد): مشيخة. مخطوط في الظاهرية تحت الرقم ٦٩٣٨.
اليعقوبي (أحمد): تاريخ ـ ٣ أجزاء النجف: ١٣٥٨ هـ.

المراجع الأجنبية

Abdul-Fattah (Kamal) and **Hutteroth** (V), Historical Geogrphy of Palestine in the late 16th century. **Erlangen 1977.**

Arvieux (Laurent d') : Mémories du Chevalier d'Arvieux 6 vol. Paris 1735

Avmi Ali: Kavaninali Osman, Traduit en français par M. Bélin sous le titre "du Régime des fiefs militaires" J.A. XV - 1870. PP. 187-301.

Barbir (K.K) : Ottoman Rule in Damascus. 1708—1758.

Beazly (G. Raymand), Voyages and Travels, mainly during the 16th and 17th centuries, 2 vols F.R.G.S. **Westminster** 1903.

Belon de Mans (Pierre) les observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Inde, Egypte, Arabie et autres Pays étrangers. Paris 1555

Charkoudien (leon) The Damascus of Muhammad Muhibbi Ph.D.(dactylographié). Harvard 1968.

Creasy (E) : A History of the Ottoman Turks, reprinted by Khayats, Beirut 1960

Dozy (R): Suplément aux dictionnaires arabes. 2vol. Beyrouth 1968.

Ecochart (M) et Le Cœur: Les bains de Damas, Beyrouth 1942

Encyclopédie de L'Islam: 1ère éditioi, 4 vol, et supplement. Leide 1913—1938. – 2ème édition. Jusqu'à la lettre (L). Leide 1954 – 1984.

Gibb (H.A.R) and **Bowen** (H): Islamic Society and the west. vol I. in 2 parts. London 1951—1957

Grand Larousse Encyclopédique 12 vol Paris 1965—1975

Haklyut(R): The Principle Navigations voyages and Traffiques and Discoveries of the English Nation by sea or overland, to the Remote. and Farthest Distant Quarters of the earth at any time within the compass of these 1600 years – London S. D. T. III.

Heyd (uriel) : Ottoman Documents on Palestine Oxford 1960

Inalcik (H): The Ottoman Empire, the Classical Age 1300-1600 translated by Norman Itz Kowitz and Collin Imber, London 1973.

Kissling (H. J.): the Ottoman Empire to 1771 leiden 1969.

Leclere (L): Histoire de la medicine arabe 2 vol. New York 1876

Le Strange (Guy): Palestine under the Moslems, Beirut Kayats 1965

Sauvaget (J): Alep, essai sur le développement D'une grande ville Syrienne. Paris 1941

— La Mosquée Omeyyade de Médine Paris 1947.

Langer and Blake: The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background. in American Historical Review XXXVII, 1941

Pascual (Jean Paul): Damas à la fin du XVIe siècle, Damas 1983

Mantran (R): Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle. Paris 1962.

Nasr (seyyed Hossein):, Islamic Science. ، an illustrated Study London 1976

Wittek (P): The Rise of the Ottoman Empire. London 1938.

Wustenfeld (F): Gelehrten-Family Muhibbi in Damascus und ihre zietgenossen im XI (XVII) Jahrkunder Gottingen 1884.

المستدرك من المراجع الأجنبية

- Abdesselem (Ahmed), Les historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe, et XIXe siècles. Tunis 1973.
- BROCKELMANN (CARL)
  a) Geschichte Der Arabischen Litteratur, Erster Band, 2 vol, Leiden 1943.
  b) Geschichte Der Arabischen Litteratur, Erster Supplement band, 3 vol, Leiden 1937 - 1942.
- Burckhardt (J. L), travels in Syria and the Holy Land. London 1822.
- Rafeq (Abdul-Karim), Ibn Abi'l - Surur and his works. Reprinted from the Bulletin of Oriental and African Studies University of London. Vol XXXVIII. Part I. 1975.
- Roolvink (R) with the Collaboration of some arab Professors; Historical Atlas of the Muslim Peoples Djambatan – Amsterdam S. D.
- Mantran (R), Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle. Paris 1962.
- The Cambridge History of Islam - edited by: M. Holt, Ann K.S. Lambton, Bernard Lewis 2 vol. Cambridge University Press, 1970.

الفهرس العام

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

مطبعة خالد بن الوليد
عدد النسخ ٥٠٠

